@ketab_n
Follow Me
30.3.2016

إليزابيث جلبرت

تَوْقيعهُ على الأشياء كلّها

مؤلفة
طعام.. صلاة.. حُب

ترجمة
أسامة إسبر

روايـة

للثقافة والنشر والإعلام

إليزابيث جلبرت

تَوْقيعهُ على الأشياء كلّها

رواية

ترجمة
أسامة إسبر

للثقافة والنشر والإعلام

Twitter: @ketab_n

إليزابيث جلبرت: تَوْقيعهُ على الأشياء كلّها

Twitter: @ketab_n

Book: Tawqiaho Ala Al-Ashya Kolleha

الكتاب: تَوْقيعةُ على الأشياء كلّها

ترجمة: أسامة إسبر

تأليف: إليزابيث جلبرت

Elizabeth Gilbert

First Edition: 2016

الطبعة الأولى ٢٠١٦

All rights reserved

حقوق الطبع باللغة العربية محفوظة لمنشورات الجمل ©

النشر تم باتفاق خاص

Elizabeth Gilbert: The Signature of all Things, roman

© 2013 Elizabeth Gilbert

للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

All rights reserved. Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, maynot be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

Twitter: @ketab_n

لا نعرف ما الحياة،
لكننا نعرفُ جيداً ما تفعله.

اللورد بيرسيفال

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

انزلقت ألما ويتاكر، المولودة مع القرن، إلى عالمنا في الخامس من كانون الثاني/ يناير، سنة ١٨٠٠.

بدأت الآراء تتشكل عنها بسرعة، وتقريباً على الفور.

شعرتْ والدة ألما، حين رأت الطفلة للمرة الأولى، بأنها راضية تماماً عن المحصّلة. فقد عانت بياتريكس ويتاكر من حظ سيء حتى الآن في إنجاب وريث. وتلاشت محاولاتها الثلاث الأولى في الحمل في جداول صغيرة محزنة قبل أن يقفز الأطفال إلى الحياة. أما محاولتها الأحدث، والتي هي طفل تام الخلقة، فقد فشلت لأن الطفل وصل تماماً إلى حافة الحياة لكنه غيّر رأيه حول المسألة في الصباح نفسه الذي كان يجب أن يولد فيه، ووصل ميتاً. بعد خسارات كهذه سيكون أي طفل يظل على قيد الحياة مقبولاً.

وهي تحمل طفلتها السليمة، تمتمتْ بياتريكس صلاةً بلغتها الهولندية الأصلية. صلّتْ طالبة أن تكبر ابنتها وتتمتّع بالصحة والعقل والذكاء، وألا تجمعها صلات أبداً بفتيات يُفْرطن في وضع البودرة، أو تُضحكهنّ القصص السوقية، أو يَجْلسن إلى طاولات القمار مع رجال مُهْملين، أو يقرأْنَ روايات فرنسية، أو يتصرّفْنَ بطريقة لا تلائم إلا هندياً أحمر متوحشاً، وأن لا تصبح بأية طريقة من أي نوع المصدر الأسوأ

Twitter: @ketab_n

لتشويه عائلة جيدة؛ أي ألا تصبح حمقاء. هكذا أتمت دعاءها ومباركتها، أو ما يشكّل دعاء ومباركة من امرأة متزمتة مثل بياتريكس ويتاكر.

كان رأي القابلة القانونية، وهي امرأة محلية وُلدتْ في ألمانيا، أن هذه ولادة لائقة في منزل لائق، وبالتالي إن ألما ويتاكر فتاة لائقة. كانت غرفة النوم دافئة، والحساء والبيرة يُقدَّمان مجاناً، والأم راسخة الإيمان، كما سيتوقع المرء من الهولنديين. فضلاً عن ذلك، كانت القابلة تعرف أنه سيُدفع لها بسخاء. فالطفل الذي يتسبّب بمجيء النقود طفل مقبول. بالتالي، قدمت القابلة الدعاء والمباركة لألما أيضاً، ولو دون عاطفة مفرطة.

كانت هانيكي دي غروت، رئيسة الخدم في المنزل، أقل تأثراً. فالطفل لم يكن ذكراً ولم يكن جميلاً. وجهه كإناء من الثريد، وشاحب كأرضية مدهونة. وكمثل جميع الأطفال سيتسبب بالعمل. وكمثل جميع الأعمال، سيقع العمل على عاتقها. لكنها باركت الطفلة بأية حال، لأن مباركة طفل جديد مسؤولية، وكانت هانيكي دي غروت تتولى مسؤولياتها. دفعت هانيكي للقابلة وغيرت أغطية السرير. وساعدتْها في جهودها خادمة شابة مهملة، وهي فتاة ريفية ثرثارة عُيِّنَتْ حديثاً في المنزل، كانت أكثر اهتماماً بالنظر إلى الطفلة من ترتيب غرفة النوم. لا يستحق اسم الخادمة الذّكر هنا، لأن هانيكي دي غروت طردت الفتاة في اليوم التالي على أساس أنها بلا فائدة، وصرفتها دون أية رسائل توصية. مع ذلك، في تلك الليلة، ركزت الخادمة التي بلا فائدة والمحكوم عليها بسوء الحظ انتباهها على الطفلة الجديدة، وتاقت هي نفسها إلى طفل، ومنحت مباركة عذبة وصادقة للصغيرة ألما.

كان هناك ديك يانسي، وهو رجل طويل ومخيف من يوركشير،

Twitter: @ketab_n

يعمل لدى سيد المنزل ويتولى بقبضة حديدية جميع أعماله التجارية الدولية (وصادف أنه كان يمكث في العزبة في كانون الثاني/ يناير ذاك، منتظراً ذوبان الجليد في مرافئ فيلادلفيا كي يستطيع الإبحار إلى جزائر الهند الغربية الهولندية). لم يمتلك يانسي سوى كلمات قليلة كي يقولها عن الرضيعة الجديدة. وللإنصاف، لم يكن ميالاً كثيراً إلى المحادثة المفرطة في أية ظروف. فحين أخبروه أن السيدة ويتاكر أنجبت طفلة صحيحة الجسم، قطّب السيد يانسي فقط وقال باقتصاد مميّز في الكلام: «إن الحياة تجارة صعبة». هل كانت تلك مباركة؟ من الصعب التأكد. لنتجنّب فائدة الشك ونعدّها واحدة. أكيد أنه لم يقصدها كلعنة.

أما والد ألما ـ هنري ويتاكر، سيد العزبة ـ فقد أفرحته ولادة الطفلة. كان الأكثر سروراً. ولم يهمه أن الوليد ليس ذكراً، أو أنه ليس جميلاً. لم يقدم المباركة لألما، ولكن السبب هو أنه ليس من النمط الذي يقدم الدعاء والمباركة. («إن عمل الله ليس شغلي»، كان يقول في غالب الأحيان). وقد أُعجب هنري بطفلته دون أي تحفّظ. ذلك أنه هو من صنع طفلته، وكان هنري ويتاكر ميّالاً في الحياة إلى الإعجاب دون تحفظ بكل ما صنعه.

احتفالاً بهذه المناسبة، قطف هنري ثمرة أناناس من بيته البلاستيكي الأكبر وقَسَمها في حصص متساوية بين كل من في المنزل. كان الثلج يتساقط في الخارج، وكان شتاء بنسلفانيا قاسياً كالعادة، لكن الرجل يملك عدة بيوت بلاستيكية مدفأة بالفحم من تصميمه، وهي بيوت لم تجعل جميع خبراء وعلماء النبات في الأميركيتين يحسدونه فقط، بل جعلته غنياً بشكل فاحش أيضاً، وإذا أراد ثمرة أناناس في كانون الثاني/ يناير، فإنه قسماً بالله يستطيع الحصول عليها في كانون الثاني. ويستطيع الحصول على الكرز في آذار/ مارس أيضاً.

Twitter: @ketab_n

ثم ذهب إلى مكتبه وفتح دفتر حساباته، حيث سجل، كما يفعل كل ليلة، جميع أنواع صفقات العزبة، الرسمية والشخصية. بدأ: «انضم إلينا مسافر نبيل جديد وممتع»، وواصل كتابة التفاصيل، والتوقيت، ومصاريف ولادة ألما ويتاكر. كان خطه رديئاً وصعب القراءة بشكل مخجل. وكانت كل جملة قرية مزدحمة من الأحرف الكبيرة والأحرف الصغيرة، التي تعيش إلى جانب بعضها في بؤس شديد، وتزحف فوق بعضها كما لو أنها تحاول الهرب من الصفحة. كانت تهجيته تتجاوز الاعتباطية بعدة درجات، وعلامات ترقيمه تجعل العقل يزفر من التعاسة.

لكن هنري دوّن حساباته، رغم ذلك. كان من المهم بالنسبة إليه الحفاظ على مسار الأمور. وبينما كان يعرف أن هذه الصفحات ستبدو مرعبة لأي شخص متعلم، كان يعرف أيضاً أنه لا أحد سيرى كتابته إلا زوجته. فحين تستعيد بياتريكس عافيتها ستنسخ ملاحظاته في دفتر حساباتها، كما تفعل دوماً، وستصبح ترجمتها لخربشات هنري المكتوبة وتدوينها بخط جميل، السجل الرسمي للمنزل. كانت بياتريكس شريكة أيامه وقيمتها كبيرة في ذلك. وستنجز له هذه المهمة، بالإضافة إلى مائة مهمة أخرى.

إن شاء الله، ستعود إليها بعد وقت قصير.

كانت الأعمال الورقية قد بدأت بالتراكم.

الجزء الأول

شجرة علاج الحمى

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

كانت ألما ويتاكر في السنوات الخمس الأولى من حياتها مجرد مسافرة في هذه الدنيا ـ كما كنا جميعاً في ذلك العمر المبكر ـ وهكذا فإن قصتها لم تكن قد صارت نبيلة، ولم تكن مهمة على نحو خاص، باستثناء حقيقة أن هذه الطفلة الدميمة أمضت أيامها دون مرض أو حوادث، محاطة بثروة كبيرة لم يكن يملكها أحد تقريباً في أميركا في ذلك الوقت، حتى في فيلادلفيا الجميلة. أما كيفية امتلاك والدها لثروة كبيرة كهذه فقصة تستحق أن تُروى هنا، ونحن ننتظر الطفلة كي تكبر وتلفت انتباهنا ثانية. إذ لم يكن من الشائع في ١٨٠٠، كما هو الحال دوماً، بالنسبة لشخص وُلد فقيراً وأمياً تقريباً، أن يصبح من أغنى سكان مدينته، وهكذا فإن الوسائل التي ازدهر هنري ويتاكر من خلالها مثيرة فعلاً رغم أنها ربما ليست نبيلة، كما اعترف هو نفسه.

وُلد هنري ويتاكر في ١٧٦٠ في قرية ريتشموند، التي تقع على نهر التيمز في لندن. كان الابن الأصغر لوالدين فقيرين أنجبا الكثير من الأطفال. وترعرع في غرفتين صغيرتين بأرضية من التربة المضغوطة، وبسقف ملائم تقريباً، وبوجبة تُطهى على الموقد كل يوم، مع أم لا تشرب الكحول وأب لا يضرب أبناءه، بالمقارنة مع عائلات كثيرة في ذلك الوقت. بتعبير آخر، كان وجوداً متميزاً نوعاً ما. وكان لدى أمه قطعة أرض صغيرة وراء المنزل تزرع فيها نبات العايق والترمس، بشكل

Twitter: @ketab_n

تزييني، كسيدة. لكن العايق أو الترمس لم يخدعا هنري، فقد كبر وهو ينام على بعد حائط واحد من الخنازير، ولم تمر لحظة واحدة في حياته لم يذلّه فيها الفقر.

لو لم ير الثروة حوله ويقارن معها ظروفه السيئة وفقره لربما شعر هنري بإساءة أقل من مصيره، لكن الفتى نشأ وهو يشاهد لا الثروة فحسب، بل الملكية أيضاً. فقد كان في ريتشموند قصر، وفيه حدائق متعة، أيضاً، تدعى كيو، تحرثها بخبرة الأميرة أوغوستا، التي أحضرت معها من ألمانيا حاشية من الحدائقيين المتلهفين لصناعة مشهد مصطنع وملكي من المراعي الإنكليزية الحقيقية والمتواضعة. وأمضى ولدها، الملك المستقبلي جورج الثالث، فصول صيف طفولته هناك. وحين أصبح ملكاً، سعى جورج إلى تحويل كيو إلى حديقة نباتية تضاهي أية حديقة منافسة في القارة. وكان الإنكليز في جزيرتهم الباردة والرطبة والمعزولة متأخرين جداً خلف بقية أوربا في دراسة النباتات، وكان جورج الثالث متلهفاً للحاق بها.

عمل والد هنري بستانياً في كيو، وكان رجلاً متواضعاً، يحترمه أسياده، كما يمكن أن يحترم أي شخص بستانياً متواضعاً. وكان السيد ويتاكر يملك موهبة في جعل الأشجار مثمرة، ويكنّ احتراماً لها (كان يقول: «إنها تدفع للأرض من أجل مشاكلها، على عكس الآخرين كلهم»). أنقذ مرة شجرة تفاح الملك المفضلة عن طريق التطعيم أو ما يدعى التركيب البسيط السوطي وذلك بتطعيم برْية من العيّنة المريضة مع برية أكثر ثباتاً وتثبيتها بشكل آمن. أثمر الطعم الجديد للشجرة في العام نفسه، وفي الحال أنتجت مكاييل. ومن أجل هذه المعجزة سمى الملك السيد ويتاكر «ساحر التفاح».

كان ساحر التفاح، بكل مواهبه، رجلاً بسيطاً، ولديه زوجة جبانة،

Twitter: @ketab_n

لكنهما أنجبا نوعاً ما ستة أولاد عنيفين وفظين (بينهم فتى يدعى «رعب ريتشموند»، واثنان آخران قُتلا في شجار في بار). وكان هنري، الأصغر بينهم، هو الأشد فظاظة منهم جميعاً بطرق ما، وربما احتاج إلى أن يكون هكذا، كي يعيش بعد موت أخوته. كان كلباً سلوقياً عنيداً وقوياً، ومبتكراً نحيلاً وانفجارياً، تلقى ضربات أخوته بلامبالاة، واختبر عدم خوفه باستمرار من قبل أشخاص أحبوا أن يتحدوه للقيام بالمجازفات. وبصرف النظر عن أخوته، كان هنري مجرّباً خطيراً، مُشْعِل نيران غير مشروعة، ومزعجاً لربات المنازل بجريه فوق الأسطحة، ويشكل تهديداً للأطفال الأصغر؛ كان فتى لن يُفاجأ المرء إذا عرف أنه سقط من برج كنيسة أو غرق في نهر التيمز، ولو أنه بفعل المصادفة المحضة لم تحدث هذه السيناريوهات أبداً.

كان هنري، على عكس أخوته موهوباً. وكي نكون دقيقين، كان يمتلك صفتين: كان ذكياً، ومهتماً بالأشجار. وسيكون من قبيل المبالغة الزعم بأن هنري وقّر الأشجار، كما فعل والده، لكنه اهتمّ بالأشجار لأنها من الأشياء القليلة في عالمه البائس التي يمكن تعلّمها بسهولة، وكانت التجربة قد علمت هنري سابقاً أن تعلّم الأشياء يجعل المرء مميّزاً بين الناس. وإذا أراد المرء أن يواصل الحياة (وكان هنري يريد ذلك)، وإذا كان يرغب بالازدهار في النهاية (وكان هنري يتوق إلى ذلك) فإن كل ما يمكن تعلّمه يجب أن يتم تعلمه. كانت اللاتينية وفن الخط والرماية وركوب الخيل والرقص خارج نطاق هنري. لكنه كان يمتلك الأشجار، ولديه والده، ساحر التفاح، الذي تحمل الإزعاج بصبر كي يعلّمه.

وهكذا تعلم هنري كل ما يتعلق بأدوات المطعّم من الطين والشمع والسكاكين والبراعة في التطعيم، والتغطية من أجل الحماية، والشق

Twitter: @ketab_n

والزرع والتشذيب بيد حكيمة. وتعلّم كيف يزدرع الأشجار في وقت الربيع، إذا كانت التربة قادرة على الامتصاص وكثيفة، أو كيف يفعل ذلك في الخريف، إذا كانت التربة مرتخية وجافة. وتعلم كيف يوتّد ويكسو أشجار الخوخ كي يحميها من الرياح، وكيف يحرث الحمضيات في مشتل البرتقال، ويطرد العفن بالدخان عن الكشمش أو عنب الثعلب، وكيف يقطع الأغصان المريضة من أشجار التين، ومتى لا يزعج المرء نفسه بالأمر. وتعلم كيف ينزع اللحاء الممزق عن شجرة قديمة ويقطع الشيء إلى الأسفل نحو الأرض، دون عاطفة أو ندم، كي يستعيد الحياة منه لدزينة أخرى من الفصول القادمة.

تعلم هنري الكثير من والده، رغم أنه كان يشعر بالعار منه، وبأنه ضعيف. إذا كان السيد ويتاكر حقاً ساحر التفاح، كما فكر هنري، لماذا إذاً لم يتحول إعجاب الملك إلى ثروة؟ فقد كان كثير من الرجال الأكثر غباء أغنياء. لماذا ما يزال آل ويتاكر يعيشون مع الخنازير، وفي جوارهم المروج العريضة الواسعة للقصر، والمنازل الجميلة في ميد أوف أونر رو، حيث ينام خدم الملكة على البياضات الفرنسية؟ وفيما كان هنري يتسلق في أحد الأيام سور حديقة محكماً، تجسس على سيدة ترتدي ثوباً لونه عاجي، تمارس الفروسية على حصانها الأبيض النظيف فيما يعزف خادم على الكمان كي يسليها. كان الناس يعيشون هكذا، هناك تماماً في ريتشموند، بينما لم يكن آل ويتاكر يملكون حتى أرضية.

لكن والد هنري لم يقاتل أبداً من أجل أي شيء رائع. كان يحصل على الأجر التافه نفسه لثلاثين عاماً، ولم يحتجّ عليه مرة واحدة، ولم يشكُ من العمل خارج المنزل في أسوأ أنواع الطقس لوقت طويل بحيث أن هذا دمر صحته. اختار والد هنري الخطوات الأكثر حرصاً عبر الحياة، خاصة حين يتفاعل مع من هم أفضل منه، واعتبر الجميع أرقى

Twitter: @ketab_n

منه اجتماعياً. وكان من الواضح أن السيد ويتاكر لن يسيء أبداً، ولن يستغل أحداً، حين حين تكون الفوائد ناضجة للقطف. قال لابنه: «لا تكن جسوراً يا هنري. تستطيع أن تذبح الخروف مرة واحدة. لكن إذا كنت حريصاً تستطيع أن تجزّ شعره كل عام».

بأب بلا حول أو قوة، وقنوع، ما الذي يتوقع هنري أن يتلقاه من الحياة، غير ما يمكن أن يتثبّث به بيديه؟ يجب أن يربح المرء، بدأ هنري يقول لنفسه حين كان في الثالثة عشرة من عمره فحسب. يجب أن يذبح المرء خروفاً كل عام.

* * *

في سبعينيات القرن الثامن عشر صارت الحدائق في كيو سفينة نوح نباتية، تحتوي مجموعتها على آلاف العيّنات، فيما كانت الشحنات جديدة تصل أسبوعياً: نبات الكوبية من الشرق الأقصى، والمغنوليا من الصين، والسرخس من جزر الهند الغربية. فضلاً عن ذلك، عُيِّنَ مدير جديد وطموح لكيو، هو السير جوزف بانكس، الذي عاد لتوه من رحلة مظفرة حول العالم كعالم نبات رئيسي على متن سفينة القبطان كوك «إتش إم إس إنديفر». عمل بانكس دون راتب (كان مهتماً بعظمة الإمبراطورية البريطانية فقط، كما قال، رغم إن آخرين قالوا إن اهتمامه الأساسي يتركز على عظمته الشخصية)، وصار الآن يجمع النباتات بعاطفة متقدة، ملتزماً بإنشاء حديقة وطنية ضخمة حقاً.

آه، السير جوزف بانكس! ذلك المغامر الجميل والعاهر والطموح والتنافسي! كان الرجل يجسّد كل ما ليس موجوداً في والده هنري. ففي الثالثة والعشرين من عمره، جعل إرث كبير مؤلف من ستة آلاف جنيه في السنة بانكس أحد أغنى الرجال في بريطانيا. وعلى نحو مثير للجدل،

كان أيضاً الأكثر أناقة. كان بوسع بانكس أن يمضي حياته في ترف واسترخاء، لكنه سعى بدلاً من ذلك إلى أن يصبح الأكثر جسارة بين المستكشفين النباتيين، وهي هواية مارسها دون أن يضحي بذرة من البريق أو السحر. دفع بانكس لتمويل جزء جيد من رحلة القبطان كوك الأولى من جيبه، مما منحه الحق في أن يحضر على متن السفينة الضيقة خادمين أسودين وخادمين أبيضين وعالم نباتات نادرة وسكرتيراً علمياً وفنانين ومصمماً وزوجاً من الكلاب السلوقية الإيطالية. وقد أغرى بانكس أثناء مغامرته ملكات تاهيتيات، رقصن عاريات مع المتوحشين على الشواطئ، وتفرج على الفتيات الشابات الوثنيات وهنّ يرسمن وشوماً على مؤخراتهن في ضوء القمر. وأحضر معه إلى منزله في إنكلترة رجلاً تاهيتياً يدعى أوماي، كي يُربَّى كحيوان أليف، وأحضر أربعة آلاف عينة من النباتات، لم ير عالمُ العِلْم أبداً من قبل نصفها تقريباً. كان السير جوزف بانكس الرجل الأكثر شهرة وحيوية في إنكلترا، وقد أُعجب به هنري بشكل كبير.

لكنه سرقه.

ما حدث هو أن الفرصة سنحت فحسب، وكانت الفرصة واضحة. كان بانكس معروفاً في الدوائر العلمية ليس كجامع نباتات عظيم فقط، بل كخازن نباتات عظيم أيضاً. وكان سادة النباتات، في تلك الأيام الجيدة، يتقاسمون عادة اكتشافاتهم مع بعضهم بعضاً مجاناً، لكن بانكس لم يتقاسم أي شيء مع الآخرين. وكان الأساتذة والشخصيات المعتبرة والجامعون يأتون إلى كيو من كل أنحاء العالم يحدوهم أمل للحصول على بذور وقصاصات وعيّنات من مجموعة بانكس الضخمة، لكن بانكس كان يصدهم جميعاً.

أُعجب الشاب هنري ببانكس الخازن (لن يشارك أحداً في كنزه، أيضاً، لو أنه كان يملك واحداً) لكنه رأى الفرصة سانحة في الحال في الوجوه الغاضبة لأولئك الزوار العالميين المصدودين. كان ينتظرهم خارج أراضي كيو، ويتحدث مع الرجال وهم يغادرون الحدائق، وأحياناً يسمعهم يلعنون السير جوزف بانكس بالفرنسية والألمانية والهولندية أو الإيطالية. كان هنري يقترب، يسأل الرجال أية عينات يريدون، ويعدهم بإحضار هذه العينات في نهاية الأسبوع. وكان يحمل معه دوماً مجموعة أوراق وقلم رصاص؛ وإذا كان الأشخاص لا يتحدثون الإنكليزية، كان هنري يطلب منهم أن يرسموا صورة ما يحتاجون إليه. وكانوا فنانين نباتيين ممتازين، وهكذا فقد كانوا يرسمون ما يحتاجونه بسهولة. وفي وقت متأخر من الليل، كان هنري يتسلل إلى البيوت الزجاجية، مندفعاً كالسّهم بين العمال الذين يواصلون إشعال المدافئ العملاقة في الليالي الباردة، ويسرق النباتات كي يجني أرباحاً.

كان الفتى الملائم للمهمة فحسب. فقد كان جيداً في تحديد هوية النبتة، وخبيراً في إبقاء القصاصات حية، وكان وجهه مألوفاً في الحدائق بحيث لم يثر الشبهات، وبرع في إخفاء مساراته. وأفضل ما في الأمر، لم يبد كأنه يحتاج إلى النوم. كان يعمل طيلة النهار مع والده في البساتين، ثم يسرق طول الليل النباتات النادرة والنباتات الثمينة وشباشب النساء وأزهار السحلبية الاستوائية، وعجائب آكلة للحوم من العالم الجديد. حافظ على جميع الرسوم النباتية التي صنعها السادة المميزون له أيضاً، ودرس تلك الرسوم إلى أن عرف جميع الأسدية والتويجات لكل النباتات يرغب بها العالم.

ومثل جميع اللصوص البارعين، كان هنري موسوساً حيال أمنه. لم يأتمن أحداً على سره، ودفن ما كسبه في عدة مخابئ في أنحاء الحدائق

Twitter: @ketab_n

في كيو. ولم ينفق قطعة نقد منه أبداً. ترك فضته ترقد نائمة في التراب، كجذر جيد. كان يريد أن تتراكم تلك القطع الفضية، إلى أن تنتفخ بشكل كبير، وتشتري له الحق في أن يصبح غنياً.

في غضون سنة صار لهنري زبائن منتظمون. أحدهم، زارع عجوز لنباتات السحلبية من حدائق باريس النباتية، منح الفتى الإطراء الأول الأكثر إمتاعاً في حياته: «أنت إصبع صغير قذر ومفيد، أليس كذلك؟» في غضون عامين، صار هنري يدير تجارة قوية، ويبيع النباتات ليس فقط لجامعي نباتات جديين لكن أيضاً لدائرة من رجال الطبقة العليا الأثرياء في لندن، كانوا يتوقون إلى عينات غرائبية لمجموعاتهم الخاصة. وبعد ثلاث سنوات، صار يشحن عينات النباتات بشكل غير مشروع إلى فرنسا وإيطاليا، ويحزم بخبرة القصاصات بالطحالب والشمع لضمان بقائها سليمة طيلة الرحلة.

في النهاية، وبعد ثلاث سنوات من هذا المشروع الشرير قُبض على هنري ويتاكر من قبل والده.

لاحظ السيد ويتاكر، والذي ينام عادة بعمق، أن ابنه غادر المنزل في إحدى الليالي بعد منتصف الليل، وبعد أن أوجعه قلبه من شك الأب الغريزي، لحق بالفتى إلى البيت الزجاجي وشاهد الانتقاء والسرقة، وطريقة الحزم الخبيرة. تعرف على الفور على الحذر غير المشروع للص.

لم يكن والد هنري رجلاً سبق أن ضرب أولاده، حتى حين استحقوا ذلك (وفي معظم الأحيان كانوا يستحقون)، ولم يضرب هنري في تلك الليلة، أيضاً. ولم يواجه الفتى مباشرة. حتى أن هنري لم يعرف أنه شُوهدَ. كلا، لقد فعل السيد ويتاكر ما هو أسوأ بكثير. كان أول ما

Twitter: @ketab_n

فعله في الصباح التالي هو أنه طلب مقابلة السير جوزف بانكس شخصياً. ولم يكن بوسع شخص فقير مثل ويتاكر أن يطلب في غالب الأحيان اللقاء مع سيد مثل بانكس، لكن والد هنري كسب ما يكفي من الاحترام في أنحاء كيو أثناء ثلاثين عاماً من العمل الذي لا يكل كي يبرر تطفله، ولو فقط هذه المرة. كان رجلاً عجوزاً وفقيراً، بالفعل، لكنه كان أيضاً ساحر التفاح، منقذ شجرة الملك المفضلة، وقد اشترى له ذلك اللقب الدخول.

دخل ويتاكر إلى بانكس تقريباً على ركبتيه، محنياً رأسه، تائباً كقديس. اعترف بالقصة المخجلة عن ولده، مع اشتباهه بأن هنري ربما كان يسرق طيلة سنوات. قدم استقالته من كيو كعقوبة، شرط أن يُعفى عن الولد من الاعتقال أو الأذى. وعد ساحر التفاح أن يأخذ أسرته بعيداً عن ريتشموند، ويضمن ألا تتلطخ كيو وبانكس باسم ويتاكر ثانية.

متأثراً من صدق البستاني وأمانته رفض بانكس الاستقالة، وطلب لقاء شخصياً مع الشاب هنري. كان هذا حدثاً غير عادي. فإذا كان من النادر بالنسبة للسير جوزف بانكس أن يقابل مزارعاً أمياً في مكتبه، فقد كان أكثر ندرة أن يقابل ابن مزارع أمياً وسارقاً وعمره ١٦ عاماً. ربما كان ينبغي أن يطلب اعتقال الفتى. لكن السرقة جريمة تودي إلى حبل المشنقة، وقد لُفَّ الحبل حول أعناق أطفال أصغر من هنري بكثير، ومن أجل مخالفات أقل من هذه بكثير. وفيما كانت الهجمة على مجموعته مثيرة للحنق، شعر بانكس بما يكفي من التعاطف مع الأب كي يحقق في المسألة بنفسه قبل أن يستدعي المأمور.

حين سارت المشكلة إلى مكتب السير جوزف بانكس، تحولت إلى شاب طويل ونحيف وبني الشعر، صامت، عيناه بلون الحليب، عريض الكتفين، غائص الخدين، ببشرة شاحبة سُلِخَتْ من تعرضها للريح

Twitter: @ketab_n

والمطر والشمس. كان الفتى يعاني من نقص التغذية لكنه طويل، ويداه كبيرتان؛ ورأى بانكس أنه يمكن أن يصبح رجلاً كبيراً في أحد الأيام، إذا حصل على وجبة ملائمة.

لم يعرف هنري بالضبط لماذا استُدعي إلى مكتب بانكس لكنه كان يملك ما يكفي من الذكاء كي يشتبه بالأسوأ، وكان في غاية الذعر. كان يستطيع الدخول إلى مكتب بانكس دون أن يظهر عليه الارتجاف من خلال عناد شديد ومكثّف فحسب.

منَّ الله عليه بمكتب جميل! وكان السير جوزف بانكس يلبس على نحو جميل، في شعره المستعار اللامع وبذلته المخملية المتوهجة، وأبازيم حذائه المصقولة وجرابه الأبيض. حين مرّ هنري من الباب سعّر طاولة الكتابة الجميلة المصنوعة من خشب الماهوغاني، وفحص بشهوة علب الجمع الرائعة الموضوعة على كل رف، ونظر بإعجاب إلى الصورة الأنيقة للقبطان كوك على الحائط. اللعنة! لا بد أن إطار تلك الصورة فقط كلف تسعين جنيهاً!

على عكس والده، لم ينحن هنري أمام بانكس، لكنه وقف أمام الرجل العظيم، ناظراً إليه مباشرة في عينيه. وسمح بانكس، الذي كان جالساً، لهنري بأن يقف صامتاً، ربما منتظراً اعترافاً أو توسلاً. لكن هنري لم يعترف ولم يتوسل، ولم يخفض رأسه شاعراً بالخجل، وإذا فكر السير جوزف بانكس أن هنري ويتاكر كان مغفلاً بما يكفي كي يتحدث في ظروف كهذه، فإن هذا يعني إنه لم يكن يعرف هنري ويتاكر.

بالتالي، وبعد صمت طويل. أمره بانكس: «أخبرني إذاً لماذا يجب ألا أراك مشنوقاً في تايبرن؟».

إذاً هذا هو الأمر، فكر هنري. لقد شوهدَ وهو يسرق.

Twitter: @ketab_n

لكن الفتى بحث عن خطة. كان يحتاج إلى العثور على تكتيك، وعليه أن يجده في لحظة واحدة سريعة وقصيرة. لم يُمض حياته وهو يُضرب دون إحساس من قبل أخوته الأكبر كي لا يتعلم أي شيء عن القتال. حين يوجّه خصم أكبر وأقوى الضربة الأولى، لديك فرصة واحدة فقط كي تتراجع إلى الخلف قبل أن تتخبط في الطين، ومن الأفضل أن تفعل شيئاً غير متوقع.

قال هنري: «لأنني إصبع قذر صغير ومفيد».

انفجر بانكس الذي يستمتع بالحوادث غير المعتادة ضاحكاً ضحكة مفاجئة.

«أعترف أنني لا أرى فائدة فيك أيها الشاب. كل ما فعلته هو سرقة كنزي الذي جمعته بصعوبة شديدة».

لم يكن سؤالاً، لكن هنري أجاب عليه مع ذلك.

قال: «ربما سرقت قليلاً».

«أنت لا تنكر ذلك؟».

«إن كل النهيق في العالم لن يغير ذلك، أليس كذلك؟».

ثانية، ضحك بانكس. ربما ظنَّ أن الفتى يُظهر شجاعة مزيفة، لكن شجاعة هنري حقيقية. كما كان خوفه، وافتقاره للتوبة. طول حياته كلها، سيعدُّ هنري التوبة ضعفاً.

غيّر بانكس سياسته: «يجب أن أقول أيها الشاب إنك تشكل إزعاجاً كبيراً لوالدك».

رد هنري: «وهو يشكل إزعاجاً لي يا سيدي».

مرة أخرى، صدر نباخ الضحك المفاجئ عن بانكس: «هل هو إذاً؟ أي أذى ألحقه بك ذلك الرجل الطيب؟».

Twitter: @ketab_n

«جعلني فقيراً، يا سيدي»، كان جواب هنري. ثم، مدركاً كل شيء فجأة أضاف: «كان هو، أليس كذلك؟ من وشى بي؟».

«بالفعل هو، إن والدك شخص شريف».

هز هنري كتفيه: «ليس معي؟».

سمع بانكس هذا وهزّ رأسه، مسلماً بكرم بالنقطة. ثم سأل: «لمن كنت تبيع نباتاتي؟».

حدد هنري الأسماء على أصابعه: «مانسيني وفلود ولينك وليفيفور ومايلز وساثر، وإيفاشفسكي وفيوريل ولورد لسيغ ولورد غارنر.».

قاطعه بانكس بتلويحة. حدق بالفتى بدهشة متواصلة. والغريب أنه لو كانت القائمة أكثر تواضعاً لكان بانكس أكثر غضباً. لكن هذه كانت أسماء المختصين بالنباتات الأكثر احتراماً في تلك الأيام، وقد كان بانكس يعدّ بعضهم أصدقاءه. كيف عثر عليهم الفتى؟ فبعضهم لم يأت إلى إنكلترة منذ سنوات. لا بد أن الفتى يصدّر. أي نوع من الحملات كان هذا الفتى يدير في حضوره؟

سأله بانكس: «كيف عرفت أن تتعامل مع النباتات؟».

«كنت دوماً أعرف النباتات يا سيدي، طول حياتي».

«وهل كان هؤلاء الرجال يدفعون لك؟».

قال هنري: «أو لن يحصلوا على نباتاتهم، أليس كذلك؟».

«لا بد أنك تكسب جيداً. لا بد أنك جمعت كومة من النقود في السنوات الماضية».

كان هنري ماكراً جداً بحيث لم يجب على ذلك.

ألح بانكس: «ما الذي فعلته بالنقود التي جنيتها أيها الشاب؟ لا

Twitter: @ketab_n

أستطيع القول إنك وضعتها في خزانتك. إن ما كسبته ينتمي إلى كيو. وهكذا أين هو كله؟».

«تلاشى، يا سيدي».

«تلاشى أين؟».

«النرد، يا سيدي. لدي ضعف، هو المقامرة».

اعتقد بانكس أن هذا قد يكون صحيحاً أو لا. لكن الأكيد هو أن أعصاب الفتى قوية كأي وحش بقدمين سبق أن التقى به. لقد فُتِنَ بانكس. كان رجلاً في النهاية، واحتفظ برجل وثنيٍّ كحيوان أليف، وكي نكون صادقين، امتلكَ سمعة بأنه نصف وثني. فقد اقتضتْ محطته في الحياة أن يدّعي، على الأقل، الإعجاب باللطف، لكنه كان يفضّل في السرّ القليل من الوحشية. وأي ديك صغير وحشي كان هنري ويتاكر! صار بانكس أقل ميلاً في تلك اللحظة إلى تسليم هذا البند من البشرية المثير للاستغراب للشرطة.

أما هنري، الذي لاحظ كل شيء، فقد رأى تبدلاً يحدث في وجه بانكس، شاهد استرخاء للملامح، وفضولاً متنامياً، وشظية فرصة لإنقاذ حياته. ثَمِلاً من دافعٍ لحماية نفسه، وثب الفتى إلى شظية الأمل مرة أخرى.

قال هنري: «لا تُرْسلني إلى المشنقة يا سيدي. ستندم إذا فَعلْت ذلك».

«وماذا تريدني أن أفعل بك، عوضاً عن ذلك؟».

«وظّفني في خدمتك».

«ولماذا أفعل هذا؟» سأله بانكس.

«لأنني أفضل من أي شخص آخر».

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

وهكذا لم يتدلَّ هنري على حبل المشنقة في تايبرن، في النهاية، ولم يفقد والده وظيفته في كيو. وبفعل معجزة أُلغيت عقوبة آل ويتاكر، نُفي هنري فحسب، أُرسل بعيداً عبر البحر، أرسله السير جوزف بانكس كي يكتشف ما الذي سيصنع العالم منه.

كان العام ١٧٧٦، والقبطان كوك على وشك القيام برحلته الثالثة حول العالم. لن يشارك بانكس في الرحلة. وإذا ما عبّرنا عن الأمر ببساطة، لم يُدْع. ولم يُدْع إلى الرحلة الثانية أيضاً مما أثار غضبه. فقد أغضب إسراف بانكس وغروره القبطان كوك، وتم استبداله بشكل مخجل. سيسافر كوك الآن مع مختص بالنباتات أكثر تواضعاً، شخص يمكن السيطرة عليه بسهولة أكبر، يُدعى ديفد نلسون، الذي كان حدائقياً خبيراً وخجولاً من كيو. لكن بانكس أراد جاسوساً في هذه الرحلة نوعاً ما، وكان بأمس الحاجة إلى التجسس على جمع نلسون للنباتات. ذلك أنه لم يحبّذ فكرة أن يُنجز أي عمل علمي مهم من وراء ظهره. وهكذا رتب كي يرسل هنري في الرحلة كأحد معاوني ولسون، مع توجيهات بأن يراقب الفتى ويتعلم ويتذكر كل شيء، وفيما بعد يبلغ بانكس عن كل شيء. ما هو الاستخدام الأفضل لهنري ويتاكر أكثر من زرعه كجاسوس؟

فضلاً عن ذلك، إن نفي هنري إلى البحر استراتيجية جيدة لإبقاء

Twitter: @ketab_n

الفتى بعيداً عن حدائق كيو لبضع سنوات، فيما يسمح بمسافة آمنة يستطيع المرء أن يحدد فيها بدقة أي نوع من الأشخاص يمكن أن يصبح هنري. إن ثلاث سنوات على ظهر سفينة ستقدم فرصة جيدة كي يبزغ مزاج الفتى الحقيقي. وإذا انتهى الأمر بأن يشنقوا هنري في مؤخرة السفينة كلص أو مجرم أو متمرد... فإن هذه ستكون مشكلة كوك، لا مشكلة بانكس. وبدلاً من ذلك، يمكن أن يبرهن الفتى أنه شيء ما، وحينها يستطيع بانكس أن يستخدمه في المستقبل، بعد أن تهذّبه الرحلة وتخفّف توحّشه.

عرّف بانكس هنري على السيد نلسون قائلاً: «نلسون، أريدك أن تتعرف على يدك اليمنى الجديدة، السيد هنري ويتاكر، من آل ويتاكر في ريتشموند. إنه إصبع قذرصغير ومفيد، وأنا واثق أنك ستجد ـ حين يتعلق الأمر بالنباتات ـ أنه يعرف عنها كلها».

فيما بعد، وعلى انفراد، وجّه بانكس نصيحة أخيرة لهنري قبل أن يرسل الفتى إلى البحر: «في كل يوم تكون فيه على ظهر السفينة يا بنيّ اعتنِ بصحتك بتمارين قوية. أَصْغ للسيد نلسون، إنه بليد لكنه يعرف عن النباتات أكثر منك. ستكون تحت رحمة الجنود الأكبر في السن، لكن يجب ألا تشتكي عليهم أبداً، وإلا ستسوء الأمور بالنسبة إليك. ابْقَ بعيداً عن العاهرات، إذا أردت ألا تُصاب بالمرض الفرنسي. ستكون هناك سفينتان مبحرتان، لكنك ستستقلّ الريزليوشن، مع كوك. لا تقف أبداً في طريقه. ولا تتحدث معه أبداً. وإذا حدث وتحدثت معه، الأمر الذي يجب ألا تفعله، تأكد ألا تتحدث معه بالطريقة التي تحدّثْتَ بها معي أحياناً. لن يرى هذا مسليّاً كما رأيته. فأنا وكوك مختلفان. إن الرجل بقوة تنين في تقيده بالقواعد. كن لامرئياً بالنسبة إليه، وستكون أكثر سعادة. أخيراً، يجب أن أخبرك أنه على ظهر الريزليوشن، كما في كل

Twitter: @ketab_n

سفن صاحب الجلالة، ستكتشف أنك تعيش وسط عصابة من الأوغاد والسادة. كن ذكياً، يا هنري. صغْ نفسك على مثال السادة».

كان وجه هنري الخالي من التعابير على نحو متعمد يجعل من المستحيل على أي شخص أن يقرأه، وهكذا لم يستطع بانكس أن يدرك كيف تلقّى هذا التحذير الأخير بشكل مدهش. أوحى بانكس لتوه، بالنسبة لأذن هنري، بشيء ما فائق للعادة وهو احتمال أن يصبح هنري سيداً في أحد الأيام. وكان هذا بالنسبة له أكثر من احتمال، بدا كأمر، وأمر مرحّب به أكثر: انطلقْ في العالم يا هنري وتعلّمْ كيف تصبح سيداً. وفي السنوات القاسية المتّسمة بالوحدة التي قضاها هنري على في البحر، نما هذا التعبير الذي تفوه به بانكس مصادفة وكبر في ذهنه. وربما كان كلّ ما حدث وفكّر به. ومع مرور الزمن سيتذكره هنري ويتاكر، ذلك الفتى الطموح والمكافح، والمشحون جداً بغريزة التقدم، كما لو أنه وَعْد.

* * *

أبحر هنري من إنكلترة في تموز/ يوليو ١٧٧٦. وكان الهدف المعلن لرحلة كوك الثالثة مزدوجاً: أن يبحر إلى تاهيتي، كي يعيد حيوان جوزف بانكس الأليف، الرجل الذي يدعى أوماي، إلى وطنه. فقد تعب أوماي من حياة البلاط وتاق الآن إلى العودة إلى الوطن. صار متجهماً وسميناً ونكداً، وتعب بانكس من حيوانه الأليف. والمهمة الثانية هي الإبحار شمالاً حتى بلوغ ساحل المحيط الهادي للأميركيتين، بحثاً عن معبر إلى الشمال الغربي.

واجه هنري المصاعب على الفور. فقد مُنح مأوى تحت ظهر السفينة، مع أقفاص الدجاج والبراميل. وكان الدجاج والماعز يشكو

Twitter: @ketab_n

حوله لكنه لم يَشْكُ. أخافه وألحق به الأذى واحتقره رجال كبار بأيدي حوّلها الملح إلى حراشف وأرساغ كالسندان. مقته البحارة الأقدم كحنكليس مياه عذبة، لا يعرف شيئاً عن شدائد السفر في المحيط. قالوا هناك رجال يموتون في كل رحلة، وهنري أول من سيموت.

لم يقدّروه حق قدره.

كان هنري الأصغر بينهم، لكنه ليس، كما تبيّن في الحال، الأضعف. ولم تكن حياته هنا أقل راحة بكثير من الحياة التي عاشها دوماً. فقد تعلم كل ما هناك ضرورة لتعلمه. تعلم كيف يجفّف ويحضّر نباتات السيد نلسون للسجل العلمي، وكيف يرسم النباتات في الجو المفتوح كاشاً الذبابات التي تحط على أصابعه حتى وهو يمزجها. وتعلم أيضاً كيف يكون مفيداً في السفينة. أُمِر بأن يعالج جميع الشقوق في سفينة الريزليوشن بالخلّ، وأُجبر على نزع القمل عن أغطية البحارة الأكبر سناً. وساعد لحّام السفينة في تمليح وحفظ لحم الخنزير في البراميل، وتعلّم كيف يشغّل آلة تقطير الماء. وتعلّم كيف يبتلع قيئه، بدلاً من إظهار دواره البحري لأي شخص. وتحمّل العواصف دون أن يعبّر عن خوفه للسماوات أو لأي رجل. أكل سمك القرش، وأكل نصف السمك المتحلل الذي في بطون أسماك القرش. لم يتعثّر أبداً.

نزل في ماديرا، وفي تينيريف، وتيبل بي. وقابل في الكيب للمرة الأولى ممثلي شركة الهند الشرقية الهولندية، الذين أثاروا إعجابه برجاحة عقولهم وخبرتهم وثروتهم. وراقب البحارة يخسرون كل أجورهم على موائد القمار. وراقب الناس يقترضون مالاً من الهولنديين، الذين بدوا كأنهم لا يقامرون: لم يقامر هنري أيضاً. راقب زميلاً بحاراً، غشاشاً، قُبض عليه وهو يغش وجُلد دون رحمة بسبب جريمته بأمر من

القبطان كوك. لم يرتكب هو نفسه جرائم. وفيما كانوا يلتفّون حول الكيب في الثلج والريح ارتجف في الليل تحت بطانية واحدة، واصطكّ فكّاه بقوة بحيث كسر سناً، لكنه لم يَشْكُ. أمضى عيد الميلاد في جزيرة أحصنة بحر وطيور بطريق شديدة البرد.

نزل في تاسمانيا والتقى بالمحليين العراة ـ أو كما دعاهم البريطانيون هم وجميع الذين لونهم كلون النحاس ـ «هنوداً». راقب القبطان كوك يمنح الهنود ميداليات كتذكار، خُتمت عليها صورة جورج الثالث وتاريخ الرحلة، كي يؤرخ هذه المقابلة التاريخية. راقب الهنود وهم يقومون على الفور بمعالجة الميداليات بالمطرقة كي يصنعوا منها سنارات للأسماك ورؤوس رماح. فقد سناً ثانية. راقب البحارة الإنكليز الذين لم يعدوا حياة أي هندي متوحش لها أهمية على الإطلاق، فيما كان كوك يحاول عبثاً أن يعلّمهم عكس ذلك. رأى بحارة يفرضون أنفسهم على نساء لم يستطيعوا إقناعهن، ويقنعون نساء لا يستطيعون الدفع من أجلهن، ويشترون فتيات من آبائهن، إذا كان لدى البحارة أي حديد يدفعونه مقابل الأجساد. تجنب جميع الفتيات.

أمضى أياماً طويلة على ظهر السفينة، يساعد السيد نلسون في رسم وتركيب وتكويم وتصنيف مجموعاته النباتية. ولم يكن لديه أية مشاعر خاصة إزاء السيد نلسون، رغم أنه رغب بتعلم كل ما يعرفه.

نزل في نيوزلندة، التي بدت له تماماً مثل إنكلترة باستثناء أن فيها فتيات لهن وشوم تستطيع شراءهن بأبخس الأثمان. لم يشتر فتيات. راقب زملاءه البحارة في نيوزلندة يشترون شقيقين متلهفين وقويين في العاشرة والخامسة عشرة من عمرهما من والدهما. انضم الولدان المحليان إلى الرحلة كعاملين. رغبا بالمجيء، كما أشارا. لكن هنري

Twitter: @ketab_n

عرف أن الولدين لا يمتلكان أية فكرة ما الذي تعنيه مغادرة قومهما. كان اسمهما تيبورا وغواه. حاولا مصادقة هنري لأنه أقرب إلى عمرهما لكنه تجاهلهما. كانا عبدين ومحكومين بمصير مشؤوم. راقب الولدين النيوزلنديين يأكلان لحم كلاب نيئاً ويتوقان إلى الوطن. عرف أنهما سيهلكان في النهاية.

أبحر إلى أرض تاهيتي الخضراء والمليئة بالروابي والمعطرة. راقب القبطان كوك وهو يُرحَّب فيه في تاهيتي كملك كبير وصديق كبير. استقبل الريزليوشن حشدٌ من الهنود، وهم يسبحون إلى السفينة وينادون باسم كوك. راقب هنري فيما كان أوماي ـ المحلي التاهيتي الذي قابل الملك جورج الثالث ـ يتم استقباله في الوطن أولاً كبطل ثم، على نحو متزايد، كغريب استاؤوا منه. كان بوسعه أن يرى أن أوماني لا ينتمي الآن إلى أي مكان. راقب التاهيتيين يرقصون على أنغام الزمامير والأبواق الإنكليزية، فيما كان السيد ولسون، معلمه النباتي الرزين، ثملاً في إحدى الليالي وعارياً إلى الخصر ويرقص على إيقاع الطبول التاهيتية. لم يرقص هنري. راقب القبطان كوك يأمر بأن يقطع حلّاق السفينة أذنيْ مَحليٍّ من عند الصدغين لأنه سرق مرتين من مشغل الحدادة في السفينة. راقب أحد الزعماء التاهيتيين يحاول سرقة قطة من رجل إنكليزي ويتلقى ضربة سوط على وجهه بسبب ذلك.

راقب القبطان كوك يشعل الألعاب النارية فوق خليج ماتافاي، كي يمتع المحليين لكن هذا أخافهم فحسب. وفي ليلة أكثر هدوءاً رأى مصابيح السماء المليون في السماوات فوق تاهيتي. شرب من جوز الهند. أكل لحم الكلاب والجرذان. شاهد أحجار المعابد منقطة بالرؤوس البشرية، وتسلق الممرات الخائنة للجروف الصخرية، إلى جانب الشلالات، جامعاً عينات سرخس للسيد ولسون الذي لم يتسلق.

شاهد القبطان كوك يصارع كي يحافظ على النظام والانضباط بين اندفاعاته فيما هيمن الفجور. فقد وقع جميع البحارة والضباط في غرام الفتيات التاهيتيات، وأشيع أن كل فتاة تعرف سراً خاصاً عن الحب. ولم يرغب الرجال بمغادرة الجزيرة أبداً. ابتعد هنري عن النساء. سكنتْ أحلامه نساء جميلات بأثداء جميلة وشعر جميل، يفوح منهن عطرٌ فائق للعادة، لكن معظمهن مصابات بالمرض الفرنسي. صمد أمام إغراءات مائة عطر. سُخِرَ منه من أجل ذلك. لكنه صمد. كان يخطط من أجل شيء أكبر لنفسه. ركز على علم النبات. جمع الغاردينيا ونباتات السحلبية والياسمين ونبات ثمر الخبز.

أبحروا. راقب محلياً في جزر فريندلي يُقْطع ذراعه من عند الكوع بأوامر صدرت من القبطان كوك لأنه سرق بلطة من سفينة ريزليوشن. كان هو والسيد نلسون يجمعان النباتات في هذه الجزر نفسها حين هاجمهما السكان المحليون، وجردوهما من ثيابهما، وبشكل مؤذ أكثر، من عينات النباتات والدفاتر أيضاً. محترقين من الشمس، وعاريين ومرتجفين عادا إلى السفينة لكن رغم ذلك لم يَشْكُ هنري.

راقب السادة الذين على ظهر السفينة بعناية، وقيّم سلوكهم. حاكى كلامهم. وتمرن على طريقتهم في الكلام. وحسّن سلوكه. سمع ضابطاً يقول لآخر: «رغم أن الأرستقراطية هي دوماً نتاج خطة واختراع فإنها ما تزال تشكل الاختبار الأفضل ضد الرعاع غير المتعلمين وغير المفكرين». راقب كيف يسبغ الضباط الأهمية بشكل متكرر على أي محلي يشبه رجلاً نبيلاً (أو على الأقل يشبه فكرة إنكليزية ما عن رجل نبيل). وفي كل جزيرة قاموا بزيارتها كان ضباط السفينة يعاملون بشكل مميّز أي رجل أسمر البشرة يملك قبعة أروع من قبعات الآخرين، أو عليه وشوم أكثر، أو يحمل رمحاً أكبر، أو لديه زوجات أكثر، أو يحمله

Twitter: @ketab_n

رجال آخرون على محفة، أو ـ في غياب أي من أمور الترف هذه ـ أطول من الرجال الآخرين. كان الرجال الإنكليز يعاملون ذلك الشخص باحترام، ويتفاوضون معه، ويقدمون له الهدايا، ويقولون أحياناً إنه «الملك». واستنتج أنه أينما ذهب الرجال الإنكليز في العالم، فإنهم دائماً يبحثون عن ملك.

ذهب هنري لصيد السلاحف وأكَلَ الدلافين. أكله النمل الأسود. أبحر. شاهد هنوداً صغاراً بأصداف عملاقة في آذانهم. شاهد عاصفة في المناطق الاستوائية تُحوّل السماء إلى لون مرضي أصفر: الشيء الوحيد الذي أخاف البحارة الأقدم كما لاحظ. رأى الجبال المشتعلة التي تُدعى البراكين. أبحروا إلى أبعد جنوباً. اشتدّ البرد ثانيةً. أكل لحم الجرذان ثانية. نزلوا على الساحل الغربي لقارة أميركا الشمالية. أكل لحم الرّنة. رأى أشخاصاً يرتدون الفراء ويتاجرون بجلود القنادس. شاهد بحّاراً علقتْ رجله في سلسلة المرساة وشُدّ إلى البحر كي يموت.

أبحروا شمالاً إلى أبعد. شاهد منازل مصنوعة من أضلاع الحوت. اشترى جلد ذئب. جمع أزهار بخور مريم والبنفسج والكشمش والعرعر مع السيد ولسون. رأى هنوداً يعيشون في أوكار في الأرض، ويخفون نساءهم عن الإنكليز. أكل لحم الخنزير المملح الذي يعج بالديدان. فقد سناً أخرى. وصل إلى مضيق بيرنغ وسمع الوحوش تعوي في الليل القطبي. صار كل شيء جاف لديه مبللاً ثم متجلّداً. راقب لحيته وهي تنمو. ورغم أنها متناثرة فقد كانت تحمل رقاقات الثلج. وكان عشاؤه يتجمد في صحنه قبل أن يستطيع الأكل منه. لم يشْكُ. لم يرد أن يتم إبلاغ السير جوزف بانكس أنه شكا. باع جلد الذئب الذي اشتراه بزوج من أحذية الثلج. راقب السيد أندرسن، جرّاح السفينة، وهو يموت ويُدفن في البحر في الاحتمال الأسوأ الذي يمكن أن يتخيله المرء: عالم

متجمد من الليل المتواصل. راقب البحارة يطلقون زخات من نيران المدفعية على أسود بحر على الشاطئ، كرياضة، إلى أن لم يتبق كائن حي على الشاطئ ذاك.

شاهد الأرض التي دعاها الروس ألاسكا. ساعد في صناعة البيرة من شجرة صنوبر، كرهها البحارة، لكنها كانت كل ما لديهم للشرب. شاهد هنوداً يعيشون في أوكار ليست أكثر راحة بدرجة واحدة من مساكن الحيوانات التي يصطادونها ويأكلونها، والتقى بروس، محصورين في محطة لصيد الحيتان. سمع القبطان كوك يتحدث عن الضابط الروسي الرئيسي (وهو شاب طويل أنيق وأشقر): «إنه بوضوح سيد من عائلة محترمة». في آب/أغسطس استسلم القبطان كوك. لم يستطع العثور على ممر شمالي غربي، وسدت طريق السفينة كاتدرائيات من الجبال الجليدية العائمة. عكسوا الاتجاه وتوجهوا جنوباً.

لم يتوقفوا إلى أن وصلوا إلى هاواي. وكان ينبغي ألا يذهبوا أبداً إلى هاواي. سيكونون أكثر أماناً وهم يتضورون جوعاً في الجليد. كان ملوك هاواي غاضبين، وكان السكان المحليون لصوصاً وعدوانيين. لم يكن سكان هاواي تاهيتيين ـ لم يكونوا أصدقاء لطيفين ـ وفضلاً عن ذلك كان هناك الآلاف منهم. لكن القبطان كوك كان بحاجة إلى المياه العذبة، وكان مضطراً إلى البقاء في المرفأ إلى أن تمتلئ العنابر مرة أخرى. حدث الكثير من النهب من قبل المحليين والكثير من العقاب من قبل الإنكليز. أُطلقت نيران المدفعية، جُرح الهنود، وارتعب الزعماء، وتم تبادل التهديدات. وقال بعض الرجال إن القبطان كوك فقد السيطرة على نفسه، أصبح أكثر وحشية، وأبدى نوبات غضب أكثر مسرحية، واستياء أكثر حدةً، عند حدوث كل سرقة. لكن الهنود ظلوا يسرقون. لم يكن بالإمكان السماح بذلك. أخرجوا المسامير من السفينة، سُرقت الزوارق

Twitter: @ketab_n

والأسلحة أيضاً. أطلق المزيد من نيران المدفعية وقُتل المزيد من الهنود. لم ينم هنري لأيام كي يظل محترساً. لم ينم أحد.

خرج القبطان كوك إلى اليابسة، راغباً بالاجتماع بالزعماء كي يسترضيهم، لكن قابله بدلاً من ذلك مئات من أبناء هاواي الغاضبين. وفي لحظة صار الحشد رعاعاً. راقب هنري حين قُتلَ القبطان كوك، بعد أن اخترق صدره رمحٌ محليٌّ وضُرب على رأسه بالهراوة، واختلط دمه بالأمواج. في لحظة واحدة لم يعد البحّار العظيم موجوداً. جرّ المحليون جثته. فيما بعد في تلك الليلة، وكإهانة نهائية، رمى هندي في زورق قطعة من فخذ القبطان كوك على ظهر سفينة ريزليوشن.

راقب هنري البحارة الإنكليز يحرقون المستوطنة كلها انتقاماً لذلك. بشق النفس كان يمكن ثني البحارة الإنكليز عن قتل جميع الرجال والنساء والأطفال الهنود في الجزيرة. قُطع رأسا هنديين وعُلّقا على قطع من الحديد، وسيحدث المزيد من هذا، كما هدد البحارة، إلى أن تُعاد جثة القبطان كوك من أجل دفن لائق. وفي اليوم التالي وصل ما تبقى من جثة القبطان كوك إلى ريزليوشن وقد فُقدت منها فقراته وقدماه ولم تتم استعادتها أبداً. راقب هنري فيما كانت بقايا قائده تُدفن في البحر. لم ينطق القبطان كوك كلمة واحدة مع هنري، وهنري، الذي تقيّد بنصيحة بانكس، لم يترك أبداً كوك يراه، لكن هنري ويتاكر حي الآن، والقبطان كوك ميت.

ظنَّ أنهم سيعودون إلى إنكلترة بعد هذه المصيبة، لكنهم لم يعودوا. كان هناك رجل يدعى السيد كليرك صار قبطاناً. قرروا مواصلة مهمتهم في البحث عن ممر شمالي غربي. حين حل الصيف، عادوا وأبحروا نحو الشمال مرة أخرى، إلى البرد المريع، وقد غُطّيَ هنري بالرماد

والغبار من بركان. كانت قد استُهلكت جميع الخضار الطازجة منذ وقت طويل، وشربوا مياهاً مالحة. لاحقت أسماك القرش السفينة، كي تأكل ما يندلق من المراحيض. سجّل هو والسيد نلسون أحد عشر نوعاً جديداً من البط القطبي، وأكلوا تسعاً منها. شاهد دباً عملاقاً أبيض اللون يسبح عابراً السفينة، يتحرك بتهديد كسول. شاهد هنوداً يقيدون أنفسهم بزوارق صغيرة مغطاة بالفراء، ويبحرون في المياه كأنهم هم وزوارقهم حيوان واحد. راقب الهنود يركضون على الجليد، تجرهم كلابهم. راقب بديل القبطان كوك، القبطان كلارك، يموت في الثامنة والثلاثين من عمره، ويُدفن في البحر.

لقد عاش هنري حتى الآن أكثر من قبطانين إنكليزيين.

تخلوا مرة أخرى عن المعبر الشمالي الغربي. أبحروا إلى ماكاو. شاهد أساطيل من السفن الشراعية الصينية، وقابل مرة أخرى ممثلي شركة الهند الشرقية الهولندية، الذين بدوا كأنهم في كل مكان في ثيابهم السوداء البسيطة وأحذيتهم المتواضعة. بدا له أنه في جميع أنحاء العالم ثمة من يدين للهولنديين بالمال. سمع هنري في الصين عن حرب مع فرنسا، وثورة في أميركا. كانت الثورة الأولى التي سمع بها. وفي مانيلا شاهد سفينة شراعية أسبانية محملة، كما قيل، بكنز من الفضة تبلغ قيمته مليوني جنيه. باع حذاءه الخاص بالثلج بسترة بحرية. أصيب بمرض الزحار ـ أصيب الجميع ـ لكنه نجا منه. وصل إلى سومطرة، ثم إلى جافا، حيث شاهد مرة أخرى الهولنديين يحصّلون النقود. دوّن هذه الملاحظة. داروا حول الكيب للمرة الأخيرة ثم انطلقوا راجعين إلى إنكلترة. وفي السادس من تشرين الأول/ أكتوبر، ١٧٨٠ وصلوا سالمين إلى ديبتفورد. كان هنري قد غاب أربع سنوات وثلاثة أشهر ويومين. صار الآن شاباً عمره ٢٠ سنة. أثناء الرحلة كلها، عرّف عن نفسه كما

Twitter: @ketab_n

يفعل سيد. وكان يأمل ويتوقع أن هذا سيُبلَّغ عنه. كان أيضاً راصداً متحمساً وجامعاً للنبات، كما تم توجيهه، وكان مستعداً الآن كي يبوح بقصته للسير جوزف بانكس.

غادر السفينة، قبض أجوره، عثر على توصيلة إلى لندن. كانت المدينة مرعبة وقذرة. فقد كانت سنة ١٧٨٠ سنة مقيتة في بريطانيا بسبب الرعاع والعنف والتعصب الديني المضاد للكاثوليكية، وأُحرق منزل اللورد مانسفيلد، ومُزِّق كُمّا كبير أساقفة يورك عن ثيابه ورُميا في وجهه في الشارع، واقتُحمت السجون، وفُرضت الأحكام العرفية، لكن هنري لم يعرف أي شيء عن هذا، ولم يكترث بأي منه. سار طول الطريق إلى ٣١ حي سوهو، إلى منزل بانكس الخاص. قرع هنري الباب، أعلن عن اسمه، ووقف جاهزاً كي يحصل على جائزته.

* * *

أرسله بانكس إلى البيرو.

كانت هذه مكافأة هنري.

صُعق بانكس حين اكتشف أن هنري ويتاكر يقف على بابه، ففي الأعوام القليلة الماضية كان قد نسي الفتى تقريباً، رغم أنه كان ذكياً ولبقاً جداً بحيث لم يُظهر ذلك. حمل بانكس كمية مذهلة من المعلومات في رأسه، وكمية جيدة من المسؤولية. لم يكن يشرف فحسب على توسع حدائق كيو، بل يشرف أيضاً على ويموّل حملات نباتية لا تُحصى في كل أنحاء العالم. نادراً ما كانت تصل سفينة في في ثمانينيات القرن الثامن عشر لم تكن تحمل نبتة أو بذرة أو بصلة نبات، أو قصاصة للسير جوزف بانكس. فضلاً عن ذلك، كان بانكس يحتل موقعاً في المجتمع المحترم، ويشارك في كل تقدم علمي جديد في

Twitter: @ketab_n

أوربا، من الكيمياء إلى علم الفلك إلى استيلاد الخراف. وإذا ما عبّرنا عن الأمر ببساطة: كان السير جوزف بانكس مشغولاً إلى حد مفرط، ولم يكن يفكر بهنري ويتاكر في السنوات الأربع الماضية بقدر ما كان هنري يفكر به.

مع ذلك، حين تذكّر ابنَ البستاني، سمح لهنري بالدخول إلى مكتبه وقدم له كأساً من البورت لكن هنري رفضه. طلب من الفتى أن يخبره عن الرحلة. كان بانكس بالطبع يعرف أن الريزليوشن وصلت بأمان إلى إنكلترة وتلقى رسائل من السيد نلسون طول الطريق لكن هنري أول شخص التقى به بانكس مباشرة من السفينة، وهكذا رحب به بانكس ـ حالما تذكر من هو الفتى ـ بفضول شديد. تحدث هنري تقريباً لمدة ساعتين، مقدماً تفاصيل كاملة عن النباتات ومعلومات شخصية. تحدث بحرية أكثر مما تحدث بكياسة، كما يجب أن يقال، مما جعل قصته كنزاً. وحين انتهى من الكلام، اكتشف بانكس أنه حصل على معلومات مهمة. ولم يكن هناك شيء يحبه بانكس أكثر من معرفة أمور لا يدرك أشخاص آخرون أنه يعرفها، وهكذا، قبل وقت طويل من أن تصبح السجلات الرسمية والمصقولة سياسياً لسفينة ريزليوشن متاحة له، عرف كل ما حصل في رحلة كوك الثالثة.

وفيما كان هنري يتحدث، كان إعجاب بانكس به يزداد. وكان بوسع بانكس أن يرى أن هنري أمضى السنوات القليلة الماضية في غزو علم النبات أكثر من دراسته، ويملك الآن احتمال أن يصبح خبير نباتات من الطراز الأول. واكتشف بانكس أنه بحاجة إلى الاحتفاظ بهذا الفتى قبل أن يأخذه شخص آخر. وغالباً ما كان يستخدم أمواله ونفوذه كي يبعد الشبان الواعدين عن مؤسسات وحملات أخرى، ويضعهم في خدمة كيو. ولقد فقد بشكل طبيعي بعض الشبان مع مرور الأعوام، أيضاً، بعد

Twitter: @ketab_n

أن تم إغراؤهم بمناصب آمنة ومربحة كحدائقيين في عزب ثرية.ولهذا قرر بانكس أنه لن يخسر هذا الشاب.

ربما كان هنري سيء التربية، لكن بانكس لا يهمه ذلك، إذا كان كفؤاً. كانت بريطانيا العظمى تنتج علماء طبيعة كبذور الكتان، لكن معظهم كانوا بلهاء وهواة. وفي تلك الأثناء كان بانكس متلهفاً جداً من أجل نباتات جديدة، وكان سيقوم هو نفسه بحملات، لكنه كان يقارب الخمسين من عمره ويعاني بشكل رهيب من داء النقرس. وكان منتفخاً ومتألماً ومأسوراً معظم ساعات اليوم على كرسي طاولة مكتبه. وهكذا كان بحاجة إلى إرسال جامعين عوضاً عنه. ولم تكن مهمة سهلة العثور عليهم كما يمكن أن يظن المرء. إذ لم يكن هناك كثير من الشبان القادرين جسدياً كما يمكن أن يتوقع المرء، يريدون الحصول على رواتب بائسة كي يموتوا من الملاريا في مدغشقر، أو أن يغرقوا في السفينة مقابل أزوريس أو يهاجمهم قطاع الطرق في الهند، أو يُسجنوا في غرينادا، أو أن يختفوا إلى الأبد في سايلون.

كانت الخدعة هي جعل هنري يشعر كما لو أنه مُقَدّر عليه أن يعمل لدى بانكس إلى الأبد، وألا يمنح الفتى أي وقت كي يفكر بالأمور، أو كي يحذره أحد ما، أو أن يقع في غرام فتاة تلبس بطريقة فاحشة، أو أن يضع خططه الخاصة لمستقبله. وكان بانكس بحاجة لإقناع هنري أن مستقبله مخطط له سلفاً، وأنه ينتمي إلى كيو. وكان هنري شاباً واثقاً بنفسه، لكن بانكس يعرف أن منصبه وثروته وسلطته وشهرته يمنحونه الميزة هنا، مما جعله يبدو كأنه العناية الإلهية نفسها. وكانت الخدعة هي ترتيب الأمور على وجه السرعة.

قال بانكس، بعد أن روى هنري قصصه: «عمل رائع، لقد قمتَ بعمل جيد. في الأسبوع القادم سأرسلك إلى الآنديز».

Twitter: @ketab_n

كان على هنري أن يفكر للحظة: ما هي الآنديز؟ جزر؟ جبال؟ بلاد؟ مثل هولندا؟

لكن بانكس تحدث كما لو أن كل شيء مقرر: «أقوم بتمويل حملة نباتية في البيرو، تغادر يوم الأربعاء القادم. سيقودك السيد روس نيفن. إنه عجوز اسكتلندي فظ ـ بصراحة مكتهل جداً ـ لكنه شجاع كأي شخص ستلتقي به. يعرف أشجاره، وأجرؤ على القول إنه يعرف أميركا الجنوبية الخاصة به. أفضّل اسكتلندياً على بريطاني لهذا النوع من العمل. إنهم أكثر برودة على المستوى الذهني وأقوياء، أكثر ملائمة للسعي وراء هدفهم بحماس لا يلين، وهذا ما تريده في رجلك في الخارج. إن راتبك يا هنري هو ٤٠ جنيهاً في العام، ورغم أن هذا ليس نوع الراتب الذي يمكن للشاب أن يحسّن حياته به، فإن المنصب مشرّف، ويحمل معه امتنان الإمبراطورية البريطانية. وبما أنك ما تزال أعزب، فأنا متأكد من أنك تستطيع ترتيب أمورك. كلما عشت باقتصاد الآن، يا هنري، ستصبح رجلاً أكثر غنى يوماً ما».

بدا هنري وكأنه سيطرح سؤالاً، وهكذا باغته بانكس: «أنت لا تتحدث الأسبانية كما أفترض؟» سأله، باستنكار.

هز هنري رأسه.

تنهد بانكس في خيبة أمل مبالغ فيها: «حسناً، ستتعلمها، كما أتوقع. سأسمح لك بالذهاب في الرحلة بصرف النظر عن ذلك. نيفن يتحدثها، ولو بلفظ كوميدي. ستنخرط هناك نوعاً ما مع الحكومة الأسبانية، فهم حماة البيرو، ومصدر إزعاج، لكن البلد لهم، كما أفترض. رغم أنني أرغب بنهب الغابات كلها هناك، إذا ما سنحت لي الفرصة. أمقت الأسبان يا هنري. أكره اليد الميتة للقانون الأسباني، فهو

Twitter: @ketab_n

يعرقل ويفسد كل ما يصادفه. وكنيستهم مقيتة. هل تستطيع تخيل هذا: ما يزال اليسوعيون يؤمنون أن الأنهار الأربعة للآنديز هي أنهار الفردوس نفسها، كما هو مذكور في سفر التكوين. فكّر بالأمر، يا هنري! أن تخطئ وتظن أن نهر أورينوكو هو دجلة!».

لم يكن هنري يمتلك فكرة عم يتحدث عنه الرجل، لكنه بقي صامتاً. فقد تعلم في السنوات الأربع الماضية أن يتحدث فقط حين يعرف ما يتحدث عنه. فضلاً عن ذلك، تعلّم أن الصمت يمكن أن يجعل المستمع مسترخياً أحياناً ويجعله يعتقد أن المرء يمكن أن يكون ذكياً. أخيراً، ذُهل، كان ما يزال يسمع صدى هذه الكلمات: ستصبح رجلاً أغنى يوماً ما...

رن بانكس جرساً، دخل خادم يخلو من التعابير الغرفة، جلس إلى طاولة السكرتير وأخرج بعض أوراق الكتابة. وأملى بانكس دون أن يقول كلمة أخرى للفتى:

«السير جوزف بانكس، والذي بعد أن سرّته تزكيتك إلى مجالس إدارة الحدائق النباتية لصاحب الجلالة في كيو، إلخ، إلخ... فقد أمرني سيادتهم أن أبلغك أنه يسرهم تعيينك، يا هنري ويتاكر، كجامع نباتات لحديقة جلالته، إلخ، إلخ... من أجل مكافأتك وأجرك، ومن أجل منصبك وأجورك ونفقات بحثك، ستُمنح راتباً من ٤٠ جنيهاً في السنة، إلخ، إلخ، إلخ..».

فيما بعد، اعتقد هنري أن كلمة إلخ كُررت كثيراً وعلى نحو كريه من أجل مبلغ ٤٠ جنيهاً في السنة، ولكن أي مستقبل آخر كان يملك؟ كان هناك خربشة أنيقة لأقلام الحبر، ثم لوّح بانكس بكسل بالرسالة في الجو كي تجف، قائلاً: «إن مهمتك يا هنري هي شجرة الكينا. إنها

Twitter: @ketab_n

شجرة معالجة الحمى، وهي مصدر لحاء اليسوعيين. اعرفْ كل ما تستطيعه عنها. إنها شجرة رائعة وأودّ أن تُدرس بعمق. لا تصنعْ أعداء يا هنري. احْمِ نفسك من اللصوص والبلهاء والمجرمين. دَوِّنْ الكثير من الملاحظاتَ، وتأكّدْ أن تخبرني في أي نوع من التربة تعثر على عيّناتك ـ الرملية، الطفيلية، المستنقعية ـ كي نستطيع أن نزرعها هنا في كيو. كن مقتصداً في نقودك. فكّر كاسكتلندي يا فتى! كلما قلَّ انغماسك الآن، يمكنك أن تنغمس أكثر في المستقبل، بعد أن تجمع ثروتك. قاوم السكر والعطالة والنساء والكآبة؛ يمكن أن تستمتع بكل هذه المتع فيما بعد في حياتك، حين تصبح عجوزاً بلا فائدة مثلي. كن حذراً. من الأفضل ألا تجعل أي شخص يعرف أنك رجل نباتات. احْم نباتاتك من الماعز والكلاب والقطط والحمام والدجاج والحشرات والعفن والبحارة والماء المالح..».

كان هنري يصغي بنصف أذن.

سيذهب إلى البيرو.

يوم الأربعاء القادم.

كان رجل نباتات، بمهمّة من ملك إنكلترة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

وصل هنري إلى ليما بعد أربعة أشهر في البحر تقريباً. وجد نفسه في بلدة يبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة، وهي موقع استعماري متقدم، يكافح فيه الناس، فيما تحصل العائلات الأسبانية صاحبة المرتبة على طعام أقل من الذي تأكله البغال التي تجر عرباتها.

وصل إلى هناك وحيداً، أما روس نيفن، قائد الحملة (وهي حملة بالمناسبة تألفت بشكل كامل من هنري ويتاكر وروس نيفن)، فقد توفي في الطريق، تماماً مقابل ساحل كوبا. كان يجب ألا يُسمح للعجوز الاسكتلندي بمغادرة إنكلترة أبداً، فقد كان مسلولاً وشاحباً ويُخْرِج الدم مع كل سعلة، لكنه كان عنيداً وخبأ مرضه عن بانكس. لم يصمد نيفن شهراً في البحر. ففي كوبا، كتب هنري رسالة مستغلقة تقريباً إلى بانكس أبلغه فيها عن أنباء نيفن، معبراً عن تصميمه على مواصلة المهمة لوحده. لم ينتظر جواباً، إذ لم يكن يرغب بأن يُسْتدعى إلى الوطن.

قبل أن يموت نيفن، لم يتضايق الرجل من تعليم هنري شيء أو شيئين عن شجرة الكينا بشكل مفيد. ففي حوالى ١٦٣٠، وبحسب نيفن، لاحظ المبشرون اليسوعيون في الآنديز البيروفية لأول مرة هنود الكويتشوا يشربون شاياً ساخناً مصنوعاً من مسحوق اللحاء، لمعالجة الحمى وقشعريرة البرد اللتين يسببهما البرد الشديد للعلو المرتفع. وتساءل راهب مراقب إن كان مسحوق اللحاء المرّ هذا يمكن أن يعالج

Twitter: @ketab_n

أيضاً الحمى والقشعريرة الملازمتين للملاريا، وهو مرض لم يوجد في البيرو، لكنه انتشر في أوربا على الدوام وقتل البابوات والفقراء المعدمين على حد سواء. شحن الراهب بعض لحاء الكينا إلى روما (تلك المدينة المسببة للمرض، مستنقع الملاريا) مع توجيهات لاختبار المسحوق. وتبين، على نحو إعجازي، أن الكينا يقطع بالفعل طريق ضربات الملاريا المتلفة، لأسباب لم يتمكن أحد من فهمها. مهما كان السبب، بدا كأن اللحاء يشفي الملاريا بشكل كامل، دون تأثيرات جانبية إلا بعض الصمم، وهذا ثمن قليل للدفع مقابل الحياة.

في أوائل القرن الثامن عشر، كان اللحاء البيروفي، أو اللحاء اليسوعي، الصادر الأكثر قيمة من العالم الجديد إلى القديم. وكان غرام لحاء اليسوعيين النقي يعادل في القيمة غرام الفضة. كان علاج الرجل الغني، لكن كان هناك الكثير من الرجال الأغنياء في أوربا، ولا أحد منهم يريد الموت من الملاريا. ثم عولج لويس الرابع عشر بلحاء اليسوعيين، مما جعل الأسعار تحلق. وكما اغتنت البندقية من الفلفل والصين من الشاي، ازداد اليسوعيون غنى من الأشجار البيروفية.

كان البريطانيون بطيئين في معرفة قيمة الكينا، ولا يعود السبب بشكل رئيسي إلى كراهيتهم للأسبان والكاثوليك فقط بل أيضاً إلى تفضيلهم المتواصل لجعل مرضاهم ينزفون، بدلاً من معالجتهم بمساحيق غريبة. فضلاً عن ذلك، إن استخراج الدواء من الكينا كان علماً معقداً. وكان هناك سبعون نوعاً من الشجرة، ولم يكن أحد يعرف أية لحاءات هي الأكثر قوة. وكان المرء مضطراً للاعتماد على صدق جامع اللحاء نفسه، الذي كان في العادة هندياً على بعد ستة آلاف ميل. أما المساحيق التي يصادفها المرء غالباً باسم «لحاء اليسوعيين» في صيدليات لندن، والمهربة إلى البلاد عبر قنوات بلجيكية سرية، فقد

Twitter: @ketab_n

كانت عادة مزيفة وغير فعالة. مع ذلك، لفت اللحاء في النهاية انتباه السير جوزف بانكس، الذي أراد أن يعرف المزيد عنه. والآن، بسبب مجرد التلميح بثروات محتملة، صار هنري أيضاً لتوه قائد حملته الخاصة.

وفي الحال صار هنري يتنقل في أنحاء البيرو كرجل ينخسه رأس حربة، وكانت تلك الحربة طموحه الرهيب. كان روس نيفن قد قدم لهنري قبل وفاته ثلاث نصائح مفيدة عن السفر في أنحاء أميركا الجنوبية، وقد التزم الشاب الحكيم بها كلها: أولاً، لا تلبسْ بوطاً أبداً. خشّنْ قدميك إلى أن يصبحا كقدمي هندي، واهجرْ إلى الأبد العناق المتعفن لجلد حيوان رطب. ثانياً، تخلَّ عن ثيابك الثقيلة. البسْ ثياباً خفيفة، وتعلّم أن تكون بارداً، كما يفعل الهنود. ستكون صحتك أفضل بهذه الطريقة. وثالثاً، استحمَّ في نهر كل يوم، كما يفعل الهنود.

شكّل هذا كلَّ ما عرفه هنري، بصرف النظر عن حقيقة أن الكينا مربحة، وأنه لا يمكن العثور عليها إلا في جبال الآنديز المرتفعة، في منطقة بعيدة من البيرو تُدعى لوكسا. لم يكن لديه رجل أو خريطة أو كتاب يرشده أكثر، وهكذا حل الموضوع بطريقته الخاصة. للوصول إلى لوكسا، كان عليه تحمل الأنهار والأشواك والمرض والحرارة والبرد والمطر والسلطات الأسبانية، وما هو أخطر من كل شيء آخر، فريقه الخاص من البغال الحرونة، والعبيد السابقين، والزنوج الساخطين، الذين كان قد شرع لتوه في تخمين لغاتهم واستياءاتهم ومخططاتهم السرية.

انطلقَ حافي القدمين وجائعاً. مضغ أوراق الكوكا كهندي للحفاظ على قوته. تعلم الأسبانية، ذلك أنه قرر بعناد أن بوسعه أن يتحدث

Twitter: @ketab_n

الأسبانية، وأن الناس يستطيعون فهمه. إذا لم يستطيعوا فهمه، كان يصيح بهم بقوة متزايدة إلى أن يفهموه. وصل في النهاية إلى المنطقة التي تُدعى لوكسا. وعثر على «قاطعي اللحاء» ورشاهم، وهم هنود محليون يعرفون أين تنمو الأشجار الجيدة. واصل البحث، وعثر على مزيد من أشجار الكينا المخبأة.

وكونه ابن بستاني أدرك هنري بسرعة أن معظم أشجار الكينا في حالة مزرية، ونُزِعَ لحاؤها على نحو مفرط. كان هناك بضع أشجار بجذوع سميكة مثل جذعه، لكن لم يكن أيّ منها أسمك منه. غطى جذوع الأشجار بالطحالب، في كل الأمكنة التي أزيل اللحاء منها، كي يجعله يلتئم. ودرّبَ قاطعي اللحاء على قطعه في خطوط عمودية، بدلاً من قتل الشجرة عبر نزعه أفقياً. قطع الأشجار المريضة كي تنمو من جديد. وحين مرض هو نفسه، واصل العمل، وحين لم يستطع السير من المرض أو العدوى، جعل هنوده يقيدونه إلى بغله كأسير كي يستطيع أن يزور أشجاره كل يوم. أكل لحم الخنازير. وأطلق النار على نمر مرقّط.

أمضى في لوكسا أربع سنوات من البؤس، حافي القدمين وعانى من البرد، ونام في كوخ مع هنود حفاة الأقدام ويعانون من البرد، وكانوا يحرقون الروث من أجل التدفئة. واصل الاعتناء بأشجار الكينا، والتي كانت قانونياً ملكاً للصيدلية الملكية الأسبانية، ولكن هنري زعم بصمت أنها له. كان بعيداً بما يكفي في الجبال بحيث لم يتدخل في عمله أي أسباني، ومع مرور الوقت لم يعد الهنود يتضايقون منه. اكتشف أن أشجار الكينا التي لها لحاء أكثر دكنة تنتج دواء أكثر قوة من الأنواع الأخرى، وأن الأشجار النامية من جديد أنتجت اللحاء الأقوى. بالتالي اعتمد التشذيب. وحدّد وسمى سبعة أنواع جديدة من الكينا، لكنه عد

Twitter: @ketab_n

معظمها بلا فائدة. وركز انتباهه على ما دعاه الكينا الحمراء، الشجرة الحمراء، الأغنى. وضع طعماً من الشجرة الحمراء في أصل أنواع أكثر ثباتاً ومقاومة للأمراض من الكينا كي ينتج محصولاً كبيراً.

فكّر كثيراً، أيضاً. ذلك أن شاباً وحيداً في غابة مرتفعة وبعيدة يمتلك الكثير من الوقت كي يفكر. وصاغ هنري نظريات مهيبة. وعرف من المرحوم روس نيفن أن التجارة بلحاء اليسوعيين تؤمن لأسبانيا عشرة ملايين ريال سنوياً. لماذا يريد السير جوزف بانكس منه أن يدرس فقط هذا المنتج، بينما يستطيع بيعه؟ ولماذا يجب أن يقتصر إنتاج لحاء اليسوعيين على هذه المنطقة من العالم المتعذر الوصول إليها؟ تذكر هنري أن والده علّمه أن كل نبتة لها قيمة في التاريخ البشري اصطيدت قبل أن تُزرع، وأن اصطياد شجرة (كمثل تسلق جبال الآنديز للعثور على الشيء البغيض) أقل فعالية بكثير من زراعتها (كمثل تعلم كيف تزرعها في مكان آخر، في بيئة مسيطر عليها). عرف أن الفرنسيين حاولوا ازدراع الكينا في أوربا في ١٧٣٠، وأنهم فشلوا، واعتقد أنه عرف السبب: لأنهم لم يفهموا الارتفاع. إن المرء لا يستطيع أن يزرع هذه الشجرة في وادي اللوار. فالكينا بحاجة إلى جو مرتفع رقيق وغابة رطبة، ولا تملك فرنسا مكاناً كهذا، ولا إنكلترة أو أسبانيا، وكان هذا يدعو للأسف. إن المرء لا يستطيع أن يصدّر المناخ.

في أثناء أربع سنوات من التفكير، هذا ما توصل إليه هنري: الهند. كان هنري راغباً بالمراهنة بأن شجرة الكينا ستزدهر في سفوح جبال الهملايا الباردة والرطبة، المكان الذي لم يذهب إليه هنري أبداً، لكنه سمع عنه من الضباط البريطانيين حين كان مسافراً إلى ماكاو. فضلاً عن ذلك، لماذا لا يزرع هذه الشجرة الطبية المفيدة في أمكنة أقرب إلى أمكنة انتشار الملاريا، الأمكنة التي تحتاجها أكثر؟ كان هناك طلب شديد

على لحاء اليسوعيين في الهند، لمحاربة أنواع الحمى الموهنة التي يُصاب بها الجنود البريطانيون والعمال المحليون. والآن كان الدواء مكلفاً جداً بحيث لا يمكن أن يُمنح للجنود والعمال العاديين، لكنه لن يبقى هكذا. وفي ثمانينيات القرن الثامن عشر ارتفع سعر لحاء اليسوعيين ٢٠٠٪ بين مصدره في البيرو وأسواقه الأوروبية، لكن السبب في ذلك هو تكاليف الشحن. حان وقت التوقف عن السعي وراء هذه الشجرة والبدء بزارعتها لجني الأرباح، في مناطق أقرب إلى حيث هناك حاجة إليها. واعتقد هنري ويتاكر، الذي يبلغ الآن الرابعة والعشرين من عمره، أنه الرجل الذي يستطيع فعل ذلك.

غادر البيرو في أوائل ١٧٨٥، حاملاً الملاحظات، ومجموعة من نماذج الأعشاب المتنوعة، وعينات من اللحاء ملفوفة بالكتان، وقصاصات جذور عارية والآلاف من بذور شجرة الكينا الحمراء. وأحضر إلى الوطن بعض أنواع الفليفلة أيضاً، وبعض الكبوسين أو أبو خنجر والفوشية. لكن الجائزة الحقيقية كانت مخبأ البذور. لقد انتظر هنري تلك البذور سنتين كي تظهر، انتظر أشجاره الأفضل كي تبرعم دون أن يلمسها الصقيع. جفف البذور في ضوء الشمس لشهر، وكان يقلبها كل ساعتين كي يحميها من نمو العفن، وغلّفها بالكتان في الليل كي يحميها من الندى. كان يعرف أن البذور نادراً ما تعبر المحيط سليمة (حتى بانكس فشل في حمل البذور إلى الوطن بنجاح أثناء أسفاره مع القبطان كوك)، وهكذا قرر هنري أن يجرب ثلاث تقنيات تغليف مختلفة. حزم بعض البذور في الرمل، وطمر بعضها في الشمع، وترك البعض الآخر في طحالب جافة. وكلها حشيت في مثانة ثور لإبقائها جافة، ثم لفها بصوف الألبكة كي يخبئها.

كان الأسبان ما يزالون يحتكرون الكينا، وهكذا فإن هنري كان الآن

Twitter: @ketab_n

مهرباً رسمياً. وكونه هكذا تجنب ساحل المحيط الهادي المزدحم وسافر شرقاً، وعبر أميركا الجنوبية عن طريق البر، حاملاً جواز سفر كتاجر نسيج فرنسي. وسلك هو وبغاله وعبيده السابقون وهنوده التعيسون طريق اللصوص من لوكسا إلى نهر زامورا، إلى الأمازون، إلى ساحل الأطلسي. من هناك أبحر إلى هافانا، ثم إلى قادس، ثم إلى موطنه إنكلترة. استغرقت رحلة العودة عاماً ونصف. لم يصادف قراصنة، أو عواصف قوية، أو مرضاً موهناً. لم يفقد أية عيّنة. لم يكن الأمر صعباً جداً.

اعتقد أن السير جوزف بانكس سيكون مسروراً.

* * *

لكن السير جوزف بانكس لم يكن مسروراً حين التقى به هنري مرة ثانية في المنزل المريح والمرفّه في ٣٢ حي سوهو. كان بانكس أكثر شيخوخة ومرضاً وأكثر ذهولاً من السابق. وكان داء النقرس يعذبه بشكل مريع، ويصارع مع مسائل علمية من تصميمه، عدّها مهمة لمستقبل الإمبراطورية البريطانية.

كان بانكس يحاول العثور على طريقة لإنهاء اعتماد بريطانيا على القطن الأجنبي، ولهذا أرسل مزارعين إلى جزر الهند الغربية البريطانية، عملوا دون نجاح حتى الآن على زراعة القطن هناك. وكان يحاول، أيضاً دون نجاح، أن ينهي احتكار الهولنديين لتجارة التوابل عبر زراعة جوزة الطيب والقرنفل في كيو. واقترح على الملك تحويل أستراليا إلى مستوطنة عقاب (كانت هذه مجرد فكرة من أفكاره الخيالية) لكن لم يكن أحد يصغي. وكان يعمل على صناعة تلسكوب بطول ٤٤ قدماً لعالم الفلك وليم هرشيل، الذي كان يرغب باكتشاف كواكب ونيازك جديدة.

Twitter: @ketab_n

لكن بانكس، كان يريد أكثر من أي شيء آخر المناطيد. كان الفرنسيون يمتلكون مناطيد ويجربون غازات أخف من الهواء ويرسلون رحلات طيران فيها رجال. كان الإنكليز متأخرين خلفهم! من أجل العلم والأمن القومي، قسماً بالله، تحتاج الإمبراطورية البريطانية إلى مناطيد.

وهكذا فإن بانكس لم يكن في ذلك اليوم في مزاج جيد للإصغاء إلى تأكيد هنري ويتاكر أن ما تحتاج إليه الإمبراطورية البريطانية بالفعل هو مزارع كينا في المدى المتوسط لارتفاعات جبال الهملايا الهندية، وهذه فكرة لم تسرّع بأية طريقة قضايا القطن والتوابل واصطياد النيازك أو السفر بالمناطيد. وكان ذهن بانكس مشوّشاً وساقه تؤلمه كالشيطان وكان مغتاظاً بما يكفي من حضور هنري المزعج بحيث ازدرى المحادثة كلها. ارتكب السير جوزف بانكس هنا خطأً تكتيكياً نادراً، خطأً سيكلف إنكلترة كثيراً.

لكن يجب أن يُقال إن هنري، أيضاً، ارتكب أخطاء تكتيكية في ذلك اليوم مع بانكس. وارتكب عدداً منها على التوالي، في الحقيقة. كان الخطأ الأول هو المجيء دون أن يُعلن عن زيارته. نعم، لقد فعل هذا من قبل، لكن هنري لم يعد فتى صفيقاً، يمكن أن يُعذر على خطأ كهذا في اللياقة. كان رجلاً ناضجاً الآن (و رجلاً ضخماً) أوحى طَرْقه المتواصل على الباب الأمامي بالوقاحة والتهديد الجسدي.

فضلاً عن ذلك، إن هنري وصل إلى باب بانكس فارغ اليدين، الأمر الذي يجب ألا يفعله أبداً جامع نباتات. وكانت مجموعة هنري البيروفية ما تزال على متن السفينة القادمة من قادش، والراسية بأمان في المرفأ. كانت مجموعة مؤثرة، ولكن كيف بوسع بانكس أن يعرف هذا، بما أن العينات خارج مدى البصر، مخبأة في سفينة تجارية بعيدة، مخفية في مثانة ثور، وبراميل وأكياس خيش وعلب زجاجية؟ كان ينبغي

Twitter: @ketab_n

على هنري أن يحضر شيئاً ما يضعه شخصياً في يد بانكس، إذا لم يكن قصاصة من شجرة الكينا الحمراء، فعلى الأقل فوشية جميلة الأزهار، أي شيء للفت انتباه العجوز، لجعله يصدق أن الأربعين جنيهاً في العام التي يدفعها لهنري ويتاكر والبيرو لم تذهب هدراً.

لكن هنري لم يرطِّب الجو. بدلاً من ذلك هاجم بانكس لغوياً بهذا الاتهام الحاد: «أنت مخطئ، يا سيدي في أن تدرس شجرة الكينا بدلاً من أن تبيعها!» إن هذا الكلام غير المدروس بشكل جيد اتهم بانكس بأنه مغفَّل فيما في الوقت نفسه لوث ٢٣ حي سوهو بصبغة التجارة غير السارة، كما لو أن السير جوزف بانكس، أغنى سيد في بريطانيا، يحتاج إلى اللجوء إلى التجارة.

وكي نكون عادلين مع هنري، لم يكن ذهنه صافياً بشكل كامل، فقد كان وحيداً لسنوات كثيرة في غابة بعيدة، ويمكن لشاب في غابة أن يصبح مفكراً غير مقيد على نحو خطير. وكان هنري قد ناقش هذا الموضوع مع بانكس مرات كثيرة سابقاً في ذهنه بحيث أنه كان متلهفاً الآن للمحادثة الفعلية. وكان كل شيء مرتباً وناجحاً في خيال هنري. وفي ذهن هنري كان هناك محصلة واحدة ممكنة: سيرحب بانكس الآن بفكرته ويعدها متألقة، ويعرّف هنري على المديرين الملائمين في شركة الهند الشرقية، ويؤمن كل التراخيص والتمويل ويتابع - مثالياً بعد ظهر الغد - مشروعه الطموح. وفي أحلام هنري، كانت مزرعة الكينا تنمو في الهملايا، وكان الرجل الثري على نحو مبهرج الذي وعد جوزف بانكس مرة أنه يمكن أن يصبح، وقد رُحب به كسيد في أحضان المجتمع اللندني. فضلاً عن ذلك، سمح هنري لنفسه بأن يعتقد أنه هو وجوزف بانكس يعدان بعضهما صديقين عزيزين وحميمين.

كان من الممكن أن يصبح هنري ويتاكر والسير جوزف بانكس

Twitter: @ketab_n

صديقين عزيزين وحميمين، لولا مشكلة صغيرة واحدة وهي أن السير جوزف بانكس لم يعدّ هنري ويتاكر أي شيء سوى كادح صغير سيء التربية ولص، دوره الوحيد في الحياة هو أن تُجفف فائدته في خدمة أسياده.

قال هنري فيما كان بانكس ما يزال يتعافى من الهجوم على حواسه وشرفه وغرفة استقباله: «أعتقد أننا يجب أن نناقش أيضاً ترشيحي إلى الجمعية الملكية».

قال بانكس: «العفو! ومن الذي في العالم رشّحك إلى الجمعية الملكية».

قال هنري: «أنا واثق من أنك ستفعل هذا، كمكافأة لي على عملي وبراعتي».

توقف بانكس عن الكلام لحظة طويلة، وارتفع حاجباه بنفسهما إلى أعلى جبينه. سحب نفساً قوياً. ثم ـ بشكل سيء الحظ جداً لمستقبل الإمبراطورية البريطانية ـ ضحك. ضحك من أعماق قلبه بحيث اضطر أن يمسح عينيه بمنديل من المخرمات البلجيكية، يمكن أنه كلف أكثر من المنزل الذي نشأ فيه هنري ويتاكر. كان من الجيد الضحك، بعد يوم متعب كهذا، واستسلم للمرح الصاخب بكيانه كله. ضحك بشدة بحيث أن خادمه، الذي يقف خارج الباب، أطل برأسه إلى داخل الغرفة معبراً عن فضوله حيال هذا الانفجار المفاجئ للمرح. ضحك بشدة بحيث لم يستطع الكلام. وربما كان هذا أفضل، لأنه حتى بدون الضحك، كان بانكس سيواجه صعوبة في العثور على كلمات للتعبير عن سخافة هذه الفكرة: أن هنري ويتاكر، الذي كان يجب أن يتدلى على المشنقة في تايبرن منذ تسع سنوات، ويملك الوجه النمسي لنشّال بالفطرة، والذي

Twitter: @ketab_n

كانت رسائله المكتوبة بشكل مروّع مصدراً حقيقياً لتسلية بانكس مع مرور الأعوام، والذي والده (المسكين!) رافق الخنازير، أن هذا المخادع الشاب توقع أن يُدعى إلى عضوية الجمعية العلمية الأكثر احتراماً ورفعة في إنكلترة كلها؟ أية قطعة كوميدية هائلة كانت هذه!

كان السير جوزف بانكس بالطبع الرئيس المحبوب كثيراً للجمعية الملكية ـ كما كان هنري يعرف جيداً ـ ولو أن بانكس رشّح حيوان غرير مشلولاً إلى الجمعية لرّحبت الجمعية بالحيوان ومنحته ميدالية الشرف. لكن أن يُرحَّب بهنري ويتاكر؟ أن يُسمح لهذا النذل الوقح، لهذا الصبي الذي يشبه ظهره ظهر سمكة إسقمري، لهذا الشخص المزعج الثقيل، أن يضيف الأحرف الأولى من الجمعية الملكية للعلماء إلى توقيعه الذي لا تُفك شفرته؟

كلا.

حين بدأ بانكس بالضحك، تشنجتْ معدة هنري وانطوت في مكعب صغير قاس. ضاقت حنجرته كما لو أنه شُنق أخيراً. أغمض عينيه وشاهد الجريمة. كان قادراً على ارتكاب الجريمة. تصور الجريمة وفكر بعناية بالنتائج. كان لديه وقت طويل كي يفكر بالجريمة، فيما كان بانكس يواصل ضحكه.

كلا، قرر هنري. لا للجريمة.

حين فتح عينيه، كان بانكس ما يزال يضحك، وكان هنري كائناً بشرياً مُحَوّلاً. أي شباب بقي فيه في ذلك الصباح، رُفس وقُتل الآن. منذ تلك النقطة فصاعداً لن تكون حياته عمن يمكن أن يصبح، بل عن ماذا يستطيع أن يكسب. لن يكون سيداً أبداً. ليكن الأمر. اللعنة على السادة! اللعنة عليهم جميعاً! سيصبح هنري أغنى من أي سيد سبق أن وجد،

Twitter: @ketab_n

ويوماً ما سيمتلك كثيراً منهم. انتظر هنري بانكس كي ينتهي من ضحكه، ثم غادر الغرفة وحيداً دون أن ينبس ببنت شفة.

خرج على الفور إلى الشوارع وعثر لنفسه على عاهرة. أمسك بها وأسندها على حائط زقاق وأنهى عذريته، مؤذياً نفسه والفتاة أثناء العملية، إلى أن لعنته قائلة إنه وحش. عثر على حانة، شرب إناءين من الروم، ضرب غريباً على أمعائه، رُمي في الشارع ورُفس على كليته. هناك، الآن تم الأمر. فعل كل ما امتنع عنه في السنوات التسع الماضية، لصالح أن يصبح سيداً محترماً. انظروا كم هو سهل؟ لا متعة فيه، بالتأكيد، لكنه أُنجز.

استأجر نوتياً كي يأخذه عبر النهر إلى ريتشموند. كان قد خيم الليل الآن. سار عابراً منزل والديه المقيت دون أن يدخل إليه. لن يرى عائلته مرة ثانية أبداً، ولم يكن يرغب بذلك. تسلل إلى كيو، عثر على مجرفة، وحفر مخرجاً كل النقود التي تركها مدفونة هناك في سن السادسة عشرة. كان هناك كمية جيدة من النقود بانتظاره في الأرض، أكثر بكثير مما كان يتذكر.

«أيها الفتى الجيد»، قال لذاته الأصغر، للصّ الخازن.

نام إلى جانب النهر جاعلاً من كيس النقود مخدة له. في اليوم التالي عاد إلى لندن واشترى لنفسه ما يكفي من الثياب. أشرف على إخراج مجموعته النباتية البيروفية كلها ـ البذور والمثانات وعينات اللحاء ـ من السفينة القادمة من قادش، ونقلها كلها إلى سفينة منطلقة إلى أمستردام. كانت المجموعة الكاملة ملكاً لكيو من الناحية القانونية. اللعنة على كيو! اللعنة على كيو إلى أن تنزف! لتأتي كيو وتعثر عليه.

أبحر بعد ثلاثة أيام إلى هولندا، وباع مجموعته وأفكاره وخدماته لشركة الهند الشرقية الهولندية، التي استقبله مديروها الأذكياء والدهاة، كما ينبغي القول، دون أثر ضحك.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

بعد ست سنوات، صار هنري ويتاكر رجلاً غنياً في طريقه كي يصبح أكثر غنى. كانت مزرعة الكينا الخاصة به تزدهر في مركز جافا الاستعماري الهولندي، وتنمو بسعادة كالأعشاب في مزرعة جبلية باردة ورطبة ومحاطة بمصاطب تدعى بنغالنغا، وهي بيئة مماثلة تقريباً، كما عرف هنري، لكل من جيال الآنديز البيروفية وجبال الهملايا الأدنى. عاش هنري في المزرعة وأشرف بعناية على هذا المستودع من الكنز النباتي. كان شركاؤه في أمستردام يحددون الآن الأسعار العالمية للحاء اليسوعيين، ويحصدون ستين فلورينة مقابل كل مائة رطل من الكينا الذي يعالجونه. لم يكن بوسعهم معالجته بسرعة كافية. كان هناك ثروة يجب أن تجمع هنا، وصُنعت الثروة من الأدوية. واصل هنري حراثة بستانه، الذي حُمي الآن من التلقيح الخلطي مع أرومة أضعف، وكان ينتج لحاء أكثر قوة وتماسكاً في آن من أي شيء يخرج من البيرو نفسها. فضلاً عن ذلك، كان يُشحن جيداً، وبدون التدخل المفسد للأيدي الأسبانية أو الهندية، وحكم عليه العالم بأنه منتج موثوق.

صار المستعمرون الهولنديون الآن المنتجين والمستهلكين الأكبر للحاء اليسوعيين، واستخدموا المسحوق للحفاظ على جنودهم ومديريهم وعمالهم أصحّاء من حمى الملاريا في كل أنحاء جزر الهند الشرقية. وكانت الميزة التي منحها لهم هذا على خصومهم، وخاصة

Twitter: @ketab_n

الإنكليز، لا تُقدر بقيمة. بانتقام مصمم، بذل هنري جهداً لإبقاء المنتج خارج الأسواق البريطانية بشكل كامل، أو كي يرفع السعر أينما عثر لحاء اليسوعيين على طريقه إلى بريطانيا أو مواقعها الاستعمارية المتقدمة.

أما في كيو، التي كانت خلف اللعبة بمسافة كبيرة الآن، فقد حاول السير جوزف بانكس في النهاية أن يزرع الكينا في الهملايا، لكن بدون خبرة هنري تباطأ المشروع. كان البريطانيون يبددون الثروة والطاقة والقلق وهم يزرعون الأنواع الخطأ من الكينا في الارتفاع الخطأ، وكان هنري، وبسرور بارد، يعرف ذلك. وفي تسعينيات القرن الثامن عشر كان عدد لا يُحصى من المواطنين والرعايا البريطانيين يموتون أسبوعياً من الملاريا في الهند، غير قادرين على الحصول على لحاء اليسوعيين، بينما اندفع الهولنديون إلى الأمام بصحة جيدة.

أُعجب هنري بالهولنديين وعمل جيداً معهم. فَهِمَ دون أن يبذل جهداً أولئك الناس الكالفينيين الكادحين، الذين لا يتعبون، حافري الخنادق وشاربي البيرة والصريحين في الحديث والمحصين للنقود، والذين كانوا يصنعون النظام من التجارة منذ القرن السادس عشر، وينامون بطمأنينية كل ليلة من حياتهم موقنين أن الله أرادهم أن يكونوا أغنياء. كانت هولندا بلاداً من أصحاب المصارف والتجار والحدائقيين، وقد أحب الهولنديون وعودهم كما أحب هنري وعوده (أي مذهبة بالربح)، وهكذا أبقوا العالم أسير نسب فائدة مرتفعة. ولم يحكموا عليه من سلوكه الوقح أو طرقه العدوانية. ففي الحال بدأ هنري ويتاكر والهولنديون بجمع ثروات فاحشة. وفي هولندا دعا أشخاص هنري «أمير البيرو».

صار هنري الآن رجلاً غنياً في الواحد والثلاثين من عمره، وحان

الوقت بالنسبة إليه كي يدير ما تبقى من حياته. أولاً، كان يمتلك الفرصة كي يبدأ أعماله الخاصة المنفصلة بشكل كامل عن شركائه الهولنديين، ودرس خياراته بعناية. لم يكن مفتوناً بالمعادن والأحجار الكريمة لأنه لم يكن يملك خبرة فيها، والأمر نفسه ينطبق على بناء السفن، والنشر أو النسيج. سيتخصص بالنبات إذاً. لكن أي نوع من النبات؟ لم يكن هنري يمتلك رغبة بدخول تجارة التوابل، رغم أن هناك أرباحاً هائلة تُجنى منها. كانت أمم كثيرة منخرطة في هذه التجارة، وكلفة الدفاع عن منتجات المرء من القراصنة والأساطيل المنافسة تهزم المكاسب، بقدر ما استطاع هنري أن يرى. لم يكن يحترم أيضاً تجارة القطن أو السكر، اللتين وجد أنهما غادرتان ومكلفتان ومرتبطتان جوهرياً بالعبودية أيضاً. لم يكن هنري يريد أي شيء يتعلق بالعبودية، لا لأنه عدها مقيتة أخلاقياً، بل لأنه عدها غير فعالة مالياً، وقذرة ومكلفة ويسيطر عليه بعض الوسطاء الأكثر حقارة على وجه الأرض. ما كان يهمه في الحقيقة هو النباتات الطبية، وهذا سوق لم يسيطر عليه أحد بشكل كامل.

وهكذا قرر اختيار النباتات الطبية.

بالتالي، كان عليه أن يقرر أين يجب أن يعيش. كان يملك عزبة رائعة في جافا فيها مائة خادم، لكن المناخ هناك أمرضه مع مرور الأعوام، وأصابه بأمراض استوائية كانت ستدمر صحته في بقية حياته. كان بحاجة إلى موطن أكثر اعتدالاً. سيقطع ذراعه قبل أن يعيش ثانية في إنكلترة. لم ترق له القارة: فرنسا مليئة بالأشخاص المزعجين، وأسبانيا فاسدة وغير مستقرة، روسيا مستحيلة، وإيطاليا سخيفة، وألمانيا صارمة، والبرتغال في انهيار، فضل هولندا إلا أنها بليدة.

قرر أن الولايات المتحدة الأميركية احتمال. لم يذهب هنري إليها

Twitter: @ketab_n

أبداً، لكنه سمع أشياء واعدة. سمع خاصة أموراً واعدة عن فيلادلفيا، العاصمة الحيوية للأمة الشابة. قيل إنها مدينة تمتلك مرفأ يكفي للشحن، ومحورية للشاطئ الشرقي للبلاد، ومليئة بالكويكرز (البروتستانت) العمليين، والصيادلة والمزارعين الكادحين. وأشيع بأنها مكان يخلو من الأرستقراطيين المتغطرسين (على عكس بوسطن)، وبدون متشددين (بيوريتانيين) يخافون من المتعة (على عكس كونيكتيكت)، وبدون أمراء إقطاعيين نصّبوا أنفسهم (على عكس فرجينيا). قامت المدينة على أساس المبادئ القوية للتسامح الديني، والصحافة الحرة، والمناظر الطبيعية الجميلة، على يد وليم بين، الرجل الذي كان يزرع أشتال الشجر في أحواض الحمام، وتخيل مدينته كحاضنة كبيرة للنباتات والأفكار. وكان مُرَحَّباً بالجميع في فيلادلفيا، الجميع بشكل مطلق عدا اليهود، بالطبع. بعد أن سمع بكل هذا، ظن هنري بأن فيلادلفيا مشهد طبيعي فسيح للأرباح غير المدركة وهدف إلى تحويل المكان لفائدته.

وقبل أن يستقر في أي مكان أراد أن يقترن بزوجة، ولأنه لم يكن مغفلاً، أراد زوجة هولندية. كان يريد امرأة ذكية ومحتشمة بأقل ما يمكن من التهور، وكانت هولندا المكان المناسب للعثور عليها. عاشر هنري أحياناً العاهرات مع مرور الأعوام، وأبقى فتاة جافاوية شابة في عزبته في بنغالنغا، لكن حان الوقت الآن للارتباط بزوجة ملائمة، وتذكر نصيحة بحار برتغالي حكيم قال له منذ سنوات كثيرة: «كي تكون مزدهراً وسعيداً في حياتك يا هنري، هذا بسيط. اختر امرأة واحدة، اخترها جيداً، واستسلم».

أبحر عائداً إلى هولندا كي يختار واحدة. اختارها بسرعة وبشكل مدروس، منتزعاً زوجة من عائلة قديمة محترمة، عائلة فان ديفندرز، الذين كانوا أوصياء حدائق هورتس النباتية في أمستردام لأجيال عديدة.

كانت الهورتس في طليعة حدائق الأبحاث في أوربا، وإحدى الصلات الأقدم في التاريخ بين علم النبات والأبحاث والتجارة، وأدارها آل ديفندرز دوماً باستقامة. لم يكونوا أرستقراطيين بأية طريقة، وأكيد أنهم لم يكونوا أغنياء، لكن هنري لم يكن بحاجة لامرأة غنية. كان آل ديفندرز من بين أبرز العائلات الأوربية من ناحية التعلم والعلم، وقد أثار هذا إعجابه.

ولسوء الحظ، لم يكن الإعجاب متبادلاً. فقد كان جاكوب فان ديفندر، البطريرك الحالي للعائلة ولهورتس (واليد الخبيرة في زراعة نبات الألوه الخاص بالزينة)، يعرف عن هنري ويتاكر ولم يعجبه ما سمعه. كان يعرف أن لهذا الشاب تاريخاً من اللصوصية، وأنه أيضاً خان بلاده من أجل الربح. ولم يكن هذا نوع السلوك الذي يوافق عليه جاكوب ديفندر. فقد كان جاكوب هولندياً، نعم، وأحب نقوده، لكنه لم يكن مصرفياً، أو سمساراً. ولم يكن يقيس قيمة الناس بأكوام الذهب التي لديهم.

على أي حال، كان لدى جاكوب فان ديفندر فتاة ممتازة محتملة، أو هذا ما ظنه هنري. اسمها بياتريكس، ولم تكن بسيطة أو جميلة، مما جعلها ملائمة كزوجة. كانت ضخمة وبدون صدر، امرأة كالبرميل، وتستعد للتدحرج نحو الترمل حين قابلها هنري. بالنسبة لمعظم أذواق طالبي اليد، ستظهر بياتريكس فان ديفندر متعلمة بشكل مفرط وعلى نحو مخيف. كانت تتحدث خمس لغات حية واثنتين ميتتين، ولديها خبرة في النباتات تعادل خبرة أي رجل. وأكيد أن هذه المرأة لم تكن مغناجاً. لم تكن زينة لغرفة الاستقبال، وتلبس طيف الألوان الكامل الذي يربطه المرء بعصافير منزلية. طورت شبهة قوية بالعاطفة والمبالغة والجمال واضعة ثقتها فقط في ما هو ملموس وقابل للتصديق، ودائماً

Twitter: @ketab_n

تثق بالحكمة المكتسبة أكثر من الغريزة المتهورة. نظر إليها هنري كلوح موازنة، وهذا ما كان ما يريده.

ما الذي رأته بياتريكس في هنري؟ هنا نصادف لغزاً بسيطاً. لم يكن هنري أنيقاً. ولم يكن مصقولاً. في الحقيقة، كان هناك شيء من حدّاد القرية في وجهه المتورد ويديه الضخمتين وسلوكه الفظ. بالنسبة لمعظم الأعين، لم يبد قوياً أو قابلاً للتصديق. كان هنري ويتاكر رجلاً متهوراً وصاخباً وميالاً إلى القتال، وله أعداء في جميع أنحاء العالم. صار أيضاً، في الأعوام الماضية، كحولياً قليلاً. أي فتاة محترمة ستختار طوعاً شخصية مثله كزوج؟

«إن الرجل بلا مبادئ»، قال جاكوب فان ديفندر لابنته.

صححت بياتريكس له بجفاف: «آه يا أبي، أنت مخطئ جداً، لدى السيد ويتاكر الكثير من المبادئ. لكن ليس الأنواع الأفضل بينها فحسب».

كان هنري غنياً، ولهذا ظنّ بعض المراقبين أن بياتريكس مهتمة بثروته أكثر مما أفصحت. وكان هنري يريد أيضاً أن يأخذ عروسه الجديدة إلى أميركا، وربما ـ كما ثرثر المهرجون المحليون ـ لديها سبب معيب جداً يدفعها إلى مغادرة هولندا إلى الأبد.

كانت الحقيقة على أي حال أكثر بساطة: تزوجت بياتريكس فان ديفندر من هنري ويتاكر لأنها أحبت ما رأته فيه. أحبت قوته ودهاءه وسطوته ووعده. كان فظاً، نعم، لكنها هي نفسها لم تكن زهرة جميلة. احترمت فظاظته واحترم فظاظتها. فهمت ما يريده منها، وشعرت بأنها تستطيع العمل معه، وربما تديره قليلاً. هكذا شكل هنري وبياتريكس بسرعة ومباشرة حلفهما. كانت الكلمة الوحيدة الصحيحة لاتحادهما

Twitter: @ketab_n

كلمة هولندية هي partenrederij وتعني الشراكة، الشراكة المستندة إلى تجارة شريفة وتعامل واضح، حيث أرباح الغد هي نتيجة وعود اليوم، وحيث يسهم تعاون الفريقين بشكل مساو في الرخاء. تبرأت عائلتها منها. أو ربما من الأكثر دقة القول إن بياتريكس تبرأت من عائلتها. كانت عائلة متزمتة. لم توافق على زواجها، ومالت الاختلافات بين آل فان ديفندر إلى أن تكون أبدية. بعد اختيارها لهنري، ومغادرتها إلى الولايات المتحدة الأميركية، لم تتواصل بياتريكس مرة ثانية أبداً مع أمستردام. كانت رؤيتها الأخيرة لعائلتها هي لشقيقها الصغير ديز، الذي كان في العاشرة من عمره، والذي بكى بسبب رحيلها، وشد على تنورتها وصاح: «إنهم يأخذونها مني! يأخذونها بعيداً مني!» فكت أصابع أخيها عن حاشية تنورتها، طالبة منه أن لا يلحق بنفسه العار مرة أخرى ويبكي علناً، وسارت مبتعدة.

أحضرت بياتريكس معها إلى أميركا خادمتها الشخصية، وهي امرأة خبيرة في الخدمة تُدعى هانيكي دي غروت، وأخذت أيضاً من مكتبة والدها طبعة ١٦٦٥ من كتاب روبرت هوك «الكتابة اليدوية الدقيقة»، ومجموعة أكثر قيمة من رسوم ليونهارت فيوكس النباتية. وخاطت دزينة من الجيوب على ثوب سفرها، وملأت كل جيب ببصلات الخزامى الأكثر ندرة من الهورتس، وكلها غُطيت من أجل حمايتها بالطحالب. أحضرت أيضاً معها عدداً من دفاتر الحسابات غير المستخدمة.

كانت تخطط لمكتبتها، وحديقتها ـ وكما بدا ـ لثروتها.

* * *

وصلت بياتريكس وهنري ويتاكر إلي فيلادلفيا في أوائل ١٧٩٣. وكانت المدينة غير المحمية بأسوار أو تحصينات أخرى مؤلفة في ذلك

Twitter: @ketab_n

الوقت من ميناء مشغول، وبعض الأحياء من المصالح التجارية والسياسية، وكتل من المساكن الزراعية، وبعض العقارات الجديدة الرائعة. كانت مكاناً للعمل المربح، وحقلاً خصباً لنمو محتمل. وافتُتح أول مصرف في الولايات المتحدة الأميركية فيها في العام السابق تماماً. كان كومنولث بنسلفانيا كلها في حرب مع غاباتها، وكان قاطنوها المسلحون بالبلطات والثيران والطموح يفوزون. اشترى هنري ٣٥٠ دونماً من المراعي المنحدرة والأراضي الغابية البكر على طول الضفة الغربية لنهر سكيولكل، ناوياً أن يضيف المزيد من الأراضي حالما يقدر على ذلك.

خطط هنري في الأصل أن يكون غنياً في سن الأربعين، لكنه قاد أحصنته بقسوة، كما يقول المثل، بحيث أنه وصل إلى وجهته مبكراً. كان في الثانية والثلاثين من عمره فحسب، وكان معه نقود مجمعة بالباوندات والفلورينات والجنيهات والكوبيكات الروسية. هدف إلى أن يصبح أكثر ثراء من ذلك. ولكن الآن، بعد وصوله إلى فيلادلفيا، حان الوقت للقيام بعرض.

أطلق هنري ويتاكر على ملكيته اسم وايت إيكر، وهذا لعب على اسمه، وفي الحال انطلق كي يبني قصراً وفق طراز بالاديه يليق باللوردات، أجمل من أي بناء خاص سبق أن شاهدتْه المدينة. سيكون المنزل حجرياً واسعاً ومتوازناً جيداً ومزيناً بجناحين شرقي وغربي ورواق بأعمدة في الجنوب، ومصطبة عريضة في الشمال. بنى أيضاً منزلاً للعربات مهيباً، ومشغل حدادة ومنزل حراسة عند البوابة غربياً، وكذلك عدة أبنية للنباتات، بما فيه أول ما سيصبح في النهاية الكثير من البيوت الزجاجية القائمة بذاتها دون دعامات، وبنى مشتل برتقال على طراز البناء المشهور في كيو، ووضع أسس بيت زجاجي بنطاق هائل.

Twitter: @ketab_n

وعلى طول الضفة الغرينية لنهر سكيولكل ـ حيث منذ خمسين سنة فقط كان الهنود يقطفون البصل البري ـ بنى حوضاً لمركبه الخاص، كما في العزب القديمة الرائعة على طول نهر التيمز.

كانت مدينة فيلادلفيا، في جزئها الأكبر، ما تزال تعيش بشكل مقتصد في تلك الأيام، لكن هنري صمم وايت إيكر كإساءة وقحة لفكرة التوفير ذاتها. أراد أن ينبض المكان بالإسراف، ولم يكن خائفاً من الحسد. والحقيقة أنه وجد الحسد رياضة جيدة، وعملاً جيداً، أيضاً، لأن الحسد يشدّ الناس ويقرّبهم. فقد صُمم منزله ليس كي يبدو مهيباً من مسافة فقط ـ كان يُرى بسهولة من النهر، يتوضع مهيباً ومرتفعاً على هضبة، ويطل على المدينة بشكل جميل في الجانب الآخر ـ بل أيضاً كي يعبّر عن الغنى في جميع تفاصيله الدقيقة. كانت قبضات الأبواب من النحاس، وكان النحاس لامعاً. وجاء الأثاث مباشرة من سيدون في لندن، وكُسيت الجدران بورق بلجيكي. وأُحضرت الصحون من كانتون، ومُلئ القبو بالروم الجامايكي ونبيذ الكلاريت الفرنسي، أما المصابيح فقد نُفخت يدوياً في البندقية، والليلك الذي حول المنزل أزهر أول مرة في الإمبراطورية العثمانية.

سمح بأن تنتشر الشائعات عن ثرائه دون تدقيق. كونه كان غنياً هكذا، لم يؤذ الناس أن يتخيلوه أكثر غنى. وحين بدأ الجيران يتهامسون بأن أحصنة هنري ويتاكر نُعَلتْ حوافرها بالفضة، سمح لهم بمواصلة تصديق ذلك. وفي الحقيقة لم تكن حوافر أحصنته منعّلة بالفضة؛ بل بالحديد، كمثل أحصنة أي شخص، والأكثر من ذلك هو أن هنري نعّلها بنفسه (وهي مهارة تعلمها في البيرو، على البغال المسكينة مستخدماً أدوات سيئة)، ولكن لماذا يجب أن يعرف أي شخص هذا، حين تكون الإشاعة ممتعة هكذا وكبيرة؟

Twitter: @ketab_n

لم يفهم هنري إغراء المال فحسب، بل أيضاً الإغراء الأكثر غموضاً للسلطة. عرف أن عزبته لن تُذهلَ فحسب، بل ستُرهب أيضاً. كان لويس الرابع عشر يأخذ زواره في نزهات في حدائق المتعة التي يملكها ليس من أجل اللهو والاستمتاع، بل كعرض للقوة. كانت جميع الأشجار الغرائبية المزهرة والينابيع المتلألئة والتماثيل اليونانية التي لا تُقدر بثمن وسائل لإيصال رسالة واضحة إلى العالم: لا أنصحكم بإعلان الحرب ضدي! تمنى هنري أن تعبّر وايت إيكر عن مضمون الرسالة نفسها.

بنى هنري أيضاً مستودعاً ضخماً ومصنعاً في الأسفل قرب مرفأ فيلادلفيا، من أجل تلقي النباتات الطبية من جميع أنحاء العالم: نبات عرق الذهب والسيماروبا والراوند ولحاء الغويقم والفطر الصيني (تشاينا روت)، ونبات الفشاغ. دخل في شراكة مع صيدلي بروتستانتي قوي اسمه جيمس جاريك، وبدأ الرجلان على الفور معالجة الأقراص والمساحيق والمراهم والأدوية المنشطة.

بدأ عمله مع جاريك في الوقت المناسب. ففي صيف ١٧٩٣، هاجم وباء حمى صفراء فيلادلفيا. سُدَّت الشوارع بالجثث، وتمسك الأيتام بأمهاتهم الميتات في الجداول. مات الناس أزواجاً وفي عائلات ومجموعات من دزينات مخرجين أنهاراً ممرضة من الطين الأسود من حلوقهم وأحشائهم في طريقهم إلى الموت. قرر الأطباء المحليون أن العلاج الوحيد الممكن هو أن يطهروا مرضاهم بعنف أكبر، عبر نوبات متكررة من الإقياء والإسهال، وكان المطهّر المعروف على نحو أفضل في العالم هو نبتة تُدعى الجلاب، كان هنري قد بدأ باستيرادها من المكسيك في حزم. اشتبه هنري بأن علاج الجلاب مزيف، ورفض أن يجعل أحداً في منزله يتناوله. كان يعرف أن الأطباء الكريوليين في منطقة الكاريبي - الأكثر معرفة بكثير بالحمى الصفراء من نظرائهم الشماليين -

Twitter: @ketab_n

عالجوا المرضى بوصفة أقل بربرية، بسوائل علاجية وراحة. لم يكن هناك مال يُجنى، على أي حال، من السوائل العلاجية والراحة، بينما كان يمكن جني أموال طائلة من الجلاب. وهكذا حدث أنه في نهاية ١٧٩٣، توفي ثلث سكان فيلادلفيا من الحمى الصفراء، وضاعف هنري ويتاكر ثروته.

استخدم هنري هذا الدخل وبنى بيتين زجاجيين إضافيين. وباقتراح من بياتريكس، بدأ بزراعة أزهار وأشجار وشجيرات أميركية محلية للتصدير إلى أوربا. كانت فكرة مثمرة، فقد كانت مروج وغابات أميركا مليئة بأنواع نباتية بدت غرائبية للعين الأوربية، ويمكن أن تباع بسهولة وراء البحار. سئم هنري من إرسال سفنه من مرفأ فيلادلفيا بعنابر فارغة، الآن يستطيع أن يكسب النقود من الجهتين. كان ما يزال يكسب ثروة من جافا، يعالج لحاء اليسوعيين مع شركائه الهولنديين، ولكن هناك ثروة يمكن أن تُحَصّل محلياً أيضاً. وفي ١٧٩٦، أرسل هنري الجامعين إلى جبال بنسلفانيا كي يجمعوا جذر الجنسنغ للتصدير إلى الصين. وفي الحقيقة كان طيلة سنوات كثيرة الرجل الوحيد في أميركا الذي حدث وفكر بأن يبيع شيئاً ما للصينيين.

في نهاية ١٧٩٨، ملأ هنري بيوته الزجاجية الأميركية بنباتات استوائية غرائبية مستوردة، كي يبيعها للأرستقراطيين الأميركيين الجدد. وكان الاقتصاد الأميركي يشهد نمواً قوياً ومفاجئاً. وكان كل من جورج واشنطن وتوماس جفرسون يملكان عزباً ريفية فاخرة، وهكذا فإن الجميع أرادوا عزباً ريفية فاخرة. وكانت الأمة الفتية تختبر فجأة حدود الإسراف. وكان بعض المواطنين يصبحون أغنياء، وكان آخرون يقعون في العوز. أما مسار هنري فقد حلّق نحو الأمام فحسب. كان أساس كل من حسابات هنري ويتاكر هو «سأربح»، وربح بشكل ثابت من

Twitter: @ketab_n

الاستيراد والتصدير والصناعة والانتهازية من جميع الأنواع. بدا كأن النقود تحب هنري ويتاكر. وكان المال يتبعه ككلب صغير مهتاج. وفي ١٨٠٠ صار أغنى رجل في فيلادلفيا، وواحداً من الرجال الثلاثة الأغنى في نصف الكرة الأرضية الغربي.

وهكذا حين ولدت ألما ابنة هنري في ذلك العام، بعد ثلاثة أسابيع فقط من موت جورج واشنطن، بدا وكأنها وُلدتْ لكائن من نوع جديد بشكل كامل، لم ير العالم مثله: سلطان أميركي قوي ومُنَصَّب حديثاً.

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

خوخة وايت إيكر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

كانت ابنة والدها، هذا ما قِيلَ عنها من البداية. ذلك أن ألما ويتاكر بدت تماماً مثل هنري: شعرها بني، وبشرتها متوردة، وفمها صغير وجبينها عريض وأنفها كبير. وكان هذا بالأحرى مرتبطاً بسوء الحظ بالنسبة لألما، رغم أن الأمر استغرق بضع سنوات كي تدرك ذلك. فقد كان وجه هنري ملائماً لرجل ناضج أكثر مما هو لفتاة صغيرة. لكن هنري لم يعترض على الأمر؛ فقد استمتع بالنظر إلى صورته أينما صادفها (في مرآة، في صورة، في وجه طفلة)، وهكذا فقد شعر بالرضا دوماً من مظهر ألما.

كان يتباهى: «لا يُشَكُّ بمن أنجب تلك الطفلة!».

فضلاً عن ذلك، كانت ألما ذكية مثله، وقوية أيضاً. كانت جَمَلاً عربياً صغيراً، لا تكلّ ولا تشكو. لم تمرض أبداً. وكانت عنيدة. من اللحظة التي تعلمت فيها الفتاة الكلام، لم تتوقف عن المجادلة. ولو لم تقم أمها القوية بطحن الوقاحة وإخراجها منها، لكان من المحتمل أن تصبح وقحة بصراحة. كانت مليئة بالطاقة. وأرادت أن تفهم العالم، وطوّرتْ عادةَ مطاردة المعلومات إلى آخر مكان تختبئ فيه، كما لو أن مصير الأمم في خطر كل لحظة. وأرادت أن تعرف لماذا المهر ليس حصاناً طفلاً. وأرادت أن تعرف لماذا الشرارات تتولد حين تسحب يدها عبر الأغطية في ليلة صيف حارة. لم ترد أن تعرف إن كانت الفطور

Twitter: @ketab_n

نباتات أم حيوانات فحسب، لكن أيضاً، وبعد أن أجيب على سؤالها، سألت لماذا هذا مؤكد.

وُلدت ألما للوالدين المناسبين من أجل هذه الأنواع من الأسئلة، وطالما أن أسئلتها يُعبّر عنها باحترام، كان يُجاب عليها. عمل كلٌ من هنري وبياتريكس ويتاكر، اللذين لا يقبلان البلادة بشكل مساو، على تنمية روح استقصاء في ابنتهما. فقد مُنح سؤال ألما عن الفطر جواباً جدياً (من بياتريكس في هذه الحالة، التي استشهدت بالمصنف النباتي السويدي المحترم كارل لينايوس حول كيف نميز المعادن عن النباتات والنباتات عن الحيوانات. «الأحجار تنمو. النباتات تنمو وتعيش. الحيوانات تنمو، وتعيش، وتشعر»). لم تعتقد بياتريكس أن طفلة في الرابعة من عمرها صغيرة على مناقشة لينايوس. وفي الحقيقة بدأت بياتريكس بتعليم ألما الرسمي تقريباً حين بدأت الطفلة بالتمكن من الانتصاب. إذا كان أطفال أشخاص آخرين يمكن أن يُعلّموا أن يُردّدوا الصلاة وتعاليم الدين المسيحي بتلعثم حالما يتمكنون من النطق، فإن طفلتها إذاً، كما اعتقدت بياتريكس، يمكن بالتأكيد أن تُعلّم أي شيء.

نتيجة لهذا، تعلمت ألما الأرقام قبل سن الرابعة بالإنكليزية والفرنسية واللاتينية. وقد شُدد على دراسة اللاتينية على نحو خاص، لأن بياتريكس اعتقدت أنه لا أحد يجهل اللاتينية يستطيع أن يكتب جملة ملائمة في الإنكليزية أو الفرنسية. كان هناك عمل مبكر على اليونانية، أيضاً، ولو بإلحاحية أقل نوعاً ما. (حتى بياتريكس لم تؤمن أن الطفل يجب أن يتعلم اليونانية قبل سن الرابعة). علّمت بياتريكس ابنتها الذكية بنفسها، وبرضا. إن الوالد لا يُعذر إذا لم يقم شخصياً بتعليم طفلته على التفكير. وصادف أن بياتريكس كانت تعتقد أيضاً أن الملكات الفكرية للبشرية تتدهور بثبات منذ القرن الثاني بعد الميلاد، وهكذا فقد

Twitter: @ketab_n

استمتعت بإدارة حديقة أثينية خاصة للتعليم في فيلادلفيا، فقط من أجل فائدة ابنتها.

شعرت مدبرة المنزل الرئيسية هانيكي دي غروت أن دماغ ألما الأنثوي الصغير ربما أُثقل بالكثير من الدراسة، لكن بياتريكس لن تصغي إلى كلام كهذا، لأن بياتريكس عُلمت بهذه الطريقة، مثلها مثل جميع أطفال عائلة فان ديفندر، ذكوراً وإناثاً، منذ الزمن السحيق. وبختها بياتريكس قائلة: «لا تكوني بسيطة يا هانيكي، لم يحدث في أية لحظة في التاريخ أن فتاة صغيرة تأكل كثيراً وبنيتها قوية هلكت من الكثير من التعليم».

كانت بياتريكس تعجب بالمفيد أكثر من التافه، وبما يُعلّم أكثر مما يسلّي. واشتبهت بكل ما يمكن أن يدعوه المرء «تسلية بريئة»، ومقتت تماماً كل ما هو أحمق أو خسيس. وتضمنت الأمور الحمقاء والخسيسة الخمارات والنساء المتبرجات وأيام الانتخابات (يستطيع المرء أن يتوقع دائماً الرعاع)، أكل البوظة، وزيارة محلات البوظة، والإنجيليين (الذين شعرت أنهم كاثوليكيون مزيفون، وسلمت أن دينهم يتناقض مع الأخلاق والفطرة السليمة)، والشاي (إن السيدات الهولنديات الجيدات لا يشربن إلا القهوة)، والأشخاص الذين يقودون زلاجاتهم في وقت الشتاء دون أجراس على أحصنتهم (لا تستطيع سماعهم وهم قادمون خلفك)، والمساعدة المنزلية الرخيصة (مساومة مزعجة)، والأشخاص الذين يدفعون لخدمهم شراب الروم بدلاً من النقود (يسهمون هكذا في السكر)، والأشخاص الذين يأتون إليكَ بمشكلاتهم ثم يرفضون الإصغاء إلى النصيحة الجيدة، وحفلات رأس السنة (سيأتي العام الجديد بطريقة أو أخرى، بصرف النظرْ عن رنين الأجراس كله)، والأرستقراطية، ذلك أن النبالة يجب أن تستند إلى السلوك، وليس إلى الإرث)، والأطفال

Twitter: @ketab_n

الذين يُغالى في مديحهم (إن السلوك الجيد يجب أن يتم توقعه لا أن يُكافأ).

تبنت شعار «العمل هو مكافأته الخاصة». واعتقدت أن هناك كرامة متضمنة في بقاء المرء متحفظاً ولامبالياً بالإحساس، وبالفعل، اعتقدت أن اللامبالاة بالإحساس هو التعريف الدقيق للكرامة. والأهم من ذلك كله، آمنت بياتريكس ويتاكر بالاحترام والأخلاق ولكن إذا اضطرت للاختيار بين الاثنين، فربما ستختار على الأرجح الاحترام.

جاهدت كي تعلّم كل هذا لابنتها.

* * *

كان من الجليّ أن هنري ويتاكر لا يستطيع المساعدة في تعليم المواضيع الكلاسيكية، لكنه كان مُقَدِّراً لجهود بياتريكس التعليمية مع ألما. وكرجل نباتات ذكي لكن غير متعلم، شعر دوماً أن اليونانية واللاتينية حاجزان حديديان يسدان طريق المعرفة في وجهه؛ وهو لا يريد أن يسد طريق ابنته بشكل مشابه. وفي الحقيقة لن يرغب بأن يسد طريق ابنته في أي شيء.

ما الذي علّمه هنري لألما؟ حسناً، لم يعلمها شيئاً. أي لم يعلمها أي شيء بشكل مباشر. لم يكن يمتلك الصبر للقيام بالتعليم الرسمي، ولم يكن يحب أن يُحاط بالأطفال. لكن ما تعلمته ألما من والدها بشكل غير مباشر شكّل قائمة طويلة. أولاً وقبل كل شيء تعلمت ألا تغيظه. ففي اللحظة التي كانت تغيظ فيها والدها، كانت تُطرد من الغرفة، وهكذا تعلمت منذ وعيها الحليبي المبكر ألا تغيظ أو تثير هنري أبداً. كان هذا تحدياً لألما، ذلك أنه تطلّب سحقاً عنيفاً لكل غرائزها الطبيعية (والتي كانت على وجه الدقة أن تغيظ وتثير). تعلمت، على أي حال، أن والدها لن يتضايق بشكل كامل من سؤال جدي مهم أو مصقول من

ابنته، طالما أنها لا تقاطع كلامه أبداً أو أفكاره. كانت أسئلتها تسلّيه أحياناً، رغم أنها لم تفهم دائماً لماذا، كما حين سألت لماذا يستغرق الخنزير طويلاً وهو يتسلق ظهر أنثاه، بينما الثور سريع جداً مع الأبقار. لقد دفع هذا السؤال هنري إلى الضحك. لم تحب ألما أن يُضحك عليها. تعلمت ألا تسأل سؤالاً كهذا مرتين.

لاحظت ألما أن والدها يفقد صبره مع عماله وضيوف منزله وزوجته ومعها هي، وحتى مع أحصنته، لكنه لم يفقد صبره مع النباتات أبداً. كان دائماً محسناً وغفوراً مع النباتات. هذا جعل ألما تتوق أحياناً إلى أن تكون نبتة. لم تتحدث أبداً عن هذا التوق، لأن هذا سيجعلها تبدو مغفلة، وقد تعلمت من هنري أن المرء يجب ألا يبدو أبداً مغفّلاً. «إن العالم مغفل يتوق إلى أن يُخدع»، كان يردد دوماً، وقد زرع دائماً في ابنته أن هناك فجوة كبيرة بين البلهاء والأذكياء، ويجب أن يقف المرء إلى جانب الذكاء. وإذا ما أظهر المرء توقاً إلى ما لا يستطيع الحصول عليه، مثلاً، فإن هذا ليس موقفاً ذكياً.

عرفت ألما من هنري أن هناك مناطق بعيدة جداً في العالم، يذهب إليها الناس ولا يعودون أبداً، لكن والدها ذهب إلى تلك الأمكنة وعاد منها. (أحبت أن تتخيل أنه عاد إلى المنزل من أجلها، كي يكون والدها، رغم أنه لم يلمّح إلى شيء كهذا أبداً). عرفت أن هنري تحمّل العالم لأنه كان شجاعاً. علمت أن والدها يتمناها أن تكون شجاعة أيضاً، حتى في الظروف الأكثر رعباً: الرعد، حين تطاردها إوزة، حين يطوف نهر سكيولكل، القرد الذي على عنقه سلاسل الذي سافر في العربة مع السمكري. لن يسمح هنري لألما بأن تخاف من أي من هذه الأمور. وحتى قبل أن تفهم بشكل ملائم ما يعنيه الموت، منعها من أن تخشى هذا أيضاً.

Twitter: @ketab_n

قال لها: «إن الناس يموتون كل يوم، لكن هناك ثمانية آلاف فرصة كي لا تموتي أنت».

علمت أن هناك أسابيع ـ أسابيع ممطرة خاصة ـ حين يمرض والدها بطريقة لا يستطيع أي رجل في العالم المسيحي أن يتحملها. كان لديه ألم دائم في ساق واحدة من عظم انكسر على نحو سيئ، وعانى من نوبات الحمّى المتكررة التي أصيب بها في تلك الأمكنة البعيدة والخطيرة في أنحاء العالم. مرت أوقات لم يستطع فيها هنري مغادرة فراشه لنصف شهر. وكان يجب عدم إزعاجه أبداً في تلك الظروف. ويجب على المرء أن يدخل بهدوء حتى إذا كان يحضر إليه الرسائل. كانت هذه الأمراض هي التي منعت هنري من السفر، ولماذا، بدلاً من ذلك، كان يستدعي العالم إليه. ولهذا كان هناك زوار على الدوام إلى وايت إيكر، وكان الكثير من الأعمال يتم في غرفة الاستقبال وحول طاولة العشاء. ولهذا وظف هنري رجلاً يدعى ديك يانسي، وهو رجل من يوركشير، مرعب وصامت وأصلع ذو عينين باردتين، والذي كان يسافر باسم هنري وينظم العالم باسم شركة ويتاكر. تعلمت ألما ألا تتحدث أبداً مع ديك يانسي.

علمت ألما أن والدها لا يمارس الطقوس الدينية رغم أنه يحجز باسمه أروع مقعد في الكنيسة اللوثرية السويدية حيث كانت ألما وأمها تمضيان أيام الأحد. لم تكترث والدة ألما بشكل خاص بالسويديين، ولكن بما أنه لم تكن هناك كنيسة هولندية بروتستانتية في الجوار، فقد كان السويديون أفضل من لا شيء. كان السويديون يفهمون على الأقل ويتشاطرون معتقدات التعاليم الكالفينية: أنت مسؤول عن وضعك في الحياة، ومن المرجح أكثر أنك خاضع لحكم القضاء والقدر، والمستقبل مشؤوم بشكل مرعب. كان كل هذا مألوفاً لبياتريكس بشكل مريح، وأفضل من أي من الأديان الأخرى بتطميناتها المزيفة والضعيفة.

Twitter: @ketab_n

تمنت ألما ألا تضطر للذهاب إلى الكنيسة، وأن تستطيع البقاء في المنزل أيام الأحد كما يفعل والدها، كي يعمل على النباتات. فالكنيسة بليدة وغير مريحة وتفوح منها رائحة عصير التبغ. وفي أوقات الصيف تأتي الديكة الرومية والكلاب أحياناً إلى داخل الباب الأمامي المفتوح، ناشدة الظل من الحرارة التي لا يمكن تحملها. وفي أوقات الشتاء، يصبح البناء الحجري القديم بارداً بشكل لا يمكن تحمله. وكلما دخل شعاع ضوء عبر إحدى النوافذ الطويلة ذات الزجاج المتموج، تدير ألما وجهها نحوه، ككرمة استوائية في أحد بيوت والدها الزجاجية، راغبة بأن تتسلق عليها إلى الخارج.

لم يكن والد ألما يحب الكنائس أو الأديان، لكنه كان بشكل متكرر يدعو الله إلى لعن أعدائه. أما بالنسبة للأمور الأخرى التي لم يحبها هنري فقد كانت القائمة طويلة، وألما تعرفها جيداً. عرفت أن والدها يمقت الرجال الضخام الذين يربون كلاباً صغيرة، ويمقت الذين يشترون خيولاً سريعة لا يمتلكون المهارة لركوبها. علاوة على ذلك، كان يمقت زوارق الملاحة الترفيهية، والذين يُجْرون مسوحاً، والأحذية سيئة الصنع، وما هو فرنسي (اللغة والطعام والناس)، والموظفين العصبيين، وصحون الخزف الصغيرة التي تنكسر في يد المرء اللعينة، والشّعر (لكن ليس الأغاني)، والظهور المحنية للجبناء، وأبناء العاهرات اللصوص، واللسان الكاذب، وصوت الكمان، والجيش (أي جيش)؛ والخزامى («البصل الذي له روائح»)؛ وطيور أبي زريق؛ وشرب القهوة («عادة هولندية لعينة!») و- رغم أن ألما لم تفهم بعد ما الذي يعنيه أي من هذه الكلمات - كلاً من العبودية ودعاة إلغاء عقوبة الإعدام.

يمكن أن يكون هنري نارياً. يستطيع أن يهين ألما ويحط من قدرها بالسرعة التي يمكن أن يزرّر بها رجل آخر زرّ صدار. («لا أحد يطيق

Twitter: @ketab_n

خنزيراً صغيراً غبياً وأنانياً!») لكن تمر لحظات أيضاً حين يكون مولعاً بها بشكل حقيقي، وحتى فخوراً بها. جاء غريب إلى وايت إيكر في أحد الأيام كي يبيع هنري مهراً، كي تتعلم ألما ركوب الخيل. كان اسم المهر سواميس وكان بلون كريما السكر، وأحبته ألما على الفور. تم التفاوض على السعر. استقر الرجلان على ثلاثة دولارات. ألما، التي كانت في السادسة من عمرها فحسب، سألت: «اعذرني يا سيدي، لكن هل يشمل هذا السعر أيضاً اللجام والسرج اللذين على المهر الآن؟».

تردد الغريب بعد السؤال، لكن هنري زأر من الضحك، وقال بصوت مرتفع: «لقد تمكّنتْ منك في هذا يا رجل!»، ولبقية اليوم كان ينفش شعرها كلما اقتربت قائلاً: «لقد حصلتُ على ابنة تصلح كدلاّلة جيدة!».

عرفتْ ألما أن والدها يشرب من الزجاجات مساء، وأن تلك الزجاجات تحتوي أحياناً على الخطر (الأصوات المرتفعة، والطرد)، لكن يمكن أن تحتوي أيضاً على المعجزات، كمثل الإذن بالجلوس في حضن والدها، حيث يمكن أن يروي لها قصصاً خيالية، ويمكن أن تُنادى بكنيتها الأكثر ندرة: «الخوخة». في ليال كتلك، كان هنري يقول لها أموراً مثل: «يا خوخة يجب أن تحملي معك ما يكفي من الذهب دوماً كي تشتري حياتك في حال اختُطفتِ. خيطيه في حواشي ثيابك، إذا أردت، لكن لا تكوني أبداً بلا نقود!» أخبرها هنري أن البدو في الصحراء يخيطون أحياناً الأحجار الكريمة تحت جلودهم، من أجل الطوارئ. أخبرها أنه هو نفسه كانت لديه زمردة من أميركا الجنوبية خاطها تحت الجلد المرتخي لبطنه، وبدت للعين غير الخبيرة كندبة من جرح ناجم عن طلق ناري، وأنه لن يريها أبداً لها، لكن الزمردة موجودة.

Twitter: @ketab_n

قال: «يجب أن يكون دائماً لديك رشوة أخيرة، يا خوخة!».

علمت ألما وهي في حضن والدها أن هنري أبحر حول العالم مع رجل عظيم يدعى القبطان كوك. كانت هذه أفضل القصص. في أحد الأيام خرج حوت عملاق إلى سطح المحيط وفمه مفتوح، وجعل القبطان كوك السفينة تبحر مباشرة إلى داخل الحوت، ألقت نظرة في جوفه، ثم أبحرت خارجة مرة أخرى إلى الوراء! ومرة سمع هنري ضجيج صراخ في البحر، وشاهد حورية تعوم على سطح المحيط. هاجمت سمكة قرش الحورية. سحب هنري الحورية من الماء بحبل، وماتت بين ذراعيه، لكن ليس قبل أن باركت، باسم الله، هنري ويتاكر وقالت له إنه سيصبح غنياً في أحد الأيام. وهكذا حصل على هذا المنزل الكبير، بسبب مباركة تلك الحورية!

«أية لغة تحدثت الحورية؟» أرادت ألما أن تعرف، متخيلة أنها تقريباً يجب أن تكون اليونانية.

قال هنري: «الإنكليزية. قسماً بالله يا خوخة، لماذا سأجازف وأنقذ حورية أجنبية ملعونة؟».

كانت ألما تشعر بالخوف والرهبة من أمها، لكنها متيمة بوالدها. أحبته أكثر من أي شيء آخر. أحبته أكثر من المهر سواميس. كان والدها عملاقاً، ونظرت إلى العالم من بين ساقيه العملاقتين. وبالمقارنة مع هنري، كان إله الإنجيل منفصلاً وبعيداً. ومثل إله الإنجيل، كان هنري يختبر أحياناً حب ألما، وخاصة بعد أن تُفتح الزجاجات. كان يقول: «أيتها الخوخة لماذا لا تجرين بقدر ما تستطيع ساقاك الطويلتان والنحيلتان حملك إلى رصيف المرفأ وتستَعلمي إن كانت قد وصلت أية سفن لوالدك من الصين؟».

Twitter: @ketab_n

كان رصيف المرفأ على بعد سبعة أميال، على الجانب الآخر من النهر. يمكن أن تكون الساعة التاسعة مساء يوم أحد أثناء عاصفة شديدة البرد في آذار، لكن ألما تقفز من حضن والدها وتجري. كان يجب أن يمسك بها أحد الخدم عند الباب ويحملها إلى غرفة الجلوس، أو كانت تفعل ذلك في سن السادسة، دون رداء أو قلنسوة، أو بدون بنس في جيبها أو أصغر قطعة من الذهب في حواشي ثيابها.

* * *

أي طفولة مرت فيها هذه الفتاة!

لم تكن ألما تملك والدين قويين وذكيين فقط، بل تملك أيضاً عزبة وايت إيكر كلها كي تستقصيها بمشيئتها. كانت أَركاديا حقاً. وكان هناك الكثير الذي يمكن تعلمه منها. كان المنزل نفسه أعجوبة لا تتوقف عن التكشف. فهناك الزرافة المحشوة كثيرة الكتل في الجناح الشرقي، بوجهها المذعور والكوميدي. وهناك الأضلاع الثلاثية الضخمة للمستادون في المدخل المفتوح، محفورة في حقل قريب من قبل مزارع محلي، والتي باعها لهنري مقابل بندقية جديدة. وهناك غرفة الرقص، لامعة وفارغة، حيث مرة ـ في صقيع أواخر الخريف ـ شاهدت ألما طائراً طناناً وقع أسيراً، والذي عبر أذنها في المسار الأكثر لفتاً للانتباه (صاروخ مرصع بالجواهر أُطلق على ما يبدو من مدفع صغير). كان هناك طائر الزرزور في القفص في غرفة استقبال والدها، الذي جاء طول الطريق من الصين، والذي يستطيع التحدث بفصاحة مشوبة بالحماس (أو هكذا زعم هنري) لكن فقط بلغته الأصلية. كان هناك جلود الأفاعي النادرة، المحفوظة في حشوة من القش ونشارة الخشب، رفوف يعلوها

Twitter: @ketab_n

مرجان من البحر الجنوبي، وتماثيل جافاوية، ومجوهرات مصرية قديمة من اللازورد، وتقاويم تركية يعلوها الغبار.

كان هناك أيضاً الكثير من الأمكنة التي يمكن أن يأكل فيها المرء، غرفة الطعام وغرفة الاستقبال والمطبخ والبهو والمكتب وغرفة التشمّس والبرندات التي تظللها الأشجار. كان هناك وجبات غداء مؤلفة من الشاي وخبز الزنجبيل والكستناء والدراق. (وتلك الدراقات قرمزية في جانب وذهبية في جانب). وفي الشتاء، يستطيع المرء أن يشرب الحساء في غرف الطابق العلوي وهو يتأمل النهر في الأسفل، يلمع تحت السماء العارية كمرآة مصقولة.

لكن في الخارج، المتع أكثر وفرة والأسرار أكثر حضوراً. كانت البيوت الزجاجية النبيلة، المليئة بنبات السيكاد الذي يشبه أشجار النخيل والسرخس، كلها مغلفة بلحاء دباغين عميق أسود ونتن لتدفئتها. وكانت هناك آلة الماء الصاخبة المخيفة، التي تبقي البيوت الزجاجية رطبة. وهناك المشاتل الزجاجية الغامضة، الحارة دوماً بشكل يسبب الإغماء، حيث توضع النباتات المستوردة الحساسة كي تشفى بعد رحلات بحرية طويلة، وحيث تتم رشوة نباتات السحلبية كي تزهر. هناك أيضاً أشجار الليمون في مشتل الليمون، والتي تخرج على الدواليب كل صيف كمرضى مسلولين، للاستمتاع بالشمس الطبيعية. وهناك المعبد الإغريقي الصغير، المخبأ في نهاية جادة من أشجار البلوط، حيث يستطيع المرء أن يتخيل جبل الأولمب.

هناك معمل الألبان، وتتوضع إلى جانبه بقوة حجرة صناعة الزبدة والأجبان بنفحتها المغرية من السيمياء والخرافة والسحر. فقد كانت الحلابات الألمانيات يرسمن على بابها شعوذات ويُطْلقن تعزيمات قبل

Twitter: @ketab_n

أن يَدْخلن البناء. ذلك أن الجبنة لن تعقد، كما أَخْبرنَ ألما، إذا لعنها الشيطان. حين سألت ألما أمها عن ذلك، وبختها بأنها ساذجة، وألقت محاضرة طويلة حول كيف ترقد الأجبان بالفعل، كما تبيّن، عبر تحويل كيميائي عقلاني بشكل كامل للحليب الطازج المعالج بالمنفحة التي تحتوي على إنزيم الرينيت، والتي توضع بعد ذلك كي تنضج في طبقات من الشمع في درجات حرارة متحكم بها. بعد أن استُكمل الدرس، مسحت بياتريكس الشعوذات عن باب غرفة صناعة الزبدة ووبخت الحلابات ودعتهن بالحمقاوات اللواتي يؤمنَّ بالخرافة. في اليوم التالي لاحظت ألما أن الشعوذات الحواريّة رُسمت ثانية. بطريقة أو بأخرى، واصلت الأجبان نضجها بشكل ملائم.

ثم كان هناك دونمات الأرض الغابية التي بلا نهاية ـ وقد تُركت قصداً دون حراثة ـ المليئة بالأرانب والثعالب والغزلان التي تأكل من يد المرء. ولقد سُمح لألما ـ كلا، بل تم تشجيعها ـ من قبل والديها كي تتجول في تلك الأرض الغابية متى شاءت، من أجل أن تتعلم العالم الطبيعي. جمعت الخنافس والعناكب والفراشات. وشاهدت في أحد الأيام ثعباناً مخططاً كبيراً يأكله ثعبان آخر أسود أكبر منه بكثير، واستغرقت هذه العملية عدة ساعات وكانت عرضاً رهيباً وضخماً. وراقبت العناكب المرقّطة تحفر قنوات عميقة في فطيرة مصنوعة من الطحين، وطيور أبي الحن تجمع الطحالب والطين عن حافة النهر من أجل أعشاشها. وتبنت يسروعاً صغيراً وأنيقا (أنيقاً وفق معايير اليساريع)، ولفّته بورقة كي تأخذه إلى المنزل كصديق، لكنها قتلته فيما بعد حين جلست عليه دون انتباه. كانت تلك ضربة حادة، لكن المرء يجب أن يواصل حياته. هذا ما قالته لها أمها: «توقفي عن البكاء وتابعي». إن الحيوانات تموت، كما شُرح لها. إن بعض الحيوانات، كالخراف

Twitter: @ketab_n

والأبقار، لم تولد لأي هدف آخر سوى الموت، ولا يستطيع المرء أن يندب جميع الميتات. في سن الثامنة كانت ألما قد شرّحت بمساعدة بياتريكس رأس حمل.

كانت ألما تذهب إلى الغابات وهي ترتدي دوماً فستاناً ملائماً مسلّحة بمجموعة الزجاجات الشخصية الخاصة بها، وصناديق تخزين صغيرة، والقطن الطبي، وألواح للكتابة. تذهب في جميع أنواع الطقس، لأن المتع يمكن العثور عليها في جميع أنواع الطقس. وفي أواخر نيسان/ أبريل من أحد الأعوام هبت عاصفة ثلجية وأحضرت الصوت الغريب للطيور المغردة وللأجراس الصغيرة للمراكب الجليدية مختلطة معاً، وكان هذا لوحده يستحق مغادرة المنزل من أجله. تعلمت أن السير بحرص في الطين كي ينقذ المرء بوطه أو حواشي فستانه لا يكافئ أبداً بحث المرء. لم تُوبَّخ أبداً حين كانت تعود إلى المنزل ببوط أو بحواش متسخة بالطين، طالما أنها تعود ببعض العينات الجديدة لمجموعة الأعشاب الخاصة.

كان المهر سواميس رفيق ألما الدائم في هذه الغزوات، وكان يحملها أحياناً عبر الغابة، وأحياناً يتبعها ككلب ضخم حسن السلوك. وفي الصيف، تضع شرابات رائعة في أذنيه، لإبعاد الذباب. وفي الشتاء، تكسوه بالفرو تحت سرجه. كان سواميس أفضل شريك في جمع النباتات يمكن أن يتخيله المرء، وكانت ألما تتحدث معه طول اليوم. سيفعل أي شيء للفتاة، باستثناء الحركة بسرعة. وكان يأكل العينات في بعض الأحيان.

في صيفها التاسع، تعلمت ألما بشكل كامل لوحدها أن تعرف الوقت من تفتح وانغلاق الأزهار. وفي الخامسة صباحاً، لاحظت أن

تويجات لحية التيس تكون غير منغلقة دوماً. وفي السادسة صباحاً تتفتح أزهار الأقحوان وأزهار الجلوب. وحين تحين الساعة السابعة تتفتح أزهار الهندباء. وفي الثامنة، يأتي دور كزبرة الثعلب القرنفلية. وفي التاسعة عشبة الطير. في العاشرة زعفران المروج. في الحادية عشرة تُعكس العملية. في الظهيرة تنغلق عشبة الطير. في الثالثة تنغلق أزهار الهندباء. إذا لم تعد ألما إلى المنزل بيديها مغسولتين في الخامسة، بعد أن تنغلق زهرة الجلوب وتبدأ زهرة الربيع المسائية بالتفتّح، ستواجه مشكلة.

ما كانت تريد ألما معرفته أكثر من أي شيء آخر هو كيف نُظِّم العالم. ما الآلية الرئيسية وراء كل شيء؟ نتفت الأزهار واستقصت هندستها الداخلية العميقة. فعلت الشيء نفسه مع الحشرات، ومع أية جثة عثرت عليها. في صباح متأخر من أيام أيلول/ سبتمبر سُحرت ألما بالظهور المفاجئ للزعفران، وهي زهرة اعتقدت أنها لا تتفتح إلا في الربيع. يا له من اكتشاف! لم تستطع الحصول على جواب شاف من أي شخص عن ماذا بحق السماء تعتقد هذه الأزهار أنها تفعل بظهورها هنا في البداية الباردة للخريف، دون أوراق وغير محمية، فيما كل شيء يموت. «إنها أزهار زعفران خريفية»، قالت لها بياتريكس. نعم، على ما يبدو وبوضوح هي كذلك، لكن من أجل أية غاية؟ لماذا تتفتح الآن؟ هل هي أزهار غبية؟ هل فقدت مسار الزمن؟ أي واجب مهم تقوم به أزهار الأقحوان هذه، ولماذا تعاني كي تتفتح أثناء الليالي الأولى المؤلمة للصقيع؟ لا أحد استطاع أن يوضح ذلك. «هكذا ببساطة تتصرف المجموعة المتنوعة»، قالت بياتريكس، لكنّ ألما وجدت الجواب غير مقنع على نحو غير معهود. حين ألحت ألما أكثر، أجابت بياتريكس: «لا يمتلك كل شيء جواباً؟».

Twitter: @ketab_n

اكتشفت ألما أن هذه قطعة ذكاء مذهلة بحيث أنها أذهلتها لعدة ساعات. كل ما استطاعت فعله هو أنها جلست وتأملت الفكرة في خدر وذهول. حين صحتْ، رسمت زهرة الزعفران الخريفية الغامضة في مجموعة أوراقها، وأرّخت إدخالها، مع أسئلتها واعتراضاتها. كانت مجتهدة جداً في هذا الأمر، ذلك أن الأشياء يجب أن يُقتفى أثرها، حتى الأشياء التي يعتقد المرء أنه لا يستطيع فهمها. وقد علمتها بياتريكس أنها يجب أن تسجل دوماً مكتشفاتها في رسوم بقدر ما تستطيع من الدقة، مصنّفة أينما كان هذا ممكناً، وفق التصنيف الصحيح.

كانت ألما تستمتع بالرسم، لكن رسومها المنتهية غالباً ما كانت تشعرها بالإحباط. لم تستطع أن ترسم وجوهاً أو حيوانات (حتى فراشاتها بدت وحشية)، رغم أنها اكتشفت في النهاية أنها ليست سيئة جداً في رسم النباتات. كانت نجاحاتها الأولى رسومات جيدة لنبات الخيمة، رغم أنها نباتات مجوفة السيقان ومسطحة الأزهار من العائلة الجزرية (الخيمية). كانت نباتات الخيمة التي رسمتها دقيقة، لكنها رغبت بأن تكون أكثر دقة؛ تمنت لو أنها جميلة. قالت هذا كثيراً لأمها التي صححت لها قائلة: «إن الجمال غير مطلوب. إن الجمال هو انحراف عن الدقة».

كانت ألما تصادف أحياناً في غزواتها في الغابات أطفالاً آخرين. كان هذا يخيفها دوماً، فقد كانت تعرف من هم أولئك المتطفلون، لكنها لم تتحدث معهم أبداً. كانوا أولاد موظفي والدها. فقد كانت عزبة وايت إيكر كوحش حي عملاق، وكان نصف جسمها الضخم يحتاجه الخدم: الحدائقيون المولودون في ألمانيا واسكتلندة الذين فضل والدها أن يوظفهم بدلاً من المحليين المولودين في أميركا، الأكثر كسلاً، والخادمات المولودات في هولندا، اللواتي أصرت عليهن أمها واعتمدت

عليهن. كان خدم المنزل يعيشون في العلية فيما العمال يعيشون مع أسرهم في أكواخ وكبينات عبر أنحاء الملكية. وكانت الأكواخ جميلة، ليس لأن هنري حريص على راحة عماله، بل لأنه لا يتحمل منظر القذارة.

كانت ألما تصاب بالخوف والرعب كلما صادفت أطفال العمال. لكن كان لديها أسلوب لتجنب هذه اللقاءات، فقد كانت تتظاهر بأنها لا تحصل أبداً. تركب على مهرها القوي وتعبر الأطفال (والذي كان يتحرك بالخطو البطيء وغير المهتم للدبس البارد). كانت ألما تحبس نفَسَها حين تعبر الأطفال، دون أن تنظر إلى يسارها أو يمينها، إلى أن تبتعد عن المتطفلين بشكل واضح. إذا لم تنظر إليهم، لا تكون مضطرة لتصديق وجودهم.

لم يتدخل أبناء العمال في شؤون ألما أبدا. ومن المحتمل أنه تم تحذيرهم كي يتركوها وحدها. كان الجميع يخشون هنري وبتاكر، وهكذا فقد كانوا يخافون من ابنته آلياً، أيضاً. لكن ألما كانت أحياناً تتجسس على الأطفال من مسافة آمنة. كانت ألعابهم فظة وغير قابلة للفهم. ويلبسون بشكل مختلف عن ألما، ولم يكن أي من الأطفال يحملون عدة لجمع النباتات معلقة على أكتافهم، ولم يكن أي منهم يركب مهراً بشرابات أذن حريرية ملونة بشكل مبهج. كانوا يدفعون بعضهم ويصيحون ببعضهم بعضاً، مستخدمين لغة فظة. كانت ألما خائفة من أولئك الأطفال أكثر من أي شيء آخر في العالم. كانت أحياناً ترى كوابيس عنهم.

لكن هنا ما يفعله المرء مع الكوابيس: يذهب المرء للعثور على هانيكي دي غروت، في قبو المنزل. يمكن أن يكون هذا مساعداً ومهدئاً. كانت هانيكي دي غروت، ربة المنزل الرئيسية، تملك سلطة

Twitter: @ketab_n

على عالم عزبة وايت إيكر كلها، وقد منحتها سلطتها الوقار الأكثر تطميناً. كانت هانيكي تنام في مسكنها، قرب المطبخ الذي في القبو، حيث لا تنطفئ النيران أبداً. فقد وُجدت داخل حمام دافئ من جو القبو، معطر بلحم الخنزير المملح الذي يتدلى من كل عارضة. كانت هانيكي تعيش في قفص ـ أو هكذا بدا لألما ـ ذلك أن لغرفتها الشخصية قضبان حديد مثبتة إلى نوافذها وأبوابها، كما لو أن هانيكي لوحدها تملك المدخل إلى آنية المنزل، وترتب جدول الرواتب لجميع الموظفين.

مرة صححت هانيكي لألما: «لا أعيش في قفص، بل أعيش في خزانة مصرف».

حين لا تستطيع ألما النوم من الكوابيس، تتجاسر للقيام بالرحلة إلى أسفل على الأدراج المعتمة، طول الطريق إلى الزاوية الأبعد للقبو، حيث تتعلق بقضبان غرفة هانيكي وتنادي طالبة الدخول. كانت رحلات كهذه مقامرة دوماً. وكانت هانيكي تنهض أحياناً، نعسانة وشاكية، تفتح «باب السجن»، وتسمح لألما بأن تنضم إليها في السرير. أحياناً، لا تسمح لها. أحياناً توبخ ألما وتقول لها إنها طفلة وتسألها لماذا تزعج امرأة هولندية متعبة، وتطلب منها العودة على الدرج المخيف إلى غرفتها.

ولكن في الحالات النادرة التي يُسمح لها فيها بالدخول إلى سرير هانيكي، كانت تعوض المرات التي تُرفض فيها عشر مرات، لأن هانيكي تروي القصص، وتعرف أموراً كثيرة! كانت هانيكي تعرف أم ألما إلى الأبد، منذ الطفولة المبكرة. روت هانيكي قصصاً عن أمستردام، الأمر الذي لم تفعله بياتريكس أبداً. وكانت هانيكي تتحدث الهولندية على الدوام مع ألما، وستكون الهولندية لأذني ألما إلى الأبد لغة الراحة وخزائن البنوك ولحم الخنزير المملح والأمان.

Twitter: @ketab_n

لن يخطر لألما أبداً أن تهرب إلى أمها، والتي كانت غرفة نومها تلي غرفتها، من أجل التطمينات في الليل. كانت والدة ألما امرأة بمواهب كثيرة، لكن موهبة الراحة لم تكن بينها. وكما قالت بياتريكس ويتاكر على نحو متكرر: إن أية طفلة تكبر بما يكفي كي تمشي وتتحدث وتفكر ينبغي أن تكون قادرة، دون أية مساعدة من أي نوع، على أن تريح نفسها.

* * *

كان هناك ضيوف يأتون إلى المنزل، شكّلوا عرضاً لا يتوقف من الزوار الذين يصلون إلى وايت إيكر كل يوم في عربات وعلى الأحصنة وفي الزورق أو على الأقدام. كان والد ألما يعيش في رعب من أن يشعر بالضجر، وهكذا أحب أن يدعو الناس إلى مائدة عشائه كي يسلّوه، ويُحضروا له أنباء العالم، أو يقدموا له أفكاراً عن مشاريع جديدة. كلما دعا هنري ويتاكر الناس، أتوا، وفعلوا ذلك ممتنين.

شرح هنري لألما: «كلما كان مع المرء أموال أكثر، صار سلوكهم أفضل. هذه حقيقة جلية».

كان هنري يملك الكثير من النقود في تلك المرحلة. وفي أيار/مايو ١٨٠٣، وقّع عقداً مع رجل يدعى إسرائيل ويلين، وهو مسؤول حكومي يبيع المؤن الطبية لحملة لويس وكلارك في غرب أميركا. أمّن هنري للحملة مؤناً كثيرة من الزئبق ومستحضر اللودنوم الأفيوني، والرواند وجذر كولومبو ومسحوق الكالوميل وعرق الذهب والرصاص والزنك والكبريتات، وكانت بعض هذه المؤن مساعداً على المستوى الطبي، وكلها مربحة. وفي ١٨٠٤، كان عقار المورفين قد عُزل من الخشخاش على يد الصيادلة الألمان، وكان هنري من أوائل المستثمرين

Twitter: @ketab_n

في صناعة هذه السلعة المفيدة. وفي العام التالي، مُنح عقداً كي يزود الجيش الأميركي كله بالمنتجات الطبية. وقد منحه هذا قوة سياسية معيّنة، وكذلك تمثيلية، وهكذا صار الناس يأتون إلى مائدة عشائه.

لم تكن هذه عشاءات اجتماعية، بأية طريقة. ذلك أن آل ويتاكر لم يُرحّب بهم في الدائرة الاجتماعية الرفيعة للمجتمع الراقي في فيلادلفيا. فحين وصلوا إلى المدينة في البداية، دُعي آل ويتاكر مرة واحدة كي يتناولوا العشاء مع آن وويليم بنغهام، في الشارع الثالث وسبروس، لكن العشاء لم يسر جيداً. فأثناء تناول الحلويات، سألت السيدة بنغهام، التي تصرفت كما لو أنها في بلاط سينت جيمس، هنري: «أي نوع من الأسماء هو ويتاكر؟ أرى أنه غير مألوف».

أجاب هنري: «من وسط إنكلترة، أتى من كلمة وارويكشاير».

«هل وارويكشاير هي مقر عائلتك؟».

«نعم، وأمكنة أخرى أيضاً. نحن آل ويتاكر نحب الاستقرار أينما وجدنا موضعاً».

«لكن هل ما يزال والدك يملك الملكية في وارويكشاير، يا سيد؟».

«لو كان والدي حياً يا مدام لكان يملك خنزيرين، وإناء المرحاض تحت سريره. أشك كثيراً إن كان سيملك السرير».

لم يُدْعَ آل ويتاكر كي يتناولو العشاء مرة أخرى مع آل بنغهام، ولم يكترث آل ويتاكر بالأمر كثيراً. لم توافق بياتريكس على المحادثة ولباس سيدات الموضة بأية طريقة، وكره هنري آداب السلوك المملة لغرف الاستقبال. بدلاً من ذلك، أنشأ هنري مجتمعه الخاص، في الجانب الآخر من النهر في المدينة، عالياً فوق هضبته. ولم تكن جلسات العشاء في وايت إيكر ملاعب للثرثرة، بل تمارين في التحفيز الفكري

والتجاري. إذا كان هناك شاب جسور في العالم ينجز في مكان ما أعمالاً فذة مهمة، كان هنري يريد أن يُدْعى هذا الشخص إلى مائدة عشائه. وإذا كان هناك فيلسوف موقّر يعبر فيلادلفيا، أو رجل علم محترم، أو مخترع جديد واعد، كانوا يُدعون أيضاً. وكانت النساء يأتين أحياناً إلى العشاء، أيضاً، إذا كن زوجات مفكرين محترمين، أو مترجمات لكتب مهمة، أو إذا كنّ ممثلات مهمات يقمْن بجولة في أميركا.

كانت مائدة هنري عامرة بالنسبة لبعض الناس. وكانت الوجبات سخية - المحار وشرائح لحم البقر والتدرج - ولكن لم يكن من المريح تناول العشاء في وايت إيكر. يمكن أن يتوقع الضيوف أن يُسْتَجوبوا، ويتم تحديهم وإثارتهم. وكان الخصوم المعروفون يتم إجلاسهم إلى جانب بعضهم بعضاً. وكانت معتقدات مهمة تُهاجَم في المحادثة والتي كانت استعراضية أكثر من كونها لبقة. وكان بعض الوجهاء يغادرون وايت إيكر شاعرين أنهم تعرضوا لإساءات قوية. وكان ضيوف آخرون - ربما أكثر ذكاء، أو جلودهم أسمك، أو أكثر تلهفاً للمحسوبية - يغادرون وايت إيكر باتفاقيات مربحة أو شراكات مفيدة، أو برسالة التعريف المناسبة إلى رجل مهم في البرازيل. وكانت غرفة العشاء في وايت إيكر ملعباً محفوفاً بالمخاطر، لكن نصراً هناك يمكن أن يؤسس مهنة المرء طول الحياة.

رُحب بألما إلى هذه المائدة القتالية منذ كانت في الرابعة من عمرها، وكان تجلس غالباً إلى جانب والدها. وسُمح لها بطرح الأسئلة، طالما أن أسئلتها ليست معتوهة. وقد سحرتْ الطفلة بعض الضيوف. ومرة أعلن خبير في التناسق الكيماوي: «أنت ذكية ككتاب صغير والتحدث معك مفيد!»، وهذا إطراء لم تنسه ألما أبداً. وكان رجال علم عظام

آخرون، كما تبين، غير معتادين على أن تسألهم فتاة صغيرة. لكن بعض رجال العلم العظماء، كما أشار هنري، لم يكونوا قادرين على الدفاع عن نظرياتهم مع فتاة صغيرة، وإذا كانت هذه هي الحالة، يستحقون أن يُشَهَّر بهم كدجالين.

آمن هنري، واتفقت معه بياتريكس بقوة، أنه لا يوجد موضوع جدي أو معقد جداً أو مقلق جداً لا يمكن أن يُناقش أمام طفلتهما. واعتقدت بياتريكس أنه إذا لم تفهم ألما ما يُقال فإن هذا سيولّد لديها المزيد من التحفيز كي تحسّن فكرها، بحيث لا تُترك في الخلف في المرة التالية. وإذا لم يكن لدى ألما ما تضيفه إلى المحادثة، فقد علمتها بياتريكس أن تبتسم لكل من يتحدث أخيراً وتتمتم باحترام: «تابعْ». إذا ضجرت ألما وهي إلى الطاولة، فإن هذا لا يهم. ولم تكن لقاءات العشاء في وايت إيكر تدور حول تسلية طفل (في الحقيقة سلمت بياتريكس أن أشياء قليلة ثمينة في الحياة يجب أن تدور حول تسلية طفلة)، وإذا تعلمت ألما الجلوس هادئة على كرسي ذات مسند قاس لساعات كثيرة في النهاية، مصغية بانتباه إلى أفكار تتجاوز فهمها بكثير، سيكون الأمر جيداً.

هكذا أمضت ألما الأعوام الأولى من طفولتها تصغي إلى المحادثات الفائقة للعادة مع رجال درسوا تحلل البقايا البشرية، ومع رجال كانت لديهم أفكار عن استيراد أنابيب إطفاء بلجيكية جديدة ممتازة إلى أميركا، ومع أشخاص رسموا صور تشوهات طبية وحشية، ومع أشخاص اعتقدوا أن أي دواء يمكن أن يُبلع يمكن أن يُفرك على الجلد بالفعالية نفسها ويمتصه الجسم، ومع أشخاص فحصوا المادة العضوية للينابيع الكبريتية، ومع شخص واحد كان خبيراً في الوظيفة الرئوية للطيور المائية (وهو موضوع زعم أنه يمتلك أهمية مثيرة أكثر من أي موضوع

آخر في العالم الطبيعي رغم أنه لم يبرهن أن هذه المقولة صحيحة في شرحه المتكاسل حول طاولة العشاء).

كان بعض هذه الأمسيات مسلياً لألما. وقد أحبتها أكثر حين كان يجيء الممثلون والمستكشفون، ويروون حكايات مثيرة. كانت هناك ليال متوترة من الجدل، وأخرى أبديات بليدة معذّبة. ونامت أحياناً إلى الطاولة وعيناها مفتوحتان، منتصبة على كرسيها ليس من أي شيء سوى الرعب المطلق لرقابة أمها، والمشدات القوية على فستانها الرسمي. لكن الليلة التي ستتذكرها ألما إلى الأبد ـ الليلة التي ستبدو فيما بعد أوج طفولتها ـ كانت ليلة زيارة عالم الفلك الإيطالي.

* * *

كان الوقت أواخر الصيف في ١٨٠٨، وكان هنري ويتاكر قد حصل على تلسكوب جديد، وكان يبدي إعجابه بسماوات الليل عبر عدساته الألمانية الرائعة، لكنه بدأ يشعر بأنه أمي في أمور الفضاء. كانت معرفته بالنجوم هي معرفة بحّار ـ ولم تكن تافهة ـ لكنه لم يكن مواكباً للمكتشفات الأخيرة. ذلك أن تقدماً هائلاً قد حدث الآن في ميدان علم الفلك، وشعر هنري على نحو متزايد أن سماء الليل تصبح مكتبة أخرى لا يستطيع قراءتها. وهكذا حين جاء عالم الفلك الإيطالي المتألق مايسترو لوكا بونتيسيللي، إلى فيلادلفيا كي يلقي كلمة في اجتماع للجمعية الفلسفية الأميركية، أغراه هنري بالقدوم إلى وايت إيكر بإقامته حفلة راقصة على شرفه. كان قد سمع أن بونتيسيللي يحب الرقص، وظن هنري أن الرجل لن يقاوم حفلة راقصة.

كانت هذه المسألة الأكثر إحكاماً التي حاول آل ويتاكر القيام بها. إذ وصل أروع متعهدي الحفلات في فيلادلفيا، وهم رجال زنوج في

Twitter: @ketab_n

بذلات بيضاء متموجة، في بداية بعد الظهر وبدأوا بتجميع الكعك الصغير الطيب (المرنغ) وخلط شراب البنش الملون. وكانت أزهار استوائية، لم يتم إخراجها أبداً من قبل من البيوت الزجاجية المعطرة، مرتبة في لوحة حية في أنحاء القصر. فجأة بدأ أعضاء فرقة أوركسترا من الغرباء المزاجيين يدورون في قاعة الرقص، ويدوزنون آلاتهم ويشتكون من الحرارة. حُممت ألما وأُلبستْ تنورة قطنية بيضاء، وأُجبر عرفها من الشعر الأحمر الفوضوي على الدخول تحت قوس من الساتان بحجم رأسها تقريباً. ثم وصل الضيوف، في كتل من الحرير ومسحوق البودرة.

كان الجو حاراً. كان الجو حاراً طيلة الشهر، لكن هذا كان أشد الأيام حرارة حتى الآن. وبما أنهم توقعوا هذا الطقس المتعب، لم يبدأ آل ويتاكر حفلتهم حتى الساعة التاسعة، بعد أن غربت الشمس بوقت طويل، لكن حرارة اليوم المعاقِبة ظلت موجودة. تحولت قاعة الرقص بسرعة إلى بيت زجاجي، بخاري ورطب، استمتعت به النباتات الاستوائية، لكن السيدات لم يستمتعْن. عانى الموسيقيون وتعرقوا. وتدفق الضيوف خارجين من الأبواب بحثاً عن الراحة، متسكعين على البرندات، ومتكئين على التماثيل الرخامية، محاولين عبثاً أن يستمدوا البرودة من الأحجار.

في محاولة لإطفاء ظمئهم أفرط الناس في تناول البنش. ونتيجة طبيعية لهذا، ذابت الحواجز وسيطر جو من خفة الرأس والدوار على الجميع. وتخلت الأوركسترا عن رسمية قاعة الرقص وعزفت موسيقا حية في الخارج في المرج العريض. أُحضرت المصابيح والمشاعل إلى الخارج، رامية الضيوف كلهم في ظلال هائجة. وحاول عالم الفلك الإيطالي الساحر أن يعلّم سادة فيلادلفيا بعض خطوات الرقص الوحشية النابولية (نسبة إلى نابولي)، وتنقل من سيدة إلى أخرى، وكلهنّ وجدْن

فيه شخصاً كوميدياً وجسوراً ومثيراً. حاول حتى أن يرقص مع متعهدي الحفلات الزنوج مما سبب مرحاً وقصفاً عاماً.

كان من المفترض أن يلقي بونتيسيللي محاضرة في تلك الليلة، مع رسوم وحسابات محكمة، يشرح فيها الممرات الإهليلجية للكواكب وسرعاتها. في نقطة ما في مجرى المساء، نُبذت هذه الفكرة. فأي حشد، يمتلك روحاً بهذا الجموح، يمكن توقع جلوسه هادئاً من أجل محاضرة علمية جدية؟

لم تعرف ألما أبداً فكرة من كانت هذه: بونتيسيللي أم والدها؟ لكن بعد منتصف الليل بوقت قصير، قُرر أن المايسترو الإيطالي الشهير العالم بالكونيات سيقوم بإعادة إنشاء نموذج من الكون على المرج الكبير لوايت إيكر، مستخدماً الضيوف أنفسهم كأجرام سماوية. لن يكون هذا نموذجاً مصغراً دقيقاً، كما خطب الإيطالي ثملاً، لكنه على الأقل سيقدم للسيدات فكرة ضئيلة عن حيوات الكواكب وعلاقاتها ببعضها بعضاً.

بجو مدهش من السلطة المرجعية والكوميديا، وضع بونتيسيللي هنري ويتاكر - الشمس - في مركز المرج. ثم جمع عدداً من السادة الآخرين كي يخدموا ككواكب، وكل منهم سيشع نحو الخارج حول مضيفهم. ومما سبب متعة لجميع الحاضرين، حاول بونتسيللي أن ينتقي رجالاً لهذه الأدوار يشبهون الكواكب التي اختيروا لتمثيلها. وهكذا فقد جسّد عطارد الصغير تاجرُ حبوب شديد الصّغر ومحترم من جيرمان تاون. وبما أن كوكبي الزهرة والأرض أكبر من عطارد، ومتساويان تقريباً في الحجم، اختار بونتيسيللي لتمثيل هذين الكوكبين شقيقين من ديلاوير متماثلين في الطول والمرح ولون البشرة. وبما أن المريخ أكبر من تاجر

Twitter: @ketab_n

الحبوب لكنه ليس كبيراً كالأخوين من ديلاوير؛ اختير مصرفيّ بارز أنيق المظهر لاءم الوصفة. ومن أجل المشتري اختار بونتيسيللي قبطاناً بحرياً متقاعداً، وهو رجل سمين جداً، دفع مظهره السمين في النظام الشمسي الجميع إلى ضحك هستيري. بالنسبة لزحل، قام بالعمل صحفي أقل سمنة بقليل لكنه سمين بشكل مضحك.

تواصل الأمر، إلى أن تم ترتيب الكواكب كلها على المرج على بعد ملائم من الشمس، ومن بعضها بعضاً. ثم رتبهم بونتيسيللي في مدار حول هنري، محاولاً بيأس الحفاظ على كل سيد ثمل في الممر السماوي الملائم. وفي الحال صخبت النسوة كي ينضممْن إلى التسلية، وهكذا رتبهن بونتيسيللي حول الرجال، كي يَخدْمن كأقمار، وكل قمر في مداره الضيق. (لعبت والدة ألما دور قمر الأرض ببرودة قمرية تامة). ثم أنشأ المايسترو كوكبات من النجوم في حواف المرج، مصنوعة من أجمل الحسناوات.

عزفت الأوركسترا ثانية، واتخذ مرج الأجرام السماوية مظهر رقصة الفالس الأكثر غرابة وجمالاً التي سبق أن رآها أشخاص فيلادلفيا الجيدون. كان هنري، الملك الشمس، يقف متوهجاً في مركز كل شيء، شعره بلون اللهب، بينما كان الرجال، صغاراً وكباراً، يدورون حوله، والنساء يدزنَ حول الرجال. وتلألأت عناقيد من النساء غير المتزوجات في الزوايا الخارجية للكون، بعيدات كمجرات مجهولة. وتسلق بونتيسيللي إلى سور حديقة مرتفع وتأرجح دون توازن هناك، يدير ويأمر اللوحة الحية كلها، صائحاً عبر الليل: «ابقوا في سرعتكم يا رجال! لا تغادرْن مساراتكن يا سيدات!».

أرادت ألما المشاركة. لم تر أبداً من قبل شيئاً مثيراً كهذا، ولم تبق أبداً من قبل مستيقظة حتى هذا الوقت ـ إلا بعد الكوابيس ـ لكنها نُسيت

Twitter: @ketab_n

نوعاً ما وسط كل هذا المرح. كانت الطفلة الوحيدة الموجودة، كما كانت طيلة حياتها الطفلة الوحيد الحاضرة. ركضت إلى سور الحديقة وصاحت بالمايسترو مونتيسيللي غير المتوازن على نحو خطير: «أشركني يا سيدي!». نظر إليها الإيطالي من مجثمه، مزعجاً نفسه وهو يحاول تركيز عينيه: من هذه الطفلة؟ كان يمكن أن يصرفها لولا أن هنري صاح من مركز النظام الشمسي: «امنحْ الفتاة مكاناً!».

هز بونتيسيللي كتفيه. «أنت نيزك!» صاح بألما، فيما كان ما يزال يتظاهر بإدارة الكون بذراع ملوح واحد.

«ما الذي يفعله النيزك يا سيدي؟».

قال الإيطالي آمراً: «تطيرين في الاتجاهات كلها!».

وهكذا فعلت. دفعت نفسها إلى وسط الكواكب، متملصة ودائرة عبر مدارات الجميع، راكضة ودائرة، الشريطة تفلت من شعرها. كلما اقتربت من والدها، كان يصيح: «لا تقتربي هكذا كثيراً مني يا خوخة، وإلا ستُحرقين إلى رماد!» وكان يدفعها بعيداً عن ذاته النارية القابلة للاحتراق، ويجبرها على الركض في اتجاه آخر.

وعلى نحو مدهش، في نقطة ما، وُضِعَ في يدها مشعل. لم تر ألما من قدّمه لها. لم تُؤتمن أبداً من قبل على النار. كان المشعل ينفث الشرر ويرسل قطعاً من القار المشتعل في دائرة في الجو خلفها وهي تركض عبر الكون. كانت الجرم الوحيد في السماوات غير المقيد بمسار إهليلجيٍّ صارم.

لم يوقفها أحد.

كانت نيزكاً.

لم تعرف أنها لم تكن تطير.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

وصل صِبا ألما ـ أو الجزء الأبسط والأكثر براءة من حياتها ـ إلى نهاية مفاجئة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٠٩، في ساعات الليل القليلة، في يوم ثلاثاء عادي سيكون عادياً لولا هذا.

استيقظت ألما من نوم عميق على أصوات مرتفعة وصوت عجلات عربة تندفع على الحصى. في الأمكنة التي يكون فيها المنزل هادئاً في مثل هذه الساعة (البهو خارج باب غرفة نومها، مثلاً، ومساكن الخدم في الطابق العلوي) سمعت صوت خطوات من جميع الجهات. نهضت في الجو البارد، أشعلت شمعة، عثرت على بوطها الجلدي، وتناولت الشال. شعرت غريزياً أن مشكلةً ما حصلتْ في وايت إيكر، وربما كانوا بحاجة إلى مساعدتها. فيما بعد في حياتها، ستتذكر عبثية هذه الفكرة (كيف استطاعت أن تعتقد أنها تستطيع المساعدة في أي شيء؟)، ولكن في ذلك الوقت، وفي ذهنها، كانت سيدة شابة في العاشرة من عمرها تقريباً، تملك ثقة معينة بأهميتها.

حين وصلت ألما إلى قمة الدرج العريض شاهدت تحتها، في المدخل المهيب إلى المنزل، حشداً من الرجال يحملون المصابيح. كان والدها يرتدي معطفاً كبيراً فوق ملابسه الليلية، ويقف في وسطهم جميعاً، وجهه متوتر من الاستياء. كانت هانيكي دي غروت هناك أيضاً،

Twitter: @ketab_n

تعتمر قلنسوة. وكانت والدة ألما هناك، أيضاً. يجب أن يكون هذا خطيراً، إذاً، لم تر ألما أمها مستيقظة أبداً في مثل هذا الوقت.

كان هناك شيء آخر اتجهت عينا ألما إليه مباشرة: فتاة، أصغر من ألما بقليل، بضفيرة شعر بيضاء وشقراء تتدلى على ظهرها، تقف بين بياتريكس وهانيكي. كانت كل من المرأتين تضع يداً على كتفي الفتاة النحيلين. اعتقدت ألما أن الفتاة تبدو مألوفة. ابنة أحد العمال، ربما؟ لم تكن ألما متأكدة. كان للفتاة وجه رائع الجمال، رغم أنه بدا مصدوماً وخائفاً في ضوء المصباح.

ما سبب القلق لألما ليس خوف الفتاة، وإنما الشدة الامتلاكية لقبضتي بياتريكس وهانيكي على كتفيها. حين اقترب رجل كما لو أنه يريد أخذ الفتاة، شدت المرأتان قبضتيهما أكثر، ممسكتين بالطفلة. تراجع الرجل، وكان حكيماً في فعله لذلك، كما اعتقدت ألما، ذلك أنها لمحت التعبير على وجه أمها: شراسة لا تراجع فيها. كان التعبير نفسه على وجه هانيكي. ذلك التعبير المشترك من الشراسة على وجهي المرأتين الأكثر أهمية في حياة ألما ملأها بمقت غير قابل للتفسير. كان شيء مخيف جداً يحدث هنا.

في تلك النقطة، أدارت كل من بياتريكس وهانيكي رأسيهما في الوقت نفسه ونظرتا إلى قمة الدرج، حيث كانت ألما واقفة، تحدق بخدر، حاملة شمعتها وبوطها المتين. استدارتا نحوها كأن ألما نادتهما، كما لو أنهما لم ترحبا بالمقاطعة.

صاحت الاثنتان: «اذهبي إلى السرير»، بياتريكس بالإنكليزية وهانيكي بالهولندية. كان يمكن أن تحتج ألما، لكنها استسلمت لسلطة قوتهما المتحدة. فقد أخافها وجهاهما المتجهمان والمتوتران. لم تر أبداً شيئاً كهذا من قبل. لم تكن هناك حاجة لها هنا. كان هذا واضحاً.

Twitter: @ketab_n

ألقتْ ألما نظرة أخرى قلقة على الفتاة الجميلة في مركز القاعة المحتشدة بالغرباء، ثم ركضت إلى غرفتها. جلست على حافة سريرها لمدة ساعة، وأصغتْ إلى أن آلمتها أذناها، آملة أن يأتي أحد ما إليها بتفسير أو راحة. لكن الأصوات خفتت، وسمعت أصوات حوافر خيول تعدو مبتعدة، ومع ذلك لم يأت أحد. أخيراً، انهارت ألما نائمة فوق الأغطية، ملفوفة بشالها وممسكة ببوطها. في الصباح، حين استيقظت، رأت أن حشد الغرباء كله قد ذهب من وايت إيكر.

لكن الفتاة ظلت هناك.

* * *

كان اسمها برودنس.

أو بالأحرى، بولي.

أو كي نتوخّى الدقة، كان اسمها بولي التي صارت برودنس.

كانت قصتها سيئة. بُذل جهد في وايت إيكر للتعتيم عليها، لكن قصصاً كهذه لا تُحب أن تُكبح، وفي غضون بضعة أيام، عرفتها ألما. كانت الفتاة ابنة حدائقي الخضار الرئيسي في وايت إيكر، وهو رجل ألماني هادئ طوّر تصميم بيوت البطيخ، محققاً نتيجة مربحة. وكانت زوجة الحدائقي امرأة محلية من فيلادلفيا من أصل وضيع ولكنها باهرة الجمال، وعاهرة معروفة. وكان زوجها، الحدائقي، يعبدها. وكان هذا معروفاً على نطاق واسع أيضاً. خانته المرأة دون توقف لسنوات، باذلة جهداً قليلاً كي تخفي حالات طيشها. سمح بذلك بصمت ـ إما دون أن يلاحظ، أو بتظاهره بعدم الملاحظة ـ إلى أن توقف عن السماح بذلك فجأة.

في يوم الثلاثاء ذاك في تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٠٩ أيقظ الحدائقي

Twitter: @ketab_n

زوجته من نوم هادئ إلى جانبه، جرها إلى الخارج من شعرها، وذبحها من الوريد إلى الوريد. بعد ذلك على الفور، شنق نفسه متدلياً من شجرة دردار في الجوار. أثارت الفوضى العمال الآخرين في وايت إيكر، فخرجوا راكضين من منازلهم كي يستقصوا الأمر. ما تُرك في الخلف في أعقاب كل هذا الموت المفاجئ كان الطفلة الصغيرة التي اسمها بولي.

كانت بولي في عمر ألما، لكنها أكثر أناقة وجميلة على نحو مذهل. بدت كمثل تمثال صغير مكتمل منحوت من الصابون الفرنسي الرائع، وضع فيه شخص ما عيني طاووس زرقاوين متلألئتين. لكن الوسادة القرمزية الصغيرة لفمها هو ما جعل تلك الفتاة أكثر من مجرد جميلة؛ جعلها شهوانية صغيرة مقلقة، «بثشبع» مشغولة بدقة وبنمنمة. حين أُحضرت بولي في تلك الليلة المأساوية إلى عزبة وايت إيكر محاطة برجال الشرطة والعمال الكبار ـ وكلهم يضعون يدهم عليها ـ لم تر بياتريكس وهانيكي على الفور أي شيء سوى الخطر الذي يهدد الطفلة. اقترح بعض الرجال أن تؤخذ الفتاة إلى مأوى للفقراء، لكن آخرين عرضوا أن يتولوا المسؤولية عن هذه اليتيمة بأنفسهم. لقد نام نصف الرجال في تلك الغرفة مع أم الفتاة في وقت ما أو آخر ـ كما كانت بياتريكس وهانيكي تعرفان جيداً ـ ولم تحب المرأتان تخيل ما يمكن أن ينتظر تلك الفتاة الجميلة، التي من نسل عاهرة.

إن المرأتين، اللتين عملتا كواحدة، أمسكتا بولي وأبعدتاها عن الرعاع، وحفظتاها بعيداً عنهم. لم يكن هذا قراراً مروى فيه. ولم يكن بادرة طهارة، مغلفة في رداء دافئ من الحب الأمومي. كلا، كان هذا فعلاً ناجماً عن الحدس، قفز من معرفة أنثوية عميقة غير معبّر عنها حول كيف يعمل العالم. إن المرء يجب ألا يترك كائناً أنثوياً صغيراً وجميلاً كهذا وحيداً مع عشرة رجال حامين في منتصف الليل.

لكن حالما أنقذت بياتريكس وهانيكي بولي ـ حالما ذهب الرجال ـ ما الذي يجب فعله بها؟ اتخذوا قراراً مدروساً. أو بالأحرى اتخذت بياتريكس القرار، بما أنها وحدها تملك السلطة كي تقرر. اتخذتْ في الحقيقة قراراً صادماً، قررت أن تحافظ على بولي إلى الأبد وتتبناها تحت اسم ويتاكر.

عرفت ألما فيما بعد أن والدها عارض الفكرة (لم يكن هنري سعيداً أنه تم إيقاظه في منتصف الليل، كما لم يكن سعيداً حيال تبني ابنة مفاجئة)، لكن بياتريكس جعلتْه يختصر شكاواه بنظرة حادة واحدة، وكان هنري يعرف أنه لا يستطيع الاعتراض مرتين. ليكن الأمر إذاً. كانت الأسرة صغيرة، بأية حال، ولم تكن بياتريكس قادرة أبداً على جعلها كبيرة. ألم يولد طفلان بعد ألما؟ ألم يموتا؟ ألم يُدفن الطفلان في فناء الكنيسة اللوثرية، دون أن ينفعا أحداً؟ رغبت بياتريكس دوماً بإنجاب طفل آخر، والآن، بقوة العناية الإلهية، وصل طفل. بإضافة بولي إلى المنزل يمكن أن تضاعف فراخ ويتاكر بين عشية وضحاها. كان كل هذا معقولاً. كان قرار بياتريكس سريعاً ودون تردد. دون كلمة احتجاج أخرى، قبلَ هنري. أيضاً، لم يكن لديه خيار.

على أي حال، كانت الفتاة جميلة، ولم تبد ساذجة. والواقع أنه حالما هدأت الأمور، أظهرت بولي لياقة حقيقية ـ وتقريباً اتزاناً أرستقراطياً تقريباً ـ كان قابلاً للملاحظة أكثر في طفلة شهدت لتوها موت والديها.

شاهدت بياتريكس وعداً مميزاً في بولي، ولم تر مستقبلاً آخر ممكناً محترماً للطفلة. اعتقدت بياتريكس أنه في المنزل الملائم، وبتربية أخلاقية ملائمة، يمكن أن تُدفع هذه الطفلة نحو ممر مختلف في الحياة

Twitter: @ketab_n

غير اللهو الناشد للمتعة والشر اللذين دفعت أمها ثمناً مريعاً من أجلهما. كانت المهمة الأولى هي تنظيفها. فقد كان الدم متناثراً على حذاء ويدي المسكينة البائسة. وكانت المهمة الثانية تغيير اسمها. فقد كان «بولي» اسماً ملائماً لطائر أليف أو فتاة شارع للتأجير فقط. من الآن فصاعداً، سَتُدْعى الطفلة برودنس، الاسم الذي سيخدم كمَعْلم، كما أملت بياتريكس وتوقعَتْ، لاتجاه أكثر فضيلة.

وهكذا حُلَّ كلُّ شيء، وحُلَّ في غضون ساعة. وحدث أن ألما ويتاكر استيقظت في الصباح التالي على المعلومات المدهشة بأن لها شقيقة الآن، وأن اسم شقيقتها هو برودنس.

غيّر وصول برودنس كل شيء في وايت إيكر. فيما بعد في حياتها، حين صارت ألما عالمة، فهمت على نحو أفضل كيف أن إدخال أي عنصر جديد في بيئة متحكم بها يغير هذه البيئة بطريقة مضاعفة وغير قابلة للتنبؤ، لكن كان كل ما أحست به كطفلة هو غزو معاد ونذير بالقدر. لم تعانق ألما المتطفلة بقلب صادق. ثانية، لماذا يجب أن تفعل هذا؟ من بيننا قام بمعانقة متطفل بقلب صادق؟

في البداية، لم تفهم ألما لماذا كانت هذه الفتاة هنا. ما اكتشفته في النهاية عن تاريخ برودنس (وقد حصّلته من الحلابات، وبالألمانية) أوضح الكثير، لكن في اليوم الأول بعد وصول برودنس، لم يشرح أحد أي شيء. حتى هانيكي دي غروت، التي تملك عادة معلومات حول الألغاز أكثر من أي شخص آخر، قالت فقط: «إنها مشيئة الله، يا طفلتي، من أجل الأفضل». وحين ضغطت ألما على كبيرة الخدم من أجل معلومات أكثر، همست هانيكي بحدة: «ارحميني ولا تطرحي عليّ المزيد من الأسئلة!».

Twitter: @ketab_n

عُرِّفَتْ الفتاتان على بعضهما رسمياً إلى طاولة الفطور. لم تُذكر المقابلة التي تمت ليلة أمس. لم تستطع ألما التوقف عن النظر إلى برودنس، ولم تستطع برودنس التوقف عن النظر إلى صحنها. تحدثت بياتريكس مع الطفلتين كما لو أنه لا يوجد خطأ. قالت إن امرأة تُدعى السيدة سبانر ستأتي من المدينة بعد الظهر كي تفصّل فساتين جديدة لبرودنس من مادة مناسبة غير ثيابها الحالية. سيأتي مهر جديد، أيضاً، وستُعلّم برودنس كيف تمتطيه، وكلما تم الإسراع في ذلك يكون أفضل. سيكون هناك أيضاً من الآن فصاعداً مدرّس في وايت إيكر. قررت بياتريكس أن تعليم فتاتين في الوقت نفسه سيرهقها بشكل كبير، وبما أن برودنس لم تتلق تعليماً رسمياً حتى الآن في حياتها، فإن مدرّسة شابة قد تكون إضافة جيدة للمنزل. ستتحول غرفة الأطفال الآن إلى غرفة خاصة للدراسة. ولا حاجة للقول إنه من المتوقع من ألما أن تساعد أختها في تعلم فن الخط والجمع والأرقام. كانت ألما متقدمة أكثر بكثير في تدريب العقل، بالطبع، لكن إذا عملت برودنس بإخلاص - وإذا ساعدتها أختها - ستتمكن من التفوق. قالت بياتريكس إن تفكير الطفل هو موضوع مرونة مؤثرة، وبردونس ما تزال صغيرة بما يكفي كي تتقدم وتعوض ما فاتها. إن الذهن البشري، إذا دُرّب بشكل منظم، سيكون قادراً على إنجاز أي شيء نطلبه منه، إن المسألة هي العمل باجتهاد فحسب.

حين كانت بياتريكس تتحدث، كانت ألما تحدق. كيف يمكن أن يكون شيء ما جميلاً ومزعجاً في آن كوجه برودنس؟ إذا كان الجمال فعلاً انحرافاً عن الدقة، كما قالت أمها دوماً، فماذا يجعل هذا برودنس؟ من المحتمل أن يجعلها تماماً الموضوع الأقل دقة والأكثر إلهاء في العالم المعروف! تضاعف شعور ألما بالضيق في تلك اللحظة. كانت قد

Twitter: @ketab_n

بدأت تدرك شيئاً مقيتاً حيال نفسها، شيئاً لم تُمنح من قبل العقل كي تفكّر به: أنها ليست جميلة. وعبر المقارنة الكريهة فحسب أدركت ذلك. فقد كانت برودنس رشيقة وألما بدينة، تملك برودنس ضفيرة شعر من الحرير الذهبي، أما شعر ألما فبلون الصدأ، وينمو، بطريقة غير مفضلة في جميع الاتجاهات ما عدا إلى الأسفل. كان أنف برودنس برعماً صغيراً؛ أما أنف ألما فقد كان حبة بطاطا تنمو. واستمرت الأمور، من الرأس إلى إصبع القدم، وكانت المقارنة أكثر بؤساً.

بعد انتهاء الفطور، قالت بياتريكس: «هيا أيتها الفتاتان تبادلا العناق كأختين». عانقت ألما برودنس بطاعة، لكن دون دفء. جنباً إلى جنب، كان الاختلاف أكثر وضوحاً. وشعرت ألما، أكثر من أي شيء آخر، بأن الاثنتين تشبهان بيضة أبي حنّ صغيرة وكوز صنوبر منزلياً كبيراً، بدآ فجأة وبشكل غير قابل للتفسير يتقاسمان العش نفسه.

جعل إدراك كل هذه الأمور ألما ترغب بالبكاء، أو القتال. شعرت بأن وجهها يعبر عن استياء شديد. لا بد أن أمها رأته، ذلك أنها قالت: «اعذرينا يا برودنس كي أتحدث مع أختك للحظة». أمسكت بياتريكس ألما من أعلى ذراعها، وقرصتْها بشدة حتى آلمتها، وأخذتها إلى الصالة. شعرت ألما بالدموع تنهمر، لكنها حبست دموعها، ثم حبستها مرة أخرى، ثم مرة أخرى.

نظرت بياتريكس إلى طفلتها المولودة بشكل طبيعي، وتحدثت بصوت من الغرانيت البارد: «لا أريد أن أرى مرة ثانية أبداً وجهاً كهذا الذي رأيته لتوي على وجه ابنتي. هل فهمت؟».

نجحت ألما في أن تقول فقط كلمة مرتعشة («ولكن.») قبل أن تُقاطع.

تابعت بياتريكس: «لم يُرحِّب الله بالغيرة أو المكر، ولن تقبل عائلتك بهما. إذا كانت لديك مشاعر في داخلك غير جيدة أو غير ودية، دعيها تسقط جهيضة على الأرض. صيري سيدة نفسك، يا ألما ويتاكر. هل فهمت ما قلته؟».

هذه المرة فكرت ألما فقط بكلمة («لكن.»)؛ على أي حال، لا بد أنها فكرت بها بصوت مرتفع جداً، لأن والدتها سمعتها نوعاً ما. الآن دُفعت بياتريكس بعيداً جداً.

«أنا أشعر بالأسف يا ألما ويتاكر لأنك أنانية في نظرتك للآخرين»، قالت بياتريكس، وجهها الآن متوتر ويعلوه غضب حقيقي. أما بالنسبة لكلمتيها الأخيرتين، فقد بصقتهما كرقاقتين حادتين من الجليد:

«حسّني نفسك».

* * *

كانت برودنس تحتاج أيضاً إلى أن تحسّن نفسها، وكثيراً جداً، أيضاً.

أولاً، كانت متأخرة جداً عن ألما في مسائل الدراسة. وكي نكون منصفين، إن أي طفل سيكون متأخراً عن ألما. ففي سن التاسعة، كان بإمكان ألما أن تقرأ كتاب «التعليقات» لقيصر في لغته الأصلية، وكورنيليوس نيبوس. وكان بوسعها الدفاع عن ثيوفراستوس ضد بليني. (كان أحدهما باحثاً حقيقياً في العلم الطبيعي، كما تقول، بينما الآخر مجرد ناسخ). أما لغتها اليونانية، التي أحبتها وتعرفت عليها كنوع من الصيغ الرياضية فقد كانت تزداد قوة في ذلك الوقت.

بالمقارنة، كانتْ برودنس تعرف حروفها وأرقامها. وكان لها صوتٌ موسيقيٌّ عذب، لكن كلامها ـ التجسيد الملتهب لخلفيتها غير

Twitter: @ketab_n

المحظوطة ـ يحتاج إلى الكثير من التصحيح. أثناء بداية إقامة برودنس في وايت إيكر، انتقدت بياتريكس أجزاء من لغة الفتاة باستمرار، كما لو برأس مسنون لإبرة حياكة. انتقدت الاستخدام الذي بدا شائعاً أو وضيعاً. وشجعت ألما كي تقوم بالتصحيحات، أيضاً. طلبت بياتريكس من برودنس ألا تقول أبداً «back and forth»، لأن «backwards and forwards» مصقولة أكثر بكثير. إن كلمة fancy (خيال) في أي سياق تبدو فظة، مثل كلمة folks (ناس). حين يكتب المرء رسالة في وايت إيكر، تذهب في الـ post (البريد)، وليس في الـ mail. أما حين نعبر عن مرض شخص فلا نقول إنه fall sick بل نقول fell ill. ولا يذهب المرء إلى الكنيسة «soon»، بل «directly». والمرء ليس «partly» هناك، بل «nearly». والمرء لا «stove along»، بل «hurried along». والمرء لا يقول «talk» في هذه العائلة، بل يقول «conversed».

إن طفلاً أضعف يمكن أن يتخلى عن الكلام تماماً. أما طفل أكثر ولعاً بالقتال فيمكن أن يسأل لماذا مسموح لهنري ويتاكر أن يتكلم كعامل سفن وضيع، ولماذا أثناء الجلوس إلى طاولة العشاء يقول لرجل آخر «أنت حمار يقتات على الشوك» مباشرة في وجهه، دون أن تصحّح له بياتريكس مرة واحدة، بينما يجب أن تتحدث بقية العائلة مثل محامين في المحكمة العليا. لكنّ برودنس لم تكن ضعيفة ولا مولعة بالقتال. وتبيّن أنها حذرة جداً، وتصقل نفسها كل يوم كما لو أنها تجلخ شفرة روحها، حريصة ألا ترتكب الخطأ نفسه مرة أخرى. بعد خمسة أشهر في وايت إيكر، لم يعد كلام برودنس يحتاج إلى تهذيب. حتى ألما لم تستطع العثور على خطأ، رغم أنها لم تتوقف أبداً عن البحث عن واحد. إن مظاهر أخرى لشكل برودنس ـ وضعيتها، وسلوكها، واستخدامها اليومي للمرحاض ـ تم تصحيحها أيضاً بسرعة.

أصغتْ برودنس لجميع التصحيحات دون شكوى. وفي الحقيقة سعت إليها، وخاصة من بياتريكس! كلما أهملت برودنس إنجاز مهمة بشكل ملائم، أو طرحت فكرة خاطئة، أو قامت بملاحظة غير مدروسة، كانت تخبر بياتريكس شخصياً عن ذلك، وتعترف بأخطائها، وتصغي برغبة لمحاضرة. بهذه الطريقة لم تجعل برودنس من بياتريكس أمها فحسب، بل أمها التي تعترف أمامها. أما ألما التي كانت تخبئ أخطاءها وتكذب عن عيوبها منذ طفولتها، فقد وجدت هذا السلوك غير قابل للفهم.

نتيجة لهذا، نظرت ألما إلى برودنس بشبهة متزايدة. كانت هناك صفة قاسية كالألماس في برودنس، واعتقدت ألما أنها تخفي شيئاً ما خبيثاً وربما شريراً. فاجأتْها الفتاة بأنها محترسة وحذرة. اتبعت برودنس طريقة حذرة بالخروج من الغرف، دون أن تدير ظهرها لأي شخص، أو تصدر ضجة وهي تُغلق الباب خلفها. وكانت برودنس أيضاً متنبهة جداً للناس، ولا تنسى أبداً تواريخ المناسبات المهمة للآخرين، حريصة دائماً على أن تتمنى للخادمات عيد ميلاد سعيداً أو يوم أحد سعيداً في الوقت الملائم، وأشياء من هذا القبيل. شعرت ألما بأن هذا السعي المجتهد وراء الطيبة لا يلين، كالرزانة.

ما عرفته ألما دون شك هي أنها لن تستفيد إلا قليلاً إذا ما قورنت مع شخص مصقول بشكل كامل كبرودنس. حتى أنّ هنري لقّب برودنس بـ «رائعتنا الصغيرة»، مما جعل اسم ألما القديم «الخوخة»، يُشعرها بالتواضع والألم. إن كل ما يتعلق ببرودنس جعل ألما تشعر بالتواضع والبساطة.

لكن كان هناك عزاءات. ففي الدراسة احتلت ألما موقع التفوق. ولم

Twitter: @ketab_n

تستطع برودنس أن تلحق بأختها أبداً في هذا المجال. ولم يكن هذا بسبب الافتقار إلى الجهد، أيضاً، فالفتاة مجتهدة. وكانت المسكينة تعمل على الكتب كأنها في محاجر باسكية. كان كل كتاب بالنسبة لبرودنس كلوح من الغرانيت، يجب أن يُرفع إلى أعلى الهضبة في ضوء الشمس بجهد كبير. وكان من المؤلم المراقبة، لكن برودنس صبرت وتحملت ولم تذرف دمعة واحدة. نتيجة لهذا تقدمت، وبشكل مؤثر كما يجب أن يعترف المرء، آخذين خلفيتها بعين الاعتبار. كانت الرياضيات صراعاً على الدوام بالنسبة لها، لكنها فرضت على ذهنها أساسيات اللاتينية، وبعد فترة استطاعت أن تتحدث فرنسية مقبولة تماماً، بلكنة ظريفة. بالنسبة لفن الخط، لم تتوقف برودنس عن التمرين إلى إن صار رائعاً كخط دوقة.

لكن كل الانضباط في العالم غير كاف لردم فجوة حقيقية في حقل البحث، وكانت ألما تملك مواهب ذهنية امتدت إلى ما وراء ما يمكن أن تقدر برودنس على الوصول إليه بكثير. كانت ألما تملك ذاكرة تشكل ثروة من الكلمات وذكاء فطرياً في الجمع. تحب التدريبات والاختبارات والصيغ والنظريات الرياضية. بالنسبة لألما إن قراءة شيء واحد تعني امتلاكه إلى الأبد. تستطيع أن تفكك حجة كما يستطيع جندي جيد أن يفك بندقيته وهو نصف نائم في الظلام، ومع ذلك يفك الشيء إلى قطع بشكل جيد. كان حساب التفاضل والتكامل يشعرها بالنشوة. وكان النحو صديقاً قديماً ربما بسبب كونها نشأت وهي تتحدث لغات عدة في الوقت نفسه. أحبت أيضاً مجهرها، وشعرت أنه امتداد سحري لعينها اليمنى، مكّنها من التحديق مباشرة داخل حنجرة الوجود نفسه.

لهذه الأسباب كلها يمكن أن يفترض المرء أن المدرّس الذي استأجرتْه بياتريكس في النهاية للفتاتين سيفضّل ألما على برودنس لكنه

لم يفعل في الحقيقة. كان حريصاً ألا يُفضل أية فتاة على أخرى، وقدّرهما كليهما بشكل متساوٍ انطلاقاً من مقتضيات الواجب. كان المدرس شاباً بليداً، بريطاني المولد، ببشرة شمعية تخلو من الملامح وسحنة قلقة دائماً. كان يتنهد كثيراً. وكان اسمه آرثر ديكسون، وهو خريج حديث العهد من جامعة إدنبرة. اختارته بياتريكس بعد سيرورة فحص صارمة شملت دزينات من المرشحين الآخرين، الذين رُفضوا جميعاً بسبب ـ بين أخطاء أخرى ـ كونهم أغبياء جداً، وثرثارين جداً، ومتدينين جداً، وغير متدينين بما يكفي، وراديكاليين جداً، وأنيقين جداً، وبدينين جداً، أو يتلعثمون كثيراً.

في العام الأول من تعيين آرثر ديكسون كانت بياتريكس تجلس غالباً في غرفة الصف أيضاً، ترتق بالإبرة في الزاوية، وتراقب كي تتأكد من أن آرثر لا يرتكب أخطاء حقيقية، أو يعامل الفتيات بأية طريقة غير ملائمة. رضيت أخيراً: كان الشاب ديكسون ساحراً أكاديمياً مملاً بشكل كامل، ولم يبد أنه قليل الخبرة أو ميالاً إلى التنكيت. كان جديراً بالثقة بشكل كامل، إذاً، كي يعلّم الفتاتين ويتاكر، أربعة أيام في الأسبوع، الفلسفة الطبيعية واللاتينية والفرنسية واليونانية والكيمياء وعلم الفلك وعلم المعادن وعلم النبات والتاريخ. مُنحت ألما أيضاً عملاً إضافياً خاصاً في البصريات والجبر والهندسة الفراغية، استُثنيت منه برودنس في بادرة رحمة نادرة قامت بها بياتريكس.

في أيام الجمعة، يُهجر هذا البرنامج، حين يقوم بالزيارة أستاذ رسم أو أستاذ رقص أو أستاذ موسيقا، كي يكملوا المنهاج التعليمي للفتاتين. وفي الصباحات، كان من المتوقع أن تعمل الفتاتان مع أمهما في حديقتها الإغريقية الخاصة، وهذا انتصار للرياضيات الوظيفية التي كانت بياتريكس تحاول تطبيقها، عبر الممرات والتشذيب الفني للنباتات، وفق

مبادئ تناسق إقليدية صارمة (جميع الكتل والأشكال المخروطية والمثلثات المعقدة مشذّبة وصارمة ودقيقة). وكان من المطلوب من الفتاتين أيضاً تخصيص عدة ساعات في الأسبوع لتحسين مهاراتهن في شغل الإبرة. وأثناء المساءات، كانت ألما وبرودنس تُستدعيان كي تجلسا إلى طاولة العشاء الرسمية وتنخرطا بذكاء مع ضيوف على العشاء من جميع أنحاء العالم. وإذا لم يكن هناك ضيوف في وايت إيكر، تمضي ألما وبرودنس مساءهما في غرفة الاستقبال، وتتأخران في السهر، وهما تساعدان والديهما في المراسلات الرسمية لوايت إيكر. وكانت أيام الأحد مخصصة للكنيسة. وكان وقت النوم يحضر دورة من الصلوات الليلية.

خارج هذا، كان وقتهما ملكاً لهما.

* * *

لم يكن البرنامج متعباً جداً، في الواقع، وخاصة لألما. فقد كانت شابة ممتلئة بالطاقة وعملية، لا تحتاج إلا إلى القليل من الراحة. وكانت تستمتع بعمل الذهن، وبالعمل الحدائقي، وبالمحادثات في الاجتماعات المسائية. وكانت دوماً تشعر بالسعادة في مساعدة والدها في مراسلاته حتى وقت متأخر من الليل (بما أن هذه كانت فرصتها الوحيدة كي تنخرط مع الرجل بشكل حميم الآن). وقد نجحت نوعاً ما في العثور على ساعات لنفسها، وفي تلك الساعات ابتكرت مشاريع نباتية إبداعية صغيرة. لعبت بقصاصات أشجار الحور، مفكرة كيف أنها أحياناً تنبت جذوراً من براعمها، وأحياناً من أوراقها. شرّحت وحفظت غيباً، وحفظت وصنّفت، كل النباتات التي وقعت بين يديها. بنت مجموعة نباتية، مجموعة رائعة مجففة.

Twitter: @ketab_n

أحبت ألما علم النبات أكثر في النهار. ولم يكن جمال النباتات هو الذي جذبها بقدر ما جذبها تنظيمها السحري. واستحوذ عليها حبٌّ هائل للأنساق والتسلسل والتصنيف والفهارس؛ وقدّم علم النبات فرصة غنية للانغماس في هذه المتع كلها. وأعجبها كيف أنها حالما تضع النبتة في الترتيب التصنيفي الصحيح، تبقى في هذا الترتيب. وكانت هناك قواعد رياضية جدية متضمنة في تناسق النباتات أيضاً، وعثرت ألما على الهدوء والاحترام في هذه القواعد. ففي كل نوع، مثلاً، هناك تناسق دقيق وثابت بين سبلات الكأس وأقسام التويج لا يتغير أبداً. يمكن أن يضبط المرء ساعته عليه. كان هذا قانوناً ثابتاً ومريحاً لا يتزعزع.

تمنت ألما لو أنها تملك المزيد من الوقت كي تخصصه لدراسة النباتات. كان لديها أخيلة غرائبية. تمنت لو أنها تعيش في ثكنة عسكرية من العلوم الطبيعية، حيث يتم إيقاظها فجراً ببوق وتسير في تشكيل مع علماء طبيعة شبان آخرين، في البزة العسكرية، كي تعمل طوال النهار في الغابات والجداول والمخابر. تمنت أن تعيش في أبرشية نباتية أو دير نباتي ما، محاطة بعلماء تصنيف آخرين مخلصين، حيث لا يتدخل أحد في دراسات الآخر، ولكن يتقاسم الجميع مكتشفاتهم المذهلة. حتى السجن النباتي سيكون ظريفاً! (لم يخطر لألما أن أمكنة كهذه من اللجوء الفكري والعزلة المسوّرة توجد في العالم، إلى حد ما، وأنها تُدعى «الجامعات». لكن الفتيات الصغيرات في ١٨١٠ لم يحلمْن بالجامعات، ولا حتى ابنتا بياتريكس ويتاكر).

وهكذا لم يهم ألما أن تعمل بجد. لكنها كرهت جداً أيام الجمعة. ضايقتها دروس الفنون، ودروس الرقص، ودروس الموسيقا وأبعدتها عن اهتماماتها الرئيسية. لم تكن رشيقة، ولم تستطع أن تميز لوحة مشهورة عن أخرى، ولم تتعلم أبداً رسم وجوه دون أن تجعل

Twitter: @ketab_n

موضوعاتها تبدو خائفة أو ميتة. لم تكن موهوبة في الموسيقا أيضاً، وفي الوقت الذي صارت فيه ألما في الحادية عشرة، طلب والدها منها رسمياً أن تتوقف عن تعذيب البيانو. لكن برودنس تفوقت في جميع هذه الأمور. كان بوسعها أن تخيط بشكل جميل أيضاً وتقدم شاياً معداً بإتقان، وامتلكت كثيراً من المواهب الأخرى الصغيرة والمثيرة للحنق أيضاً. وفي أيام الجمعة، من المحتمل أن تنتاب ألما أكثر الأفكار سوداوية وإثارة للحسد حيال أختها. كانت هذه أوقات فكرت فيها بصدق، مثلاً، أنها ستقايض بسعادة واحدة من لغاتها الإضافية (أي منها عدا اليونانية!) من أجل القدرة البسيطة كي تطوي ظرفاً فقط مرة واحدة بأناقة كما تستطيع برودنس أن تفعل.

رغم كل هذا، أو ربما بسببه، شعرت ألما برضا كبير في المجالات التي تتفوق فيها على أختها، وكان المكان الوحيد الذي برز فيه تفوقها أكثر هو طاولة عشاء آل ويتاكر المشهورة، وخاصة حين تكون الغرفة مليئة بالأفكار المتحدية. وكلما كبرت ألما في السن، صارت محادثتها أكثر جرأة، وأكثر يقيناً، وأكثر وصولاً. لكن برودنس لم تطور ثقة كهذه أبداً حول الطاولة. مالت إلى الجلوس صامتة ولكن بشكل جميل، كنوع من الزينة التي لا فائدة منها في كل اجتماع، تقوم فقط بملء الكرسي بين الضيوف، ولا تسهم بأي شيء سوى جمالها. بطريقة ما، جعل هذا برودنس مفيدة. يستطيع المرء أن يُجْلس برودنس إلى جانب أي شخص، ولن تشكو. في ليال كثيرة، أُجْلست الفتاة المسكينة بشكل متعمد إلى جانب الأساتذة الأكثر بعثاً للملل وصمماً ـ رجال كالقبور ـ كانوا ينكشون أسنانهم بشوكاتهم، أو ينامون فوق وجباتهم، ويشخرون بخفة فيما المجادلات مدوية إلى جانبهم. لم تعترض برودنس أبداً، ولم تطلب رفاق عشاء أكثر أهمية. ولم يكن يهمها من يجلس إلى جانبها، في الحقيقة: إن وضعيتها وملامحها المرتبة بحرص لم تتبدَّلْ أبداً.

Twitter: @ketab_n

في غضون ذلك، كانت ألما تندفع للانخراط في جميع الموضوعات الممكنة، من إدارة التربة إلى جزيئات الغازات، إلى وظائف الدموع. وفي إحدى الليالي، مثلاً، جاء ضيف إلى وايت إيكر عاد لتوه من إيران، حيث اكتشف، تماماً خارج مدينة أصفهان العريقة، عيّنات نبتة اعتقد أنها أنتجت صمغ الوشق، وهو عنصر طبي قديم ومربح، ما يزال مصدره لغزاً للعالم الغربي، بما أن قطاع الطرق كانوا يسيطرون على تجارته. كان الشاب يعمل للتاج البريطاني، لكن أمله خاب بأسياده ويريد التحدث مع هنري ويتاكر عن تمويل مشروع بحث متواصل. سأل هنري وألما ـ اللذان يعملان ويفكران كواحد، كما فعلا غالباً حول طاولة العشاء ـ الرجل أسئلة من الجانبين، كمثل كلبي راع يحصران كبشاً في زاوية.

سأله هنري: «كيف هو المناخ في إيران؟».

«ما الارتفاع؟»، سألت ألما.

أجاب الزائر: «حسناً يا سيدي، إن النبتة تنمو في حقول مفتوحة، والصمغ وافر فيها، ويمكن أن تُعصر منها مقادير كبيرة».

قاطعه هنري: «نعم، نعم، نعم. أو هكذا تواصل القول، ويجب أن نصدق كلمتك حول الأمر، كما أفترض، ذلك أنني لاحظت أنك لم تُحضر لي أي شيء سوي ملء كشتبان من الصمغ كدليل. مع ذلك، أخبرني كم يجب أن تدفع للمسؤولين في إيران؟ أعني من أجل امتياز التجول في بلادهم، وجمع عينات الصمغ بحرية؟».

«حسناً، يطلبون بعض الضرائب، يا سيدي، لكن يبدو أنه مبلغ صغير».

قال هنري: «إن شركة ويتاكر لا تدفع الضريبة أبداً. أكره إيقاع هذه الكلمة. لماذا جعلتهم يعرفون ما تفعله؟».

«حسناً يا سيدي، من الصعب أن يلعب المرء دور المهرب!».

رفع هنري حاجبيه: «حقاً؟ من الصعب؟».

قفزت ألما قائلة: «ولكن هل يمكن أن تُزرع النبتة في مكان آخر؟ وكما ترى يا سيدى لن ننتفع إلا قليلاً إذا أرسلناك إلى أصفهان كل عام في رحلات جمع مكلفة».

«لم أمتلك الفرصة بعد كي أستقصي».

سأله هنري: «هل يمكن أن يُزرع في كاتيور؟ هل لديك معاونون في كاتيور؟».

«حسناً، لا أعرف يا سيدي، فقط أنا.».

قالت ألما: «أم هل يمكن أن يُزرع في الجنوب الأميركي؟ كم يحتاج من الماء؟».

قال هنري: «أنا لست مهتماً بأي مشروع زراعي في الجنوب الأميركي يا ألما، ويجب أن تعرفي ذلك».

«لكن يا أبي يقول الناس إن أرض ميسوري.».

«بصدق يا ألما، هل تستطيعين التنبؤ أن هذا المخلوق الإنكليزي الصغير يمكن أن يزدهر في ميسوري؟».

رفت عينا الشاب البريطاني الصغير، وبدا كأنه فقد قدرته على النطق. لكن ألما ضغطت، وسألت الضيف بلهفة متزايدة: «هل تعتقد أن النبتة التي تناقشها يمكن أن تكون نفس النبتة التي يذكرها ديوسكوريدس، يا سيدي، في المواد الطبية»؟ سيكون هذا مدهشاً،

Twitter: @ketab_n

أليس كذلك؟ لدينا الطبعة الأولى من كتاب ديوسكوريدس في مكتبتنا. إذا أحببت أستطيع أن أريه لك بعد العشاء!».

هنا، تحدثت بياتريكس، لائمة ابنتها التي في الرابعة عشرة: «أتساءل يا ألما إن كان من الضروري أن تجعلي العالم كله ملكاً لأفكارك. لماذا لا تتركي ضيفك المسكين يجيب عن سؤال قبل أن تهاجميه بآخر؟ من فضلك حاولْ ثانية أيها الشاب. ما الذي كنت تحاول قوله؟».

لكن هنري تحدث هنا ثانية: «لم تُحضر لي حتى قصاصات، هل فعلت؟» سأل الشاب المنذهل، والذي عند هذه النقطة لم يعرف من سيجيب من آل ويتاكر أولاً، وبالتالي ارتكب الخطأ القاتل بعدم الإجابة على أي منهم. وفي الصمت الطويل الذي أعقب ذلك، حدق الجميع به. ومع ذلك لم يستطع الشاب أن ينطق بكلمة واحدة.

شاعراً بالقرف حطم هنري الصمت، ملتفتاً إلى ألما وقائلاً: «آه، لنقفل الموضوع يا ألما، لست مهتماً بهذا الشيء. لم يفكر بالأمور بعمق. ومع ذلك انظري إليه! ما يزال جالساً هناك يأكل عشائي ويشرب خمرتي ويأمل الحصول على نقودي!».

وهكذا أنهت ألما الموضوع وتوقفت عن طرح أسئلة أخرى حول صمغ الوشق، أو ديوسكوريدس، أو العادات القبلية لفارس. وبدلاً من ذلك التفتت إلى سيد آخر جالس إلى الطاولة ـ دون أن تلاحظ أن هذا الشخص الثاني صار هو الآخر شاحباً ـ وسألت: «وهكذا أرى من بحثك المدهش أنك عثرت على بعض المستحاثات الفائقة للعادة! هل تمكنت من مقارنة العظم مع عينات حديثة؟ هل تعتقد حقاً أن هذه

Twitter: @ketab_n

أسنان ضبع؟ وهل ما تزال تعتقد أن الكهف غُمر بالماء؟ هل قرأت مقالة السيد ونستون الأخيرة حول الطوفان البدئي؟».

أثناء ذلك، استدارت برودنس، دون أن يلاحظ أحد ذلك، إلى الشاب الإنكليزي المتضايق إلى جانبها، الشخص الذي أُخمد بقوة، وتمتمت: «تابعْ كلامك».

* * *

في تلك الليلة، قبل وقت النوم، وبعد حسابات المساء والصلوات، صحّحتْ بياتريكس للفتاتين، كما هي عادتها اليومية.

بدأت: «ألما، إن المحادثة اللبقة يجب ألا تكون سباقاً إلى خط النهاية. من المفيد والحضاري في مناسبات كهذه أن تسمحي لضحيتك بأن ينهي فكرة. إن قيمتك كمضيفة تكمن في عرض مواهب ضيوفك وليس في إظهار مواهبك أنت».

بدأت ألما بالاحتجاج: «لكن.».

قاطعتها بياتريكس، وواصلت: «فضلاً عن ذلك، ليس من الضروري أن نفرط في الضحك من الدعابات، حالما تقوم بواجبها وتولّد التسلية. اكتشفتُ مؤخراً أنك تواصلين الضحك طويلاً. لم أر أبداً امرأة ذات شرف تصيح كإوزة».

ثم استدارت بياتريكس إلى برودنس.

«بالنسبة لك يا برودنس، يعجبني أنك لا تنخرطين في ثرثرة عاطلة ومزعجة، إلا أنه أمر آخر تماماً أن تنسحبي من المحادثة بشكل كامل. سيظن الزوار أنك غبية، وأنتِ لست هكذا. سيكون وصمة عار على هذه العائلة إذا اعتقد الناس أن إحدى ابنتيَّ فقط تملك القدرة على

Twitter: @ketab_n

التحدث. إن الخجل، كما قلت لك مرات كثيرة، نوع آخر من الغرور. تخلّصي منه».

قالت برودنس: «أعتذر يا أمي. شعرت بالتوعك هذا المساء».

«أصدّق أنك شعرت بالتوعك هذا المساء. لكنني شاهدت كتاب شعر فكاهي بين يديك تماماً قبل العشاء، وكنت مسرورة وأنت تقرأين. إن أي شخص يستطيع أن يقرأ كتاب شعر فكاهي قبل العشاء لا يمكن أن يكون متوعكاً هكذا بعد ساعة فيما بعد».

كررت برودنس: «أعتذر يا أمي».

«أريد التحدث معك أيضاً يا برودنس عن سلوك السيد إدوارد بورتر هذا المساء إلى طاولة العشاء. كان يجب ألا تتركي هذا الرجل يحدق فيك وقتاً طويلاً كما فعلتِ. إن انغماساً من هذا النوع مهين للجميع. يجب أن تتعلمي كيف تنهي هذا النوع من السلوك في الرجال بالتحدث معهم بذكاء وقوة عن موضوعات جدية. ربما كان من المحتمل أن يستيقظ السيد بورتر من ذهول افتتانه في الحال، لو ناقشت معه الحملة الروسية، مثلاً. لا يكفي أن تكوني مجرد جيدة، يا برودنس؛ يجب أن تصبحي ذكية أيضاً. كامرأة بالطبع ستملكين دوماً وعياً أخلاقياً عالياً بالرجال، لكن إذا لم تشحذي ذكاءك في الدفاع عن نفسك، فإن أخلاقك لن تنفعك كثيراً».

قالت برودنس: «أفهمك».

«لا شيء جوهرياً مثل الكرامة يا فتيات. سيكشف الزمن من يملكها، ومن لا يملكها».

* * *

Twitter: @ketab_n

لو أنّ ألما وبرودنس تعلّمتا ـ كالأعمى والأعرج ـ أن تساعدا بعضهما بعضاً، وعوضت كلّ منهما نقاط ضعف الأخرى، لكانت الحياة أمتع لفتاتيْ عائلة ويتاكر لكنهما بدلاً من ذلك عرجتا إلى جانب بعضهما في صمت، وانطلقت كل فتاة لوحدها كي تتلمس طريقها عبر حالات نقصها ومشكلاتها. كانتا تستحقان الاحترام، وكذلك أمهما التي حافظت على لباقتهما، لأنهما لم تزعجا بعضهما بعضاً. لم تتبادلا كلمات غير لطيفة أبداً. وكانتا تتشاطران مظلة معاً باحترام، متشابكتي الذراعين، كلما سارتا تحت المطر. وكانتا تفسحان مجالاً لبعضهما على المداخل، وكل واحدة ترغب بأن تجعل الأخرى تمر أولاً. وكانتا تقدمان لبعضهما آخر كعكة فواكه، أو أفضل مقعد، الأقرب إلى دفء الموقد، وتتبادلان هدايا ظريفة ومروى فيها عشية عيد الميلاد. وفي أحد الأعوام اشترت ألما لبرودنس ـ التي تحب أن ترسم الأزهار، بشكل جميل وإن لم يكن بشكل صحيح ـ كتاباً جيداً عن الرسوم النباتية عنوانه «كل سيدة هي معلمة رسمها الخاصة: أطروحة جديدة في رسم الأزهار». في تلك السنة نفسها، صنعت برودنس لألما وسادة دبابيس رائعة من الساتان، ومشغولة باللون الباذنجاني الذي تفضّله ألما. وهكذا كانتا تفكران ببعضهما بعضاً.

«شكراً لك على وسادة الدبابيس»، كتبت ألما رسالة قصيرة محترمة إلى برودنس. «سأستخدمها حين أحتاج إلى دبوس».

مع مرور الأعوام تصرفت الفتاتان مع بعضهما بالشكل الصحيح الأكثر تطلباً للبراعة والدقة، ولو ربما من بواعث مختلفة. بالنسبة لبرودنس، كانت التصرف الصحيح المتطلب للبراعة تعبيراً عن حالتها الطبيعية. وكان هذا بالنسبة لألما جهداً متوجاً، وإخضاعاً مستمراً، جسدياً تقريباً، لكل غرائزها الأكثر وضاعة والتي فرض عليها الخضوع بفعل النظام الأخلاقي وخوفها من عدم موافقة أمها فقط. وهكذا فقد تم التمسك بآداب السلوك، وبدا الجميع مسالمين في وايت إيكر. لكن في

Twitter: @ketab_n

الحقيقة، كان هناك حاجز بحري هائل بين ألما وبرودنس، لم يتزحزح أبداً. ولم يساعدهما أحد على زحزحته.

في أحد أيام الشتاء، حين كانت الفتاتان في حوالى الخامسة عشرة، جاء صديق قديم لهنري من حدائق كلكتا النباتية كي يزور وايت إيكر بعد غياب سنين كثيرة. وفيما كان يقف في المدخل وينفض الثلج عن معطفة، صاح الضيف: «هنري ويتاكر، أيها المراوغ! أرني ابنتك المشهورة تلك التي سمعتُ الكثير عنها!».

كانت الفتاتان قريبتين، تنسخان ملاحظات عن النباتات في غرفة الاستقبال. استطاعتا سماع الكلمات كلها.

قال هنري بصوته الكبير الفظ: «ألما، تعالي على الفور! ثمة من يطلب رؤيتك!».

اندفعت ألما إلى الصالة، بسعادة ولهفة. نظر الغريب إليها للحظة، ثم انفجر ضاحكاً. قال: «كلا أيها الأحمق الغبي، ليس هذا ما عنيته! أريد أن أرى الفتاة الجميلة!».

دون أثر من التوبيخ أجاب هنري: «آه، أنت مهتم بصغيرتنا الرائعة، إذاً؟ تعالي إلى هنا يا برودنس! ثمة من يطلب رؤيتك!».

انزلقت برودنس عبر الممر ووقفت إلى جانب ألما، التي كان قدماها يغوصان الآن في الأرض، كما لو في مستنقع كثيف ومريع.

«ها هي!» قال الضيف، ناظراً إلى برودنس كما لو أنه يسعّرها. «آه، إنها رائعة، أليس كذلك؟ لقد تساءلت. اشتبهت بأن الجميع يبالغون».

لوح هنري بشكل رافض وقال: «أنتم جميعاً تبالغون في الحديث عن برودنس. بالنسبة لي إن الفتاة المنزلية تعادل عشراً من الجميلات».

وكما ترون، يبدو أن الفتاتين عانتا بشكل متساوٍ.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

سيُذكر عام ١٨١٦ فيما بعد كعام بلا صيف، ليس في وايت إيكر فقط، بل في أنحاء كثيرة من العالم. فالانفجارات البركانية في أندونيسيا ملأت الغلاف الجوي للأرض بالرماد والظلام، مما سبب الجفاف في أميركا الشمالية والمجاعة والصقيع في معظم أنحاء أوربا وآسيا. فشل محصول الذرة في نيو إنجلاند، وذوى محصول الأرز في الصين، وقُضيَ على محاصيل الشوفان والحبوب في كل أنحاء شمال أوربا. هلك أكثر من مائة ألف إيرلندي من الجوع. ونفقت الأحصنة والماشية، بسبب عدم توفر العلف، بالجملة. ونشبت أعمال شغب من أجل الغذاء في فرنسا وإنكلترة وسويسرا. وفي مدينة كيبك سقط الثلج على ارتفاع ١٢ إنشاً في حزيران/ يونيو. أما في إيطاليا، فقد تساقط الثلج بنياً وأحمر، مما أرعب السكان الذين اعتقدوا أن هذا يوم القيامة.

في بنسلفانيا، طول شهر حزيران/ يونيو وآب/ أغسطس من ذلك العام المظلم، غُلف الريف بضباب كثيف، فاتر ومظلم. لم ينم سوى القليل من الناس. وفقدت آلاف العائلات كل شيء. أما بالنسبة لهنري ويتاكر فلم يكن العام سيئاً. فقد نجحت المواقد في بيوته الزجاجية في الحفاظ على معظم نباتاته الاستوائية الغرائبية حية حتى في شبه الظلمة، ولم يكسب دخلاً أبداً من قبل في القيام بمجازفات الزراعة في الخارج، بأية حال. كان يستورد معظم نباتاته الطبية من أميركا الجنوبية، حيث لم

Twitter: @ketab_n

يتأثر المناخ. فضلاً عن ذلك، كان الطقس يُمْرض الناس، والمرضى يشترون المزيد من الأدوية، وهكذا فإن هنري لم يتأثر لا نباتياً ولا مالياً.

في ذلك العام، ازدهر هنري من المضاربات العقارية وعثر على متعته في الكتب النادرة. كان المزارعون يهربون من بنسلفانيا زرافات ووحداناً، متجهين غرباً آملين العثور على شمس أكثر توهجاً، وتربة أكثر عافية، وبيئة مضيافة أكثر. إشترى هنري كمية جيدة من أملاك أولئك البشر المفلسين التي تركوها خلفهم، وهكذا امتلك مطاحن ممتازة وغابات ومراعيَ على طول الطريق. أفلس عدد لا بأس به من العائلات ذات المرتبة والشهرة في فيلادلفيا في ذلك العام، وقضت عليها الدورة الحلزونية من الانهيار الاقتصادي الناتج عن ذلك الطقس الكريه. كانت هذه أخباراً رائعة لهنري. كلما انهارت عائلة ثرية، تمكّن من أن يشتري، بحسم كبير جداً، أرضها وأحصنتها وأثاثها وسروجها الفرنسية الرائعة ونسيجها الفارسي، وبشكل مرض أكثر، مكتباتها.

صار اقتناء الكتب الرائعة نوعاً من الهوس بالنسبة لهنري في تلك الأعوام. كان هوساً خاصاً، مفترضين أن الرجل بالكاد يستطيع قراءة الإنكليزية، وأكيد أنه لا يستطيع أن يقرأ مثلاً كاتولوس. لكن هنري لم يكن يريد قراءة تلك الكتب، كان يريد امتلاكها فحسب، كغنائم لمكتبته المتنامية في وايت إيكر. كانت كتباً طبية وفلسفية ونباتية مطلية بشكل رائع تاق إليها طول حياته. وكان مدركاً أن هذه المجلدات ستذهل الزوار في كل تفاصيلها كمثل الكنوز الاستوائية في البيوت الزجاجية. استمتع على نحو خاص بأداء هذا الطقس. وقد أرسى عادة قبل حفلات العشاء وهي اختيار (أو بالأحرى جعل بياتريكس تختار) كتاب ثمين كي يريه للضيوف المحتشدين: وكان يستمتع خاصة بأداء هذا الطقس حين يزوره الباحثون المشهورون، من أجل أن يراهم يحبسون أنفاسهم ويدوخون

من الرغبة؛ ذلك أن معظم رجال الأدب لم يتوقعوا في الحقيقة أبداً أن يحملوا بأيديهم كتاباً لإرازموس مطبوعاً في أوائل القرن السادس عشر واليونانية مطبوعة في جانب واللاتينية في جانب آخر.

اقتنى هنري الكتب بشكل شهواني، ليس مجلداً بمجلد، بل صندوقاً بصندوق. وكان من الجلي أن هذه الكتب كلها تحتاج إلى فرز، ولم يكن هنري الرجل المؤهل لفرزها. فهذا العمل المرهق جسدياً وذهنياً وقع لسنوات على عاتق بياتريكس، التي كانت تفرز بثبات الأعداد الكبيرة، محتفظة بالكتب الثمينة وبائعة النفايات لمكتبة فيلادلفيا العامة. لكن بياتريكس، وفي أواخر خريف ١٨١٦، تراجعت في مهمتها. كانت الكتب تأتي بسرعة أكبر من قدرتها على الفرز. وكانت الغرفة الاحتياطية لمنزل العربات تحتوي الآن على كثير من الصناديق التي لم تُفتح، وامتلأت بكتب جديدة. ومع التدفق المتواصل لمكتبات خاصة كاملة تأتي إلى وايت إيكر كل أسبوع (بما أن أسرة ثرية بعد أخرى تعرضت للانهيار المالي)، كانت المجموعة على وشك أن تصبح إزعاجاً.

وهكذا اختارت بياتريكس ألما كي تساعدها في نخل وجدولة الكتب. وكانت ألما الخيار الواضح للعمل. ولم تقدم برودنس مساعدة تُذكر في مسائل كهذه، بما أنها كانت بلا فائدة في اليونانية، وعملياً بلا فائدة في اللاتينية، ولا يمكن في الواقع جعلها تفهم كيف تفرز الكتب الخاصة بالنباتات بشكل صحيح وخاصة طبعات قبل وبعد ١٧٣٥ (أي قبل وبعد اعتماد نظام لينايوس في التصنيف الحديث) لكن ألما، التي بلغت السادسة عشرة الآن، برهنت أنها فعالة وحماسية في مهمة ترتيب مكتبة وايت إيكر. وكانت تمتلك فهماً تاريخياً عميقاً لما تعالجه، وكانت مفهرسةً محمومة ومجتهدة، وقوية جسدياً بما يكفي كي تحمل الصناديق والعلب الثقيلة. كان الطقس سيئاً في ١٨١٦ بحيث أنه كان هناك القليل

من المتعة التي يمكن أن يجدها المرء خارج المنزل، ولم تكن هناك فائدة كبيرة تُجنى من العمل في الحديقة. وصارت ألما تعدّ عملها في المكتبة نوعاً من العمل الحدائقي الداخلي الممتع، مع كل حالات الرضا المرافقة للعمل العضلي والاكتشافات الجميلة.

وقد اكتشفت ألما أنها تملك موهبة في إصلاح الكتب. إن تجربتها مع عينات النباتات المتزايدة جعلتها ماهرة جداً في غرفة التجليد، وهي غرفة صغيرة مظلمة بباب خفي مقابل المكتبة تماماً، حيث تخزن بياتريكس كل الأوراق والأنسجة والجلد والشمع والصمغ من أجل إصلاح الطبعات القديمة الهشة. وفي الحقيقة، بعد بضعة أشهر صارت ألما تقوم جيداً بكل هذه المهمات فجعلت بياتريكس ابنتها مسؤولة كلياً عن مكتبة وايت إيكر، وعن المجموعات المجدولة وغير المجدولة. وصارت بياتريكس بدينة جداً ومتعبة جداً بحيث لم تعد تستطيع تسلق سلالم المكتبة، وكانت متعبة من هذا العمل.

يمكن أن يسأل البعض إن كان يجب أن تُترك فتاة في السادسة عشرة، محترمة وغير متزوجة، بدون أي إشراف عليها وسط فيضان الكتب غير المراقبة، وأن يوثق بها كي تتابع طريقها وحيدة عبر طوفان غامر كهذا من الأفكار غير المقيدة. ربما فكرت بياتريكس أنها أكملت عملها مع ألما سابقاً، وأنها أنتجت بنجاح فتاة شابة عملية ومحتشمة، تعرف كيف تقاوم الأفكار المفسدة. أو ربما لم تفكر بياتريكس أي نوع من الكتب يمكن أن تعثر عليه ألما حين تفتح الصناديق. أو ربما اعتقدت بياتريكس أن حب ألما للبقاء داخل المنزل وارتباكها يجعلانها محصنة من أخطار الحسّية، لا سمح الله. أو ربما كانت بياتريكس (التي كانت تقريباً في الخمسين من عمرها، وتعاني من الدوار والذهول) غير مكترثة.

بطريقة أو أخرى، تُركت ألما ويتاكر لوحدها، وهكذا عثرت على الكتب.

* * *

لم تعرف من أية مكتبة أتى. عثرت ألما على الكتاب في صندوق ليست عليه علامة، مع مجموعة كتب غير لافتة للنظر، معظمها طبية، بينها بعض كتب غالن العادية، وبعض الترجمات الحديثة لكتب أبقراط، لا شيء جديداً أو مثيراً. لكن في وسط هذا كله، كان هناك كتاب مجلد بجلد عجل سميك وقوي يدعى «بِحَبّة ملح»، ألّفه كاتب مجهول. ونظراً لعنوانه المضحك، «بحبة ملح»، ظنت ألما في البداية أنه أطروحة في فن الطبخ، شيء ما كإعادة طبع في القرن الخامس عشر في البندقية لكتاب «حول موضوع فن الطبخ»، الذي كان موجوداً في مكتبة وايت إيكر. لكن تقليباً سريعاً لصفحاته كشف أن هذا الكتاب مؤلف بالإنكليزية وليس فيه أية رسوم أو قوائم خاصة بالطبخ. فتحت ألما الصفحة الأولى وما قرأته جعل ذهنها يضطرب بوحشية.

كتب المؤلف المجهول في مقدمته: «إن ما يحيّرني هو أننا جميعاً مُنحنا بالولادة الثقوب والقضبان الجسدية الأكثر روعة، والتي يعرف الصبي الأصغر أنها موضوعات للمتعة المحضة، ولكننا نتظاهر باسم الحضارة بأنها نجاسات يجب ألا تُلمس أو يتم تشاطرها، أو الاستمتاع بها! لكن لماذا لا نستكشف مواهب الجسد هذه في أنفسنا وفي زملائنا؟ إن أذهاننا هي التي تمنعنا من الاستمتاع بهذه الأشياء الفاتنة، فيما إحساسنا المزيف بالحضارة يحرمنا من متع بسيطة كهذه. إن ذهني، الذي سُجنَ مرة في سجن من الحضارة القاسية، انفتح لسنوات على المتع الجسدية الأكثر روعة. وبالفعل، اكتشفت أن التعبير الشهواني

Twitter: @ketab_n

الجسدي يمكن أن يسعى وراءه المرء كفن جميل، إذا ما مُورس بالإخلاص نفسه كالذي يمكن أن يبديه المرء للموسيقا والرسم أو الأدب».

«إن ما يتبع في هذه الصفحات، أيها القارئ المحترم، هو قصة صادقة لمغامرتي الإيروسية طيلة حياتي، والتي يمكن أن يدعوها البعض مقيتة، لكنني عشتها بسعادة ـ وأعتقد بدون أي أذى ـ منذ شبابي. لو كنت رجل دين، مكبلاً بعبودية العار، لدعوت هذا الكتاب اعترافاً. لكنني لا أسلّم بالعار الحسي، وقد أظهرتْ استقصاءاتي أن كثيراً من التجمعات البشرية في أنحاء العالم لا تعترف أيضاً بالعار في ما يتعلق بالفعل الحسي. وصرت متيقناً أن مفهوم العار هذا لا ينسجم مع حالتنا الطبيعية كنوع بشري، الحالة التي قامت حضارتنا بتشويهها على نحو محزن. لهذا السبب أنا لا أعترف بقصتي غير العادية بل أقوم بكشفها فحسب. آمل وأثق أن ما أكشفه سيُقرأ كدليل ومتعة، ليس فقط للسادة بل أيضاً للسيدات المغامرات والمتعلمات».

أغلقت ألما الكتاب. تعرف هذا الصوت. لا تعرف المؤلف شخصياً، بالطبع، لكنها تعرفه كنمط: الأديب المثقف، من النوع الذي يتناول العشاء بشكل متكرر في وايت إيكر. هذا هو نوع الرجل الذي يمكن أن يكتب بسهولة ٤٠٠ صفحة حول الفلسفة الطبيعية للجنادب، لكن الذي، في هذه الحالة، قرر بدلاً من ذلك، أن يكتب ٤٠٠ صفحة عن مغامراته الحسية. إن إحساس المعرفة هذا والألفة شوش ألما وأغراها في آن. إذا كانت هذه الأطروحة مؤلفة من قِبل رجل محترم، بصوت محترم، هل يجعلها هذا محترمة؟

ما الذي ستقوله بياتريكس؟ عرفت ألما الجواب على الفور. ستقول

إن هذا الكتاب غير شرعي وخطير ومقيت، وسيؤدي ذلك إلى موقف مربك جداً. ستتلف بياتريكس هذا الكتاب. ما الذي ستفعله برودنس، لو حدث وعثرت على هذا الكتاب؟ حسناً، إن برودنس ستمتنع عن لمسه، أو، لو وصل هذا الكتاب بطريقة ما إلى يدي برودنس، فإنها ستقدمه بكل طاعة إلى بياتريكس كي تتلفه، وبالتالي ستتلقى عقوبة صارمة لأنها لمسته. لكن ألما ليست برودنس.

ما الذي ستفعله ألما إذاً؟

قررت ألما أن تتلف الكتاب وألا تذكره لأي شخص. وفي الحقيقة ستتلفه الآن، في هذا الأصيل دون أن تقرأ كلمة أخرى منه.

فتحت الكتاب ثانية، إلى صفحة عشوائية. صادفت ثانية ذلك الصوت المألوف المحترم يتحدث عن الموضوع الأكثر غرابة.

كتب المؤلف: «رغبت بأن أعرف في أي سن تفقد المرأة قدرتها على تلقي المتعة الحسية. إن صديقي مالك الماخور، الذي ساعدني في الماضي في تجارب كثيرة، أخبرني عن مومس معينة استمتعت بمهنتها جيداً من سن الرابعة عشرة إلى الرابعة والستين، وهي الآن في سن السبعين، وتعيش في مدينة غير بعيدة عن مدينتي. كتبتُ لهذه المرأة، وردت عليَّ برسالة صريحة وفي غاية الود. وبعد شهر ذهبتُ لزيارتها، وسمحت لي بفحصها، ولم تكن قابلة للتمييز بسهولة عن فتاة شابة. وبيّنت أنها ما تزال قادرة على الاستمتاع، بالفعل. استخدمت أصابعها ووضعت مسحة خفيفة من زيت الجوز ودلكت نفسها حتى انتشت».

أغلقت ألما الكتاب. يجب ألا يُحتفظ بهذا الكتاب. ستحرقه في نار المطبخ. ليس في بعد الظهر هذا، كي لا يراها أحد ما، ولكن فيما بعد هذه الليلة.

Twitter: @ketab_n

واصل السارد الهادئ: «صرت أعتقد أن هناك بعض الناس الذين يستفيدون جسدياً وذهنياً من الضربات المنتظمة على الظهر. وقد رأيت مرات كثيرة هذه الممارسة ترفع من معنويات الرجال والنساء، وأظن بأنها المعالجة الصحية الأنجع التي نملكها للكآبة وأمراض الذهن الأخرى. فقد رافقتُ لمدة عامين فتاة أكثر استمتاعاً، ابنة بائع قبعات نسائية صار ثدياها البريئان والجميلان صلبين وقويين من الجلد المتكرر، ومُحيت أحزانها بشكل روتيني من مذاق السوط. وكما قلتُ في بداية هذه الصفحات، احتفظت مرة في مكتبي بأريكة متقنة صنعها لي منجّد لندني حاذق، مزودة بشكل خاص بالروافع والحبال. ولم تحب هذه الفتاة شيئاً كمثل أن تُقيّد بأمان على الأريكة، وتضعه في فمها كقطعة من السكّريات، بينما رفيق».

أغلقت ألما الكتاب ثانية. إن أي شخص بذهن مترفع عما هو سوقي سيتوقف عن قراءة هذا الكتاب على الفور. ولكن ماذا عن دودة الفضول التي تعيش في بطن ألما؟ ماذا عن رغبتها بأن تتغذى يومياً على الجديد والفائق للعادة والصحيح؟

فتحت ألما الكتاب ثانية، وقرأت لساعة أخرى، وقد تغلب عليها الحافز والشك والفوضى. وشدها ضميرها إلى حافة تنورتها كي تتوقف، لكنها لم تستطع التوقف. ما اكتشفته في هذه الصفحات جعلها تشعر بأنها متكدرة ورقيقة وبلا نَفَس. حين اعتقدت أنها يمكن أن يُغشى عليها من السويقات المتشابكة للخيال التي كانت تُنسج عبر ذهنها الآن، أغلقت الكتاب أخيراً، وأقفلت عليه في الصندوق الآمن الذي جاء منه.

غادرت منزل العزبات بسرعة، ممسدةً رداءها بيديها الرطبتين. في الخارج الجو بارد ومعتم، كما هو الحال طول العام، برذاذ مزعج من

Twitter: @ketab_n

الضباب. الجو كثيف بحيث أن المرء يستطيع تشريحه تقريباً بمبضع. وهناك أعمال مهمة يجب إنجازها في ذلك اليوم. فقد وعدت ألما هانيكي دي غروت بأنها ستساعدها في الإشراف على إنزال علب عصير التفاح إلى القبو من أجل الشتاء. وفرش أحد ما أوراقاً تحت الليلك على طول سياج ساوث وود ويجب يتابع هذا العمل. وغزا نبات اللبلاب الشجيرات خلف حديقة أمها الإغريقية ويجب أن يُرسل خادم للتخلص منه. ستتولى كل هذه المسؤوليات على الفور، بفعاليتها المألوفة.

قضبان وثقوب.

كان كل ما تستطيع التفكير به هو القضبان والثقوب.

* * *

خيم الليل. أضيئت غرفة العشاء ووُضعت الصحون. كان الضيوف على شفا الوصول. وكانت ألما قد لبست ثيابها لتوها من أجل العشاء، ارتدت ثوباً مرتفع الثمن من النسيج القطني. كان يجب أن تنتظر الضيوف في غرفة الاستقبال، لكنها اعتذرت بدلاً من ذلك للحظة كي تذهب إلى المكتبة. أقفلت على نفسها في غرفة البناء، خلف الباب الخفي، الذي يقع تماماً مقابل مدخل المكتبة. كان أقرب باب له قفل قوي. لم يكن الكتاب معها. ولم تكن بحاجة إليه؛ فقد كانت الصور التي استحضرتها تلاحقها في العزبة طيلة بعد الظهر، وحشية وعنيدة وباحثة.

كانت مليئة بالأفكار، وهذه الأفكار تقوم بمطالب وحشية من جسدها. شعرت بألم في بطنها. شعرت بأنها محرومة. كان هذا الألم يتراكم كل فترة بعد الظهر. وإذا ما شعرت بشيء فإن الإحساس المؤلم بالحرمان بين ساقيها أشعرها بأنه كنوع من السحر، مسكون بحضور

Twitter: @ketab_n

شيطاني. كان تطلب الأمر بالطريقة الأكثر وحشية. وكانت الأجزاء السفلية من ثوبها عائقاً. شعرت بالحكة والاختناق في هذا الثوب. رفعت الأجزاء السفلية من ثوبها. جلست هناك على الكرسي الصغير في حجرة التجليد المقفلة والمظلمة والصغيرة، بروائحها من الصمغ والجلد، وبدأت تحرك أصابعها، وتستكشف تويجاتها الإسفنجية، محاولة اكتشاف الشيطان المختبئ هناك، متلهفة كي تمحو الشيطان بيدها.

عثرت عليه. داعبتْهُ، بقوة أكبر فأكبر. شعرت بالتفكك. تحوّل الألم إلى شيء آخر، إلى نار مشتعلة، إلى دوامة من المتعة، إلى تأثير موقد من الحرارة. تبعت المتعة إلى حيث قادتها. لم يكن لها وزن أو اسم أو أفكار أو تاريخ. ثم حدث انفجار من الوميض الفوسفوري، كما لو أن ألعاباً نارية أُطلقت خلف عينيها، وانتهى الأمر. شعرت بالهدوء والدفء. للمرة الأولى في حياتها وعت أن ذهنها تحرر من التساؤل والقلق والعمل أو الحيرة. ثم، من وسط هذا الهدوء الفرائي المدهش، اتخذت فكرةٌ شكلاً واستولتْ، وسيطرتْ.

يجب أن أفعل هذا مرة ثانية.

* * *

لم يمض أكثر من نصف ساعة حتى كانت ألما تقف في الصالة المفتوحة لوايت إيكر، مرتبكة ومستاءة، تستقبل ضيوف العشاء. في تلك الليلة كان بين الزوار الشاب الجدي جورج هوكس، وهو ناشر من فيلادلفيا لمجلات ودوريات وكتب ومطبوعات نباتية رائعة، وسيد مميز أكبر في السن اسمه جيمس كي. بيك، يدرّس في كلية نيو جيرسي في برنستون، ونشر لتوه كتاباً عن فسيولوجيا الزنوج. وكان آرثر ديكسون، مدرّس الفتاتين الشاحب، يتعشى مع الأسرة كالعادة، رغم أنه نادراً ما

Twitter: @ketab_n

يضيف الكثير إلى المحادثة، ويميل إلى إمضاء ساعات العشاء ناظراً بقلق إلى أظافره.

كان جورج هوكس، ناشر المطبوعات عن النباتات، ضيفاً في وايت إيكر مرات كثيرة من قبل، وكانت ألما مولعة به. كان خجولاً ولطيفاً، وهائل الذكاء، بوضعية دب كبير مرتبك ومتثاقل. ملابسه كبيرة جداً، وقبعته متوضعة بشكل خاطئ على رأسه، ولم يبد أبداً أنه يعرف بدقة أين يقف. كان إغراء السيد جورج هوكس كي يتحدث تحدياً، لكنه حالما يبدأ بالتحدث، يكون كنزاً مفيداً. وكان يعرف عن الطباعة الحجرية أكثر من أي شخص آخر في فيلادلفيا ومنشوارته رائعة. تحدث بود عن النباتات والفنانين وصنعة تجليد الكتب. واستمتعت ألما برفقته كثيراً.

بالنسبة للضيف الآخر، الأستاذ بيك، كان وجهاً جديداً إلى مائدة العشاء، وكرهته ألما مباشرة. كانت لديه جميع علامات الشخص المضجر، وكان مضجراً ومصمماً على ذلك. فور وصوله استغرق عشرين دقيقة في الصالة المفتوحة وهو يروي بتفاصيل هوميروسية تجارب سفره في العربة من برنستون إلى فيلادلفيا. وحالما استنفد الموضوع الساحر، عبر عن دهشته من أن ألما وبرودنس وبياتريكس سينضممن إلى السادة إلى طاولة العشاء بما أن أن المحادثة ستكون فوق مستوى عقولهن.

صحح هنري لضيفه: «آه، كلا، أعتقد أنك ستكتشف حالاً أن زوجتي وابنتيَّ قادرات على المحادثة».

سأل السيد، وكان غير مقتنع بوضوح: «هل هنّ؟ في أية موضوعات؟».

Twitter: @ketab_n

قال هنري، حاكاً ذقنه وهو يفكر بأسرته: «حسناً. بياتريكس تعرف كل شيء. تملك برودنس معرفة فنية وموسيقية، وألما، الكبيرة والطويلة، وحش ملائم لعلم النبات».

كرر الأستاذ بيك بازدراء مُمَارس: «علم النبات. الاستجمام الأفضل للفتيات. إنه العمل العلمي الوحيد المناسب للجنس الأنثوي، كما حدستُ دوماً، بسبب غياب القسوة فيه، أو الصرامة الرياضية. إن ابنتي ترسم رسوماً رائعة للأزهار البرية».

تمتمت بياتريكس: «لا بد أن هذا يشغلها!».

رد الأستاذ، مستديراً إلى ألما: «نعم تماماً. إن أصابع السيدة أكثر لدونة، كما ترين. إنها أكثر نعومة من يد الرجل. إنها ملائمة بشكل أفضل من يدي الرجل، كما يقول البعض، للعمليات الأكثر حساسية في جمع النباتات».

إن ألما التي لم تكن من النوع الخجول احمرّت حتى عظامها. لماذا كان هذا الرجل يتحدث عن أصابعها، وعن اللدونة والرشاقة والنعومة؟ نظر الجميع الآن إلى يدي ألما، اللتين كانتا، منذ لحظة قصيرة فقط، مدفونتين في الداخل. كان هذا مقيتاً. من زاوية عينها، رأت صديقها القديم جورج هوكس يبتسم لها في تعاطف عصبي. وكان جورج يحمرّ طول الوقت. يحمرّ كلما نظر إليه أحد ما، وأينما أُجبر على الكلام. ربما يواسي عدم راحتها. بعيني جورج عليها، شعرت ألما بأنها تحمرّ أكثر. للمرة الأولى في حياتها، لم تتمكن من العثور على كلمات، وتمنت ألا ينظر إليها أحد أبداً. ستفعل أي شيء كي تهرب من العشاء في تلك الليلة.

ولحسن حظ ألما، لم يبد الأستاذ بيك مهتماً بشكل خاص بأي

Twitter: @ketab_n

شخص آخر سوى نفسه، وحالما قُدم العشاء، بدأ محاضرة طويلة ومفصلة، كما لو أنه خلط بين وايت إيكر وقاعة محاضرات، وظنّ أن مضيفيه طلاب.

بدأ بعد طيٍّ متقن لمنديله: «هناك من سلّم مؤخراً بأن الزنوجة مجرد مرض في الجلد يمكن أن يُزال بخلائط كيماوية مناسبة، وبالتالي يتحول الزنجي إلى رجل أبيض صحيح. هذا خطأ كما برهن بحثي، إن الزنجي ليس رجلاً أبيض مريضاً، بل نوع خاص بنفسه، كما أبين..».

وجدت ألما أن الانتباه يشكل تحدياً. كانت أفكارها مشغولة بكتاب «بحبّة ملح» وحجرة التجليد. ولم يكن هذا اليوم المناسبة الأولى التي سمعت فيها ألما بالعضو، أو حتى بالوظيفة الجنسية البشرية. وعلى عكس فتيات أخريات، قالت لهن عائلاتهن إن الهنود أحضروا الأطفال، أو أن الحمل يحصل عبر إدخال المني في الشقوق الصغيرة لجسم امرأة، كانت ألما تعرف المبادئ الأولية للتشريح البشري، الذكري والأنثوي. هناك الكثير من الأطروحات الطبية والكتب العلمية في وايت إيكر بحيث لا يمكن أن تبقى جاهلة بشكل كامل في هذا الموضوع، وكان علم النبات كله، الذي تعرفت عليه ألما بشكل حميم، مُجَنْسَناً بشكل كبير. (فقد أشار لينايوس نفسه إلى التلقيح كـ «زواج»، ودعا تويجات الزهرة «ستائر سرير نبيلة»، ووصف مرة بجرأة زهرة تحتوي على تسع أسدية ومدقة واحدة بأنها «تسعة رجال في غرفة العروس نفسها لكن فيها امرأة واحدة».

فضلاً عن ذلك، لم تترك بياتريكس ابنتيها تُربيان كبريئتين تعرّضان نفسيهما للخطر، وخاصة إذا افترضنا التاريخ غير المحظوظ لوالدة برودنس الطبيعية، ولهذا نقلت بياتريكس، بكثير من التمتمة والمعاناة،

Twitter: @ketab_n

والكثير من تدوير المروحة فوق الرقبة، إلى ألما وبرودنس تفاصيل عملية الولادة البشرية. لم يستمتع بهذه المحادثة أحد، وعمل الجميع معاً كي ينهوها بالسرعة الممكنة، لكن المعلومات تم نقلها. حتى أن بياتريكس حذرت مرة ألما من أن أجزاء معينة من الجسم يجب ألا تُلمس أبداً إلا من أجل هدف النظافة، وأن المرء يجب ألا يتريث في المرحاض، مثلاً، بسبب أخطار الأهواء المعزولة غير الطاهرة. لم تنتبه ألما إلى التحذير في ذلك الوقت لأنها لم تفهمه: من يريد أن يمكث مدة أطول في المرحاض؟

لكن بعد اكتشافها لكتاب «بحبّة ملح»، صارت ألما واعية فجأة أن الأحداث الحسية الأكثر بعداً عن الخيال تحصل في كل أنحاء العالم. يقوم الرجال والنساء بأمور مدهشة مع بعضهم بعضاً، ويفعلونها ليس من أجل التناسل فقط بل من أجل المتعة، كما يفعل الرجال والرجال، والنساء والنساء، والأطفال والخدم، والمزارعون والمسافرون والبحارة والخياطات، وأحياناً حتى الزوجات والأزواج! يمكن حتى أن يقوم المرء بالأشياء الأكثر إدهاشاً مع نفسه، كما علمت ألما لتوها في غرفة التجليد، مع أو بدون مسحة خفيفة من زيت الجوز.

هل يفعل أشخاص آخرون هذا؟ ليس أفعال الاختراق الرياضية فحسب لكن هذه المداعبة السرية؟ قال الكاتب المجهول إن كثيراً من الناس يفعلون هذا، حتى السيدات ذات النسب الرفيع، بحسب قصته وتجربته. ماذا عن برودنس؟ هل تفعل هذا الأمر؟ هل حدث وجربت التويجات الإسفنجية، دوامة النار المشتعلة، انفجار الوميض الفوسفوري؟ من المستحيل تخيل هذا؛ فبرودنس حتى لم تتعرق. كان من الصعب قراءة تعابير برودنس الوجهية، كما أنه من الصعب تخمين ما يختبئ تحت ثيابها، أو ما هو مدفون في ذهنها.

ماذا عن آرثر ديكسون، أستاذهما؟ هل يعمل أي شيء في ذهنه إلى جانب الضجر الأكاديمي؟ هل هناك أي شيء مدفون في جسمه، خلف ارتعاشاته وسعلته الجافة الأبدية؟ حدقت بآرثر، باحثة عن علامة ما من الحياة الحسية، لكن شكله ووجهه لم يُفْصحا عن أي شيء. لم تستطع تخيله في ارتجافة متعة كالتي جربتها لتوها في حجرة التجليد. بالكاد استطاعت تخيله مستلقياً، وأكيد أنها لم تستطع تخيله عارياً. قدم كل الإشارات بأنه رجل وُلد واقفاً، مرتدياً صداراً مشدوداً عليه وبنطلوناً صوفياً، حاملاً كتاباً سميكاً، ويتنهد بشقاء. لو كانت لديه إثارة، فأين ومتى عبّر عنها؟

شعرت ألما بيد باردة على ذراعها. كانت يد أمها.

«ما رأيك يا ألما بأطروحة الأستاذ بيك؟».

كانت بياتريكس تعرف أن ألما لم تكن تصغي. كيف عرفت هذا؟ ماذا تعرف أيضاً؟ تمالكت ألما نفسها بسرعة، عادت بذهنها إلى بداية العشاء، وحاولت أن تتذكر بعض الأفكار التي سمعتْها. وعلى نحو غير معهود لم تتذكر شيئاً. تنحنحت وقالت: «أفضل أن أقرأ كتاب الأستاذ بيك كله قبل أن أطرح رأيي».

ألقت بياتريكس على ابنتها نظرة حادة ومندهشة ونقدية ولا تعبر عن إعجاب.

تلقى الأستاذ بيك، على أي حال، تعليق ألما كدعوة كي يتحدث أكثر، وفي الحقيقة كي يلقي قسماً كبيراً من الفصل الأول من كتابه من الذاكرة، كي يفيد السيدات الجالسات إلى الطاولة. لم يكن هنري ويتاكر يسمح عادة بعمل مضجر كهذا إلى حد كبير في غرفة عشائه، لكن ألما استطاعت أن ترى من وجهه أن والدها ضجر ومنهك، وربما على حافة

نوبة أخرى من نوباته. فقد كان المرض هو الشيء الوحيد الذي يهدئه هكذا. وعرفت ألما أن هنري سيمكث في السرير غداً طول اليوم، وربما طيلة الأسبوع القادم. أما الآن، فقد تحمل هنري إلقاء الأستاذ بيك المتكاسل صاباً لنفسه جرعة بعد أخرى من الكلاريت، ومغمضاً عينيه لفترة طويلة.

في غضون ذلك، درست ألما جورج هوكس، ناشر الكتب عن النباتات. هل فعل هذا الأمر؟ هل حدث وداعب نفسه حتى حدوث المتعة؟ كتب المؤلف المجهول أن الرجال يمارسون العادة السرية أكثر من النساء. فالشاب الذي يتمتع بالصحة والقوة يمكن أن يفعل ذلك عدة مرات في اليوم. لن يقول أحد إن جورج هوكس مليء بالحيوية، لكنه شاب بجسد ضخم وثقيل ومتعرق، جسد يبدو كأنه مليء بشيء ما. هل مارس جورج هذا الفعل مؤخراً، ربما حتى في هذا اليوم؟ ما الذي يفعله عضو جورج هوكس الآن؟ يستريح في كسل؟ أو يميل نحو الرغبة؟

فجأة، حصل الحدث الأكثر إدهاشاً الذي يمكن تخيله.

تحدثت برودنس ويتاكر.

قالت برودنس موجّهة كلماتها ونظرتها الهازئة إلى الأستاذ بيك: «اعذرني يا سيدي، إذا كنت فهمتك بشكل صحيح يبدو كأنك تعدّ الأنسجة المختلفة للشعر البشري دليلاً على أن الزنوج والهنود والشرقيين والرجل الأبيض كلهم أعضاء أنواع مختلفة. لكنني لا أستطيع مقاومة التساؤل حول فرضيتك. ففي هذه العزبة نفسها، يا سيدي، نحن نربي أنواعاً مختلفة من الخراف. ربما رأيتها حين سَلَكْت المدخل باكراً هذا المساء؟ لبعض خرافنا صوف حريري ناعم، ولبعضها صوف خشن،

ولبعضها الآخر خصلات صوفية كثيفة. أكيد يا سيدي أنك لن تشك، رغم الاختلافات في جلودها أنها كلها خراف. وإذا ما عذرتني، أعتقد أن جميع هذه الأنواع من الخراف يمكن أيضاً أن تُهَجّن بنجاح مع بعضها بعضاً. ألا ينطبق الأمر نفسه على البشر؟ ألا يستطيع المرء إذاً أن يطرح حجة بأن الزنوج والهنود والشرقيين والرجل الأبيض هم كلهم أيضاً نوع واحد؟».

استدارت جميع الأعين إلى برودنس. شعرت ألما كما لو أنها هُزت إلى الاستيقاظ بغمر من المياه المثلجة. انفتحت عينا هنري. وضع كأسه وجلس منتصباً، مركزاً كل انتباهه. كان هذا يحتاج إلى عين دقيقة لرؤيته لكن بياتريكس انتصبت أكثر في كرسيها أيضاً كما لو أنها تضع نفسها في حالة استنفار. وسّع المدرس آرثر ديكسون حدقتيه ناظراً إلى برودنس في ذعر، ثم على الفور نظر حوله بقلق، كما لو أنه يمكن أن يُلام على هذه الفورة. كان هناك الكثير الذي يمكن التعجب منه هنا بالفعل. كان هذا أطول كلام قدمته برودنس حول طاولة العشاء، أو بالفعل في أي مكان.

لسوء الحظ، لم تكن ألما تتابع النقاش حتى هذه النقطة، وهكذا لم تكن متأكدة بشكل كامل إن كانت مقولة برودنس صحيحة أو وثيقة الصلة بالموضوع، لكن قَسَمَاً بالله، تحدثت الفتاة! دُهش الجميع، على ما يبدو، باستثناء برودنس نفسها، التي حدقت بالأستاذ بيك بجمالها البارد المعتاد، رابطة الجأش، عيناها الزرقاوان واسعتان وصافيتان، منتظرة رداً. بدا وكأنها تتحدى أساتذة برنستون البارزين كل يوم في حياتها.

صحح لها الأستاذ بيك: «لا نستطيع مقارنة البشر بالخراف، أيتها السيدة الشابة، لأن كائنين يمكن تهجينهما فحسب... حسناً، إذا كان

والدك سيعذر ذكري لهذا الموضوع أمام السيدات؟» إن هنري الذي كان منتبهاً جداً الآن وافق ملوحاً بيده. «إذا كان يمكن تهجين كائنين فإن هذا لا يعني أنهما عضوان في النوع نفسه. يمكن تهجين الأحصنة مع الحمير، كما من المحتمل أنكم تعرفون. إن طيور الكناري أيضاً يمكن تهجينها مع عصافير الدوري، والديكة مع الحجل والتيس مع النعجة، لكن هذا لا يجعلهم متساوين بيولوجياً. فضلاً عن ذلك، من المعروف جيداً أن الزنوج يجذبون أنواعاً مختلفة من قمل الرأس والديدان المعويّة أكثر من البيض، وهكذا فإنهم يبرهنون بشكل لا يقبل الجدل على الفرق في النوع».

هزت برودنس رأسها بلباقة للضيف وقالت: «أخطأت يا سيدي، تابع أرجوك».

بقيت ألما دون كلام ومرتبكة. لماذا كل هذا الحديث عن التهجين؟ الليلة من بين كل الليالي؟

تابع الأستاذ بيك: «وبينما الفرق بين السلالات واضح حتى لطفل، فإن تفوق الرجل الأبيض يجب أن يكون واضحاً لأي شخص يمتلك أدنى اطلاع على تاريخ البشر وأصلهم. كتيوتينيين ومسيحيين، نحن نحترم الصدق والصحة الجيدة والازدهار والأخلاق. نسيطر على أهوائنا. بالتالي نقود. أما السلالات الأخرى، المتخلفة عن الحضارة، فلا تستطيع أبداً أن تقوم بابتكارات كالعملة والأبجدية والصناعة. لكن لا أحد بائساً كالزنجي. فالزنجي يفرط في التعبير عن عواطفه، مما يفسر غياب سيطرته على نفسه. ونرى هذا واضحاً في تركيبة وجهه. هناك أعين وشفاه وأفواه وآذان كبيرة وبالتالي لا يستطيع الزنجي مقاومة الإفراط في التحفيز من قبل حواسه. وهكذا فإنه قادر على العاطفة الأكثر

Twitter: @ketab_n

دفئاً، ولكن أيضاً العنف الأكثر سواداً. فضلاً عن ذلك، لا يستطيع الزنجي أن يحمرّ، وهكذا فهو غير قادر على الشعور بالخجل».

عند ذكر الاحمرار والخجل احمرت ألما من الخجل. كانت بشكل كامل خارج السيطرة على حواسها في تلك الليلة. ابتسم لها جورج هوكس ثانية، مرة أخرى بعاطفة دافئة، مما جعلها تحمرّ أكثر. ألقت بياتريكس على ألما نظرة من السخرية المدمرة بحيث أن ألما خافت للحظة من أنها ستُصفع. تمنت ألما أن تُصْفع ولو فقط كي تصفي رأسها.

تحدثت برودنس مرة أخرى على نحو مفاجئ.

سألت بصوت هادئ ومعتدل: «أتساءل إن كان الزنجي الأكثر حكمة متفوقاً في الذكاء على الرجل الأبيض الأكثر غباء؟ أسأل، يا أستاذ بيك فقط لأن أستاذنا ديكسون أخبرنا العام الماضي عن كرنفال حضره التقى أثناءه بعبد سابق اسمه السيد فولر من ماريلاند، كان مشهوراً في سرعة تخمينه. فبحسب السيد ديكسون، إذا أخبرت هذا الزنجي عن تاريخ ووقت ولادتك الدقيق فإنه يستطيع أن يحسب على الفور كم ثانية كنت حياً، يا سيدي، حتى أنه يحسب السنوات الكبيسة. من الواضح أنه كان عرضاً مؤثراً».

بدا آرثر ديكسون كما لو أنه سيُغْشى عليه.

أجاب الأستاذ الذي يبدو كأنه استاء علناً: «لقد رأيت أيتها السيدة الشابة بغالاً في الكرنفالات تُعلم الإحصاء».

أجابت برودنس، ثانية بالنبرة الهادئة والباهتة نفسها: «كما رأيت أنا، لكنني لم ألتق بعد ببغل كرنفال، يا سيدي، يمكن تعليمه حساب السنوات الكبيسة».

اندهش الأستاذ بيك قليلاً من هذا التعليق الجسور، لكنه هز رأسه

بعد ذلك باقتضاب وواصل: «حسناً جداً، إذاً، جواباً على سؤالك هناك أفراد معتوهون، وحتى أفراد علماء، يوجدون في كل نوع. ليس هذا هو العرف في الحالتين. لقد جمعتُ وقستُ جماجم الرجال البيض والزنوج لسنوات، واستنتجتُ من بحثي حتى الآن أن جمجمة الرجل الأبيض، حين تُملأ بالماء تحمل في المعدل المتوسط أكثر من جمجمة الزنجي بأربعة أونصات، مما يبرهن على مقدرة فكرية أكبر».

قالت برودنس بهدوء: «أتساءل ماذا يمكن أن يحدث لو أنك حاولت سكب المعرفة في جمجمة زنجي حي بدلاً من الماء في جمجمة زنجي ميت؟».

خيم صمت عميق حول المائدة. لم يكن جورج هوكس قد تحدث بعد في هذا المساء ومن الواضح أنه لن يبدأ الآن. كان آرثر ديكسون يقوم بمحاكاة ممتازة لجثة. أما وجه الأستاذ بيك فقد اتخذ لوناً أرجوانياً مميزاً. أما برودنس التي بدت، كما دائماً، كالخزف وقوية، فقد انتظرت رداً. حدق هنري إلى ابنته المتبناة ببدايات دهشة، لكن لسبب ما اختار ألا يتحدث، ربما كان يشعر بأنه مريض جداً بحيث لا يستطيع الانخراط مباشرة، أو ربما كان فقط يشعر بفضول كي يعرف إلى أين ستقود هذه المحادثة غير المتوقعة. ألما، بشكل مشابه، لم تسهم بأي شيء. وبصراحة لم تكن تملك شيئاً تضيفه. لم تجد نفسها في موقف كهذا من قبل ليس لديها شيء تقوله، وبرودنس لم تكن أبداً متحدثة هكذا من قبل. وهكذا كان من واجب بياتريكس أن تعيد الكلمات إلى مائدة العشاء، وفعلت هذا بإحساسها القوي المعتاد بالمسؤولية الهولندية.

قالت بياتريكس: «يسرني جداً يا أستاذ بيك أن أطّلع على البحث الذي ذكرته في البداية، عن اختلاف الأنواع في قمل الرأس وديدان

Twitter: @ketab_n

الأمعاء بين الزنجي والرجل الأبيض. هل أحضرت الوثائق معك؟ سيسعدني الاطلاع عليها. إن البيولوجيا على مستوى الديدان مثيرة لنا».

قال الأستاذ وهو يعدل جلسته إلى الخلف مستعيداً كرامته: «لا أحمل الوثائق معي. ولا أحتاج إليها. إن الوثائق في هذه الحالة غير ضرورية. إن الفرق في قمل الرأس وديدان الأمعاء بين الزنوج والرجال البيض حقيقة معروفة جيداً».

لم يكن هذا سيُصدق، لكن برودنس تحدثت مرة ثانية.

تمتمت باردة كالرخام: «يا للأسف. سامِحْنا، يا سيدي، لكن في هذا المنزل لا يُسْمَح لنا أبداً بالاستناد إلى فرضية أن أي حقيقة معروفة بما يكفي بحيث تتجنب ضرورة التوثيق الصحيح».

انفجر هنري ـ المريض والمنهك ـ ضاحكاً. وأعلن للأستاذ: «وهذه يا سيدي حقيقة معروفة جيداً!».

التفتت بياتريكس إلى كبير الخدم كما لو أنه لا شيء من هذا حدث وقالت: «يبدو أننا جاهزون للحلويات».

* * *

كانت الخطة هي أن ينام ضيوفهم في وايت إيكر، لكن الأستاذ بيك، المرتبك والمتضايق، اختار بدلاً من ذلك أن يستقلّ عربته إلى المدينة، وقال إنه يفضل أن ينزل في فندق في مركز المدينة ويبدأ رحلة عودته الشاقة إلى برنستون في اليوم التالي فجراً. لم يأسف أحد على رؤيته يذهب. سأل جورج هوكس إن كان بوسعه الذهاب مع الأستاذ بيك في العربة إلى مركز فيلادلفيا فوافق الباحث على مضض. لكن قبل أن يذهب جورج سأل إن كان بوسعه أن يمضي بعض الوقت على انفراد مع ألما وبرودنس. بالكاد تحدث كلمة في هذا المساء، لكنه أراد أن

Twitter: @ketab_n

يقول شيئاً ما الآن، وأراد على ما يبدو قوله للفتاتين. وهكذا دخل الثلاثة، ألما وبرودنس وجورج إلى غرفة الاستقبال، بينما دار الآخرون في الصالة المفتوحة كي يأخذوا الأردية والرزم.

وجه جورج تعليقاته لألما، بعد أن تلقى هزة رأس غير قابلة للفهم من برودنس.

قال: «يا آنسة ويتاكر أخْبَرتْني أختك أنك كتبت بحثاً مهماً عن نبتة المونوتروبا كي تشبعي فضولك فحسب. أرجو أن تطلعيني على مكتشفاتك، هذا إذا لم تكوني متعبة؟».

ارتبكت ألما. كان هذا طلباً غريباً، في وقت غريب من يوم كهذا. قالت: «أكيد أنك منهك جداً بحيث لا يمكن أن تتحدث عن هواياتي النباتية في هذه الساعة المتأخرة؟».

قال جورج: «كلا، يا آنسة ويتاكر. أرحب بهذا. إنه سيشعرني بالاسترخاء».

قالت: «حسناً يا سيد هوكس، كما تعرف بالتأكيد إن نبتة المونوتروبا هايبوبيتس لا تنمو إلا في الظل، ولونها أبيض شاحب، إنها شبحية اللون تقريباً. افترض علماء الطبيعة السابقون أن نبتة المونوتروبا تفتقر إلى الخضاب بسبب غياب أشعة الشمس في بيئتها، لكنني أعتقد أن هذه النظرية خاطئة بما أن بعض ألواننا الخضراء الأكثر حيوية يمكن أن توجد أيضاً في الظل، في نباتات مثل السرخس والطحالب. وبيّنَتْ الاستقصاءات الإضافية التي قمت بها أنه من المحتمل أن تميل المونوتروبا مبتعدة عن الشمس كما تميل نحوها، مما قادني إلى التساؤل عن احتمال حصولها على الغذاء من أشعة الشمس، بل بالأحرى من

Twitter: @ketab_n

مصدر آخر. وصلت إلى قناعة بأن المونوتروبا تحصل على غذائها من النباتات التي تنمو فيها. بتعبير آخر، أعتقد أنها متطفلة».

قال جورج بابتسامة صغيرة: «مما يقودنا إلى موضوع أولي في هذا المساء».

يا إلهي! كان جورج هوكس يقوم بدعابة! لم تكن ألما تعرف أن جورج قادر على التنكيت، لكن لدى إدراكها لنكتته، ضحكت بمتعة. لم تضحك برودنس، لكنها جلست فقط تراقب الاثنين جميلين وبعيدين كلوحة.

قالت ألما مستمدة بعض الزخم: «نعم، تماماً! لكن على عكس الأستاذ بيك وقمل الرأس الذي ذكره أستطيع أن أقدم أدلة. لاحظتُ تحت المجهر أن ساق المونوتروبا تخلو من المسام الخارجية التي يدخل عبرها الهواء والماء عادة في نباتات أخرى، ولا يبدو أنها تملك آلية كي تستمد الرطوبة من التربة. أعتقد أن المونوتروبا تستمد الغذاء والرطوبة من النبتة المحتضنة لها. وأعتقد أن غياب اللون فيها، كما في الجثة، ناشئ عن حقيقة أنها تتغذى من غذاء هُضم سابقاً، من قبل النبتة المضيفة».

قال جورج هوكس: «إنه تخمين فائق للعادة».

«حسناً، إنه مجرد تخمين حتى الآن. ربما ستتمكن الكيمياء يوماً ما من أن تبرهن على ما يوحي به مجهري الآن فحسب».

قال جورج: «هل يمكن أن أطلع على البحث هذا الأسبوع، لأنني أفكر بنشره».

سَحَرتْ ألما هذه الدعوة غير المتوقعة. كانت قد شوشتها أحداث اليوم الغريبة، وأثارها الحديث بشكل مباشر مع رجل ناضج تنشئ معه

ذهنياً أفكارها الحسية، فلم تتوقف كي تفكر بالعنصر الأغرب في هذا التبادل كله، وأعني دور أختها برودنس. لماذا كانت برودنس حتى حاضرة في هذه المحادثة؟ لماذا أعطت برودنس هزة الرأس الموافقة لجورج هوكس كي يبدأ حديثه؟ ومتى - في أية لحظة مجهولة أولية - سبق أن حظيت برودنس بالفرصة كي تتحدث مع جورج هوكس عن مشاريع بحث ألما النباتية الخاصة؟ متى لاحظت برودنس حتى مشاريع بحث ألما النباتية الخاصة؟

كان يمكن أن تشغل هذه الأسئلة ذهن ألما وتثير فضولها في أي مساء آخر لكنها لم تنتبه إليها في هذا المساء. في هذا المساء، في ختام ما كان اليوم الأغرب والأكثر إلهاء في حياتها، كان ذهن ألما منشغلاً بأفكار أخرى كثيرة بحيث أنه فاتها كلُّ هذا. مرتبكةً، ومتعبة ودائخة قليلاً، ودّعت جورج هوكس، ثم جلست لوحدها في غرفة الاستقبال مع أختها، منتظرة قدوم بياتريكس كي توبخهما.

خف حماس ألما بعد التفكير ببياتريكس. إن إحصاء بياتريكس الليلي لأخطاء ابنتيها لا يُستَمتع به أبداً، لكن ألما الليلة مقتت المحاضرة أكثر من المعتاد. جعلها سلوكها في ذلك اليوم (اكتشاف الكتاب، الأفكار المثيرة، الهيام المعزول في حجرة التجليد) تشعر كما لو أنها عبّرتْ عن الخطيئة بشكل مرئي. خافت من أن تشعر بياتريكس بالأمر بطريقة ما. فضلاً عن ذلك، إن المحادثة حول طاولة العشاء كانت كارثية، فقد بدت ألما غبية بشكل صارخ، بينما كانت برودنس أقرب إلى الوقاحة بشكل غير مسبوق. لن تكون بياتريكس مسرورة من أي منهما.

انتظرتْ ألما وبرودنس أمّهما في غرفة الاستقبال كراهبتين. حين تكونان معاً لوحدهما تلجأ الفتاتان إلى الصمت دوماً. لم تعثرا أبداً على

Twitter: @ketab_n

محادثة مريحة. ولم تثرثرا أبداً. ولن تفعلا هذا أبداً. جلست برودنس طاوية ذراعيها بهدوء، بينما كانت ألما تلعب بهدب منديل. نظرت ألما إلى برودنس، ساعية وراء أمر لم تستطع تسميته، ربما كان الزمالة أو الدفء أو نوعاً ما من القرب، أو ربما إشارة إلى أي من أحداث المساء. لكن برودنس ـ القاسية كما دوماً ـ لم تظهر أية حميمية. رغم هذه الحقيقة، قررت ألما أن تحاول.

سألت ألما: «من أين أتيت بالأفكار التي عبرت عنها الليلة، يا برودنس؟».

«من السيد ديكسون. إن مأساة السلالة الأفريقية ووضعها موضوع مفضل لأستاذنا الطيب».

«حقاً؟ لم أسمعه أبداً يذكر هذه الأمور».

قالت برودنس دون أي تغيير في ملامحها: «مع ذلك، إنه يمتلك مشاعر قوية حيال الموضوع».

«هل هو من مناصري إلغاء العبودية؟».

«نعم».

قالت ألما، متعجبة حيال فكرة امتلاك آرثر ديكسون لمشاعر قوية حول أي شيء: «يا للسماء، من الأفضل ألا يسمع والدانا بالأمر!».

أجابت برودنس: «أمنا تعرف».

«حقاً؟ ووالدنا؟».

لم تجب برودنس. كان لدى ألما المزيد من الأسئلة، الكثير منها، لكن برودنس لم تبد متلهفة للمناقشة. ثانية، خيم الصمت على الغرفة.

Twitter: @ketab_n

ثم قفزت ألما فجأة في ذلك الصمت، سامحة لسؤال وحشي غير متحكم به ينفجر من شفتيها.

قالت: «ما رأيك يا برودنس بالسيد جورج هوكس؟».

«أعتقد أنه سيد ظريف».

«أعتقد أنني متيّمة به!» قالت ألما صادمة حتى نفسها بهذا الاعتراف السخيف وغير المتوقع.

وقبل أن ترد برودنس ـ هذا إذا كان بوسعها الرد ـ دخلت بياتريكس غرفة الاستقبال ونظرت إلى ابنتيها الجالستين على الأريكة. لبرهة طويلة، لم تقل بياتريكس شيئاً. حدقت إلى ابنتيها بنظرة قاسية وغير مستسلمة، دارسة أولاً إحدى الفتاتين، ثم الأخرى. كان هذا مرعباً لألما أكثر من أية محاضرة، ذلك أن الصمت يحتوي على احتمالات لانهائية، كلية الحضور ومرعبة. قد تكون بياتريكس واعية لأي شيء، يمكن أن تعرف كل شيء. أمسكت ألما بزاوية منديلها، ومزقته إلى خيوط. لكن ملامح برودنس ووضعيتها لم تتبدلا.

«أنا منهكة هذا المساء»، قالت بياتريكس، كاسرة في النهاية الصمت الكريه. نظرت إلى ألما وقالت: «لا أمتلك الإرادة الليلة يا ألما كي أتحدث عن عيوبك. إن هذا سيعكّر مزاجي أكثر. لنقل فقط إنه إذا حدث ورأيت إلهاء مشوشاً كهذا فيك أثناء العشاء ثانية، سأطلب منك أن تتناولي وجباتك في مكان آخر».

بدأت ألما: «ولكن يا أمي ـ».

«لا تشرحي نفسك يا ابنتي. هذا ضعيف».

استدارت بياتريكس وكأنها ستغادر الغرفة، لكنها التفتت إلى الخلف وحدقت ببرودنس، كما لو أنها تذكرت شيئاً ما.

قالت: «كان أداؤك رائعاً الليلة يا برودنس».

كان هذا مخالفاً للعادة بشكل كبير، ذلك أن بياتريكس لم توجه مديحاً أبداً. لكن هل كان هناك شيء ما حيال هذا اليوم لم يكن مخالفاً للعادة؟ استدارت ألما منذهلة إلى برودنس، باحثة مرة أخرى عن شيء ما. الاعتراف؟ الرثاء؟ إحساس مشترك بالدهشة؟ لكن برودنس لم تكشف أي شيء ولم تبادل ألما النظر، وهكذا تخلت ألما عن الأمر. نهضت عن الصوفا وسارت نحو الدرج. عند قدم الدرج التفتت إلى برودنس وعبرت عن دهشتها مرة أخرى.

قالت ألما: «عمت مساء يا أختي»، لم تستخدم هذه الكلمة أبداً من قبل.

«وأنت»، كان هذا جواب برودنس الوحيد.

الفصل الثامن

بين شتاء ١٨١٦ وخريف ١٨٢٠، كتبت ألما ويتاكر أكثر من ٣٦ بحثاً لجورج هوكس، وقد نشرها كلها في مجلته الشهرية «بوتانيكا أميركانا». لم تكن أبحاثها رائدة، لكن أفكارها متألقة، ورسوماتها تخلو من الأخطاء، وبحثها دقيق وعميق. إذا لم يثر عمل ألما العالم، فمن الأكيد أنه أثارها هي، وكانت جهودها أكثر من جيدة لصفحات «بوتانيكا أميركانا».

كتبت ألما بشكل معمق عن الغار والسّنط ورعي الحمام. وكتبت عن الكرمة والبرتقال العطري، وعن حماية أشجار التين. ونشرت باسم «أ. ويتاكر». ولم تعتقد لا هي ولا جورج هوكس أنه سينفع ألما كثيراً أن تعلن نفسها في المواد المنشورة كأنثى. ففي العالم العلمي لذلك الزمن كان ما يزال هناك تقسيم صارم بين «علم النبات» (دراسة النباتات من قبل الرجال) و«علم النبات المهذب» (دراسة النباتات من قبل النساء). إن «علم النبات المهذب» غير قابل للتمييز الآن عن «علم النبات»، عدا أنه نُظر إلى أحد التخصّصين باحترام ولم يُنظر إلى الآخر، لكن ألما لم ترغب أن يُنظر إليها باستهجان كمجرد عالمة نباتات مهذبة.

كان اسم ويتاكر مشهوراً في عالم النباتات والعلم بالطبع، وهكذا فإن عدداً جيداً من علماء النبات كانوا يعرفون من هي «أ. ويتاكر». لكن ليس كلهم، على أي حال. ورداً على مقالاتها كانت ألما تتلقى آنذاك

Twitter: @ketab_n

رسائل من علماء نبات من جميع أنحاء العالم، تُرسل عبر مطبعة جورج هوكس. وكانت بعض هذه الرسائل تبدأ: «سيدي العزيز»، وكانت رسائل أخرى موجهة إلى «أ. ويتاكر». إحدى الرسائل الرسمية القابلة للتذكر جاءت موجهة إلى الدكتور «أ. ويتاكر». (حفظت ألما تلك الرسالة لوقت طويل، وقد دغدغها هذا التشريف غير المتوقع).

وبما أن جورج وألما بدآ يتشاطران الأبحاث ويحررانها معاً، فقد صار زائراً أكثر انتظاماً إلى وايت إيكر. وكان من المفرح أن خجله قد خفّ. وصار يتحدث بشكل متكرر إلى مائدة العشاء، وأحياناً يحاول أن يروي النكات.

أما برودنس، فلم تتحدث حول مائدة العشاء ثانية، فمداخلتها النارية حول الزنوج في ليلة زيارة الأستاذ بيك بدت كأنها فعل عابر ناجم عن الحماس الشديد، إذ إنها لم تكرر الأداء، ولم تتحدَّ ضيفاً مرة أخرى. وقد مازح هنري برودنس حول وجهات نظرها بشكل لا يلين منذ تلك الليلة، داعياً إياها «فتاتنا الداكنة الجميلة والمحاربة»، لكنها رفضت أن تتحدث مرة أخرى عن الموضوع. وبدلاً من ذلك عادت إلى طرقها الباردة الغريبة، معاملة الجميع وكل شيء باللباقة نفسها اللامبالية وغير القابلة للتفسير.

كبرت الفتاتان. حين صارتا في الثامنة عشرة، أوقفت بياتريكس جلسات تدريسهما، معلنة اكتمال تعليمهما، صارفة المسكين المضجر آرثر ديكسون الذي عُيِّن أستاذاً للغات الكلاسيكية في جامعة بنسلفانيا. وهكذا لا يُنظر إلى الفتاتين كطفلتين الآن. إن أي أم غير بياتريكس ويتاكر يمكن أن تعدّ هذه الفترة مخصصة للبحث عن زوج. ويمكن أن تقدم أيَّ أم أخرى الآن ألما وبرودنس بطموح إلى المجتمع، مشجعة

الفتاتين على المغازلة والرقص والتودد. وربما كانت هذه لحظة حكيمة لتفصيل فساتين جديدة، وإجراء تسريحات شعر مختلفة، والتقاط صور جديدة. لكن هذه الأنشطة لم تخطر في بال بياتريكس مطلقاً.

والواقع أن بياتريكس لم تفعل لبرودنس أو ألما أية أعمال معروف بخصوص ملائمتهن للزواج. وقال الثرثارون في فيلادلفيا بأن آل ويتاكر جعلوا ابنتيهما غير قابلتين للزواج بشكل كامل، متسائلين عن كل ذلك التعليم والعزل عن العائلات الأفضل. ذلك أنه لم يكن لأي من الفتاتين أصدقاء. ولا تتناولان العشاء إلا مع رجال علم وتجار كبار في السن، وهكذا فإن ذهنيهما غير ناضجين بشكل قابل للتمييز. ولم تخضعا لأدنى تدريب في كيفية التحدث بشكل ملائم مع خطيب شاب. وكانت ألما تقول حين يعبّر شاب عن إعجابه بزنابق الماء في إحدى برك وايت إيكر الجميلة: «كلا، يا سيدي، أنت مخطئ. ليست هذه زنابق ماء. هذه أزهار لوتس. إن زنابق الماء تعوم على سطح الماء، كما ترى، بنيما ترتفع أزهار اللوتس فوقه. حالما تعرف الفرق، لن ترتكب هذا الخطأ مرة أخرى أبداً».

ازداد طول ألما وصارت عريضة الكتفين. بدت كأنها تستطيع التلويح بفأس (وفي الحقيقة تستطيع التلويح بفأس، وكان عليها أن تفعل ذلك في عملها النباتي الميداني). ولم يكن هذا عائقاً أمام زواجها بالضرورة، إذ كان بعض الرجال يحبون النساء الضخمات اللواتي يوحين برغبة أكثر قوة. ويمكن القول إن ألما امتلكت مظهراً جانبياً أنيقاً، على الأقل من جانبها اليساري. ومن الأكيد أنها تملك طبيعة رائعة وودية. لكنها تفتقر إلى عنصر جوهري غير مرئي، وهكذا رغم كلّ الإيروسية الصريحة التي تختبئ في جسدها، فإن حضورها في غرفة لم يشعل أفكار الحماس في أيّ رجل.

Twitter: @ketab_n

اعتقدت ألما أنها غير جميلة ولم يساعدها هذا. فكرت بهذا فقط لأنه قيل لها مرات كثيرة، وبطرق كثيرة مختلفة. وفي الآونة الأخيرة جاءت أنباء غياب الجاذبية لديها مباشرة من والدها، الذي، بعد أن شرب الكثير من الروم في مساء أحد الأيام قال لها دون سبب: «لا تفكّري بالأمر يا فتاتي!».

سألت ألما رافعة عينيها عن الرسالة التي كانت تكتبها له: «لا أفكر بأي شيء حيال ماذا يا أبي؟».

«لا تخافي من الأمر يا ألما. ليس كل شيء أن يملك المرء وجهاً جميلاً. إن كثيراً من النساء غير الجميلات عُشقْنَ. فكري بأمك. لم تكن جميلة أبداً يوماً واحداً في حياتها، مع ذلك عثرت على زوج. فكّري بالسيدة كافندش، التي تسكن قرب الجسر! تبدو المرأة مرعبة، لكن زوجها وجدها ملاكاً بما يكفي كي ينجب منها سبعة أبناء. وهكذا سيكون هناك أحدٌ ما لكِ، يا خوخة، وأعتقد أن من يحظى بك سيكون محظوظاً».

اعتقدت أن كل هذا قد قُدم كعزاء.

أما برودنس فقد كان مُعْتَرفاً بجمالها على نطاق واسع، وقيل إنها أجمل نساء فيلادلفيا، لكن المدينة أجمعت أنها باردة ولا يمكن الحصول عليها. وأثارت برودنس الحسد في النساء، لكن لم يكن من الواضح إن أثارت الأهواء في الرجال. كانت برودنس تملك طريقة في جعل الرجال يشعرون بأنه ينبغي ألا يزعجوا أنفسهم أبداً، وهكذا، تصرفوا بحكمة، ولم يبادروا. كانوا يحدقون، ذلك أن المرء لا يستطيع مقاومة التحديق ببرودنس ويتاكر، لكنهم لم يقتربوا منها.

كان من المحتمل أن يتوقع المرء أن ابنتيْ ويتاكر تجذبان صيادي

Twitter: @ketab_n

الثروة. هذا صحيح، كان هناك الكثير من الشبان الذين اشتهوا نقود الأسرة، ولكن احتمال أن يصبح المرء صهر هنري ويتاكر بدا كتهديد أكثر مما هو مكسب مفاجئ، ولم يعتقد أحد في الحقيقة أن هنري سيُفْصَل عن ثروته بأية طريقة. حتى أحلام الثروة لم تجذب الخاطبين إلى وايت إيكر.

كان هناك بالطبع رجال مختلفون في أنحاء العزبة، لكنهم أتوا ساعين إلى هنري وليس من أجل ابنتيه. ففي أية ساعة في النهار يستطيع المرء أن يشاهد رجالاً واقفين في صالة وايت إيكر المفتوحة آملين اللقاء مع هنري ويتاكر. كانوا رجالاً من جميع الأنواع. كانوا رجالاً يائسين، ورجالاً حالمين، ورجالاً غاضبين وكاذبين. وكانوا رجالاً يصلون إلى العزبة حاملين حقائب عرض واختراعات ورسومات وخططاً ودعاوى. يجيئون كي يعرضوا حصصاً في الأسهم أو التماسات لقروض أو نموذجاً لمضخات جديدة، أو علاجاً لليرقان، سائلين إذا كان هنري يرغب بالاستثمار في أبحاثهم. لكنهم لم يأتوا إلى وايت إيكر من أجل متع المغازلة والتودد.

لكن جورج هوكس، على أية حال، كان مختلفاً. لم يَسْع أبداً وراء أي شيء مادي من هنري، لكنه يأتي إلى وايت إيكر كي يتحدث معه، أو كي يستمتع بغنائم البيوت الزجاجية. وكان هنري يستمتع برفقة جورج، ذلك أن جورج ينشر آخر المكتشفات العلمية في مجلاته، ويعرف كل ما يدور في عالم النباتات. ولم يتصرف أبداً كساع وراء خطوبة، إذ لم يكن مغازلاً أو لعوباً، لكنه كان منتبهاً إلى فتاتيْ ويتاكر، ولطيفاً معهما. كان دائماً مهتماً ببرودنس. أما بالنسبة لألما فقد انخرط معها كما لو أنها زميل مهم في علم النباتات. كانت ألما تقدر احترام جورج اللطيف، لكنها رغبت بما هو أكثر من ذلك. شعرت أن الخطاب

Twitter: @ketab_n

الأكاديمي ليس كيف يتحدث شاب مع الفتيات اللواتي يحبهن. كان هذا أكثر بؤساً، ذلك أن ألما أحبت جورج هوكس من كل قلبها.

كان خياراً غريباً في الحب. لن يقول أحد إن جورج رجل أنيق، لكنه كان في عيني ألما نموذجياً. شعرت أنهما يشكلان ثنائياً ظريفاً، وربما زوجين ملائمين. لم يكن هناك شك بأن جورج ضخم بشكل مفرط وشاحب ومرتبك ومشوش، لكن ألما هكذا أيضاً. في كل مرة يرتدي خليطاً من الثياب، لكن ألما لم تلبس على الموضة، أيضاً. كانت صدارات جورج ضيقة جداً وبنطلوناته واسعة، لكن لو كانت ألما رجلاً، للبَستْ هكذا على الأرجح، فقد واجهت دوماً مشكلات مشابهة محتارة كيف تلائم ثيابها مع بعضها. كان جبين جورج عريضاً وذقنه صغيراً، لكن له كتلة كثة من الشعر الأسود الرطب والكثيف. كان من الواضح أن ألما تريد أن تلمسه.

لم تعرف ألما كيف تلعب دور الفتاة المدلّلة. ولم تكن تملك أدنى فكرة حول كيف تتودّد إلى جورج، سوى أن تكتب له بحثاً بعد آخر حول موضوعات نباتية أكثر غموضاً. مرت لحظة واحدة فقط بين جورج وألما يمكن أن تُؤول بشكل معقول بأنها رقيقة. ففي نيسان/ إبريل ١٨١٨، جعلت ألما جورج هوكس يشاهد منظراً جميلاً في مجهرها لنبتة الكاركيسيوم بوليبينوم (مضاءة بشكل تام وحية، ترقص بسعادة في مياه البركة، بأكوابها الدائرة وأهدابها الملوحة، وأغصانها المزهرة والمهدبة). أمسك جورج يدها اليسرى، ضغطها بعفوية بين راحتي كفيه الضخمتين الرطبتين، وقال: «يا إلهي، يا سيدة ويتاكر! لقد أصبحت خبيرة مجهر ممتازة!».

إن تلك اللمسة، ضغط اليد، والمديح جعلت قلب ألما يخفق

بسرعة كبيرة. جعلتها أيضاً تجري إلى حجرة التجليد، كي تطفئ ظمأها بيديها مرة أخرى.

آه، نعم، إلى غرفة التجليد مرة أخرى!

صارت غرفة التجليد، منذ خريف ١٨١٦، مكاناً تزوره ألما كل يوم، وأحياناً عدة مرات في اليوم، وتنقطع فقط أثناء طمثها. يمكن أن يتساءل المرء متى تعثر على الوقت لنشاط كهذا، نظراً لدراساتها ومسؤولياتها كلها، لكنها لم تتوقف عن القيام بالأمر. إن جسم ألما الطويل والمسترجل والصوانيّ والمنمّش وذي العظم الكبير والبراجم السميكة والمربّع الردفين والقاسي الصدر صار مع مرور الأعوام عضواً بعيداً جداً عن كونه عضو رغبة جنسية، وكانت في كل مرة مفرطة الازدحام بالحاجة.

قرأت كتاب «بحبة ملح» مرات كثيرة بحيث أنه صار منقوشاً في ذاكرتها، وانتقلت إلى مادة القراءة الجريئة. وكلما اشترى والدها مكتبات أشخاص آخرين، كانت تفرز الكتب بانتباه شديد، باحثة دوماً عن شيء خطير، شيء بغلاف خادع، شيء ما غير شرعي مخبأ بين مجلدات أخرى غير مؤذية. وهكذا عثرت على سافو وديدرو، وعلى بعض الترجمات المقلقة لكتيبات المتعة اليابانية. وعثرت على كتاب فرنسي فيه اثنتا عشرة مغامرة جنسية، مقسماً بحسب الشهور، يدعى «عام الشجاعة»، يتحدث عن عاهرات منحرفات وكهنة فاسقين وعن فتيات باليه ساقطات وزوجات حكام تم إغراؤهن! وقد حطت النتيجة من قدرهن ودمرتهن. وظهرن في كثير من الكتب البذيئة! وتساءلت ألما لماذا ستكون أي امرأة زوجة حاكم إن كان هذا يقود إلى الاغتصاب والاستعباد فحسب؟ قرأت ألما أيضاً كتيب «نادي جَلْد» سري للسيدات

Twitter: @ketab_n

في لندن، وعدداً لا يُحصى من حكايات العربدة والفحش الروماني والتكريسات الدينية الهندية الإباحية. فصلت جميع هذه الكتب عن الكتب الأخرى وخبأتها في صناديق في العلية الخاصة بمنزل العربات.

لكن كان هناك المزيد. تصفحت أيضا مجلات طبية تحتوي أحياناً على التقارير الأكثر غرابة عن الجسم البشري. وقرأت نظريات مسرودة بدقة عن الخنوثة المحتملة لآدم وحواء. وقرأت مواد علمية عن شعر الأعضاء الذي ينمو بوفرة عجيبة والذي يمكن أن يُقص ويباع كلمّات مستعارة. وقرأت إحصائيات عن صحة العاهرات في منطقة بوسطن، وتقارير عن بحارة زعموا أنهم ناموا مع الفقمات. قرأت مقارنات عن أحجام الأعضاء بين ثقافات وسلالات كثيرة، وعبر تنوعات ثديية مختلفة.

كانت تعرف أنها يجب ألا تقرأ أياً من هذه المواد، لكنها لم تستطع التوقف عن ذلك. أرادت أن تعرف كلّ ما تقدر عليه. ملأت هذه القراءة ذهنها بعرض سيرك حقيقي من الأجساد المعرّاة والمجلودة والمذلة والمحتقرة والتائقة والمفككة (والتي تُجمع ثانية فيما بعد، من أجل المزيد من الإذلال). طورت ولعاً حسياً له علاقة بالفم. وكي نكون دقيقين، كان هذا شيئاً لن ترغب سيدة بالقيام به أبداً، اشتهت أجزاء من أجسام أشخاص آخرين، وما شابه. الأهم من ذلك كله أنها رغبت بأقرب انخراط ممكن مع الشيء. أحبت أن تدرس الأشياء بشكل حميمي وحتى مجهري وهكذا كان من المعقول أنها تتوق إلى أن ترى وتتذوق المظهر الأكثر خفاء في الرجل، عش وجوده السري. صار التفكير بكل هذه الأمور، مترافقاً مع وعي متصاعد بشفتيها ولسانها، هوساً إشكالياً تراكم في داخلها إلى أن تغلب عليها كلياً. ولم يكن بوسعها حل هذه المشكلة إلا برؤوس أصابعها، وفي حجرة التجليد،

Twitter: @ketab_n

في الظلمة الآمنة العازلة، مع كل الروائح المألوفة للجلد والصمغ حولها، والقفل الجيد الموثوق على الباب. كان بوسعها حلها بيد واحدة في مكان والأخرى في مكان آخر فحسب.

عرفت ألما أن انتهاكها لنفسها قمة الخطأ، وأن هذا يمكن أن يؤذي صحتها. ثانية، غير قادرة على منع نفسها من اكتشاف الأشياء، درست الموضوع، وما تعلمته لم يكن مشجّعاً. فقد قرأت في إحدى المجلات الطبية البريطانية أن الأطفال الذين يأكلون طعاماً صحياً ويتنفسون هواء نقياً يجب ألا يشعروا بالتأثر الجنسي الأدنى من أي نوع في أجسامهم، ويجب ألا يسعوا وراء معلومات حسية. فالتسليات البسيطة للحياة الريفية، كما زعم المؤلف، يجب أن تسلي الشبان بما يكفي بحيث لا تتغلب عليهم الرغبة باستكشاف أعضائهم. ومن قراءتها لمجلة طبية أخرى عرفت أن البلوغ المبكر يمكن أن يحدث فقط بتبليل السرير بكثير من الضرب أثناء الطفولة، باهتياج المنطقة الشرجية بسبب الديدان، أو (وهنا ضاق نفس ألما) من «النمو الفقري قبل الأوان». لا بد أن هذا ما حدث لها، كما ظنت. ذلك أن الذهن إذا ما أُشبع بشكل مفرط في سن مبكرة فإن الانحرافات تنشأ بشكل محتم، وتبحث الضحية عن بدائل انغماس ذاتي للجماع. وكانت هذه بشكل رئيسي مشكلة في تطور الأولاد، كما قرأت، لكنها كانت، في حالات نادرة، جلية في الفتيات. إن الصغار الذين انغمسوا ذاتياً في أجسادهم الخاصة سيصبحون يوماً ما أشخاصاً متزوجين يعذبون شركاءهم بإلحاحهم على الجماع كل ليلة من الأسبوع إلى أن تمرض الأسرة وتتآكل وتفلس. إن الانغماس الذاتي يدمر أيضاً صحة الجسد، مسبباً ظهراً مقوساً ومشية عرجاء!

لكنها تراجعت عن تصميمها. وعدتْ نفسها بزيارة حجرة التجليد مرة أخرى فقط. ستسمح لرأسها بأن يمتلئ مرة أخرى فقط بهذه الأفكار

Twitter: @ketab_n

المثيرة والمقيتة. ستدور أصابعها فيه وفي شفتيها، وتشعر بساقيها تنشدّان وبوجهها يَحْمى، وجسدها يرتخي مرة أخرى فقط في حساء من الفوضى المدهشة. مرة واحدة فقط.

ثم، ربما، مرة واحدة أخرى.

صار من الجلي أنه لا يمكن التحكم بالأمر، وفي النهاية لم يكن أمام ألما خيار سوى أن تجيز بصمت سلوكها السريّ وتواصله. كيف بطريقة أخرى ستتخلص من الرغبة المتجمعة فيها، كل ساعة من اليوم؟ فضلاً عن ذلك، إن تأثيرات هذا «التدنيس» للذات على صحتها وروحها بدت مختلفة بوضوح عن التحذيرات التي في المجلات بحيث أنها تساءلت لوهلة إن كانت تقوم بالأمر بشكل غير صحيح، بحيث أنه كان مفيداً ولم يكن ضاراً؟ ما الذي يمكن أن يشرح حقيقة أن نشاطها السري لم يسبب أياً من النتائج السلبية التي حذرت منها المجلات الطبية؟ سبب الفعل راحة لألما، وليس مرضاً. جعل خديها متوردين بلون صحي، بدلاً من أن يجفف ملامحها من الحيوية. نعم، إن الإكراه سبب لها إحساساً بالعار، ولكن دوماً، حالما يكتمل العمل، تشعر بأنها تدخل حالة حيوية ودقيقة من الوضوح الذهني. تركض مباشرة من حجرة التجليد عائدة إلى بحثها، حيث تعمل بإحساس متجدد، وتجلس إلى طاولتها بوضوح مليئة بالطاقة، وباندفاع جسدي من الحيوية المثيرة والمفيدة. وتدخل دائماً فيما بعد في يقظتها الأكثر تألقاً وحماسة. ويزدهر عملها دوماً بعد ذلك.

فضلاً عن ذلك، تملك ألما الآن مكاناً كي تعمل فيه، لديها مكتبها الخاص، أو على الأقل لديها شيء ما تسميه مكتباً. فبعد أن أزالت كل كتب والدها السطحية من منزل العربات، اتخذت لنفسها غرفة في

Twitter: @ketab_n

الطابق الأرضي من بين الغرف الأكبر وغير المستخدمة، وحولتها إلى ما يشبه ملاذاً بحثياً. كان وضعاً مريحاً. فقد كان منزل العربات في وايت إيكر بناء آجرياً جميلاً، فخماً وهادئاً، بسقف طويل مقنطر ونوافذ واسعة كريمة. وكان مكتب ألما المكان الأجمل داخل البناء، ومباركاً بضوء شمالي ثابت، وأرضية آجرية نظيفة، ومطلة على حديقة أمها الإغريقية الجميلة. وكانت تفوح من الغرفة رائحة القش والغبار والأحصنة، ومليئة بالقعقعة السائغة للكتب والحوافر والمناخل والصحون والمقالي والعينات والمراسلات والآنية وعلب الحلويات القديمة. وبمناسبة عيد ميلاد ألما التاسع عشر أهدتْها أمها «صندوقاً ضوئياً» سمح لها بتكبير وتعقب العينات النباتية من أجل رسم أكثر علمية. وصارت تملك الآن مجموعة رائعة من الموشورات الإيطالية، مما جعلها تشعر قليلاً بأنها مثل نيوتن. وكانت تملك طاولة صلبة وجيدة، ومقعد مخبر عريضاً وبسيطاً، للقيام بالتجارب. واستخدمت البراميل القديمة كمقاعد، بدلاً من الكراسي الرسمية، بما أن السير حولها بتنانيرها كان مريحاً لها أكثر. وكان لديها مجهران ألمانيان ممتازان، تعلمت أن تستخدمهما ـ كما لاحظ جورج هوكس ـ باللمسة الماهرة لمطرزة مُتقنة. كانت الشتاءات في المكتب في البداية غير مريحة (باردة بحيث أن حبرها لم يكن يتدفق)، لكن ألما أحضرت في الحال مدفأة فرانكلين، وسدت بنفسها الشقوق في الجدران بطحالب مجففة فأصبح مكتبها أخيراً ملاذاً دافئاً ومريحاً طول السنة.

بنت ألما مجموعتها النباتية في منزل العربات. أتقنت فهمها لعلم التصنيف الحديث، وأجرت تجارب أكثر تفصيلاً. قرأت نسختها من كتاب فيليب ميلر «قاموس حدائقي» مرات كثيرة بحيث أن الكتاب نفسه اتخذ مظهر أوراق شجر قديمة ومهترئة. درست أحدث الأبحاث الطبية

Twitter: @ketab_n

عن التأثيرات المفيدة لنبات قفاز الثعلب على مرضى يعانون من داء الاستسقاء، وعن استخدام نبات الكبيباء في معالجة الأمراض الجنسية. عملت على تحسين رسوماتها النباتية، التي لم تكن دائماً جميلة، ولكنها دائماً دقيقة بشكل جميل. عملت باجتهاد لا يكلّ، وتسارعت أصابعها بسعادة عبر جداولها وتحركت شفتاها كما لو أنها تصلي.

وبينما واصلت بقية وايت إيكر نشاطها المعتاد وقتالها، فإن هذين الموقعين، حجرة التجليد ومكتب منزل العربات، صارا بالنسبة لألما مكانين توأمين للعزلة والوحي. كانت إحدى الغرف للجسد؛ والأخرى للذهن. إحدى الغرف صغيرة وبدون نوافذ، والأخرى مهواة ومضاءة بشكل مبهج. تفوح من غرفة رائحة الصمغ القديم ومن الأخرى القش الطازج. إحدى الغرف تولّد أفكاراً سرية، والأخرى تولد أفكاراً يمكن أن تُنشر ويتم تشاطرها. وُجدت الغرفتان في بناءين منفصلين، تفصل بينهما المروج والحدائق، بينهما مدخل حصوي عريض. لن يرى أحد التواشج بينهما.

لكن الغرفتين تنتميان إلى ألما ويتاكر وحدها، وفي كلتا الغرفتين جاءت إلى الوجود.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

كانت ألما تجلس إلى طاولتها في منزل العربات في أحد الأيام في خريف ١٨١٩، تقرأ الجزء الرابع من كتاب جان بابتيست لامارك «التاريخ الطبيعي للافقاريات»، حين شاهدت شكلاً يعبر حديقة أمها اليونانية.

كانت ألما معتادة على عمال وايت إيكر وهم يمرون أثناء تأديتهم لواجباتهم، ويكون هناك عادة حجل أو طاووس ينقر في الأرض أيضاً، لكن هذا الكائن لم يكن عاملاً أو طائراً. كانت فتاة صغيرة وأنيقة سوداء الشعر في حوالى الثامنة عشرة من عمرها، تلبس ثياباً بشرية وردية اللون وفي غاية الأناقة. وفيما كانت تسير في الحديقة، كانت الفتاة تؤرجح دون اكتراث مظلة تتدلى منها شرابة. كان من الصعب التأكد، لكن بدا وكأن الفتاة تتحدث مع نفسها. وضعت ألما كتاب لامارك وراقبت. لم تكن الغريبة مستعجلة، وفي الحقيقة عثرت لنفسها على مقعد وجلست عليه، ثم بشكل مثير للاستغراب أكثر استلقت عليه، على ظهرها. راقبت ألما، منتظرة الفتاة أن تتحرك، لكن بدا كأنها نائمة.

كان هذا غريباً. كان هناك زوار في وايت إيكر في ذلك الأسبوع (خبير في النباتات اللاحمة من ييل وباحث ممل كتب أطروحة عن تهوية البيوت الزجاجية)، لكن لم يحضر أي منهما ابنة. كان من الواضح أن الفتاة ليست قريبة لأي من العمال في العزبة، أيضاً. إذ ما من حدائقي

يستطيع أن يشتري لابنته مظلة رائعة كهذه، ولا ابنة عامل ستسير بلامبالاة كهذه عبر حديقة بياتريكس ويتاكر اليونانية الثمينة.

مفتونة، تركت ألما عملها وسارت إلى الخارج. اقتربت من الفتاة بحرص، دون أن ترغب بإيقاظها بشكل مفاجئ، لكن حين دققت النظر رأت أن الفتاة لم تكن نائمة، بل تحدق إلى السماء فحسب، وشعرها متجمع في كومة من الخصل السوداء البراقة.

قالت ألما وهي تحدق بها: «مرحباً».

«آه، مرحباً»، أجابت الفتاة، مرعوبة بشكل كامل من مظهر ألما. «كنت لتوي أشكر الله على هذا المقعد».

انتقلت الفتاة إلى وضعية الجلوس، وهي تبتسم بتألق، وربتت على المكان إلى جانبها، داعية ألما إلى الجلوس. جلست ألما بطاعة، درستْ زميلتها في الجلوس وهي تجلس. كانت الفتاة غريبة. بدت أكثر جمالاً من بعيد. صحيح أن لها شكلاً جميلاً وشعراً رائعاً وغمازتي خد ملائمتين جداً، لكن المرء يستطيع أن يرى عن قرب أن وجهها مسطح قليلاً ودائري، كمثل صحن الفنجان، وأن عينيها الخضراوين كبيرتان جداً ومعبرتان. عيناها ترفان باستمرار. وقد جعلها هذا تبدو صغيرة بشكل مفرط، وغير متألقة جداً، وشديدة الاهتياج قليلاً. أدارت الفتاة وجهها المنقط نحو الأعلى إلى ألما وسألت: «والآن أخبريني، هل سمعت الأجراس ترن ليلة أمس؟».

فكرت ألما بهذا السؤال. كانت قد سمعت في الواقع الأجراس ترن ليلة أمس، فقد نشبت نار في فيرمونت هيل، ورنت الأجراس كي تنذر بالخطر في المدينة كلها.

قالت ألما: «سمعتُها».

Twitter: @ketab_n

هزّتْ الفتاة رأسها برضا، صفّقتْ بيديها وقالت: «عرفتُ ذلك!».

«عرفتِ أنني سمعت الأجراس ليلة أمس؟».

«عرفتُ أن الأجراس حقيقية!».

قالت ألما بحذر: «أنا لست متأكدة من أننا التقينا سابقاً».

«كلا، لم نلتق! اسمي ريتا سنو. سرتُ الطريق كله إلى هنا».

«حقاً؟ هل يمكن أن أسألك من أين؟».

يمكن أن يتوقع المرء أن الفتاة ستجيب: «من كتاب قصص خرافية!» لكنها قالت بدلاً من ذلك: «من ذلك الطريق»، وأشارت نحو الجنوب. حزرت ألما كل شيء على الفور. هناك عزبة أخرى في الأعلى قرب النهر تبعد ميلين عن وايت إيكر. وكان المالك تاجر نسيج ثرياً من ماريلاند، ولا بد أن الفتاة ابنته.

قالت ريتا: «كنت آمل وجود فتاة من عمري تعيش في هذه المنطقة. كم عمرك، إذا كان بوسعي الحديث بصراحة؟».

«أنا في التاسعة عشرة»، قالت ألما، شاعرة بأنها أكبر سناً، وخاصة بالمقارنة مع هذه المخلوقة الصغيرة.

صفقت ريتا: «مذهل! أنا في الثامنة عشرة، وهذا ليس بالفرق الكبير، أليس كذلك؟ يجب أن تخبريني شيئاً الآن، وأتوسل إليك أن تكوني صادقة: ما رأيك بفستاني؟».

«حسناً...»، لم تكن ألما تعرف شيئاً عن الفساتين.

قالت ريتا: «أعترف أنه ليس أفضل فستان لدي، لو شاهدت الفساتين الأخرى لوافقت بقوة أكبر، ذلك أنه لدي بعض الفساتين الرائعة، لكنك لا تكرهين هذا الفستان، أليس كذلك؟».

Twitter: @ketab_n

وضعت ريتا ذراعاً حول خصر ألما، وأسندت رأسها على كتفه ملتمسة الدفء. لم يكن هناك سبب في العالم يجعل ألما ترحب بهذ الحركة. بصرف النظر عمن هي ريتا سنو، من الواضح أنها سخيفة، حوض صغير تام من الحماقة والذهول. كان لدى ألما عمل تقوم به، والفتاة تقاطعها.

لكن لم يسبق أن نادى أحد ألما بالصديقة.

لم يسبق أن سأل أحد ألما عن رأيها بفستان.

لم يسبق أن أُعجبَ أحدٌ بذقنها.

جلستا على المقعد لفترة في هذا العناق الدافئ والمفاجئ. ثم انسحبتْ ريتا، نظرت إلى ألما وابتسمت بشكل طفوليٍّ ساذج ومبهج.

قالت: «ما الذي يجب أن نفعله تالياً؟ وما اسمك؟».

ضحكت ألما، وعرّفت عن نفسها، واعترفت أنها لا تعرف ما الذي يفعلانه تالياً.

سألت ريتا: «هل هناك فتيات أخريات؟».

«هناك أختي».

«لديك أخت! أنت محظوظة! لنذهب ونعثر عليها».

وهكذا انطلقتا معاً وتجولتا في الأراضي إلى أن عثرتا على برودنس تعمل على مسند لوحها في إحدى حدائق الورود.

«لا بد أنك الأخت!» قالت ريتا، مندفعة إلى برودنس كما لو أنها فازت بجائزة، وكانت الجائزة هي برودنس.

وضعت برودنس الهادئة والدقيقة كما دوماً فرشاتها جانباً ومدت يدها بلباقة إلى ريتا كي تصافحها. وبعد أن هزت ريتا ذراع برودنس

Twitter: @ketab_n

بكثير من الحماس نظرت إليها بتمعن للحظة ورأسها مائل جانبياً. توترت ألما، منتظرة ريتا كي تعلق على جمال برودنس، أو تسأل كيف من الممكن على المستوى البشري أن ألما وبرودنس شقيقتان. أكيد أن هذا ما سأله جميع الآخرين لدى رؤية ألما وبرودنس معاً للمرة الأولى: *لماذا إحدى الشقيقتين خزف والأخرى متوردة؟ كيف هناك أخت جميلة هكذا وأخرى ضخمة هكذا؟* توترت برودنس، أيضاً، وهي تنتظر الأسئلة نفسها غير المرحب بها. لكن ريتا لم تبد مفتونة أو مذهولة بجمال برودنس بأية طريقة، ولم تتوقف عند فكرة أن الأختين كانتا في الحقيقة أختين. فحصت برودنس فحسب من رأسها ألى أخمص قدميها ثم صفقت بمتعة.

قالت: «والآن يوجد ثلاث منا! يا له من حظ جيد! لو كنا صبياناً، هل تدركان ما الذي كنا سنفعله الآن؟ كنا سنهجم على بعضنا برعب ونتصارع ونتقاتل وندمي أنوف بعضنا بعضاً. ثم في نهاية المعركة، بعد أن نعاني من إصابات مؤلمة، سنرجع أصدقاء بسرعة من جديد. هذا صحيح! رأيت هذا يحدث! وستكون تسلية ممتعة جداً، لكنني سأحزن على إفساد فستاني الجديد رغم أنه ليس أفضل فستان لدي كما قلتُ لألما، وهكذا فإنني أشكر السماء اليوم أننا لسنا فتياناً. وبما أننا لسنا فتياناً هذا يعني أننا نستطيع أن نكون أصدقاء على الفور، دون قتال مطلقاً. ألا توافقان؟».

لم تكن أي منهما تمتلك وقتاً كي توافق بما أن ريتا تابعت هادرة: «إذاً قُرِّرَ هذا! نحن الصديقات الثلاث، أصبحنا هكذا بسرعة. يجب أن يؤلف أحد ما أغنية عنا. هل تستطيع إحداكن تأليف أغنية؟».

تبادلت برودنس وألما النظر مذهولتين.

Twitter: @ketab_n

تابعت ريتا: «إذاً سأفعل أنا هذا إن اضطررت. امنحاني لحظة».

أغمضت ريتا عينيها، وحركت شفتيها، ونقرت بأصابعها على خصرها، كما لو أنها تحصي المقاطع.

خصّت برودنس ألما بنظرة متسائلة، فهزّت ألما كتفيها.

بعد صمت طويل كهذا سيشعر أي شخص في العالم بالحرج باستثناء ريتا سنو. فتحت ريتا عينيها ثانية.

أعلنت: «أعتقد أنني وجدتُها. يجب على شخص آخر أن يؤلف الموسيقا، لأنني أمقت الموسيقا، لكنني ألفت الأبيات الأولى. أعتقد أنها تعبر عن صداقتنا بشكل كامل. ما رأيكما؟» تنحنحت ثم قرأت:

«نحن كَمَانٌ وشوكة ومِلْعقة

نرقص مع القمر.

إذا أردتم أن تسرقوا منا قبلةً

فمن الأفضل أن تفعلوا هذا بسرعة».

وقبل أن تمتلك ألما الفرصة كي تفك شفرة هذه القصيدة المقفاة (كي تستنتج مَن الكمان وَمَن الشوكة ومَن الملعقة)، انفجرت برودنس ضاحكة. كان هذا لافتاً، لأن برودنس لم تضحك أبداً. كانت ضحكتها رائعة ومتهورة وصاخبة، وليست مطلقاً تلك التي يمكن أن يتوقعها المرء من فتاة كهذه تشبه الدمية.

«من أنت؟»، سألت برودنس، حين توقّفت عن الضحك.

«أنا ريتا سنو يا آنسة، وأنا صديقتك الأحدث المخلصة».

قالت برودنس: «حسناً يا ريتا سنو. أعتقد أنك مجنونة».

Twitter: @ketab_n

أجابت ريتا، منحنية بتباه: «هكذا يقول الجميع! لكن مع ذلك أنا هنا».

* * *

كانت هكذا بالفعل.

صارت ريتا سنو مظهراً ثابتاً في وايت إيكر. وحين كانت ألما طفلة امتلكت مرة قطة صغيرة تجولت في الملكية وغزت المكان بالطريقة نفسها. دخلت تلك القطة ـ المخلوق الصغير والجميل، والمرقط بخطوط صفراء براقة ـ مرة إلى مطبخ وايت إيكر في يوم مشمس، حكّت نفسها على سيقان الجميع، ثم استلقتْ قرب الموقد وذيلها ملتف على جسمها، تهرهر بخفة، وعيناها نصف مغمضتين من الرضا. كانت القطة مرتاحة وواثقة بأن لا أحد يمتلك الشجاعة كي يخبرها أنها لا تنتمي إلى المكان.

كانت مناورة ريتا مشابهة.أتت إلى وايت إيكر في ذلك اليوم، ظلت مسترخية، وبدا فجأة كأنها كانت هنا دائماً. لم يَدْع أحد ريتا أبداً، لكن ريتا لم تَبْد من نوع الشابات اللواتي يتطلبن دعوة إلى أي شيء. كانت تصل حين تحب الوصول، وتبقى كما يسرّها، وتساعد نفسها في أي شيء ترغب به، وتغادر متى كانت جاهزة.

عاشت ريتا سنو، بشكل يثير الحسد، الحياة الأكثر فلتاناً على نحو صادم. كانت أمها امرأة اجتماعية صباحاتها مشغولة، تمضي ساعات طويلة في العناية بزينتها، وتستهلك فترات بعد الظهر في استقبال أشخاص اجتماعيين آخرين، وكانت مساءاتها مشغولة جداً بالرقص. أما والدها، الذي كان رجلاً متساهلاً وغائباً، فقد اشترى في النهاية لابنته عربة تجرها الأحصنة موثوقة وبدولابين، كانت تتجول فيها في أنحاء

Twitter: @ketab_n

فيلادلفيا على هواها. تمضي ساعاتها وهي تسرع عبر العالم في عربتها كمثل نحلة سعيدة معربدة. إذا رغبت بحضور المسرح، تحضر المسرح. وإذا رغبت بمشاهدة عرض، تفعل ذلك. وإذا رغبت بأن تمضي النهار كله في وايت إيكر، تفعل هذا على هواها.

في العام التالي صارت ألما تعثر على ريتا في الأماكن الأكثر إدهاشاً في وايت إيكر: تقف على برميل في غرفة صناعة الزبدة، تُضحك الحلابات وهي تمثل مشهداً من «مدرسة للفضيحة»، أو تدلي قدميها من حوض المركب إلى المياه الملوثة بالنفط لنهر سكيولكل، متظاهرة بأنها تصطاد الأسماك بأصابع قدميها، أو تقص أحد شالاتها الجميلة من المنتصف، كي تمنح نصفه لخادمة مدحته لتوها. («انظري، كلٌ منا لديها قطعة من الشال، وهكذا نحن توأمان الآن») لم يعرف أحد ما الذي يفعله بها، لكن لم يطردها أحد أبداً. لم يكن السبب أن ريتا سحرت الناس، بل كان طردها مستحيلاً. ليس أمام المرء سوى الاستسلام.

نجحت ريتا أيضاً في كسب ود بياتريكس ويتاكر، وكان هذا إنجازاً لافتاً بحق. وبحسب جميع التوقعات المعقولة، كان يجب أن تمقت بياتريكس ريتا، التي جسدت مخاوفها الأعمق عن الفتيات. كانت ريتا كل شيء ربت بياتريكس ألما وبرودنس كي لا تصبحا مثله: كانت مُركَّباً صغير مُبَودراً وأجوف الرأس وتافهاً يحطم شبشب الرقص غالي الثمن في الطين، وسريعة في البكاء والضحك، تشير بفجاجة إلى الأشياء علناً، لم يُشاهد معها كتاب أبداً، ولم تكن تملك من العقل ما يكفي كي تغطي رأسها حين يسقط المطر. كيف يمكن أن تقبل بياتريكس شخصاً كهذا؟

Twitter: @ketab_n

توقعت ألما حدوث مشكلة فحاولتْ أن تخفي ريتا سنو عن بياتريكس في بداية صداقتهما، درءاً لما هو أسوأ إذا ما التقت الاثنتان. لكن لم يكن من السهل إخفاء ريتا، ولم يكن من السهل خداع بياتريكس. استغرق الأمر أقل من أسبوع في الحقيقة كي تسأل بياتريكس ألما أثناء وجبة الفطور الصباحية: «من هي تلك الطفلة التي تحمل مظلة، والتي تدخل ملكيتي في الآونة الأخيرة؟ ولماذا أراها دوماً معك؟».

أُجبرت ألما بتردد على تقديم ريتا لأمها.

«كيف أحوالك يا سيدة ويتاكر؟» بدأت ريتا، بشكل ملائم بما يكفي، متذكرة حتى التحية الرسمية، ولو بشكل مسرحي قليلاً.

أجابت بياتريكس: «كيف أحوالك أيتها الطفلة؟».

لم تكن بياتريكس تنشد إجابة صادقة على هذا السؤال، لكن ريتا تعاملت جدياً معه وفكرت به قليلاً قبل الإجابة: «حسناً، سأخبرك يا سيدة ويتاكر. لستُ جيدة مطلقاً. حدثتْ مصيبة مقيتة في منزلي اليوم».

نظرت ألما بذعر، عاجزة عن التدخل. لم تستطع ألما تخيل إلى أين سيؤدي حديث ريتا. أمضت ريتا يومها كله في وايت إيكر، مبتهجة قدر الإمكان، وهذه المرة الأولى التي سمعت فيها ألما عن الكارثة المقيتة في منزل سنو. صلت كي تتوقف ريتا عن الكلام، لكن الفتاة واصلت حديثها، كما لو أن بياتريكس حثتْها كي تكمل.

«في هذا الصباح يا سيدة ويتاكر عانيت من النوبة العصبية الأصعب. إن أحد خدمنا، خادمتي الإنكليزية الصغيرة، كي أكون دقيقة، كانت تبكي أثناء الفطور، فتبعْتها إلى غرفتها بعد انتهاء الوجبة كي أعرف سبب حزنها. لن تخمني أبداً ما عرفته! لقد توفيت جدتها، منذ ثلاث سنوات!

Twitter: @ketab_n

بعد أن سمعتُ بهذه المأساة، دخلتُ في نوبة بكاء، كما أنا متأكدة من أنك ستتخيلين! بكيت لمدة ساعة عند سرير تلك الفتاة المسكينة. شكراً لله أنها كانت هناك كي تواسيني. ألا يجعلك هذا ترغبين بالبكاء أيضاً يا سيدة ويتاكر؟ التفكير بفقدان جدة منذ ثلاث سنوات؟».

بمجرد ذكر هذه الحادثة، اغرورقت عينا ريتا الواسعتين بالدموع، ثم فاضتا.

«يا لها من كومة سخف»، ردت بياتريكس، مشددة على كل كلمة، بينما جفلت ألما عند كل مقطع صوتي. «هل بوسعك تخيل كم رأيت جدات أشخاص يمتن نظراً لسنّي؟ ماذا لو بكيتُ على كل واحدة منهن؟ إن وفاة جدة لا يشكل مأساة يا طفلة، ووفاة جدة شخص آخر منذ ثلاث سنوات يجب ألا تدفعك إلى البكاء. الجدات يمتن، يا طفلة. إنها الطريقة الملائمة للأشياء. يستطيع المرء القول إن دور الجدة هو أن تموت فيما بعد، بعد أن تزرع، كما يأمل المرء، بعض دروس الحشمة والعقل في جيل أصغر. فضلاً عن ذلك، أظن أنك لم تقدمي سوى راحة قليلة لخادمتك، التي كانت ستُخدم بشكل أفضل لو جسدت لها مثالاً في الرزانة والتحفظ، بدلاً من البكاء على سريرها».

تلقت ريتا النصيحة بوجه سمح، بينما انكمشت ألما من الانزعاج. حسناً، أتت نهاية ريتا سنو، كما اعتقدت ألما. لكن ريتا ضحكت حينئذ بشكل غير متوقع: «يا له من تصحيح رائع يا سيدة ويتاكر! إنك تملكين مقاربة جديدة حيال الأمور! أنت محقة تماماً! لن أفكر مرة أخرى بوفاة جدة كمأساة!».

كان بوسع المرء أن يرى تقريباً الدموع تزحف إلى الأعلى على خدي ريتا، تعكس نفسها ومن ثم تختفي كلياً.

Twitter: @ketab_n

قالت ريتا، طازجة كالفجر: «والآن أود الاستئذان. أنوي القيام بنزهة هذا المساء، يجب أن أذهب إلى المنزل كي أختار أفضل قلنسواتي الخاصة بالنزهة. أنا أحب المشي يا سيدة ويتاكر لكن ليس في القلنسوة غير المناسبة، كما أنا متأكدة من أنك تفهمين». مدت ريتا يدها لبياتريكس، التي لم تستطع رفض مصافحتها. «أي لقاء مفيد كان هذا يا سيدة ويتاكر! لا أعرف كيف أشكرك بما يكفي على حكمتك. أنت الملك سليمان بين النساء، ولا يثير عجبي كثيراً أن ابنتيك تعجبان بك كثيراً. تخيلي لو كنت أماً لي يا سيدة ويتاكر، فقط تخيلي كيف أنني لن أكون غبية! إن أمي، وستكونين متأسفة لسماع ذلك، لم تمتلك أبداً فكرة معقولة في حياتها. والأسوأ من ذلك أنها تكسو وجهها بكثافة بالشمع والمعجون والبودرة بحيث أن لها مظهر دمية الخياط، وليست مثلك. آه، يجب أن أرحل إذاً!».

انطلقت بينما كانت بياتريكس فاغرة الفم.

«إن شكلها سخيف»، تمتمت بياتريكس، حالما غادرت ريتا، وعاد الصمت إلى المنزل.

أجابت ألما متجاسرة على الدفاع عن صديقتها الوحيدة: «إنها سخيفة دون شك، يا أمي. لكنني أعتقد أن لها قلباً محباً للخير».

«قد يكون قلبها طيباً أو لا يا ألما. لا أحد سوى الله يمكن أن يعرف ذلك. لكن وجهها يعبر عن سذاجة دون شك. وتبدو قادرة على أن تشكّله في أي تعبير من أي نوع باستثناء الذكاء».

عادت ريتا إلى وايت إيكر في اليوم التالي تماماً، وحيت بياتريكس ويتاكر بإرادة طيبة متفائلة، كما لو أن النصح السابق لم يحدث أبداً. وقد أحضرت حتى لبياتريكس باقة أزهار صغيرة مقطوفة من حدائق وايت

Twitter: @ketab_n

إيكر، وكان هذا لعباً وقحاً. وعلى نحو إعجازي، قبلت بياتريكس الباقة دون أية كلمة. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً سُمح لريتا سنو بأن تمضي الوقت في العزبة.

وبقدر ما يهم الأمر ألما، إن تجريد بياتريكس ويتاكر من السلاح كان إنجاز ريتا الأكبر. وكان له تقريباً أثر السحر. وكان أكثر لفتاً للنظر أن يحدث هذا بهذه السرعة. فقد نجحت ريتا نوعاً ما، وفي مقابلة واحدة قصيرة وجريئة، في أن تحظى بالنّعم الأمومية الجيدة (أو الجيدة بما يكفي) كمثل امتلاك تذكرة مفتوحة للقيام بالزيارة متى شاءت. كيف فعلت هذا؟ لم تعرف ألما، لكن كان لديها نظريات. هناك شيء واحد وهو أنه من الصعب خنق ريتا. فضلاً عن ذلك، إن بياتريكس تكبر ويدب فيها الضعف، وهي أقل ميلاً في هذه الأيام إلى القتال من أجل اعتراضاتها حتى الموت. ربما لم تكن أم ألما نداً لمثيلات ريتا سنو في العالم بعد الآن. لكن الأهم من ذلك، كان هذا: ربما تكره أم ألما الهراء، وهي امرأة من الصعب جداً إطراؤها، لكن ريتا سنو فعلت جيداً حين دعت بياتريكس ويتاكر «سليمان بين النساء».

ربما لم تكن الفتاة حمقاء كما بدت.

وهكذا بقيت ريتا. وفي الحقيقة، وفيما كان خريف ١٨١٩ ينقضي، كانت ألما تصل عادة إلى مكتبها في الصباحات الباكرة، مستعدة للعمل على مشروع نباتي، فتكتشف أن ريتا هناك، ملتفة على الصوفا القديمة في الزاوية، تنظر إلى صور الموضة في آخر نسخة من «جويز ليديز بوك».

«آه، أهلاً عزيزتي!»، كانت ريتا تقول، ناظرة إلى الأعلى بتألق، كما لو أن بينهما موعداً مرتباً مسبقاً.

Twitter: @ketab_n

ومع مرور الوقت، لم تعد ألما تتفاجأ من هذا، ذلك أن ريتا غير مزعجة. فهي لا تلمس الأدوات العلمية (باستثناء الموشورات، التي لم تستطع مقاومتها)، وحين تقول لها ألما: «بحق السماء يا عزيزتي، يجب أن تصمتي الآن وتتركيني أحسب»، تصمت ريتا وتدع ألما تقوم بالحساب. وصار من الممتع بالنسبة لألما أن تكون لديها رفيقة سخيفة ومحبة. كان هذا مثل امتلاك طائر جميل في قفص في زاوية، يصدر بين فينة وأخرى أصوات هديل بينما تقوم ألما بالعمل.

مرت أوقات كان جورج هوكس يزور فيها مكتب ألما كي يناقشا التصحيحات الأخيرة لبحث علمي أو آخر، وكان دوماً يبدو متفاجئاً حين يعثر على ريتا هناك. لم يعرف جورج أبداً ما الذي يفعله مع ريتا سنو. كان جورج رجلاً ذكياً وجدياً، ومن الأكيد أن سخافة ريتا أثارت أعصابه.

«ما الذي تناقشه ألما والسيد جورج هوكس اليوم؟» سألت ريتا في أحد أيام تشرين الثاني/نوفمبر، بعد أن ملت من مجلات الصور.

أجابت ألما: «نبات الزهقرنية».

«آه إنها فظيعة. هل هي حيوانات يا ألما؟».

أجابت: «كلا، ليست حيوانات، يا عزيزتي. إنها نباتات».

«هل يستطيع المرء أكلها؟».

قالت ألما وهي تضحك: «ليس إلا إذا كان المرء أيّلاً، وأيّلاً جائعاً أيضاً».

قالت ريتا: «كم هو جميل أن يكون المرء أيّلاً، إلا إذا كان المرء أيّلاً تحت المطر، سيكون هذا سيء الحظ وغير مريح. أخبرني عن

Twitter: @ketab_n

نباتات الزهقرنية هذه يا سيد جورج هوكس. لكن أخبرني بطريقة يمكن أن يفهم من خلالها شخص فارغ الرأس مثلي».

لم يكن هذا عادلاً، لأن جورج هوكس يملك طريقة واحدة في الحديث وهي أكاديمية وواسعة الاطلاع، وليست مفصلة مطلقاً للأشخاص الصغار فارغي الرأس.

بدأ بتردد: «حسناً يا آنسة سنو، إنها من بين نباتاتنا الأقل تعقيداً».

«هذا كلام غير لطيف يا سيد!».

«. وهي ذاتية التغذية».

«لا بد أن والديها فخوران بها جداً!».

«حسناً...»، تلعثم جورج، وتوقف عن الكلام.

وهنا تدخلت ألما بدافع من الشفقة على جورج. «إن ذاتية التغذية يا ريتا تعني أنها تستطيع أن تصنع طعامها بنفسها».

قالت ريتا بتنهيدة عميقة: «إذاً لا أستطيع أن أكون نبتة زهقرنية على ما أفترض».

قالت ألما: «من غير المحتمل! لكن يمكن أن تحبي نبات الزهقرنية، إذا عرفتيه بشكل أفضل. إنه يبدو جميلاً تحت المجهر».

لوّحت ريتا يدها برفض: «آه، لم أعرف أبداً أين أنظر، في المجهر!».

ضحكت ألما غير مصدقة: «أين تنظرين؟ تنظرين عبر عدسة المجهر يا ريتا!».

«لكن عدسة المجهر مُقَيِّدة ورؤية الأشياء الصغيرة مخيفة. من

Twitter: @ketab_n

الممكن أن تصيب المرء بدوار البحر. هل يحدث وتشعر بدوار البحر يا سيد جورج هوكس، حين تنظر عبر المجهر؟».

حدق جورج إلى الأرض وقد أزعجه السؤال.

قالت ألما: «اسكتي الآن يا ريتا، أحتاج أنا والسيد هوكس إلى التركيز».

«إذا واصلتِ إسكاتي يا ألما سأذهب وأعثر على برودنس وأضايقها وهي ترسم الأزهار على أكواب الشاي وتحاول إقناعي بأن أكون شخصاً أكثر نبالة».

قالت ألما ببهجة ودية: «اذهبي إذاً!».

قالت ريتا: «أقول لكما بصدق لا أعرف لماذا يجب أن تعملا دوماً كثيراً. لكن إذا كان هذا يبقيكما خارج الأروقة وقصور الجن، أعتقد أنه لا يسبب لكما أذى دائماً..».

«اذهبي!» قالت ألما، دافعة ريتا برفق فانطلقت ريتا بمشيتها غير المتوازنة تاركة ألما تبتسم وجورج هوكس مرتبكاً بشكل كامل.

قال جورج بعد أن اختفت ريتا: «لا أفهم كلمة واحدة من كلماتها».

«أرخِ نفسك، يا سيد هوكس. إنها لا تفهمك أيضاً».

قال جورج: «ولكنني أتساءل لماذا تحوم حولك دائماً؟ هل تحاول أن تحسّن نفسها من خلال رفقتك؟».

احمرَّ وجْهُ ألما من المتعة من هذا الإطراء، سعيدة من أن جورج يعتقد أن رفقتها قوة مُحسِّنة، لكنها قالت فقط: «لا نستطيع أن نكون متأكدين دائماً من دوافع الآنسة سنو يا سيد هوكس. من يعرف؟ ربما تحاول أن تحسّنني»..

* * *

Twitter: @ketab_n

نجحت ريتا سنو بحلول عيد الميلاد في أن تكون صديقة جيدة لألما وبرودنس وصارت تدعو فتاتيْ ويتاكر إلى عزبة عائلتها لتناول الغداء، وهكذا كانت تبعد ألما عن بحثها النباتي، وبرودنس عن كل ما تقوم به.

كان تناول الغداء في منزل ريتا سخيفاً، بشكل يتناسب مع طبيعة ريتا السخيفة. كان هناك خليط من العصائر المثلجة والتفاهات وتبادل الأنخاب تشرف عليه (إذا كان بوسع المرء أن يسمي هذا إشرافاً) خادمة ريتا الإنكليزية الجميلة ولكن غير الكفء. لم تُسمع مرة واحدة أبداً محادثة لها قيمة في هذا المنزل، لكن ريتا دوماً مستعدة لأي شيء أحمق ومسل أو رياضي. حتى أنها نجحت في جعل ألما وبرودنس تلعبان ألعاباً داخلية (ألعاب كلمات) فارغة معها، وهي ألعاب مصممة لأولاد أصغر بكثير كمثل لعبة «مكتب البريد» و«اصطياد ثقب المفتاح»، أو اللعبة الأفضل من غيرها، «الخطيب الأبكم». وكان هذا في غاية السخف لكنه مسلّ بنفس الدرجة. والواقع أن ألما وبرودنس لم تلعبا من قبل أبداً مع بعضهما أو لوحدهما أو مع أطفال آخرين. حتى الآن لم تفهم ألما بشكل خاص لماذا يوجد اللعب.

كان اللعب الأمر الوحيد الذي تقوم به ريتا سنو. وكان وقت لهوها الأفضل هو أن تقرأ بصوت مرتفع تقاريرالحوادث في الصحف المحلية لتسلية ألما وبرودنس. وكان هذا غير قابل للإلغاء ومسلياً. ترتدي ريتا اللفاعات والقبعات وتستخدم اللكنات الأجنبية، وتمثل المشاهد الأكثر رعباً من هذه الحوادث: أطفال يسقطون في المواقد، عمال تجرحهم أغصان أشجار ساقطة، أمهات لأطفال في سن الخامسة يُرْمينَ من العربات في حفر مليئة بالماء (يغرقن رأساً على عقب، الأبواط في الجو، بينما أطفالهن ينظرون ببؤس ويصرخون من الرعب).

Twitter: @ketab_n

«ليس هذا مسلياً!» تقول برودنس محتجة لكن ريتا لا تتوقف إلى أن يلهثْن كلهن من المرح. مرت مناسبات هيمن فيها الضحك على ريتا، في الحقيقة، بحيث لم تستطع التوقف. تفقد السيطرة على معنوياتها، ويمتلكها مرح صاخب فالت من عقاله. أحياناً، وبشكل يثير الذعر، تتدحرج على الأرض. ويبدو في هذه الأوقات كأن ريتا مدفوعة، أو يسكنها وسيط شيطاني خارجي. تضحك إلى أن تبدأ باللهاث في تنهدات هائجة، ويسودّ وجهها بشيء ما يشبه الخوف. وحين تبدأ ألما وبرودنس بالقلق عليها تستعيد ريتا السيطرة على حواسها. تقفز على قدميها، وتمسح جبينها المبلل، وتصيح: «شكراً للسماء أنه لدينا أرض! وإلا أين سنجلس؟».

كانت ريتا سنو أغرب فتاة في فيلادلفيا، لكنها لعبت دوراً خاصاً في حياة ألما وبرودنس على ما يبدو. حين يكنَّ ثلاثتهنَّ معاً، تشعر ألما بأنها فتاة سوية، ولم تشعر بهذه الطريقة أبداً من قبل. وحين تضحك مع صديقتها وأختها تستطيع التظاهر بأنها أية فتاة عادية في فيلادلفيا، وليست ألما ويتاكر التي من وايت إيكر، وأنها ليست فتاة شابة ثرية ومشغولة وطويلة وغير جميلة مليئة بالأبحاث واللغات، ونشرت عدة دزينات من المقالات الأكاديمية. كان كلّ هذا يتلاشى في حضور ريتا، وكان بوسع ألما أن تكون فحسب فتاة، فتاة تقليدية، تأكل الكعك وتُضحكها أغنية سخيفة.

فضلاً عن ذلك، كانت ريتا الشخص الوحيد في العالم الذي سبق وجعل برودنس تضحك، وكانت هذه أعجوبة فائقة للطبيعة. وكان التحول الذي أحدثه الضحك في برودنس فائقاً للعادة: حوّلها من جوهرة جليدية إلى فتاة مدرسة عذبة. وفي أوقات كهذه، شعرت ألما كأن برودنس فتاة فيلادلفية عادية، أيضاً، وتعانق بتلقائية أختها وتُسَرّ برفقتها.

Twitter: @ketab_n

لكن لسوء الحظ، لم توجد هذه الحميمية بين ألما وبرودنس إلا بحضور ريتا. ففي اللحظة التي تغادر فيها ألما وبرودنس عزبة سنو وتسيران عائدتين إلى وايت إيكر معاً، تعود الأختان إلى الصمت مرة أخرى. كانت ألما تأمل على الدوام أن تتعلما الحفاظ على علاقتهما الودية بعد ترك ريتا، لكن هذا كان بلا فائدة. إن أية محاولة للإشارة، أثناء السير الطويل إلى المنزل، إلى إحدى نكات أو دعابات بعد الظهر لن تؤدي إلى أي شيء سوى التخشب والارتباك والإحراج.

أثناء سير كهذا إلى المنزل في شباط/ فبراير ١٨٢٠ قامت ألما بالمجازفة مدعومة ومشجعة من حالات المرح الشديدة أثناء النهار. تجاسرت وذكرت عاطفتها إزاء جورج هوكس مرة أخرى. كشفت ألما بشكل محدد لبرودنس أن جورج هوكس دعاها مرة خبيرة مجهرية متألقة، وأن هذا سرّها بشكل كبير. اعترفت ألما: «أحب أن أتزوج شخصاً مثل جورج هوكس يوماً ما، رجلاً جيداً يشجع جهودي ويعجبني».

لم تقل برودنس أي شيء. بعد صمت طويل، ضغطت ألما: «إنني أفكر بشكل متواصل بالسيد هوكس يا برودنس. حتى أنني أتخيل أحياناً أنني أعانقه».

كان تأكيداً جريئاً، ولكن ألم يكن هذا ما تفعله الأخوات السويات؟ ألم تكن الفتيات العاديات في كل أنحاء فيلادلفيا يتحدثن مع شقيقاتهن عن خاطبين يرغبن بهم؟ ألا يكشفن آمال قلوبهن؟ ألا يرسمن أحلاماً عن أزواجهن المستقبليين؟

لكن محاولة ألما في بناء الحميمية لم تفلح.

كانت برودنس تجيب فقط: «أفهم»، ولا تضيف أي شيء إلى

Twitter: @ketab_n

النقاش، وتواصلان السير بقية الطريق إلى المنزل في وايت إيكر في صمتهما المعتاد. تعود ألما إلى مكتبها كي تنهي العمل الذي قاطعته ريتا في ذلك الصباح، أما برودنس فتذهب إلى مهماتها المجهولة.

لم تحاول ألما مرة ثانية أبداً القيام باعتراف كهذا أمام أختها. إن أية فتحة غامضة تقوم ريتا بفتحها بين ألما وبرودنس، تغلق نفسها بإحكام مرة ثانية، كما دائماً، حالما تكون الشقيقتان لوحدهما مرة أخرى. لم يكن هناك أمل في العلاج. لكن ألما لم تستطع أحياناً أن تقاوم تخيل كيف ستكون الحياة لو أن ريتا شقيقة لهما: الفتاة الأصغر، الفتاة الثالثة، المستهترة والحمقاء، التي تستطيع أن تجرّد الجميع من أسلحتهم، وتدخل الجميع في حالة من الدفء والعاطفة. واعتقدت ألما أنه لو كانت ريتا من آل ويتاكر، بدلاً من آل سنو لربما كان كلّ شيء مختلفاً، وربما لتعلمت ألما وبرودنس، تحت ذلك الترتيب العائلي، أن تكونا صديقتين حميمتين، وصديقتين... أختين!

كانت فكرة ملأت ألما بحزن مريع، لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً حيال الأمر. فالأشياء لا يمكن أن تكون إلا كما هي، كما علمتها أمها مرات كثيرة.

أما بالنسبة للأمور التي لا يمكن أن تتغير فيجب تحملها بأناة.

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

نحن الآن في أواخر تموز/يوليو من عام ١٨٢٠.

دخلت الولايات المتحدة في ركود اقتصادي، في الفترة الأولى من التدهور في تاريخها القصير، ولم يكن هنري ويتاكر يمرّ في عام تجاري مزدهر. لا يعني هذا أنه مر في أوقات عصيبة، كلا، لكن انتابه شعور غير مألوف بالضغط، ذلك أن سوق النباتات الغرائبية في فيلادلفيا قد أُشبع، وضجر الأوربيون من الصادرات النباتية الأميركية. وما هو أسوأ من هذا، بدا كأن جميع البروتستانت في البلدة في تلك الأيام يفتحون مستوصفاتهم الخاصة ويصنعون أقراص الدواء والمراهم. ولم يكن أي منافس قد بزّ بعد شعبية منتجات «جاريك وويتاكر»، لكنهم يمكن أن يفعلوا هذا في الحال.

تاق هنري إلى سماع نصيحة زوجته حيال كل هذه الأمور، لكن بياتريكس لم تكن على ما يرام طيلة العام. كانت تعاني من نوبات الدوار، وبما أن الصيف شديد الحرارة وغير مريح، ساءت حالتها. تراجعت مقدراتها، وكان نَفَسُها قصيراً دوماً. لم تشك أبداً، وحاولت مواصلة أعمالها، لكنها لم تتمتع بصحة جيدة، ورفضت أن تذهب إلى الطبيب. لم تؤمن بالأطباء والصيادلة أو الأدوية، وهذه مفارقة إذا ما افترضنا تجارة العائلة.

Twitter: @ketab_n

ولم تكن صحة هنري جيدة أيضاً. كان في الستين من عمره الآن. وكانت نوبات مرضه الاستوائية القديمة تطول أكثر. وصار من الصعب التخطيط لجلسات العشاء بما أن المرء لا يستطيع التأكد أبداً من أن هنري وبياتريكس في وضع ملائم لاستقبال الضيوف. وقد جعل هذا هنري غاضباً وضجراً، وصعّب غضبه كل شيء في وايت إيكر. صارت انفجارات مزاجه لاذعة على نحو متزايد. أحد ما يجب أن يدفع! *إن ابن الزنا ذاك انتهى! أريد أن أراه مُدَمَّراً!* وكانت الخادمات يلْجأن إلى الزوايا ويختبئْن كلما شاهدنه قادماً.

أتت أنباء سيئة من أوربا، أيضاً. ذلك أن وكيل ومبعوث هنري الدولي ديك يانسي، ابن يوركشاير الطويل الذي أخاف ألما كثيراً في طفولتها، وصل مؤخراً إلى وايت إيكر بمعلومات استخباراتية أكثر إزعاجاً مفادها أن عالمَيْ كيمياء في باريس نجحا في عزل مادة أطلقا عليها اسم «الكينين»، عُثر عليها في لحاء شجرة الكينا. وزعما أن هذا المركّب هو العنصر الغامض في لحاء اليسوعيين الفعّال في علاج الملاريا. وبعد أن توصلا إلى هذه المعرفة، قد يتمكن عالما الكيمياء الفرنسيان في الحال من تصنيع منتج أفضل من اللحاء، منتج مُحَوَّل إلى مسحوق بشكل أخف، أكثر قوة وفعالية. ويمكن أن يقوّضا بسهولة هيمنة هنري على تجارة الحمّى إلى الأبد.

وبخ هنري نفسه (ووبخ ديك يانسي قليلاً، أيضاً) لأنهما لم يتوقعا هذا. «كان يجب أن نكتشف هذا بأنفسنا!» قال هنري، لكن الكيمياء لم تكن من اختصاص هنري. كان تاجر نباتات لا يُنافَس، وتاجراً لا يرحم، ومبتكراً متألقاً. ومهما حاول لا يستطيع مواكبة كل جديد في التقدم العلمي في العالم. كانت المعرفة متقدمة بشكل كبير بالنسبة له. وكان رجل فرنسي آخر قد سجل مؤخراً براءة اختراع آلة حساب رياضية

Twitter: @ketab_n

تُدعى الآلة الحاسبة، يمكن أن تقوم بقسمة طويلة بنفسها. وأعلن عالم فيزياء دانمركي أن هناك علاقة بين الكهرباء والمغناطيسية، ولم يفهم هنري حتى ما الذي يتحدث عنه الرجل.

باختصار، حدث الكثير من الاختراعات الجديدة في تلك الأيام، وولد الكثير من الأفكار الجديدة، وكلها معقدة وبعيدة عن النظر. ولم يعد بوسع المرء أن يكون خبيراً في العموميات، ويجني فوائد جيدة في جميع أنواع التخصصات. كان هذا كافياً لجعل هنري ويتاكر يشعر بالشيخوخة.

لكن الأمور لم تكن كلها سيئة، أيضاً. ذلك أن ديك يانسي أحضر نبأ جيداً بشكل مدهش لهنري أثناء هذه الزيارة: وفاة السير جوزف بانكس.

إن ذلك الشخص الرهيب، الذي كان مرة أكثر الرجال أناقة في أوربا، وحبيب الملوك، ودار حول الكوكب، وضاجع ملكات وثنيات على الشواطئ المفتوحة، وأدخل آلاف الأنواع الجديدة من النباتات إلى إنكلترة، وأرسل هنري الشاب إلى العالم كي يصبح هنري ويتاكر، ذلك الرجل نفسه، قد مات.

كان ميتاً ومتعفناً في سرداب ما في هيستون.

ألما التي كانت تجلس في مكتب والدها وتنسخ الرسائل حين وصل يانسي ونقل الأنباء، شهقت مصدومة وقالت: «ليرحمه الله!».

لكن هنري صحّح: «ليلعنه الله. لقد حاول تدميري، لكنني هزمته».

بدا كأن هنري هزم السير جوزف بانكس دون شك، وعلى الأقل، صار نداً له. ورغم إذلالات بانكس الجارحة له منذ سنوات كثيرة، ازدهر هنري بشكل يفوق الخيال. ولم يكن منتصراً في تجارة لحاء الكينا

فحسب، بل حافظ أيضاً على مصالح تجارية في جميع زوايا العالم. صار اسماً. كان جميع جيرانه تقريباً يدينون له بالنقود. ونشد بركته أعضاء مجلس الشيوخ ومالكو السفن والتجار من كل نوع، وتاقوا إلى رعايته.

في العقود الثلاثة الماضية، أنشأ هنري بيوتاً زجاجية في غرب فيلادلفيا ضاهت كل ما يمكن أن يُرى في كيو. وقد أنبت أنواعاً مختلفة من السحلبية في وايت إيكر، والتي لم ينجح فيها بانكس أبداً على ضفاف نهر التيمز. وحين سمع هنري في البداية أن بانكس امتلك سلحفاة وزنها ٤٠٠ رطل لحديقة الحيوانات في كيو، طلب في الحال اثنتين منها لوايت إيكر، أمّنهما من الغالاباغوس وشحنهما شخصياً ديك يانسي الذي لا يكلّ. ورتّب هنري إحضار زنابق الماء الكبيرة من الأمازون إلى وايت إيكر، وهي زنابق كبير وقوية تستطيع أن تسند طفلاً واقفاً، بينما بانكس، في وقت وفاته، لم ير أبداً زنابق الماء الكبيرة.

فضلاً عن ذلك، نجح هنري في أن يعيش حياته غنياً كما فعل بانكس. وبنى لنفسه عزبة في أميركا أكبر وأفخم من أي شيء سبق وسكنه بانكس في إنكلترة. توهج قصره على الهضبة كمنارة هائلة، ملقياً ضوءه الجميل على مدينة فيلادلفيا كلها.

كان هنري يلبس أيضاً مثل السير جوزف بانكس لعدة سنوات الآن. لم ينس أبداً كم بدت تلك الملابس مذهلة له حين كان فتى، وقد حاكى - في مجرى حياته كرجل غني - خزانة ثياب بانكس وتجاوزها. نتيجة لهذا، وفي ١٨٢٠، كان هنري ما يزال يلبس نمطاً من الثياب التي تجاوزتها الموضة .كثيراً، وفي الوقت الذي كان فيه جميع الرجال في أميركا يلبسون البنطلونات البسيطة، ظل هنري يلبس الجوارب الحريرية

Twitter: @ketab_n

والبنطلونات الخيشية، ولمات الشعر البيضاء المحكمة والضفائر الطويلة وأبازيم الحذاء الفضية اللامعة، ومعاطف ذات أكمام واسعة، وبلوزات بهدابات (كشاكش) عريضة وصداراً مطرزاً في ألوان حية من الأرجواني والزمردي.

مرتدياً هذه الثياب الخاصة بلورد والقديمة بدا هنري طريفاً جداً وهو يتجول في فيلادلفيا في أناقته الجورجية الملونة. أشيع أنه يبدو كمثل معرض تماثيل شمعية من بيلز آركيد، لكنه لم يكترث. هكذا أراد أن يبدو بالضبط، تماماً مثلما خرج السير جوزف بانكس إليه في مكاتب كيو، في ١٧٧٦، حين استدعي هنري اللص (النحيل والجائع والطموح) للمثول أمام بانكس (الأنيق والرشيق والمترف).

لكن بانكس توفي الآن. كان سيداً ميتاً. كان وضيعاً بالتأكيد لكنه ميت. بينما هنري ويتاكر، إمبراطور علم النبات الأميركي وضيع المولد، وجيد الملبس، حي ومزدهر. نعم، تؤلمه ساقه، وزوجته مريضة، والفرنسيان يلحقان به في تجارة الملاريا، والمصارف الأميركية تفشل حوله، ولديه خزانة مليئة بلمات الشعر الكهلة، ولم يرزق أبداً بذكر، لكن، بفضل الله، ألحق هنري ويتاكر الهزيمة بالسير جوزف بانكس في النهاية.

طلب من ألما أن تذهب إلى قبو الخمور كي تحضر له أفضل زجاجة روم موجودة، لأهداف احتفالية.

قال مستدركاً: «اجعليهما اثنتين».

«ربما يجب ألا تفرط في الشراب هذا المساء». حذّرته ألما بحرص. فقد شفي مؤخراً من الحمى، ولم تعجبها النظرة على وجه أبيها. كانت نظرة تشوّه عاطفي مخيفة.

Twitter: @ketab_n

«سنشرب الليلة قدر ما نرغب يا صديقي القديم»، قال هنري لديك يانسي، وكأن ألما لم تتحدث.

«أكثر مما نرغب»، قال يانسي، خاصّاً ألما بنظرة تحذير أخافتها. لم تحب هذا الرجل، رغم أن والدها أعجب به كثيراً. فقد قال لها مرة وبنبرة من الفخر الحقيقي إن ديك يانسي شخص مفيد في حسم المجادلات، بما أنه يحسمها لا بالكلمات بل بالسكاكين. التقى الرجلان على رصيف مرفأ سولاويسي في ١٧٨٨، بعد أن راقب هنري يانسي يضرب ضابطي بحرية بريطانيين ويدفعهما إلى اللباقة دون أن ينبس بكلمة. وظفه هنري على الفور كوكيل وأداة له، وصار الاثنان ينهبان العالم معاً منذ ذلك الوقت.

شعرت ألما بالرعب من ديك يانسي دوماً. شعر الجميع بالرعب منه. دعا هنري ديك «تمساحاً مدرباً»، وقال مرة: «من الصعب القول من أكثر خطراً: التمساح المدرب أو البري؟ بطريقة أو بأخرى، لن أترك يدي تستريح في فمه طويلاً، ليباركه الله».

حتى وهي طفلة، أدركت ألما بالفطرة أن هناك نمطين من الرجال الصامتين في العالم، هناك نمط وديع ومحترم، ونمط آخر هو ديك يانسي. كانت عيناه كعيني سمكة القرش الدوارتين، وحين حدق في ألما قالت تلكما العينان بوضوح: «أحضري الروم».

وهكذا ذهبت ألما إلى القبو وأحضرت الروم مطيعة، أحضرت زجاجتين مليئتين، واحدة لكل رجل. ثم ذهبت إلى منزل العربات الخاص بها كي تنشغل بعملها وتهرب من السّكر القادم. بعد منتصف الليل بوقت طويل نامت على الأريكة، التي لم تكن مريحة، بدلاً من أن تعود إلى المنزل. استيقظت فجراً وسارت عابرة الحديقة الإغريقية،

واستطاعت أن تسمع صوت والدها وديك يانسي اللذين كانا ما يزالان مستيقظين، يغنيان أغاني البحارة بأعلى طبقة صوت. لم يبحر هنري منذ ثلاثة عقود، لكنه ما يزال يعرف تلك الأغاني.

وقفت ألما عند المدخل، اتكأت إلى الباب وأصغت. كان صوت والدها الذي يتردد صداه عبر المنزل في ضوء الصباح الرمادي بائساً وخشناً ومستنفداً. بدا كأنه شبح من محيط بعيد.

* * *

بعد أقل من أسبوعين، في صباح ١٠ آب/أغسطس، ١٨٢٠، سقطت بياتريكس ويتاكر على الدرج الكبير في وايت إيكر.

استيقظت باكراً في ذلك الصباح، بعد أن شعرت بتحسن كاف جعلها تفكّر بالقيام ببعض العمل في الحدائق. ارتدت شبشبها الجلدي القديم الخاص بالعمل الحدائقي، وجمّعت شعرها في قلنسوتها الهولندية الصلبة، وبدأت نزول الدرج للذهاب إلى العمل. لكن درجات السلم كانت قد شُمّعتْ قبل يوم، وكان كعبا شبشب بياتريكس الجلدي أملسين. سقطت نحو الأمام.

كانت ألما في مكتبها في منزل العربات، تعمل بتركيز على تحرير بحث لمجلة «بوتانيكا أميركانا» حول الدهاليز آكلة اللحوم في نباتات الفخ، حين شاهدت هانيكي دي غروت تجري عبر الحديقة الإغريقية نحوها. خطر لألما أولاً كم من المضحك رؤية الخادمة العجوز تجري، تنورتها ترفرف وذراعاها يرتفعان وينخفضان، وجهها أحمر ومجهد. بدت كما لو أن المرء يشاهد برميلاً ضخماً من البيرة، لُفَّ حوله ثوب، يقفز ويتدحرج عبر الفناء. ضحكت بصوت مرتفع تقريباً. في اللحظة

Twitter: @ketab_n

التالية تماماً، صمتت ألما. كانت هانيكي مذعورة على ما يبدو، وهي لم تكن امرأة تخضع عموماً للذعر. لا بد أن شيئاً مقيتاً قد حصل.

فكرت ألما: توفي أبي.

وضعت يدها على قلبها. من فضلك كلا، من فضلك لا، ليس أبي.

كانت هانيكي الآن على بابها، عيناها واسعتان، تلهث من أجل نَفَس. اختنقت الخادمة، ابتلعت ريقها، ثم لفظتها: «لقد ماتت أمك».

* * *

حمل الخدم بياتريكس وأعادوها إلى غرفة نومها ومددوها على الفراش. خافت ألما من الدخول، إذ نادراً ما سُمح لها الدخول إلى غرفة نوم أمها. رأت أن وجه أمها صار رمادياً. هناك كدمة على جبينها، وشفتها مشقوقة ونازفة. الجلد بارد، والخدم يحيطون بالسرير. إحدى الخادمات تمسك مرآة تحت أنف بياتريكس، باحثة عن أي أثر للنفس.

سألت ألما: «أين أبي؟».

قالت خادمة: «ما يزال نائماً».

أمرتها ألما: «لا توقظيه. حلّي رباطاتها يا هانيكي».

كانت بياتريكس تلبس دائماً ثياباً ضيقة في الجزء العلوي من جسمها، ضيقة بشكل محترم وشديد وخانق. أداروا الجسد جانبياً وفكت هانيكي الرباط. لكن بياتريكس لم تتنفس.

التفتت ألما إلى أحد أصغر الخدم، وهو فتى بدا كأنه يستطيع الجري بسرعة.

قالت: «أحضرْ لي السال فولاتيل».

نظر إليها دون أن يفهم.

Twitter: @ketab_n

أدركت ألما أنها استخدمت بسبب سرعتها واهتياجها اللاتينية مع الفتى. صححت نفسها: «أحضرْ كربونات الأمونيوم».

ثانية، النظرة المذهولة. دارت ألما ونظرت إلى الجميع في الغرفة وكلهم أبدوا وجوهاً مرتبكة. لم يعرف أحد عم تتحدث. لم تستخدم الكلمات الصحيحة. بحثت في ذهنها. حاولت ثانية.

قالت: «أحضر لي محلول كربونات الأمونيوم».

لكن، كلا، لم يكن هذا هو المصطلح المألوف، أيضاً، أو لن يكون لأولئك الأشخاص. كانت كربونات الأمونيوم كلمة قديمة، شيئاً لن يعرفه إلا الباحث. أغمضت عينيها وبحثت عن الاسم القابل للفهم. ما الذي يدعوه الناس العاديون؟ دعاه بليني الأكبر هامونياكوس سال. واستخدمه سيميائيو القرن الثالث عشر طول الوقت. لكن الإشارات إلى بليني لن تنفع في هذا الموقف، ولا تقدم سيمياء القرن الثالث عشر خدمة في هذه الغرفة. لعنت ألما ذهنها كصندوق قمامة مليء باللغات الميتة والتفاصيل التي بلا فائدة. كانت تفقد وقتاً ثميناً هنا.

أخيراً، تذكرت. فتحت عينيها وصاحت أمراً عمل بالفعل: «أملاح الاستنشاق!» صاحت. «هيا! اعثر عليها! وأحضرها إليّ!».

أُحضرت الأملاح بسرعة. استغرق الأمر للعثور عليها أقل من الوقت الذي احتاجته ألما كي تعثر على الاسم الملائم. وضعت ألما البلورات الشفافة تحت أنف أمها. بشهقة مبللة مخشخشة أخذت بياتريكس نَفَساً. أطلقتْ حلقة الخادمات والخدم أصوات شهيق مختلفة تعبيراً عن الصدمة. وصاحت امرأة: «الحمد لله!».

وهكذا لم تمت بياتريكس، لكنها بقيت فاقدة للوعي حتى الأسبوع التالي. كانت ألما وبرودنس تتناوبان على العناية بأمهما والجلوس معها،

تراقبانها أثناء النهارات والليالي الطويلة. في الليلة الأولى تقيأت بياتريكس وهي نائمة، ونظّفت ألما الأوساخ، مسحتْ أيضاً البول والبقايا الكريهة.

لم تر ألما أبداً من قبل جسم أمها، لم تر إلا الوجه والعنق واليدين، لكن حين حممت الشكل الذي بلا حراك على السرير رأت أن ثديي أمها يفتقران للشكل الطبيعي وثمة عدد من الكتل القاسية في كل منهما. أورام كبيرة. أحد الأورام متقرّح وينزّ منه سائل أسود. جعل هذا المشهد ألما تشعر وكأنها هي نفسها يمكن أن تسقط. جاءت الكلمة التي تعبّر عنه إلى ذهنها في اليونانية: كاركينوس، السرطان. لا بد أن بياتريكس كانت مريضة لفترة طويلة. لا بد أنها كانت تعيش في عذاب لشهور، هذا إذا لم يكن لسنوات. لم تشك أبداً. كانت تستأذن وتغادر الطاولة في الأيام التي صارت فيها المعاناة لا تُحتمل، واعتبرت المسألة دواراً عادياً.

نادراً ما نامت هانيكي دي غروت كل ذلك الأسبوع، كانت تحضرالكمادات والحساء طول الوقت. لفّت هانيكي كتاناً مبللاً جديداً حول رأس بياتريكس، اعتنت بالثدي المتقرح، أخذت الخبز المدهون بالزبدة للفتاتين، حاولت أن تجعل السوائل تعبر شفتي بياتريكس المشققتين. وشعرت ألما، بشكل مخجل، بإحساس من عدم الراحة إلى جانب أمها، لكن هانيكي أدّتْ بصبر جميع واجبات الرعاية. لقد كبرتا جنباً إلى جنب في حدائق نوتردام النباتية. جاءتا معاً على ظهر السفينة من هولندا. تركت كلتاهما عائلتيهما في الخلف كي تبحرا إلى فيلادلفيا، ولم تريا أبداً بعد ذلك والديهما أو أخوتهما. أحياناً، كانت هانيكي تبكي فوق سيدتها، وتضلي باللغة الهولندية. أما ألما فلم تبك ولم تصلّ. ولم ير أحد أبداً برودنس تفعل ذلك.

Twitter: @ketab_n

كان هنري يقتحم غرفة النوم ويخرج منها في كل الساعات، مُحَطَّماً وقلقاً. لم يكن بوسعه تقديم مساعدة. وكان الأمر أسهل بكثير حين يغادر. يجلس لبضع لحظات فحسب مع زوجته قبل أن يصرخ: «آه! لا أستطيع تحمل هذا!» ويغادر في عاصفة من اللعنات. صار مفتقراً للتنظيم، ولم تمتلك ألما إلا القليل من الوقت له. كانت تراقب أمها وهي تذوي تحت بياضات السرير الفلمنكية الرائعة. لم تعد هذه بياتريكس فان ديفندر ويتاكر التي لا تُهزم. كانت شيئاً أكثر بؤساً وعجزاً، ومتعفنة ومتدهورة. بعد خمسة أيام، أصيبت بياتريكس باحتباس بول كامل. انتفخ بطنها وازداد صلابة وحرارة. لن يكون بوسعها أن تعيش أكثر الآن.

وصل طبيبٌ أرسله الصيدلي جيمس جاريك، لكن ألما صرفته. لن ينفع أمها الآن النزف أو الأكواب. بدلاً من ذلك بعثت ألما رسالة إلى جاريك مقترحة أن يحضّر لها دواء من الأفيون السائل يمكن أن تدخله في فم أمها بقطرات صغيرة كل ساعة.

في الليلة السابعة، كانت ألما نائمة في سريرها حين جاءت برودنس، التي كانت تعتني أيضاً ببياتريكس، وأيقظتها بلمسة على كتفها.

قالت برودنس: «إنها تتحدث».

هزت ألما رأسها، محاولة أن تتبين أين هي. طرفت عينها على شمعة برودنس. من كان يتحدث؟ كانت تحلم بحوافر الأحصنة والحيوانات المجنحة. هزت رأسها ثانية، أجلست نفسها، تذكرت.

سألت ألما: «ما الذي تقوله؟».

قالت برودنس دون عاطفة: «طلبت مني مغادرة الغرفة. سألت عنك».

وضعت ألما شالاً حول كتفيها.

«نامي الآن»، قالت لبرودنس وأخذت الشمعة إلى غرفة أمها.

كانت عينا بياتريكس مفتوحتين. كانت إحدى العينين محمرتين من الدم. ولم تكن تلك العين تتحرك. تحركت الأخرى عبر وجه ألما، تصطاد وتتعقب بعناية.

«أمي»، قالت ألما، ونظرت حولها كي تقدم لبياتريكس شيئاً تشربه. كان هناك كوب شاي بارد على المنضدة التي إلى جانب السرير، من بقايا نوبة برودنس الأخيرة. لم تكن بياتريكس تريد شاياً إنكليزياً كريهاً، ليس حتى على سرير موتها. لكن كان هذا كل ما هو هناك للشرب. رفعت ألما الكوب إلى شفتي أمها المتيبستين. شربت بياتريكس ثم عبست.

اعتذرت ألما: «سأحضر لك قهوة».

هزت بياتريكس رأسها بشكل ضئيل جداً.

سألتها ألما: «ماذا تريدين؟».

لم ترد.

«هل تريدين هانيكي؟».

لم يبد كأن بياتريكس سمعت، وهكذا كررت ألما السؤال، هذه المرة بالهولندية.

«هل تريدين هانيكي؟».

أغمضت بياتريكس عينيها.

Twitter: @ketab_n

«هل تريدين هنري؟».

لم ترد.

أمسكت ألما يد أمها، التي كانت باردة وصغيرة. لم يمسكا أيدي بعضهما من قبل أبداً. انتظرت. لم تفتح بياتريكس عينيها. كانت ألما على وشك الإغفاء حين تحدثت أمها، بالإنكليزية.

«ألما».

«نعم يا أمي».

«لا تغادري أبداً».

«لن أغادر».

لكن بياتريكس هزت رأسها. لم يكن هذا ما تعنيه، أغمضت عينيها مرة أخرى. انتظرت ألما ثانية، وقد غمرها الإعياء في هذه الغرفة المظلمة الناضجة للموت. مرت وهلة طويلة قبل أن تجمع بياتريكس القوة الكافية.

قالت: «لا تتركي والدك أبداً».

ما الذي تستطيع ألما قوله؟ ما الذي يعد به المرء امرأة على سرير موتها، خاصة إذا كانت أمه؟ يعدها بأي شيء.

قالت ألما: «لن أتركه أبداً».

بحثت بياتريكس في وجه ألما ثانية بعينها الجيدة الوحيدة، كما لو أنها تزن إخلاص هذا القَسَم. وبدت على ما يبدو راضية، فأغمضت عينيها مرة أخرى.

أعطت ألما أمها قطرة أفيون أخرى. كان تنفس بياتريكس ضعيفاً الآن وجلدها بارداً. كانت ألما متأكدة من أن بياتريكس نطقت كلماتها

الأخيرة، لكن بعد ساعتين تقريباً، حين نامت ألما على الكرسي، سمعت سعلة كالغرغرة، واستيقظت مجفلة. اعتقدت أن بياتريكس تختنق، لكنها كانت تحاول أن تتحدث مرة ثانية. مرة أخرى، بللت ألما شفتي بياتريكس بالشاي المكروه.

قالت بياتريكس: «إن رأسي يدور».

قالت ألما: «سأحضر لك هانيكي».

ابتسمت بياتريكس بشكل مدهش، وقالت: «كلا، ما من مشكلة».

إنه ظريف.

ثم أغمضت بياتريكس ويتاكر عينيها، وكما لو أن الأمر بقرار منها، ماتت.

* * *

في صباح اليوم التالي عملت ألما وبرودنس وهانيكي معاً كي يغسلن جثة بياتريكس ويُلْبسنها، ويلففْنها بالكفن ويُحضّرْنها للدفن. كان عملاً صامتاً وحزيناً.

لم يضعن الجثة في الصالة كي يُنظر إليها كما تقتضي العادة. لن تتمنى بياتريكس أن يُنظر إليها، ولم يرد هنري أن يشاهد جثة زوجته. لم يستطع تحملها، كما قال. فضلاً عن ذلك، في طقس حار كهذا الدفن هو العمل الأكثر حكمة. فقد كانت جثة بياتريكس تتحلل حتى قبل موتها، وكانوا جميعاً يَخْشون الآن تعفناً أكبر. طلبت هانيكي من أحد نجاري وايت إيكر أن يصنع تابوتاً بسيطاً بسرعة. وضعت النساء الثلاث أكياس الخزامى في كل الأغطية المتموجة لطرد الرائحة، وحالما صُنع التابوت، حُملت جثة بياتريكس في عربة ونُقلت إلى الكنيسة كي تُخْزن في القبو البارد إلى وقت الجنازة. لفت ألما وبرودنس وهانيكي عصابات

Twitter: @ketab_n

قماش سوداء في أعلى أذرعهن. سيلبسن هذه العصابات في الأشهر الستة التالية. إن شد العصابة على ذراعها جعل ألما تشعر بأنها مثل شجرة محزّمة.

في بعد ظهر الجنازة، سرْن خلف العربة، يتبعن التابوت إلى المقبرة اللوثرية السويدية. كان الدفن سريعاً وبسيطاً وفعالاً ومحترماً. حضرت أقل من دزينة من الأشخاص. كان الصيدلي جيمس جاريك موجوداً. سعل بحدة شديدة أثناء طقس الدفن. عرفت ألما أن رئتيه مدمرتان، من سنوات العمل على مسحوق الجلاب الذي جعله غنياً. كان ديك يانسي موجوداً أيضاً، رأسه الأصلع يلمع في الشمس كسلاح. كان هناك أيضاً جورج هوكس وتمنت ألما لو أنها طوت نفسها بين ذراعيه. ومما سبب دهشة ألما كان مدرسها السابق الشمعي هناك أيضاً. لم تستطع تخيل كيف أن السيد ديكسون سمع بموت بياتريكس، ولم تدرك أنه سبق أن كان مولعاً بربة عمله القديمة، لكنها تأثرت من حضوره، وقالت له هذا. جاءت ريتا سنو أيضاً. وقفت ريتا بين ألما وبرودنس، ممسكة بيد كل منهما، وبقيت صامتة على غير العادة. وفي الحقيقة كانت ريتا هادئة كما لو أنها من عائلة ويتاكر في ذلك اليوم، مما سُجِّل لها.

لم يبك أحد، ولم تكن بياتريكس تريد أية دموع. فمن ميلادها إلى موتها علّمت بياتريكس دوماً أن المرء يجب أن ينضح بالمصداقية والصبر والتحفظ. من المؤسف الآن، بعد حياة الاحترام التي عاشتها هذه المرأة، أن تصبح الأمور مسرفة العاطفة في اللحظة الأخيرة. ولن يحدث بعد الجنازة أي اجتماع في وايت إيكر لشرب الليموناضة وتبادل الذكريات والراحة. لن ترغب بياتريكس بأي من هذا. كانت ألما تعرف أن أمها أُعجبت على الدوام بوصية ليناليوس، مؤسس علم التصنيف

Twitter: @ketab_n

النباتي الحديث، لأسرته بخصوص ترتيبات جنازته: «لا تستضيفوا أحداً، ولا تتلقوا أي تعاز».

أُنزل التابوت في القبر المحفور. تحدث الكاهن اللوثري. مرّ طقس القربان والصلاة وعقيدة الرسل بسرعة. لم تكن هناك مرثاة، لأن هذه لم تكن الطريقة اللوثرية، لكن كانت هناك موعظة رتيبة وكئيبة. حاولت ألما أن تصغي لكن الكاهن دندن إلى أن شعرت بالتخدير، ولم تصل إلى أذنيها إلا قطع من الموعظة. سمعت أن الخطيئة ملازمة للإنسان. إن النعمة هي لغز يورثه الله. النعمة لا يمكن أن تُكتسب أو تُبدد أو تُضاف أو تنفد. النعمة نادرة. لا أحد يعرف من يملكها. نحن مُعَمَّدون حتى الموت. نُسَبِّح باسمك.

أحرقت شمس الصيف الحارة المنخفضة نحو الغروب وجه ألما. حدق الجميع بنصف إغماضة غير شاعرين بالراحة. كان هنري ويتاكر مخدراً ومشوّشاً. كان طلبه الوحيد هو هذا: حالما يتم إدخال التابوت في الحفرة يجب أن يُغطى بالقش، أراد أن يتأكد أنه حين يضرب تراب المجارف الأولى تابوت زوجته، سيتم إخراس الصوت الكريه.

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

صارتْ ألما ويتاكر، التي بلغت العشرين من عمرها الآن سيدة وايت إيكر.

لعبت دور أمها القديم كما لو أنها تدربت طول حياتها من أجله، وقد فعلت هذا بمعنى ما.

في اليوم الذي أعقب جنازة بياتريكس دخلت ألما إلى مكتب والدها وبدأت تفحص الأعمال الورقية والرسائل المتراكمة، وقررت أن تتولى على الفور جميع المهمات التي كانت تنفذها بياتريكس. ومما سبب لألما قلقاً متنامياً هي أنها أدركت أن كمية كبيرة من العمل المهم في وايت إيكر ـ المحاسبة والفواتير والمراسلات ـ تُركت دون متابعة في الأشهر القليلة الماضية، وحتى في العام الماضي، بعد أن تدهورت صحة بياتريكس. لعنت ألما نفسها لأنها لم تلاحظ هذا باكراً. وكان مكتب هنري دوماً طاولة من الأوراق المهمة المختلطة مع كومة من الأوراق التي لا فائدة منها، لكن ألما لم تستوعب كم الفوضى خطيرة إلى أن استقصت المكتب بشكل أكثر عمقاً.

عثرت على حزم من الأوراق المهمة المكومة على مكتب هنري في الأشهر القليلة الماضية والمكومة على الأرض في ما يشبه طبقة جغرافية. وعلى نحو مرعب، كان هناك المزيد من صناديق الأوراق غير المفروزة

Twitter: @ketab_n

الموضوعة جانباً. وعثرت ألما أثناء عمليات بحثها الأولى على فواتير لم تُدفع منذ أيار/مايو الماضي، وجداول رواتب لم تُصفّ أبداً، ورسائل ـ راسب سميك من الرسائل ـ من بنائين ينتظرون الأوامر، وشركاء أعمال بأسئلة ملحة، ومن جامعين وراء البحار، ومن المحامين، ومن مكتب تسجيل الاختراعات، ومن حدائق نباتية في أنحاء العالم، ومن مديري متاحف متنوعين ومختلفين. لو علمت ألما من قبل أن كثيراً من المراسلات قد أُهمل لعالجت الأمر منذ شهور. أما الآن فإنها تقريباً على مستوى الأزمة. وفي هذه اللحظة تماماً رستْ سفينة مليئة بنباتات ويتاكر في ميناء فيلادلفيا، كانت رسومها عالية، وغير قادرة على تفريغ حمولتها لأن القبطان لم يحصل على أجره.

ما كان أسوأ من هذا هو التفاصيل القليلة السخيفة والأمور المبددة للوقت وأكوام الثرثرة المطلقة التي ترافق الأعمال الملحة. كان هناك رسالة غير قابلة للقراءة تقريباً من امرأة في غرب فيلادلفيا تقول إن ولدها ابتلع دبوساً وهي خائفة من أن يموت، هل يمكن أن يخبرها أحد في وايت إيكر ما الذي يمكن فعله؟ وزعمت أرملة عالم طبيعة عمل لدى هنري منذ خمس عشرة سنة في أنتيغوا أنها محتاجة وطلبت معاشاً تقاعدياً. وكانت هناك رسالة قديمة من كبير منسقي الحدائق في وايت إيكر عن حدائقي يجب أن يُفصل على الفور لأنه استقبل عدة نساء شابات في غرفته بعد العمل وأقام حفلة قدم فيها البطيخ والروم.

هل كانت أمها تتابع هذا النوع من الأمور دائماً، بالإضافة إلى كل شيء آخر؟ دبابيس مُبْتَلَعة؟ أرامل بائسات؟ البطيخ والروم؟

لم يكن أمام ألما خيار سوى أن تنظّف هذه الطاولة القذرة ورقة ورقة. داهنت والدها كي يجلس إلى جانبها ويساعدها في فهم ما يمكن

Twitter: @ketab_n

أن تعنيه أشياء متنوعة، وإن كانت هذه أو تلك الدعوى القضائية يجب أن تُؤخذ على محمل الجد، أو لماذا سعر نبات الفشاغ ارتفع بشكل كبير منذ العام الماضي. لم يستطع أي منهما أن يترجم بشكل كامل نظام بياتريكس الحسابي الثلاثي المشفر، والإيطالي الغامض، لكن ألما كانت الرياضية الأفضل، وهكذا فقد فكت دفاتر الحسابات قدر الإمكان، فيما في الوقت نفسه أنشأت طريقة أبسط للاستخدام المستقبلي. وفوضت ألما برودنس كي تكتب صفحة بعد أخرى من المراسلات اللبقة، فيما كان هنري يملي، بكثير من الشكوى الصاخبة، جوهر المعلومات الأكثر أهمية.

هل ندبت ألما أمها؟ كان من الصعب معرفة ذلك. فهي لم تملك الوقت من أجل هذا. كانت مدفونة في أرض مستنقعية من العمل والإحباط، ولم يكن هذا الإحساس قابلاً للتمييز بشكل كامل عن الحزن نفسه. كانت منهكة. مرت أوقات كانت تتوقف فيها عن العمل وتسأل أمها سؤالاً، ناظرة إلى الأعلى إلى الكرسي التي كانت بياتريكس تجلس عليه دائماً، وتجفل حين لا ترى شيئاً هناك. بدا الأمر كمثل النظر إلى بقعة على جدار حيث كانت هناك ساعة معلقة لسنوات، ورؤية مكان فارغ فحسب. لم تستطع أن تدرب نفسها على الامتناع عن النظر، كان الفراغ يفاجئها في كل مرة.

لكن ألما كانت غاضبة من أمها أيضاً. وهي تقلب وثائق مشوشة تحتاج إلى شهور من العمل، تساءلت، لماذا بياتريكس، التي كانت تعرف أنها مريضة هكذا، لم تعيّن أحداً كي يساعدها منذ عام. لماذا وضعت الوثائق في صناديق وخزنتها في الحجرات، بدلاً من نشدان المساعدة؟ لماذا لم تعلم بياتريكس أي شخص آخر أبداً نظامها المعقد في المحاسبة، أو لماذا لم تخبر أحداً أين يعثر على التوثيق الميداني من العام الماضي؟

Twitter: @ketab_n

تذكرت أن أمها قد حذرتها منذ سنوات: «لا تتركي أبداً أعمالك حين تكون الشمس مرتفعة، يا ألما، من أجل أمل العثور على مزيد من الساعات كي تعملي غداً، لأنك لن تحصلي أبداً على أي عمل إضافي غداً أكثر مما حصلت اليوم، وحالما تتأخرين في مسؤولياتك لن تلحقي أبداً».

لماذا سمحت بياتريكس للأمور بالتأخر هكذا؟

ربما لم تصدق أنها ستموت.

ربما كان ذهنها ثملاً من الألم بحيث فقدت مسار العالم.

أو ربما ـ فكرت ألما على نحو سوداوي ـ أرادت بياتريكس أن تعذب الأحياء بكل هذا العمل وقتاً طويلاً بعد موتها.

أما بالنسبة لهانيكي دي غروت فقد فهمت ألما بسرعة أن المرأة قديسة. لم تدرك ألما أبداً من قبل حجم العمل الذي قامت به هانيكي في أنحاء العزبة. وظفت هانيكي ودربت وصانت ووبخت طاقماً مؤلفاً من دزينات الأشخاص. أشرفت على أقبية الطعام وجنت خضار العزبة كما لو أنها تقود هجوم فرسان عبر الحقول والحدائق. قادت قواتها كي تصقل الآنية وتحرك صلصة اللحم، وتنفض السجاد، وتدهن الجدران، وتعلّب لحم الخنزير، وترصف المدخل وتذوّب شحم الخنازير، وتعدّ الفطائر. بمزاجها الهادئ وسيطرتها القوية على النظام، عالجت هانيكي الكثير من حالات الغيرة والكسل والغباء لدى كثير من الناس، وكانت بوضوح السبب الوحيد في استمرار العزبة بعد أن مرضت بياتريكس.

في صباح أحد الأيام، بعد وقت قصير من وفاة أمها، شاهدت ألما هانيكي توبخ ثلاث خادمات من حجرة غسل الأطباق، أوقفتهن إزاء الحائط كما لو أنها تريد إطلاق النار عليهن.

صاحت هانيكي: «إن عاملاً واحداً جيداً أفضل من ثلاثتكن. وتأكدن من أنني حين أعثر على عامل جيد سأصرفكنّ! في غضون ذلك، عدن إلى العمل، وتوقّفن عن إلحاق العار بأنفسكنّ بإهمال كهذا».

قالت ألما لهانيكي، حالما ذهبت الفتيات: «لا أستطيع أن أشكرك بما يكفي على خدمتك. آمل أن يأتي يوم أتمكن فيه من أن أساعدك أكثر في إدارة المنزل، لكنني الآن بحاجة إليك للقيام بكل شيء، فيما أحاول أن أفهم أعمال أبي».

«لقد قمتُ بكل الأعمال على الدوام»، أجابت هانيكي، دون شكوى.

«بالفعل، فعلت هذا يا هانيكي. يبدو أنك تقومين بعمل عشرة رجال».

«قامت أمك بعمل عشرين رجلاً يا ألما، وكان عليها أن تعتني بوالدك أيضاً».

وفيما كانت هانيكي تستدير للمغادرة، مدت ألما يدها إلى ذراع مدبرة المنزل.

سألت منهكةً ومتجهمة: «ما الذي يفعله المرء يا هانيكي لطفل ابتلع دبوساً؟».

دون تردد ودون سؤال لماذا طُرح هذا السؤال بشكل مفاجئ، أجابت هانيكي: «يوصف بياض البيض النيء للطفل والصبر للأم، أكدي للأم أن الدبوس سينزلق على الأرجح من ثقب حفرة الصرف الصحي الخاصة بالطفل في غضون بضعة أيام، دون تأثيرات جانبية سيئة. إذا كان طفلاً أكبر في السن، تستطيعين جعله يقفز عن حبل لتشجيع العملية».

Twitter: @ketab_n

سألت ألما: «هل يحدث ويموت الطفل من هذا؟».

هزت هانيكي كتفيها: «أحياناً. لكن إذا وصفت هذه الخطوات وتحدثت بنبرة واثقة، لن تشعر الأم باليأس».

«شكراً لك»، قالت ألما.

* * *

جاءت ريتا سنو إلى وايت إيكر عدة مرات في الأسابيع الأولى بعد وفاة بياتريكس، لكن ألما وبرودنس المشغولتين بمتابعة أعمال الأسرة لم تمتلكا وقتاً لها.

«أستطيع أن أساعدكما»، قالت، لكن الجميع يعرف أنها لا تستطيع.

«إذاً سأنتظرك كل يوم في مكتبك في منزل العربات»، وعدت ريتا ألما أخيراً، حين أُبعدت عدة مرات على التوالي. «حين تنتهين من أعمالك، ستأتين لزيارتي. سأتحدث معك وأنت تدرسين أموراً من المستحيل أن أفهمها. سأروي لك قصصاً فائقة للعادة، ستضحكين وتتعجبين. ذلك أنه لدي أنباء من الأنواع الأكثر صدماً!».

لم تستطع ألما تخيل أنها ستمتلك الوقت ثانية كي تضحك أو تتعجّب من ريتا، أو كي تواصل مشاريعها الخاصة. فبعد وفاة أمها نسيت لبعض الوقت أن لديها عملاً تقوم به. كانت مجرد سائق ريشةِ الآن وناسخة وعبدة لمكتب والدها ومديرة منزل كبير على نحو مروّع، تخوض عبر دغل من المهمات المهملة. لم تغادر مكتب والدها لمدة شهرين. ورفضت أن تترك والدها يغادر أيضاً، حين كانت قادرة على ذلك.

توسلت ألما إلى هنري: «أحتاج إلى مساعدتك في كل هذه الأمور، أو لن نلحق ثانية أبداً».

Twitter: @ketab_n

ثم، في وقت متأخر من بعد ظهر أحد أيام تشرين الأول/ أكتوبر، وسط الفرز والحسابات والحلول، وقف هنري وغادر مكتبه تاركاً ألما وبرودنس، وهما تحملان الأوراق بيديهما.

سألت ألما: «إلى أين أنت ذاهب؟».

قال بصوت وحشي مخيف: «كي أسكر، إنني أمقت هذا العمل كثيراً».

احتجت: «أبي».

أمرها: «قومي بالعمل بنفسك».

وهكذا فعلت.

صقلت ألما ذلك المكتب وأوصلته إلى حالة من الكمال في الترتيب بمساعدة برودنس، وهانيكي، ولكن في معظم الأحيان بنفسها. رتبت كل شؤون والدها ـ حالة مشكلة عويصة في كل مرة ـ إلى أن عولجت جميع المراسيم والإنذارات القضائية والوصايا والأوامر، ورُدَّ على جميع الرسائل، ودُفعتْ جميع الفواتير، وطُمْئِن جميع المستثمرين، وتم التملق إلى جميع البائعين، وحُلَّتْ جميع الخلافات.

حلَّ منتصف كانون الثاني/ يناير قبل أن تنهي العمل، وحين أنهته، فهمت آليات عمل شركة ويتاكر من القمة إلى القاعدة. كانت في حداد لخمسة أشهر. فاتها فصل الخريف بشكل كامل، دون أن تراه يأتي أو يذهب. نهضت عن طاولة والدها وحلّت الشريطة القماشية السوداء عن ذراعها، ووضعتها في علبة القمامة كي تُحرق مع البقية. كان هذا كافياً.

سارت ألما إلى حجرة التجليد مقابل المكتبة، أقفلت الباب ومتّعت نفسها بسرعة. لم تقم بالأمر طيلة شهور وجعلتها العودة المرحَّب بها إلى هذه العملية المُحرِّرة ترغب بالبكاء. لم تبكِ منذ شهور، أيضاً. كلا،

Twitter: @ketab_n

هذا غير صحيح: لم تبك طيلة سنوات. أدركت أيضاً أن عيد ميلادها الواحد والعشرين جاء وذهب الأسبوع الماضي دون ملاحظة حتى من برودنس، التي يُعتمد عليها غالباً من أجل هدية صغيرة مروّى فيها.

حسناً، ما الذي تتوقعه؟ كانت أكبر سناً الآن: كانت سيدة أكبر عزبة في فيلادلفيا، وكبيرة الموظفين في إحدى أكبر شركات استيراد النباتات في العالم. لقد ولّى زمن الأمور الصبيانية.

بعد أن غادرت ألما حجرة التجليد، خلعت ثيابها واستحمّت، رغم أن اليوم لم يكن السبت، وذهبت إلى النوم في الخامسة بعد الظهر. نامت ثلاث عشرة ساعة. حين استيقظت، كان المنزل صامتاً. للمرة الأولى طيلة شهور، لم يكن المنزل يحتاج شيئاً منها. بدا الصمت كالموسيقا. لبست ثيابها ببطء واستمتعت بشايها وتوستها. ثم عبرت حديقة أمها الإغريقية القديمة، التي يغطيها الثلج إلى أن وصلت إلى منزل العربات. حان الوقت الآن بالنسبة لها كي تعود، ولو لبضع ساعات، إلى عملها، والذي تركته في منتصف الجملة في اليوم الذي وقعت فيه أمها عن الدرج.

دُهشت ألما حين شاهدت خيطاً لولبياً نحيلاً من الدخان يخرج من مدخنة منزل العربات حين اقتربت. حين وصلت إلى مكتبها، كانت هناك ريتا سنو، كما وعدتْ، ملتفة على الصوفا تحت غطاء صوفي سميك، نائمة وتنتظرها.

***

لمست ألما ذراع صديقتها: «ما الذين تفعلينه هنا يا ريتا؟».

انفتحت عينا ريتا الكبيرتان. كان من الواضح، في اللحظة الأولى التي استيقظت فيها، أن الفتاة لم تعرف أين هي، ولم تبد كأنها تعرف

Twitter: @ketab_n

ألما. تبدّى شيء مريع على وجه ريتا في تلك اللحظة. بدت في حالة وحشية، وحتى خطيرة، شاهدت ألما نفسها تتراجع إلى الخلف بسرعة من الخوف، كما لو أنها تتراجع عن كلب محشور في زاوية. ثم ابتسمت ريتا وزال التأثير. صارت عذبة جداً مرة ثانية، كأنها عادت إلى طبيعتها.

قالت ريتا بصوت نائم، ممسكة بيد ألما: «صديقتي القديمة».

«من يحبك أكثر؟ من يحبك بشكل أفضل؟ من يفكر بك حين يستريح الآخرون؟».

نظرت ألما في الغرفة وشاهدت مجموعة من علب البسكويت الفارغة وبركة من الثياب مكومة بشكل فوضوي على الأرض. «لماذا تنامين في مكتبي يا ريتا؟».

«لأن الأمور صارت بليدة بشكل لا يُحتمل في منزلي. إن الأمور بليدة هنا أيضاً، بالطبع، لكن على الأقل ثمة فرصة هنا أحياناً لرؤية وجه متألق، إذا كان المرء صبوراً. هل تعرفين أن هناك فئراناً في مجموعتك النباتية؟ لماذا لا تحتفظين بقطة صغيرة في هذه الغرفة للتعامل معها؟ هل سبق وشاهدتِ ساحرة؟ أعتقد أنه كانت هناك ساحرة في منزل العربات الأسبوع الماضي. استطعت سماعَها تضحك. هل تعتقدين أننا يجب أن نخبر والدك؟ لا أعتقد أنه من الآمن إبقاء ساحرة في المنزل. أو ربما سيَظن أنني مجنونة. رغم أنه يفكر أنني هكذا، بأية حال. هل لديك المزيد من الشاي؟ أليست هذه الصباحات الباردة قاسية بشكل لا يوصف؟ ألا تتوقين جداً إلى الصيف؟ أين العصابة السوداء التي كانت على ذراعك؟».

جلست ألما وضغطت يد صديقتها إلى شفتيها. من الجيد سماع

Twitter: @ketab_n

الهراء ثانية، بعد كل جدية الشهر الماضي. «لا أعرف على أي من أسئلتك أجيب يا ريتا».

اقترحت ريتا: «ابدأي من المنتصف ثم اعملي في الاتجاهين».

سألت ألما: كيف تبدو الساحرة؟

«ها! الآن أنت الشخص الذي يسأل أسئلة كثيرة!»، قفزت ريتا عن الأريكة وهزت نفسها. «هل سنعمل اليوم؟».

ابتسمت ألما: «نعم، أعتقد أننا سنعمل اليوم، أخيراً».

«وما الذي سندرسه يا ألما الأعز لدي».

«سندرس اليوتريكولاريا كلاندستينا يا عزيزتي ريتا».

«نبتة؟».

«نعم».

«آه، يبدو هذا جميلاً!».

قالت ألما: «تأكدي أنه ليس كذلك، لكنه مهم، وما الذي تدرسه ريتا اليوم؟» التقطت ألما مجلة السيدات التي كانت على الأرض قرب الصوفا وقلبت عبر صفحاتها غير القابلة للفهم.

«أنا أدرس أنواع الفساتين التي يجب أن تُزَفّ بها فتاة تتبع الموضة»، أجابت ريتا بخفة.

«وهل تختارين هذه الفساتين؟» أجابت ألما، بخفة مشابهة.

«بالتأكيد»!

«وما الذي ستفعلينه بفستان كهذا، يا عصفوري الصغير؟».

«آه، لدي خطة كي أرتديه يوم زفافي؟».

Twitter: @ketab_n

«خطة رائعة!»، قالت ألما، والتفتت نحو مقعد مخبرها لترى إن كان بوسعها البدء بجمع ملاحظاتها من قبل خمسة أشهر.

تابعت ريتا: «ولكن الكُمّين قصيران تماماً في جميع هذه الرسوم، كما ترين، وأخاف من أن أبرد. اقترحت خادمتي الصغيرة أنني يمكن أن أرتدي شالاً، لكن عندها لن يستمتع أحد بالعقد الذي قالت أمي إنني أستطيع ارتداءه. كذلك أرغب بباقة الورد، رغم أنه ليس فصلها وقال البعض إنه ليس أنيقاً حَمْل باقة ورد، بأية حال؟».

استدارت ألما كي تواجه صديقتها مرة أخرى وقالت هذه المرة بنبرة أكثر جدية: «أنت لن تتزوجي بشكل حقيقي، أليس كذلك؟».

ضحكت ريتا: «آمل ذلك! قيل لي إن الطريقة الوحيدة التي يجب أن يتزوج بها المرء هي بشكل حقيقي!».

«وممن تنوين الزواج يا ريتا؟».

قالت ريتا: «من السيد جورج هوكس. ذلك الرجل المضحك والجدي. ما يجعلني سعيدة يا ألما هو أن زوجي المفترض هو شخص تحبينه كثيراً، مما يعني أننا يمكن أن نكون جميعاً أصدقاء. إنه معجب بك كثيراً، وأنت كذلك، مما يعني أنه شخص جيد. إن ميلك العاطفي لجورج يجعلني في الحقيقة أثق به. طلب يدي بعد وقت قصير من وفاة والدتك، لكنني لم أرغب بالحديث عن ذلك بسرعة، بما أنك كنت تعانين كثيراً يا عزيزتي المسكينة. ولم أكن أعرف أنه يحبني، لكن أمي تقول لي إن الجميع مولعون بي، لتُبارَك قلوبهم، لأنهم لا يستطيعون المقاومة».

جلست ألما على الأرض. لم يكن أمامها أي خيار آخر.

ركضت ريتا إلى صديقتها، وجلست إلى جانبها. «انظري إليك! لقد

غمرك الفرح من أجلي. أنت تحرصين علي كثيراً!» وضعت ريتا ذراعها حول خصر ألما، تماماً كما فعلت في اليوم الذي التقيتا فيه، وعانقتها بإحكام. «يجب أن أعترف أنني ما أزال مذهولة قليلاً أنا نفسي. ما الذي يريده رجل ذكي كهذا من فتاة كقطعة نسالة وسخيفة مثلي؟ كان أبي في غاية الدهشة»! قال: اعتقدت دوماً يا لوريتا ماري سنو أنك من نوع الفتيات اللواتي سيتزوجن شخصاً غبياً أنيقاً يرتدي بوطاً طويلاً ويصطاد الثعالب من أجل المتعة! لكن انظري إلي، بدلاً من ذلك سأتزوج من باحث. تخيلي إذا جعلني هذا في النهاية ذكية، يا ألما، أن أتزوج من رجل بذهن استثنائي. لكن يجب أن أقول إن جورج ليس صبوراً مثلك تقريباً، حيال الإجابة على أسئلتي. يقول إن موضوع النشر عن النباتات معقد جداً بحيث لا يمكن شرحه، وصحيح أنني ما أزال لا أعرف الفرق بين الطباعة الحجرية والنقش.

«هل هذا ما يُدعى: طباعة حجرية؟ وهكذا فإنه من الممكن أن أظل غبية كما دوماً! مع ذلك، سنعيش في الجهة الأخرى من النهر، وسيكون هذا مسلياً جداً! وعد أبي أن يبني لنا منزلاً جميلاً ساحراً، إلى جانب حانوت طباعة جيمس تماماً. يجب أن تأتي لزيارتي كل يوم! وسنذهب ثلاثتنا لمشاهدة مسرحيات في أولد دروري معاً!».

لم تملك ألما، التي كانت ما تزال جالسة على الكرسي، قدرة على الكلام. كانت ممتنة فحسب أن رأس ريتا مسند إلى صدرها وهي تتحدث بحيث لم تر الفتاة وجهها.

سيتزوج جورج هوكس من ريتا سنو؟

لكن من المفترض أن يكون هوكس زوج ألما. رأت ذلك في ذهنها بقوة لمدة خمس سنوات، استحضرت أخيلة حوله ـ جسده! ـ حين

Twitter: @ketab_n

كانت في حجرة التجليد. كوّنتْ أيضاً أفكاراً أكثر طهارة عنه. تخيلت أنهما يعملان معاً، في دراسة وثيقة. وتخيلت نفسها دوماً تغادر وايت إيكر، حين يحين وقت الزواج من جورج. سيعيشان معاً في غرفة صغيرة فوق حانوت طباعته، بروائحها الدافئة من الحبر والورق. تصورت أنهما سيسافران إلى بوسطن معاً، وربما إلى أبعد، إلى جبال الألب، ويتسلقان الصخور كي يبحثا عن زهرة الفصح والياسمين الصخري. سيقول لها: «ما رأيك بهذه العيّنة؟» وستقول: «إنها رائعة ونادرة».

كان لطيفاً معها على الدوام. ضغط مرة يدها بين يديه. نظرا عبر عدسة المجهر نفسها مرات كثيرة، واحداً بعد آخر، واستمتعا بسحرها العجيب.

ماذا يرى جورج هوكس في ريتا سنو؟ تذكرت ألما أن جورج لم يكن قادراً على النظر إلى ريتا سنو دون ارتباكٍ وحيرة. تذكرت ألما كيف كان جورج دوماً ينظر إليها مشوشاً كلما تحدثت ريتا، كما لو أنه ينشد المساعدة والراحة أو إعادة التفسير. وكانت تلك النظرات القليلة بين جورج وألما عن ريتا إحدى أعذب الحالات الحميمية بينهما، أو على الأقل حلمت ألما أنها كذلك.

لكن يبدو أن ألما حلمت بأشياء كثيرة.

كان جزء منها ما يزال يأمل أن يكون هذا إحدى ألعاب ريتا الغريبة، أو تحليقاً مضللاً لخيال الفتاة. قبل لحظة فقط زعمت ريتا أن هناك ساحرات يعشن في منزل العربات، وهكذا فإن أي شيء قد يكون ممكناً. لكن، كلا. كانت ألما تعرف جيداً. إن ريتا لا تلعب هنا، هذه ريتا الجدية، ريتا التي تتحدث عن المشكلة، عن الكُمّين والشالات في

زفاف سيتم في شباط/فبراير. هذه ريتا القلقة بشكل جدي على العقد الذي تخطط أمها كي تعيره لها، والذي كان ثميناً، لكن ريتا لم تحبه: ماذا لو كان السلسال طويلاً جداً؟ ماذا لو تشابك مع الجزء العلوي من جسمها؟

وقفت ألما فجأة وسحبت ريتا عن الأرض. لم تعد تتحمل الأمر. لم يكن بوسعها أن تجلس هادئة وتصغي إلى أية كلمة من هذا. دون خطة أخرى للفعل، عانقت ريتا. كان عناقها أسهل من النظر إليها. جعل هذا ريتا حتى تتوقف عن الكلام. أحكمت عناق ريتا بشدة بحيث سمعت الفتاة وهي تتنفس بحدة، بصرير مندهش. وتماماً حين اعتقدت أن ريتا يمكن أن تبدأ بالكلام ثانية، أمرتها ألما: «اسكتي»، وأمسكت صديقتها بشكل آمن أكثر.

كان ذراعا ألما قويين بشكل فائق للعادة (كانت تملك ذراعي حداد كوالدها) وكانت ريتا صغيرة، بقفص صدري لأرنب صغير. هناك أفاع تستطيع أن تقتل بهذه الطريقة، بعناق يزداد شداً إلى أن يتوقف النَّفَس بشكل كامل. عصرت ألما بشدة أكبر. أصدرت ريتا صوت صرير وصراخ مكتوم آخر، لكن ألما شدت أكثر بقوة ورفعت ريتا عن الأرض.

تذكرت اليوم الذي التقين فيه جميعاً: ألما وبرودنس وريتا. الكمان، الشوكة، الملعقة. قالت ريتا: لو كنا فتياناً، سيكون علينا أن نتقاتل الآن». حسناً، لم تكن ريتا مقاتلة. ستخسر معركة كهذه. ستخسرها بشكل سيء. ضغطت ألما ذراعيها بقوة أكبر حول هذا الشخص الصغير والذي لا فائدة منه والثمين. أغمضت عينيها بشدة قدر استطاعتها، لكن الدموع نزفت من الزوايا رغم ذلك. كان بوسعها أن تشعر بريتا تضعف في قبضتها. سيكون من السهل إيقافها عن التنفس. ريتا الغبية. ريتا الغالية، التي ـ حتى الآن! ـ قاومت بنجاح كل الجهود بأن لا تُحب.

Twitter: @ketab_n

أنزلت ألما صديقتها إلى الأرض.

نزلت ريتا بشهقة وقفزت تقريباً.

أجبرت ألما نفسها على الحديث وقالت: «أهنئك على سعادتك».

بكت ريتا، وأمسكت الجزء العلوي من جسمها بيدين مرتجفتين. ابتسمت بشكل أحمق واثق، وقالت: «أنت طيبة جداً يا ألما الصغيرة! وتحبينني كثيراً!».

وبلمسة غريبة من الرسمية الذكورية تقريباً، مدت ألما يدها لريتا كي تصافحها، ناجحة في أن تخنق جملة أخرى إضافية: «أنت تستحقين ذلك كثيراً».

* * *

«هل سمعتِ بالأمر؟» سألت ألما برودنس بعد أقلّ من ساعة بعد أن عثرتْ على أختها وهي تطرّز في غرفة الاستقبال.

وضعت برودنس المواد التي تشتغل عليها في حضنها، وطوت يديها ولاذت بالصمت. كان من عادة برودنس ألا تنخرط بأية محادثة قبل أن تفهم الظروف بشكل كامل. لكن ألما انتظرت رغم ذلك، راغبة بأن تجبر أختها على التحدث، راغبة بزجّها في شيء ما. لكن في ماذا؟ لم يكن في وجه برودنس ما يُكشف، وإذا فكرت ألما أن برودنس ويتاكر مغفلة بما يكفي كي تتحدث أولاً في ظروف حارة كهذه، فإنها إذاً لم تكن تعرف برودنس ويتاكر.

في الصمت الذي تبع، شعرت ألما أن غضبها يتحول من نقمة ملتهبة إلى شيء أكثر مأساوية ونكداً، إلى شيء مدمر ومحزن.

أُجبرت ألما أخيراً على أن تسأل: «هل تعرفين أن ريتا سنو ستتزوج من جورج هوكس؟».

Twitter: @ketab_n

لم تتغير تعابير برودنس، لكن ألما رأت خطاً أبيض صغيراً يظهر للحظة فقط حول شفتي أختها، كما لو أن الفم ضغط اللقمة الأصغر. ثم تلاشى الخط، بسرعة كما ظهر. ربما تخيلته ألما أيضاً.

«كلا»، أجابت برودنس.

«كيف يمكن أن يحدث هذا؟»، سألت ألما. لم تقل برودنس أيَّ شيء، وهكذا واصلت ألما التحدث. «قالت لي ريتا أنهما مخطوبان منذ أسبوع وفاة أمنا».

قالت برودنس بعد وقفة طويلة: «فهمت».

«هل سبق أن عرفت ريتا أنني ...»، وهنا ترددت ألما وتقريباً بدأت بالبكاء. «هل سبق وعرفت ريتا أن لدي مشاعر نحوه؟».

أجابت برودنس: «كيف يمكن أن أجيبك على هذا؟».

«هل عرفتْ هذا منك؟»، كان صوت ألما متردداً وغير مترابط. «هل سبق وقلتِ لها؟ أنت الشخص الوحيد الذي يمكن أن يقول لها إنني أحب جورج».

عاود الخط الأبيض حول شفتي أختها ظهوره الآن، لوقت أطول بقليل. لم يكن هناك مجال للخطأ في تفسير ذلك، كان هذا غضباً.

قالت برودنس: «أتمنى يا ألما أن تعرفي شخصيتي بشكل أفضل بعد هذه السنوات الكثيرة. هل أي شخص يأتي إليَّ من أجل الثرثرة يذهب إلى منزله راضياً؟».

«هل حدث وأتت ريتا إليك من أجل الثرثرة؟».

«لا يهم إن فعلت هذا أو لم تفعل، يا ألما. هل سبق وعرفت عني أنني أكشف أسرار شخص ما؟».

Twitter: @ketab_n

«توقفي عن الجواب عليّ بالألغاز!» صاحت ألما. ثم أخفضت صوتها:

«هل قلت أم لم تقولي لريتا سنو إنني أحب جورج هوكس؟».

رأت ألما ظلاً يعبر قرب الباب، يتمايل ثم يتلاشى. كان ما لمحته رداءً. أحد ما - ربما خادمة - كان على وشك الدخول إلى غرفة الاستقبال، لكنه غير رأيه واندفع خارجاً بدلاً من ذلك. لماذا لا يوجد خصوصية أبداً في هذا المنزل؟ رأت برودنس الظل، أيضاً، ولم تحبه. نهضت وسارت كي تواجه ألما بشكل مباشر ومهدِّد. لم تستطع الأختان النظر إلى بعضهما بعضاً بشكل مباشر، ذلك أن طولهما متباين، لكن برودنس نجحت نوعاً ما في أن تحدق بألما، حتى من تحتها بمسافة قدم.

قالت برودنس: «كلا. لم أخبر أحداً أي شيء، ولن أفعل أبداً. فضلاً عن ذلك، إن تلميحاتك تهينني، وغير منصفة لكل من ريتا سنو وجورج هوكس، اللذين أعدّ عملهما خاصاً بهما. الأسوأ من هذا، إن سؤالك يحط من قدرك. أنا آسفة على خيبة أملك، لكننا مدينون لأصدقائنا بأن نفرح لهم ونتمنى لهم الحظ الجيد».

بدأت ألما تتحدث ثانية، لكن برودنس قاطعتْها محذرة: «من الأفضل أن تستعيدي السيطرة على نفسك قبل أن تواصلي التحدث يا ألما، وإلا ستندمين على كل ما تقولينه».

حسناً، كان هذا خارج الجدل. ندمت ألما على ما كشفته. تمنت لو أنها لم تبدأ هذه المحادثة أبداً. لكنها تأخرت جداً في فعل ذلك. كان الشيء التالي الأفضل هو إنهاء الأمر تماماً. ستكون هذه فرصة رائعة

Twitter: @ketab_n

لألما كي تغلق فمها. وعلى نحو مريع، لم تستطع أن تسيطر على نفسها.

قالت ألما: «أردت أن أعرف فقط إن كانت ريتا قد خانتني».

سألت برودنس بهدوء: «هل تريدين؟ وهكذا هل فرضيتك هي أن صديقتك وصديقتي الآنسة ريتا سنو، أبرأ شخص سبق أن التقيت به، سرقت بتصميم جورج هوكس منك؟ من أجل أي هدف، يا ألما؟ من أجل رضاها الرياضي؟ وبينما أنت على هذا الخط من التشكيك، هل تعتقدين أيضاً أنني خنتك؟ هل تعتقدين أنني بحثُ لريتا بسرك، من أجل أن أسخر منك؟ هل تعتقدين أنني شجعت ريتا كي تطارد السيد جورج هوكس، كنوع من اللعبة الشريرة؟ هل تعتقدين أن لدي بعض الرغبة كي أراكِ تُعاقبين؟».

بدت برودنس عديمة الشفقة. لو كانت رجلاً لصنعت محامياً لا يُقهر. لم يسبق أن شعرت ألما بمقت كهذا أو بدت تافهة. جلست على أقرب كرسي وحدقت بالأرض. لكن برودنس تبعت ألما إلى الكرسي، وقفت فوقها، وواصلت الحديث: «في غضون ذلك يا ألما، لدي أنباء خاصة بي كي أذيعها، سأقولها لك الآن، لأنها مشابهة. نويت الانتظار إلى أن تنتهي أسرتنا من الحداد كي أعالج هذا الموضوع، لكنني أرى أنك قررت أن أسرتنا أنهت الحداد».

هنا لمست برودنس أعلى ذراع ألما اليميني، العاري من عصابته القماشية السوداء، فجفلت ألما تقريباً.

أعلنت برودنس، دون أثر نصر أو متعة: «وأنا أيضاً سأخطب. طلب السيد آرثر ديكسون يدي، وقد قبلت».

فرغ رأس ألما للحظة واحدة: من هو بحق الله آرثر ديكسون؟

Twitter: @ketab_n

والحمد الله أنها لم تنطق هذا السؤال لأنها في اللحظة التالية تماماً تذكرت من هو، وشعرت بالسخف لأنها تساءلت عن الأمر. آرثر ديكسون: مدرّسهما. ذلك الرجل غير السعيد والمحدودب، الذي نوعاً ما زرع اللغة الفرنسية في ذهن برودنس، وساعد ألما على إتقان اليونانية دون متعة، ذلك الشخص الكئيب ذو التنهدات الرطبة والسعال المحزن، الشخص الصغير المضجر، الذي لم تفكر ألما بوجهه منذ آخر مرة شاهدته فيها، الأمر الذي حدث ـ متى؟ منذ أربع سنوات؟ حين غادر أخيراً وايت إيكر كي يصبح أستاذ اللغات القديمة في جامعة بنسلفانيا؟ كلا، أدركت ألما مجفلةً، هذا غير صحيح. شاهدت آرثر ديكسون مؤخراً، في جنازة أمها. تحدثت معه، وقد عبر عن تعازيه الحارة، وتساءلت ما الذي يفعله هنا.

حسناً، عرفت الآن. جاء كي يغازل طالبته القديمة على ما يبدو، والتي صادف أنها أيضاً أجمل شابة في فيلادلفيا، ويجب أن يقال من الأغنى على الأرجح.

قالت ألما: «متى حصلت هذه الخطبة؟».

«قبل وفاة أمنا».

«كيف؟».

أجابت برودنس ببرود: «بالطريقة المعتادة».

سألت ألما وقد أمرضتها الفكرة: «هل حدث كل هذا في الوقت نفسه؟ هل أصبحت مخطوبة للسيد ديكسون في الوقت نفسه الذي خُطبت فيه ريتا لجورج هوكس؟».

قالت برودنس: «لا أعرف عن شؤون الآخرين». ثم لانت قليلاً

Twitter: @ketab_n

واعترفت: «سيبدو الأمر هكذا، أو قريباً من ذلك. يبدو أن خطبتي حصلت قبل ذلك ببضعة أيام، لكن هذا لا يهم مطلقاً».

«هل يعرف والدنا؟».

«سيعرف قريباً. كان آرثر ينتظر انتهاء حدادنا كي يطلب يدي».

«ولكن ماذا سيقول آرثر ديكسون لوالدنا يا برودنس؟ إنه يخاف منه. لا أستطيع أن أتصور الأمر. كيف سيرتب آرثر مواصلة الحديث، دون أن يغمى عليه؟ وما الذي ستفعلينه بقية حياتك، متزوجة من باحث؟».

انتصبت برودنس ومسدت تنورتها: «أتساءل إن كنت تدركين يا ألما أن الرد الأكثر تقليدية على إعلان الخطوبة هو أن يتمنى المرء للعروس سنيناً طويلة من الصحة والسعادة، خاصة إذا كانت العروس المحتملة شقيقتك».

«آه يا برودنس، أعتذر»، بدت ألما خجلة من نفسها للمرة الاثنتي عشرة في ذلك اليوم.

قالت برودنس وهي تستدير نحو الباب: «لا تفكري بالأمر. لم أتوقع أي شيء مختلف».

* * *

هناك أيام في حياتنا نتمنى أن تُشطَب من سجلّ وجودنا. ربما نتوق إلى ذلك المحو لأن يوماً معيناً سبّب لنا أسى مُمَزِّقاً بحيث لا نستطيع تحمل التفكير به ثانية. أو يمكن أن نرغب بمحو حادثة إلى الأبد لأننا تصرفنا بشكل سيء في ذلك اليوم، وكنا أنانيين بشكل رهيب، أو حمقى إلى درجة فائقة للعادة. أو ربما آذينا شخصاً آخر، أو رغبنا بالتخلص من خطيئتنا. وثمة بعض الأيام في فترة حياة تحصل فيها، على نحو مأساوي، كل تلك الأشياء الثلاثة متزامنةً وعلى الفور، حين يكون

Twitter: @ketab_n

قلبنا محطماً ونكون حمقى ومؤذين بشكل لا يُغفر للآخرين. بالنسبة لألما، كان ذلك اليوم هو ١٠ كانون الثاني/ يناير، ١٨٢١. كانت ستفعل ما بوسعها كي تستأصل ذلك اليوم كله من سجل حياتها.

لم تستطع أن تغفر لنفسها أبداً أن استجابتها الأولى للأنباء السعيدة من صديقتها العزيزة وأختها المسكينة كانت عرضاً وقحاً من الغيرة وانعدام التفكير، وفي حالة ريتا، على الأقل، العنف الجسدي. ما الذي علمته لهما بياتريكس دوماً؟ لا شيء جوهرياً مثل الكرامة يا فتيات، وسيكشف الزمن من يمتلكها. وبقدر ما كان الأمر يهم ألما، في كانون الثاني/ يناير١٨٢١، كشفت عن نفسها كفتاة شابة تفتقر للكرامة.

أزعجها هذا طيلة سنوات كثيرة تالية. عذبت ألما نفسها متخيلة، مرة بعد أخرى، كل الطرق المختلفة التي كان يمكن أن تتصرف بها في ذلك اليوم، لو سيطرت بشكل جيد على عواطفها. وفي محادثات ألما المُتَخَيّلة مع ريتا، عانقتْ صديقتها برقة كبيرة لدى مجرد ذكر اسم جورج هوكس، وقالت بصوت ثابت: «إنه رجل محظوظ لأنه حصل عليك!» وفي محادثاتها المُتخيّلة والمنقّحة مع برودنس، لم تتهم أختها أبداً بخيانتها مع ريتا، وأكيد لم تتهم ريتا أبداً بسرقة جورج هوكس، وحين أعلنت برودنس خطبتها على آرثر ديكسون ابتسمت ألما بشكل ودي وأمسكت يد أختها بولع وقالت: «لا أستطيع تخيل سيد أكثر ملاءمة لك!».

ولسوء الحظ، لا يحصل المرء على فرص ثانية في أحداث متخبطة وحمقاء كهذه.

وكي نكون منصفين، في ١١ كانون الثاني/ يناير، بعد يوم واحد من ذلك، تحسنت ألما أكثر. نظمت أمورها بقدر ما استطاعت من السرعة.

Twitter: @ketab_n

وألزمت نفسها بقوة بروح من الرقة حيال الزفافين. وفرضت على نفسها أن تلعب دور امرأة شابة هادئة مسرورة بشكل حقيقي حيال سعادة أشخاص آخرين. وحين حان موعد الزفافين في الشهر التالي، وكان يفصل بينهما أسبوع واحد فحسب، رتبت أن تكون ضيفاً ظريفاً ومبهجاً في المناسبتين. كانت مساعدة للعروسين ولبقة مع العريسين. لم ير أحد خللاً فيها.

وبعد أن قيل هذا، لقد عانت ألما.

خسرتْ جورج هوكس. تُركت في الخلف من قِبل أختها وصديقتها الوحيدة. انتقلت كل من برودنس وريتا، مباشرة بعد زفافهما إلى الجهة الأخرى من النهر، إلى مركز فيلادلفيا. إن الكمان والشوكة والملعقة انتهوا الآن، والشخص الوحيد الذي سيبقى في وايت إيكر هو ألما (التي قررت منذ فترة طويلة أنها شوكة).

وجدت ألما بعض العزاء في حقيقة أنه لا أحد، بصرف النظر عن برودنس، يعرف عن حبها في الماضي لجورج هوكس. لم يكن هناك شيء بوسعها فعله كي تمحو الاعترافات الهيامية التي قدمتها دون حرص أمام برودنس مع مرور الأعوام (وكم ندمت على ذلك!)، لكن برودنس كانت على الأقل قبراً مختوماً، لن تتسرب منه أسرار أبداً. ولم يبد أن جورج نفسه أدرك أن ألما حدث وأحبته، أو أنها قد اشتبهت بأنه أحبها. لم تختلف معاملته لها بعد الزواج عما كانت عليه قبله. كان ودياً ومهنياً في الماضي، وهو الآن ودي ومهني. وكان هذا معزياً ومثبطاً بشكل مريع في آن واحد لألما. كان معزياً لأنه لم يكن هناك حرج مطول بينهما، ولا علامة علنية على الإذلال، وكان مثبطاً لأنه لم يكن هناك

Twitter: @ketab_n

على ما يبدو أي شيء أبداً بينهما، بصرف النظر عما سمحت ألما لنفسها بأن تحلم به.

كان هذا مخجلاً جداً، حين يعاود المرء التفكير به. ومن المحزن أن المرء لا يستطيع غالباً التفكير به مرة ثانية.

فضلاً عن ذلك، ستمكث ألما الآن في وايت إيكر إلى الأبد. وكان هذا واضحاً بشكل متزايد كل يوم. فقد ترك هنري برودنس تذهب دون قتال (وفي الحقيقة قدم لابنته المتبناة مهراً سخياً جداً، وكان لطيفاً مع آرثر ديكسون رغم أن الرجل مضجر ومن أتباع الكنيسة البروتستانتية المشيخية)، لكن هنري لن يترك ألما تذهب أبداً. فبرودنس لا قيمة لها بالنسبة له، لكنه بأمس الحاجة إلى ألما، خاصة بعد أن توفيت بياتريكس.

وهكذا حلت ألما بشكل كامل محل أمها. أُجبرت على تولي الدور، لأنه لا أحد آخر يستطيع أن يتعامل مع هنري. وصارت ألما تكتب رسائل والدها، وتعدّ حساباته، وتصغي لشكاواه، وتراقب شربه للروم، وتقدم التعليق على خططه، وتخفف من غضبه. كان يستدعيها إلى مكتبه في كل ساعات النهار والليل، ولم تكن ألما تعرف ما الذي يحتاجه والدها منها بالضبط، أو كم تحتاج المهمة من الوقت. يمكن أن تعثر عليه جالساً إلى طاولته يخدش بإبرة خياطة كومة من القطع النقدية الذهبية محاولاً أن يحدد إن كان الذهب مزيفاً ويريد رأي ألما. وقد يكون ضجراً، ويرغب بأن تُحضر إليه ألما كوب شاي، أو أن تلعب معه لعبة الكريبج، أو أن تذكّره بكلمات أغنية قديمة. وفي الأيام التي يتألم فيها جسمه، أو حين تُنزع له سن، أو تُوضع لصقة مسكّنة للألم على صدره، كان يستدعي ألما إلى مكتبه فقط كي يخبرها عن درجة ألمه.

Twitter: @ketab_n

أو، دون سبب مطلقاً، يمكن أن يرغب ببساطة بجرد شكاواه. («لماذا يجب أن يكون طعم لحم الحمل مثل لحم كبش في المنزل؟» يمكن أن يسأل. أو: «لماذا يجب أن تحرك الخادمات باستمرار السجادات بحيث أن الرجل لا يعرف أين يضع قدميه؟ كم مرة يردن أن أسقط؟»).

في الأيام الأكثر انشغالاً وصحة، يمكن أن يكون لدى هنري عمل حقيقي لألما. يمكن أن يحتاج إلى ألما كي تكتب رسالة تهديد إلى مقترض تأخر عن التسديد. («أخبريه أنه يجب أن يسدد لي في غضون أسبوعين وإلا سأجعل أولاده يمضون بقية حياتهم في إصلاحية للأحداث»، يملي هنري، بينما ستكتب ألما: «أيها السيد العزيز، أطلب منك باحترام شديد أن تستعجل في تسديد هذا الدين...»). أو يمكن أن هنري تلقى مجموعة من العينات النباتية المجففة من وراء البحار، ويحتاج إلى ألما كي تنعشها بالماء وتعد الرسومات بسرعة، قبل أن تتعفن كلها. أو يمكن أن يحتاجها لكتابة رسالة لخادم ما في تاسمانيا يعمل جاهداً في منتصف الطريق إلى الموت في الأصقاع البعيدة للكوكب من أجل أن يجمع نباتات غرائبية لصالح شركة ويتاكر.

يقول هنري قاذفاً أوراق الكتابة فوق الطاولة على ابنته: «أخبري ذلك المغفل الكسول أنه لا ينفعني الأمر حين يخبرني أن العينة كذا وكذا عثر عليها على ضفاف جدول ربما هو نفسه اخترع اسمه، لأنني لا أجد اسمه على أية خريطة في الوجود. أخبريه أنني بحاجة إلى تفاصيل دقيقة. أخبريه أنني لا أكترث مقدار صف من الدبابيس على صحته السيئة. إن صحتي سيئة أيضاً، لكن هل أزعجه بالإصغاء إلى مشاكلي؟ قولي له إنني سأدفع ثمانية دولارات مقابل مائة من كل عينة، لكنني أطالبه بالدقة وأن تكون العينات قابلة للتحديد. اطلبي منه أن يتوقف عن لصق عيناته الجافة على الورق، لأن ذلك يدمرها، وهذا أمر

يجب أن يكون قد عرفه الغبي الآن. أخبريه أنه يجب أن يستخدم ميزانيْ حرارة في كل علبة زجاجية، يثبت واحداً على الزجاج ويطمر الآخر في التربة. أخبريه أنه قبل أن يشحن مزيداً من العينات يجب أن يقنع البحارة على ظهر السفينة بأن ينقلوا العلب عن رصيف المرفأ في الليل إذا كانوا يتوقعون الصقيع لأنني لن أدفع له سناً خشبياً لشحنة أخرى من العفن الأسود في صندوق، يدعي أنه نبتة. وأخبريه، أن كلا، لن أزيد راتبه ثانية. أخبريه أنه محظوظ أن وظيفته ما تزال مستمرة، مفترضين حقيقة أنه يبذل قصارى جهده كي يفلسني. قولي له إنني سأدفع له ثانية حين يكسب ما أدفعه». (ستبدأ ألما بالكتابة: «سيدي العزيز، نحن هنا في شركة ويتاكر نقدم امتناننا الأكبر لكل أعمالك الأخيرة، ونعتذر عن كل المتاعب التي تعرضت لها...»).

لا أحد آخر يمكن أن يقوم بهذا العمل. يجب أن تقوم به ألما، لأنه كما أرشدتها بياتريكس وهي على سرير احتضارها: لا تستطيع ألما أن تترك والدها أبداً.

هل اشتبهت بياتريكس أن ألما لن تتزوج أبداً؟ ربما، كما أدركت ألما. من سيقتنيها؟ من سيأخذ هذا الكائن الأنثوي الضخم، الأطول من ستة أقدام، والمحشو بالثقافة بشكل مفرط، وله شعر لونه وشكله كعرف الديك؟ كان جورج هوكس أفضل مرشح، وفي الحقيقة المرشح الوحيد، والآن قد رحل. كانت ألما تعرف أنه ليس هناك أمل في العثور على زوج مناسب، وقالت ما يشبه ذلك لهانيكي دي غروت فيما كانت الاثنتان تقلمان شجيرات البقس في حديقة بياتريكس اليونانية القديمة.

قالت ألما فجأة: «لن يأتي دوري أبداً يا هانيكي». لم تقل هذا

بأسى، وإنما بصراحة. كان هناك شيء ما حيال التحدث بالهولندية (وكانت ألما تتحدث بالهولندية فقط مع هانيكي) مما ولّد دائماً صراحة.

«امنحي الموقف وقتاً»، قالت هانيكي، عارفة بالضبط ما الذي كانت ألما تتحدث عنه. «ما يزال هناك وقت كي يأتي زوج بحثاً عنك».

قالت ألما بولع: «يا هانيكي المخلصة، لنكن صريحين. من الذي سيضع خاتماً في يدي اللتين تشبهان يدي بائعة أسماك؟ من الذي سيقبل هذا الرأس الموسوعيّ؟».

«أنا سأقبله»، قالت هانيكي، وأخفضت رأس ألما من أجل قبلة على الجبين. «هاهي، لقد تمت. توقفي عن الشكوى. تتصرفين دوماً وكأنك تعرفين كل شيء، لكنك لا تعرفين الأشياء كلها. ارتكبت أمك الخطأ نفسه. رأيتُ من الحياة أكثر منك، لأنني أكبر منك، وأقول لك إنك لست كبيرة جداً بحيث لا يمكن أن تتزوجي، ما تزالين قادرة على إنشاء أسرة. لا داعي للعجلة. انظري إلى السيدة كنغستون، في شارع لوكست. إنها في الخمسين، وقد أنجبت لتوها توأماً لزوجها! إنها أم منتظمة لكثيرين. يجب أن يدرس أحد ما رحمها».

«أعترف يا هانيكي أنني لا أظن أن السيدة كنغستون في الخمسين، ولا أظن أنها تريدنا أن ندرس رحمها».

«أنا أقول فقط إنك لا تعرفين المستقبل يا طفلتي، كما تظنين. وهناك المزيد الذي يجب أن أقوله لك، بالإضافة إلى ذلك». توقفت هانيكي عن العمل الآن، وصار صوتها جدياً. «لكل شخص خيبات أمله يا طفلتي».

أحبت ألما إيقاع كلمة «طفلتي» في اللغة الهولندية. كانت هذه هي الكلمة التي نادت بها هانيكي ألما على الدوام حين كانت صغيرة وحين

Twitter: @ketab_n

تكون خائفة وتتسلق إلى سرير كبيرة الخدم في منتصف الليل. طفلتي. كان إيقاع هذه الكلمة كالدفء نفسه.

«أنا أدرك أن لكل امرئ خيبات أمله يا هانيكي».

«أنا متأكدة أنك تدركين. ما تزالين صغيرة، وهكذا فكري بنفسك فحسب. أنت لا تلاحظين المحن التي تحصل حولك لأشخاص آخرين. لا تحتجي، هذا صحيح. أنا لا أدينك. كنت أنانية مثلك، حين كنت في سنك. من عادة الشبان أن يكونوا أنانيين. أنا الآن أكثر حكمة. ومن المؤسف أننا لا نستطيع أن نضع رأساً قديماً على كتفين فتيين، وإلا ستكونين حكيمة أيضاً. لكن يوماً ما ستفهمين أن لا أحد يمر في هذا العالم دون معاناة مهما كان ما فكرت بهم وبثروتهم الجيدة المفترضة».

سألت ألما: «ماذا نفعل إذاً بمعاناتنا؟».

لم يكن هذا سؤالاً ستطرحة ألما أبداً على كاهن أو فيلسوف أو شاعر، لكنها كانت فضولية ـ وحتى متلهفة ـ لسماع جواب من هانيكي دي غروت.

قالت هانيكي بهدوء: «حسناً، يا طفلتي، يمكن أن تفعلي ما يحلو لك بمعاناتك. فهي تنتمي إليك. لكنني سأخبرك ما الذي أفعله بمعاناتي. أمسكها من شعرها القصير، أرميها على الأرض، وأسحقها بكعب حذائي. أقترح عليك أن تتعلمي الشيء نفسه».

* * *

فعلت ألما هذا. تعلمت كيف تطحن خيبات أملها تحت كعب بوطها. كان لديها بوط قوي، أيضاً، وهكذا فقد كانت مهيأة للمهمة جيداً. بذلت جهداً كي تحول أحزانها إلى مسحوق رملي يمكن أن يُرفس

Twitter: @ketab_n

إلى الحفرة. كانت تفعل هذا كل يوم، وأحياناً عدة مرات في اليوم، وهكذا تابعت.

مرت الشهور. ساعدت ألما والدها، وساعدت هانيكي، وعملت في البيوت الزجاجية، ونظمت أحياناً وجبات عشاء رسمية في وايت إيكر من أجل إلهاء هنري. لكنها نادراً ما شاهدت صديقتها القديمة ريتا، وكانت رؤية برودنس أكثر ندرة، لكنها التقت بها أحياناً. فبحكم العادة فقط، كانت ألما تذهب إلى الكنيسة أيام الأحد، رغم أنها غالباً، وعلى نحو مخز، كانت تتبع زياراتها إلى الكنيسة بزيارات إلى غرفة التجليد، كي تفرغ ذهنها من خلال لمس جسمها. لكن العادة في حجرة التجليد لم تعد ممتعة، تشعرها بالحرية نوعاً ما فحسب.

شغلت نفسها على الدوام، لكنها لم تكن منشغلة بما يكفي. ففي غضون سنة، شعرت بسبات زاحف أخافها كثيراً. تاقت إلى نوع ما من العمل، أو مشروع ينفّس عن طاقاتها الفكرية المعتبرة. ساعدتها مسائل والدها التجارية في هذا الصدد، بما أن العمل ملأ أيامها بأكوام كبيرة من المسؤوليات، ولكن في الحال صارت فعالية ألما عدوها. كانت تنجز المهمات لشركة ويتاكر بشكل جيد وسريع جداً. وفي الحال، بعد أن تعلمت كل ما هي بحاجة إلى تعلمه عن استيراد وتصدير النباتات، صارت قادرة على إكمال عمل هنري في أربع أو خمس ساعات في اليوم. لكن هذه لم تكن ساعات كافية، مما ترك الكثير من ساعات الفراغ، وكانت ساعات الفراغ خطيرة. فقد قدمت ساعات الفراغ فرصة كافية لفحص خيبات الأمل التي كانت تنوي سحقها تحت كعبي حذائها.

في هذا الوقت أيضاً، العام الذي أعقب زواج الجميع، وصلت ألما إلى إدراك مهم وحتى صادم: فعلى عكس اعتقادها في الطفولة،

Twitter: @ketab_n

اكتشفت أن وايت إيكر ليست مكاناً كبيراً جداً. كان الأمر على عكس ذلك تماماً: كانت مكاناً صغيراً. صحيح أن مساحة العزبة أكثر من ألف فدان، بميل من الواجهة النهرية وبقعة كبيرة من الغابة العذراء، وبمنزل ضخم ومكتبة هائلة، وبشبكة واسعة من الاصطبلات والحدائق والبيوت الزجاجية والبرك والجداول، لكن إذا كان هذا يشكل حدود العالم كله بالنسبة لشخص (كما شكل بالنسبة لألما)، فإنه ليس كبيراً أبداً. إن أي مكان لا يستطيع المرء مغادرته ليس كبيراً، خاصة إذا كان المرء عالم طبيعة!

كانت المشكلة هي أن ألما أمضت حياتها سابقاً في دراسة طبيعة وايت إيكر، وتعرف المكان جيداً. تعرف جميع الأشجار والصخور والطيور وجميع أزهار السحلبية. تعرف جميع العناكب، وجميع أنواع الخنافس والنمل. ليس هنا شيء جديد للاكتشاف بالنسبة إليها. نعم، بوسعها دراسة النباتات الاستوائية الجديدة التي تصل إلى بيوت والدها الزجاجية المثيرة للإعجاب كل أسبوع، لكن هذا ليس اكتشافاً! فقد اكتشف أحد ما هذه النباتات من قبل! ومهمة عالم الطبيعة، كما فهمتها ألما، هي الاكتشاف. لكن لن تسنح فرصة كهذه لألما لأنها وصلت إلى أقصى حدودها النباتية من قبل. أخافها هذا الإدراك وأصابها بالأرق ليلاً، الأمر الذي أخافها أكثر. خافت من القلق الذي يزحف إليها. كان بوسعها أن تسمع ذهنها يخطو داخل جمجمتها، مسجوناً ومتضايقاً، وشعرت بوزن السنوات كلها التي ستعيشها، يضغط عليها بتهديد ثقيل.

كانت ألما عالمة تصنيف بالفطرة ليس لديها شيء جديد تصنّفه، أبعدت قلقها عبر ترتيب الأمور الأخرى. فقد رتبت أوراق والدها بحسب الترتيب الأبجدي، وجعلت المكتبة أنيقة متخلصةً من الكتب ذات القيمة الأدنى. ورتبت مجموعة الآنية على الرفوف بحسب الطول،

وأنشأت أنساقاً أكثر دقة من التصنيف المفرط، وفي الصباح الباكر من أحد أيام شهر حزيران/ يونيو، جلست ألما ويتاكر لوحدها في منزل العربات، وراجعت جميع الأبحاث التي ألفتها لجورج هوكس. كانت تحاول أن تقرر إن كانت ستصنف أعداد مجلة «بوتانيكا أميركانا» بحسب الموضوع أو التسلسل الزمني. لم تكن مهمة ضرورية، غير أنها ستشغلها ساعة.

في قاع هذه الكومة، عثرت ألما على مقالتها الأولى، التي ألفتها حين كانت في السادسة عشرة من عمرها، عن المونوتروبا هايبوبيتس (النبتة الشبح، أو نبتة الجثث). قرأتها ثانية. كانت الكتابة بسيطة، لكن العلم عميق، وما يزال تفسيرها لهذه النبتة التي تحب الظل كمتطفلة ذكية غير دموية صالحاً. وحين نظرت بتمعن إلى رسوماتها القديمة للنبتة الشبح ضحكت من فظاظتها البدائية، وبدت رسومها البيانية كما لو أن طفلاً رسمها، وجوهرياً هذا ما حدث. لا يعني هذا أنها أصبحت فنانة لامعة في الأعوام الماضية، لكن تلك الرسومات كانت فظة في الحقيقة. وكان جورج لطيفاً بحيث أنه نشرها. كان القصد هو أن تُصوِّر نبتة المونوتروبا الخاصة بها على أنها تنمو في حوض من الطحالب، ولكن في تصوير ألما، بدا وكأن النبتة تنمو من مخدة قديمة كثيرة الكتل. لن يكون أحد قادراً على تحديد تلك الكتل الكريهة في قاع الرسمة كطحالب مطلقاً. كان ينبغي أن تُبْرز الكثير من التفاصيل. وكعالمة طبيعة جيدة يجب أن ترسم رسمة تصوّر بدقة في أي صنف من الطحالب نمت المونوتروبا هايبوبيتس.

أدركت ألما أنها لا تعرف في أي صنف من الطحالب تنمو المونوتروبا هايبوبيتس، وأنها غير متأكدة بشكل كامل من أنها تستطيع

Twitter: @ketab_n

التمييز بين أصناف مختلفة من الطحالب. كم يوجد منها، بأية حال؟ البعض؟ دزينة؟ عدة مئات؟ وعلى نحو صادم، لم تكن تعرف.

ثم ثانية، أين ستتعلم هذا؟ من سبق وكتب عن الطحالب؟ أو حتى عن النباتات اللاوعائية بصفة عامة؟ لم تسمع عن كتاب مرجعي واحد عن الموضوع. لم يصنع أحد مهنة من هذا بعد. ومن سيريد ذلك؟ فالطحالب ليست أزهاراً سحلبية، ولا أرز لبنان. ليست كبيرة أو جميلة أو بارزة للعيان. ولم تكن الطحالب طبية ومربحة، يمكن أن يصنع منها رجل مثل هنري ويتاكر ثروة. (رغم أن ألما تذكرت أن والدها أخبرها أنه حزم بذور الكينا الثمينة في طحالب مجففة، كي يحافظ عليها أثناء نقلها إلى جافا). ربما كتب جرونوفيوس شيئاً ما عن الطحالب. لكن مرّ الآن سبعون عاماً تقريباً على عمل العجوز الهولندي، صار قديماً وناقصاً بشكل كبير. وكان واضحاً أنه لا أحد خصص انتباهاً كبيراً لهذا الشيء. حتى أن ألما قد سدت الجدران القديمة لمنزل العربات المفتوحة على الرياح العاتية بحشوات من الطحالب، كما لو أنها حشوات قطنية.

لقد أهملتها.

نهضت ألما بسرعة، لفت نفسها بشال، ووضعت منظاراً مكبراً في جيبها وركضت إلى الخارج. كان صباحاً منعشاً وبارداً ومدلهماً قليلاً. لكن الضوء كان تاماً، ولم تكن مضطرة للذهاب بعيداً، ففي بقعة مرتفعة على ضفة النهر، ثمة نتوء من الصخور الكلسية تظلله الأشجار القريبة. تذكرت أنها ستعثر هناك على الطحالب، إذ هناك جمعت المادة العازلة لمكتبها.

تذكرت على نحو صحيح. تماماً على حد الغابة والصخور، وصلت ألما إلى الصخرة الأولى في النتوء. كان الحجر أضخم من ثور نائم،

Twitter: @ketab_n

وكما اشتبهت وتوقعت، كان مغطى بالطحالب. ركعت ألما بين الأعشاب الطويلة وقربت وجهها من الحجر قدر الإمكان. وهناك، على ارتفاع لا يتعدى إنشاً وحداً فوق سطح الحجر، شاهدت غابة كبيرة وصغيرة. لم يكن هناك شيء يتحرك داخل هذا العالم الطحلبي. حدقت فيه بإمعان بحيث استطاعت أن تشمه، كان رطباً وغنياً وقديماً. ضغطت ألما يدها بلطف على هذه الغابة الصغيرة المحكمة. انضغطت الطحالب تحت راحة كفها وقفزت عائدة كي تتشكل دون شكوى. كان هناك شيء ما مثير في استجابتها لها. شعرت بأن الطحالب دافئة وإسفنجية، أكثر دفئاً من الجو الذي حولها بعدة درجات، وأكثر رطوبة مما توقعت. بدا وكأن لها طقسها الخاص.

وضعت ألما العدسات المكبرة على عينيها ونظرت ثانية. تحولت الغابة المنمنمة تحت نظرتها إلى تفاصيل رائعة ومهيبة. شعرت بأن نَفَسها توقف. كانت هذه غابة مخدرة. كانت هذه الغابة الأمازونية كما تُرى عن ظهر عقاب استوائي. حلقت عينها فوق المشهد المدهش، متبعة ممراته في كل اتجاه. هناك أودية كثيرة ممتلئة بأشجار صغيرة من شعر الحوريات المضفر والكرمة الصغيرة المتدلية. هناك روافد لا تكاد تُرى تجري عبر تلك الغابة، وثمة محيط منمنم مكتئب في مركز الحجر، حيث تصب المياه كلها.

فوق هذا المحيط ـ والذي كان بحجم نصف شال ألما ـ عثرت على قارة أخرى من الطحالب. وفي هذه القارة الجديدة، كل شيء مختلف. وخمنت أن هذا الجزء من الصخرة يتلقى كمية أكبر من ضوء الشمس، أو كمية أقل بقليل من المطر. على أي حال، كان هذا مناخاً جديداً بشكل كامل. فالطحالب تنمو هنا في سلاسل جبلية بطول ذراعي ألما في عناقيد جميلة كأشجار الصنوبر بلون أخضر أكثر دكنة ووقاراً. وعلى ربع

Twitter: @ketab_n

دائرة أخرى من اللوح الحجري نفسه، عثرت على بقع من الصحارى متناهية الصغر، يسكنها نوع ما من الطحالب القوية، الجافة والمتساقطة التي لها شكل الصبّار. وفي مكان آخر، عثرتْ على مضائق بحرية شديدة الصغر، عميقة بحيث أن الطحالب التي في الداخل ما تزال، حتى الآن في شهر حزيران/يونيو، وعلى نحو لا يُصدق، متجمدة بآثار متبقية من ثلوج الشتاء. لكنها عثرت أيضاً على مصبات أنهار دافئة وكاتدرائيات صغيرة جداً وكهوف من حجر الكلس بحجم إبهامها.

ثم رفعت ألما وجهها ورأت ما كان أمامها: دزينات أخرى من الألواح الصخرية، أكثر مما تستطيع أن تحصي، وكل لوح مكسو بالطريقة نفسها، ومختلف على نحو دقيق. شعرت بأنها ضائعة. كان هذا العالم برمته. كان هذا أكبر من عالم. كان هذا القبة الزرقاء للكون كما تُرى عبر أحد تلسكوبات وليم هيرشيل الجبارة. كان هذا كوكبياً وواسعاً. كانت هذه مجرات قديمة لم تُكتشف، تدور أمامها، وكان الأمر على ما يرام هنا! ما يزال بوسعها أن ترى منزلها من هنا. تستطيع أن تشاهد الزوارق القديمة المألوفة في نهر سكيولكل. تستطيع أن تسمع الأصوات البعيدة لعمال بساتين والدها يعملون في غيضة الدراق. لو رنت هانيكي الجرس من أجل وقت تناول الطعام في تلك اللحظة نفسها لسمعتْها.

تشابك عالم ألما وعالم الطحالب معاً طيلة ذلك الوقت، استلقيا فوق بعضهما، وزحفا فوق بعضهما. لكن أحد هذين العالمين صاخب وضخم وسريع، بينما الآخر هادئ وصغير وبطيء، وبدا أحد هذين العالمين غير قابل للقياس فحسب.

غمست ألما أصابعها في الفراء الضحل الأخضر وشعرت باندفاع متعة وتوقع. يمكن أن يكون هذا لها! لم يكرس أي عالم نبات قبلها

Twitter: @ketab_n

نفسه بشكل خاص لدراسة هذا الصنف الذي لم يقدره أحد حق قدره، لكن ألما تستطيع القيام بذلك، وتمتلك الوقت من أجله، والصبر أيضاً. وتمتلك الكفاءة. وأكيد لديها المجاهر من أجل ذلك، والناشر أيضاً، لأنه مهما حصل بينهما (أو لم يحصل) فإن جورج هوكس سيكون سعيداً على الدوام بنشر مكتشفات أ. ويتاكر، مهما كانت.

عارفةً كل هذا، شعرت ألما أن عالمها صار أكبر وأصغر بكثير في آن واحد، لكن هذا الصغر ممتع. فقد قلص العالم نفسه إلى إنشات لا نهاية لها من الاحتمالات. إن حياتها يمكن أن تُعاش في عالم مصغّر جداً وكريم. وأدركت ألما أن الشيء الأفضل أنها لن تتعلم أبداً كل شيء عن الطحالب، ذلك أنها تعرف أن هناك الكثير من هذه المادة في العالم؛ وهي في كل مكان، ومتنوعة جداً. وربما ستموت من الشيخوخة قبل أن تفهم حتى نصف ما يحصل في حقل هذا الجلمود الصخري الواحد.

حسناً، هذا جميل! ويعني أن هناك عملاً أمام ألما لبقية حياتها، ولن تكون عاطلة عن العمل بعد الآن، ولن تكون تعيسة، وربما لن تكون وحيدة.

لديها مهمة.

ستدرس الطحالب.

لو كانت ألما من الروم الكاثوليك لصلّبتْ امتناناً لله على هذا الاكتشاف، لأن هذا اللقاء ولّد شعوراً روحياً رائعاً كالاهتداء الديني. لكن ألما لم تكن امرأة متدينة. بيد أنه تصاعد أملٌ في قلبها، وبدت الكلمات التي نطقت بها بصوت مرتفع كالصلاة في كل تفاصيلها:

قالت: «الحمدُ للأعمال التي تنتظرني. لنبدأ».

Twitter: @ketab_n

الجزء الثالث

الرسائل المزعجة

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

بدأت ألما ويتاكر في سنة ١٨٤٨ العمل على كتابها الجديد «الطحالب الكاملة لأميركا الشمالية». وفي السنوات الست والعشرين السابقة، نشرت كتابين هما «الطحالب الكاملة لبنسلفانيا» و«الطحالب الكاملة لشمال شرق الولايات المتحدة»، وكلاهما طويل، وشامل، وأخرجه بأناقة صديقها القديم جورج هوكس.

تلقت جماعة علم النبات كتابيْ ألما الأولين جيداً، وقد كُتب عنهما بإطراء في بعض المجلات الأكثر احتراماً، واعتُرف بها بصفة عامة بأنها ساحرة علم تصنيف النباتات اللاوعائية. فقد أتقنت الموضوع ليس من خلال دراسة طحالب وايت إيكر ومحيطها فحسب، بل عبر شراء عينات أو مقايضتها أو الحصول عليها بالمداهنة والتملق من جامعي نباتات آخرين من جميع أنحاء البلاد والعالم أيضاً. ونُفذت هذه الصفقات بسهولة كبيرة. فقد كانت ألما تعرف كيف تستورد النباتات، ولم تكن الطحالب بحاجة إلى جهود لنقلها، فكل ما على المرء فعله هو تجفيفها وتعليبها وتحميلها على السفينة، وستنجو في رحلتها دون أية مشكلة، وتشغل مساحة قليلة ولا تزن شيئاً، ولهذا لم يهتم قبطان السفينة في وضعها كحمولة زائدة، وهي لا تتعفن أبداً. فقد كانت الطحالب الجافة ملائمة جداً من أجل النقل بحيث أن الناس كانوا يستخدمونها كمادة للحزم طول قرون. وفي بداية استقصاءاتها اكتشفت ألما أن مستودعات

Twitter: @ketab_n

والدها إلى جانب رصيف المرفأ مليئة بمئات الأنواع من الطحالب من جميع أنحاء الكوكب، وكلها متوضعة في زوايا وصناديق مهملة، ومُتجاهلة وغير مفحوصة، إلى أن وضعتها ألما تحت مجهرها.

ومن خلال استقصاءات وعمليات استيراد كهذه، تمكنت ألما، في السنوات الست والعشرين الماضية، من أن تجمع ثمانية آلاف عينة من الطحالب تقريباً، حفظتها في مجموعة وخزنتْها في عليّة خزن التبن الأكثر جفافاً في منزل العربات. كانت معارفها في علم النباتات اللاوعائية العالمية آنذاك عميقة جداً، رغم حقيقة أنها هي نفسها لم تسافر أبداً خارج بنسلفانيا. واصلت مراسلاتها مع علماء نبات من تييرا ديل فويغو إلى سويسرا، وراقبت بحرص المجادلات التصنيفية المعقدة التي نشبت في المجلات العلمية الأكثر غموضاً حيال إن كان هذا الغصن أو ذاك من النيكيرا أو البوغوناتوم يشكل صنفاً جديداً، أم كان فقط صنفاً معدلاً من نوع موثّق سابقاً. وكانت أحياناً توافق على آرائها الخاصة، وأبحاثها المُجادَلة على نحو موسوس.

فضلاً عن ذلك، صارت تنشر الآن موقعة باسمها الكامل. لم تعد «أ. ويتاكر»، بل «ألما ويتاكر». لم تُضَف أحرف أولى إلى الاسم، أو دليل على الشهادات، أو عضوية في منظمات علمية مميزة للسادة. ولم تكن حتى «السيدة»، بالكرامة التي يقدمها لقب كهذا لسيدة. والآن، على ما يبدو، كان الجميع يعرف أنها امرأة. ولم يكن هذا يهم كثيراً. إذ لم تكن الطحالب اختصاصاً تنافسياً، وربما هذا هو السبب الذي سمح بدخولها الحقل بمقاومة قليلة، وبسبب مثابرتها العنيدة.

وفيما كانت ألما تتعرف على عالم الطحالب مع مرور الأعوام فهمت على نحو أفضل لماذا لم يدرسه أحد بشكل ملائم من قبل. فقد بدا للعين غير المدققة كأن هناك القليل للدراسة. وعُرفت الطحالب عادة بما

Twitter: @ketab_n

افتقرت إليه، وليس بما كانته، وفي الحقيقة افتقرت إلى الكثير، فهي لا تُثمر، ولا جذور لها، ولا تنمو إلى أعلى من بضعة إنشات، ولا تحتوي على هيكل خلوي داخلي تدعم به نفسها، ولا تستطيع نقل الماء داخل أجسامها، والطحالب لا تمارس الجنس. (أو على الأقل لا تنخرط في الجنس بأية طريقة واضحة، على عكس الزنابق أو أزهار التفاح، أو أية زهرة أخرى، بعروضها العلنية للأعضاء الذكرية والأنثوية). إن الطحالب تبقي تناسلها لغزاً للعين المجردة، ولهذا السبب عرفت بالاسم المثير: «الزواج الخفي».

كان يمكن أن تبدو الطحالب بسيطة وبليدة ومتواضعة وحتى بدائية. وبدت العشبة الأبسط الخارجة من أكثر الأرصفة تواضعاً في المدينة أكثر تعقيداً بالمقارنة. لكن هنا ما لم تفهمه سوى قلة من البشر، وما عرفته ألما: إن الطحالب قوية على نحو غير قابل للإدراك. فالطحالب تأكل الأحجار؛ لكن لا شيء بالمقابل يأكل الطحالب. وتتعشى الطحالب على الصخور، ببطء لكن على نحو مدمّر، في وليمة تستمرّ لقرون. وإذا ما مُنحتْ وقتاً كافياً، فإن مستعمرة من الطحالب يمكن أن تحوّل جرفاً صخرياً إلى حصى، وتحوّل تلك الحصى إلى تربة فوقية. وتحت رفوف من الحجر الكلسي المكشوف تنشئ مستعمرات الطحالب إسفنجات حية تقطر وتتماسك بشدة وتشرب مياهاً كلسية من الحجر مباشرة. ومع مرور الوقت يتحول هذا الخليط من من الطحالب والمعادن إلى رخام جيري. وداخل السطح الرخامي القاسي والأبيض سيرى المرء عروقاً زرقاء وخضراء ورمادية، وآثار مستعمرات الطحالب من فترة ما قبل الطوفان. وقد بُنيت كاتدرائية القديس بطرس من تلك المادة، التي أنشأتها ولطختها أجسام مستعمرات الطحالب القديمة.

تنمو الطحالب حيث لا يقدر أي شيء آخر على النمو. تنمو على الآجر، وعلى لحاء الأشجار، وعلى أردواز السقوف. وتنمو في منطقة

Twitter: @ketab_n

القطب الشمالي وفي المناطق المدارية الأكثر اعتدالاً؛ وتنمو أيضاً على فرو حيوان الكسلان، وعلى ظهور السلاحف، وعلى العظام البشرية المتحللة. واكتشفت ألما أن الطحالب هي الإشارة الأولى على الحياة النباتية التي تعاود الظهور على الأرض التي حُرقت أو صارت قاحلة. وتمتلك الطحالب الجرأة على البدء بإغراء الغابة كي تعود إلى الحياة. إنها آلة انبعاث. إن أجمة واحدة من الطحالب قد ترقد هاجعة وجافة لأربعين عاماً في مكان ما؛ ثم تعود ثانية إلى الحياة بمجرد التبلل بالماء.

إن الشيء الوحيد الذي تحتاج إليه الطحالب هو الوقت، وقد بدأ يتكشّف لألما أن العالم لديه الكثير من الوقت كي يقدمه. ولاحظت أن باحثين آخرين قد بدأوا يقترحون الفكرة نفسها. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر كانت ألما قد قرأت كتاب «مبادئ الجيولوجيا» لتشارلز لايل، الذي قال فيه إن كوكب الأرض أكثر قدماً مما يمكن أن يتصوره المرء حتى الآن، وربما كان عمره ملايين الأعوام. وأعجبت بالكتاب الأحدث لجون فيليبس، الذي قدم في ١٨٤١جدولاً زمنياً أقدم حتى من تقديرات لايل. واعتقد فيليبس أن الأرض مرت في ثلاث حقب زمنية من التاريخ الطبيعي (حقبة الحياة القديمة، وحقبة الحياة الوسيطة، وحقبة الحياة الحديثة)، وقد حدد نباتات وحيوانات مستحاثية من كل حقبة، بما فيه طحالب مستحاثية.

لم تصدم هذه الفكرة عن عالم قديم بشكل لا يُصدق ألما رغم أنها صدمت الكثير من الناس، بما أنها ناقضت بشكل مباشر تعاليم الكتاب المقدس. لكن ألما كان لها نظرياتها الخاصة عن الزمن، والتي دعمتها سجلات الأحافير في الطَفل الصفحي البدئي للمحيط الذي أشار إليه كل من لايل وفيليبس في دراساتهما. وصارت ألما تعتقد، في الحقيقة، أن هناك أنواعاً مختلفة من الزمن عملت بشكل متزامن في أنحاء الكون؛

Twitter: @ketab_n

وكعالمة تصنيف مجتهدة، ذهبت بعيداً بحيث ميزت فيما بينها وسمّتها. أولاً، كان هناك شيء مثل الزمن البشري، والذي كان سرداً لذاكرة فانية محدودة، مستندة إلى عمليات التذكر الناقصة للتاريخ المسجّل. وكان الزمن البشري آلية قصيرة وأفقية. امتد مستقيماً وضيّقاً، من الماضي الحديث تماماً إلى المستقبل الذي من الصعب تخيله. أما السمة الأكثر إدهاشاً في الزمن البشري، على أي حال، فهي أنه يتحرك بسرعة مذهلة. إنه فرقعةُ إصبع عبر الكون. وما كان أسوأ حظاً لألما، أن أيامها الفانية - كمثل الأيام الفانية لأي شخص آخر - تقع داخل مجال الزمن البشري. وهكذا فإنها لن توجد هنا لوقت طويل، كما كانت واعية على نحو مؤلم. إنها مجرّد رقّة وجودٍ، كما الجميع.

وافترضت ألما أنه في النهاية الأخرى من الطيف هناك الزمن الإلهي، أبدية غير قابلة للفهم تنمو فيها المجرات، ويحيا الخالق. لم تكن تعرف أي شيء عن الزمن الإلهي. ولم يكن أحد يعرف. وفي الحقيقة استاءت من أشخاص زعموا بأنهم يفهمون أي شيء عن الزمن الإلهي. لم يكن لديها اهتمام بدراسة الزمن الإلهي، لأنها اعتقدت أن الذهن البشري عاجز عن فهمه. كان زمناً خارج الزمن. وهكذا تركته لوحده. مع ذلك، أحست أنه موجود، واحترمت أنه يحوم بنوع ما من الركود/ الثبات اللانهائي الهائل.

قريباً من المنزل، عائدة إلى الأرض، آمنت ألما أيضاً بشيء ما سمته الزمن الجيولوجي، الذي كتب عنه تشارلز لايل وجون فيليبس بشكل مقنع. كان التاريخ الطبيعي يقع في هذه الفئة. وكان الزمن الجيولوجي يتحرك بخطوات شعرت تقريباً بأنها أبدية، وتقريباً إلهية. كان يتحرك بخطوات الحجر والجبال. ولم يكن الزمن الجيولوجي مستعجلاً، بل يتكتك في طريقه، كما قال بعض الباحثين، بشكل أطول مما خمن أي شخص حتى الآن.

Twitter: @ketab_n

لكن في مكان ما بين الزمن الجيولوجي والزمن البشري، افترضت ألما أن هناك شيئاً ما آخر هو الزمن الطحلبي. بالمقارنة مع الزمن الجيولوجي، الزمن الطحلبي سريع بشكل يسبب العمى، ذلك أن الطحالب يمكن أن تحقق تقدماً في ثلاثة آلاف عام لا يستطيع الحجر أن يحلم بتحقيقه في مليون. لكن بالمقارنة مع الزمن البشري، الزمن الطحلبي بطيء. وبالنسبة للعين البشرية غير المدربة، لم يبد أن الطحالب تتحرك مطلقاً. لكن معظم الطحالب تتحرك، وبنتائج فائقة للعادة. لا يبدو أن شيئاً يحدث لكن بعد عقد أو ما يقارب ذلك، سيتغير كل شيء. إن الطحالب تتحرك ببطء فحسب بحيث أن معظم البشرية لا تستطيع رصد ذلك.

لكن ألما استطاعت رصد ذلك. كانت ترصده. قبل وقت طويل من ١٨٤٨، كانت قد دربت نفسها على رصد عالمها، قدر الإمكان، عبر ساعة زمن الطحالب الطويل. وضعت ألما رايات صغيرة ملونة في الصخور، على حواف نتوئها الصخري من حجر الكلس كي تعلّم تقدم كل مستعمرة طحالب مفردة، وراقبت هذه الدراما المطولة طيلة ست وعشرين سنة. أي أنواع من الطحالب تقدمت على اللوح الصخري، وأي أنواع تراجعت؟ كم من الوقت ستستغرق؟ راقبت هذه المستوطنات بطيئة الحركة والتي لا تُسمع والعظيمة من الأخضر وهي تتمدد وتتقلص. قاست تقدمها بأطوال الظفر وبأنصاف عقود.

وفيما كانت ألما تدرس الزمن الطحلبي حاولت ألا تقلق حيال حياتها الفانية. كانت هي نفسها واقعة في الأسر داخل حدود الزمن البشري، ولكن ما من شيء يمكن فعله حيال ذلك. سيكون عليها فقط أن تستغل على نحو أفضل الوجود القصير الذي مُنح لها كذبابة أيار/ مايو. كانت قد بلغت الثامنة والأربعين من عمرها. إن أربعة وثمانين عاماً

Twitter: @ketab_n

لا شيء بالنسبة لمستعمرة طحالب، لكنها أعوام كثيرة بالنسبة لامرأة. فقد توقفت دورات طمثها مؤخراً، وشاب شعرها. واعتقدت لو أنها محظوظة سُيسمح لها بعشرين أو ثلاثين سنة أخرى تعيش وتدرس فيها، ٤٠ سنة أخرى في الحد الأعلى. كان هذا أفضل ما يمكن أن تتمناه، وتمنته كل يوم. كان لديها الكثير كي تتعلمه، ولم يكن لديها الوقت الكافي كي تتعلم فيه.

لو كانت الطحالب تعرف أن ألما ويتاكر سترحل بهذه السرعة، كما اعتقدت غالباً، لربما شعرت بالأسف عليها.

* * *

تواصلت الحياة في وايت إيكر كالعادة. لم يتوسع عمل آل ويتاكر النباتي لسنوات، لكنه لم يتقلص أيضاً؛ استقرّ، كما بوسع المرء أن يقول، في آلية ثابتة من العائدات المربحة. فالبيوت الزجاجية ما تزال الأفضل في أميركا، وهناك الآن أكثر من ستة آلاف نوع مختلف من النباتات في الملكية. كان هناك حالياً هوس في أميركا بالسرخس والنخيل («هوس» كما سماه الصحفيون الصفيقون) وكان هنري يحصد فائدة تلك البدعة، يزرع ويبيع كل تلك الأوراق. وكان هناك الكثير من النقود التي تُجنى أيضاً من الطواحين والمزارع التي يملكها هنري، وباع مساحة جيدة من أراضيه لشركات السكك الحديدية في السنوات القليلة الماضية مما حقق له أرباحاً جيدة. وكان مهتماً بتجارة المطاط المزدهرة، وقد استخدم مؤخراً صلاته في البرازيل وبوليفيا كي يبدأ الاستثمار في ذلك العمل الجديد غير المستقر.

وهكذا فإن هنري ويتاكر كان ما يزال حياً، وربما على نحو إعجازي. ذلك أن صحته لم تتدهور كثيراً في سن الثامنة والثمانين، مما كان مثيراً للإعجاب، واضعين بالاعتبار صحته المتدهوره وشكواه

Twitter: @ketab_n

الدائمة. سببت له عيناه الإزعاج، لكن بعدسات مكبرة ومصباح جيد استطاع مواصلة أعماله الورقية. وبعصا قوية وفي بعد ظهر جاف، ما يزال يستطيع التجول في أملاكه، مرتدياً، كما دائماً، كمثل لورد عزبة من القرن الثامن عشر.

وواصل ديك يانسي ـ التمساح المدرب ـ إدارة مصالح شركة ويتاكر الدولية بتمكن، مستورداً نباتات طبية جديدة ومربحة مثل السيماروبا (شجرة الصابون)والتشوندرودندرون، وأنواعاً أخرى كثيرة. أما جيمس جاريك، شريك هنري القديم في العمل، الذي من الكويكرز، فقد توفي، لكن ابن جيمس جون تولى الصيدلية، وكانت أنواع جاريك وويتاكر النباتية ما تزال تُباع بكثرة في فيلادلفيا وخارجها. وتلقت هيمنة هنري على تجارة لحاء الكينا الدولية ضربة من المنافسة الفرنسية، لكنه كان يقوم بتجارة جيدة في أمكنة أقرب إلى الوطن. كان قد أطلق مؤخراً منتجاً جديداً، حبوب ويتاكر وجاريك القوية، وهي خليط من لحاء اليسوعيين وصمغ شجر المر وزيت شجر الساسّافراس والماء المقطّر، والتي أُعلن أنها تعالج جميع الأمراض من حمى الملاريا إلى الطفح الجلدي المتقيح إلى توعك النساء. وحقّق المنتج نجاحاً هائلاً. ولم يكن من المكلف صناعة الحبوب وأمّنت ربحاً ثابتاً، وخاصة أوقات الصيف، حين انتشر المرض والحمى في أنحاء المدينة وعاشت جميع العائلات، الميسورة والفقيرة، في خوف من الوباء. وكانت الأمهات يجرّبْن الحبوب من أجل أي شيء يصيب أطفالهنّ.

اتسعت المدينة حول وايت إيكر. وقد عجّت الحارات الآن بالحركة حيث لم يكن هناك سوى المزارع الهادئة فحسب. كان هناك باصات عمومية وقنوات وخطوط سكك حديدية وطرق سريعة معبدة وطرق رئيسية وسفن بخارية. وتضاعف عدد سكان الولايات المتحدة منذ أن وصلت عائلة ويتاكر في ١٧٩٢، وتتباهى رايتها الآن بثلاثين نجمة.

Twitter: @ketab_n

وكانت القطارات المنطلقة في جميع الاتجاهات تبصق رماداً حاراً وشرراً. وخاف الكهنة والأخلاقيون من أن اهتزازات وتزاحم سفر سريع كهذا سيسبب لدى النساء ضعيفات الذهن نوبات جنسية. وكتب الشعراء أناشيد للطبيعة، حتى فيما كانت الطبيعة تتلاشى أمام أعينهم. وكان هناك دزينة من أصحاب الملايين في فيلادلفيا، حيث مرة لم يكن هناك سوى هنري ويتاكر. كان كل هذا جديداً. لكن كانت ما تزال أمراض الكوليرا والحمى الصفراء والخناق (الدفتريا) والالتهاب الرئوي والموت موجودة. كان كل هذا قديماً. هكذا، بقي العمل الصيدلي قوياً.

بعد وفاة بياتريكس، لم يتزوج هنري ثانية، ولم يبد أي اهتمام بالزواج. لم يكن بحاجة إلى زوجة؛ كانت لديه ألما. كانت ألما جيدة مع هنري، وأحياناً، مرة في العام، كان يمدحها من أجل ذلك. كانت قد تعلمت كيف تُنظم على نحو أفضل وجودها الخاص في ظل نزوات ومطالب والدها. وفي معظم الأحيان استمتعت برفقته (لم تستطع مقاومة ولعها به) رغم أنها كانت تعي أن كل ساعة تمضيها معه هي ساعة ضائعة بالنسبة لدراسة الطحالب. منحت هنري أوقات بعد الظهر والمساء، لكنها حافظت على الأوقات الصباحية من أجل عملها الخاص. كان قد أصبح أكثر بطئاً في النهوض مع تقدمه في السن، وهكذا فإن جدول الأعمال هذا عَمِلَ جيّداً. كان أحياناً يتمنى قدوم ضيوف للعشاء، لكن الآن بشكل أقل انتظاماً. يمكن أن يأتي ضيوف أربع مرات في السنة في هذه الأيام بدلاً من أربع مرات في الأسبوع.

ظل هنري نزوياً وصعباً. وكانت هانيكي دي غروت، التي لا تهرم على ما يبدو، توقظ ألما في الليل، وتقول لها: «والدك يريدك يا طفلتي». حينئذ تستيقظ ألما، تلبس رداء سميكاً، وتذهب إلى مكتب والدها، حيث ترى هنري مصاباً بالأرق ومستاء، يبحث عبر بحيرة من الأوراق، طالباً جرعة من الجن ولعبة طاولة ودية في الثالثة صباحاً.

Twitter: @ketab_n

كانت ألما تؤدي له هذا الجميل دون شكوى عارفة أن هنري سيكون متعباً أكثر فقط في اليوم التالي مما سيمنحها المزيد من الساعات من أجل عملها.

«هل سبق وأخبرتك عن سايلون؟» كان يسألها، وتتركه يتحدث مع نفسه إلى أن ينام. أحياناً تنام هي أيضاً على صوت قصصه القديمة. يبزغ الفجر على العجوز وابنته ذات الشعر الشائب، وكلاهما منهار على كرسيه، وثمة لعبة طاولة غير منتهية بينهما. تنهض ألما وترتب الغرفة. تنادي هانيكي وكبير الخدم كي يأخذا والدها إلى فراشه. ثم تزدرد طعام فطورها وتسير إما إلى مكتبها في منزل العربات أو إلى موقع الجلاميد الصخرية التي عليها طحالب، حيث تستطيع أن تركز انتباهها مرة أخرى على أعمالها الخاصة.

هكذا تواصلت الأمور لأكثر من عقدين ونصف. وهذا ما ظنت أن الأمور ستكون عليه دائماً. كانت حياة هادئة لكنها لم تكن غير سعيدة لألما ويتاكر.

لم تكن غير سعيدة إطلاقاً.

* * *

كان هناك آخرون لم يكونوا محظوظين هكذا.

فصديق ألما القديم جورج هوكس، مثلاً، لم يعثر على السعادة في زواجه من ريتا سنو. ولم تكن ريتا سعيدة أيضاً. لكن معرفه هذا الأمر لم تمنح ألما عزاء أو متعة. كان يمكن أن تغتبط امرأة أخرى من هذه المعلومات، كنوع من الانتقام الأسود من أجل قلبها المحطم، لكن ألما لم تكن من النوع الذي يحصل على المتعة من معاناة شخص آخر. فضلاً عن ذلك، رغم أن الزواج آلمها كثيراً في إحدى المرات، فإن ألما لم تعد تحب جورج هوكس. فقد خمدت تلك النار منذ سنين طويلة.

ولو أنها واصلت حبها له في هذه الظروف لكانت مغفلة بشكل لا يُقاس، وكانت قد لعبت سابقاً دور الحمقاء. على أي حال، شعرت ألما بالشفقة على جورج. كان شخصاً طيباً، وكان دوماً صديقاً جيداً لها، ولكن لم يحدث أن اختار رجل أبداً امرأة أسوأ من هذه.

ارتبك الناشر النباتي في البداية من عروسه الطائشة والزئبقية، لكن مع مرور الزمن صار مستاء بشكل علني أكبر. كان جورج وريتا يتناولان العشاء أحياناً في وايت إيكر أثناء السنوات الأولى من زواجهما، لكن ألما لاحظت أن جورج يعبس ويتوتر كلما تحدثت ريتا، كما لو أنه يمقت مسبقاً كل ما ستقوله. في النهاية توقف عن الكلام وهو جالس إلى مائدة العشاء، آملاً تقريباً، كما بدا، أن تتوقف زوجته عن الكلام أيضاً. إذا كانت هذه رغبته، فإنها لم تعمل. ريتا، بدورها، صارت عصبية على نحو متزايد في حضور زوجها الهادئ، مما جعلها تتحدث بشكل متوتر أكثر، والذي بدوره جعل زوجها صامتاً بشكل مصمم أكثر فحسب.

بعد بضع سنوات من هذا، طورت ريتا عادة أكثر خصوصية وجدت ألما أنه من المؤلم مراقبتها. كانت ريتا تلوح بأصابعها بشكل يائس أمام وجهها حين تتحدث، كما لو أنها تحاول الإمساك بالكلمات حين تخرج منها، كما لو أنها تحاول إيقاف الكلمات، أو تدفعها كي ترجعها. كانت ريتا أحياناً قادرة بالفعل على إجهاض جملة في وسط حالة تفكير جنونية أو أخرى، ثم تضغط أصابعها على شفتيها كي تمنع المزيد من الكلام من الخروج. لكن كان من الأصعب أكثر مراقبة هذا الانتصار، لأن تلك الجملة الأخيرة، غير المنتهية، والغريبة ستعلق بشكل غير مريح في الجو، فيما ريتا، مجروحة، تنظر إلى زوجها الصامت، وعيناها وحشيتان من الاعتذار.

بعد ما يكفي من الأداءات المزعجة، توقف السيد والسيدة هوكس

عن المجيء إلى العشاء. وكانت ألما تشاهدهما فقط في منزلهما، حين تأتي إلى شارع آرش كي تناقش تفاصيل النشر مع جورج.

لم تناسب الحياة الزوجية السيدة ريتا سنو هوكس كما تبين. فهي لم تكن مخلوقة من أجل ذلك. وفي الحقيقة، إن سن البلوغ في ذاته لم يناسبها. كان هناك الكثير من القيود المتضمنة في هذه العادة، والكثير من الجدية المتوقعة. ولم تعد ريتا فتاة سخيفة تستطيع الذهاب للتجول في أنحاء المدينة بحرية في عربتها الصغيرة ذات الدولابين. فهي الآن زوجة أحد ناشري فيلادلفيا المحترمين، ومن المتوقع أن تتصرف بشكل ينسجم مع هذا. لم يعد من المحترم بالنسبة لريتا أن تُشَاهد في المسرح لوحدها. حسناً، لم يكن هذا محترماً أبداً، لكن لم يمنعه أحد في الماضي. لكن جورج منع ذلك. لم يكن يستمتع بالمسرح. طلب جورج أيضاً من زوجته أن تحضر صلوات الكنيسة عدة مرات في الأسبوع، حيث كانت ريتا تتلوى كالطفل من الضجر. لم يعد بوسعها أن تلبس بشكل مبهج بعد زواجها، أيضاً، أو تنفجر في أغنية، لكنها أحياناً فعلت ذلك غير أن هذا لم يبد صحيحاً، وأغضب زوجها فحسب.

بالنسبة للأمومة، لم تكن ريتا قادرة على تولي تلك المسؤولية أيضاً. فبعد عام من الزواج حدث حمل في منزل هوكس لكنه انتهى بالإجهاض. في العام التالي، حصل حمل آخر غير ناجح، وفي العام الذي تلاه حمل آخر. بعد أن فقدت طفلها الخامس، انزوت ريتا في غرفتها في حالة من اليأس الجنوني. كان بوسع الجيران سماعها وهي تبكي، كما قيل، من عدة بيوت بعيدة. ولم يكن المسكين جورج هوكس يمتلك فكرة عما يفعله بامرأة يائسة، ولم يكن قادراً على العمل لعدة أيام متتالية بسبب الخبل الذي حل بزوجته. أرسل في النهاية رسالة إلى وايت إيكر، متوسلاً إلى ألما كي تأتي إلى آرش ستريت وتجلس مع صديقتها القديمة، والتي كان لا ينفع معها أي عزاء.

Twitter: @ketab_n

في الوقت الذي وصلت فيه ألما، كانت ريتا نائمة، وإبهامها في فمها وشعرها الجميل متناثر على المخدة كأغصان سوداء عارية إزاء سماء شتائية شاحبة. شرح جورج أن الصيدلية أرسلت القليل من مستحضر اللودنوم الأفيوني، وبدا كأن هذا يعمل.

حذرت ألما: «صلِّ يا جورج، حاول ألا تجعل من هذا عادة، لريتا بنية حساسة بشكل غير اعتيادي، والكثير من اللودنوم يمكن أن يؤذيها. أعرف أنها حمقاء أحياناً، وحتى مأساوية. لكن ريتا كما أفهمها تتطلب الصبر والحب كي تعثر على طريق عودتها إلى السعادة. ربما إذا منحتها المزيد من الوقت..».

قال جورج: «أعتذر من مضايقتك».

قالت ألما: «ما من مشكلة أبداً. أنا دوماً تحت تصرفك، وتحت تصرف ريتا أيضاً».

أرادت ألما أن تقول المزيد، لكن ماذا؟ شعرت أنها تحدثت بحرية كبيرة، أو ربما انتقدته كزوج. المسكين. كان منهكاً.

«إن الصداقة موجودة، يا جورج»، قالت، ووضعت يدها على ذراعه. «استخدمْها. بوسعك أن تستدعيني في أي وقت».

حسناً، فعل هذا. استدعى ألما في ١٨٢٦ حين قصت ريتا شعرها كله. استدعى ألما في ١٨٣٥ حين اختفت ريتا لثلاثة أيام، وعُثر عليها في النهاية في فشتاون، نائمة بين كومة من أطفال الشارع. استدعاها في ١٨٤٢ حين ركضت ألما وراء خادمة حاملة مقصاً زاعمة أن المرأة شبح. لم تعان الخادمة من جراح خطيرة، لكن الآن لن يأخذ أحد لريتا فطورها. استدعاها في ١٨٤٦حين بدأت ريتا بكتابة رسائل طويلة غير قابلة للفهم، مؤلفة بالدموع أكثر من الحبر.

Twitter: @ketab_n

لم يعرف جورج كيف يتعامل مع هذه المشاهد والتشوشات. كان كل هذا إلهاء مقيتاً عن عمله ولذهنه. كان ينشر أكثر من خمسين كتاباً في العام الآن، مع مجموعة من المجلات العلمية ومجلة جديدة مرتفعة الثمن يُحصل عليها عن طريق الاشتراك فقط، «كتاب النباتات الغرائبية»، (وهي فصلية، ومزودة بالرسوم والصور الملونة يدوياً من النوعية الأفضل). تطلبت جميع المساعي انتباهه الكلي. ولم يكن لديه الوقت لزوجة تنهار.

لم تكن ألما تملك وقتاً لهذا أيضاً، لكنها واصلت المجيء. أحياناً ـ أثناء حوادث سيئة بشكل خاص ـ كانت تمضي الليل مع ريتا، وتنام في سرير هوكس الزوجي، وذراعاها حول صديقتها المرتجفة، بينما كان جورج ينام على سرير في حانوت الطباعة المجاور. كونت انطباعاً أنه ينام هناك دوماً في هذه الأيام.

كانت ريتا تسأل ألما في منتصف الليل: «هل ستظلين تحبينني حتى لو صرت الشيطان نفسه؟».

«سأظل أحبك»، طمأنت ألما صديقتها الوحيدة. «ولا يمكن أن تكوني الشيطان أبداً، يا ريتا. يجب أن تستريحي فحسب، وأن لا تزعجي نفسك والآخرين بعد الآن..».

في الصباحات التي تلت هذه الحوادث، تناول ثلاثتهم الفطور في غرفة الطعام في بيت هوكس. لم يكن هذا مريحاً أبداً. لم يكن جورج محادثاً لطيفاً في أفضل الظروف، وريتا ـ بحسب كمية اللودنوم التي أعطيت لها في الليلة السابقة ـ ستكون إما متشنجة أو مخدرة. صارت فواصل وضوح الفكر أكثر ندرة. وكانت ريتا تمضغ خرقة أحياناً، ولا تسمح لأحد بأخذها منها. ستبحث ألما عن موضوع للحديث يناسبهم ثلاثتهم، لكنها لم تفلح. لم يسبق أن وُجد موضوع كهذا. كان بوسعها التحدث مع ريتا عن موضوعات سخيفة، أو التحدث مع جورج عن

Twitter: @ketab_n

علم النبات، لكنها لم تستطع أن تجد طريقة أبداً كي تتحدث إليهما كليهما.

* * *

استدعى جورج هوكس ألما في نيسان/إبريل من ١٨٤٨. كانت تعمل إلى طاولتها، تفكر بحماس بلغز نبتة الديكرانوم كونسوربرينوم التي أرسلها إليها حديثاً جامع هاو من مينيسوتا، حين وصل فتى صغير ونحيل على ظهر حصان، حاملاً رسالة ملحة: يُرجى حضور الآنسة ويتاكر الفوري إلى منزل هوكس في شارع آرش. لقد حصل حادث.

«أي نوع من الحوادث؟»، سألت ألما، تاركة عملها مذعورة.

«شبّ حريق!»، قال الفتى. لم يكن من السهل عليه كبح طربه. فالأولاد دائماً يحبون الحرائق.

«يا للسماء! هل تأذى أحد؟».

قال الفتى وقد بانت عليه خيبة الأمل: «كلا يا سيدتي!».

علمت ألما حالاً أن ريتا أشعلت النار في غرفة نومها. ولسبب ما، قررت أنها يجب أن تحرق أغطية سريرها والستائر. ولحسن الحظ، كان الجو رطباً فلم تشتعل الستائر بل صدر عنها دخان كثيف فقط. صدر دخان أكثر مما صدر لهب، وكان الأذى الذي لحق بغرفة النوم واضحاً، لكن الأذى الذي لحق بمعنويات البيت أكثر حدة. استقالت خادمتان أخريان. لا يمكن توقع أن يعيش أحد في هذا المنزل. لا أحد يستطيع تحمل هذه السيدة المجنونة.

حين وصلت ألما، كان جورج شاحباً ومغلوباً على أمره. خُدِّرتْ ريتا ونامت بعمق على الفراش. فاحت من المنزل رائحة حريق دغل بعد المطر.

«ألما»، قال جورج مندفعاً إليها. أمسك يدها بيده. كان قد فعل هذا

Twitter: @ketab_n

مرة واحدة فقط من قبل، منذ أكثر من ثلاثة عقود. كان الأمر مختلفاً هذه المرة. شعرت ألما بالخجل حتى من تذكر المرة الأخيرة. كانت عيناها واسعتين من الذعر. «ليس بوسعها البقاء هنا بعد الآن».

«إنها زوجتك، يا جورج».

«أعرف ذلك! أعرف ما هي. لكن ليس بوسعها البقاء هنا يا ألما، فهي ليست بأمان، ولا أحد آمن هنا حولها. كان يمكن أن تقتلنا جميعاً، وتحرق حانوت الطباعة، أيضاً. يجب أن تعثري على مكان لها تمكث فيه».

«مستشفى؟»، سألت ألما. «لكن ريتا ذهبت إلى المستشفى عدة مرات، حيث تبين أن لا أحد يستطيع أن يفعل لها شيئاً. كانت تعود من المستشفى أكثر اهتياجاً مما كانت عليه قبل دخولها إليه».

«كلا، يا ألما. إنها تحتاج إلى مكان دائم، منزل من نوع مختلف. تعرفين عمَّ أتحدث! لا أستطيع أن أبقيها هنا ليلة أخرى. يجب أن تعيش في مكان آخر. سامحيني على هذا. أنت تعرفين أكثر من أي شخص آخر، ومع ذلك لا تعرفين بشكل كامل ماذا أصبحت. لم أنم ليلة واحدة طيلة هذا الأسبوع. لا أحد في هذا المنزل ينام، خوفاً مما يمكن أن تفعله. تحتاج إلى شخصين معها في كل الأوقات، لضمان ألا تلحق الأذى بنفسها أو بآخر. لا تجبريني على قول المزيد! أعرف أنك تفهمين ما أطلبه. يجب أن تفعلي هذا لي».

دون تشكيك للحظة واحدة بلماذا يجب أن تكون هي التي يجب أن تفعل هذا له، فعلت ألما هذا. ببضع رسائل صاغتها جيداً، تمكنت بسرعة من تأمين دخول صديقتها إلى مصح غريفون للأمراض العقلية في ترينتون، نيوجيرسي. شُيِّدَ البناء منذ عام، وكان الدكتور فكتور غريفون، وهو شخصية محترمة من فيلادلفيا، ضيفاً على العشاء في وايت إيكر في

Twitter: @ketab_n

إحدى المرات. وقد صمم البناء بنفسه، من أجل الصفاء الأمثل للذهن المضطرب. وكان أبرز مدافع أميركي عن الرعاية الأخلاقية للمضطربين عقلياً، وقيل إن طرقه إنسانية تماماً. لم يُقيّد مرضاه أبداً بالسلاسل إلى الجدران، مثلاً، كما قُيِّدتْ ريتا مرة في مستشفى فيلادلفيا. وقيل إن المصح مكان هادئ وجميل، بحدائق رائعة وأسوار مرتفعة. كان جيداً كما قال الناس، لكنه مكلف، كما عرفت ألما حين دفعت مقدماً للسنة الأولى من إقامة ريتا. لم تكن ترغب بإزعاج جورج بالفاتورة، وكان والدا ريتا قد توفيا منذ فترة طويلة ولم يتركا خلفهما سوى الديون.

كان القيام بهذه الترتيبات عملاً محزناً لألما، لكن الجميع وافقوا أنه كان من أجل الأفضل. ستحصل ريتا على غرفتها الخاصة في غريفون، بحيث لا يمكن أن تؤذي مريضاً آخر، وسيكون لديها أيضاً ممرضة معها في جميع الأوقات. سببت معرفة ذلك الارتياح لألما. فضلاً عن ذلك، كانت العلاجات في المصح حديثة وعلمية.سيُعالج جنون ريتا بالماء، بلوح دوّار نابذ، وبتوجيه أخلاقي لطيف. لن تكون النار أو المقصات في متناول يدها. وقد طمأن ألما وأكد لها هذه الحقيقة الأخيرة الدكتور غريفون نفسه، الذي شخص ريتا من قبل بأنها مصابة بمرض يُدعى اعتلال الجهاز العصبي المركزي.

وهكذا قامت ألما بالترتيبات كلها. وكان المطلوب من جورج أن يوقع فقط على وثيقة الجنون ويرافق زوجته، مع ألما، إلى ترينتون. ذهب ثلاثتهم في عربة خاصة، لأنه لا تمكن الثقة بريتا في القطار. أحضروا معهم حزاماً في حال الحاجة إلى تقييدها، لكن ريتا سافرت بخفة ودندنت أغنيات قصيرة.

حين وصلوا إلى المصح، سار جورج بخفة أمامهما في المرج نحو

Twitter: @ketab_n

المدخل الأمامي، وريتا وألما تتبعانه، متشابكتي الذراعين، كما لو أنهما تستمتعان بالنزهة.

قالت ريتا مبدية إعجابها بالبناء الآجري الجميل: «يا له من منزل رائع!».

قالت ألما باندفاعة ارتياح: «أوافقك الرأي. أنا سعيدة أنك أحببتيه، يا ريتا، لأن هذا هو المكان الذي ستعيشين فيه الآن». لم يكن واضحاً إن فهمت ريتا ما يحدث، لكنها لم تبد مهتاجة.

تابعت ريتا: «هذه حدائق جميلة!».

قالت ألما: «صحيح».

«لا أتحمل رؤية الأزهار تُقطف».

«سخف أن تقولي هذا يا ريتا! لا أحد يحب قطف باقة من الأزهار أكثر منك!».

أجابت ريتا بهدوء: «لقد عوقبت من أجل معظم الإهانات التي لا يمكن التعبير عنها».

«لم تُعاقبي أيها الطائر الصغير».

«أنا مرعوبة من الله أكثر من أي شيء آخر».

«لا يشكو الله منك يا ريتا».

«إنني مصابة بالأمراض الأكثر غموضاً في صدري. أشعر أحياناً وكأن قلبي سيُسْحَق. ليس في هذه اللحظة، كما ترين، ولكن سيحدث هذا بسرعة».

«ستلتقين بأصدقاء هنا يستطيعون مساعدتك».

Twitter: @ketab_n

قالت ريتا بنفس النبرة المسترخية: «كنت أذهب في شبابي في نزهات خطيرة مع الرجال. هل عرفت هذا عني يا ألما؟».

«اسكتي، يا ريتا».

«لا حاجة لإسكاتي. جورج يعرف هذا. قلت له مرات كثيرة. سمحت لأولئك الرجال أن يتعاملوا معي كيفما أرادوا، وسمحت لنفسي بأن آخذ النقود منهم، رغم أنني لم أحتج إلى النقود أبداً كما تعرفين».

«اسكتي يا ريتا، أنت لا تتحدثين بشكل عقلاني».

«هل حدث ورغبت بالذهاب في نزهات خطيرة مع الرجال؟ أعني حين كنت شابة؟».

«من فضلك، يا ريتا..».

«إن النساء في غرفة صناعة الزبدة في وايت إيكر يفعلن ذلك أيضاً. علّمنني كيف أفعل الأشياء مع الرجال، وقالوا لي كم آخذ من النقود مقابل خدماتي. اشتريت لنفسي قفازاً وشريطة بالنقود. اشتريت مرة حتى شريطة لك!».

أبطأت ألما من سيرها، آملة آلا يسمع جورج حديثهما. لكنها عرفت أنه سمع كل شيء. «أنت منهكة جداً يا ريتا. يجب أن تتوقفي عن الكلام..».

«لكن ألم يحدث يا ألما؟ ألم تتمني القيام بأفعال خطيرة؟ هل سبق وشعرت بجوع شرير داخل الجسد؟» أمسكت ريتا ذراعها وحدقت إلى صديقتها بشكل مثير للشفقة، مفتشة وجه أ لما. ثم تراجعت مرة أخرى، استقالت. «كلا، بالطبع لم تفعلي. لأنك جيدة، وبرودنس أيضاً جيدة. بينما أنا الشيطان نفسه».

شعرت ألما أن قلبها سيتحطم. نظرت إلى الكتفين العريضين

المحدبين لجورج هوكس وهو يسير أمامهما. شعرتْ أن الخجل غمرها. ألم ترغب بالقيام بأفعال خطيرة مع الرجال؟ آه لو كانت ريتا تعرف فحسب! لو كان أي أحد يعرف! كانت ألما عانساً يبلغ عمرها ثماني وأربعين سنة برحم جاف، ومع ذلك ما تزال تذهب إلى حجرة التجليد عدة مرات في الشهر، مرات كثيرة في الشهر! فضلاً عن ذلك، ما تزال كل النصوص غير الشرعية لفترة شبابها - «بحبة ملح» وغيره - تنبض في ذاكرتها. كانت تخرج تلك الكتب أحياناً من الصندوق المخبأ في علية تخزين التبن في منزل العربات وتقرأها ثانية. ما الذي لم تعرفه ألما عن حالات الجوع الشريرة؟

شعرت ألما أنه مناف للأخلاق ألا تقول أي شيء عن التطمين أو التحالف لهذه الكائنة الصغيرة المحطّمة. كيف يمكن لألما أن تجعل ريتا تصدق أنها الفتاة الشريرة الوحيدة في العالم؟ لكن جورج هوكس موجود، يسير على بعد بضعة أقدام أمامهما، وأكيد أنه يستطيع سماع كل شيء. وهكذا لم تقدم ألما عزاء أو مواساة لها. كان كل ما قالته هو هذا: «حالما تستقرين في منزلك الجديد هنا، يا عزيزتي الصغيرة ريتا، ستكونين قادرة على السير في هذه الحدائق كل يوم. حينئذ ستشعرين بالطمأنينة».

* * *

في رحلة العودة في العربة إلى المنزل صمت جورج وألما معظم الوقت.

قالت ألما أخيراً: «سيُعتنى بها جيداً. أكد لي الدكتور غريفن هذا بنفسه».

Twitter: @ketab_n

قال جورج، محاولاً الجواب: «لقد وُلد كلٌ منا في المشاكل. إنه لقدر حزين أن يأتي المرء إلى العالم في النهاية».

قالت ألما، مندهشة من عنف كلماته: «يمكن أن يكون هذا صحيحاً، لكن يجب أن نعثر على الصبر والعزلة كي نتحمل التحديات التي تواجهنا».

قال جورج: «نعم، لقد عُلّمنا هذا. هل تعرفين يا ألما أنه مرت أوقات تمنيت فيها أن تعثر ريتا على الراحة في الموت، بدلاً من أن تعاني من هذا العذاب المتواصل، أو تسبب الألم لي وللآخرين؟».

لم تعرف ماذا تقول. حدق بها، ووجهه ملتوٍ من العبوس والألم. بعد بضع لحظات، قالت هذه الجملة: «حيث يوجد حياة يا جورج يوجد أمل أيضاً. إن الموت ينهينا بشكل مريع. يأتي بالسرعة الكافية إلينا جميعاً. سأتردد في تمني قدومه بسرعة إلى أي شخص».

أغمض جورج عينيه ولم يجب. لم يكن هذا رداً مطمئناً.

قالت ألما بنبرة أخف: «سأحاول المجيء إلى ترينتون كي أزور ريتا مرة كل شهر. يمكنك أن تنضم إليّ إذا رغبت بذلك. سآخذ لها نسخاً من مجلة «جويز ليديز بوك». ستحب هذا».

لم يتحدث جورج طيلة الساعتين التاليتين. لوهلة، بدا كأنه يدخل في النوم ويخرج منه. حين اقتربا من فيلادلفيا فتح عينيه. لم يبد سعيداً كأي شخص سبق أن رأته ألما. قررت ألما، التي مال قلبها إلى الرجل، أن تغير الموضوع. فقد أعار جورج لألما قبل بضعة أسابيع كتاباً جديداً، نُشر مؤخراً في لندن، حول موضوع السمندلات (العظاءات الخرافية). ربما سيرفع ذكر هذا من معنوياته. وهكذا شكرته لأنه أعارها الكتاب، وتحدثت عن الكتاب ببعض التفصيل فيما كانت العربة تنطلق ببطء نحو

المدينة، مختتمة أخيراً: «وجدته كتاباً جيداً على المستوى الفكري وتحليله صحيح، رغم أنه مصفوف بشكل كريه وإخراجه في غاية السوء، ألا يعمل محررون لدى هؤلاء الأشخاص في لندن يا جورج؟».

رفع جورج بصره عن قدميه وقال، بشكل مفاجئ: «سبب زوج أختك المشاكل مؤخراً».

كان من الواضح أنه لم يسمع أية كلمة من كلماتها. علاوة على ذلك، فاجأ تغيير الموضوع ألما. فجورج ليس ثرثاراً، وبدا لها غريباً أن يشير إلى زوج برودنس. ربما كان مضطرباً جداً من حوادث اليوم بحيث لم يكن تماماً نفسه. لم ترغب بأن تجعله يشعر بأنه غير مرتاح، وهكذا تولت المحادثة، كما لو أنها هي وجورج تناقشان دوماً هذه المسائل.

سألت: «ما الذي فعله؟».

قال جورج بضجر: «نشر آرثر ديكسون نشرة طائشة، وكان أحمق بما يكفي كي يضع اسمه عليها، معبراً عن رأيه بأن حكومة الولايات المتحدة الأميركية غير أخلاقية بسبب استعبادها المتواصل للبشر».

لم يكن هناك شيء صادم في الأنباء، فقد كانت برودنس وآرثر ديكسون منادين ملتزمين بإلغاء العبودية لسنوات كثيرة. وكانا معروفين جيداً في كل أنحاء فيلادلفيا بسبب وجهات نظرهما المضادة للاسترقاق التي مالت إلى الراديكالية. وكانت برودنس في ساعات فراغها تعلّم السود الأحرار القراءة في مدرسة بروتستانتية محلية. وكانت تعتني أيضاً بالأطفال في ميتم الأيتام الملونين، وكانت غالباً ما تتحدث في اجتماعات جمعيات إلغاء العبودية النسائية. وكان آرثر ديكسون ينتج النشرات بصورة متكررة، ودون توقف، ويخدم في مجلس إدارة صحيفة ليبريتور. وبصراحة، استاء كثير من سكان فيلادلفيا من ديكسون

Twitter: @ketab_n

وزوجته، بسبب نشراتهما ومقالاتهما وخطبهما. (قال هنري دوماً عن صهره: «بالنسبة لرجل يتصور نفسه مثيراً للشغب إن آرثر ديكسون مضجر بشكل كريه»).

سألت ألما جورج هوكس: «ولكن ما المسألة؟ نعرف جميعاً أن أختي وزوجها ناشطان في هذه القضايا».

«ذهب الأستاذ ديكسون إلى أبعد هذه المرة، يا ألما. فهو لا يتمنى أن تُلغى العبودية فوراً فحسب، بل قال أيضاً إننا يجب ألا ندفع الضرائب أو نحترم القانون الأميركي إلى أن يحصل ذلك الحدث غير المستحب. يشجعنا على الخروج إلى الشوارع بالمشاعل وما شابه ذلك، كي نطالب بالتحرير الفوري لجميع السود».

«آرثر ديكسون؟» لم تستطع ألما أن تقاوم لفظ الاسم الكامل لأستاذها القديم البليد. «مشاعل؟ هذا لا يبدو كأنه هو».

«يمكن أن تقرأيها بنفسك وتشاهدي. كان الجميع يتحدثون عنها. يقولون إنه محظوظ لأنه ما يزال يحتفظ بمنصبه في الجامعة. يبدو أن أختك تحدثت من أجله».

تأملت ألما الأنباء. «هذا مخيف قليلاً». وافقت أخيراً.

«وُلد كلانا للمشاكل»، كرر جورج، حاكاً وجهه بيده في إعياء.

«مع ذلك، يجب أن نعثر على الصبر والعزلة.»، بدأت ألما ثانية بشكل ضعيف، لكن جورج قاطعها.

قال: «أختك المسكينة، وثمة أطفال صغار في منزلها بالإضافة إلى ذلك. من فضلك أعلميني يا ألما إن كان هناك شيء أستطيع فعله لمساعدة أسرتك. لقد كنتِ دوماً لطيفة معنا».

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر

أختها المسكينة؟

حسناً، ربما... لكن ألما غير متأكدة.

كانت برودنس ويتاكر ديكسون امرأة صعبة لا يستطيع المرء أن يشعر بالشفقة عليها، وبقيت، مع مرور الأعوام، امرأة من المستحيل فهمها بشكل كامل. فكرت ألما بهذه الحقائق في اليوم التالي، وهي تفحص مستعمراتها من الطحالب في وايت إيكر.

كان منزل ديكسون لغزاً! ثمة زواج آخر لم يبد سعيداً مطلقاً. مرَّ على زواج برودنس من أستاذها أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وأنجبا ستة أولاد، لكن ألما لم تر إشارة واحدة إلى الحب والمتعة أو الصلة بين الاثنين. ولم تسمع أيّاً منهما يضحك. ولم تشاهدهما يبتسمان. ولم تر أبداً ومضة غضب موجهة من أحدهما إلى الآخر. ولم تلاحظ عاطفة من أي نوع بينهما. ما هذا النوع من الزواج الذي يمضي فيه الناس أعواماً من البلادة المتواصلة؟

أثيرتْ دوماً أسئلة عن حياة أختها الزوجية، بدءاً من السر المتوقد الذي شغل كل ثرثاري فيلادلفيا منذ سنوات كثيرة، حين تزوج آرثر وبرودنس في البداية: ما الذي حدث للمهر؟ فقد وهب هنري ويتاكر لابنته مبلغاً كبيراً من المال بمناسبة زواجها، لكن ما من إشارة إلى أنه

Twitter: @ketab_n

صُرف بنس واحد منه. وعاش آرثر وبرودنس ديكسون فقيرين على راتبه الجامعي الصغير. لم يملكا المنزل، ولم يزوداه بتدفئة كافية! ولم يوافق آرثر على حالات الترف، فأبقى منزله بارداً ومفتقراً للدم كذاته الجافة. وأدار أسرته من خلال نموذج من التقشف والتواضع والمعرفة والصلاة، وأظهرت برودنس الطاعة لهذا النمط. منذ اليوم الأول لها كزوجة تخلت برودنس عن جميع أشكال الأناقة والبهرجة وصارت تلبس مثل الكويكرز ثياباً من الفانيلا والصوف والألوان الداكنة والقلنسوات الأكثر تواضعاً. ولم تتزيّن بحلية أو سلسال فيه ساعة، ولم تلبس ذرة من المخرمات.

لم تكن قيود برودنس مقتصرة على خزانة ملابسها. فقد صارت حميتها بسيطة ومقيدة كنمط لباسها أيضلَ، ولم تأكل إلا الخبز والذرة ودبس السكر، بحسب المعلومات المتوفرة. ولم تُشاهد أبداً وهي تحتسي كأساً من النبيذ، أو من الشاي أو الليموناضة. وحين وُلدَ أطفالها ربتهم برودنس بالطريقة البائسة نفسها. كانت إجاصة تُقطف من شجرة في الجوار تشكل هدية لأولادها وبناتها، الذين ربتهم كي يديروا وجوههم بعيداً عن المتع المغرية. وكانت برودنس تُلبس أطفالها كما تلبس هي: تلبسهم ثياباً متواضعة، مرقعة بشكل أنيق. بدا وكأنها تريد أن يبدو أطفالها فقراء. أو ربما كانوا فقراء بشكل حقيقي، رغم أنه لم يكن لديهم سبب كي يكونوا هكذا.

كان هنري يقول، واللعاب يتطاير من فمه، كلما جاءت برودنس إلى وايت إيكر مرتدية الأسمال: «ما الذي فعلته بكل فساتينها بحق الشيطان؟ هل حشت فرشاتها بها؟».

لكن ألما شاهدت فرشات برودنس، وكانت محشوة بالقش.

كانت الرياضة المفضلة لثرثاري فيلادلفيا هي تخمين ما فعلته

Twitter: @ketab_n

برودنس وزوجها بالمهر الذي حصلا عليه من وايت إيكر. هل كان آرثر ديكسون مقامراً؟ هل بدد الثروة على سباقات الخيول ومعارك الكلاب؟ هل لديه أسرة أخرى في مدينة أخرى، تعيش في ترف؟ أم هل يجلس الاثنان على كنز من الثروة التي لا تُقدر، يخفيانها خلف واجهة من الفقر؟

مع مرور الوقت، بزغ الجواب: ذهبت النقود كلها إلى قضايا إلغاء العبودية. فقد قدمت برودنس بصمت معظم مهرها لجمعية فيلادلفيا لإلغاء العبودية بعد وقت قصير من زواجها. واستخدم آل ديكسون النقود أيضاً لشراء عبيد وإعتاقهم، وكان هذا يكلف ألفاً وثلاثمائة دولار لكل شخص. ودفعا لنقل عدة عبيد آبقين وإيصالهم إلى بر الأمان في كندا. وموّلا نشر نشرات وأوراق دعائية محرّضة لا تُحصى. وموّلا جمعيات جدل سوداء، ساعدت في تدريب الزنوج كي يجادلوا من أجل قضيتهم.

كُشفت جميع هذه التفاصيل في ١٨٣٨، في قصة نشرتها صحيفة «إنكوايرر» عن عادات الحياة الخاصة لبرودنس ديكسون ويتاكر. فبعد أن حثّها حرق عصبة من الرعاع لقاعة اجتماع محلية لدعاة إنهاء الاسترقاق، بدأت الصحيفة بالبحث عن قصص مهمة ـ وحتى مسلية ـ عن الحركة المضادة للاسترقاق. وانتبه صحفي إلى برودنس ديكسون حين ذكر أحد دعاة إلغاء الاسترقاق البارزين الكرم الصامت لوريثة ويتاكر. فُتن الصحفي على الفور؛ لم يكن اسم ويتاكر قد رُبط حتى الآن في أنحاء فيلادلفيا بأفعال لا حدود لها من الكرم. فضلاً عن ذلك، بالطبع، كانت برودنس فاتنة الجمال ـ وهذه حقيقة تلفت الانتباه دوماً ـ وجعلها التغاير بين وجهها المميز ونمط حياتها البسيط موضوعاً أكثر سحراً. برسغيها البيضاوين الرشيقين وعنقها الجميل وفي تلك الملابس الكئيبة، كان لها مظهر إلهة في الأسر: أفروديت مسجونة في الدير. لم يكن الصحفي قادراً على مقاومتها.

Twitter: @ketab_n

ظهرت القصة على الصفحة الأولى للجريدة، مع بورتريه جميل للسيدة ديكسون. كانت معظم المقالة عن مسائل مألوفة عن معاداة الاسترقاق، لكن ما سحر خيال أهالي فيلادلفيا هو أن برودنس، التي نشأت في الصالونات الفخمة، قالت إنها لسنوات كثيرة حرمت نفسها وأسرتها من أي ترف أنتجته أيدي العبيد.

وأضافت في كلامها المُقتطَف: «قد يبدو بريئاً ارتداء القطن من نورث كارولاينا، لكن هذا ليس بريئاً، إذ هكذا يتغلغل الشرُّ إلى منزلنا. قد تبدو متعة بسيطة أن ندلّل أطفالنا بهدية من السكريات، لكن تلك المتعة تصبح خطيئة حين يكون من يزرع السكر كائنات بشرية رازحة في بؤس لا يُوصف. لهذا السبب نفسه، في منزلنا، لا نشرب القهوة أو الشاي. وأحث جميع الفيلادلفيين من أصحاب الأخلاق المسيحية الحميدة أن يفعلوا الشيء نفسه. إذا تحدثنا ضد العبودية، وواصلنا التمتع بمسروقاتها، لن نكون إلا منافقين، وكيف نستطيع التصديق بأن الله سيقبل نفاقنا؟».

في نهاية المقالة، واصلت برودنس: «أعيش أنا وزوجي جيراناً لعائلة من الزنوج المُحرّرين، تتألف من رجل جيد ومتواضع يدعى جون هارنغتون وزوجته سادي وأولادهم الثلاثة. إنهم فقيرون جداً لكنهم يكافحون. وهكذا حرصنا على ألا نعيش بشكل أغنى منهم. ونحرص على ألا يكون منزلنا أجمل من منزلهم. وغالباً ما يعمل آل هارنغتون إلى جانبنا في منزلنا كما نعمل في منزلهم. أقوم بتنظيف موقدي إلى جانب سادي هارنغتون. ويقطع زوجي الحطب مع جون هارنغتون. ويتعلم أولادي الأحرف والأرقام مع أبناء آل هارنغتون. ويتناولون العشاء معنا غالباً إلى طاولتنا الخاصة. نأكل الطعام نفسه الذي يأكلونه، ونلبس الثياب نفسها التي يلبسونها. وفي الشتاء، إذا لم يكن لدى آل هارنغتون

تدفئة، فإننا نمضي الوقت بلا تدفئة. إن ما يبقينا دافئين هو غياب العار لدينا، ومعرفتنا بأن يسوع كان سيفعل الشيء نفسه. وفي أيام الأحد نؤدي الصلوات نفسها التي يؤديها آل هارنغتون في كنيستهم الميثودية (البروتستانتية) الصغيرة الخاصة بالزنوج. لا يوجد في كنيستهم وسائل راحة، وهكذا لماذا يجب أن تتوفر هذه في كنيستنا؟ لا يملك أطفالهم أحياناً أحذية، فلماذا يجب أن يمتلكها أطفالنا؟».

هنا ذهبت برودنس بعيداً.

في الأيام التالية، غمرت الصحيفة ردود غاضبة على كلمات برودنس. جاءت بعض هذه الرسائل من أمهات مصدومات («إن ابنة هنري ويتاكر تبقي أولادها حفاة!»)، لكن معظمها جاء من رجال غاضبين («إذا كانت السيدة ديكسون تحب الأفارقة السود بقدر ما تزعم، فلتزوّج ابنتها البيضاء الصغيرة لأكثر أبناء جارها سواداً. أتلهف لرؤيتها تفعل هذا!»).

أما بالنسبة لألما فقد وجدت المقالة مزعجة. كان هناك شيء ما حيال طريقة برودنس في الحياة بدت، لعيني ألما، بشكل مثير للشبهة كالكبرياء أو حتى الغرور. لم يعن هذا أن برودنس تملك غرور البشر العاديين (ذلك أن ألما لم تشاهدها أبداً تنظر في مرآة)، لكن ألما شعرت أن بردونس مغرورة بطريقة أخرى، بطريقة أكثر مكراً، من خلال ذلك الإظهار المفرط للتقشف والتضحية.

انظري كم أحتاج إلى القليل فحسب، بدت برودنس كأنها تقول. *انظري كم أنا جيدة.*

فضلاً عن ذلك، لم تستطع ألما مقاومة التساؤل إن كان جيران برودنس السود، آل هارنغتون، ربما يرغبون بأن يأكلوا شيئاً ما غير خبز

Twitter: @ketab_n

الذرة ودبس السكر في إحدى الليالي، ولماذا لا يقوم آل ديكسون بشراء هذا لهم بدلاً من أن يجوّعوا أنفسهم في لفتة تضامن فارغة؟

سبب كشف الجريدة مشكلات. يمكن أن تكون فيلادلفيا مدينة حرة، لكن هذا لا يعني أن مواطنيها يحبون الاختلاط بين الزنوج الفقراء والسيدات البيضاوات الميسورات. في البداية، أُطلقت تهديدات وشُنت هجمات على آل هارنغتون، الذين تمت مضايقتهم وأجبروا على الانتقال. ثم رُشق آرثر ديكسون بروث الأحصنة وهو في طريقه إلى العمل في جامعة بنسلفانيا. رفضت الأمهات السماح لأبنائهن بأن يلعبن بعد الآن مع أبناء آل ديكسون. وواصلت قطع ملابس قطنية من ساوث كارولاينا الظهور على بوابة آل ديكسون الأمامية، وأكوام صغيرة من السكر على عتبة بيتهم: تحذيرات غريبة ومبتكرة، بالفعل. ثم في أحد الأيام في منتصف ١٨٣٨، تلقى هنري ويتاكر رسالة غير موقعة في البريد تقول: «من الأفضل أن تقفل فم ابنتك يا سيد ويتاكر وإلا ستُحرق مستودعاتك».

لم يستطع هنري تحمل هذا. كانت إهانة كافية أن ابنته بددت مهرها السخي، لكن ملكيته التجارية الآن معرضة للخطر. استدعى برودنس إلى وايت إيكر، حيث نوى أن يدخل إليها بعض التعقل.

حذرته ألما، قبل اللقاء: «كن لطيفاً معها يا والدي، من المحتمل أن برودنس مضطربة وقلقة. فقد أزعجتها كثيراً حوادث الأسابيع الأخيرة، وهي على الأرجح مهتمة بأمان أولادها أكثر من أمان مستودعاتك».

زمجر هنري: «أشك بذلك».

لكن برودنس لم تظهر خوفاً أو رعباً. دخلت إلى مكتب هنري كجان دارك، ووقفت أمام والدها بشجاعة. حاولت ألما أن تحيّيها بمودة لكن

برودنس لم تظهر أي اهتمام بالدعابات. ولا هنري. دخل في المحادثة بهجوم فوري: «انظري ما الذي فعلتيه! ألحقت العار بهذه الأسرة، والآن تتسببين بمجيء عصبة من الرعاع إلى عتبة باب والدك! أهذه هي المكافأة التي تقدمينها لي مقابل كل ما منحته لك؟».

قالت برودنس بهدوء: «اعذرني، لكني لا أرى رعاعاً».

«حسناً، سيأتون في الحال!» رمى هنري رسالة التهديد إلى برودنس، التي قرأتها دون ردود فعل. «أقول لك يا برودنس، لن أكون سعيداً بالقيام بعملي من صَدَفة محروقة لبناء مدمّر. ما الذين تعتقدين أنك تفعلينه بالقيام بهذه الألعاب؟ لماذا تعبرين عن نفسك في الصحف هكذا؟ لا كرامة في هذا. لو كانت بياتريكس حية لما وافقت على هذا».

قالت برودنس: «أنا فخورة أن كلماتي سُجلت. وبكل فخر سأردد هذه الكلمات مرة ثانية، أمام جميع الصحفيين في فيلادلفيا».

لم تكن برودنس تساعد في الموقف.

قال هنري بصوت يعكس غضباً متزايداً: «جئتِ إلى هنا لابسة الأسمال، جئت إلى هنا مفلسة رغم كرمي. جئت إلى هنا من سجون جحيم زوجك المفلسة، كي تكوني بائسة في حضورنا وكي تجعلينا كلنا بائسين. تحشرين نفسك حيث لا عمل لك، وتثيرين الهياج في قضية ستمزق هذه المدينة، وتدمر تجارتي معها! ولا يوجد سبب لذلك، بالإضافة إلى هذا! لا يوجد عبودية داخل كومونولث بنسلفانيا، يا برودنس! فلماذا تواصلين الجدل حول هذه النقطة؟ ليتخلص الجنوب من خطاياه بنفسه».

قالت برودنس: «أنا آسفة أنك لا تشاطرني معتقداتي يا أبي».

«لا يهمني بقدر ضرطة صانع حوافر أحصنة معتقداتك. لكنني أقسم لك، إذا لحق أي أذى بمستودعاتي ...».

Twitter: @ketab_n

قاطعته برودنس: «أنت رجل يتمتع بالنفوذ. إن صوتك يمكن أن يفيد هذه القضية، ويمكن أن تفعل نقودك الكثير من الخير لهذا العالم المذنب. أناشد الشاهد الذي داخل صدرك».

«طز على الشاهد الذي داخل صدري! إنك تجعلين الأمور أكثر بؤساً فحسب لكل تاجر في هذه المدينة!».

«ما الذي ستفعله بي إذاً يا أبي؟».

«سأجعلك تقفلين فمك يا فتاة وتعتنين بعائلتك».

«إن من يعانون هم عائلتي».

«اللعنة، أريحيني من مواعظك، ليسوا كذلك. إن من في هذه الغرفة هم عائلتك».

قالت برودنس: «ليس أكثر من الآخرين».

أوقف هذا هنري. وفي الحقيقة أوقفه عن التنفس. حتى ألما شعرت بتأثير ذلك. جعل التعليق عينيها تؤلمانها بشكل غير متوقع كما لو أنها ضُربت لتوها بعنف على أنفها.

سألها هنري، حالما استعاد هدوءه: «أنت لا تعدّيننا كأسرة لك؟ حسناً جداً، أنا أطردك من العائلة».

«آه يا أبي، يجب ألا»، احتجت ألما، في رعب حقيقي.

لكن برودنس قاطعت أختها، واندفعت إلى رد واضح وهادئ جداً، يمكن أن يعتقد المرء أنها تدربت عليه لسنوات. وربما حصل هذا.

قالت برودنس: «كما ترغب. لكن اعرف أنك تطرد من منزلك ابنة كانت مخلصة دوماً لك، وتملك الحق في أن تنشد الرقة والتعاطف من الرجل الذي تملك ذكرى مناداته بالأب دوماً. ليس هذا قاسياً فحسب لكنني أعتقد أنه سيؤلم ضميرك. سأصلي لك يا هنري ويتاكر. وحين

Twitter: @ketab_n

أصلي، سأسأل رب السماوات ما الذي حدث لأخلاق أبي؟ أم لم يكن له أبداً أخلاق؟».

قفز هنري على قدميه وضرب الطاولة بكلتا قبضتيه غاضباً.

زأر قائلاً: «أيتها البلهاء الصغيرة! *لم يكن لدي أي منها أبداً*!».

* * *

حدث هذا منذ عشر سنوات، ولم ير هنري ابنته برودنس منذ ذلك الوقت، ولم تقم برودنس بأية محاولة لرؤية هنري. وألما لم تر أختها إلا بضع مرات، وكانت تزور منزل آل ديكسون في عروض متقطعة من اللامبالاة المزيفة والإرادة الطيبة القسرية. كانت تتظاهر بأنها تمر في الحارة، وتزور المنزل محضرة معها هدايا صغيرة لبنات وأبناء أختها، أو كي توصل سلة من الهدايا في عطلة عيد الميلاد. كانت ألما تعرف أن أختها ستمنح الهدايا والأطعمة لأسرة محتاجة أكثر، لكنها لم تتوقف عن الذهاب. في بداية الانفصال الأسروي، حاولت ألما أن تعرض النقود على أختها، لكن برودنس، وبشكل غير مفاجئ، رفضتها.

لم تكن الزيارات حميمية أو مريحة أبداً، وكانت ألما تشعر بالراحة دوماً حين تنتهي. وكانت ألما تشعر بالخجل كلما شاهدت برودنس. وكما وجدت صرامة أختها الأخلاقية مزعجة شعرت ألما أيضاً أن تصرّف والدها كان سيئاً في لقائه الأخير مع برودنس، أو بالأحرى أن تصرفها هي وهنري كان سيئاً، ولم يتصرفا بمودة: وقفت برودنس بثبات (ولو بشكل يتظاهر بالورع) في جانب ما هو خيّر وفاضل، فيما هنري دافع عن ملكيته التجارية فقط وتخلى عن ابنته المتبناة. وبالنسبة لألما؟ حسناً، وقفت ألما إلى جانب هنري ويتاكر ـ أو على الأقل سيظهر أنها فعلت هذا ـ لأنها لم تتحدث بقوة مدافعة عن أختها، وبقيت في وايت إيكر بعد أن غادرت ألما.

Twitter: @ketab_n

لكن والدها بحاجة إليها! ربما لم يكن هنري ويتاكر رجلاً كريماً أو لطيفاً، لكنه رجل مهم، وبحاجة إليها. لا يستطيع أن يعيش بدونها. لا أحد آخر يستطيع إدارة أعماله، وأعماله كثيرة ومهمة. هذا ما قالته لنفسها.

فضلاً عن ذلك، لم يكن إلغاء العبودية قضية عزيزة على قلب ألما. اعتقدت أن العبودية كريهة، على نحو طبيعي، لكنها منشغلة باهتمامات كثيرة بحيث أن المسألة لم تشغل ضميرها على أساس يومي. كانت ألما تعيش في زمن الطحالب، في النهاية، ولم تكن قادرة على التركيز على عملها ـ والعناية بوالدها ـ والانشغال أيضاً بالنزوات المتبدلة للدراما البشرية اليومية. كانت العبودية ظلماً غريباً، نعم، ويجب أن تُلغى. لكن كان هناك الكثير من الظلم: كان الفقر بؤساً آخر والطغيان والسرقة والجريمة أيضاً. لا يستطيع المرء أن يستخدم يده لإلغاء كل أشكال الظلم المعروفة ويؤلف في الوقت نفسه كتباً مكتملة حول الطحالب الأميركية ويعتني بالمسائل المعقدة لمشروع عائلة عالمية.

ألم يكن هذا صحيحاً؟

ولماذا يجب أن تتجاوز برودنس الحدود كي تجعل كل من حولها يبدو عديم الشفقة وقذراً، بالمقارنة مع تضحياتها القوية؟

«شكراً لك على لطفك»، كانت برودنس تقول لها هذا دوماً، كلما جاءت ألما بهدية أو سلة، لكنها تمتنع دوماً عن التعبير عن العاطفة أو الامتنان الحقيقيين. كانت برودنس لبقة لكنها لم تكن ودية. كانت ألما تعود بعد هذه الزيارات إلى منزل برودنس البائس إلى المنزل وحالات ترف وايت إيكر شاعرة بأنها محطمة ومفحوصة بشكل مفرط، كما لو أنها وقفت أمام قاض واكتشف أنها مدانة. وهكذا ربما يجب ألا يكون

مفاجئاً أن زيارات ألما إلى برودنس قلّتْ مع مرور الأعوام، وانفصلت الشقيقتان أكثر مما كانتا عليه من قبل.

لكن، في العربة العائدة بهما إلى المنزل من ترينتون، زود جورج هوكس ألما بمعلومات بأن آل ديكسون ربما يواجهون المشاكل نتيجة لمنشور آرثر ديكسون الناري. وفيما كانت ألما تقف قرب حقل جلاميدها الصخرية في ذلك الربيع من عام ١٨٤٨، تدون ملاحظات عن تقدم طحالبها، تساءلت إن كانت ستزور برودنس ثانية. إذا كان منصب صهرها في الجامعة مهدداً بالفعل، فإن هذا يُعَدّ خطيراً. لكن ماذا تستطيع ألما أن تقول؟ ما الذي تستطيع فعله؟ أية مساعدة تستطيع تقديمها لبرودنس، لن تُرفض بسبب الغرور وادعّاء التواضع؟

فضلاً عن ذلك، ألم يوقع آل ديكسون أنفسهم في هذه الورطة؟ ألم يكن كل هذا محصلة طبيعية لتبني مواقف متطرفة وراديكالية؟ ماذا عمل آرثر وبرودنس كوالدين؟ لقد عرّضا أولادهما الستة للخطر. كانت قضيتهما خطيرة. فقد كان دعاة إلغاء العبودية يُجرّون في الشوارع ويُضربون حتى في المدن الشمالية الحرة! لم يكن الشمال يحب الاسترقاق، لكنه يحب السلام والاستقرار، وكان دعاة إلغاء الاسترقاق يعكرون هذا السلام. وهاجم الغوغاء عدة مرات ملاذ الأيتام الملونين، حيث تطوعت برودنس كمدرّسة. وماذا عن داعية إلغاء العبودية إيليا لوفجوي، الذي قُتل في إيلينوي، وحُطِّمتْ آلات طباعته المتعاطفة مع دعاة إلغاء الاسترقاق ورُميت في النهر؟ يمكن أن يحدث هذا بسهولة هنا في فيلادلفيا. يجب أن تكون برودنس وزوجها حريصين أكثر.

ركزت ألما انتباهها على طحالبها، فقد كان لديها أعمال يجب أن تقوم بها. تأخرت في الأسبوع الماضي، لأنها أخذت ريتا المسكينة إلى مصح غريفون للأمراض العقلية، ولم تنو أن تتأخر أكثر الآن نتيجة

Twitter: @ketab_n

لتهور شقيقتها. هناك قياسات يجب أن تقوم بها، وتحتاج إلى الانتباه إليها.

نمت ثلاث مستعمرات منفصلة من الديكرانوم على إحدى أكبر الصخور. كانت ألما ترصد هذه المستعمرات لمدة ٢٦ سنة، ومؤخراً صار واضحاً بشكل لا يقبل الجدل أن أحد أصناف الديكرانوم هذه كان يتقدم، بينما الآخر يتراجع. جلست ألما قرب الصخرة، تقارن بين أكثر من عقدين من الملاحظات والرسومات. لم تستطع فهم الأمر.

كان الديكرانوم هوساً داخل هوس بالنسبة لألما، والقلب الداخلي لافتتانها بالطحالب. فالعالم مغطى بمئات فوق مئات الأنواع من الديكرانوم، وكل صنف يختلف عن الآخر على نحو دقيق. كانت ألما تعرف عن الديكرانوم أكثر من أي شخص آخر في العالم، لكنّ هذا الصنف ضايقها وأرّقها في الليل. إن ألما التي احتارت من آليات وأصول حياتها كلها شغلتْها طيلة سنوات أسئلة محمومة عن هذا الصنف المعقد. كيف وُجد الديكرانوم؟ لماذا هو متنوع بشكل ملحوظ؟ لماذا بذلت الطبيعة جهوداً كهذه كي تجعل كل صنف مختلفاً بشكل دقيق عن الأصناف الأخرى؟ لماذا كانت بعض أصناف الديكرانوم أكثر صلابة من الأنواع القريبة منها؟ هل كان هناك دوماً خليط كبير كهذا من الديكرانوم، أم هل حُوّل نوعاً ما - مُسخ من نوع إلى آخر - بينما له سلف مشترك؟

حدث نقاش مكثف بين العلماء مؤخراً عن أنواع التحول وتابعته ألما بلهفة كبيرة. لم يكن نقاشاً جديداً بشكل كامل. فقد أثار جان بابتيست لامارك الموضوع قبل ٤٠ سنة، في فرنسا، حين قال إن جميع الأنواع على الأرض تحولت منذ نشوئها بسبب «توق داخلي» داخل المتعضي،

Twitter: @ketab_n

تاقت إلى أن تُكمل نفسها. وفي وقت أحدث، قرأت ألما كتاب «آثار التاريخ الطبيعي للخلق»، الذي ألفه كاتب بريطاني مجهول قال فيه أيضاً إن الأنواع قادرة على التقدم والتغير. لم يطرح المؤلف آلية مقنعة حول كيف تستطيع الأنواع أن تتغير، لكنه قال بوجود التحوّل.

كانت وجهات نظر كهذه مثيرة للجدل. وكان طرح فكرة أن أي شيء يستطيع أن يحوّل نفسه يعني التشكيك بوجود الخالق. وكان الموقف المسيحي هو أن الله خلق جميع الأنواع في العالم في يوم واحد، وأن لا شيء من خلقه تغير منذ فجر الزمن. لكن بدا واضحاً بشكل متزايد لألما أن الأشياء تغيرت. فقد درست ألما بنفسها عيّنات من الطحالب المتحجرة المختلفة عن طحالب اليوم. وكانت هذه الطبيعة على الميزان الأكثر صغراً فحسب. ما الذي يفعله المرء بالعظام المستحاثية الضخمة للكائنات التي تشبه العظاءات التي سماها ريتشارد أوين مؤخراً «الديناصورات»؟ كان خارج الجدل الآن أن هذه الحيوانات العملاقة سارت مرة على الأرض، والآن - بشكل واضح تماماً - لا تمشي. حلّ مكان الديناصورات شيء آخر، أو مُحيت. كيف يستطيع المرء أن يفسر انقراضات وتحولات جماعية كهذه؟

كتب العظيم لينايوس: إن الطبيعة لا تقوم بقفزات مفاجئة.

لكن ألما اعتقدت أن الطبيعة تقوم بقفزات مفاجئة، ربما بقفزات صغيرة فحسب - وثبات وحجْلات وتمايلات - لكنها قفزات. يستطيع المرء أن يشاهد ذلك في تهجين الكلاب والخراف، وفي تبدلات مراتب السلطة والهيمنة بين أنواع طحالب مختلفة على الصخور الكلسية عند حافة غابة وايت إيكر. كان لدى ألما أفكار، لكنها لم تستطع تماماً أن تربط فيما بينها وتشرحها. شعرت بأنها متأكدة من أن بعض أصناف

Twitter: @ketab_n

الديكرانوم تنمو من أنواع أخرى من الديكرانوم أكثر قدماً، أن كياناً واحداً ربما نشأ من كيان آخر، أو أدى إلى انقراض مستعمرة أخرى. لم تستطع أن تفهم كيف حصل هذا، لكنها كانت مقتنعة أن هذا ما حدث. شعرت بالانقباض القديم المألوف في صدرها، ذلك المزيج من الرغبة والإلحاحية. لم يتبق أمامها سوى ساعتين أخريين من ضوء النهار كي تعمل أثناءهما خارج المنزل قبل أن تضطر للعودة إلى متطلبات والدها الليلية. كانت بحاجة إلى مزيد من الساعات ـ كثير من الساعات ـ إذا كان يجب أن تدرس المسائل كما تستحق أن تُدرس. لن تملك أبداً ما يكفي من الساعات. كانت قد فقدت سابقاً الكثير من الوقت في هذا الأسبوع. بدا الجميع في العالم كأنهم يعتقدون أن ساعات ألما تنتمي إليهم. كيف حدث ونجحت في أن تكرس نفسها للاستقصاء العلمي الملائم؟

بعد أن لاحظت أن الشمس انخفضت قررت ألما أنها لن تزور برودنس، لأنها لم تكن تملك الوقت لذلك. لم تكن تريد قراءة منشور آرثر الأخير المثير للفتن عن إلغاء العبودية، أيضاً. ما الذي تستطيع ألما فعله لمساعدة عائلة ديكسون؟ لم تكن تريد أختها أن تصغي لآراء ألما، ولم ترغب بأن تقبل مساعدتها. شعرت ألما بالأسف على برودنس، لكن الزيارة ستكون مربكة، بما أن لقاءات كهذه كانت دوماً مربكة.

التفتت ألما إلى صخورها. أخرجت شريطها وقاست المستعمرات ثانية. بسرعة، سجلت المعطيات في دفتر ملاحظاتها.

تبقت ساعتان فقط.

لديها الكثير من العمل الذي يجب القيام به.

يجب على آرثر وبرودنس ديكسون أن يتعلما أن يحرصا أكثر على حياتهما.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر

في وقت لاحق في ذلك الشهر، تلقت ألما رسالة من جورج هوكس طلب منها فيها المجيء إلى شارع آرش كي تزور حانوت طباعته وترى شيئاً فائقاً للعادة.

كتب قائلاً: «لن أخبرك المزيد عنه الآن كي لا أفسد الأمر، لكنني أعتقد أنك ستستمتعين برؤية هذا شخصياً، حين تملكين الوقت».

لم تكن ألما تملك وقت فراغ، ولا جورج أيضاً، ولهذا كانت هذه الرسالة غير مسبوقة. كان جورج يتصل بألما سابقاً من أجل مسائل النشر فقط، أو في الحالات الطارئة المتعلقة بريتا. لكن لم يعد هناك حالات طارئة تتعلق بريتا منذ أن وضعاها في مصح غريفون، ولم تكن ألما وجورج يعملان على كتاب معاً حالياً.

ما الذي يمكن إذاً أن يكون ملحاً هكذا؟

متلهفةً، استقلت عربة إلى شارع آرش.

عثرت على جورج في الغرفة الخلفية، منحنياً فوق طاولة طويلة مغطاة بعدد مضاعف من الأشكال والألوان الأكثر إذهالاً. حين اقتربت ألما استطاعت أن ترى مجموعة كبيرة من رسوم أزهار السحلبية (الأوركيد)، محزومة في أكوام طويلة. لم تكن رسومات فقط، بل مطبوعات حجرية ورسوم.

Twitter: @ketab_n

قال جورج وهو يرحب بألما: «هذا أجمل عمل سبق أن رأيته. جاء أمس من بوسطن. وراءه قصة غريبة. انظري إلى هذا الاتقان!».

ناول جورج ألما رسماً مطبوعاً لأحد أزهار نبتة السحلبية (الكاتاسيتوم) المنقطة. كانت الزهرة مرسومة بشكل رائع بحيث أنها بدت نامية على الصفحة. كانت منقطة بالأحمر والأصفر، وبدت رطبة كلحم حي. كانت أوراقها شهوانية وسميكة، وبدت جذورها بصلية الشكل كما لو أن بوسع المرء أن ينفض عنها التربة الحقيقية. قبل أن تستطيع ألما تذوق الجمال بشكل كامل، سلمها جورج رسمة أخرى مذهلة: البريستريا باركيري، بأزهارها الذهبية المتفتحة طازجة جداً بحيث ارتجفت تقريباً. إن من أعد هذا الرسم الطباعي هو فنان نسيج ولون في آن؛ وكانت التويجات تشبه مخملاً غير مقصوص، ومنحت لمسات من الزلال الأبيض على أطرافها المستدقة كل برعم أثراً من الندى.

ثم سلمها جورج رسمة أخرى فلم تستطع ألما الامتناع عن الشهيق. مهما كان نوع نبتة السحلبية هذه، فإن ألما لم ترها من قبل أبداً. بدت فلقاتها القرمزية الصغيرة كمثل شيء ترتديه جنية، كفستان حفلة راقصة فاخرة. لم تر أبداً من قبل تعقيداً كهذا، ورهافة كهذه. كانت ألما تعرف المطبوعات الحجرية جيداً. فقدت ولدت بعد أربع سنوات من اختراع التقنية، وجمعت لمكتبة وايت إيكر بعض أروع الرسوم المطبوعة حجرياً التي كان العالم قد أنتجها. اعتقدت أنها فهمت جيداً الحدود التقنية للأداة، لكن هذه الرسوم برهنت أنها على خطأ. كان جورج هوكس يعرف الطباعة الحجرية، أيضاً. لم يتقنها أحد في فيلادلفيا بشكل أفضل منه. لكن يده ارتجفت حين مدّها كي يقدم لألما ورقة أخرى، نبتة سحلبية أخرى. أرادها أن ترى كل هذا، وأن تراه كله فوراً. كانت ألما

Twitter: @ketab_n

متلهفة كي تواصل النظر، لكنها بحاجة إلى أن تفهم الموقف بشكل أفضل أولاً.

«انتظر يا جورج، لنتوقف لحظة. يجب أن تخبرني من أبدع هذه الرسوم؟» سألت ألما. كانت تعرف جميع أفضل راسمي النباتات، لكنها لم تكن تعرف هذا الفنان. حتى والتر هود فيتش لا يستطيع أن يبدع مثلها. لو أنها شاهدت من قبل مثيلاً لها لتذكرت بالتأكيد.

قال جورج: «إنه الشخص الأكثر خرقاً للمألوف. اسمه أمبروس بايك».

لم تسمع ألما بهذا الاسم أبداً.

سألت: «من ينشر أعماله؟».

«لا أحد!».

«من الذي اختار إنتاج أعماله إذاً؟».

قال جورج: «من غير الواضح أنه اختار إنتاجها أحد. صنع السيد بايك الرسوم الحجرية بنفسه، في مطبعة صديق في بوسطن. عثر على نباتات السحلبية، نفّذ الاسكتشات، وقام بالطباعة وعملية التلوين بنفسه. أرسل كل هذه الأعمال إليَّ دون مزيد من التفسير. وصلت أمس في الصندوق الأكثر أماناً الذي يمكن أن تريه. انقلب تقريباً حين فتحته. كان السيد بايك في غواتيمالا والمكسيك في السنوات الثماني عشرة الماضية، كما قال، وقد عاد مؤخراً إلى موطنه في ماساتشوسيتس. إن نباتات السحلبية التي وثقها هنا هي ثمرة ذلك الوقت في الغابة. لا أحد يعرف عنه. يجب أن نحضره إلى فيلادلفيا يا ألما. ربما تستطيعين دعوته إلى وايت إيكر؟ إن رسالته متواضعة جداً. لقد وضع حياته كلها في هذه المحاولة. يتساءل إذا كان يمكن أن أنشر له هذه الرسوم».

«ستنشرها له، أليس كذلك؟» سألته ألما، متخيلة هذه الرسوم المترفة في مجلد من تنفيذ هوكس.

«سأنشر بشكل طبيعي! لكن يجب أولاً أن أركز حواسي حول المشروع كله. لم أر أبداً من قبل بعض نباتات السحلبية هذه يا ألما. لم أر من قبل براعة فنية كهذه».

«ولا أنا»، قالت ألما ملتفتة إلى الطاولة وتصفحت برقّة الأمثلة الأخرى، ذلك أنها لم ترد لمسها تقريباً، وكانت عظيمة. يجب أن تكون خلف زجاج، كل واحدة منها. حتى الاسكتشات الأصغر روائع فنية. ونظرت غريزياً إلى السقف كي ترى إن كان سليماً ولن يسرب الماء على هذه الأعمال ويدمرها. وخافت بسرعة من النار أو السرقة. يجب أن يركّب جورج قفلاً لهذه الغرفة، وتمنت لو أنها تلبس قفازين.

«هل سبق ـ»، بدأ جورج، لكنه غُمر، لم يستطع أن ينهي الجملة. لم يسبق أن رأت وجهه متأثراً هكذا من العاطفة.

تمتمت: «لم يسبق لي، في حياتي أبداً».

* * *

في ذلك المساء نفسه، كتبت ألما رسالة إلى السيد أمبروس بايك، من ماساتشوسيتس.

كتبت آلاف الرسائل في حياتها ـ وكان كثير منها رسائل مديح أو دعوات ـ لكنها لم تعرف كيف تبدأ هذه. كيف يخاطب المرء عبقرياً حقيقياً؟ في النهاية، قررت أن تكون مباشرة.

عزيزي السيد بايك،

Twitter: @ketab_n

أخشى من أنك سببت لي أذى كبيراً. فقد دمّرتني إلى الأبد، بحيث لا يمكن أن أعجب بالرسوم الفنية للنباتات التي يقوم بها أي شخص آخر. إن عالم الرسم والتصوير والطباعة الحجرية سيبدو بشكل محزن رتيباً وبليداً لي الآن بعد أن رأيت رسومك لنباتات السحلبية. أدعوك إلى زيارة فيلادلفيا على الفور كي تعمل مع صديقي العزيز جورج هوكس على نشر كتاب. أتساءل، فيما أنت في المدينة، إن كان يمكن أن أغريك كي تأتي إلى وايت إيكر، عزبة عائلتي، من أجل زيارة مطولة؟ لدينا بيوت زجاجية مليئة بالكثير من نباتات السحلبية، بعضها جميل في الواقع تقريباً كنباتاتك المرسومة. أجرؤ على القول بأنك ستستمتع بها. يمكن أن ترسمها أيضاً. (إن أياً من أزهارنا سيشرفها بأن ترسمها أنت!). وسأستمتع أنا وأبي دون شك بالتعرف عليك. وإذا ما أخبرتني عن موعد وصولك سأرسل عربة خاصة تقلّك من محطة القطار. حالما تصبح تحت رعايتنا، فإننا سنلبي جميع احتياجاتك. من فضلك لا تؤلمني بالرفض!

المخلصة ألما ويتاكر

* * *

وصل في منتصف أيار/ مايو ١٨٤٨

كانت ألما في مكتبها تعمل على المجهر حين شاهدت العربة تتوقف أمام المنزل. شاب طويل ونحيل بشعر رملي اللون يرتدي بذلة قطنية سميكة مضلعة بالمخمل بنية اللون خرج من العربة. لم يبد من تلك المسافة أنه يتجاوز العشرين من العمر، رغم أن ألما أدركت أن هذا مستحيل. لم يكن يحمل سوى حقيبة سفر صغيرة، بدا كأنها دارت العالم بضع مرات من قبل، ويمكن أن تتداعى قبل نهاية اليوم.

Twitter: @ketab_n

راقبتْه ألما للحظة قبل أن تذهب لتسلّم عليه. كانت قد شاهدتْ وصول أشخاص كثيرين إلى وايت إيكر مع مرور الأعوام، واكتشفت أن الزوار للمرة الأولى يفعلون دوماً الشيء نفسه بالضبط: يتوقفون في مساراتهم كي يحدّقوا في المنزل الذي أمامهم فاغري الأفواه، ذلك أن عزبة وايت إيكر رائعة ومثيرة للأعصاب في آن، خاصة لدى النظرة الأولى. كان المكان مصمّماً بشكل واضح كي يرهب، ولم يستطع سوى قلة من الضيوف أن يخفوا روعهم وحسدهم أو خوفهم، خاصة إذا كانوا يجهلون أنهم تحت المراقبة.

لكن السيد بايك لم ينظر إلى المنزل. وفي الحقيقة، أدار ظهره للقصر على الفور ونظر بدلاً من ذلك إلى حديقة بياتريكس اليونانية القديمة التي حافظت ألما وهانيكي على حالتها الأصلية مع مرور العقود كإجلال لها. تراجع قليلاً كما لو أنه أراد أن يكوّن إحساساً أفضل عنها، ثم فعل الشيء الأكثر غرابة: وضع حقيبته، نزع سترته، اتجه إلى الزاوية الشمالية الغربية للحديقة ثم سار في خطوات طويلة في انحراف إلى الزاوية الجنوبية الشرقية. وقف هناك للحظة، نظر حواليه، ثم خطا خارج حدين متجاورين للحديقة ـ طولها وعرضها ـ في الخطوات الطويلة لماسح يقيس حدود ملكية. حين وصل إلى الزاوية الشمالية الغربية، نزع قبعته وحك رأسه وتوقف للحظة ثم انفجر ضاحكاً. لم تستطع ألما سماع ضحكه لكنها استطاعت رؤيته بوضوح.

كان هذا كثيراً بالنسبة لها كي تقاومه، فاندفعت خارجة من منزل العربات كي تقابله.

«سيد بايك»، قالت مادة يدها وهي تقترب منه.

«لا بد أنك الآنسة ويتاكر!» قال، مبتسماً وصافحها بمودة. «لا

تصدق عيناي ما أراه هنا! يجب أن تخبريني يا آنسة ويتاكر أي عبقري مجنون تكبد هذه الآلام كي يصنع هذه الحديقة وفق مثل هندسية إقليدية صارمة؟».

«كان هذا إلهام أمي يا سيد. لو لم توافها المنية منذ سنوات كثيرة لشعرت بالإثارة من معرفة أنك تعرفت على أهدافها».

«من لن يتعرف عليها؟ إنه التناسب الذهبي التام! لدينا مربعات مضاعفة هنا، تحتوي على شبكات متكررة من المربعات، ومن الممرات التي تنصّف البناء كله، نصنع عدة ـ ثلاث، أربع، خمس ـ زوايا أيضاً. إن هذا ممتع جداً! من الفائق للعادة أن شخصاً ما سيزعج نفسه كي يفعل هذا، وبتوازن رائع. إن نباتات البقس رائعة أيضاً. تبدو كأنها تخدم كعلامات لجميع الأشكال المتداخلة. لا بد أن أمك كانت آسرة».

«آسرة...»، فكرت ألما بذلك الاحتمال. «حسناً، كانت أمي مباركة بذهن عمل بدقة آسرة، هذا أكيد».

قال: «هذا لافت للنظر جداً».

لم يكن يبدو أنه شاهد المنزل بعد.

قالت ألما: «إنها لمتعة حقيقية اللقاء معك يا سيد بايك».

«ومعك يا آنسة ويتاكر. كانت رسالتك في غاية الشهامة. يجب أن أقول إنني استمتعت بتوصيلة العربة، أول شيء في رحلتي الطويلة. أنا معتاد جداً على السفر في وضعيات اكتظاظ مع أطفال يصرخون وحيوانات شقية ورجال صاخبين يدخنون سيجاراً ثخيناً بحيث أنني لم أعرف ماذا أفعل في هذه الفترة الطويلة من العزلة والهدوء».

«ما الذي فعلته إذاً؟» سألته ألما وهي تبتسم لحماسه.

Twitter: @ketab_n

«استمتعت بالمناظر وهدوء الطريق».

قبل أن تستطيع ألما الرد على ذلك الجواب الساحر، رأت تعبير اهتمام على وجه السيد بايك.استدارت كي ترى إلى ماذا كان ينظر: كان خادم يسير داخلاً من أبواب وايت إيكر الأمامية المهيبة حاملاً حقيبة السيد بايك.

«حقيبتي...»، قال ومد يده.

«إننا ننقلها إلى غرفتك يا سيد بايك. ستكون قرب سريرك وبانتظارك حين تحتاجها».

هز رأسه مرتبكاً: «بالطبع هذا ما يحصل. يا لي من أحمق. أعتذر فأنا غير معتاد على الخدم وأشياء من هذا القبيل».

«هل تفضل أن تبقي حقيبتك معك؟».

«كلا. سامحيني على رد فعلي، يا آنسة ويتاكر. لكن إذا كان المرء يملك شيئاً واحداً في الحياة، مثلي أنا، من المزعج أن يرى غريباً يسير وهو يحمله».

«لديك أكثر من شيء واحد في الحياة، يا سيد بايك. لديك موهبتك الفنية الاستثنائية التي لم ير هوكس أو أنا مثيلاً لها».

ضحك. «لطفٌ منك أن تقولي هذا يا آنسة ويتاكر، لكن كل شيء آخر أملكه هو في هذه الحقيبة، وربما أعتبر تلك المقتنيات الصغيرة أكثر قيمة!».

ضحكت ألما أيضاً. كان التحفظ الذي يوجد عادة بين غريبين غائباً بشكل كامل. ربما لم يكن هناك مطلقاً.

قال بتألق: «والآن أخبريني يا آنسة ويتاكر ما الأعاجيب الأخرى التي لديك في وايت إيكر؟ سمعتُ أنك تدرسين الطحالب؟».

هذا ما حدث، ففي نهاية الساعة، كانا يقفان معاً وسط جلاميد ألما الصخرية، يناقشان الديكرانوم. كانتِ تنوي أن تريه نباتات السحلبية أولاً. أو بالأحرى، لم تكن تنوي أبداً أن تريه الطحالب ـ إذ لا أحد آخر أبدى اهتماماً بها ـ لكن حالما بدأت تتحدث عن عملها، ألح على أن تأخذه إلى رؤيتها.

قالت، وهما يسيران معاً عبر الحقول: «يجب أن أحذرك، يا سيد بايك من أن معظم الناس يرون الطحالب مملة».

قال: «هذا لا يخيفني. لقد سُحرت دوماً بمواضيع وجدها أشخاص آخرون بليدة».

قالت ألما: «إننا نشترك في هذا».

«أخبريني يا آنسة ويتاكر، ما الذي يثير إعجابك في الطحالب؟».

أجابت ألما دون تردد: «كرامتها وصمتها وذكاؤها. أحبها لأنها تشكل موضوعاً جديداً للدراسة. فهي ليست مثل النباتات الأخرى الأكبر والأكثر أهمية، التي فحصتْها ودرستْها حشود من علماء النبات من قبل. أفترض أنني أحب تواضعها، أيضاً. إن الطحالب تعبر عن جمالها في تحفظ رشيق. بالمقارنة مع الطحالب، كل شيء في العالم النباتي يمكن أن يبدو حاداً وواضحاً. هل فهمت قصدي؟ هل تعرف كيف يمكن أن تبدو الأزهار الأكبر الاستعراضية أحياناً كحمقى بُكم يسيل لعابهم، الطريقة التي يتمايلون بها فاغري الأفواه، ومذهولين ويائسين؟».

«أهنئك يا آنسة ويتاكر. وصفت لتوك عائلة أزهار السحلبية بشكل تام».

شهقت ووضعت يديها على فمها: «لقد أسأت إليك!».

لكن السيد بايك كان يبتسم. «كلا أبداً. أنا أمزح معك. لم أدافع أبداً عن ذكاء نباتات السحلبية، ولن أفعل. أحبها ولكنني أعترف أنها لا تبدو متألقة على نحو خاص، ليس بمعايير وصفك. لكنني أستمتع كثيراً بالإصغاء إلى شخص ما يدافع عن ذكاء الطحالب! يبدو كأنك تؤلفين بحثاً في الدفاع عنها».

«يجب أن يدافع عنها أحد ما، يا سيد بايك! ذلك أنها أُهملت، ولها شخصية نبيلة! في الحقيقة، أرى أن العالم بالغ الصغر هدية عَظَمة خفية، وبالتالي دراسته مشرّفة».

لم يبد أن أمبروس بايك وجد أياً من هذا بليداً. حين وصلا إلى الصخور طرح دزينة من الأسئلة على ألما، وقرّب وجهه من مستعمرة الطحالب فبدا كما لو أن لحيته تنمو خارجةً من الصخور. أصغى بانتباه وهي تشرح جميع الأصناف، وناقش نظرياتها عن التحول. ربما تحدثت طويلاً وعلى نحو مفرط. كانت أمها ستقول هذا. حين كانت تتكلم خافت ألما من أن تُضجر هذا الرجل المسكين. لكنه كان مُرحِّباً جداً. شعرت بنفسها طليقة وهي تسفح الأفكار من الأقبية الطافحة لوقت طويل بالأفكار الخاصة. هناك فترة طويلة يستطيع المرء أن يحافظ فيها على حالات حماسه بعيداً داخل قلبه قبل أن يتوق إلى أن يشارك بها شخصاً آخر، وكان لدى ألما عقود كثيرة من الأفكار المتأخرة كثيراً عن المشاركة.

رمى السيد بايك نفسه على الأرض على الفور كي يستطيع التحديق تحت حافة صخرة أكبر ويفحص الطحالب المخبأة في تلك الرفوف السرية. ارتفعت ساقاه الطويلتان من تحت الصخرة شاعراً بالحماسة.

Twitter: @ketab_n

اعتقدت ألما أنها لم تكن أبداً مسرورة من قبل هكذا في حياتها. أرادت دوماً أن تري هذا لأحد ما.

ناداها من تحت حافة الصخرة: «إذاً هذا سؤالي لك يا آنسة ويتاكر، ما هي الطبيعة الحقيقية لمستعمرات طحالبك؟ لقد أتقنت الخدعة، كما تقولين، في الظهور متواضعة وناعمة. لكن مما تقولينه لي، إنها تملك ملكات معتبرة. هل طحالبك رواد وذّيون؟ أم ناهبون معادون؟».

سألت ألما: «هل تعني مزارعين أم قراصنة؟».

«بالضبط».

قالت ألما: «لا أستطيع الجزم. ربما القليل من كليهما. أطرح هذا السؤال على نفسي طيلة الوقت. يمكن أن يستغرق الأمر معي ٢٥ سنة أخرى كي أعرف».

«يعجبني صبرك»، قال، خارجاً أخيراً من تحت الصخرة وتمدّد بتلقائية على الأعشاب.

بعد أن تعرفت على أمبروس بايك بشكل أفضل مع مرور الزمن، عرفت أنه عظيم في رمي نفسه في أي مكان وكلما أراد أن يرتاح. سيتمدد بسعادة على سجادة في غرفة استقبال رسمية إذا راق له ذلك، خاصة إذا كان يستمتع بأفكاره وبالمحادثة. كان العالم أريكته. كان حراً. لم تستطع ألما أن تتخيل الشعور بحرية كهذه أبداً. في هذا اليوم، فيما كان مستلقياً، جلست بحذر على صخرة مجاورة.

استطاعت ألما أن ترى الآن أن السيد بايك أكبر مما بدا عليه في البداية. كان أكبر على نحو طبيعي إذ لا يمكن أن يبدع هذا الكم الكبير من الأعمال لو كان صغيراً. جعلته وضعيته الحماسية وخطوة سيره النشيطة يشبه طالباً جامعياً من بعيد. هذا بالإضافة إلى لباسه البني

Twitter: @ketab_n

المتواضع، الذي يبدو كزيّ باحث شاب مفلس. لكن يستطيع المرء إذا كان قريباً أن يرى عمره، خاصة وهو يستلقي في ضوء الشمس، متمدداً على الأعشاب دون أن يعتمر قبعته. كان وجهه مجعداً بشكل خفيف، ومسفوعاً ومنمشاً من السنوات التي قضاها في ذلك الطقس، وكان الشعر الرملي اللون عند صدغيه يتحول إلى رمادي. قدرت ألما أن عمره ٣٥ عاماً، أو ربما ٣٦، وأنه أصغر منها بعشر سنوات، لكنه ليس صغيراً.

واصل أمبروس: «أية مكافأة كبيرة ستحصلين عليها من دراسة العالم عن قرب هكذا. إن كثيراً من الناس يبتعدون عن الأعاجيب الصغيرة، كما اكتشفت. هناك قوة في التفاصيل أكثر منه في العموميات، لكن معظم الأشخاص لا يستطيعون تمرين أنفسهم على البقاء صابرين من أجلها».

قالت ألما: «لكنني أخشى أحياناً أن عالمي صار مليئاً جداً بالتفاصيل. إن كتبي عن الطحالب تستغرق سنوات كي أكتبها، واستنتاجاتي معقدة بشكل لا يُطاق، ولا تختلف عن المنمنمات الفارسية التي لا يستطيع المرء أن يدرسها إلا بعدسات مكبرة. إن عملي لا يحقق لي أية شهرة، ولا يعود علي بأي دخل أيضاً، وهكذا بوسعك أن ترى أنني أستغل وقتي بحكمة!».

«لكن السيد هوكس قال إن كتبك تحظى بمراجعات جيدة».

«أكيد، من قبل دزينة من السادة على وجه البسيطة يحرصون جداً على علم النباتات اللاوعائية».

قال السيد بايك: «دزينة! هذا العدد الكثير؟ تذكري يا سيدة أنك

تتحدثين مع رجل لم ينشر أي شيء في حياته الطويلة وكان والده يخافان من الشعور بالعار من عطالته».

«لكن عملك ممتاز!».

نفض المديح بعيداً بالتلويح، وسأل: «هل تعثرين على الكرامة في أعمالك؟».

«نعم»، قالت ألما، بعد أن فكرت بالسؤال للحظة. «رغم أنني أتساءل أحياناً لماذا. إن غالبية العالم ـ خاصة الفقراء الذين يعانون ـ سيسعدهم ألا يعملوا ثانية أبداً كما أعتقد. وهكذا لماذا أعمل باجتهاد على موضوع لا يهتم به إلا بعض الأشخاص؟ لماذا لست مقتنعة بمجرد الإعجاب بالطحالب، أو حتى برسمها، إذا كان تصميمها يسرّني بهذا القدر؟ لماذا يجب أن أكتشف أسرارها، وأتوسّل إليها من أجل الأجوبة عن طبيعة الحياة نفسها؟ أنا محظوظة بما يكفي بأنني من أسرة تملك الوسائل كما ترى، وهكذا ما من ضرورة بالنسبة لي كي أعمل في حياتي كلها مطلقاً. لماذا إذاً أنا غير سعيدة كي أتسكع وأجعل ذهني ينمو بحرية كهذه الأعشاب؟».

أجاب أمبروس بايك ببساطة: «لأنك مهتمة بالخلق وبكل ترتيباته الرائعة».

احمرت ألما: «أنت تجعل الأمر يبدو مهيباً».

«إنه مهيب»، قال، ببساطة كما من قبل.

جلسا صامتين لوهلة. في مكان ما في الأشجار إلى جانبهما كان طائر سمّن يغرّد.

«يا له من غناء رائع!» قال السيد بايك، بعد فاصل طويل من الإصغاء. «يجعل المرء يرغب بالتصفيق له!».

قالت ألما: «هذا أروع وقت في السنة لتغريد الطيور. هناك صباحات تستطيع أن تجلس أثناءها تحت شجرة كرز في هذا المرج، وتسمع كل طيور الأوركسترا، تؤدي من أجل إمتاعك».

«أود أن أسمع ذلك في صباح ما، اشتقت كثيراً إلى تغريد طيورنا الأميركية حين كنت في الغابة».

«لكن هناك طيوراً رائعة حيث كنت!».

«نعم، رائعة وغرائبية. لكنها مختلفة. يحن المرء إلى الوطن، كما تعرفين، إلى الضجيج المألوف للطفولة. مرت أوقات سمعتُ فيها حمامات نادبة تنادي في أحلامي. كان هذا مثل الحياة، وحطم قلبي. جعلني أتمنى ألا أستيقظ أبداً».

«أخبرني السيد هوكس أنك أمضيت في الغابة سنوات كثيرة».

«ثمانية عشر عاماً»، قال، مبتسماً تقريباً بخجل.

«معظم الوقت في المكسيك وغواتيمالا؟».

«في المكسيك وغواتيمالا طيلة الوقت. كنت أريد رؤية المزيد من العالم، لكنني لم أغادر تلك المنطقة، بما أنني واصلت اكتشاف أمور جديدة. تعرفين كيف هو الأمر، يعثر المرء على مكان ممتع ثم يبدأ البحث، ثم تكشف الأسرار عن نفسها، واحداً بعد آخر، فلا يستطيع المرء الانسحاب. هناك أيضاً بعض أزهار السحلبية التي عثرتُ عليها في غواتيمالا ـ والمزيد من النباتات المتوحدة الهوائية المتطفلة، خاصة ـ التي لن تجاملني وتتفتح. رفضت الرحيل إلى أن شاهدتها تتفتح. صرت عنيداً تماماً حيال هذا. لكنها كانت عنيدة، أيضاً. جعلني بعضها أنتظر لخمس أو ست سنوات قبل أن تسمح لي بنظرة».

«لماذا رجعت أخيراً إلى الوطن إذاً؟».

«الوحدة».

كان يتمتع بالصراحة الأكثر خرقاً للعادة. تعجبت ألما من الأمر. لم تستطع أن تتخيل أبداً أن بوسعها الاعتراف بضعف كالوحدة.

قال: «أيضاً، عانيت من مرض شديد بحيث لم أعد قادراً على تحمل الحياة القاسية. أصبت بحمى متكررة. رغم أنها لم تكن سيئة بشكل كامل. رأيت رؤى استثنائية أثناء إصابتي بالحمى، وسمعتُ أصواتاً أيضاً. كان أحياناً من المغري اللحاق بها».

«الرؤى أم الأصوات؟».

«كلاهما! لكنني لم أستطع فعل هذا بسبب أمي، سبّب هذا الكثير من الألم لروحها، أن تفقد ابناً في الأدغال. ستتساءل إلى الأبد ما الذي حصل لي. وهي ما تزال تتساءل ما الذي حدث لي، سأراهن على ذلك! لكن على الأقل تعرف أنني حي».

«لا بد أن عائلتك اشتاقت إليك بعد كل هذه الأعوام».

«آه، عائلتي المسكينة. لقد خيّبتُ أملهم يا آنسة ويتاكر. جميعهم محترمون، وقد عشتُ حياتي في اتجاهات شاذة. أشعر بالعطف عليهم جميعاً، وعلى أمي بشكل خاص. اعتقدت على نحو صحيح أنني دستُ ربما بشكل أكثر فضائحية على اللآلىء التي نُثرت أمامي. تركتُ هارفارد بعد عام واحد. قيل لي إنها واعدة ـ مهما كان المعنى الذي توحي به هذه الكلمة ـ لكن الحياة الجامعية لم تناسبْني. بسبب خصوصية معينة للجهاز العصبي، لم أتحمل الجلوس في قاعة محاضرات، كذلك لم أنجذب أبداً إلى رفقة الأندية الاجتماعية ومجموعات الشبان. يمكن ألا تعرفي ذلك يا آنسة ويتاكر، لكن معظم حياة الجامعة منظمة حول

Twitter: @ketab_n

الأندية الاجتماعية ومجموعات الشبان. كما عبرت أمي عن الأمر، كل ما أردتُ فعله هو أن أجلس في زاوية وأرسم النباتات».

قالت ألما: «شكراً لله على ذلك!».

«ربما. لا أعتقد أن أمي ستوافق، وذهب والدي إلى قبره غاضباً من خياري لمهنتي، إذا كان بوسع المرء أن يدعوها كذلك. لكن ما أراح أمي، التي عانت طويلاً، هو أن أخي الأصغر جاكوب كان مثالاً للولد الأكثر طاعة. ذهب إلى الجامعة متبعاً خطاي، لكنه على عكسي، نجح في البقاء هناك الفترة المتوقعة. درس باجتهاد وفاز بالمجد والشرف وما يزال، رغم أنني خفت أحياناً من أن يؤذي دماغه بسبب هذا الإجهاد، وهو يلقي المواعظ الآن عن منبر فارمنغهام نفسه الذي كان والدي وجدي يقفان عليه أمام حشودهما. إن أخي شخص جيد، وقد ازدهر. إنه رصيد لعائلة بايك. والجماعة معجبة به. أنا أحبه كثيراً لكنني لا أحسده على حياته».

«أنت منحدر من عائلة كهنة إذاً؟».

«بالفعل، وكنت أطمح إلى أن أصير واحداً».

سألته ألما بجسارة: «ما الذي حدث. هل ابتعدت عن الله؟».

قال: «كلا. على العكس تماماً، اقتربت من الله كثيراً».

أرادت ألما أن تسأله ما الذي يعنيه بهذا الكلام الغريب، لكنها شعرت أنها سألت أكثر من اللزوم، ولم يوضح ضيفها. استراح في صمت لوهلة طويلة، وهما يصغيان إلى تغريد طائر السمن. بعد وهلة لاحظت ألما أن السيد بايك نام. كيف نام فجأة! كان مستيقظاً في لحظة ونام في التالية! خطر لها أنه منهك من رحلته الطويلة، وكانت هي تكثر عليه الأسئلة وتزعجه بنظرياتها عن الطحالب والتحول.

Twitter: @ketab_n

بهدوء، وقفت وعبرت إلى منطقة أخرى من حقل الصخور، كي تتأمل مستوطنتها من الطحالب. شعرت بأنها مسرورة جداً ومسترخية. كم كان السيد بايك لطيفاً! تساءلت كم سيمكث في وايت إيكر. ربما تستطيع إقناعه بالبقاء طيلة الصيف. أية متعة ستتحقق بوجود هذا الكائن الودي المتسائل في المكان. سيكون الأمر كما لو أن لديها شقيقاً أصغر، وكانت الآن متلهفة لواحد، وتريده أن يكون أمبروس بايك. يجب أن تتحدث مع والدها عن الأمر. أكيد أنهما يستطيعان أن يجهزا له استديو للرسم، في أحد أبنية معمل الألبان، إذا رغب بالبقاء.

مرت على الأرجح نصف ساعة قبل أن تلاحظ السيد بايك يرتعش بين الأعشاب. عادت إليه وابتسمت.

قالت: «لقد نمت».

صحح لها: «كلا. أدركني النوم».

مدد أعضاءه كالقطة أو كرضيع وهو ما يزال بين الأعشاب. لم يبد أبداً أنه لا يشعر بالراحة لأنه أغفى أمام ألما، وهكذا لم تشعر بعدم الراحة أيضاً.

«لا بد أنك منهك يا سيد بايك».

«لقد كنت منهكاً لسنوات». جلس، تثاءب، وأعاد قبعته إلى رأسه. «أي شخص كريم أنت بحيث سمحت لي بهذه الراحة. شكراً لك».

«حسناً، كنت كريماً في الإصغاء إليّ وأنا أتحدث عن الطحالب».

«استمتعتُ بذلك وأتمنى أن أسمع المزيد. فكرت لتوي، فيما كنت نائماً، أي حياة مثيرة للحسد تعيشينها يا آنسة ويتاكر. تخيلي كونك قادرة على تمضية حياتك كلها في ملاحقة شيء مليء بالتفاصيل كهذا ورائع

كالطحالب، ومحاطة طول الوقت بعائلة محبة والراحة الناجمة عن ذلك».

«يجب أن أفكر أن حياتي بليدة بالمقارنة مع رجل أمضى ثماني عشرة سنة في أدغال أميركا الوسطى».

«كلا. كنت أتوق إلى حياة أكثر كسلاً من التي عشتها حتى الآن».

«كن حذراً مما تتمناه يا سيد بايك. إن الحياة البليدة ليست ممتعة كما تعتقد!».

ضحك. اقتربت ألما وجلست إلى جانبه، على العشب، داسة تنورتها تحت ساقيها.

قالت: «سأعترف لك بشيء يا سيد بايك. أحياناً أخاف من أن دراستي للطحالب لا فائدة أو قيمة لها من أي نوع. أحياناً أتمنى لو كان لدي شيء أكثر تألقاً كي أقدمه للعالم، شيء أكثر روعة، لكنني لا أملك عبقرية مميزة».

«وهكذا أنت مجتهدة ولست أصيلة؟».

قالت ألما: «نعم. بالضبط هذا. بدقة».

قال: «ياه! أنت لا تقنعينني. أتساءل لماذا ستحاولين حتى أن تقنعي نفسك بشيء مغفل كهذا».

«أنت لطيف يا سيد بايك. جعلتَ سيدة عجوزاً تشعر بأنها تحظى بالانتباه في بعد الظهر هذا. لكنني أعي حقيقة حياتي. إن دراستي للطحالب لا تثير أحداً سوى الأبقار والغربان التي تراقبني أقوم بذلك طيلة النهار».

«إن الأبقار والغربان حكام ممتازون على العبقرية، يا آنسة ويتاكر.

خذي كلمتي من أجل هذا، رسمتُ بشكل حصري من أجل تسليتها لكثير من الأعوام في الآونة الأخيرة».

***

في مساء ذلك اليوم انضم إليهم جورج هوكس على العشاء في وايت إيكر. كانت هذه أول مرة يلتقي فيها جورج بأمبروس بايك شخصياً، وكان مثاراً جداً حيال الأمر، أو مثاراً كما سيصبح شخص عجوز ووقور مثل جورج.

قال جورج مبتسماً: «إنه لشرف لي أن أتعرف عليك. لقد أمتعني عملك كثيراً».

تأثرت ألما بصدق جورج. كانت تعرف ما لم يقله صديقها للفنان، أن هذا العام الماضي كان عام معاناة حادة في منزل هوكس، وأن أزهار السحلبية التي رسمها أمبروس بايك حررت جورج، بشكل عابر، من أشراك الظلمة.

أجابه بايك: «أقدم لك شكري غير المجامل من أجل تشجيعك. لسوء الحظ، إن الشكر الكثير هو الشيء الوحيد الذي أستطيع تقديمه حالياً وهو صادق».

كان هنري ويتاكر في مزاج سيء في تلك الليلة. استطاعت ألما أن ترى ذلك عن بعد عشر خطوات، وتمنت ألا ينضم والدها إليهم على العشاء. نسيت أن تحذر ضيفها من طبيعة والدها الفظة، وندمت على ذلك. سيُرمى السيد بايك المسكين أمام الذئب دون أي تحضير، وكان الذئب، كما هو واضح جداً، جائعاً وغاضباً في آن. تأسفت أيضاً أنها لا هي ولا جورج هوكس فكرا بإحضار إحدى رسومات أزهار السحلبية الفائقة للعادة كي تريها لوالدها، مما يعني أن هنري لا يمتلك فكرة عن

Twitter: @ketab_n

أمبروس بايك سوى أنه مطارد لأزهار السحلبية وفنان، وكلاهما من فئة الأشخاص الذين لا يميل إلى الإعجاب بهم.

لم يكن من المفاجئ أن العشاء بدأ بشكل سيء.

سأل والدها وهو ينظر مباشرة نحو الضيف الجديد: «من هو هذا الشخص مرة ثانية؟».

قالت ألما: «إنه السيد أمبروس بايك. كما أخبرتك من قبل. إنه عالم طبيعة ورسام، اكتشفه جورج مؤخراً. يرسم لوحات رائعة لأزهار السحلبية لم يسبق أن رأيت مثلها يا أبي».

«ترسم أزهار السحلبية؟»، سأل هنري السيد بايك بالنبرة نفسها التي يمكن أن يقول بها شخص آخر: «هل تسرق الأرامل؟».

«أحاول يا سيدي».

قال هنري: «الجميع يحاولون رسم أزهار السحلبية، لا شيء جديداً في هذا».

«أنت تطرح نقطة صحيحة يا سيدي».

«ما الشيء المميز في أزهار السحلبية الخاصة بك؟».

فكر السيد بايك بالسؤال واعترف: «لا أستطيع القول. لا أعرف إن كان فيها أي شيء مميز، يا سيدي سوى أن كل ما أفعله هو رسم أزهار السحلبية. وهو كل ما فعلته لمدة عشرين عاماً تقريباً».

«حسناً، هذه وظيفة سخيفة».

قال الفنان برباطة جأش: «أخالفك الرأي يا سيد ويتاكر، لكن فقط لأنني لن أسمّي هذا وظيفة على الإطلاق».

«كيف تكسب رزقك؟».

Twitter: @ketab_n

«ثانية، تثير مسألة مهمة. لكن كما على الأرجح تستطيع أن ترى من نمط لباسي، إنه مثير للجدل إن كنت أكسب رزقاً مطلقاً».

«لن أعلن هذه الحقيقة كصفة مميزة أيها الشاب».

«صدقني يا سيدي، لا أفعل».

حدق هنري إليه، مركزاً على البذلة المهترئة واللحية غير المشذبة.

سأل: «ما الذي حدث إذاً؟ لماذا أنت فقير؟ هل بددت ثروة كشخص فاسق؟».

حاولت ألما: «أبي ـ».

قال السيد بايك، وبدا كأنه غير مستاء: «من المحزن أنني لم أفعل هذا. لم يكن هناك أبداً أية ثروة لدى عائلتي كي تُبدد».

«ما الذي يفعله والدك كي يكسب رزقه؟».

«يستقر حالياً في برزخ الموت، لكن قبل هذا، كان كاهناً في فرامنغهام، ماساتشوسيتس».

«لماذا لست كاهناً في هذه الحالة؟».

«أمي تسأل السؤال نفسه يا سيد ويتاكر. أخشى أنه لدي الكثير من الأسئلة حول الدين تمنعني من أكون كاهناً جيداً».

عبس هنري: «الدين؟ وما علاقة الدين بحق الشيطان بكونك كاهناً جيداً؟ إنها مهنة كالمهن الأخرى أيها الشاب. كيّفْ نفسك مع المهمة، وأبق آراءك خاصة بك. هذا ما يفعله أو ما يجب أن يفعله جميع الكهنة الجيدين؟».

ضحك السيد بايك مستمتعاً: «أتمنى لو أن أحداً ما قال لي هذا منذ عشرين سنة يا سيدي!».

Twitter: @ketab_n

«لا عذر لشاب يتمتع بصحة جيدة وبالذكاء في هذه البلاد ألا يزدهر. حتى ابن كاهن يجب أن يكون قادراً على العثور على نشاط مجد في مكان ما».

قال السيد بايك: «سيوافقك كثيرون الرأي بما فيه والدي. مع ذلك، كنت أعيش في وضع متدن لسنوات».

«وكنت أعيش في وضع جيد إلى الأبد! جئت في البداية إلى هنا، إلى أميركا حين كنت شاباً في عمرك. وجدت النقود تكمن في كل مكان، في جميع أنحاء البلاد. كل ما كان علي فعله هو أن ألتقطها برأس عكازي. ما هو عذرك للفقر إذاً؟».

نظر السيد بايك إلى عيني هنري بشكل مباشر وقال بأثر من المكر: «الحاجة إلى عكاز جيد، كما أفترض».

بلعت ألما بصعوبة وحدقت في صحنها. فعل جورج هوكس الشيء نفسه. بدا هنري كأنه لم يسمع. مرت أوقات شكرت فيها ألما السماء لأن سمع والدها تدهور. كان قد وجّه انتباهه إلى كبير الخدم.

قال هنري: «قلتُ لك يا بيكر إذا جعلتني آكل لحم الضأن مرة أخرى هذا الأسبوع سأجعل أحداً ما يطلق عليك النار».

أكدت ألما للسيد بايك بصوت منخفض: «لا يقوم بإطلاق النار على الناس في الحقيقة».

همس ضيفها: «ظننت هذا، وإلا لكنت ميتاً».

تبادل جورج وألما والسيد بايك في الوقت المتبقي من الوجبة حديثاً ممتعاً ـ تقريباً فيما بينهم ـ بينما كان هنري ينفخ ويسعل ويشكو من مظاهر مختلفة لعشائه، وينام بضع مرات، وذقنه تنهار على صدره. كان في الثامنة والثمانين من عمره. ولم يبد أن أياً من هذا، لحسن الحظ،

أزعج السيد بايك، وبما أن جورج هوكس معتاد على هذا النوع من السلوك، استرخت ألما قليلاً في النهاية.

قالت ألما للسيد بايك بصوت منخفض، أثناء إحدى نوبات نوم هنري: «من فضلك سامح والدي، إن جورج يعرف تقلبات مزاجه جيداً، لكن هذه الانفجارات قد تكون مزعجة للذين لا يعرفون هنري ويتاكر».

«إنه الدب على مائدة العشاء»، أجاب السيد بايك، بنبرة معجبة أكثر مما هي مروّعة.

قالت ألما: «بالفعل هذا هو. الحمد لله أنه يمنحنا استراحة حين ينام أحياناً».

جلب هذا التعليق الابتسامة لشفتي جورج هوكس، لكن أمبروس كان ما يزال يدرس الشكل النائم لهنري، ويفكر بشيء ما.

قال: «كان أبي جدياً هكذا. وجدت دوماً حالات صمته مخيفة. أعتقد أنه من الممتع لو كان لدى المرء والد يتحدث ويتصرف بهذه الحرية. يعرف المرء دائماً أين يقف».

«يعرف المرء من هذا»، وافقت ألما.

قال جورج مغيراً الموضوع: «سيد بايك، هل يمكن أن أسأل أين تعيش حالياً؟ إن العنوان الذي أرسلتُ إليه رسالتي هو في بوسطن، لكنك ذكرتَ أن عائلتك تعيش في فرامنغهام، لهذا لم أكن متأكداً».

قال السيد بايك: «في هذه اللحظة أنا بلا منزل. العنوان الذي تشير إليه في بوسطن هو بيت صديقي القديم دانييل توبر، الذي كان لطيفاً معي منذ أيام وجودي القصير في هارفارد. تملك أسرته مطبعة صغيرة في بوسطن، ليست رائعة كمطبعتك، لكنها مدارة جيداً ومزدهرة، وهم

Twitter: @ketab_n

معروفون بشكل أكبر من أجل المنشورات والفواتير والإعلانات المحلية، وأشياء من هذا القبيل. حين تركت هارفارد، عملت لعائلة توبر لعدة أعوام كمنضد حروف مطبعية، واكتشفت أنني جيد في الأمر. هناك أيضاً تعلمت لأول مرة فن الطباعة الحجرية. قيل لي إنها صعبة، لكنني لم أجدها أبداً هكذا. إنها مثل الرسم عدا أن المرء يرسم على الحجر، كما تعرفان. سامحاني. أنا غير معتاد على الحديث عن عملي».

تابع جورج بلطف: «وما الذي أخذك إلى المكسيك وغواتيمالا، يا سيد بايك؟».

«يعود الفضل في هذا أيضاً إلى صديقي توبر. كنتُ مفتوناً على الدوام بأزهار السحلبية، ومرة تفتّق ذهن توبر عن خطة بأن أذهب إلى المناطق المدارية لبضع سنوات وأقوم ببعض الرسوم، وننتج معاً كتاباً جميلاً حول أزهار السحلبية الاستوائية. واعتقد أن هذا سيجعلنا غنيين. كنا صغاراً ووثق بي كثيراً. وهكذا جمعنا مواردنا ووضعني توبر على ظهر سفينة. أرشدني بأن أنطلق وأصنع نفسي بقوة في العالم. ومما أحزنه أنني لست من النوع العملي، ومما أحزنه أكثر أن السنوات القليلة التي كان يجب أن أقضيها في الأدغال صارت ثماني عشرة سنة، كما قلتُ سابقاً للآنسة ويتاكر. ومن خلال التقتير والمثابرة تمكنت من البقاء على قيد الحياة هناك لمدة عقدين تقريباً، وأفتخر بأنني لم آخذ نقوداً أبداً من توبر أو أي شخص آخر، بعد استثماره الأولي. مع ذلك، أعتقد أن المسكين توبر شعر بأن إيمانه بي كان مضللاً تماماً. حين عدت في النهاية إلى الوطن العام الماضي، كان لطيفاً وسمح لي باستخدام مطبعة عائلته كي أصنع بعض الرسوم الحجرية التي اطلعتما عليها، ولكن ـ بشكل قابل للصفح ـ فقد منذ زمن طويل رغبته في أن ينتج كتاباً معي. فبالنسبة له أنا أتحرك ببطء شديد. لديه أسرة ولا يستطيع أن يبدد وقته

Twitter: @ketab_n

الآن في مشاريع مكلفة كهذه. إنه يسمح لي بالنوم على فرشة في منزله، ومنذ عدت إلى أميركا صرت أساعده مرة أخرى في المطبعة».

قالت ألما: «وما هي خططك الآن؟».

رفع السيد بايك يديه، كما لو أنه يتضرع أمام السماء: «مر وقت طويل منذ أن وضعت الخطط، كما ترين».

سألت ألما: «ولكن ماذا تحب أن تفعل؟».

«لم يسألني أحد أبداً من قبل هذا السؤال».

«لكنني أسألك يا سيد بايك، وأتمنى أن تمنحني جواباً صادقاً».

أدار عينيه البنيتين الخفيفتين إليها. لم يبد منهكاً بشكل مريع. قال: «سأخبرك إذاً يا آنسة ويتاكر. لا أريد أن أسافر مرة أخرى أبداً. أرغب بأن أمضي ما تبقى من أيامي في مكان صامت وأعمل بخطو بطيء كي أتمكن من سماع نفسي أعيش».

تبادل جورج وألما النظرات. كما لو أنه شعر أنه تُرك في الخلف، استيقظ هنري مجفلاً، وأعاد لفت الانتباه إلى نفسه.

قال: «ألما! هل قرأت الرسالة التي أرسلها ديك يانسي الأسبوع الماضي؟».

أجابت مغيرة نبرتها بخفة: «قرأتها يا أبي».

«ما رأيك بها؟».

«أعتقد أنها أخبار سيئة».

«من الواضح أنها هكذا. لقد عكّرت مزاجي. لكن ما رأي صديقيك هنا بها؟» سأل هنري، ملوحاً بكأسه لضيفيه.

قالت ألما: «لا أظن أنهما يعرفان عن الوضع».

«أخبريهما إذاً يا ابنتي، أريد آراء».

كان هذا أكثر غرابة، ذلك أن هنري لم يكن يطلب آراء بشكل عام، لكنه حثها ثانية بتلويحة من كأس نبيذه، وهكذا بدأت تتحدث، موجهة خطابها إلى جورج والسيد بايك.

قالت: «حسناً، إن الأمر عن نبات الونيل. أقنع رجل فرنسي والدي منذ ١٥ سنة أو ما يقارب ذلك بأن يستثمر في مزرعة لزراعة نبات الونيل في تاهيتي. بلغنا الآن أن المزرعة فشلت، واختفى الرجل الفرنسي».

أضاف هنري: «مع ما استثمرته».

أكدت ألما: «مع ما استثمره أبي».

أوضح هنري: «استثمار معتبر».

«معتبر جداً»، وافقت ألما. كانت تعرف هذا أيضاً، لأنها رتبت التحويلات المالية بنفسها.

قال هنري: «كان يجب أن يعمل هذا. إن المناخ مناسب من أجل ذلك، ونمت العرائش! رآها ديك يانسي بنفسه. نمت إلى ارتفاع ٦٥ قدماً. قال الرجل الفرنسي البغيض إن الونيل سينمو بوفرة هناك، وكان مصيباً في هذا. أنتجت العرائش براعم كبيرة كقبضتك. تماماً كما قال إنها ستفعل. ما الذي قاله لي ذلك الرجل الفرنسي الصغير يا ألما؟ إن زراعة الونيل في تاهيتي أسهل من الضراط أثناء نومك».

شحبت ألما، وهي تحدق إلى ضيفيها. طوى جورج بلباقة منديله في حضنه، لكن السيد بايك ابتسم باستمتاع واضح.

سأل: «إذاً ما الخطأ إذا كان بوسعي أن أسأل؟».

Twitter: @ketab_n

حدق هنري به: «لم تثمر العرائش، تفتحت البراعم وذبلت، ولم تنتج قرناً كريهاً واحداً».

«هل يمكن أن أسأل من أين أتت نباتات الونيل الأصلية؟».

زأر هنري محدقاً إلى السيد بايك بروح مليئة بالتحدي: «من المكسيك. إذاً ستكون أنت من يخبرني أيها الشاب، ما الخطأ؟».

بدأت ألما تكتشف بوضوح شيئاً ما هنا. لماذا حدث وقللت من قدر والدها؟ هل هناك شيء يفتقد إليه العجوز؟ حتى في مزاجه السيء، حتى في شبه طرشه، حتى في نومه، كان يعرف من يجلس إلى طاولته: خبير أزهار سحلبية أمضى لتوه عقدين من الزمن يدرس في أنحاء المكسيك. والونيل، كما تذكرت ألما الآن، ينتمي إلى عائلة نباتات السحلبية. لقد وضع ضيفهم تحت الاختبار.

قال السيد بايك: «الونيل ذو الأوراق المسطحة».

أكد هنري، ووضع كأس نبيذه على الطاولة: «بالضبط، هذا ما زرعناه في تاهيتي، تابغ».

«رأيته في جميع أنحاء المكسيك، بشكل أكبر حول أواهاكا. إن رجلك في بولينزيا، رجلك الفرنسي، كان مصيباً. إن الونيل متسلق قوي جداً، ويناسبه مناخ جنوب المحيط الهادي، كما أعتقد».

سأل هنري: «إذاً لماذا لم تثمر النباتات البغيضة؟».

قال بايك: «لا أعرف بشكل أكيد، بما أنني لم أر أبداً النباتات المذكورة».

قال هنري: «إذاً أنت رسام أزهار سحلبية صغير لا فائدة ترجى منه، أليس كذلك؟».

Twitter: @ketab_n

«أبي».

واصل السيد بايك غير مهتم بالإهانة: «على أي حال، أستطيع أن أطرح نظرية يا سيدي. حين كان رجلك الفرنسي في الأصل يشتري نباتات الونيل في المكسيك، ربما اشترى بالمصادفة نوعاً من الونيل ذي الأوراق المسطحة يدعوه السكان الأصليون إذن الحمار، الذي لا يثمر أبداً».

قال هنري: «كان معتوهاً إذاً».

«ليس بالضرورة يا سيد ويتاكر. يحتاج الأمر إلى عين مدرّبة لترى الفرق بين الأنواع المثمرة وغير المثمرة من الونيل ذي الأوراق المسطحة. هذا خطأ شائع. إن السكان الأصليين أنفسهم يخلطون بين الصنفين. ولا يستطيع إلا بضعة علماء نبات تحديد الفرق».

سأله هنري: «هل تستطيع تحديد الفرق؟».

تردد السيد بايك. «كان من الواضح أنه لا يريد أن ينتقص من رجل لم يره من قبل أبداً».

«سألتك سؤالاً أيها الفتى. هل تستطيع تحديد الفرق بين صنفي الونيل هذين؟ أم لا تستطيع؟».

«بشكل عام، نعم يا سيدي أستطيع تحديد الفرق».

استنتج هنري: «إذاً كان الفرنسي معتوهاً، وأنا أكثر عتهاً لأنني استثمرت معه، والآن أضعت ٣٥ فداناً من الأرض المنخفضة الرائعة في تاهيتي، في زراعة نوع غير مثمر من عرائش الونيل في الخمس عشرة سنة الماضية. اكتبي رسالة الليلة إلى ديك يانسي يا ألما كي يقتلع كل العرائش ويطعمها للخنازير. اطلبي منه أن يستبدلها بالبطاطا. أخبري يانسي أن يطعم الفرنسي للخنازير إن حدث وعثر عليه».

Twitter: @ketab_n

نهض هنري وعرج خارج الغرفة، غاضباً بحيث لم يستطع أن ينهي وجبته. جلس جورج والسيد بايك في صمت يتساءلان عن الشخص المنسحب، الذي بدا غريباً في لمة شعره المستعارة وبنطاله الخيشي القصير، وكان غاضباً جداً.

بالنسبة لألما، شعرت بالنصر. خسر الفرنسي وخسر هنري ويتاكر، وخسروا مزرعة الونيل في تاهيتي. لكنها اعتقدت أن أمبروس بايك، فاز بشيء ما الليلة، أثناء ظهوره الأول إلى مائدة عشاء وايت إيكر.

كان نصراً صغيراً، ربما، لكنه يمكن أن يؤدي إلى شيء ما في النهاية.

* * *

في تلك الليلة أيقظت ألما ضجة غريبة.

كانت قد ضاعت في نوم بلا أحلام ثم، فجأة كما لو أنها صُفعت، استيقظت. حدقت في الظلمة. هل كان هناك أحد ما في غرفتها؟ هل كانت هانيكي؟ كلا. لا أحد هناك. عاودت وضع رأسها على مخدتها. كانت الليل بارداً وهادئاً. ما الذي قاطع نومها؟ أصوات؟ تذكرت للمرة الأولى طيلة سنوات الليلةَ التي أُحْضِرَت فيها برودنس إلى وايت إيكر محاطة بالرجال ومصطبغة بالدم. المسكينة برودنس! يجب أن تذهب ألما وتزورها فعلاً. يجب أن تبذل المزيد من الجهود مع شقيقتها. لكن لم يكن هناك وقت. كان هناك صمت في كل مكان حولها. بدأت ألما تستقر من جديد في النوم.

سمعت صوتاً مرة ثانية. فتحت ألما عينيها مرة أخرى. ماذا كان هذا؟ بدا بالفعل أن هذه أصوات، لكن من سيكون مستيقظاً في هذه الساعة؟

نهضت ولفت الشال حول جسمها، وأشعلت مصباحها بخبرة

Twitter: @ketab_n

سارت إلى قمة الدرج ونظرت فوق الدرابزين. كان المصباح مضاء في غرفة الاستقبال؛ استطاعت رؤيته يتوهج من تحت الباب. استطاعت سماع ضحك والدها. مع من هو؟ هل كان يتحدث مع نفسه؟ لماذا لم يوقظها أحد، في حال كان هنري يحتاج إلى شيء ما؟

نزلت الدرج وشاهدت والدها يجلس إلى جانب أمبروس بايك على الصوفا. كانا ينظران إلى بعض الرسوم. والدها يرتدي قميص نوم طويلاً وأبيض وقبعة نوم عتيقة الطراز، ومحمر من الشراب. السيد بايك ما يزال في بذلته القطنية السميكة والبنية، وشعره أكثر فوضوية مما كان عليه من قبل أثناء النهار.

قال السيد بايك وهو ينظر نحو الأعلى: «لقد أيقظناك. تقبلي اعتذاري».

سألت ألما: «هل أستطيع مساعدتكما في أي شيء؟».

صاح هنري: «ألما! لقد قام فتاك بعمل رائع هنا! أريه لها يا ولدي!».

كان هنري ثملاً، كما أدركت ألما؛ كان مبتهجاً فحسب.

قال السيد بايك: «لم أستطع النوم يا آنسة ويتاكر، لأنني كنت أفكر بنباتات الونيل في تاهيتي. خطر لي أنه قد يكون هناك احتمال آخر لسبب عدم إثمار العرائش. كان يجب أن أنتظر حتى الصباح كي لا أزعج أحداً، لكنني لم أرد أن أفقد الفكرة. وهكذا نهضت ونزلت، باحثاً عن ورقة. أخشى أنني أيقظت والدك أثناء هذه العملية».

«انظري ما الذي فعله!»، قال هنري، رامياً ورقة إلى ألما. كانت اسكتشاً جميلاً، مرسوماً بتفاصيل دقيقة، لبرعم ونيل بينما تشير سهام

Twitter: @ketab_n

إلى أجزاء معينة من تشريح النبتة. حدق هنري بألما متوقعاً، فيما كانت تدرس الورقة، التي لم تعن شيئاً لها.

قالت ألما: «أعتذر. كنت نائمة منذ لحظة فقط، لهذا ربما ذهني غير صاف جداً..».

«التلقيح يا ألما!»، صاح هنري، مصفقاً بيده مرة، ثم مشيراً إلى السيد بايك بأن يشرح هو.

«ما أعتقد أنه حصل يا آنسة ويتاكر - كما كنت أخبر والدك - هو أن رجلكم الفرنسي ربما بالفعل اشترى النوع الصحيح من الونيل من المكسيك. ولكن ربما كان السبب في عدم إثمار العرائش هو أنها لم تُلقّح بشكل ناجح».

كان الوقت منتصف الليل، وكانت ألما نائمة قبل لحظات، لكن ذهنها كان آلة مدربة على الحساب النباتي، لهذا سمعت على الفور آلة حساب دماغها تتكتك من أجل الفهم.

سألت: «ما هي آلية تلقيح زهرة السحلبية؟».

قال السيد بايك: «لا أستطيع الجزم. لا أحد متأكداً من هذا. قد تكون نملة أو نحلة أو فراشة من نوع ما، وقد تكون طائراً طناناً. لكن مهما كانت فإن رجلكم الفرنسي لم ينقلها إلى تاهيتي مع النباتات، ويبدو كأن الحشرات والطيور الأصلية لبولينزيا الفرنسية غير قادرة على تلقيح براعم الونيل الخاصة بكم، والتي لها شكل صعب. وهكذا لم تثمر ولم تعقد القرون».

صفق هنري ثانية. «ما من أرباح!»، أضاف.

سألت ألما: «إذاً ماذا نفعل؟ نجمع جميع الحشرات والطيور في

الغابة المكسيكية ونحاول شحنها حية، إلى جنوب المحيط الهادي، آملين العثور على ملقِّحك؟».

قال السيد بايك: «لا أعتقد أنك بحاجة إلى هذا. لهذا لم أستطع النوم، لأنني كنت أفكر بالمسألة نفسها، وأعتقد أنني توصلت إلى الحل. أعتقد أنك تستطيعين القيام بالتلقيح بنفسك يدويّاً. انظري، لقد أعددت بعض الرسوم هنا. إن ما يصعّب عملية تلقيح زهرة السحلبية الونيلية هو المنقاف الطويل بشكل استثنائي، كما ترين، الذي يحتوي على كل من الأعضاء الذكرية والأنثوية. إن المنقاف ـ هنا تماماً ـ يفصل بين هذه الأعضاء لمنع النبتة من أن تلقح نفسها. تحتاجين فقط إلى رفع المنقاف، ثم إدخال غصن صغير في عنقود حبوب الطلع، وجمع غبار الطلع على رأس الغصن، ثم إعادة إدخال الغصن في سداة برعم مختلف. أنت تلعبين جوهرياً دور النحلة أو النملة أو كل من سيفعل هذا في الطبيعة. لكن يمكن أن تكوني أكثر فعالية من أي حيوان لأنه يمكنك أن تلقحي يدوياً جميع براعم العريشة».

سألت ألما: «من سيفعل ذلك؟».

قال السيد بايك: «يستطيع عمالكم فعل هذا. إن النبات يبرعم مرة واحدة في العام، وتحتاج المهمة إلى أسبوع لإنجازها».

«ألن يسحق العمال البراعم؟».

«كلا إذا دُربوا بشكل جيد».

«لكن من سيملك الرقة لعملية كهذه؟».

ابتسم السيذ بايك: «كل ما تحتاجون إليه هو فتية صغار بأصابع صغيرة وعصي صغيرة. وسيستمتعون بالعملية. أنا نفسي يمكن أن

أستمتع بها كطفل. وأكيد أن هناك وفرة من الأطفال والعصي الصغيرة في تاهيتي، أليس كذلك؟».

قال هنري: «حسناً! ما رأيك يا ألما؟».

«أعتقد أن هذا رائع». كانت تفكر أيضاً بأن أوّل شيء ستفعله غداً هو أن تُري أمبروس بايك نسخ مكتبة وايت إيكر من مجموعة المخطوطات الفلورنسية من القرن السادس عشر، والتي تحتوي على الرسوم القديمة الفرنسيسكانية الأسبانية لعرائش الونيل. سيقدّر هذا كثيراً. كانت متلهفة كي تريها له ذلك أنها لم تصطحبه إلى المكتبة حتى الآن. لم يرَ أي شيء تقريباً في وايت إيكر. لديهما الكثير للاستقصاء أمامهما!

قال السيد بايك: «إنها مجرد فكرة. ربما يمكنها الانتظار حتى طلوع النهار».

سمعت ألما ضجيجاً والتفتت. كانت هانيكي دي غروت، تقف على الباب في ملابسها الليلية، وقد بدت سمينة ومنتفخة ومستاءة.

قال السيد بايك: «يبدو أنني أيقظت المنزل كله، تقبّلوا اعتذاري الأكثر صدقاً».

سألت هانيكي ألما: «هل هناك مشكلة؟».

قالت ألما: «ما من مشكلة يا هانيكي. كنا نتناقش فحسب».

سألت هانيكي بالهولندية: «في الثانية صباحاً. هل هذا ماخور؟».

«ما الذي تقوله؟»، سأل هنري. وبصرف النظر عن سمعه المتدهور لم يكن يعرف الهولندية، رغم أنه تزوج من امرأة هولندية لعقود، وعمل مع ناطقين بالهولندية وقتاً طويلاً من حياته.

Twitter: @ketab_n

قالت ألما: «تسأل إن كان أي منكما يريد القهوة أو الشاي، سيد بايك؟ أبي؟».

قال هنري: «سأتناول الشاي».

قال السيد بايك: «هذا لطف منكم لكنني سأستأذن بالخروج. سأعود إلى غرفتي وأعد بأنني لن أزعج أحداً بعد الآن. فضلاً عن ذلك، أدركت لتوي أن غداً هو يوم صلاة. ربما ستستيقظون باكراً للذهاب إلى الكنيسة؟».

قال هنري: «ليس أنا!».

قالت ألما: «ستجد في هذا المنزل يا سيد بايك أن بعضنا يتقيد بيوم الصلاة والبعض لا يتقيد، وبعضنا الآخر يتقيد إلى نصف الطريق فقط».

أجاب: «أفهم. في غواتيمالا غالباً ما فقدتُ مسار الأيام، وأخشى أنني فقدت أيام صلوات كثيرة».

«هل يتقيدون بيوم الصلاة في غواتيمالا يا سيد بايك؟».

«أخشى أنه فقط من خلال شرب الكحول والمشاجرة وصراع الديكة».

صاح هنري: «إذاً نذهب إلى غواتيمالا».

لم تر ألما والدها في معنويات مرتفعة كهذه منذ سنوات.

ضحك أمبروس بايك: «بوسعك الذهاب إلى غواتيمالا يا سيد ويتاكر. سيقدرونك هناك. لكنني أنا نفسي انتهيت من الأدغال. أما بالنسبة لليلة فسأعود فقط إلى غرفتي. حين أمتلك فرصة كي أنام في سرير جيد سأكون مغفلاً إذا ضيّعت ذلك. وداعاً الليلة، وشكراً على استضافتكما لي، وأعتذر من خادمتكم».

بعد أن غادر السيد بايك الغرفة، جلست ألما ووالدها صامتين لوهلة. حدق هنري برسم أمبروس لنبتة الونيل السحلبية. كان بوسع ألما سماعه يفكّر؛ كانت تعرف والدها جيداً. انتظرت أن يقول كلامه ـ بينما كانت تعرف أنه سيفعل ـ وفكرت في الوقت نفسه كيف ستصارعه.

عادت هانيكي حاملة صينية عليها شاي لألما وهنري. وضعتها بتنهيدة تذمر، ثم جلست على كرسي بذراعين قبالة هنري. صبّتْ الخادمة كوبها أولاً، ووضعت كاحلها الدموي العجوز على كرسي قدمين فرنسي مطرز بشكل رائع. وتركت هنري وألما يخدمان نفسيهما. صار البروتوكول في وايت إيكر أكثر استرخاء مع مرور الأعوام.

«يجب أن نرسله إلى تاهيتي»، قال هنري أخيراً، بعد خمس دقائق من الصمت. «سنعيّنه مسؤولاً عن مزرعة الونيل».

إذاً هذا هو الأمر. هذا ما رأت ألما أنه قادم.

قالت: «فكرة مهمة».

لكن لم يكن بوسعها ترك والدها يرسل السيد بايك إلى البحار الجنوبية. عرفت هذا بيقين مثلما ما عرفت أي شيء في حياتها. شعرت بأن الفنان لن يرحب بهذه الوظيفة. فقد قال إنه انتهى من الأدغال. لم يعد يرغب بالسفر بعد الآن. كان منهكاً ويشعر بالحنين إلى الوطن، ومع ذلك لا يملك منزلاً. كان الرجل بحاجة إلى منزل. يحتاج إلى الراحة. يحتاج إلى مكان يعمل فيه، كي يرسم اللوحات ويطبع الرسومات التي وُلد كي يصنعها، وكي يسمح نفسه يعيش.

فضلاً عن ذلك، ألما بحاجة إلى السيد بايك. شعرت بهيمنة ضرورة وحشية لإبقاء هذا الشخص في وايت إيكر إلى الأبد. وأي قرار هذا بعد معرفته لأقل من يوم واحد؟ شعرت اليوم بأنها أصغر بعشر سنوات مما

كانت عليه في اليوم السابق. كان هذا هو السبت الأكثر تنويراً الذي أمضته ألما طيلة عقود ـ أو ربما منذ الطفولة ـ وكان أمبروس بايك هو مصدر الإشراق.

ذكّرها هذا الموقف بنفسها حين كانت طفلة وعثرت على أنثى ثعلب صغيرة في الغابات، يتيمة وصغيرة. أحضرتْها إلى المنزل وتوسّلت إلى والديها كي يسمحا لها بالاحتفاظ بها. حدث هذا في الأيام الذهبية قبل وصول برودنس، حين مُنحت ألما إدارة الكون كله. أُغري هنري لكن بياتريكس أوقفت الخطة. فالحيوانات المتوحشة تنتمي إلى الأمكنة البرية. أخذت أنثى الثعلب من يدي ألما ولم تُشاهَد بعد ذلك أبداً.

حسناً، لن تخسر هذا الثعلب. ولم تعد بياتريكس هنا كي تمنع ذلك.

قالت ألما: «أعتقد أن هذا خطأ يا أبي. سنخسر السيد بايك إذا أرسلناه إلى بولينزيا. إن أي شخص يمكن أن يدير مزرعة ونيل. سمعتَ لتوك الرجل يشرح نفسه. الأمر بسيط. لقد وضع الرسوم التوجيهية. أرسلْ الرسوم إلى ديك يانسي، واطلب منه أن يوظّف شخصاً ما لتطبيق برنامج التلقيح. أعتقد أنه يمكنك استخدام السيد بايك هنا في وايت إيكر على نحو أفضل».

سألها هنري: «أن يفعل ماذا بالضبط؟».

«لم تشاهد رسوماته بعد يا أبي. يعتقد جورج هوكس أن أمبروس بايك أفضل طابع حجري في عصرنا».

«وما حاجتي لطابع حجري؟».

«ربما حان الوقت لنشر كتاب عن كنوز وايت إيكر النباتية. لديك عينات في هذه البيوت الزجاجية لم يرها العالم المتحضر أبداً. يجب أن تُوثَّق».

Twitter: @ketab_n

«لماذا أفعل شيئاً مكلفاً كهذا يا ألما؟».

قالت ألما محاولة الجواب: «دعني أخبرك شيئاً سمعتُ به مؤخراً. إن كيو تخطط كي تنشر كتالوجاً من المطبوعات والرسوم الرائعة لنباتاتها الأكثر ندرة. هل سمعت بهذا؟».

سأل هنري: «من أجل أي هدف؟».

قالت: «من أجل هدف التباهي يا أبي. سمعتُ هذا من أحد العاملين في الطباعة الحجرية الذين يعملون لجورج هوكس في شارع آرش. قدم البريطانيون لهذا الفتى ثروة صغيرة، كي يغروه للقدوم إلى كيو. إنه موهوب جداً، رغم أنه ليس بمستوى أمبروس بايك. إنه يفكر بقبول الدعوة. قال إن الكتاب يهدف إلى أن يكون أجمل مجموعة نباتية سبق أن طُبعت. إن الملكة فكتوريا نفسها تستثمر فيه. سيحتوي الكتاب على مطبوعات حجرية بخمسة ألوان، وسيشارك في إنجاز ذلك أفضل رسامي الألوان المائية في أوربا. سيكون مجلداً ضخماً أيضاً، بطول قدمين تقريباً، كما قال الفتى، وسميكاً كالكتاب المقدس. سيرغب باقتناء نسخة منه كل جامعي النباتات. ويهدف إلى الإعلان عن نهضة كيو».

قال هنري باستهزاء: «نهضة كيو. لن تكون كيو أبداً كما كانت بعد وفاة بانكس».

«سمعت ما يخالف ذلك يا أبي، منذ أن بنوا منزل النخيل يزعم الجميع أن المكان صار رائعاً مرة ثانية».

هل كانت إثارة خصومة هنري القديمة مع حدائق كيو وقاحة منها؟ أم خطيئة؟ لكن ما قالته كان صحيحاً. كان كله صحيحاً. فليكوّن هنري بعض العداوة، إذاً. إن إثارة هذه القوة ليست خطأً. ذلك أن قليلاً من

التنافس لن يؤذي أحداً. كانت تثير الدم في عظام هنري ويتاكر الكهلة، وفي نفسها أيضاً. لتمتلك هذه الأسرة النبض مرة أخرى!

تابعت: «لم يسمع أحد بعد بأمبروس بايك يا أبي. لكن حالما ينشر جورج هوكس مجموعته عن نباتات السحلبية، سيعرف الجميع الاسم. وحالما تنشر كيو كتابها سترغب جميع الحدائق والبيوت الزجاجية النباتية البارزة بأن تنشر مجموعة من الرسوم وسترغب بأن يرسمها السيد بايك. يجب ألا ننتظر، كي لا نخسره من قِبَل حديقة منافسة. لنبْقهِ هنا، ونقدّم له المأوى والرعاية. لنستثمر فيه، يا أبي. رأيت كم هو ذكي، ومفيد. امنحْه الفرصة. لننتج كتاب لوحات ضخماً لمجموعة وايت إيكر تتجاوز أي شيء سبق ورآه عالم النشر النباتي من قبل».

لم يقل هنري أي شيء. استطاعت أن تسمع آلة ذهنه الحاسبة تشتغل الآن. انتظرت. استغرق معه الأمر وقتاً طويلاً للتفكير. في غضون ذلك، كانت هانيكي تسرع في احتساء قهوتها بما بدا كأنه نهم مدبّر. بدا كأن الضجيج يلهي هنري. أرادت ألما أن تضرب الفنجان كي يسقط من بين يدي المرأة العجوز.

رافعة صوتها، بذلت ألما جهداً أخيراً: «لن يكون من الصعب يا أبي إقناع السيد بايك بالبقاء هنا. فالرجل يحتاج إلى مسكن، لكنه يعيش على القليل، ولن يتطلب الأمر أي شيء تقريباً لدعمه. إن مقتنياته الدنيوية تملأ حقيبة يد صغيرة، وكما رأيت الليلة، إن رفقته ممتعة. أعتقد أنه يمكن أن تستمتع أيضاً ببقائه هنا. لكن مهما فعلت يا أبي فإنني ألح عليك ألا ترسل هذا الرجل إلى تاهيتي. إن أي مغفل يمكن أن يزرع الونيل. عيّن رجلاً فرنسياً آخر لهذا العمل، أو وظّف مبشّراً ضجراً. إن أي أبله مزعج يستطيع أن يدير مزرعة، لكن لا أحد يستطيع أن يرسم

نباتات كما يفعل أمبروس بايك. لا تترك الفرصة تفلت منك في إبقائه معنا هنا. نادراً ما أقدم لك نصيحة كهذه، يا أبي، لكن أتوسل إليك الليلة في أوضح التعابير: لا تخسر هذا الشخص. ستندم على ذلك».

خيّم صمت طويل. صدر صوتُ رشفةٍ نهمةٍ أخرى من هانيكي.

قال هنري أخيراً: «سيحتاج إلى استديو، وآلات طباعة، أشياء من هذا القبيل».

قالت ألما: «يستطيع أن يشاركني في منزل العربات. يوجد الكثير من الفراغ فيه».

وهكذا قُرر الأمر.

عرج هنري إلى سريره. ترك ألما وهانيكي تحدقان ببعضهما. لم تقل هانيكي أي شيء، لكن ألما لم تحب التعبير الذي على وجهها.

سألت ألما أخيراً: «ماذا؟».

سألت هانيكي بالهولندية: «أي نوع من الألعاب تلعبين؟».

قالت ألما: «لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه. أنا لا ألعب لعبة».

هزت الخادمة العجوز كتفيها: «كما تشائين». ثم قالت بإنكليزية ملفوظة بشكل متعمد: «أنت سيدة المنزل».

نهضت هانيكي، شربت ما تبقى من قهوتها، وعادت إلى غرفتها في القبو، تاركةً فوضى خلفها في غرفة الاستقبال من أجل شخص آخر كي ينظفها.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس عشر

صارت ألما وأمبروس غير قابلين للفصل. وبدآ يمضيان جميع اللحظات معاً. وجّهت ألما السيدة هانيكي كي تنقل السيد بايك من جناح الضيوف إلى غرفة نوم برودنس القديمة، في الطابق الثاني من المنزل، مقابل غرفة ألما. احتجت هانيكي على إقحام غريب في غرف العائلة الخاصة (قالت إن هذا غير ملائم أو آمن، وخاصة أننا لا نعرفه)، لكن ألما رفضت كلامها، وتمت عملية النقل. وأعدت ألما بنفسها مكاناً لأمبروس في منزل العربات، في غرفة لعدة الخيل مهجورة قرب مكتبها. وفي غضون أسبوعين وصلت آلات طباعته. ثم اشترت له ألما طاولة مزودة بصناديق وأدراج عريضة وقليلة العمق لوضع الرسومات.

قال لها أمبروس: «لم يكن لدي مكتب أبداً من قبل، هذا يجعلني أشعر بأنني مهم على نحو غير معهود، وبأنني معاون ضابط».

كان هناك باب واحد يفصل بين مكتبيهما لم يُغلق أبداً. طول النهار، كانت ألما وأمبروس يسيران جيئة وذهاباً في غرفة كل منهما، كلٌ منهما يراقب تقدم الآخر، ويريان بعضهما بعضاً شيئاً أو آخر مهماً في إناء عينات، أو على سلايد مجهر. كانا يأكلان التوست المدهون بالزبدة معاً كل صباح، ويتناولان وجبات غداء غجرية في الحقول، ويسهران حتى وقت متأخر من الليل، يساعدان هنري في مراسلاته، أو ينظران في مجلدات قديمة من مكتبة وايت إيكر. في أيام الأحد، كان أمبروس

Twitter: @ketab_n

يذهب مع ألما إلى كنيسة اللوثريين السويديين البليدين والكسالى، ويتلو الصلاة بطاعة إلى جانبها.

لم يكن يهم إن تحدثا أو كانا صامتين، لكنهما لم ينفصلا أبداً.

حين تمضي ألما ساعات وهي تعمل على الطحالب، يتمدد أمبروس على الأعشاب قربها ويقرأ. وحين يرسم أمبروس في منزل نباتات السحلبية، تضع ألما كرسياً قربه، وتعمل على مراسلاتها الخاصة. لم تمض أبداً من قبل الكثير من الوقت في البيت الزجاجي لنباتات السحلبية، لكن منذ وصول أمبروس، تحول إلى أجمل مكان في وايت إيكر. أمضى تقريباً أسبوعين في تنظيف مئات من ألواح الزجاج بحيث دخل ضوء الشمس في أعمدة متموجة وغير مفلترة. مسح الأرضيات ونظّفها بالشمع إلى أن لمعث. فضلاً عن ذلك، وعلى نحو مدهش، أمضى أسبوعاً آخر في تلميع أوراق جميع نباتات السحلبية بقشور الموز، إلى أن لمعت كلها كآنية شاي غَسَلها خادم مخلص.

قال ألما ممازحة: «ما الأمر التالي يا أمبروس؟ هل يجب أن نمشّط شعر كل نبتة سرخس في الملكية؟».

قال: «لا أظن أن نباتات السرخس ستمانع».

حدث شيء ما مثير للفضول في وايت إيكر بعد أن أدخل أمبروس اللمعان والنظام إلى بيت نباتات السحلبية. بدت بقية العزبة فجأة مملة بالمقارنة. بدا وكأن شخصاً ما قد صقل بقعة واحدة على مرآة دميمة، والآن، نتيجة لهذا، تبدو بقية المرآة متسخة. لن يلاحظ المرء الأمر من قبل، لكنه صار واضحاً الآن. بدا وكأن أمبروس فتح مدخلاً إلى شيء ما لم يكن مرئياً، واستطاعت ألما أن ترى أنه لولا ذلك لظلت عمياء عن

Twitter: @ketab_n

الأمر إلى الأبد. إن وايت إيكر، التي كانت جميلة دائماً، سقطت بالتدريج في حالة من الإهمال المتزايد في ربع القرن الأخير.

بعد أن أدركت ألما هذا، قررت أن تجعل بقية العزبة بمستوى درجة جمال بيت نباتات السحلبية الزجاجي. متى كانت آخر مرة نُظفت فيها الألواح الزجاجية في البيوت الزجاجية الأخرى؟ لم تستطع التذكر. هناك عفن فطري وغبار في جميع الأمكنة، والأسيجة كلها بحاجة إلى دهن وإصلاح، ونمت الأعشاب في المدخل الحصوي، وملأت بيوت العناكب المكتبة، وجميع السجادات بحاجة إلى نفض عنيف، وتحتاج المواقد إلى إصلاح، فيما اندفعت أشجار النخيل في البيت الزجاجي الكبير خارجة تقريباً من السقف، ذلك أنها لم تُشَذَّب منذ سنوات. وثمة عظام حيوانات جافة مرمية في زوايا الأهراء على مدى الأعوام من القطط المغيرة، وتلطّخ نحاس العربة، وبدت ثياب الخدم قديمة وخارج الموضة.

استأجرت ألما خياطات لتفصيل بذلات جديدة لجميع الموظفين وطلبت فستانين من الكتان لنفسها. قدمت بذلة جديدة لأمبروس لكنه طلب إن كان بوسعه الحصول على أربع فراشي رسم بدلاً منها. (طلب أربع فراش لكنها قدمت خمساً. قال إنه لا يحتاج إلى خمس، أربع منها ستكون ترفاً كافياً). وظفت حشداً من الشبان الجدد للمساعدة في تلميع المكان. أدركت أنه حين توفي عمالٌ من وايت إيكر أو سُرِّحوا مع مرور الأعوام، لم يحلّ مكانهم أحد أبداً. ولا يعمل الآن إلا ثلث الطاقم الذي كان في العزبة منذ ٢٥ سنة، وهذا لم يكن كافياً.

قاومت هانيكي الوافدين الجدد في البداية، وقالت شاكية: «لا أملك قوة ذهنية أو جسدية بعد الآن كي أصنع عمالاً جيدين من السيئين».

Twitter: @ketab_n

احتجّت ألما: «لكن يا هانيكي انظري كيف نظّف السيد بايك بذكاء بيت نباتات السحلبية! ألا نريد أن يبدو كل شيء في العزبة رائعاً هكذا؟».

أجابت هانيكي: «لدينا الكثير من الذكاء في هذا العالم، لكن ليس لدينا ما يكفي من العقل الجيد. إن السيد بايك يقوم بالعمل لآخرين فحسب. ستدور أمك في قبرها لو أنها عرفت أن الناس يلمّعون الأزهار بأيديهم».

صححت ألما: «ليس الأزهار، بل الأوراق».

لكن حتى هانيكي استسلمت مع مرور الوقت، ولم يمض وقت طويل حتى شاهدتها ألما ترسل الموظفين الشبان الجدد كي يخرجوا براميل الطحين القديمة من القبو لتجفيفها في الشمس، وكانت هذه مهمة روتينية لم تتذكر ألما أنها نُفذت، منذ أن كان أندرو جاكسون رئيساً.

حذر أمبروس: «لا تفرطي في التنظيف. إن بعض الإهمال قد يكون مفيداً. هل سبق ولاحظت كيف أن أزهار الليلك الأكثر روعة، مثلاً، هي التي تنمو إلى جانب المخازن والأكواخ المهجورة؟ أحياناً يحتاج الجمال إلى بعض التجاهل، كي يأتي إلى الوجود بشكل ملائم».

قالت ألما ضاحكة: «أهكذا يتحدث شخص يلمّع نباتات السحلبية بقشور الموز!».

قال أمبروس: «آه، لكن هذه نباتات سحلبية. هذا مختلف. إن نباتات السحلبية آثار مقدسة، يا ألما، ويجب أن تُعامَل باحترام».

قالت ألما: «ولكن يا أمبروس صارت هذه العزبة تبدو كآثار مقدسة... بعد حرب مقدسة!».

Twitter: @ketab_n

صارا يناديان بعضهما بعضاً «ألما» و«أمبروس» الآن..

مر شهر أيار/ مايو. مر حزيران/ يونيو. وجاء تموز/ يوليو/

هل كانت سعيدة هكذا من قبل؟

لم تكن أبداً سعيدة هكذا.

كانت حياة ألما قبل وصول أمبروس بايك جيدة. ربما بدا عالمها صغيراً، وأيامها مكررة، لكنها تحمّلتْها. قامت بأفضل ما تستطيعه حيال مصيرها. فقد شغل عملها على الطحالب ذهنها، وعرفت أن بحثها صادق ولا يَرْقى إليه الشك. لديها دفاتر يومياتها ومجموعتها النباتية ومجاهرها ومقالاتها عن النباتات ومراسلاتها مع علماء النباتات والمقتنين لها في جميع أنحاء العالم وواجباتها إزاء والدها. لديها عاداتها ومسؤولياتها. لديها كرامتها. كانت حقاً شيئاً ما كالكتاب يُفتح على الصفحة نفسها كل يوم تقريباً لمدة ثلاثين سنة متعاقبة، لكنها لم تكن صفحة سيئة. كانت من النوع المتفائل وراضية. وكانت حياتها جيدة بحسب المقاييس كلها.

لا تستطيع أن تعود إلى تلك الحياة الآن.

* * *

في منتصف تموز/ يوليو من عام ١٨٤٨ ذهبت ألما كي تزور ريتا في مصح غريفون للمرة الأولى منذ أن أدخلت صديقتها إليه. لم تحافظ ألما على وعدها بزيارة ريتا كل شهر، كما وعدت جورج هوكس بأنها ستفعل، ذلك أنها انشغلت كثيراً في عزبة وايت إيكر التي صارت ممتعة جداً منذ وصول أمبروس بحيث أنها نسيت ريتا. في تموز/ يوليو بدأ ضمير ألما يخزها، وهكذا قامت بترتيبات كي تستقل عربتها إلى ترينتون في ذلك اليوم. كتبت رسالة إلى جورج هوكس سألته فيها إن كان يود

مرافقتها، لكنه رفض. لم يوضح سبب ذلك لكن ألما تعرف أنه لا يستطيع تحمل رؤية ريتا في وضعها الحالي. عرض أمبروس أن يرافق ألما.

قالت ألما: «ولكن لديك الكثير من العمل كي تقوم به هنا وليس من المحتمل أن تكون زيارة ممتعة».

«يستطيع العمل أن ينتظر. أحب أن ألتقي بصديقتك. لدي فضول حيال أمراض الذهن. أريد أن أشاهد المصح العقلي».

بعد رحلة هادئة بالعربة إلى ترينتون، ومحادثة قصيرة مع الطبيب المشرف، تمت مرافقة ألما وأمبروس إلى غرفة ريتا. وجداها في غرفة خاصة صغيرة فيها سرير أنيق وطاولة وكرسي وسجادة صغيرة ومكان فارغ على الحائط حيث عُلقت مرآة مرة، قبل أن تُزال ـ كما شرحت الممرضة ـ لأنها تزعج المريضة.

قالت الممرضة: «حاولنا أن نضعها مع سيدة أخرى لفترة لكنها لم تقبل ذلك. صارت عنيفة. نوبات من عدم الهدوء والرعب. ثمة مبرر للخوف على أي شخص يُترك معها في الغرفة. من الأفضل أن تبقى لوحدها».

سألت ألما: «ما الذي تفعلونه لها حين تعاني من نوبات كهذه؟».

قالت الممرضة: «حمامات جليد. ونعصب عينيها ونسد أذنيها، هذا يهدئها».

لم تكن غرفة سيئة. كانت تطل على الحدائق الخلفية، وكان الضوء غزيراً لكن ألما اعتقدت أن صديقتها تشعر بالوحدة. ريتا ترتدي ثياباً أنيقة وشعرها نظيف ومضفر، لكنها بدت كشبح، وشاحبة كالرماد. ما تزال شيئاً جميلاً، لكنها الآن مجرد شيء. لم تبد مسرورة أو مذعورة

Twitter: @ketab_n

لرؤية ألما، ولم تظهر أي اهتمام بأمبروس. سارت ألما وجلست قرب صديقتها وأمسكت يدها. سمحت ريتا بذلك دون احتجاج. بعض أصابعها، كما لاحظت ألما، مضمدة الرؤوس.

سألت ألما الممرضة: «ما الذي حدث هنا؟».

شرحت الممرضة: «تعض نفسها في الليل. لا نستطيع جعلها العدول عن ذلك».

أحضرت ألما لصديقتها كيساً صغيراً من سكريات الليمون وقمعاً ورقياً مليئاً بأزهار البنفسج. نظرت ريتا إلى الهدايا كما لو أنها غير متأكدة أيّها تأكل وأيها تعبّر عن إعجابها بها. حتى الطبعة الحديثة من مجلة «جويز ليديز بوك»، التي اشترتها ألما على الطريق قُوبلت باللامبالاة. اشتبهت ألما بأن الأزهار والحلويات والمجلة ستذهب في النهاية إلى المنزل مع الممرضة.

قالت ألما لريتا بصوت ضعيف: «جئنا كي نزورك».

«إذاً لماذا لست هنا؟»، سألت ريتا بصوت جعله اللودنوم حاداً.

«نحن هنا يا عزيزتي. نحن هنا أمامك».

نظرت ريتا إلى ألما دون تعابير لوهلة ثم استدارت كي تنظر من النافذة ثانية.

قالت ألما لأمبروس: «كنت أنوي أن أحضر لها موشوراً لكنني نسيته. كانت تحب الموشورات دوماً».

اقترح أمبروس بهدوء: «يجب أن تغني لها أغنية».

قالت ألما: «أنا لست مغنية».

«لا أظن أنها ستعترض».

Twitter: @ketab_n

لكن ألما لم تستطع التفكير بأغنية. بدلاً من ذلك مالت إلى أذن ريتا وهمست: «من يحبك أكثر؟ من يحبك بشكل أفضل؟ من يفكر بك حين يستريح الآخرون؟».

لم ترد ريتا.

استدارت ألما إلى أمبروس وسألته مذعورة: «هل تعرف أغنية؟».

«أعرف الكثير يا ألما، لكنني لا أعرف أغنيتها».

* * *

في رحلة العودة بالعربة إلى المنزل كانت ألما وأمبروس يفكران وصامتين. أخيراً سألها أمبروس: «هل كانت دوماً هكذا؟».

«مخدرة؟ أبداً. كانت دوماً مجنونة قليلاً، لكنها ممتعة جداً كفتاة. كان حس الفكاهة لديها قوياً ومبتهجة دوماً. وقد أحبها كل من عرفها. كانت تسبب المرح والضحك لي ولأختي، وكما أخبرتك لم أكن أنا وبرودنس الشخصين المؤهلين للمرح المشترك. لكن اضطراباتها ازدادت مع مرور الأعوام، والآن كما ترى..».

«نعم، أرى. مسكينة. أشعر بالتعاطف مع المجانين. أينما صادفتهم شعرتُ بهذا مباشرة في روحي. أعتقد أن كل من يزعم بأنه لم يشعر أبداً بأنه مجنون كاذب».

فكرت ألما بهذا. قالت: «صدقاً لا أظن أنه سبق وشعرت بأنني مجنونة. أتساءل إن كنت أكذب حين أقول لك هذا. لا أعتقد».

ابتسم أمبروس. «بالطبع لم تشعري. كان يجب أن أستثنيك يا ألما. فأنت لست كبقيتنا. لديك ذهن قوي ومليء. إن عواطفك قوية كخزانة حديدية. لهذا يشعر الناس بالطمأنينة قربك».

Twitter: @ketab_n

«هل يشعرون؟»، سألت ألما وقد دُهشت من سماعها لذلك.

«بالفعل يشعرون».

«هذه فكرة مثيرة للفضول. لم أسمع أبداً تعبيراً عنها»، نظرت ألما من نافذة العربة، وتأملت أكثر. ثم تذكرت شيئاً ما. «أو ربما سمعتها مُعبَّراً عنها. كانت ريتا تقول إن لي ذقناً مطمئناً».

«إن كل وجودك مطمئن يا ألما. حتى صوتك مطمئن. بالنسبة لنا نحن الذين نشعر أحياناً كما لو أننا ننفخ حياتنا كالقش على أرض المطحنة، إن وجودك عزاء أكثر تقديراً».

لم تعرف ألما كيف ترد على هذه الجملة المفاجئة، وهكذا حاولت رفضها. قالت: «هيا يا أمبروس. أنت رجل تملك عقلاً قوياً وأكيد أنك لم تشعر بالجنون أبداً؟».

فكر للحظة، واختار كلماته بعناية: «لا يستطيع المرء أن يقاوم الشعور كم يميل إلى وضع صديقتك ريتا سنو».

«كلا يا أمبروس، بالتأكيد كلا».

حين لم يجب على الفور، شعرتْ بالقلق.

قالت بلطف أكبر: «أمبروس. أكيد كلا، أليس كذلك؟».

أبدى حرصه مرة ثانية، واستغرق وقتاً طويلاً كي يجيب: «أشير إلى الشعور بالانفصال عن العالم ممتزجاً بشعور بالانحياز إلى عالم آخر».

سألت ألما: «مع أي عالم؟».

جعلها التردد في الجواب تشعر كما لو أنها تجاوزت الحد، وهكذا حاولت بنبرة عرضية أكثر: «أعتذر يا أمبروس. لدي عادة مقيتة وهي

Twitter: @ketab_n

عدم التوقف عن الأسئلة إلى أن أعثر على جواب مقنع. هذه طبيعتي. آمل ألا تظنني وقحة».

قال أمبروس: «لستِ وقحة. أستمتع بفضولك. إن المسألة هي أنني غير متأكد فقط كيف أجيبك جواباً مقنعاً. لا يرغب المرء بأن يفقد ولع الناس الذين يعجب بهم بكشف الكثير من نفسه».

وهكذا أثارت ألما المسألة آملة ربما ألا يُذكر موضوع الجنون ثانية. وكما لو أنه لتحييد اللحظة، أخرجت كتاباً من حقيبتها وحاولت القراءة. كانت العربة تقفز كثيراً بحيث لا تسمح بقراءة مريحة، وكان ذهنها مشغولاً بما سمعته لتوها، لكنها تظاهرت بأنها مشغولة بكتابها رغم ذلك.

بعد وهلة طويلة قال أمبروس: «لم أخبرك بعد لماذا تركت هارفارد، منذ سنوات كثيرة؟».

وضعت الكتاب جانباً والتفتت إليه.

قال: «عانيت من حادثة يا ألما».

«من الجنون؟»، سألته ألما. تحدثت بطريقتها المباشرة المعتادة رغم أن معدتها تشنجت من الخوف.

«ربما كان هذا. أنا غير متأكد ماذا يمكن أن يدعوه المرء. ظنت أمي أنه جنون. وكذلك أصدقائي. اعتقد الأطباء أنه جنون. أما أنا فشعرت أنه شيء آخر».

«مثل ماذا؟»، سألت مرة ثانية، بصوتها العادي رغم أن ذعرها كان يزداد في تلك اللحظة.

«استحواذ من قبل أرواح ربما؟ اجتماع للسحر؟ محو للحدود المادية؟ إلهام، مجنح بالنار؟». لم يبتسم. كان جدياً تماماً.

قاد هذا الاعتراف ألما إلى توقف مفاجئ بحيث لم تستطع الإجابة. لم يكن هناك مكان في تفكيرها لمحو الحدود المادية. لا شيء أحضر المزيد من الخير والطمأنينة لحياة ألما ويتاكر أكثر من اليقين الدافئ للحدود المادية.

نظر إليها أمبروس بحرص قبل أن يتابع. نظر إليها كما لو أنها مقياس لدرجة الحرارة أو بوصلة، كما لو أنه يحاول أن يقيسها، كما لو أنه يختار اتجاهاً يستدير إليه مبنياً بشكل كامل على طبيعة ردها. حاولت أن ألا تبدو مذعورة. لا بد أنه كان مقتنعاً بما رآه فواصل الكلام:

«حين كنت في التاسعة عشرة اكتشفت مجموعة من الكتب في مكتبة هارفارد من تأليف جاكوب بوهمه. هل تعرفين أعماله؟».

كانت تعرف عنه بشكل طبيعي. لديها نسخ من تلك الكتب في مكتبة وايت إيكر. قرأت بوهمه لكنها لم تحبه. كان جاكوب بوهمه إسكافياً ألمانياً من القرن السادس عشر رأى رؤى صوفية عن النباتات. اعتبره كثيرون من أوائل المختصين بالنباتات. لكن والدة ألما اعتبرته بالوعة خرافات قروسطية مترسبة. وهكذا كان هناك صراع آراء قوي حول جاكوب بوهمه.

آمن الإسكافي العجوز بشيء ما سمّاه «توقيعه على الأشياء كلها»، أي أن الله يملك مفاتيح مخبأة لتحسين البشرية داخل تصميم كل زهرة وورقة وثمرة وشجرة على الأرض، العالم الطبيعي كله شفرة مقدسة، كما زعم بوهمه، تحوي على برهان على حب خالقنا. لهذا تشبه كثير من النباتات الطبية الأمراض التي تشفيها، أو الأعضاء التي تمكنت من معالجتها. فالحبق، بأوراقه التي تشبه الكبد، هو الشافي لأمراض الكبد، وعشبة بقلة الخطاطيف، التي تنتج نسغاً أصفر اللون، يمكن استخدامها

Twitter: @ketab_n

لمعالجة تغير اللون الناجم عن اليرقان، والجوز، المشكّل كالدماغ، مفيد للصداع، وحشيشة السعال، التي تنمو قرب الجداول الباردة، يمكن أن تعالج السعال ونزلات البرد الناجمة عن الغرق في المياه الجليدية. أما البوليغونوم ذو الأوراق المبقعة بعلامات حمراء كالدم، فتعالج الجراح النازفة، وهكذا إلى ما لا نهاية. كانت بياتريكس ويتاكر مزدرية على الدوام لهذه النظرية («إن معظم الأوراق شكلها مثل الأكباد، فهل يجب أن نأكلها كلها؟»)، وقد ورثت ألما ارتياب أمها.

لم يكن الآن وقت التحدث عن الارتياب، ذلك أن أمبروس قرأ مرة ثانية وجه ألما. فتش تعابيرها بلهفة أكبر من أجل إذن كي يتابع. حافظت ألما مرة ثانية على جمود ملامحها، رغم شعورها بالاستياء الشديد. تابع ثانية.

قال: «أعرف أن علم اليوم يخالف أفكار بوهمه. أفهم الاعتراضات. فقد عمل جاكوب بوهمه في الاتجاه المعاكس للمنهجية العلمية الصحيحة. كان يفتقر إلى صرامة التفكير المنظم. وكتاباته مليئة بقطع مرآة متشظية ومتناثرة من الاستبصار. إنه غير عقلاني وساذج. لم ير إلا ما رغب برؤيته. أهمل كلَّ ما تناقض مع يقينياته. بدأ بمعتقداته، ثم سعى إلى جعل الحقائق متناغمة معها. لا يمكن لأحد أن يدعو هذا علماً على نحو صحيح».لم يكن بوسع بياتريكس ويتاكر أن تقولها بشكل أفضل هي بنفسها، كما اعتقدت ألما، لكنها هزت رأسها ثانية.

«ومع ذلك...»، توقف أمبروس.

منحت ألما صديقها الوقت ليستجمع أفكاره.صمت طويلاً فظنت أنه ربما قرر التوقف هنا. لكنه بعد صمت طويل، تابع: «قال بوهمه إن الربّ حلّ في العالم، وترك لنا علامات كي نكتشفها».

Twitter: @ketab_n

اعتقدت ألما أن التماثل جلي، ولم تستطع مقاومة الإشارة إليه. قالت: «كمثل طابع صور».

حين قالت هذه الكلمات، استدار أمبروس كي ينظر إليها، ووجهه طافح بالراحة والامتنان. قال: «نعم! هذا بالضبط. أنت تفهمينني. بوسعك فهم ما عنته تلك الفكرة لي كشاب. قال بوهمه إن رخصة الطبع الإلهية هذه هي نوع من السحر المقدس، وإن هذا السحر هو علم اللاهوت الوحيد الذي نحتاج إليه. اعتقدَ أنه بوسعنا تعلم قراءة مطبوعات الله، لكن يجب أولاً أن نقذف أنفسنا في النار».

«نقذف أنفسنا في النار»، كررت ألما، محافظة على حيادية صوتها.

«نعم. بالتخلي عن العالم المادي، بالتخلي عن الكنيسة، بجدرانها الحجرية وطقوسها، بالتخلي عن الطموح، بالتخلي عن الدراسة، بهجر رغبات الجسد، بهجر الملكية والأنانية، بالتوقف حتى عن الكلام! حينئذ فحسب يستطيع المرء أن يشاهد ما شاهده الرب، في لحظة الخلق، حينئذ فحسب يستطيع المرء أن يقرأ الرسائل التي تركها الله لنا. وهكذا كما ترين يا ألما، لم أستطع أن أصبح كاهناً بعد أن سمعتُ هذا، ولا طالباً، ولا ابناً. ولا ـ كما تبين ـ رجلاً حياً».

سألته ألما: «ما الذي أصبحته بدلاً من ذلك؟».

«حاولتُ أن أصبح النار، وأوقفتُ جميع أنشطة الوجود العادية. توقفتُ عن الكلام، وامتنعتُ حتى عن الأكل. واعتقدت أنني قادر على أن أحيا على ضوء الشمس والمطر فقط. وأقول لك إنني عشت على ضوء الشمس والمطر فقط لفترة طويلة من المستحيل تخيّلها. ولم يفاجئني الأمر لأنه كان لدي إيمان، وكنت دوماً الأكثر ورعاً بين أبناء أمي. وفيما لجأ أخوتي إلى المنطق والعقل، شعرت دوماً بحب الخالق

Twitter: @ketab_n

على نحو فطري. كنت أؤدي الصلاة بعمق في طفولتي بحيث أن أمي كانت تهزني في الكنيسة وتعاقبني من أجل النوم أثناء الصلوات، لكنني لم أنم، بل كنت أتواصل. وبعد قراءة جاكوب بوهمه، أردت أن أقابل المقدس بشكل أكثر حميمية. لهذا تخلّيت عن كل شيء في العالم، بما فيه الغذاء».

«ما الذي حدث؟» سألته ألما، مرة أخرى ماقتة الجواب.

قال وعيناه متألقتان: «لقد قابلت المقدس. أو اعتقدت أنني فعلت هذا. جاءتني الأفكار الأكثر روعة. استطعتُ قراءة اللغة المخبأة داخل الأشجار. ورأيت ملائكة يعيشون داخل نباتات السحلبية. رأيت ديناً جديداً، منطوقاً بلغة نباتية جديدة. سمعت ترنيماته. لا أستطيع تذكر الموسيقا الآن، لكنها كانت رائعة. ومرّ أسبوعان أيضاً استطعت فيهما سماع أفكار الناس. تمنيت لو كان بوسعهم سماع أفكاري، لكن لم يبد أنهم يسمعونها. بقيت مبتهجاً بمشاعر سامية وبغبطة. شعرت بأنه لا يمكن أن يلحق بي الأذى ثانية أو أو أُلمس. لم ألحق الأذى بأحد، لكنني لم أفقد رغبتي بهذا العالم. كنت...لامادياً. آه، لكن كان هناك المزيد. جاءت معرفة كهذه إلي! مثلاً، أعدت تسمية جميع الألوان! ورأيت ألواناً جديدة، ألواناً مخبأة. هل تعرفين أن هناك لوناً تركوازياً شفافاً لا أحد يستطيع رؤيته إلا الفراشات. إنه لون غضب الرب الأنقى. لن تظني أن غضبه شاحب وأزرق، لكنه هكذا».

«لم أعرف هذا»، قالت ألما بحرص.

قال أمبروس: «حسناً، لقد رأيته. رأيت هالات منه تحيط بأشجار معيّنة، وبأشخاص معينين. وشاهدت في أمكنة أخرى تيجاناً من الضوء الخيّر، حيث يجب ألا يكون هناك ضوء أبداً. كان هذا ضوءاً بلا اسم،

Twitter: @ketab_n

لكنّ له صوتاً. رأيته في كل مكان، وسمعته في جميع الأمكنة، وتبعته. بعد ذلك في الحال، متُّ تقريباً. عثر علي صديقي دانييل توبر في كومة من الثلج. أعتقد أحياناً أنه لو لم يأت الشتاء، لربما كنت قادراً على المتابعة».

سألته ألما: «بدون طعام يا أمبروس. أكيد كلا...».

«أحياناً أظنّ هذا. أحياناً أعتقد أنني ـ لفترة قصيرة جداً فقط وقد دفعني الإيمان ـ صرتُ نبتة. وإلا كيف سأتحمل لمدة شهرين دون أي شيء سوى المطر وضوء الشمس؟ تذكرتُ كلام إشعيا: «كلُّ اللحم أعشاب...» أكيد أن الناس أعشاب».

تذكرت ألما الآن، وللمرة الأولى طيلة سنوات، أنها تاقت أيضاً في طفولتها إلى أن تصبح نبتة. بالطبع، كانت مجرد طفلة تتمنى المزيد من الصبر والعاطفة من والدها. لكنها لم تؤمن أبداً بشكل فعلي أنها نبتة.

تابع أمبروس: «بعد أن عثر عليَّ أصدقائي في كومة الثلج أخذوني إلى مشفى للمجانين».

سألت ألما: «أكان مشابهاً للذي كنا فيه».

ابتسم بحزن لانهائي: «آه، كلا يا ألما. ليس مشابهاً مطلقاً للمكان الذي كنا فيه».

«آه يا أمبروس، أنا آسفة جداً»، قالت وشعرت الآن بأنها مريضة. كانت قد رأت المزيد من المستشفيات النموذجية للمجانين في فيلادلفيا، حين كانت هي وجورج يأخذان ريتا إلى أمكنة بائسة كهذه لفترات قصيرة من الوقت. لم تستطع تخيل صديقها اللطيف أمبروس في مكان كهذا من القذارة والأسى والمعاناة.

قال أمبروس: «لا حاجة كي تعبّري عن أسفك. انتهى الأمر.

Twitter: @ketab_n

ولحسن الحظ نسيت معظم ما حدث هناك. لكن تجربة المستشفى تركتني، إلى الأبد بعد ذلك، أكثر ذعراً مما كنت عليه في الماضي. تركتني خائفاً جداً من أن أجرب ثانية الثقة الكاملة. وحين أطلقوا سراحي تولى رعايتي دانييل توبر وأسرته. كانوا لطيفين معي. قدموا لي المأوى، وعرضوا علي عملاً أقوم به في مطبعتهم. كنت آمل أن أتمكن من التواصل مع الملائكة مرة ثانية، لكن عبر طريقة أكثر مادية هذه المرة، طريقة آمنة أكثر، كما أفترض أنه بوسعك القول. فقدتُ شجاعتي على قذف نفسي في النار مرة أخرى. وهكذا علّمتُ نفسيَ فنَّ طباعة الصور، في محاكاة للخالق، في الحقيقة، رغم أن قول هذا خطيئة وغرور. أردت أن أفرض آرائي الخاصة على العالم، رغم أنني لم أنتج عملاً بروعة ما أتمنى إنجازه. لكن هذا شغلني. وتأملت نباتات السحلبية، وقد أشعرتني هذه النباتات بالراحة».

ترددت ألما، ثم سألت، لكن ليس بدون عدم راحة: «هل تمكّنت من الوصول إلى الملائكة ثانية؟».

ابتسم أمبروس: «كلا. لم أفعل. لكن العلم ولّد متعه الخاصة، أو إلهاءاته الخاصة. وبفضل والدة توبر، بدأت آكل ثانية. لكنني كنت قد تغيرت. تجنبت جميع الأشجار والأشخاص الذين رأيتهم مصبوغين بلونه التركوازي الغاضب أثناء حادثتي. تقت إلى ترانيم الدين الجديد الذي شهدته، لكنني لم أستطع تذكر الكلمات. بعد ذلك في الحال، ذهبت إلى الغابة. اعتقدت عائلتي أن هذا خطأ، أنني سأصاب بالجنون ثانية هناك، وأن العزلة ستؤذي جسدي».

«هل فعلت ذلك؟».

«ربما. من الصعب القول. كما أخبرتك حين التقينا في البداية،

Twitter: @ketab_n

عانيت من الحمى هناك. أوهنت الحمى قواي، لكنني رحبت بها أيضاً. مرت لحظات أثناء الحمى اعتقدت فيها بأنني استطعت أن أشاهد علامات الله ثانية، لكن بشكل غير مكتمل. استطعت أن أرى الرسومات والشروط مكتوبة على الأوراق والعرائش. استطعت أن أرى إلى أغصان الأشجار حولي محنية تحت عبء الرسائل. وكان هناك توقيعات وخطوط تتقاطع في كل مكان، لكن لم يكن بوسعي قراءتها. سمعت أصوات الموسيقى القديمة المألوفة، لكنني لم أستطع فهمها. لم يُكشف لي أي شيء. حين كنت مريضاً لمحت أحياناً ملائكة مختبئين داخل نباتات السحلبية، لكنني لم أر إلا حواف ثيابها. كان ينبغي أن يكون الضوء نقياً، وكل شيء صامتاً تماماً، كي يحدث هذا. لكن لم يكن هذا كافياً. لم يكن ما رأيته سابقاً. حالما يرى المرء الملائكة، يا ألما، فإنه يرضى بحواف ثيابها. بعد ثماني عشرة سنة، عرفت أنني لن أشاهد أبداً ثانية ما رأيته مرة، ليس حتى في أعمق حالات العزلة في الأدغال، ليس حتى في حالة الحمى المضللة، وهكذا عدت إلى الوطن. لكنني أفترض أنني سأتوق إلى شيء ما دوماً».

سألته ألما: «ما الذي تتوق إليه بالضبط؟».

قال: «النقاء والتوحّد».

غمر ألما حزن وخوف صارخان لأن شيئاً جميلاً أُخذ منها، لكنها امتصت كل هذه الأشياء. لم تعرف كيف تريح أمبروس، رغم أنه لم يطلب ذلك. هل كان مجنوناً؟ لم يبد مجنوناً. بطريقة ما، قالت لنفسها، يجب أن تشعر بأنها عوملت باحترام وصدق لأنه وثق بها وباح لها بهذه الأسرار. لكنها أسرار مخيفة! ماذا يجب أن يفعل المرء بها؟ لم تر الملائكة أبداً أو تشاهد اللون الخفي لغضب الرب، أو تتقلّب في النار.

Twitter: @ketab_n

لم تكن متأكدة بشكل كامل ما الذي يعنيه هذا: «التقلب في النار»؟ كيف يفعل المرء هذا؟ ولماذا يفعله؟

«ما هي خططك الآن؟»، سألت. وحتى حين نطقت بهذه الكلمات، لعنت ذهنها المندفع والمادي، الذي لا يمكن أن يفكر إلا من زاوية استراتيجيات دنيوية: *رجل تحدث لتوه عن الملائكة، وتسألينه عن خططه.*

لكن أمبروس ابتسم: «أرغب بحياة مستقرة، رغم أنني لست مقتنعاً بأنني اكتسبتها. أنا ممتن أنك قدمت لي مكاناً كي أعيش فيه. أستمتع بوايت إيكر بشكل كبير. إنها نوع من الفردوس بالنسبة لي، أو المكان الذي يكون فيه المرء أقرب ما يمكن إلى الفردوس، فيما هو ما يزال حياً. أنا متخم بالدنيا وأرغب بالطمأنينة. أنا مولع بوالدك، الذي يبدو كأنه لا يحتقرني، والذي يسمح لي بالبقاء. أنا ممتن أنه لدي عمل أنتجه، مما يشغلني ويرضيني. وأنا أكثر امتناناً لرفقتك. لقد شعرتُ بالوحدة، يجب أن أعترف، منذ ١٨٢٨، منذ أن أخرجني أصدقائي في البداية من كومة الثلج وأعادوني إلى العالم. بعد ما شاهدته، وبسبب ما لم أعد أستطيع رؤيته، أنا دائماً وحيد نوعاً ما. لكنني اكتشفت أنني أقل وحدة حين أكون معك».

شعرت ألما بالحاجة إلى البكاء حين سمعت هذا. فكرت كيف سترد. كان أمبروس قد وثق بها دون مقابل أكثر من مرة لكنها لم تبح له بأي شيء أبداً. كان جسوراً في اعترافاته. ورغم أن اعترافاته أخافتها، يجب أن تقابله بالجسارة بطريقة مشابهة.

قالت ألما: «أنت تخفف من عزلتي أيضاً». كان من الصعب بالنسبة

Twitter: @ketab_n

إليها الاعتراف بهذا. لم تستطع تحمل النظر إليه حين قالت ذلك، لكن على الأقل لم يرتعش صوتها.

قال أمبروس بلطف: «لن أكون قادراً على معرفة هذا يا عزيزتي ألما، فأنت دائماً تبدين قوية».

أجابت ألما: «لا أحد منا قوي».

* * *

عادا إلى وايت إيكر، إلى روتينهما العادي المريح، لكن ذهن ألما ظل مشغولاً بما قاله لها. أحياناً حين يكون أمبروس منشغلاً بالعمل، يرسم نبتة سحلبية، أو يحضّر حجراً للطباعة، تراقبه باحثة عن علامات ذهن مريض أو شرير. لكنها لم تر دليلاً على ذلك. وإذا كان يعاني من أوهام طيفية أو هلوسات غريبة أو يتوق إليها فإنه لم يكشف هذا أيضاً. لم يُظهر دليلاً على عقل مضطرب.

كلما نظر أمبروس ورآها تنظر إليه، ابتسم فحسب. كان بريئاً ولطيفاً وغير مرتاب. لم يبد منزعجاً من كونه مُرَاقَباً. لم يبد متلهفاً كي يخفي أي شيء. لم يبد أنه يتأسف على حياته المشتركة مع ألما. كان سلوكه معها أكثر دفئاً فحسب. وكان أكثر تقديراً، وأكثر تشجيعاً، وأكثر مساعدة مما كان عليه. كان مزاجه رائقاً بشكل دائم. وكان صبوراً مع هنري وهانيكي ومع الجميع. بدا أحياناً مصاباً بالإعياء، لكن هذا متوقع، لأنه يعمل باذلاً جهداً كبيراً. كان يعمل بكد كما تعمل ألما. وبصورة طبيعية، سيكون مصاباً بالإعياء أحياناً. لكن بخلاف ذلك لم يتغير، ظل صديقها العزيز والواضح، ولم تسيطر عليه حالة تديّن مفرطة، بقدر ما تعرف ألما. وبصرف النظر عن مظاهره المطيعة مع ألما في الكنيسة كل أحد، لم تره أبداً يصلي. وبدا رجلاً جيداً مرتاحاً.

كان خيال ألما، من ناحية أخرى، مشتعلاً ومتقداً من نقاشاتهما في طريق العودة من ترينتون. لم تستطع أن تفهم أياً منها، وتاقت إلى جواب مقنع على هذا اللغز: هل كان أمبروس بايك مجنوناً؟ وإذا لم يكن أمبروس بايك مجنوناً، إذاً ماذا كان؟ واجهت صعوبة في تقبل الأعاجيب والمعجزات، وصعوبة مساوية في اعتبار صديقها العزيز مجنوناً. وهكذا ما الذي رآه في تلك الفترة؟ لم تلتق أبداً بالمقدس، ولم يكن لديها توق للقاء به. عاشت حياتها ملتزمة بفهم الواقعي والمادي. مرة، أثناء قلع ضرس تحت تأثير سائل الأثير المخدّر، رأت ألما نجوماً راقصة في ذهنها، لكنها عرفت أن هذا هو التأثير العادي للمخدر في ذهن المرء، ولم يصعدها إلى الأعمال العظيمة للفردوس. لم يكن أمبروس تحت تأثير المخدّر أو أية مادة أخرى أثناء رؤاه. كان جنونه...جنوناً صافي الذهن.

في الأسابيع التي تلت محادثتها مع أمبروس، كانت ألما تستيقظ غالباً في الليل وتتسلل إلى المكتبة كي تقرأ كتب جاكوب بوهمه. لم تدرس الإسكافي الألماني العجوز منذ شبابها، وحاولت الآن قراءة النصوص باحترام وذهن مفتوح. عرفت أن ملتون قرأ بوهمه، وأن نيوتن أبدى إعجابه به. إذا عثرت شخصيتان مهمتان مثلهما على الحكمة في هذه الكلمات، وإذا أثارت شخصاً فائقاً للعادة كأمبروس، إذاً لماذا لا تفعل ألما هذا؟

لكنها لم تعثر على أي شيء في النصوص أثارها كلغز أو أدهشها. كان ذهنه قديماً وقروسطياً ومشغولاً بالسيمياء والبازهر. آمن أن الأحجار الثمينة والمعادن مشحونة بقوة وفضيلة إلهية. وشاهد صليب الله مخبأ في قطعة ملفوف. واعتقد أن كل شيء في العالم وَحْي مجسد للمقدرة الأبدية والحب الإلهي. كان كلُّ شيء في الطبيعة كلمة منطوقة من

Twitter: @ketab_n

الرب، كلمة مخلوقة، أعجوبة جُعلت لحماً. اعتقد أن الورود لا ترمز إلى الحب، بل هي الحب: الحب بعد أن جُعل حقيقياً. كان متنبأ بالكارثة وطوباوياً. قال إنه يجب أن ينتهي هذا العالم في الحال وتصل البشرية إلى حالة فردوسية يصبح فيها جميع الرجال عذارى ذكوراً، وتكون الحياة متعة ولهواً. لكنه أكد أن حكمة الخلق أنثوية.

كتب بوهمه: «إن حكمة الله عذراء أبدية، وليست زوجة، بل بالأحرى الطهارة والنقاء دون عيب، يجسدان صورة لله... إنها حكمة المعجزات دون عدد. فيها، يتخذ الروح القدس صورة الملائكة... ورغم أنها تمنح الجسمَ لجميع الثمار، فهي ليس ماديّة الثمار، بل الرشاقة والجمال داخلها».

لم تفهم ألما أياً من هذا. وتضايقت من قراءة المزيد. أكيد أن هذا لم يجعلها تتوقف عن الأكل أو الدراسة، أو التحدث أو التخلي عن متع الجسد، وتعيش على ضوء الشمس والمطر. على العكس، جعلتها كتابات بوهمه تتوق إلى مجهرها وطحالبها، ولراحة الواضح والملموس. لماذا لم يكن العالم المادي كافياً لأشخاص مثل جاكوب بوهمه؟ أليس رائعاً بما يكفي ما يستطيع المرء أن يراه ويلمسه ويعرف أنه حقيقي؟

كتب بوهمه: «إن الحياة الحقيقية قائمة في النار، ثم يستولي لغز على آخر».

تمت السيطرة على ألما، بالتأكيد، لكن ذهنها لم يشتعل، ولم يهدأ أيضاً. قادتها قراءتها لبوهمه إلى أعمال أخرى في مكتبة وايت إيكر، إلى أطروحات يعلوها الغبار حول العلاقة بين علم النبات والألوهية. شعرت بالارتياب والإثارة في آن. درست ألبيرتوس ماغنوس. ودرست ما كتبه القساوسة منذ أربعمائة عام عن نبات اللفاح وقرون وحيد القرن. كان

Twitter: @ketab_n

العلم مليئاً بالأخطاء. وكان هناك ثغرات في منطق العلماء بحيث يشعر المرء بهبات الريح عبر الحجج. آمنوا بأفكار غريبة في الماضي: أن الخفافيش طيور، وأن اللقالق تمضي سباتها الشتوي تحت الماء، وأن الناموس نشأ من الندى، وأن الإوز تناسل من البرنقيل، والبرنقيل نما على الأشجار. كحقيقة تاريخية صرفة كان هذا مهماً، ولكن لماذا نصدقه؟ لماذا أغرت الأبحاث القروسطية أمبروس؟ كانت أثراً رائعاً بالطبع لكنه مستند إلى الأخطاء.

في منتصف ليلة حارة في نهاية تموز/ يوليو، كانت ألما في المكتبة وثمة مصباح فوقها ونظارتها على قمة أنفها تنظر في نسخة من القرن السابع عشر من كتاب «المشتل المقدس»، والذي حاول مؤلفه، مثل بوهمه، أن يقرأ رسائل إلهية في جميع النباتات المذكورة في التوراة، حين دخل أمبروس إلى الغرفة. أجفلت حين شاهدته، لكنه لم يبد متضايقاً. بدا قلقاً عليها. جلس إلى جانبها إلى طاولة طويلة في مركز الغرفة الكبيرة. كان يلبس ثيابه النهارية. إما أنه غيّر ثياب نومه، احتراماً لألما، أو أنه لم ينم أبداً في ذلك المساء.

قال: «لا يمكن أن تسهري ليالي متواصلة دون نوم يا ألما العزيزة».

أجابت: «أستغل الساعات الهادئة للقيام بالأبحاث. آمل أنني لم أزعجك».

نظر إلى عناوين الكتب الكبيرة المفتوحة أمامهما.

قال بهدوء: «لكنك لا تقرأين عن الطحالب. ما الذي يهمك في كل هذا؟».

واجهت صعوبة في الكذب على أمبروس. لم تكن تحب الكذب،

ولم يكن شخصاً ترغب بخداعه. اعترفت: «لم أفهم قصتك. أبحث عن أجوبة في هذه الكتب».

هز رأسه ولم يقل شيئاً.

تابعت: «بدأتُ ببوهمه وقد وجدته مستعصياً على الفهم، والآن انتقلت إلى... كل الآخرين».

«أزعجتك بما قلتهُ لك عن نفسي. خفتُ أن يَحدث هذا. كان ينبغي ألا أقول أي شيء»..

«كلا يا أمبروس. نحن صديقان عزيزان. يمكن أن تسرّ لي دوماً. يمكنك أن تزعجني أحياناً. شرفتني بثقتك. لكن بسبب رغبتي كي أفهمك على نحو أفضل أخشى أنني أنفصل عن حالتي الداخلية».

«وما الذي تقوله لك هذه الكتب عني؟».

«لا شيء»، أجابت ألما. لم تستطع مقاومة الضحك، وضحك أمبروس معها. كانت منهكة وبدا منهكاً أيضاً.

«إذاً لماذا لا تسأليني؟».

«لأنني لا أرغب بأن أغيظك».

«لن تغيظيني أبداً».

«تلسعني تلك الأخطاء في الكتب يا أمبروس. أتساءل لماذا لا تلسعك هذه الأخطاء. يقوم بوهمه بانتقالات مفاجئة، ويقع في تناقضات، وتشوشات للفكر. كما لو أنه يتمنى أن يثب مباشرة إلى الفردوس بقوة منطقه، لكن منطقه غير سليم».

مدت يدها عبر الطاولة وتناولت كتاباً وفتحته: «في هذا الفصل مثلاً، يحاول العثور على مفاتيح لأسرار الله مخبأة داخل نباتات الكتاب

Twitter: @ketab_n

المقدس، ولكن ما الذي نصنعه بها، حين تكون معلوماته خاطئة؟ يخصص فصلاً كاملاً لتأويل زنابق الحقل كما هي مذكورة في سفر متى، مشرّحاً كل حرف من كلمة زنابق، باحثاً عن الوحي داخل المقاطع الصوتية... لكن يا أمبروس، إن زنابق الحقل نفسها خطأ في الترجمة. فالمسيح لم يتحدث عن الزنابق في موعظة الجبل. ثمة نوعان من الزنبق المحلي في فلسطين فقط، وكلاهما نادر جداً. وهي لا تنمو بوفرة تغطي مرجاً، وغير مألوفة بما يكفي للإنسان العادي. من المحتمل أن المسيح، الذي يفصّل دروسه لأوسع جمهور ممكن، كان يشير إلى زهرة واسعة الانتشار، من أجل أن يفهم مستمعوه استعارته. لهذا السبب، من المرجح أكثر أن المسيح تحدث عن شقائق النعمان، رغم أننا لا نستطيع التأكد من ذلك..».

توقفت ألما فجأة. بدت تعليمية وسخيفة.

ضحك أمبروس ثانية: «عزيزتي ألما، يمكن أن تكوني شاعرة ممتازة! سأستمتع بقراءة ترجمتك للنص المقدس: انظروا إلى زنابق الحقل، إنها لا تكدح ولا تدور، رغم أنها على الأرجح ليست زنابق بل شقائق نعمان، رغم أننا لا نستطيع التأكد، لكن بصرف النظر عن هذا، نستطيع جميعاً الاتفاق بأنها لا تكدح ولا تدور.

أية ترنيمة ستصنع هذه، وتملأ جو الكنيسة! وسيحب المرء أن يسمع جشداً يغنيها. لكن أخبريني يا ألما فيما نحن نناقش الموضوع ما رأيك بصفصاف بابل الذي علق عليه الإسرائيليون قيثاراتهم وبكوا؟».

قالت ألما وقد وُخز كبرياؤها وأثير: «أنت تضع لي الطعم الآن، لكنني أشك بأنه بسبب المنطقة لا بد أنها كانت أشجار حور».

سألها: «وماذا عن تفاحة آدم وحواء؟».

شعرت بأنها مغفلة، لكنها لم تستطع أن تتوقف. قالت: «ربما كانت خوخة أو سفرجلة. من المرجح أكثر أنها خوخة لأن السفرجل ليس حلواً كي يثير رغبة امرأة شابة. بطريقة أو أخرى، لا يمكن أن تكون تفاحة، لم يكن هناك تفاح في الأراضي المقدسة، يا أمبروس، وغالباً ما تُوصف الشجرة في عدن بأن لها ظلاً جاذباً للناس، وأوراقاً فضية، يمكن أن يصف هذا معظم أصناف الخوخ... وهكذا حيث يتحدث جاكوب بوهمه عن التفاح والله وجنة عدن..».

ضحك أمبروس بحدة بحيث اضطر لمسح الدموع من عينيه. قال بأعلى أشكال الرقة: «يا عزيزتي الآنسة ويتاكر إن ذهنك أعجوبة. إن هذا النوع من التفكير الخطير، بالمناسبة، هو بالضبط ما خشي الرب من حدوثه، لو سمح لامرأة بأن تأكل من شجرة المعرفة. أنت مثال تحذيري لكل جنس النساء! يجب أن توقفي على الفور كل هذا الذكاء وتحملي الماندولين أو تتسولي أو تقومي بنشاط آخر لا فائدة منه».

قالت: «هل تعتقد أنني سخيفة».

«كلا يا ألما. لا أعتقد هذا. أعتقد أنك لافتة للنظر. تأثرت من أنك تحاولين فهمي. لا يمكن أن يكون هناك صديق أكثر حباً. أنا أكثر تأثراً لأنك تحاولين أن تفهمي من خلال الفكر العقلاني ما لا يُمكن أن يُفهم أبداً. لا يوجد مبدأ دقيق يمكن العثور عليه هنا. إن المقدس، كما قال بوهمه، لا أساس له، ولا يمكن سبره، وهو شيء خارج العالم كما نجربه. لكن هذا اختلاف عقولنا يا غاليتي. أتمنى أن أصل إلى الوحي على جناحين، بينما تتقدمين بثبات على قدميك، حاملة عدستك المكبرة بيدك. أنا متجول ثرثار ينشد الله داخل الملامح الخارجية، باحثاً عن طريقة جديدة للمعرفة وأنت تقفين على الأرض وتفكرين بالدليل

إنشاً بعد إنش. إن طريقتك أكثر عقلانية ومنهجية، لكنني لا أستطيع تغيير طريقتي».

اعترفت ألما: «لدي حب مقيت للفهم».

أجاب أمبروس: «بالفعل تحبين هذا، لكنه ليس مقيتاً. إنه النتيجة الطبيعية لكونك ولدت بذهن غُيِّر بشكل ممتاز.لكن بالنسبة لي، إن تجريب الحياة عبر العقل فحسب يعني أن أبحث عن الله في الظلام متحسّساً وأنا ألبس قفازين ثقيلين. ليس كافياً فقط أن ندرس ونصوّر ونصف. يجب على المرء أحياناً أن... يقفز».

قالت ألما: «أنا لا أفهم الرب الذي تقفز نحوه».

«ولماذا يجب أن تفهميه؟».

«لأنني أتمنى أن أعرفك أكثر».

«اسأليني إذاً بشكل مباشر يا ألما. لا تبحثي عني داخل الكتب. أنا أجلس هنا أمامك، وسأخبرك أي شيء تريدينه عني».

أغلقت ألما الكتاب السميك أمامها. لا بد أنها أغلقته بلمسة أقوى لأنه انغلق مصدراً صوتاً. أدارت الكرسي كي تواجه أمبروس، طوت يديها في حضنها وقالت: «لا أفهم تأويلك للطبيعة، وهذا بدوره يملأني بإحساس بالذعر حول حالة ذهنك. لا أفهم كيف بإمكانك إغفال نقاط التناقض والحماقة المحضة في تلك النظريات القديمة الفاقدة للمصداقية. تفترض أن ربنا عالم نبات خيّراً، يخبئ مفاتيح من أجل تحسين وضعنا داخل جميع أصناف النبات لكنني لا أرى دليلاً متماسكاً على ذلك. فهناك الكثير من النباتات في عالمنا تُسمّمنا كما تشفينا. لماذا يمنحنا إلهك النباتي نبات الفيتربوش وجنبة الرباط مثلاً كي يقتل أحصنتنا وأبقارنا؟ أين هو الوحي الكامن هنا؟».

Twitter: @ketab_n

سأل أمبروس: «لكن لماذا يجب ألا يكون ربنا عالم نبات؟ ما المهنة التي تفضلينها لإلهك؟».

فكرت ألما بالسؤال بجدية وقالت: «ربما عالم رياضيات. يخط ويمحو الأشياء. يجمع ويطرح. يضرب ويقسّم. يلعب بالنظريات والحسابات الجديدة. ينبذ الأخطاء الأولى. تبدو هذه فكرة أكثر عقلانية لي».

«لكن علماء الرياضيات الذين قابلتهم يا ألما ليسوا أشخاصاً عاطفيين، ولا يغذون الحياة».

قالت ألما: «بالضبط. سيجتاز هذا طريقاً طويلاً نحو شرح معاناة البشرية والطبيعة العشوائية لأقدارنا، كما يجمعنا الله ويطرحنا ويقسمنا ويمحونا».

«يا لها من وجهة نظر سوداوية! أتمنى لو أنك لا تعدّين حيواتنا مظلمة هكذا. في مجمل الأمور يا ألما ما أزال أرى في العالم عجباً أكثر مما أرى معاناة».

قالت ألما: «أعرف أنك تفعل ذلك، ولهذا أقلق عليك. أنت مثالي، مما يعني أنه مقدر عليك أن يخيب أملك، وربما أن تُجرح. تنشد إنجيل خير ومعجزة، لا يترك مجالاً لأحزان الوجود. أنت مثل ويليم بالي، تقول إن كمال كل تصميم في الكون برهان على حب الله لنا. هل تذكر قول بالي بأن آلية معصم الإنسان، المناسبة بشكل ممتاز لجمع الطعام وإبداع أعمال الجمال الفني، هي البصمة نفسها لعاطفة الرب إزاء الإنسان؟ لكن المعصم الإنساني ملائم أيضاً بشكل تام لقذف فأس قاتل على جارك. أي برهان للحب كامن هنا؟ فضلاً عن ذلك، تجعلني أشعر كمثل فضولي صغير وبغيض، لأنني أجلس هنا أقوم بهذه المحاججات

Twitter: @ketab_n

البليدة ولأنني لا أستطيع العيش في المدينة الضوئية نفسها على التل حيث تسكن».

جلسا هادئين لوهلة، ثم سألها أمبروس: «هل نتجادل، يا ألما؟».

فكرت ألما بالسؤال: «ربما».

«ولكن لماذا يجب أن نتخاصم؟».

«سامحني يا أمبروس أنا منهكة».

«أنت منهكة لأنك تجلسين في هذه المكتبة كل ليلة، تطرحين أسئلة عن رجال ماتوا منذ مئات السنين».

«أمضيت معظم حياتي أتحادث مع رجال كهؤلاء، يا أمبروس، ومع أشخاص أكبر في السن أيضاً».

«مع ذلك لأنهم لا يطرحون أجوبة تحبينها، تهاجمينني الآن. كيف يمكن أن أقدم لك أجوبة مرضية يا ألما، إذا كانت العقول المتفوقة على عقلي سببت لك خيبة أمل؟».

وضعت ألما رأسها بين يديها. شعرت بالتوتر.

واصل أمبروس، لكن الآن بصوت أكثر رقة: «تخيّلي فحسب ما يمكن أن نتعلمه يا ألما إذا استطعنا تحرير أنفسنا من الجدل».

نظرت نحو الأعلى إليه ثانية: «لا أستطيع أن أحرر نفسي من الجدل يا أمبروس. تذكّر أنني ابنة هنري ويتاكر. لقد وُلدت داخل الجدل. وكان الجدل مربيتي الأولى. إن الجدل رفيق فراشي طول الحياة. علاوة على ذلك، أؤمن بالجدل وأحبه. إن الجدل هو معبرنا الأكثر ثباتاً نحو الحقيقة، لأنه السلاح الوحيد الذي أثبت فعاليته ضد التفكير الخرافي، أو البديهيات الواهنة».

Twitter: @ketab_n

«لكن إذا كانت النتيجة النهائية هي الغرق في الكلمات فقط، وألا نسمع أبداً...» توقف أمبروس فجأة.

«ألا نسمع ماذا؟».

«بعضنا بعضاً، ربما. ليس كلمات بعضنا بعضاً، بل أفكار بعضنا بعضاً، روح بعضنا بعضاً. إذا سألتني بماذا أؤمن، سأقول لك هذا: مجال الهواء كله الذي يحيط بنا يا ألما، حيّ بجاذبيات غير مرئية، كهربائية ومغناطيسية ونارية وعميقة التفكير. هناك تعاطف كوني في كل مكان حولنا. ثمة وسائل سرية للمعرفة. أنا متأكد من هذا، لأنني شاهدتها بنفسي. حين قذفت نفسي في النار كشاب، رأيت أن مخازن الذهن البشري نادراً ما فُتحت بشكل كامل. حين نفتحها، لا شيء يبقى مخبأ. حين نوقف كل المحاججة والجدل ـ الداخلي والخارجي في آن ـ يمكن أن تُسمع أسئلتنا الحقيقية ويُجاب عليها. هذا هو المحرك القوي، هذا هو كتاب الطبيعة، وهو غير مكتوب باليونانية أو اللاتينية. هذا حصاد السحر، وهو حصاد آمنت به دوماً وتمنيت أن يتم تقاسمه».

قالت ألما: «أنت تتفوه بالألغاز».

أجاب أمبروس: «وأنت تتحدثين كثيراً».

لم تستطع العثور على جواب لهذا. ليس بدون أن تتحدث أكثر. مستاءة ومشوشة شعرت أن عينيها تخزانها بالدموع.

قال أمبروس وهو يميل نحوها: «خذيني إلى مكان ما نستطيع أن نكون فيه صامتين يا ألما، أثق بك بشكل كامل، وأعتقد أنك تثقين بي. لا أتمنى أن أتخاصم معك بعد الآن. أود أن أتحدث معك دون كلمات. اسمحي لي أن أحاول أو أريك ما أعنيه».

كان هذا طلباً أكثر مفاجأة.

Twitter: @ketab_n

«نستطيع أن نكون صامتين معاً هنا يا أمبروس».

نظر في أنحاء المكتبة الكبيرة والأنيقة وقال: «كلا، لا نستطيع. إن المكان هنا واسع جداً وصاخب، بسبب كل هؤلاء الرجال العجائز الموتى الذين يتجادلون حولنا. خذيني إلى مكان سري وهادئ كي نصغي إلى بعضنا بعضاً. أعرف أن هذا يبدو جنونياً، لكنه ليس جنونياً. أعرف أن هذا الشيء صحيح، أن كل ما نريده لتشاركنا هو موافقتنا. أعتقد أنني لا أستطيع الوصول إلى التوحد والمشاركة وحدي لأنني ضعيف جداً. منذ أن التقيت بك يا ألما شعرت بأنني أقوى. لا تجعليني أندم على ما قلته لك عن نفسي. أطلب القليل منك يا ألما لكن يجب أن أتوسك إليك من أجل هذا الطلب، لأنني لا أملك طريقة أخرى كي أشرح نفسي، وإذا لم أريك ما أعتقد أنه صحيح، ستفكرين عندئذ دوماً بأنني مختل الحواس أو أبله».

احتجت: «كلا يا أمبروس، لا يمكن أن أفكر هكذا بك أبداً».

قاطعها بإلحاح يائس: «لكنك تفعلين، أو ستفعلين في النهاية. ثم ستشعرين بالشفقة عليّ، أو تمقتينني، وسأخسر الرفيق الذي أعتبره الأعز في العالم، وسيسبب لي هذا المحنة والأسى. قبل أن يحصل هذا الحدث المحزن، هذا إذا لم يكن قد حدث من قبل، اسمحي لي أن أحاول أن أوضح لك ما أعنيه، حين أقول إن الطبيعة، في لامحدوديتها، لا تهتم بحدود خيالاتنا الفانية. اسمحي لي أن أحاول أن أبيّن لك أننا نستطيع التحدث مع بعضنا دون كلمات ودون جدل. أعتقد أن ما يكفي من الحب والعاطفة قائم بيننا، يا أعز صديقة لدي، بحيث نستطيع تحقيق هذا. كنت آمل دوماً أن أعثر على شخص ما أستطيع أن أتواصل معه بصمت. منذ أن التقيت بك، تمنيت ذلك أكثر لأننا نشترك

Twitter: @ketab_n

كما يبدو في فهم طبيعي ومتعاطف لبعضنا بعضاً، يمتد إلى ما وراء غياب الحساسية أو العواطف العامة... أليس كذلك؟ ألا تشعرين أيضاً كما لو أنك أكثر قوة حين أكون قريباً؟».

هذا لا يمكن أن يُنكر. ولا يمكن أن يُعترف به بسبب الكرامة.

سألته ألما: «ما الذي تتمناه لي؟».

«أتمنى أن تصغي لذهني ولروحي. وأتمنى أن أصغي لذهنك وروحك».

«أنت تتحدث عن قراءة الذهن يا أمبروس. هذه لعبة داخلية».

«يمكن أن تسميها ما تشائين. لكنني أعتقد أنه بدون عائق اللغة سيُكشف كل شيء».

قالت ألما: «لكنني لا أؤمن بشيء كهذا».

«أنت امرأة علم يا ألما فلماذا لا تجرّبين؟ لن تخسري شيئاً، وربما ستتعلمين أشياء كثيرة. لكن كي ينجح هذا سنحتاج إلى هدوء عميق. نحتاج إلى تحرر من التدخل. من فضلك يا ألما سأطلب هذا منك مرة واحدة. خذيني إلى المكان الأكثر هدوءاً وسرية الذي تعرفينه، ولنجرب التوحّد. دعيني أريك ما لا أستطيع قوله لك».

أي خيار لديها؟

أخذته إلى حجرة التجليد.

* * *

لم تكن هذه المرة الأولى التي سمعت فيها ألما عن قراءة الذهن. فقد كانت هذه عادة محلية. وشعرت أحياناً أن كل سيدة في فيلادلفيا أداة مقدسة في تلك الأيام. هناك «سفراء روح» في كل مكان ينظر إليه

Twitter: @ketab_n

المرء، جاهزين للاستئجار بالساعة. تتسرب تجاربهم أحياناً إلى المجلات الطبية والعلمية الأكثر احتراماً، مما أرعب ألما. رأت مؤخراً مقالة حول موضوع التنويم المغناطيسي، فكرة أن العملية يمكن أن تتم إيحائياً، الأمر الذي بدا لها كمثل ألعاب كرنفال. دعا بعض الناس هذه الاستقصاءات علماً، لكن ألما شخّصتْها، وهي مستاءة، كتسلية، وكصنْف خطير من التسلية.

بطريقة ما، ذكّرها أمبروس بجميع الروحانيين التائقين والحساسين، لكنه لم يكن مثلهم ولم يسمع بهم أبداً. عاش في عزلة بعيدة فلم يشاهد الصوفيين المهووسين الحاليين. ولم يشترك في مجلات علم فراسة الدماغ، ومناقشاتها حول الملكات والميول والعواطف السبع والثلاثين المختلفة التي تمثلها مطبات وأودية الجمجمة البشرية. ولم يقم بزيارة الوسطاء، ولم يقرأ «ذ ديال». ولم يذكر لألما أبداً اسميْ برونسون ألكوت أو رالف والدو إمرسون. ومن أجل العزاء والزمالة، قرأ الكتّاب القروسطيين، وليس المعاصرين.

فضلاً عن ذلك، سعى بنشاط وراء إله الكتاب المقدس، وكذلك وراء أرواح الطبيعة. ذهب إلى الكنيسة السويدية اللوثرية كل أحد مع ألما، وركع وصلّى في انسجام متواضع. جلس منتصباً على المقعد الخشبي الطويل المصنوع من خشب البلوط الصلب، وأصغى إلى المواعظ دون راحة. وحين لا يذهب إلى الصلاة، يعمل بصمت في المطبعة، أو يرسم باجتهاد لوحات نباتات السحلبية، أو يساعد ألما في العمل على طحالبها، أو يلعب ألعاباً طويلة من الباغامون مع هنري. والحقيقة أن أمبروس لم يكن يمتلك فكرة عما يحصل في بقية العالم. كان يحاول الهرب من العالم، مما عنى أنه وصل إلى أفكاره الغريبة بنفسه. ولم يكن يعرف أن نصف الناس في أميركا ومعظم أوربا يحاولون

Twitter: @ketab_n

قراءة أذهان بعضهم بعضاً. أراد أن يقرأ ذهن ألما، وأن يجعلها تقرأ ذهنه فحسب.

لم تستطع رفض ذلك.

وهكذا حين طلب منها الشاب أن تأخذه إلى مكان ما هادئ وسري أخذته إلى حجرة التجليد. لم تستطع التفكير بأي مكان آخر تذهب إليه. لم ترد أن تسير معه إلى مكان أبعد كي لا توقظ أحداً في المنزل. لم ترغب بأن تُرى في غرفة النوم معه. فضلاً عن أنها لا تعرف مكاناً أكثر هدوءاً أو خصوصية. قالت لنفسها إن هذه هي الأسباب التي جعلتها تأخذه إلى هناك. ربما كانت صادقة.

لم يعرف أبداً أن الباب هناك. لم يعرف أحد أنه هناك. آثاره مخفية بذكاء وراء الجص القديم المحكم الذي يشكل الحائط. ومنذ وفاة بياتريكس، كانت ألما الشخص الوحيد الذي سبق ودخل إلى حجرة التجليد. ربما تعرف هانيكي بوجود الغرفة، لكن نادراً ما جاءت كبيرة الخدم العجوز إلى هذا الجناح من المنزل، إلى المكتبة البعيدة. ربما يعرف هنري بوجودها ـ فهو الذي صممها ـ لكن هو أيضاً نادراً ما يدخل المكتبة. وربما نسي المكان منذ سنوات.

لم تحضر ألما مصباحاً. تعرف جيداً ملامح الغرفة الصغيرة. فهناك الكرسي، حيث تجلس حين تأتي كي تكون وحيدة بشكل مخجل وممتع، وهناك طاولة عمل صغيرة يستطيع أمبروس أن يجلس عليها الآن، يواجهها مباشرة. دلته أين يجلس. حالما أغلقت الباب وأقفلته، كانا في ظلمة مطلقة معاً، في هذا المكان الصغير والمخفي والخانق. لم يبد مذعوراً في الظلمة، أو المأوى الضيق. فقد كان هذا طلبه.

قال: «هل يمكن أن أمسك يديك؟».

Twitter: @ketab_n

مدت يديها بحذر عبر الظلمة إلى أن لمست أصابعها ذراعيه. سوية، عثرا على أيدي بعضهما بعضاً. يداه نحيلتان وخفيفتان. يداها ثقيلتان ورطبتان. وضع أمبروس يديه على ركبتيه، راحتا كفه نحو الأعلى، وجعلت راحتي كفيها تستقران فوق راحتي كفيه. لم تتوقع ما صادفته في اللمسة الأولى: الاندفاع الوحشي الصاعق للحب. مرّ عبرها كشهقة.

لكن ما الذي توقّعته؟ لماذا يجب أن تشعر بأي شيء أقل مما هو رفيع وسام وجليل؟ لم يلمس ألما رجلٌ أبداً من قبل. أو بالأحرى مرتين فقط، مرة في ربيع ١٨١٨ حين ضغط جورج هوكس يدها بين يديه ودعاها مجهرية متألقة؛ ومرة ثانية من قبل جورج، في وقت أحدث، حين كان يعاني من مشكلة ريتا، لكن في كلتا الحالتين كانت لمسة على يد من يديها فحسب، تمت بالمصادفة مع لحم رجل. لم تحظ أبداً بأية لمسة يمكن أن تدعى حميمية. جلست مرات لا تحصى طيلة عقود على هذا الكرسي نفسه فاتحة ساقيها ورافعة تنورتها إلى الخصر، والباب مقفل، متكئة على الجدار الذي خلفها، مطفئة ظمأها بأصابعها. لو كان هناك جزيئات في هذه الغرفة تختلف عن الجزيئات الأخرى لوايت إيكر، أو عن الجزيئات الأخرى للعالم، لتخللت تلك الجزيئات دزينات ومئات وآلاف الانطباعات عن جهود ألما الشهوانية. لكنها الآن في هذه الحجرة، في الظلمة المألوفة نفسها، محاطة بتلك الجزيئات، وحيدة مع رجل أصغر منها بعشر سنوات.

ولكن ماذا تفعل حيال شهقة الحب هذه؟

قال أمبروس وهو يمسك يد ألما بخفة: «استمعي إلى سؤالي، ثم اطرحي عليّ سؤالك. لن تكون هناك حاجة للكلام. سنعرف حين نسمع بعضنا بعضاً».

Twitter: @ketab_n

شد أمبروس قبضته بلطف حول يديها. كان الإحساس الذي أثاره هذا في أعلى ذراعيها جميلاً.

كيف يمكن أن توسّع هذا؟

فكرت بالتظاهر بأنها تقرأ ذهنه، ولو من أجل التجريب. فكرت إذا كانت هناك طريقة لتكرار هذا الحدث في المستقبل. لكن ماذا لو اكتُشفا هنا؟ ماذا لو شاهدتهما هانيكي وحيدين في الحجرة؟ ما الذي سيقوله الناس؟ ما الذي سيظنه الناس بأمبروس، الذي لم تكن نواياه سيئة؟ سيبدو غير أخلاقي، سيُطرد، وسيلحق بها العار.

كلا، فهمت ألما، لن يفعلا هذا ثانية أبداً بعد الليلة. ستكون هذه اللحظة الوحيدة في حياتها حين تمسك يدا رجل بيديها.

أغمضت عينيها واستندت إلى الخلف قليلاً، واضعة ثقلها كله على الحائط. لم يفلتها. لمست ركبتاها ركبتيه تقريباً. مر الوقت. عشر دقائق؟ نصف ساعة؟ تشربت متعة لمسته. تمنت ألا تنسى هذا أبداً.

تقدم الإحساس الممتع الذي بدأ في راحتي كفيها وسافر صاعداً في ذراعيها وجذعها، وتجمّع أخيراً بين ساقيها. ما الذي افترضت أنه يمكن أن يحدث؟ تآلف جسمها مع هذه الغرفة، ودُرِّب على هذه الغرفة، والآن وصل هذا المحفّز الجديد. لوهلة، كافحت الإحساس. كانت ممتنة أن وجهها لا يمكن أن يُرى، لأن هذا سيكشف ملامح أكثر التواء واحمراراً، لو كان هناك أثر من الضوء. رغم أنها فرضت هذه اللحظة، فإنها ما تزال غير مصدقة لها. كان هناك رجل يجلس قبالتها، هنا في الظلام في حجرة التجليد، داخل أحشاء العالم الأعمق.

حاولت ألما أن تحافظ على هدوء نَفَسِها. قاومت ما كانت تشعر به، مع ذلك زادت مقاومتها فقط من إحساس المتعة الذي ينمو بين ساقيها.

Twitter: @ketab_n

هناك كلمة هولندية، uitwaaien، «أن تسير ضد الريح من أجل المتعة». هذا ما شعرت به. دون أن تحرك جسمها مطلقاً، اتكأت ألما على الريح الصاعدة بكامل قوتها، لكن الريح دفعت إلى الخلف فقط، بقوة مساوية، وهكذا زادت متعتها.

مر المزيد من الوقت. عشر دقائق أخرى. لم تتحرك ألما أيضاً، ولم ترتجف يداه أو تنبضا كثيراً. لكن ألما شعرت بأنه يستحوذ عليها. شعرت به في كل مكان داخلها وحولها. شعرت به يحصي الشعرات في قاعدة عنقها، ويفحص عناقيد الأعصاب في قاع هيكلها العظمي.

كتب جاكوب بوهمه: «إن الخيال لطيف ويشبه الماء. لكن الرغبة فظة وجافة كالجوع».

شعرت ألما بكليهما. شعرت بكلّ من الماء والجوع. شعرت بكلٍّ من الخيال والرغبة. ثم، بنوع من الرعب وكمية جيدة من المتعة المجنونة، عرفت أنها على وشك أن تمدّ يدها إلى دردور متعتها المألوف. كان الإحساس يتصاعد بسرعة عبر جسدها، ولم يكن هناك طريقة لإيقافه. دون أن يلمسها أمبروس (بصرف النظر عن يديه)، دون أن تلمس نفسها، دون أن يتحرك أي منهما إنشاً واحداً، دون أن ترفع تنورتها إلى خصرها واشتغال يديها على جسدها، حتى دون تغيير للنفس، وصلت ألما إلى الذروة. للحظة، رأت وميض بياض، كمثل تمدد للبرق في سماء صيف بلا نجوم. صار العالم حليبياً خلف عينيها المغمضتين. شعرت بأنها عميت، هاجت، ثم على الفور شعرت بالخجل.

شعرت بالخجل على نحو مقيت.

ما الذي فعلته؟ ما الذي شعرت به؟ ما الذي سمعته؟ يا إلهي، ما

Twitter: @ketab_n

الذي شمّه؟ لكن قبل أن تستطيع القيام برد فعل أو تنسحب، شعرت بشيء آخر. رغم أن أمبروس لم يتحرك حتى الآن أو يرتعش أو يقوم برد فعل، شعرت فجأة كما لو أنه يفرشي كعبي حذائه بإلحاح. مع مرور اللحظات، شعرت أن إحساس التمسيد هذا كان في الحقيقة سؤالاً، نطقاً جاء إلى الوجود، من الأرض. شعرت بالسؤال يدخل من قاع قدميها ويرتفع عبر عظام ساقيها. ثم شعرت بالسؤال يزحف في رحمها، ويسبح عبر الممر المبلل. كان تقريباً صوتاً منطوقاً ينزلق صاعداً فيها، كان نطقاً تقريباً. طلب أمبروس منها شيئاً، لكنه طلبه من داخلها. سمعته الآن. ثم جاء سؤاله مصاغاً على نحو كامل:

«هل ستقبلين هذا مني؟».

نبض جوابها بصمت: نعم.

ثم شعرت بشيء آخر. تلوّى السؤال الذي وضعه أمبروس في جسمها إلى شيء آخر. تحول الآن إلى سؤالها. لم تعرف أن لديها سؤالاً لأمبروس، لكن لديها واحداً الآن، بشكل أكثر إلحاحاً. شعرت بسؤالها يرتفع عبر جذعها وإلى الخارج عبر ذراعيها. ثم وضعت سؤالها على راحتي كفيه المنتظرتين:

هل هذا ما تريده مني؟

سمعتُه يتنفس بصعوبة. أمسك يديها بإحكام بحيث أنه آلمها تقريباً. ثم حطم الصمت بكلمة واحدة منطوقة: «نعم».

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس عشر

تزوّجا بعد شهر واحد فقط.

في الأعوام التالية ستفكر ألما بالآلية التي تم التوصل بها إلى القرار، القفزة التي لا تُصدق وغير المتوقعة إلى الزواج، لكن في الأيام التي تلت التجربة داخل حجرة التجليد، شعرت بأن الزواج أمر حتمي. أما ما حدث في تلك الغرفة الصغيرة (من ذروة ألما الطاهرة، إلى النقل الصامت للفكر) فقد بدا كمعجزة، أو على الأقل كظاهرة. لم تستطع ألما العثور على شرح منطقي لما حدث. فالناس لا يستطيعون سماع أفكار بعضهم بعضاً. عرفت ألما أن هذا صحيح. ولا يستطيع الناس إيصال هذا النوع من الكهرباء، من التوق والتشويش الإيروسي الصريح بمجرد اللمس باليدين. مع ذلك، حدث الأمر.

حين غادرا الحجرة في تلك الليلة استدار إليها بوجه متورد ومنتش، وقال: «أريد أن أنام إلى جانبك كل يوم من بقية حياتي، وأصغي إلى أفكارك إلى الأبد».

هذا ما قاله! ليس عن طريق التخاطر، بل بصوت مرتفع. ارتبكت، لم يكن لديها كلمات كي تجيبه. هزت رأسها موافقة فحسب، أو ربما مظهرة تعجبها. ثم ذهب الاثنان إلى غرفتي نومهما المتقابلتين، رغم أنها لم تنم بالطبع. كيف تستطيع النوم؟

Twitter: @ketab_n

في اليوم التالي، وهما يسيزان إلى موقع الطحالب معاً بدأ أمبروس بالتحدث تلقائياً، كما لو أنهما كانا في منتصف محادثة متواصلة. من لامكان قال: «ربما كان الفرق في محطتي حياتينا كبيراً جداً بحيث أنه لا أهمية له. لا أملك شيئاً في هذا العالم يمكن أن يرغب به أي شخص، وأنت تملكين كل شيء. ربما نعيش في عالمين مختلفين مما يولد توازناً بيننا؟».

لم تفهم ألما ما الذي يقصده لكنها سمحت له بمواصلة التحدث.

قال بهدوء: «تساءلت أيضاً إن كان شخصان مثلنا مختلفان يستطيعان العثور على التوازن في الزواج».

خفق قلبها وتشنجت معدتها حين ذُكرتْ كلمة زواج. هل كان يتحدث فلسفياً أم حرفياً؟ انتظرت.

واصل، رغم أنه كان ما يزال بعيداً عن المباشرة: «سيكون هناك أشخاص يتهمونني بالطموح إلى ثروتك. لا شيء يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة من هذا. أنا أعيش حياتي في أشد حالات التقتير، يا ألما، ليس فقط بسبب العادة، بل لأنني أفضل هذا أيضاً. ليس لدي ثروات أقدمها لك، لكنني لن آخذ منك أية ثروات أيضاً. لن تصبحي أكثر ثراء بزواجك مني، لكن لن تصبحي فقيرة أيضاً. يمكن ألا ترضي هذه الحقيقة والدك، لكنني آمل أنها سترضيك. بأية حال، إن حبنا ليس عادياً، كما يُشعر عادة بين الرجال والنساء. نشترك في شيء ما آخر أكثر مباشرة، أكثر احتراماً. كان هذا جلياً لي من البداية، وآمل أنه كان متبدياً لك أيضاً. إن طلبي هو إن كان بوسعنا العيش معاً كواحد، راضيين ومتساميين، وساعيين أبداً».

في وقت متأخر من ذلك الأصيل فحسب، حين سألها أمبروس:

Twitter: @ketab_n

«هل تتحدثين مع والدك، أم أتحدث أنا؟» فهمت ألما: كان هذا طلب زواج. أو بالأحرى كان فرضية زواج. لم يطلب أمبروس يد ألما بالتحديد، لكن بدا كأنه فهم ذهنياً أنها وافقت. لم تستطع إنكار صحة هذا. كانت ستمنحه أي شيء. أحبته بشكل عميق بحيث أن هذا آلمها. اعترفت بهذا لنفسها فحسب. إذا خسرته الآن سيكون هذا بمثابة البتر. وفي الحقيقة لم يكن من الممكن فهم هذا الحب. إنها تقريباً في الخمسين من عمرها، وهو ما يزال شاباً جميلاً. هي قبيحة وهو جميل. لم يعرفا بعضهما إلا لبضعة أسابيع. آمنا بكونين مختلفين (أمبروس بالمقدس وألما بالواقعي). لكن، وبشكل لا يُنكر ـ قالت ألما لنفسها ـ كان هذا حباً. وبشكل لا يُنكر، كانت ألما ويتاكر ستصبح زوجة.

قالت ألما بحذر شاعرة بمتعة مفرطة: «سأتحدث إلى أبي بنفسي».

وجدت والدها في مكتبه في ذلك المساء قبل العشاء، مشغولاً بين أوراقه.

قال مسلماً عليها: «أصغي إلى هذه الرسالة. يقول هذا الشخص هنا إنه لم يعد يستطيع تشغيل هذه المطحنة. ابنه ـ ابنه الغبي المقامر بالنرد ـ دمّر العائلة. قال إنه صمم على تسديد ديونه، ويرغب بأن يموت دون ارتباطات. هذا من رجل لم يقم بخطوة سليمة منذ عشرين سنة. حسناً، يمتلك فرصة رائعة من أجل ذلك!».

لم تعرف ألما من هو الرجل المعني، أو من ابنه، أو أية مطحنة مهددة. كان الجميع يتحدثون معها اليوم كما لو من منتصف محادثة بدأت سابقاً.

قالت: «أود أن أناقش معك أمراً يا أبي. طلب أمبروس بايك الزواج مني».

Twitter: @ketab_n

قال هنري: «جيد جداً، لكن اسمعي يا ألما، إن هذا المغفل هنا يريد أن يبيعني جزءاً من حقول ذرته، أيضاً، ويحاول إقناعي بشراء تلك الصومعة القديمة التي يملكها على رصيف الميناء، تلك التي بدأت تتساقط في النهر. تعرفينها، يا ألما. ما الذي يظن أن ذلك البناء المحطم يساوي في القيمة، أو لماذا سأرغب بأن أرتبط به، لا أستطيع تخيل ذلك».

«أنت لا تصغي يا أبي».

لم يتعب هنري نفسه وينظر من حيث يجلس إلى طاولته. قال، قالباً الورقة التي بين يديه ومحدقاً بها: «أنا أصغي إليك. أنا أصغي إليك مسحوراً».

قالت ألما: «نرغب أنا وأمبروس بالزواج بسرعة. لا نحتاج إلى استعراض أو حفل، لكن نود أن يتم هذا بسرعة. نرغب بالزواج قبل نهاية الشهر. كن مطمئناً من فضلك بأننا سنبقى في وايت إيكر. لن تخسر أياً منا».

بعد ذلك، نظر هنري إلى ألما للمرة الأولى منذ أن دخلت إلى الغرفة.

قال هنري: «لن أفقد أياً منكما بشكل طبيعي. لماذا سيغادر أي منكما؟ لا يستطيع هذا الشخص أن يجعلك تعيشين بطريقتك المعتادة من راتب ـ ما اسم هذه المهنة ـ راسم نباتات السحلبية؟».

أسند هنري ظهره إلى الكرسي، صالب ذراعيه على صدره، وحدق في ابنته من فوق حواف نظارته النحاسية عتيقة الطراز. لم تعرف ألما ماذا تقول.

نطقت أخيراً: «إن أمبروس رجل جيد ولا توق لديه للثروة».

Twitter: @ketab_n

أجاب هنري: «أشك بأنك مصيبة في هذا. إن قوله بأنه يفضل الفقر على الثروة يسيء إلى شخصيته. لقد فكرت بالموقف قبل وقت طويل من سماعي أنا وأنت بأمبروس بايك».

نهض هنري بشكل متوازن نوعاً ما وحدق في صندوق الكتب خلفه. سحب كتاباً عن الزوارق البريطانية، وهو كتاب شاهدتْه ألما على الرفوف طيلة حياتها، لكنها لم تفتحه أبداً، بما أنها لم تكن مهتمة بالموضوع. قلب في صفحات الكتاب إلى أن عثر على ورقة مطوية عليها ختم شمعي. فوق الختم كُتبت كلمة «ألما»، سلّمها لها.

«أعددتُ اثنتين من هذه الوثائق بمساعدة أمك في ١٨١٧. منحتُ الأخرى لشقيقتك برودنس حين تزوَّجتْ من كلبها ذي الأذنين المقطوعتين. إنه وثيقة كي يوقعها زوجك، ويؤكد فيها أنه لن يمتلك أبداً وايت إيكر».

لم يكن هنري مكترثاً بالأمر. أخذت ألما الوثيقة، دون أن تتفوه بأية كلمة. تعرفت على خط أمها في حرف الألف الكبير المستقيم من اسمها.

قالت ألما مدافعة: «لا يحتاج أمبروس إلى وايت إيكر وليست لديه أية رغبة بامتلاكها».

«ممتاز. إذاً لن يهمه توقيع الوثيقة. سيكون هناك مهر بشكل طبيعي، لكن أملاكي لن تكون له أبداً. أثق أننا فهمنا بعضنا؟».

قالت: «بشكل جيد جداً».

«جيد جداً بالفعل. بالنسبة لموضوع إن كان السيد بايك زوجاً مناسباً لك فهذا عملك. أنت امرأة ناضجة. إذا اعتقدت أن هذا الرجل يمكن أن يرضيك في الزواج فإنني أمنحك بركتي».

Twitter: @ketab_n

قالت ألما: «راضية في الزواج؟ هل سبق أن كنت صعبة الإرضاء يا أبي؟ ما الذي سبق وطلبته؟ ما الذي سبق وطالبتُ به؟ كم من المشاكل يمكن أن أسبّب لأي شخص كزوجة؟».

هزّ هنري كتفيه: «لا أستطيع القول. هذا من أجلك كي تتعلميه».

«نحب أنا وأمبروس بعضنا بعضاً بشكل طبيعي، يا أبي. أعرف أن هذا يمكن أن يبدو اقتراناً غير تقليدي، لكنني أشعر .».

قاطعها هنري: «لا تشرحي نفسك أبداً يا ألما. يجعلك هذا تظهرين ضعيفة. بأية حال، أنا لا أكره هذا الشخص». أعاد انتباهه إلى الأوراق التي على طاولته.

هل شكل ذلك مباركة؟ لم تستطع ألما التأكد. انتظرته كي يقول المزيد. لم يقل. بدا كأن الإذن بالزواج قد مُنح. على الأقل، لم يُرفض إذن الزواج.

«شكراً لك يا أبي»، استدارت نحو الباب.

قال هنري، وهو ينظر ثانية نحو الأعلى: «هناك مسألة أخرى، درجت العادة أن تتلقى العروس قبل ليلة زفافها النصيحة حول مسائل معينة في غرفة الزوجية بما أنك ما تزالين بريئة في هذه الأمور، وهذا ما أظنه. كرجل، وكوالد لك، لا أستطيع أن أنصحك. والدتك ميتة، وإلا لفعلت ذلك. لا تزعجي نفسك بطرح أسئلة على هانيكي حول هذه الأمور، لأنها عانس عجوز لا تعرف شيئاً، وستموت من الصدمة لو عرفت ما يحدث بين الرجال والنساء في السرير. نصيحتي هي أن تقومي بزيارة إلى أختك برودنس. فهي زوجة لوقت طويل وأم لنصف دزينة من الأطفال. يمكن أن تكوْن قادرة على تثقيفك حول بعض نقاط التصرف الزوجي. لا تخجلي يا ألما، أنت كبيرة جداً على هذا، ويجعلك تبدين

Twitter: @ketab_n

سخيفة. إذا كنت ستتزوجين، إذاً افعلي هذا بشكل ملائم وعلى بركة الله. ادخلي الفراش مهيأة، كما تفعلين حيال كل شيء في الحياة. ربما يستحق هذا جهدك. وأرسلي هذه الرسائل لي غداً، إذا كنت ذاهبة إلى البلدة بأية حال».

* * *

لم تمتلك ألما الوقت كي تفكر بشكل ملائم بفكرة الزواج، وبدا الآن كأن كل شيء مرتب ومُقرر. حتى والدها انتقل على الفور إلى موضوعات الإرث وسرير الزوجية. وتتالت الأحداث بسرعة أكبر بعد ذلك. وفي اليوم التالي سارت ألما وأمبروس إلى الشارع السادس عشر ليتصورا صورة زفافهما. لم تكن ألما قد صُوِّرت أبداً من قبل، ولا أمبروس أيضاً. بدا مظهرهما مقيتاً لهما بحيث أنها ترددت حتى في دفع أجرة الصور. نظرت إلى الصورة مرة واحدة فقط، ولم ترد أن تشاهدها مرة ثانية أبداً. بدت أكبر بكثير من أمبروس! وإذا ما نظر غريب إلى هذه الصورة سيظنها أم الشاب، كبيرة العظام وكبيرة الفك ويُرثى لها. أما أمبروس فقد بدا كسجين جائع ومرعوب على الكرسي الذي يحمله. كانت إحدى يديه ضبابية. وجعله شعره المشعث يبدو كما لو أنه أُوقظ بَفظاظة من نوم مُعذِّب. كان شعر ألما معقوفاً ودميماً. وجعلت التجربة ألما تشعر بحزن رهيب. لكن أمبروس ضحك فحسب حين شاهد الصورة.

قال: «لماذا، هذا تشهير. يا له من قدر غير لطيف أن يرى المرء نفسه بصدق هكذا! مع ذلك، سأرسل الصورة إلى عائلتي في بوسطن آملاً أن يتعرّفوا على ابنهم».

هل كانت الأحداث تتحرّك بهذه السرعة بالنسبة لأشخاص آخرين

مقدمين على الزواج؟ لم تكن ألما تعرف. لم تر الكثير من المغازلات ومراسم الزِفاف وطقوس الزواج. لم تدرس أبداً مجلات السيدات أو تستمتع بالروايات الخفيفة عن الحب المكتوبة للفتيات الصغيرات والبريئات. (أكيد أنها قرأت روايات مثيرة عن الزواج، لكنها لم توضح الموقف الأكبر). باختصار، كانت حسناء بلا خبرة. لو لم تكن تجارب ألما في حقل الحب نادرة هكذا على نحو واضح، لوجدت علاقة حبها مفاجئة وغيرمحبّذة. ففي الأشهر الثلاثة التي كانت فيها هي وأمبروس يعرفان بعضهما بعضاً، لم يتبادلا أبداً رسالة حب أو قصيدة أو عناقاً. تواصلت العاطفة بينهما بوضوح لكن غاب الهيام. ستعدّ امرأة أخرى هذا الموقف مثيراً للشبهة. بيد أنّ ألما شعرت، بدلاً من ذلك، بأنها سكرى ومرتبكة من الأسئلة. لم تكن بالضرورة أسئلة غير ضرورية، لكنها احتشدت في داخلها وشغلت ذهنها. هل أمبروس الآن حبيبها؟ هل يمكن أن تدعوه هكذا بشكل منصف؟ هل تنتمي إليه؟ هل تستطيع أن تمسك يده في أي وقت الآن؟ كيف ينظر إليها؟ كيف سيبدو جسمه، تحت ثيابه؟ هل سيمتعهُ جسمها؟ ما الذي يتوقعه منها؟ لم تستطع أن تستحضر أجوبة لأي من هذه الأسئلة.

كانت أيضاً واقعة في الحب الشديد.

كانت ألما مولعة بأمبروس دائماً، بالطبع، منذ اللحظة التي التقت به فيها، لكنها لم تفكر أبداً بالسماح لنفسها بأن تعبر عن ذلك الولع بشكل كامل إلى أن طلب يدها للزواج، شعرت بأن هذا سيكون تهوراً لو فعلت ذلك، هذا إذا لم يكن خطيراً. كان دوماً يكفي أن يكون قريباً منها. سترغب ألما باعتبار أمبروس مجرد رفيق عزيز، لو أن هذا سيبقيه في وايت إيكر إلى الأبد. أن تأكل معه كل صباح التوست بالزبدة، أن تراقب وجهه المشرق دوماً حين يتحدث عن نباتات السحلبية، أن تراقب

Twitter: @ketab_n

صناعته المتقنة للصور المطبوعة، أن تراقبه يرمي نفسه على الأريكة كي يصغي إلى نظرياتها عن تحول الأنواع وانقراضها، في الحقيقة، سيكون كل هذا كثيراً. لن تفترض أبداً أن ترغب بما هو أكثر من هذا. أمبروس كصديق ـ كأخ ـ كان أكثر من كاف.

بعد أحداث حجرة التجليد لم تطلب ألما المزيد. وكانت مهيأة أن تعدّ ما حصل بينهما في الظلام لحظة فريدة، أو ربما هلوسة متبادلة. كان بوسعها أن تتحدث مع نفسها كي تعتقد أنها تخيلت تيار التواصل الذي تحرك بينهما عبر الصمت، والتأثير المشاغب الذي ولّدته يداه الممسكتان بيديها في كل جسمها. ويمكن أن نفترض أنها تعلمت أيضاً مع مرور الوقت أن تنسى حدوث الأمر. وحتى بعد ذلك اللقاء لم تسمح لنفسها بأن تحبه بشكل متلهف كهذا، وبشكل كامل كهذا، وبشكل لا يُقاوم كهذا دون إذن منه.

لكنهما سيتزوجان الآن، ومُنح ذلك الإذن. لم يعد هناك سبب يجعل ألما تقيد حبها. سمحت لنفسها بأن تغوص بسرعة فيه. وشعرت بأنها تلتهب بالدهشة، وتفيض بالإلهام، ومثارة. وحيث شاهدت الضوء في وجه أمبروس مرة، رأت الآن نوراً سماوياً. أما أعضاؤه التي كانت ممتعة من قبل، فقد بدت الآن كالمنحوتات الرومانية. كان صوته صلاة العصر. وكانت أخف نظرة لديه تحدث في قلبها متعة مخيفة.

قُذفتْ ألما بحرية للمرة الأولى في حقل الحب، ومُنحتْ طاقة جبارة، بحيث أنها لم تتعرف على نفسها إلا بصعوبة. بدت قدراتها بلا حدود. لم تحتج إلى النوم. شعرت بأنها قادرة على التجذيف بزورق في سفح جبل. تحركت في العالم كما لو أنها محاطة بهالة نارية. كانت حية. لم تنظر بنقاء وحماس إلى أمبروس فحسب، بل إلى كل شيء، وإلى

Twitter: @ketab_n

الجميع. كان كل شيء إعجازياً على نحو مفاجئ. شاهدت نقاط التقاء ونعمة في كل مكان نظرت إليه. حتى المسائل الأصغر صارت كاشفة. واكتسبت شعوراً غامراً مفاجئاً من الثقة بالنفس. فجأة، وجدت نفسها تحل مشكلات نباتية استعصت عليها لسنوات. كتبت برشاقة وسرعة رسائل إلى أشخاص مميزين في علم النبات (رجال أخافتها شهرتهم دوماً)، متحدية استنتاجاتهم بطريقة لم تسمح لنفسها بالقيام بها من قبل أبداً.

انتقدتْ أحدهم بحدة: «لقد قلتَ إن طحالب الزيغودون التي اكتشفتَها تمتلك ست عشرة عضية خلوية وبدون تجويف فموي خارجي».

أو: «لماذا أنت متأكد من أن هذه مستعمرة من الطحالب المُشْعرة؟».

أو: «لا أتفق مع استنتاج الأستاذ مارشال. قد يكون مخيّباً، حسب علمي، الوصول إلى إجماع في حقل النباتات اللازهرية، لكنني أحذرك من استعجالك في إعلان أنواع جديدة قبل أن تدرس بشكل كامل الأدلة المتراكمة. ففي هذه الأيام يمكن أن يرى المرء الكثير من الأسماء لعيّنة معينة بقدر ما يوجد علماء مختصون بالطحالب يدرسونها؛ لا يعني هذا أن العينة جديدة أو نادرة. لدي أربع عينات كهذه في مجموعتي النباتية».

لم تملك أبداً من قبل الجرأة على القيام باعتراضات كهذه، لكنْ الحب جعلها جريئة، وشعرتْ بأن ذهنها مثل محرّك نظيف. وقبل الزفاف بأسبوع، استيقظت ألما في الليل مجفلة، وأدركت فجأة أن هناك صلة بين الأشنة والطحالب. فحصت الطحالب والأشنات لعقود، لكنها لم تكتشف أبداً من قبل حقيقة الأمر، أن الاثنين أولاد عم. لم يكن لديها أدنى شك في ذلك. وأدركت أن الطحالب لا تشبه الأشنة التي

زحفت على الأرض الجافة فقط بل أنّ الطحالب كانت أشنات زحفت على الأرض الجافة. ولم تعرف ألما كيف قامت الطحالب بهذا التحول الدقيق من مائية إلى أرضية. لكن هذين النوعين كان لهما تاريخ مشترك. لا بد أنهما فعلا هذا. قررت الأشنات شيئاً ما قبل وقت طويل من مراقبة ألما أو أي شخص آخر لها، وبعد اتخاذ ذلك القرار، تحركت نحو الأعلى في الهواء الجاف وتحولت. لم تعرف الآلية الكامنة خلف هذا التحول، لكنها عرفت أنها حصلت.

مدركةً كل هذا، تمنت ألما أن تركض عبر القاعة وتقفز إلى السرير مع أمبروس، معه هو الذي أثار تلك الوحشية داخل جسمها وذهنها. تمنت أن تخبره كل شيء، أن تريه كل شيء، أن تبرهن له اشتغالات الكون. لم تستطع انتظار طلوع الفجر، حين يستطيعان التحدث ثانية أثناء تناول الفطور. لم تستطع تأجيل النظر إلى وجهه. لم تستطع انتظار الوقت الذي لن يحتاجا فيه أبداً إلى الانفصال، ليس حتى في الليل، ليس حتى أثناء النوم. استلقت في فراشها، مرتعشةً من التوقع والحب.

كم شعرت أن المسافة بعيدة بين غرفتيهما!

أما أمبروس فقد صار أكثر هدوءاً، وأكثر انتباهاً حين اقترب الزفاف. كان شديد اللطف مع ألما. خافت أحياناً من احتمال أن يغير رأيه، لكن لم تكن هناك علامة تدل على ذلك. شعرت بارتجاف خوف حين سلمته مرسوم هنري ويتاكر، لكن أمبروس وقّعه دون تردد أو شكوى، ودون أن يقرأه. وكان كل ليلة، قبل أن يذهبا إلى غرفتيهما المنفصلتين، يقبل يدها المنمشة، تماماً تحت البراجم. ويقول لها: «أنت روحي الأخرى، روحي الأفضل».

قال: «أنا رجل غريب يا ألما. هل أنت متأكدة من أنك تستطيعين تحمل طرقي غير العادية؟».

Twitter: @ketab_n

وعدت: «أستطيع تحملك».

شعرت أنها تواجه خطر الاشتعال.

خافت أن تموت من السعادة.

***

قبل الزفاف بثلاثة أيام، الزفاف الذي خُطط له كي يكون احتفالاً بسيطاً يجري في غرفة الاستقبال في وايت إيكر، زارت ألما أخيراً شقيقتها برودنس. كانت قد مرت شهور كثيرة على لقائهما الأخير. لكن سيكون من الوقاحة ألا تدعو شقيقتها إلى حفل الزفاف، وهكذا كتبت ألما إلى برودنس رسالة قالت فيها إنها ستُزف إلى صديق لجورج هوكس، ثم وضعت خططاً لزيارة قصيرة. علاوة على ذلك، قررت ألما أن تتقيد بنصيحة والدها، وتتحدث مع برودنس عن مسألة سرير الزوجية. لم تكن هذه محادثة تتوقعها بلهفة، لكنها لم ترد أن تقع بين ذراعي أمبروس غير مستعدة، ولم تكن تعرف شخصاً آخر كي تسأله.

في وقت مبكر من المساء في منتصف آب/أغسطس وصلت ألما إلى منزل آل ديكسون. وجدت أختها في المطبخ، تعد كمّادة من الخردل لولدها الأصغر والتر الذي كان مريضاً ومتمدداً في الفراش، تؤلمه معدته بعد أن أكل الكثير من قشر البطيخ الأخضر. تجمع الأطفال الآخرون في المطبخ، يؤدون أعمالاً روتينية مختلفة. كانت الغرفة حارة بشكل خانق. وهناك فتاتان سوداوان صغيرتان لم ترهما ألما من قبل، تجلسان في الزاوية مع ابنة برودنس التي في الثالثة عشرة من عمرها، سارة، والفتيات الثلاث يمشطن الصوف. وكانت جميع الفتيات السوداوات والبيضاوات يلبسن الفساتين الأكثر تواضعاً التي يمكن

Twitter: @ketab_n

تخيّلها. سار الأطفال، حتى السود، إلى ألما وقبلوها باحترام ودعوها «خالتي»، وعادوا إلى أعمالهم.

سألت ألما برودنس إن كان بوسعها المساعدة في إعداد الكمادة، لكن برودنس رفضت المساعدة. أحضر أحد الفتيان إلى ألما الماء في كوب قصديري من المضخة التي في الحديقة. الماء فاتر وطعمه كريه ومزعج. لم ترغب به ألما. جلست على المقعد الطويل، ولم تعرف أين تضع الكوب. ولم تعرف كذلك ماذا تقول. أما برودنس، التي تلقت رسالة ألما باكراً خلال الأسبوع، فقد هنأت أختها على الزفاف القادم، لكن ذلك التبادل الفاتر لم يستغرق إلا لحظة واحدة، ثم أُغلق الموضوع. أُعجبت ألما بالأطفال وبنظافة المطبخ، وبكمادة الخردل، حتى لم يبق شيء كي تعجب به. بدت برودنس نحيلة ومنهكة، لكنها لم تَشْكُ، ولم تشاطر أختها أية أنباء عن حياتها. لم تسأل ألما عن أية أنباء. كرهت أن تعرف تفاصيل عن الظروف التي من المحتمل أن الأسرة تواجهها.

بعد وهلة طويلة، جمعت ألما شجاعتها كي تسألها: «برودنس، أتساءل إن كان بوسعي التحدث معك على انفراد؟».

إذا كان الطلب قد أدهش برودنس فإنها لم تظهر ذلك. لكن ملامح برودنس الناعمة كانت دائماً غير قادرة على إظهار عاطفة منحطة كالدهشة.

قالت برودنس لابنتها الأكبر: «خذي الآخرين إلى الخارج».

خرج الأطفال في صف من المطبخ بوقار وطاعة كجنود في طريقهم إلى المعركة. لم تجلس برودنس، لكنها وقفت وظهرها مسند إلى اللوح

Twitter: @ketab_n

الخشبي الضخم الذي يُستخدم كطاولة مطبخ، يداها مطويتان بشكل جميل على مئزرها النظيف.

سألت: «نعم؟».

بحثت ألما في ذهنها أين تبدأ. لم تستطع العثور على جملة لم تشعر بأنها غير سوقية أو وقحة. فجأة ندمت جداً لأنها تقيدت بنصيحة والدها حول المسألة. تمنت أن تجري من المنزل وتعود إلى الأجواء المريحة لوايت إيكر، إلى أمبروس، إلى المكان الذي فيه ماء عذب وبارد. لكن برودنس حدقت بها، متوقعة وصامتة. هناك شيء يجب أن يُقال.

بدأت ألما: «فيما أقترب من شواطئ الزواج..».

توقفت ألما فجأة وحدقت في أختها، يائسة، متمنية بشكل مجاف للعقل أن تكتشف برودنس من شظية الكلام هذه التي تخلو من المعنى ما تحاول أن تسأله بدقة.

قالت برودنس: «نعم؟».

أكملت ألما الجملة: «أجد نفسي دون تجربة».

حدقت برودنس في صمت وقوة. ساعديني، يا امرأة! أرادت ألما أن تصيح. لو كانت ريتا سنو هنا فحسب! لا ريتا الجديدة المجنونة، بل القديمة والمرحة وغير المقيدة. لو كانت ريتا هنا، أيضاً، ولو فقط كنّ في التاسعة عشرة من عمرهن ثانية. إن ثلاثتهن، كفتيات، يمكن أن يكنّ قادرات على مقاربة الموضوع بأمان، نوعاً ما. كانت ريتا ستجعل الموضوع مسلياً وصريحاً. كانت ريتا ستحرر برودنس من تحفظها، وتجعل ألما تتخلص من خجلها. لكن لم يكن هناك أحد الآن كي يساعد الأختين للتصرف كأختين. فضلاً عن ذلك، لم تبد برودنس مهتمة بجعل هذا النقاش سهلاً، بما أنها لم تتحدث مطلقاً.

Twitter: @ketab_n

«ليس لدي تجربة في الزواج»، أوضحت ألما، في انفجار شجاعة يائسة. «اقترح والدنا أن أتحدث معك كي توجّهيني في موضوع إمتاع الزوج».

ارتفع أحد حاجبي برودنس بشكل دقيق وقالت: «يؤسفني أن أسمع أنه يعتقد أنني مرجع».

كانت هذه فكرة مضللة في الحقيقة، كما أدركت ألما. لكن لم يكن هناك مجال للتراجع عنها الآن.

احتجت ألما: «لا تسيئي فهمي، إن الفكرة هي فقط أنك متزوجة منذ وقت طويل ولديك الكثير من الأطفال..».

«هناك أمور في الزواج يا ألما أهم بكثير مما تلمّحين إليه. فضلاً عن ذلك، هناك كثير من الأمور الأخلاقية التي تمنعني من مناقشة الموضوع الذي تلمّحين إليه».

«بالطبع يا برودنس. لا أرغب بالإساءة إلى حساسياتك أو التدخل في خصوصياتك. لكن ما أتحدث عنه مجهول بالنسبة لي. أتوسل إليك أن تفهميني. لا أريد أن أستشير طبيباً؛ أنا أعرف التفاصيل الداخلية الجوهرية للتشريح. لكنني أحتاج إلى استشارة امرأة متزوجة كي أفهم ما الذي يمكن أن يرحب به زوجي أو لا يرحب به. كي أقدم نفسي، أعني فيما يتعلق بفن الإمتاع..».

أجابت برودنس: «ليس له فن إلا إذا كانت المرأة للتأجير».

صاحت ألما بقوة فاجأتها حتى هي نفسها: «برودنس!، انظري إلي! ألا ترين كم أنا غير جاهزة؟ هل أبدو كامرأة شابة لك؟ هل أبدو أداة للرغبة؟».

حتى هذه اللحظة، لم تدرك ألما كم هي خائفة من ليلة زفافها.

كانت تحب أمبروس بشكل طبيعي، وكانت مستهلكة من الحماس والتوقع، لكنها مرعوبة أيضاً. فسر ذلك الرعب جزئياً نوباتها من الارتجاف في الليل التي سببت لها الأرق في تلك الأسابيع القليلة الماضية: لم تعرف كيف تكيّف نفسها كزوجة رجل. في الحقيقة، شغل ألما لعقود خيال خصب وغير محتشم وشهواني لكنها بريئة أيضاً. فالخيال شيء ووجود جسدين معاً شيء آخر تماماً. كيف سينظر إليها أمبروس؟ كيف ستسحره؟ كان شاباً جميلاً، بينما يتطلب تقييم حقيقي لمظهر ألما في الثامنة والأربعين من عمرها كشف هذه الحقيقة: كانت نبتة علّيق لا وردة.

خفّ شيء في برودنس بشكل هامشي.

قالت برودنس: «كل ما تحتاجين إليه هو أن تكوني راغبة. إن رجلاً يتمتع بصحة جيدة وبزوجة راغبة ومطيعة لن يحتاج إلى إغواء خاص».

لم تقدم هذه المعلومات أي شيء لألما. لا بد أن برودنس اشتبهت بالقدر نفسه، ذلك أنها أضافت: «أؤكد لك أن واجبات الزوجية ليست غير مريحة جداً. إذا كان رقيقاً معك، فإن زوجك لن يؤذيك كثيراً».

أرادت ألما أن تتفتت على الأرض وتبكي. هل حقاً تظن برودنس أن ألما تخاف الأذى؟ من وماذا يمكن أن يؤذي ألما ويتاكر؟ بيدين جلدهما جاف كيديها؟ بذراعين تستطيعان التقاط لوح البلوط الذي تستند إليه برودنس برشاقة وتقذف به في الغرفة بسهولة؟ بهذا العنق الذي لوحته الشمس وهذا الشعر الشوكي القصير؟ لم يكن الأذى ما تخشاه ألما في ليلة زفافها بل الذل. ما كانت ألما متلهفة لمعرفته هو كيف يمكن أن تقدم نفسها لأمبروس في شكل زهرة سحلبية كأختها، وليس كصخرة

Twitter: @ketab_n

طحالب مثلها. لكن شيئاً كهذا لا يُعلّم. كان هذا تبادلاً بلا فائدة، مجرد مدخل إلى الإذلال.

قالت ألما وهي تنهض: «لقد أخذت ما يكفي من مسائك. لديك طفل مريض يجب أن تعتني به. سامحيني».

ترددت برودنس للحظة، كما لو أنها ستتقدم إلى الأمام أو تطلب من أختها البقاء. لكن اللحظة مرت بسرعة، هذا إن حدث ووجدت. قالت فحسب: «أنا مسرورة أنك قمت بزيارتي».

أرادت ألما أن تتوسل: *لماذا نختلف هكذا؟ لماذا لا يمكن أن نكون وثيقتي الصلة؟*

لكنها سألت بدلاً من ذلك: «هل ستأتين لحضور الزفاف يوم السبت؟» رغم أنها ظنت أن الجواب سيكون الرفض.

«أخشى أنني لا أستطيع»، أجابت برودنس. لم تقدم سبباً. كلاهما عرف لماذا: لأن برودنس لن تضع قدمها مرة ثانية أبداً في وايت إيكر. لن يقبل هنري هذا، ولا برودنس.

اختتمت ألما: «لك مني أطيب الأمنيات إذاً».

أجابت برودنس: «ولك أيضاً».

حين كانت ألما في منتصف الطريق في الشارع أدركت ما فعلته: لم تسأل فقط أماً منهكة في الثامنة والأربعين من عمرها ولديها طفل مريض في المنزل من أجل المشورة في فن المضاجعة، لكنها سألت *ابنة عاهرة* عن هذا. كيف نسيت ألما أصول برودنس المخجلة؟ لم تستطع برودنس أن تغفر لنفسها أبداً، وربما كانت تعيش وجوداً من الصرامة التامة والفضيلة كي تواجه العيوب سيئة الصيت لأمها. لكن ألما رغم ذلك

ذهبت إلى ذلك المنزل المتواضع والظريف والمقيد، بأسئلة حول خدع وتجارة الإغواء.

جلست ألما على برميل مهجور مكتئبة. تمنت أن تعود إلى منزل آل ديكسون وتعتذر، لكن كيف تستطيع؟ ما الذي ستقوله لن يجعل الموقف أكثر إزعاجاً؟

كيف يمكن أن تكون باردة بهذا الشكل؟

أين ذهب *تعقلها*؟

* * *

في بعد الظهر ذاك قبل زفافها وصل شيئان مثيران للاهتمام في البريد إلى ألما.

كان الشيء الأول ظرفاً كُتب عليه فارمنغهام، ماساتشوسيتس، واسم بايك مكتوب في الزاوية. افترضت ألما على الفور أن هذه رسالة لأمبروس، بما أنها من عائلته، لكن الظرف كان موجّهاً بشكل واضح إليها، وهكذا قامت بفتحه:

عزيزتي الآنسة ويتاكر

أعتذر لعدم تمكني من حضور زفافك إلى ابني أمبروس، لأن صحتي متدهورة ولا تسمح لي باجتياز هذه المسافة الطويلة. على أي حال، سُررت حين وصلتني المعلومات بأن أمبروس سيدخل في الحال الزواج المقدس. عاش ابني سنوات كثيرة في عزلة عن العائلة والمجتمع مما جعلني أتخلى منذ وقت طويل عن أمل أن يكون له عروس. فضلاً عن ذلك، كان قلبه الفتي متألماً على نحو عميق من وفاة فتاة أُعجب بها كثيراً وفُتن بها، فتاة من عائلة مسيحية راقية في جماعتنا، افترضنا جميعاً أنه سيتزوج منها، وقد خفت من أن عقله لحق به الأذى، بحيث لن

Twitter: @ketab_n

يعرف ثانية مكافآت العاطفة الطبيعية. ربما أنا أتحدث بحرية أكبر رغم أنه بالتأكيد أخبرك كل شيء. إنني أرحب بأنباء هذا الزفاف لأنه قدم الدليل على شفاء قلب.

تلقيت صور زفافكما. تبدين امرأة قادرة. لا أرى أثراً للحماقة والطيش في ملامحك. لا أتردد في القول إن ابني يحتاج إلى امرأة مثلك. إنه فتى ذكي ـ الأذكى لدي ـ وحين كان طفلاً كان المتعة الرئيسية، لكنه أمضى الكثير من الأعوام يحدق بكسل في الغيوم والنجوم والأزهار.أخشى أيضاً من أنه يعتقد أنه تجاوز المسيحية بالذكاء. قد تكونين المرأة التي يمكن أن تصحح تصوراً خاطئاً كهذا لديه. أصلي كي يشفيه زواج جيد من لعب دور المتشرد الأخلاقي. ختاماً يؤسفني أنني لا أستطيع حضور زفاف ابني، لكنني أعقد آمالاً قوية على ارتباطكما. ستثلج صدري معرفة أن ابني يسمو بذهنه في تأمل الله من خلال منهج دراسة نصوص الكتاب المقدس والصلاة المنتظمة. من فضلك اجعليه يفعل ذلك.

أرحب أنا وأخوته بك في العائلة، أفترض أن هذا مفهوم. مع ذلك يستحق القول.

المخلصة، كونستانس بايك

كان الشيء الوحيد الذي لفت نظر ألما في هذه الرسالة: فتاة أُعجب بها كثيراً وافُتتن بها. رغم يقين أمه أنه أخبرها كل شيء، فإن أمبروس لم يقل لها أي شيء. من الفتاة؟ متى توفيت؟ غادر أمبروس فرامنغهام إلى هارفارد في السابعة عشرة من عمره، ولم يعش أبداً في البلدة منذ ذلك الوقت. لا بد أن علاقة الحب حدثت قبل تلك السن المبكرة، إذاً، هذا

إذا كانت علاقة حب. كانا طفلين، أو تقريباً طفلين. لا بد أن الفتاة كانت جميلة. استطاعت ألما أن تشاهدها الآن كشيء عذب، ككلب كولي صغير وجميل، كشخصية جميلة بشعر كستنائي وعينين زرقاوين تترنّم بصوت عسلي، وتسير مع أمبروس الشاب في بساتين الربيع في أوج التفتح. هل أسهم موت الفتاة في انهياره العقلي؟ ما اسم الفتاة؟

لمَ لم يتحدث أمبروس عن هذا؟ من ناحية أخرى، لماذا يجب أن يتحدث؟ ألا يحق له الاحتفاظ بخصوصية قصصه السابقة؟ هل سبق لألما أن أخبرت أمبروس، مثلاً، عن حبها الفاشل الذي لا فائدة منه وغير الموجه جيداً لجورج هوكس؟ هل كان ينبغي أن تخبره؟ لكن لم يكن هناك شيء كي تقوله. لم يعرف جورج هوكس أنه شخصية في قصة الحب تلك، مما يعني أنه لم تكن هناك قصة حب.

ما الذي يجب أن تفعله ألما بهذه المعلومات؟ وبشكل مباشر أكثر، ما الذي ستفعله بهذه الرسالة؟ قرأتها ثانية، وحفظت محتوياتها، وخبأتها. سترد على السيدة بايك فيما بعد، بطريقة سريعة وغير مؤذية. تمنت لو أنها لم تتلق أبداً رسالة كهذه. ستعلم نفسها أن تنسى ما عرفتْهُ لتوها.

ماذا كان اسم الفتاة؟

لحسن الحظ، كان هناك شيء آخر ألهاها، رزمة ملفوفة بورق شمعي بني، مربوطة بخيط قنب، وكانت المفاجأة الكبرى أنها جاءت من برودنس ديكسون. حين فتحت ألما الرزمة، اكتشفت أنه ثوب نوم من الكتان الناعم الأبيض، مخرم الحواف. بدا كأنه على قياس ألما تماماً. كان ثوباً جميلاً وبسيطاً، ومتواضعاً لكنه أنثوي، بطيات كبيرة، وياقة مرتفعة، وأزرار مخملية وكُمّين متموجين. توهجت منطقة الصدر

Twitter: @ketab_n

بأزهار مطرزة بشكل جميل مشغولة بخيوط من الحرير الأصفر الشاحب. كان ثوب النوم مطوياً بأناقة ويفوح منه شذى الخزامى، ومربوطاً بشريطة بيضاء شُكِلَتْ تحتها رسالة بخط يد برودنس الواضح: «مع أطيب أمنياتي».

من أين جاءت برودنس بشيء مترف كهذا؟ لم تكن تملك الوقت لتخيطه بنفسها. لا بد أنها اشترته من خياطة ماهرة. كم كلفها! من أين أتت بالنقود؟ كانت هذه أنواع المواد التي رفضها آل ديكسون منذ وقت طويل: الحرير والمخرمات والأزرار المستوردة، والأشياء المبهرجة من أي نوع. لم تلبس برودنس شيئاً جميلاً كهذا منذ ثلاثة عقود تقريباً. لا بد أن الهدية كلفت برودنس كثيراً، مالياً وأخلاقياً. شعرت ألما أن حنجرتها غصّتْ من العاطفة. ما الذي سبق وفعلته لأختها، كي تستحق لطفاً كهذا؟ خاصة في ضوء لقائهما الأخير، كيف يمكن أن تقدم برودنس هدية كهذه؟

فكرت للحظة أن ترفضها. يجب أن تحزم فستان النوم هذا وتعيده إلى برودنس، التي يمكن أن تقصه إلى قطع وتصنع فساتين جميلة لبناتها أو تبيعه من أجل قضية إلغاء العبودية. لكن كلا، سيبدو هذا وقاحة وعدم امتنان. يجب ألا تُعاد الهدايا. وقد علّمتهما بياتريكس هذا دوماً. يجب ألا تُعاد الهدايا أبداً. كان هذا فعل كرم يتضمن اعتذاراً. ويجب أن يتم تلقي الهدية برحابة صدر. يجب أن تكون ألما متواضعة وشاكرة.

فيما بعد، حين ذهبت ألما إلى غرفة نومها وأغلقت الباب، وقفت أمام مرآتها الطويلة، وارتدت ثوب النوم، فهمت بشكل أفضل ما الذي تريد منها أختها فعله، ولماذا لا يمكن أن يُعاد الثوب أبداً: يجب أن ترتدي ألما هذا الثوب الجميل في ليلة زفافها.

لقد بدت جميلة فيه.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع عشر

عُقد الزفاف يوم الثلاثاء، ٢٩ آب/ أغسطس، ١٨٤٨، في غرفة الاستقبال في وايت إيكر. ارتدت ألما فستاناً حريرياً بنياً صُنع خصيصاً لهذه المناسبة. وكان هنري ويتاكر وهانيكي دي غروت شاهدين. كان هنري مبتهجاً؛ على عكس هانيكي. وتولى قاض من غرب فيلادلفيا، قام بالأعمال في الماضي مع هنري، الإشراف على قَسَم الزواج كمعروف لسيد المنزل.

اختتم قائلاً بعد تبادل العهود والوعود: «أتمنى أن يهديكما الحب، وتُعينا بعضكما بعضاً في السراء والضراء».

«وأن تكونا شريكين في العلم والتجارة والحياة!»، قال هنري، بشكل غير متوقع تماماً، ثم تمخّط بقوة.

لم يكن هناك أصدقاء آخرون أو أعضاء من الأسرة. أرسل جورج هوكس صندوقاً من الإجاص كتهنئة، لكنه كان مصاباً بالحمى، كما كتب، ولا يستطيع الحضور. وصلت أيضاً باقة أزهار كبيرة في اليوم السابق، من صيدلية جاريك. بالنسبة لأمبروس، لم يحضر أحد من معارفه. فقد أرسل صديقه من بوسطن دانييل توبر برقية في ذلك الصباح قال فيها: «عمل جيد يا بايك»، لكن توبر لم يسافر لحضور الزفاف. إن

Twitter: @ketab_n

السفر من بوسطن إلى هنا يستغرق نصف يوم فقط، لكن لم يأت أحد كي يقف مع أمبروس.

أدركت ألما وهي تنظر حولها كم أصبحوا عائلة صغيرة. فقد كان هذا اجتماعاً صغيرا جداً، ولم يكن الناس كافين. كان العدد بالكاد كافياً لزفاف قانوني. كيف أصبحوا معزولين هكذا؟ تذكرت الحفلة الراقصة التي أقامها والداها في ١٨٠٨، منذ أربعين عاماً: كيف عجت الشرفة والمرج الكبير بالراقصين والموسيقيين، وكيف ركضت بينهم بمشعلها. كان من المستحيل تخيل أن وايت إيكر كانت مركز مشهد كهذا، وضحك كهذا، وأفعال صاخبة كهذه. صارت كوكبةَ صَمْتٍ منذ ذلك الوقت.

قدمت ألما لأمبروس كهدية زفاف طبعة قديمة فخمة من كتاب توماس بيرنت «النظرية المقدسة للأرض»، والذي نُشر أول مرة سنة ١٦٨٤. وكان بيرنت عالم لاهوت قال إن الكوكب ـ قبل طوفان نوح ـ كان مجالاً ناعماً من الكمال المطلق، يمتلك «جمال الشباب وطبيعة متفتحة وجديدة وجميلة بدون تجعيدة أو ندبة أو شعر في كل جسده؛ لا صخور أو جبال، لا كهوف مجوفة، ولا قنوات مفتوحة، كان مستوياً ومنتظماً في كل أنحائه». دعا بيرنت هذه «الأرض الأولى». ظنت ألما أن زوجها سيحب الكتاب، وبالفعل أحبه. فقد كان أمبروس يعشق أفكار الكمال والأحلام التي لا تشوبها شائبة بكل ما هو رائع وجميل.

أما أمبروس فقد أهدى ألما مربعاً جميلاً من الورق الإيطالي، وضعه في ظرف صغير معقد، وغطاه بأختام في أربعة ألوان مختلفة من الشمع. خُتم كل جانب منه، وكان كل جانب مختلفاً. كان شيئاً جميلاً وصغيراً يمكن حمله في راحة يدها لكنه كان غريباً وصوفياً تقريباً. قلبت ألما هذا الشيء الصغير المثير للفضول أكثر من مرة.

سألته: «كيف يفتح المرء هدية كهذه؟».

قال أمبروس: «إنها ليست للفتح. أطلب منك ألا تفتحيها أبداً».

«ماذا تحتوي؟».

«رسالة حب».

قالت ألما مسرورة: «حقاً؟ رسالة حب! أحب أن أرى شيئاً كهذا!».

«أفضّل أن تتخيليها».

«إن خيالي ليس خصباً كخيالك يا أمبروس».

«لكن بالنسبة لك أنت التي تحبين المعرفة كثيراً يا ألما سينفع خيالك إبقاء هذا الشيء دون كشف. سنعرف بعضنا جيداً، أنت وأنا. لنترك شيئاً ما دون فتح».

وضعت الهدية في جيبها. بقيت هناك طول النهار حضوراً غريباً وخفيفاً وغامضاً.

تناولا العشاء في ذلك المساء مع هنري وصديقه القاضي. شرب هنري والقاضي الكثير من البورت. لم تتناول ألما الكحول، ولا أمبروس. كان زوجها يبتسم لها كلما نظرت إليه، لكنه كان يفعل هذا دوماً، حتى قبل أن يصبح زوجاً لها. بدا الأمر كما لو أنه أي مساء آخر، عدا أنها الآن السيدة أمبروس بايك. غابت الشمس ببطء في تلك الليلة، كعجوز ينزل الدرج ببطء.

أخيراً، بعد العشاء، ذهبت ألما وأمبروس إلى غرفة نوم ألما للمرة الأولى. جلست ألما إلى حافة السرير، وانضم أمبروس إليها. أمسك يدها. وبعد صمت طويل.قالت: «اعذرني..».

تمنت أن ترتدي فستان نومها، لكنها لم ترغب بالتعري أمامه.

Twitter: @ketab_n

أخذت ثوب النوم إلى حمام صغير مقابل زاوية غرفتها، ذلك الذي بني بحوض استحمام وصنابير مياه باردة، في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. خلعت ثيابها وارتدت ثوب النوم. لم تعرف إن كان يجب أن تبقي شعرها مرفوعاً، أو تنزله. لم يبد دوماً جميلاً حين كانت تنزله، لكن كان من غير المريح النوم مع الدبابيس والمشابك. ترددت ثم قررت تركه مرفوعاً.

حين عادت إلى الغرفة اكتشفت أن أمبروس غيّر ثيابه أيضاً وارتدى قميص نومه البسيط الكتاني والذي يصل إلى ساقيه. طوى ثيابه بأناقة ووضعها على الكرسي. وقف في الجانب البعيد من السرير قبالتها. هيمنت العصبية كهجوم خيالة. لم يبد أمبروس عصبياً. لم يقل أي شيء عن ثوب نومها. طلب منها الدخول إلى السرير، فتسلقت. دخل إلى السرير من الجانب الآخر، وقابلها في الوسط. خطرت لها على الفور الفكرة الكريهة بأن سريرها صغير جداً لكليهما. كانت هي وأمبروس طويلين. أين من المفترض أن تكون السيقان؟ ماذا عن أذرعهم؟ ماذا لو رفسته أثناء نومها؟ ماذا لو وضعت كوعاً على عينه، دون أن تدري؟

استدارت جانبياً، واستدار هو وواجها بعضهما بعضاً.

«يا كنز روحي»، قال. أمسك إحدى يديها، رفعها إلى شفتيه وقبّلها فوق البراجم تماماً، كما كان يفعل كل ليلة في الشهر الأخير، منذ خطوبتهما. «لقد سببت لي طمأنينة كبيرة».

«أمبروس»، أجابت، منذهلة من اسمه، منذهلة من وجهه.

قال: «في نومنا نلمح عن كثب قوة الروح. سيتحدث ذهنانا عبر هذه المسافة الضيقة. سيكونان هنا، معاً في الهدوء الليلي، بحيث نصبح في النهاية غير مقيدين بالزمان والمكان والقانون الطبيعي والقانون الفيزيائي.

Twitter: @ketab_n

نطوف في العالم كما نشاء، في أحلامنا. نتحدث مع الموتى، ونتحول إلى حيوانات وأشياء، ونطير عبر الزمن. لن يُعثر على ذهنينا في أي مكان، وسيكونان طليقين».

«شكرا»، قالت دون فهم. لم تعرف ماذا تقول رداً على خطاب غير متوقع كهذا. هل كان هذا نوعاً ما من المغازلة؟ هل هكذا كانوا يقومون بالأمر في بوسطن؟ قلقت بحيث أن نَفَسَها لم تصدر عنه رائحة طيبة. كانت رائحة نَفَسه طيبة. تمنت أن يطفئ المصباح. على الفور، كما لو أنه يصغي لأفكارها، مد يده وأطفأ المصباح. كان الظلام أفضل، مريحاً أكثر. أرادت أن تسبح نحوه. شعرت به يمسك يدها ثانية ويضغطها على شفتيه.

قال: «تصبحين على خير يا زوجتي».

لم يفلت يدها. في غضون لحظات نام كما استنتجت من نَفَسِهِ.

* * *

من بين كل ما تخيلته ألما وحلمت به أو خافت أن يحدث في ليلة زفافها لم يخطر في بالها أبداً هذا المجرى من الأحداث.

نام أمبروس هادئاً ومطمئناً إلى جانبها، يده مشبوكة بخفة وثقة حول يدها، بينما ألما، بعينين مفتوحتين في الظلمة، استلقت هادئة في الصمت المهيمن. تغلبت عليها الحيرة كشيء زيتي وشديد الرطوبة. سعت إلى تفسيرات محتملة لهذا الحدث الغريب، مقلبة في ذهنها باحثة عن تفسير بعد آخر، كما يفعل المرء في العلم، مع أي تجربة فشلت بشكل ذريع.

ربما سيستيقظ وسيعاودان، أو بالأحرى يبدآن متعهما الزوجية؟ ربما لم يعجبه ثوب نومها؟ ربما بدت محتشمة جداً؟ أو متلهفة جداً؟ هل

Twitter: @ketab_n

كانت الفتاة الميتة هي التي يرغب بها؟ هل كان يفكر بحبه المفقود من فرامنغام، في كل تلك السنوات الماضية؟ أو غلبته نوبة عصبية؟ هل كان غير مؤهل لواجبات الحب؟ لكن لا أحد من هذه التفسيرات كان له معنى، وخاصة الأخير. كانت ألما تعرف ما يكفي عن هذه الأمور كي تفهم أن العجز عن القيام بالجماع يسبب للرجال أعلى أشكال العار، لكن أمبروس لم يظهر خجلاً من الأمر، ولم يحاول القيام بالجماع. على العكس، نام بارتياح، كما يمكن أن ينام رجل. نام كمواطن غني في فندق رائع. نام كملك بعد يوم طويل من اصطياد الخنازير والمبارزة. نام كأمير مسلم مشبع من دزينة من المحظيات الجميلات. نام كطفل تحت شجرة.

لم تنم ألما. كان الليل حاراً، ولم يُرخْها الاستلقاء على جانبها لفترة طويلة، خائفة من أن تتحرك، خائفة من أن تسحب يدها من يده. ضغطت الدبابيس والمشابك في شعرها على فروة رأسها. كان كتفها مخدراً. حررت نفسها في النهاية من قبضته واستلقت على ظهرها، لكن هذا كان بلا فائدة: لن تعثر عليها الراحة هذه الليلة. استلقت هناك متصلبة ومذعورة، عيناها مفتوحتان، وثمة تعرق تحت إبطيها، ذهنها يبحث دون نجاح عن خاتمة مريحة لانكشاف الأمور هذا، المفاجئ جداً وغير المحبذ.

في الفجر بدأت جميع طيور الأرض تغريدها متناسية بمرح لمقتها. ومع الأشعة الأولى للشمس سمحت ألما لنفسها بأن تتمسك بشرارة أمل بأن زوجها سيستيقظ فجراً ويعانقها الآن. ربما سيبدآن في ضوء النهار جميع العلاقات الحميمية المتوقعة للزواج.

استيقظ أمبروس لكنه لم يعانقها. استيقظ بحيوية واستعجال مرتاحاً

Twitter: @ketab_n

وراضياً. «يا لها من أحلام جميلة!» قال ومد ذراعيه فوقه في استرخاء كسول. «لم أر أحلاماً كهذه منذ سنوات. يا له من شرف، التواصل مع كهرباء وجودك. شكراً لك، يا ألما! أي يوم سنقضي! هل رأيت أحلاماً كهذه أيضاً؟».

لم تحلم ألما بأي شيء، بالطبع. أمضت ألما الليلة مستيقظة ومرعوبة. مع ذلك، هزت رأسها. لم تعرف ماذا تفعل غير ذلك.

قال أمبروس: «يجب أن تعديني أنه حين نموت ـ بصرف النظر عمن توافيه المنية أولاً ـ أننا سنرسل اهتزازات لبعضنا عبر فجوة الموت».

ثانية، دون فهم، هزت رأسها. كان هذا أسهل من محاولة التحدث.

موهنةً وصامتةً راقبت ألما زوجها ينهض ويغسل وجهه في الحوض. أخذ ثيابه عن الكرسي واعتذر بلباقة داخلاً إلى الحمام، وعاد مرتدياً ثيابه كلها وعلى وجهه بهجة. ما الذي كان يكمن خلف تلك الابتسامة الودية؟ لم تستطع ألما أن ترى وراءها أي شيء سوى المزيد من الود. نظر إليها كما نظر في اليوم الأول الذي شاهدته فيه كرجل جميل ومتألق ومتحمس في العشرين من عمره.

كانت مغفلة.

قال: «سأتركك وحدك وسأنتظرك إلى مائدة الفطور. أي يوم سنقضي!».

تألم جسد ألما كله. في سحابة مرعبة من التصلب واليأس، خرجت من السرير ببطء كما لو أنها مشلولة، ولبست ثيابها. نظرت في المرآة. كان يجب ألا تنظر. لقد ازداد عمرها عقداً في ليلة واحدة.

كان هنري جالساً إلى مائدة الفطور حين نزلت ألما أخيراً. كان هو وأمبروس مشغولين في محادثة سخيفة وخفيفة. أحضرت هانيكي لألما

إبريق شاي جديداً وألقت عليها نظرة حادة، نوع النظرة التي تتلقاها كل النساء في الصباح بعد الزفاف، لكن ألما تجنبت عينيها. حاولت أن تمنع وجهها من أن يبدو حالماً أو متجهماً، لكن خيالها كان مصاباً بالإعياء وعرفت أن عينيها حمراوان. شعرت بأن العفن الفطري ينمو عليها بكثافة. لم يبد أن الرجلين لاحظا ذلك. كان هنري يروي قصة سمعتها ألما دزينة من المرات، عن الليلة التي شاطر فيها رجلاً فرنسياً صغيراً مغروراً الفراش في نزل بيروفيّ قذر، والذي كان يملك أثقل لكنة فرنسية يمكن تخيلها، لكنه أصر بلا كلل على أنه ليس فرنسياً.

قال هنري: «واصل المغفل القول لي إنه رجل إنكليزي بلهجة رديئة، وواصلت القول له: أنت لست إنكليزياً، أنت فرنسي! أصغ فحسب إلى لكنتك المزعجة! لكن المغفل تابع القول إنه إنكليزي! أخيراً قلت له: أخبرني إذاً، كيف من الممكن أنك رجل إنكليزي؟ فقال: أنا إنكليزي لأن لدي زوجة إنكليزية!».

ضحك أمبروس وواصل الضحك. حدقت به ألما كما لو أنه عيّنة.

اختتم هنري: «وفقاً لهذا المنطق أنا هولندي».

وأضاف أمبروس وهو يواصل الضحك: «وأنا ويتاكر!».

«المزيد من الشاي؟»، سألت هانيكي ألما، ثانية بالنظرة الثاقبة نفسها.

أغلقت ألما فمها بإحكام، بعد أن أدركت أنه كان مفتوحاً كثيراً. «تناولتُ كفايتي. شكراً لك يا هانيكي».

قال هنري: «سينقل الرجال ما تبقى من القش اليوم، فانتبهي إلى أن يتم الأمر بشكل ملائم يا ألما».

«نعم يا أبي».

Twitter: @ketab_n

استدار هنري إلى أمبروس ثانية: «إن قيمتها ثمينة، زوجتك، خاصة حين يكون هناك عمل يجب القيام به. إنها فلاحة مجتهدة ترتدي تنورة».

* * *

كانت الليلة الثانية كالأولى، والثالثة أيضاً، والرابعة والخامسة. وكانت كل الليالي التي تلت مشابهة. يخلع ألما وأمبروس ثيابهما على انفراد، يأتيان إلى السرير ويواجهان بعضهما بعضاً. يقبل يدها ويمدح طيبتها، ويطفئ المصباح. ثم ينام أمبروس كما لو أنه شخصية مسحورة في حكاية خرافية، بينما تستلقي ألما في عذاب صامت إلى جانبه. كان الشيء الوحيد الذي تغير مع مرور الوقت هو أن ألما نجحت في النهاية في الحصول على بضع ساعات نوم ملائمة كل ليلة، والسبب هو أن جسمها انهار من الإعياء لكن نومها قوطع بأحلام مزعجة وأوقات كريهة من التفكير القلق والمؤرّق.

في النهار، كانت ألما وأمبروس رفيقين كما دائماً في الدراسة والتأمل. كان مولعاً بها دائماً. وكانت تقوم بأعمالها دون حيوية، وتساعده في أعماله. أراد أن يكون دوماً قريباً منها قدر الإمكان. لم يبد واعياً لعدم راحتها. حاولت ألا تبين ذلك. واصلت الأمل بحصول تغير. مرّ المزيد من الأسابيع. ووصل تشرين الأول/ أكتوبر. صارت الليالي باردة. لم يحدث تغير.

بدا أمبروس مرتاحاً من شروط زواجهما بحيث أن ألما، للمرة الأولى في حياتها، خافت على نفسها من الجنون. أرادت أن تفتن لبّه، لكنه كان سعيداً بأن يقبّل فقط ذلك الإنش المربع من الجلد تحت البرجم الأوسط ليدها اليسرى. هل كانت معلوماتها مغلوطة عن طبيعة الارتباط الزوجي؟ هل كان خدعة؟ كانت ويتاكر بما يكفي كي تغضب

Twitter: @ketab_n

من فكرة أنها تصرفت كحمقاء. لكنها ستنظر عندئذ إلى وجه أمبروس، الذي كان أبعد وجه يمكن تخيله عن وجه نذل، وهكذا فإن غضبها سيعود إلى حيرة غير سعيدة.

في أوائل تشرين الأول/ أكتوبر، كانت فيلادلفيا تستمتع بالأيام الأخيرة للصيف الهندي. وكانت الصباحات جميلة ومتوجة بالهواء المنعش والسماوات الزرقاء، والأصائل المعتدلة والهادئة. وتصرف أمبروس كأنه أكثر إلهاماً مما كان عليه، يقفز من الفراش كل صباح كما لو أن مدفعاً أطلقه. نجح في جعل نبتة آريدس أوروداتا تنمو في بيت نبات السحلبية الزجاجي. وكان هنري قد استورد النبتة منذ سنوات من سفوح جبال الهملايا، لكنها لم تقدم برعماً واحداً إلى أن أخرج أمبروس نبتة السحلبية من إنائها على الأرض وعلقها عالياً من الروافد في بقعة تطالها أشعة الشمس، في سلة مصنوعة من اللحاء والطحالب المرطبة. والآن قد أزهر الشيء بشكل مفاجئ. ابتهج هنري، ابتهج أمبروس.كان أمبروس يرسمها من جميع الزوايا. ستكون فخر مجموعة وايت إيكر.

قال أمبروس لألما: «إذا أحببتِ أي شيء بما يكفي سيكشف لك في النهاية أسراره».

كان يمكن أن تسعى إلى الاختلاف لو أنها سُئلت عن رأيها. كانت تحب أمبروس إلى أقصى الحدود، لكنها لم تكن تخرج أسراراً منه. شعرت بغيرة غير مريحة من انتصاره في جعل الآيريدس أودوراتا تنمو. حسدت النبتة نفسها، والرعاية التي أبداها لها. لم تستطع التركيز على عملها، لكن عمله يزدهر هنا. بدأت تستاء من وجوده في منزل العربات. لماذا كان يقاطعها دوماً؟ كانت آلات طباعته صاخبة، وتفوح منها رائحة

الحبر الحار. لم يعد بوسع ألما تحملها. شعرت كما لو أنها تنتن. صار مزاجها حاداً. حين كانت تسير في حدائق الخضار في وايت إيكر في أحد الأيام شاهدت عاملاً شاباً، يجلس على مجرفته، وينتزع بكسل شظية من إبهامه. كانت قد رأته من قبل، هذا النازع الصغير للشظية. كان دائماً يُشَاهد جالساً على مجرفته أكثر مما يعمل بها.

«اسمك روبرت، أليس كذلك؟»، سألته وهي تقترب منه بابتسامة ودية.

«أنا روبرت»، أكد، ناظراً إليها بعدم اهتمام صارخ.

«ما هي مهمتك بعد الظهر هذا يا روبرت؟».

«أن أركش هذه البقعة القديمة المتعفنة من البازلاء يا سيدتي».

«وهل تخطط أن تفعل ذلك في أحد هذه الأيام يا روبرت؟» سألته وصوتها منخفض بشكل خطير.

«حسناً، لدي هذه الشظية هنا، كما ترين..».

انحنت ألما فوقه، رامية جسمه الصغير كله في الظل وأمسكته من ياقته، ورفعته قدماً كاملاً عن الأرض وهزته ككيس من العلف وصاحت: «عد إلى عملك أيها البليد الصغير الذي لا فائدة منه قبل أن أنتزع خصيتيك بمجرفتك».

قذفته على الأرض فسقط بحدة وخرج من ظلها كأرنب، وبدأ يحفر بغضب وبإحساس بالخطر والخوف. سارت ألما مبتعدة، محررة عضلات ذراعيها بالهز وعلى الفور عاودت التفكير بزوجها. هل من الممكن أن أمبروس لا يعرف فحسب؟ هل يمكن أن يكون أي شخص بريئاً بحيث يتزوج غير مدرك لواجباته، أو غافلاً للآليات الجنسية بين الرجل وزوجته؟ تذكرت كتاباً قرأته منذ سنوات، حين كانت قد بدأت

Twitter: @ketab_n

بجمع تلك النصوص الحسية في الدور العلوي من منزل العربات. لم تفكر بذلك الكتاب لعقدين تقريباً. فقد كان مملاً بالمقارنة مع الكتب الأخرى، لكنها تذكرته الآن. كان عنوانه «ثمار الزواج: دليل السيد إلى كبح الشهوة الجنسية؛ كتيب للزوجين، من تأليف الدكتور هورشت».

ألف الكتاب الدكتور هورشت، وقد زعم بعد استشارته لزوجين مسيحيين لم يمتلكا أية معرفة ـ نظرية أو عملية ـ عن العلاقة الجنسية، واللذين أربكا أنفسهما وبعضهما بمشاعر وإحساسات خاصة كهذه لدى دخول سرير الزوجية بحيث شعرا أنهما تحت تأثير تميمة. أخيراً، بعد عدة أسابيع من زفافهما استشار العريس المسكين صديقاً قدم له المعلومات الصادمة بأن المتزوج حديثاً يجب أن يضع عضوه مباشرة في «الثقب المائي» لعروسه كي تحدث العلاقات الملائمة. سببت الفكرة الخوف والخجل للشاب المسكين فذهب من فوره إلى الدكتور هورشت كي يسأله إن كان هذا الفعل الذي يبدو غريباً قابلاً للإنجاز أو فاضلاً. فألف الدكتور هورشت بدافع الشفقة على هذا الشاب دليله حول محرّك الجنس، كي يساعد الرجال المتزوجين حديثاً.

ازدرت ألما الكتاب حين قرأته منذ سنوات. أن تكون شاباً جاهلاً بالوظيفة التناسلية بدا كأنه يتجاوز اللامعقول بالنسبة لها. أكيد أن أشخاصاً كهؤلاء لا يمكن أن يوجدوا؟

لكنها الآن تساءلت.

هل تحتاج إلى أن تشرح له؟

* * *

في بعد ظهر يوم السبت ذاك، ذهب أمبروس إلى غرفة النوم باكراً واستأذن كي يستحم قبل العشاء. تبعته إلى الغرفة. جلست على السرير

Twitter: @ketab_n

وأصغت إلى الماء وهو يجري في الحوض الخزفي الأكبر في الجانب الآخر من الغرفة. سمعته يدندن. كان سعيداً. كانت من ناحية أخرى ثائرة من البؤس والشك. لا بد أنه يتعرى الآن. سمعت دفقات ماء صامتة حين دخل الحمام، ثم تنهيدة متعة. ثم الصمت.

وقفت وتعرت، أيضاً. نزعت ثيابها الداخلية وأزالت دبابيس الشعر. لو كان هناك شيء آخر كي تخلعه لفعلت ذلك. لم يكن شكلها العاري جميلاً، وكانت تعرف هذا، لكنه كل ما تملكه. ذهبت ووقفت عند باب الحمام، أصغتْ وأذنها مضغوطة عليه. لم يكن عليها أن تفعل هذا. كان هناك بدائل. استطاعت أن تتعلم تحمل الأمور كما هي. كان بوسعها أن تستسلم بصبر لمعاناتها، لهذا الزواج الغريب والمستحيل الذي لم يكن زواجاً. وكان بوسعها أن تتعلم كيف تتغلب على كل شيء ولّده أمبروس في داخلها: رغبتها به، خيبة أملها منه، إحساسها بالغياب المعذب قربه. لو كان بوسعها أن تعرف كيف تهزم رغبتها لاستطاعت الاحتفاظ بزوجها كما هو.

كلا، كلا، لم تستطع تعلم ذلك.

أدارت المقبض، دفعت الباب، ودخلت بهدوء قدر ما تستطيع. استدار رأسه نحوها، واتسعت عيناه من الذعر. لم تقل أي شيء، ولم يقل أي شيء. نظرت بعيداً عن عينيه وتفحصت كامل جسمه الغاطس تحت ماء الحمام البارد. كان هناك، في كل جماله العاري. بشرته بيضاء حليبية، أكثر بياضاً عند صدره وساقيه مما هي في الذراعين. كان هناك فقط أثر شعر في جذعه. كان في غاية الجمال.

هل خشيت من ألا يكون له عضو؟ هل تخيلت أن هذه هي المشكلة؟ حسناً، لم تكن هذه هي المشكلة. كان له عضو كامل وكبير.

Twitter: @ketab_n

سمحت لنفسها بأن تتفحص بعناية الذيل الجميل الذي له، الكائن البحري الملوح الشاحب، الذي يعوم بين ساقيه في عشه من الفرو المبلل والخاص. لم يتحرك أمبروس. ولم يُثَر مطلقاً. كره أن يُنظَر إليه. أدركت هذا على الفور. أمضت ألما ما يكفي من الوقت في الغابات تحدق في حيوانات خجولة بحيث أنها تعرف متى يريد الكائن ألا يُنظر إليه. لكنها حدقت إليه لأنها لم تستطع أن تنظر بعيداً. سمح لها أمبروس أن تفعل هذا ليس لأنه مسامح كثيراً، بل لأنه كان مشلولاً.

أخيراً، نظرت إلى وجهه، يائسة كي تعثر على قناة مفتوحة إليه. بدا متجمداً من الخوف. لماذا الخوف؟ جلست على الأرض إلى جانب حوض الاستحمام. بدا الأمر تقريباً كما لو أنها تركع أمامه متضرعة. يده اليمنى، بأصابعها الطويلة والمدببة، تستريح على حافة الحوض، تمسك بالحافة الخزفية. فكت هذه اليد، إصبعاً كل مرة. سمح لها بفكها. أمسكت يده وقربتها من فمها، وضعت ثلاثة من أصابعه في فمها. لم تستطع المقاومة. تحتاج إلى شيء منه في داخلها، أرادت أن تعضه كي تمنع أصابعه من الانزلاق من فمها. لم ترغب بإخافته، ولم ترغب بجعله يفلت أيضاً. بدلاً من العض، بدأت تمص. ركزت بشكل كامل على توقها. أصدرت شفتاها ضجيجاً، نوعاً وقحاً من الضجيج المبلل.

حينها، صار أمبروس حياً، شهق، وسحب أصابعه من فمها. جلس بسرعة مصدراً دفق ماء صاخباً، وغطى عضوه بيديه. بدا كأنه سيموت من الرعب.

«من فضلك.»، قالت.

حدقا ببعضهما، كامرأة ومتطفل في غرفة النوم، لكنها كانت المتطفلة، وهو الطريدة المذعورة. حدق بها كما لو أنها غريبة وضعت

Twitter: @ketab_n

سكيناً على عنقه، كما لو أنها ستستخدمه من أجل المتع الأكثر شراً ثم تقطع رأسه وتنتزع أحشاءه وتأكل قلبه بشوكة طويلة مسنونة.

رضخت ألما. أي خيار آخر لديها؟ نهضت وسارت مبتعدة عن الحمام، مغلقة الباب خلفها بلطف. ارتدت ثيابها. نزلت إلى الطابق السفلي. كان قلبها محطماً بحيث لم تعرف كيف أنها ما تزال حية.

وجدت هانيكي دي غروت تكنس زوايا غرفة الطعام. بصوت متوتّر طلبت من كبيرة الخدم أن تعد غرفة نوم الضيوف في الجناح الشرقي للسيد بايك، الذي سينام هناك من الآن فصاعداً، إلى أن تحدث ترتيبات أخرى.

سألت هانيكي: «أية غرفة؟».

لكن ألما لم تخبرها لماذا. أغريت كي تسقط بين ذراعي هانيكي وتبكي لكنها قاومت ذلك.

سألت هانيكي: «هل هناك أي أذى في سؤال امرأة عجوز؟».

قالت ألما وهو تسير مبتعدة: «من فضلك أخبري السيد بايك بنفسك عن هذا الترتيب الجديد فأن لا أستطيع أن أخبره».

* * *

نامت ألما على أريكتها في منزل العربات في تلك الليلة، ولم تتناول العشاء. فكرت بهيبوقراط، الذي اعتقد أن بطينات القلب ليست مضخات للدم بل للهواء. ظنَّ أن القلب امتداد للرئتين، نوع من المنفاخ العضلي الكبير، الذي يغذي موقد الجسم. الليلة، شعرت ألما كما لو كان هذا صحيحاً. استطاعت أن تشعر باندفاع وامتصاص ضخم للريح في داخل صدرها. شعرت كما لو أن قلبها يشهق من أجل الهواء. بالنسبة لرئتيها، بدتا مليئتين بالدم. كانت تغرق مع كل نَفَس. ولم تستطع أن

Twitter: @ketab_n

تتخلص من هذا الشعور بالغرق. شعرت بالجنون. شعرت بأنها مثل ريتا سنو الصغيرة المجنونة، التي اعتادت أن تنام أيضاً على هذ الأريكة، حين صار العالم مخيفاً جداً.

في الصباح، جاء أمبروس كي يعثر عليها. كان شاحباً ووجهه ملتو من الألم. جلس إلى جانبها وأمسك يديها. نزعتهما منه. نظر إليها فترة طويلة دون أن يتحدث.

قالت أخيراً بصوت متوتر من الغضب: «إذا كنت ستنقل إليَّ شيئاً على نحو صامت يا أمبروس لن أكون قادرة على سماعه. أطلب منك أن تتحدث معي بشكل مباشر. اعمل لي هذا المعروف من فضلك».

قال: «سامحيني».

«يجب أن تخبرني على ماذا أسامحك».

صارع. «هذا الزواج...»، بدأ ثم فقد كلماته.

ضحكت ضحكة مجوفة: «ما هو الزواج يا أمبروس حين يخلو من المتع الصادقة التي يمكن أن يتوقعها الزوج والزوجة بشكل صائب؟».

هز رأسه. بدا يائساً.

قالت: «لقد ضللتني».

«لكنني أعتقد أننا فهمنا بعضنا».

«هل تعتقد؟ ما الذي تعتقد أننا فهمناه؟ أخبرني بكلمات. ما الذي ظننت أن زواجنا سيكون عليه؟».

بحث عن جواب. «تبادل»، قال أخيراً.

«تبادل ماذا بالضبط؟».

«الحب. حب الأفكار والراحة؟».

Twitter: @ketab_n

«كما فعلت أنا يا أمبروس. لكنني اعتقدت أنه قد تحصل تبادلات أخرى أيضاً. إذا كنت تتمنى أن تعيش مثل المؤمنين بالمجيء الثاني للمسيح فلماذا لم تهرب وتنضم إليهم؟».

نظر إليها مرتبكاً. لم يكن يمتلك فكرة عن المؤمنين بالمجيء الثاني للمسيح. يا إلهي هناك الكثير الذي لا يعرفه هذا الفتى!

«لنتوقف عن المجادلة يا ألما أو الدخول في صراع»، قال متوسلاً.

«هل تشتاق إلى تلك الفتاة الميتة؟ هل هذه هي المشكلة؟».

ثانية بدا مرتبكاً.

كررت: «الفتاة الميتة يا أمبروس. تلك التي أخبرتني أمك عنها. تلك التي ماتت في فرامنغهام منذ سنوات. تلك التي أحببتَها».

وصل إلى أقصى حالات الارتباك: «هل تحدثت مع أمي؟».

«كتب لي رسالة. أخبرتني عن الفتاة، عن حبك الحقيقي».

«أمي كتبت لك رسالة؟ عن جوليا؟» كان وجه أمبروس يسبح في الارتباك. «لكنني لم أحب جوليا أبداً، يا ألما. كانت طفلة عزيزة وصديقة في صغري، لكنني لم أحبها أبداً. ربما تمنت أمي أن أحبها لأنها ابنة عائلة مرموقة، لكنها لم تكن أي شيء سوى جارتي البريئة. كنا نرسم الأزهار معاً. كانت تتمتع بذكاء شديد. ماتت في سن الرابعة عشرة. نادراً ما فكرت بها في هذه الأعوام الكثيرة الأخيرة. لماذا نتحدث عن جوليا؟».

«لماذا لا تستطيع أن تحبني؟» سألت ألما كارهة اليأس في صوتها.

«أحبك إلى أبعد حد»، قال أمبروس بيأس كي يضاهي يأسها.

«أنا دميمة يا أمبروس. كنت واعية دوماً لهذه الحقيقة. أنا كبيرة في

السن أيضاً. لكنني أملك أشياء عديدة تريدها: الراحة والرفقة. كان بوسعك الحصول على كل هذه الأمور دون أن تذلني عبر الزواج. لقد منحتك هذه الأمور سابقاً، وسأمنحها لك إلى الأبد. كنت راضية بأن أحبك كأخت، ربما حتى كأم. لكن أنت من طلب الزواج. أنت من طرح فكرة الزواج عليّ. أنت من قال إنك تريد النوم إلى جانبي كل ليلة. أنت من سمح لي بأن أتوق إلى أمور تغلبتُ على الرغبة بها منذ سنين».

كان عليها التوقف عن الكلام. كان صوتها مرتفعاً وساحقاً. كان هذا عاراً فوق عار.

قال أمبروس وعيناه مبللتان: «لا حاجة لي للثروة. تعرفين هذا عني».

«أنت تحصد الفوائد الآن».

«أنت لا تفهمينني يا ألما».

«لا أفهمك مطلقاً يا سيد بايك فثَقِّفْني».

قال: «سألتك إن كنت تريدين زواجاً روحياً، زواجاً أبيض». حين لم تجب على الفور، قال: «عنيتُ زواجاً طاهراً، دون تبادل جسدي».

قالت: «أعرف ما هو الزواج الأبيض يا أمبروس. كنت أتحدث الفرنسية قبل أن تولد. ما لا أفهمه لماذا ستتخيل أنني أريد واحداً».

«لأنني طلبت منك. سألتك إن كنت ستقبلين هذا مني، ووافقت».

«متى؟»، شعرت ألما أنها ستنتف شعره من فروة رأسه إذا لم يتكلم بشكل أكثر مباشرة وصدقاً.

«في حجرة تجليد الكتب في تلك الليلة بعد أن قابلتك في المكتبة، حين جلسنا معاً صامتين. سألتك بصمت: هل ستقبلين هذا مني؟ وقلتِ

Twitter: @ketab_n

نعم. لقد سمعتكِ تقولين نعم. شعرتُ أنك قلتيها! لا تنكري هذا يا ألما، سمعتِ سؤالي عبر الفجوة، وكان ردك الموافقة! هل هذا ليس صحيحاً؟».

كان يحدق بها بعينين مذعورتين. والآن أصيبت بالبكم.

واصل أمبروس: «وطرحتِ علي سؤالاً أيضاً. سألتيني بصمت إذا كان هذا ما أردته منك. قلتُ نعم يا ألما! وأعتقد أنني قلت هذا بصوت مرتفع. كنت في غاية الوضوح. سمعتِ كلماتي وأنا أقول هذا».

فكرت بتلك الليلة في حجرة التجليد، بالانفجار الصامت للرغبة الجنسية لديها، بالإحساس بسؤاله يجري عبرها، وسؤالها يجري عبره. ما الذي سمعته؟ سمعته يسأل، واضحاً كجرس كنيسة يرن: «هل ستقبلين هذا مني؟» قالت نعم بالطبع. ظنت أنه كان يعني: «هل ستقبلين متعاً حسية كهذه مني؟» حين سألت في ردها: «هل هذا ما تريده مني؟» عنت: «هل تريد هذه المتع الحسية معي؟».

يا إله السماء، لقد أساء كلّ منهما فهم سؤال الآخر. أساءا فهم السؤال الذي طرحه كلٌّ منهما على الآخر. كانت هذه المعجزة الوحيدة والواضحة في حياة ألما ويتاكر، وقد أساءت فهمها. كانت هذه أسوأ دعابة سبق أن سمعتها.

قالت بإنهاك: «كنت فقط أسألك إن كنت ترغب بي. وأعني إن كنت تريدني بشكل كامل، بالطريقة المعتادة التي يشتهي بها العاشقان بعضهما بعضاً. اعتقدت أنك كنت تسألني السؤال نفسه».

«لكنني لن أطلب جسد أي شخص أبداً بالطريقة التي تتحدثين بها»، قال أمبروس.

«لماذا لا؟».

Twitter: @ketab_n

«لأنني لا أؤمن به».

لم تستطع ألما أن تفهم ما سمعته. لم تكن قادرة على الكلام لوهلة طويلة. ثم سألت: «هل تعتقد أن فعل الممارسة حتى بين رجل وزوجته شيء منحط وفاسد؟ أكيد أنك تعرف يا أمبروس ما يتقاسمه الناس الآخرون فيما بينهم، في عزلة الزواج؟ هل تظنني منحطة، لأنني أريد من زوجي أن يكون زوجاً؟ أكيد أنك سمعت حكايات عن متع كهذه بين الرجال والنساء؟».

«أنا لستُ مثل الرجال الآخرين، يا ألما، هل فعلاً تفاجئك معرفة ذلك، في هذا الموعد المتأخر؟».

«ماذا تتخيل نفسك إذاً إذا لم تكن كالرجال الآخرين».

«ليست المسألة ما أتخيله، يا ألما، بل ما أرغب بأن أكونه، أو بالأحرى ما كنته مرة، وأتمنى أن أكونه ثانية».

«ما هو يا أمبروس؟».

«أن أكون ملاكاً لله»، قال أمبروس، في صوت حزين لا يُوصف. «كنت آمل أن نكون ملاكين لله معاً. ولن يكون شيء كهذا ممكناً إلا إذا تحررنا من الجسد وارتبطنا في النعمة السماوية».

شتمت ألما ولعنتْ بصوت مرتفع. أرادت أن تمسكه وتهزه كما هزت عامل الحديقة روبرت في ذلك اليوم. أرادت أن تجادل النص المقدس معه. أرادت أن تقول له إن الله عاقب نساء سدوم لأنهن مارسن الجنس، لكنهن حصلن على فرصتهن على الأقل! أما هي فإن حظها سيء فحسب، تم إرسال ملاك جميل إليها لكنه غير ممتثل.

قالت: «هيا يا أمبروس، أيقظ نفسك! نحن لا نعيش في مملكة السماء، لا أنت ولا أنا. كيف يمكن أن تكون بليداً هكذا؟ انظر إليّ، يا

Twitter: @ketab_n

ولد بعينيك الحقيقيتين، بعينيك الفانيتين. هل أبدو كملاك لك يا أمبروس بايك؟».

قال ببساطة محزنة: «نعم».

عبر الغضب ألما، وحلّ مكانه أسى ثقيل بلا قاع.

قالت ألما: «إذاً أنت مخطئ كثيراً، والآن نجد أنفسنا في شباك خطأ رهيب».

***

لم يعد يستطيع البقاء في وايت إيكر.

صار هذا واضحاً بعد مضي أسبوع واحد، أسبوع نام أثناءه أمبروس في غرفة الضيوف في الجناح الشرقي، ونامت ألما على الأريكة في منزل العربات، وكل منهما يتحمل التكشيرات والضحكات المكتومة للخادمات الشابات. أن يكونا متزوجين منذ بضعة أسابيع فحسب وينامان ليس في غرفتين مختلفتين بل في بناءين مختلفين... كانت هذا فضيحة كبيرة استلمها الثرثارون في المنزل.

حاولت هانيكي إبقاء الخدم ساكتين، لكن الشائعات بدأت تحط وتحلق فجأة كالخفافيش عند الغسق. قالوا إن ألما كبيرة في السن جداً ودميمة بحيث لم يستطع أمبروس تحملها، بصرف النظر عن الثروة التي في عضوها الجاف. قالوا إن أمبروس قُبض عليه وهو يسرق. وقالوا إن أمبروس يحب الفتيات الصغيرات الجميلات، وقد شوهد وهو يضع يده على مؤخرة عاملة في الملبنة. قالوا كل ما أرادوا قوله. لم يكن بوسع هانيكي أن تطرد الجميع. سمعت ألما بعض الكلام بنفسها، وكان بوسعها أن تتخيل بسهولة ما لم تتمكن من سماعه. وخصوها بنظرات ازدرائية.

Twitter: @ketab_n

استدعاها والدها إلى مكتبه في بعد ظهر يوم الاثنين في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر.

قال: «ما هذا إذاً؟ هل ضجرتِ من لعبتك الجديدة؟».

«لا تسخرْ مني يا أبي، أقسم لك أنني لا أستطيع تحمل ذلك».

«إذاً قدّمي لي تفسيراً».

«من المخجل جداً شرح الأمر».

«لا أستطيع تخيل أن هذا صحيح. هل تتصورين أنني لم أسمع الشائعات؟ لا شيء ستقولينه لي يمكن أن يكون مخجلاً أكثر مما يتداوله الناس».

«هناك الكثير الذي لا أستطيع قوله لك يا أبي».

«هل كان كاذباً معك؟ من البداية؟».

«أنت تعرفه يا أبي، إنه لن يفعل ذلك».

«لا أحد منا يعرفه كثيراً، يا ألما. إذاً ما الأمر؟ هل سرق منك، أو مني؟ هل يضربك بسير جلدي. كلا، لا أرى أياً من هذا نوعاً ما. أعطني اسماً يا فتاة، ما هي جريمته؟».

«لا يستطيع البقاء بعد الآن، ولا أستطيع أن أخبرك لماذا؟».

«هل تعتقدين أنني من عينة الرجال الذين سيُغمى عليهم لدى سماع الحقيقة؟ أنا عجوز يا ألما، لكنني لم أُدفن بعد. ولا تظني أنني لن أخمن الأمر، أيضاً، إذا ركزتُ على المسألة طويلاً بما يكفي. هل أنت باردة جنسياً؟ هل هذه هي المشكلة؟ أم لا ينتصب عضوه؟

لم تجب.

Twitter: @ketab_n

قال: آه، شيء من هذا القبيل، إذاً. وهكذا ليس هناك حل لواجبات الزواج؟».

لم تجب ثانية.

صفق هنري بيديه: «حسناً، ما المشكلة؟ تستمتعان برفقة بعضكما بصرف النظر عن هذا. هذا أكثر مما هو مخصص لمعظم الناس في زواجهم. أنت كبيرة جداً على الحمل، وكثير من حالات الزواج غير سعيدة في غرفة النوم. معظمها في الحقيقة. إن الأزواج غير المناسبين لبعضهم بليدون كالذباب في هذا العالم. ربما تدهور زواجك بشكل أسرع من الآخرين، لكن يجب أن تتحمليه يا ألما كما يفعل معظمنا، أو فعلوا. ألم تتم تربيتك كي تتحملي الأمور؟ لن تجعلي حياتك تُدمر من نكسة واحدة. استفيدي من الأمر. فكري به كأخ، إذا كان لا يرضيك تحت الأغطية. إن رفقته مسلية لنا جميعاً».

«لستُ بحاجة إلى أخ يا أبي. أقول لك يا أبي إنه لا يمكنه البقاء هنا. يجب أن تأمره بالرحيل».

«وأنا أقول لك يا ابنتي منذ أقل من ثلاثة أشهر وقفنا أنا وأنت في هذه الغرفة نفسها وأصغيتُ لك وأنت تلحين أنك يجب أن تتزوجي من هذا الرجل، من رجل لا أعرف عنه أي شيء، ولا تعرفين أنت عنه سوى النذر اليسير. والآن تريدين مني أن أطرده؟ ماذا أنا بالنسبة لك، هل أنا كلبك؟ يجب أن أعترف أنني لا أوافق على هذا. لا كرامة في هذا. هل هي الثرثرة ما تكرهين؟ واجهيها كشخص من عائلة ويتاكر. اذهبي وكوني مرئية للذين يسخرون منك. اضربي رأس شخص ما، إذا لم تحبي الطريقة التي ينظر إليك بها. سيتعلمون. سيجدون شيئاً آخر يثرثرون عنه في الحال. لكن طرد هذا الشاب إلى الأبد، من أجل جريمة

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا؟ أنه لا يسليك؟ خذي أحد عمال الحديقة إذا كنت تريدين شاباً في فراشك. هناك رجال يمكنك الدفع لهم من أجل تسليات كهذه، كما يدفع الرجال للنساء. إن الأشخاص الراغبين بالنقود سيفعلون أي شيء، ولديك المال الوافر. استخدمي مهرك لتأسيس حريم من الشبان من أجل متعتك إذا كنت راغبة بهذا».

توسلت: «من فضلك يا أبي».

تابع: «لكن في غضون ذلك، ما الذين تقترحين علي فعله بالسيد بايك؟ أن أجرّه خلف عربة في شوارع فيلادلفيا، مدهوناً بالقار؟ أن أغرقه في نهر سكيولكل مربوطاً ببرميل مليء بالأحجار؟ أن أضع عصابة على عينيه وأطلق عليه النار وهو واقف أمام حائط؟».

وقفت خجولة وحزينة، غير قادرة على النطق. ما الذي اعتقدت أن والدها سيقوله؟ كانت حمقاء. اعتقدت أن هنري يمكن أن يدافع عنها، ويغضب من أجلها. توقعت أن يتجول في المنزل ويبدأ أحد أحاديثه العنيفة التخريفية المسرحية والقديمة، ويلوح ذراعيه كممثل في مسرحية كوميدية: كيف تستطيعُ فعل ذلك مع ابنتي؟ هذا النوع من الأمور. شيء ما يضاهي إيقاع وعمق خسارتها وغضبها. لكن لماذا ظنت ذلك؟ هل سبق ورأت هنري ويتاكر يدافع عن أحد؟ وإذا كان يدافع عن أي شخص في هذه الحالة، فقد كان يدافع عن أمبروس.

بدلاً من أن ينقذها والدها قلّل من شأنها. فضلاً عن ذلك، تذكرت ألما الآن المحادثة التي تبادلتها مع هنري حول زواجها من أمبروس، قبل أقل من ثلاثة أشهر. حذرها هنري ـ أو على الأقل أثار المسألة ـ حول إن كان «هذا النوع من الرجال» يمكن أن يرضيها في الزواج. ما الذي كان يعرفه آنذاك، ولم يعبر عنه؟ ماذا يعرف الآن؟

Twitter: @ketab_n

سألت ألما أخيراً: «لماذا لم تمنعني من الزواج منه. لقد اشتبهتَ بشيء ما. لماذا لم تتحدث؟».

هز هنري كتفيه. «لم يكن من حقي منذ ثلاثة أشهر أن أقرر عنك. وليس الآن. إذا كان هناك شيء يجب أن يُفعل مع الشاب، يجب أن تقومي به بنفسك».

أذهل التفكير بهذا ألما. كان هنري يشكّل ذهن ألما منذ أن كانت فتاة صغيرة جداً، أو هكذا أدركت الأمور على الدوام.

لم تستطع الامتناع عن السؤال: «لكن ماذا تعتقد أنني يجب أن أفعل معه؟».

«افعلي ما تشائين يا ألما. هذا قرارك. ليس السيد بايك ملكي كي أتخلص منه. لقد أحضرتِ هذا الشيء إلى منزلنا، فتخلّصي منه أنت إذا كانت هذه رغبتك. لكن افعلي هذا بسرعة. إن القص أفضل من التمزيق دوماً. أريد أن تُحلّ هذه المسألة بطريقة ما أو أخرى. إن كمية معينة من الفطرة السليمة غادرت الأسرة في الأشهر القليلة الماضية وأريد أن أراها مستعادة. يجب أن نشتغل كثيراً على هذا النوع من الحماقة».

* * *

في السنوات التالية، حاولت ألما إقناع نفسها أنها هي وأمبروس اتخذا القرار معاً إلى أين سيذهب تالياً في حياته، لكن لا شيء أبعد عن الحقيقة من هذا. لم يكن أمبروس بايك رجلاً يتخذ قراراً لنفسه. كان بالوناً مُطْلَقاً خاضعاً بشكل خرافي لتأثير الذين هم أكثر قوة منه، وكان الجميع أكثر قوة منه. وكان دائماً يفعل ما يُقال له. طلبت منه أمه أن يذهب إلى هارفارد، فذهب إلى هارفارد. سحبه أصدقاؤه من كومة ثلج وأرسلوه إلى جناح للمرضى العقليين، فقبل الحجْز مطيعاً. طلب منه

Twitter: @ketab_n

دانييل توبر في بوسطن أن يذهب إلى أدغال المكسيك ويرسم نباتات السحلبية، فذهب إلى الغابات ورسم نباتات السحلبية. دعاه جورج هوكس إلى فيلادلفيا فجاء إلى فيلادلفيا. استقبلته ألما في وايت إيكر ووجهته كي يرسم مجموعة مهيبة من نباتات والدها فانطلق إلى المهمة دون سؤال. سيذهب حيثما يُقاد.

أراد أن يكون ملاكاً لله، لكن ليحمه الله، كان مجرد حمل.

هل ستحاول التفكير بخطة أفضل له؟ قالت لنفسها فيما بعد إنها فعلت. لن تطلّقه؛ لم يكن هناك سبب لإحداث فضيحة لها وله. ستقدم له مالاً وافراً، لا يعني هذا أنه طلب أية نقود، بل لأن هذا الشيء الملائم الذي يجب فعله. لن تعيده إلى ماساتشوسيتس، ليس فقط لأنها تمقت أمه (فقط من رسالة واحدة مقتت أمه!) لكن أيضاً لأن التفكير بأن أمبروس ينام إلى الأبد على فرشة صديقه توبر تسبب لها الألم. لم تستطع إعادته إلى المكسيك أيضاً، وكان هذا أكيداً. كان على شفا الموت من الحمى هناك.

لا تستطيع إبقاءه في فيلادلفيا لأن حضوره يسبب لها الكثير من المعاناة. كم حط من قيمتها! لكنها ما تزال تحب وجهه رغم أنه صار شاحباً ومضطرباً. كانت رؤية ذلك الوجه فحسب تجعلها مذهولة وتولّد حاجة سوقية في داخلها لا تستطيع تحملها. يجب أن يذهب إلى مكان آخر بعيد جداً. لم تستطع المجازفة باللقاء معه في السنوات التالية.

كتبت رسالة إلى ديك يانسي مدير أعمال والدها ذي القبضة الحديدية الذي كان آنذاك في واشنطن العاصمة يرتب بعض الأعمال مع الحدائق النباتية الناشئة هناك. عرفت ألما أن يانسي سيسافر في الحال إلى جنوب المحيط الهادي على متن سفينة لصيد الحيتان. سيذهب إلى

تاهيتي كي يستقصي مزرعة الونيل التي تصارع والتي تملكها عائلة ويتاكر، ويحاول أن يطبق تكتيك التلقيح الذي اقترحه أمبروس على والد ألما، في الليلة الأولى من زيارته إلى وايت إيكر.

خطط يانسي للسفر إلى تاهيتي في غضون أسبوعين، فمن الأفضل السفر قبل عواصف أواخر الخريف، وقبل أن يتجمد المرفأ.

كانت ألما تعرف هذا. لماذا لا يذهب أمبروس إلى تاهيتي مع ديك يانسي، إذاً؟ كان هذا حلاً محترماً ومثالياً. يمكن أن يدير أمبروس مزرعة الونيل بنفسه. يمكن أن يبرع فيها، أليس كذلك؟ كانت نباتات الونيل نباتات سحلبية، أليس كذلك؟ ستسرّ الخطة هنري ويتاكر؛ ما كان يريده بالضبط هو إرسال أمبروس إلى تاهيتي، قبل أن تتدخل ألما وتمنع ذلك مسببة لنفسها الألم.

هل كان هذا إبعاداً؟ حاولت ألما ألا تفكر هكذا. قيل إن تاهيتي كالفردوس، قالت ألما لنفسها. لم تكن مستوطنة عقاب. نعم، كان أمبروس حساساً، لكن ديك يانسي سيحميه من أي أذى. سيمتعه العمل، والطقس رائع وصحي هناك. من لن يحسده على هذه الفرصة لرؤية شواطئ بولينزيا الخرافية؟ كانت فرصة سيرحب بها أي عالم نبات أو تاجر ومغطاة مالياً أيضاً.

دفعت جانباً الأصوات في داخلها التي احتجت قائلة إن هذا كان نفيا قاسياً. تجاهلت ما كانت تعرفه جيداً، أن أمبروس لم يكن عالم نبات أو تاجراً، بل كان شخصاً بحساسيات ومواهب فريدة. كان ذهنه شيئاً حساساً، وربما لم يكن ملائماً لرحلة طويلة على متن باخرة لصيد الحيتان، أو للحياة في مزرعة في البحار الجنوبية البعيدة. كان أمبروس طفلاً أكثر مما كان رجلاً، وقال لألما مرات كثيرة إنه لا يريد شيئاً في الحياة أكثر من منزل آمن ورفيق لطيف.

قالت لنفسها: حسناً، هناك الكثير من الأشياء التي نريدها في الحياة ولا نحصل عليها دائماً.

فضلاً عن ذلك، لا مكان آخر لديه يذهب إليه.

بعد أن قررت كل شيء أنزلت ألما زوجها في فندق يونايتد ستيتس لمدة أسبوعين، مقابل المصرف الضخم حيث تخزن نقود والدها في خزائن كبيرة سرية بينما انتظرت عودة ديك يانسي من واشنطن.

* * *

في صالة الانتظار في فندق يونايتد ستيتس، بعد أسبوعين، عرّفتْ ألما أخيراً زوجها على ديك يانسي، فارع الطول، والصامت ذي العينين المخيفتين والفك المقدود من الصخر، الذي لا يطرح أسئلة، ويفعل ما يُؤمر به أيضاً. منحنياً وشاحباً، لم يطرح أمبروس أسئلة، لم يسأل حتى كم من المتوقع أن يبقى في بولينزيا. لم تكن تعرف كيف تجيب على ذلك السؤال. واصلت القول لنفسها إن هذا لم يكن نفياً. لكنها لم تكن تعرف كم سيستمر.

قالت لأمبروس: «سيعتني بك السيد يانسي من هنا وسيحرص على راحتك قدر الإمكان».

شعرت كما لو أنها تترك طفلاً في رعاية تمساح مدرب. في تلك اللحظة، أحبت أمبروس في جميع تفاصيله كما أحبته سابقاً، أي بشكل كامل. شعرت بفراغ كبير لدى التفكير به وهو يبحر إلى الجهة الأخرى من العالم. ثم مرة ثانية لم تشعر إلا بفراغ كبير منذ ليلة زفافها. أرادت أن تعانقه، ورغبت دوماً بمعانقته، لكن لم تستطع فعل ذلك. لن يسمح بذلك. أرادت أن تتمسك به، أن تتوسل إليه كي يبقى، أن يحبها. لم يسمح بأي من هذا. فما من فائدة له.

Twitter: @ketab_n

تصافحا، كما فعلا في حديقة أمها الإغريقية في اليوم الذي التقيا فيه. كانت حقيبة السفر الجلدية المهترئة نفسها عند قدمي أمبروس، مليئة بمقتنياته. كان يرتدي نفس البذلة البنية القطنية السميكة. لم يأخذ معه أي شيء من وايت إيكر.

كان آخر شيء قالته له هو: «سأصلّي لك يا أمبروس، عِدْني أنك لن تتحدث مع أي شخص تلتقي به عن زواجنا. لا أحد يجب أن يعرف ما حصل بيننا. ستسافر ليس كصهر هنري ويتاكر بل كموظّف لديه. أي شيء غير هذا سيقود إلى أسئلة ولا أتوق إلى أسئلة العالم».

وافق هازّاً رأسه. لم يقل أي شيء آخر. بدا مريضاً ومنهكاً.

لم تحتج ألما أن تطلب من ديك يانسي المحافظة على سرية تاريخها مع السيد بايك. ذلك أن ديك يانسي لا يفعل أي شيء سوى الحفاظ على الأسرار؛ لهذا احتفظ به آل ويتاكر لوقت طويل جداً كهذا.

كان ديك يانسي مفيداً من هذه الناحية.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن عشر

لم تسمع ألما أي شيء من أمبروس في السنوات الثلاث التالية، وفي الحقيقة نادراً ما سمعت أي شيء عنه. وفي أوائل صيف ١٨٤٩، أرسل ديك يانسي كلمة بأنهما وصلا بأمان إلى تاهيتي بعد رحلة إبحار خالية من الأحداث. (عرفت ألما أن هذا لا يعني أن الرحلة كانت سهلة؛ إن أية رحلة لا تنتهي بتحطم السفينة أو بالوقوع في أيدي القراصنة تعني أنها بلا أحداث بالنسبة لديك يانسي). أفاد يانسي أن السيد بايك أُنزل في خليج ماتافاي، ووُضع تحت رعاية مبشّر مهتم بالنباتات يدعى القس فرانسيس ويليس، وأن السيد بايك تم إطلاعه على واجبات مزرعة الونيل. ثم غادر ديك يانسي تاهيتي بسرعة كي يتابع أعمال آل ويتاكر في هونغ كونغ. بعد ذلك لم تصل أية أنباء.

كان هذا وقت يأس متفاقم لألما. أصبح اليأس مملاً ومكرراً، وصار كل يوم نسخة عن اليوم الذي سبقه، مليئاً بالحزن والوحدة والروتين. كان هذا أسوأ شتاء سبق أن مرّ. بدت الشهور أشد برودة وظلمة من أي شتاء عرفته ألما سابقاً، وشعرت بطيور طفيلية لامرئية تحلق فوقها أينما سارت بين منزل العربات والبيت. حدقت الأشجار العارية بها بحدة، متوسلة كي تُدفأ أو تُكسى بالثياب. تجمّد نهر سكيولكل بسرعة وكانت طبقة الجليد فيه سميكة بحيث أن الرجال أشعلوا النيران على سطحه في

Twitter: @ketab_n

الليل وشووا الثيران على السفافيد. وكانت الريح تلسع ألما وتأسرها وتلتف حولها كرداء متصلب ومتجمد كلما خرجت من المنزل.

توقفت ألما عن النوم في غرفة نومها. توقفت تقريباً عن النوم. صارت تعيش في منزل العربات منذ مواجهتها مع أمبروس؛ لم تستطع تخيل أنها قادرة بعد الآن على النوم في غرفة زواجها. توقفت عن تناول الوجبات مع أعضاء المنزل، وأكلت على العشاء الطعام نفسه الذي تأكله أثناء الفطور: الحساء والخبز والحليب ودبس السكر. شعرت بالفتور، وبالمأساوية، وبأنها مجرمة قليلاً. وكانت سريعة الغضب ومزعجة للناس الأكثر لطفاً معها - هانيكي دي غروت مثلاً - وتركت كل العناية والاهتمام بشقيقتها برودنس، أو صديقتها القديمة المسكينة ريتا. وتجنبت والدها. وتوقفت تقريباً عن متابعة العمل الرسمي لوايت إيكر. اشتكت لهنري أنه عاملها دون إنصاف، أنه عاملها دوماً كخادمة.

«لم أزعم أنني منصف أبداً»، صاح، وطردها إلى منزل العربات إلى أن تستطيع أن تصبح سيدة نفسها ثانية.

شعرت كما لو أن الدنيا سخرت منها، وكان من الصعب مواجهة الدنيا.

كانت بنية ألما قوية ولم تعان من إزعاجات سرير المرض، لكن في الشتاء الأول الذي تلا رحيل أمبروس، عانت من صعوبة في النهوض في الصباحات. فقدت قدرتها على الدراسة. ولم تستطع تخيل لماذا هي مهتمة بالطحالب، أو بأي شيء. نمت الأعشاب وغطت كل حماسها القديم. لم تدع أي ضيوف إلى وايت إيكر. ولم تملك إرادة من أجل هذا. فقد كانت المحادثة مضجرة بشكل لا يُحتمل؛ والصمت أسوأ. كانت أفكارها سحابة من العدوى التي لم تنفعها. إذا تجرأت خادمة أو

Twitter: @ketab_n

حدائقي ومرّا في طريقها، كان من المحتمل أن تصيح: «لماذا لا تسمحون لي بدقيقة من العزلة؟»، وتنطلق في الاتجاه الآخر.

بحثت عن أجوبة عن أمبروس، وفتشت في مكتبه الذي تركه سليماً. عثرت على دفتر مليء بكتاباته في الدرج العلوي من طاولته. لم يكن من حقها قراءة هذا الدفتر الخاص وكانت تعرف ذلك، لكنها قالت لنفسها إنه لو كان أمبروس ينوي الاحتفاظ بأفكاره الأكثر سرية، فإنه لن يضع السجل الذي يدوّنها في مكان واضح كهذا، في الدرج غير المقفل في مكتبه. لم يقدم الدفتر أجوبة على أي حال. لم تكن الصفحات مليئة بالاعترافات أو الأشواق، ولم يكن هذا السجل من اليوميات، كمثل السجلات التي يحفظها والدها. لم يكن أي من المداخل مؤرخاً. ولم يكن الكثير من الجمل جملاً بالمعنى الحقيقي. كانت شظايا أفكار، تقاطعها خطوط فاصلة طويلة وقطوع ناقصة:

ما هي إرادتك ...؟ ... نسيان أبدي لكل الكفاح... التوق إلى ما هو سليم ونقي، الخضوع للمعيار الإلهي للحكم الذاتي فقط... اعثر في كل مكان على ما هو مرفق... هل تتلوى الملائكة من الألم ضد نفسها وضد الجسد المنحط؟ يجب أن أصلح كل ما هو فاسد في داخلي! كي تتجدد من جديد بشكل كامل في قوة كريمة!... لا تتقدم الحكمة إلا بالنار المسروقة أو المعرفة المسروقة!... لا قوة في العلم، لكن في جمع الاثنين: المحور حيث تولّد النار الماء... يا يسوع، كن دليلي، ضع المثال في داخلي!... الجوع الشديد، حين يُطفأ، لا ينجب إلا الجوع!

كان هناك صفحات كثيرة من هذا. قصاصات فيها أفكار. لم تبدأ في أي مكان، ولم تقد إلى أي شيء، ولم تُنه أي شيء. ستُدعى لغة كهذه في عالم علم النبات بأسماء ملتبسة أو غامضة. إن أي أسماء مضلّلة وغامضة للنباتات تجعل من المستحيل تصنيف العيّنات.

Twitter: @ketab_n

في بعد ظهر أحد الأيام كسرت ألما أخيراً الأختام التي على قطعة الورق المطوية باتقان والتي قدمها لها أمبروس هدية يوم زفافهما: الشيء المثير للفضول، «رسالة الحب» التي طلب منها ألا تفتحها أبداً. فتحتها طياتها الكثيرة ومسّدتْها. في مركز الصفحة كان هناك كلمة واحدة، مكتوبة بخط رشيق وواضح: ألما.

لا فائدة لهذا.

من هذا الشخص؟ أو من كان؟ ومن كانت ألما الآن التي رحل عنها؟ ماذا كانت هي؟ تساءلت أكثر. كانت عذراء متزوجة اقتسمت سريراً طاهراً مع زوج شاب فاتن لفترة لا تتجاوز شهراً. هل تستطيع حتى أن تدعو نفسها زوجة؟ لم تصدق هذا. لم يكن اسم السيدة بايك مناسباً لها كما ظنت. كان الاسم نكتة قاسية، ووبخت أي شخص ناداها به. ما تزال ألما ويتاكر، وكانت دوماً ألما ويتاكر.

لم تستطع مقاومة التفكير بأنها لو كانت امرأة أكثر جمالاً أو أصغر في السن، لتمكنت من إقناع زوجها بأن يحبها كما ينبغي أن يفعل الزوج. لماذا حددها أمبروس كمرشحة لزواج أبيض؟ أكيد لأنها بدت مناسبة للدور: شخصية قبيحة وبدون جاذبية. عذبت نفسها أيضاً بمسألة إن كان ينبغي أن تتعود على تحمل إذلال زواجهما، كما نصح والدها. ربما كان يجب أن تقبل شروط أمبروس. لو كانت قادرة على ابتلاع كبريائها أو إطفاء رغباتها، لكانت ما تزال تملكه إلى جانبها الآن كرفيق لأيامها. إن فرداً أقوى قد يكون قادراً على تحمل ذلك.

قبل عام فحسب، كانت امرأة راضية ومفيدة ومجتهدة، لم تسمع أبداً بأمبروس بايك، والآن ابتُلي وجودها به. وصل الشخص ونوّرها وفتنها بأفكار عن المعجزة والجمال، ولقد فهمها وأساء فهمها في آن،

Twitter: @ketab_n

وتزوجها وحطم قلبها ونظر إليها بتلكما العينين الحزينتين واليائستين، وقبل نفيه، ورحل الآن. كم الحياة مذهلة وقاسية، إن جائحة كهذه تستطيع أن تدخل وتغادر بسرعة، وتترك حطاماً كهذا خلفها.

* * *

مرّتْ الفصول، لكن بمرارة. كان العام هو ١٨٥٠ الآن. استيقظت ألما في إحدى الليالي في أوائل نيسان/ أبريل من كابوس عنيف غامض. كانت تمسك بحنجرتها، تختنق بجفاف في حالة من الرعب. شعرت بالذعر، وفعلت الشيء الأكثر غرابة. قفزت عن أريكتها في منزل العربات وركضت، حافية القدمين، عبر المدخل الحصوي، عبر الفناء المتجمد، وعبر حديقة أمها اليونانية نحو المنزل. دارت الزاوية مندفعة إلى باب المطبخ في الخلفية ودفعته وقلبها يخفق ورئتاها تلهثان من أجل النَّفَس. نزلت الدرج إلى الطابق السفلي، وكانت قدماها تعرفان كل درجة خشبية مهترئة في الظلام، ولم تتوقف عن الجري إلى أن وصلت إلى القضبان التي تحيط بغرفة نوم هانيكي دي غروت، في الزاوية الأكثر دفئاً من القبو. أمسكت القضبان وهزتها كسجين مجنون.

صاحت ألما: «هانيكي! هانيكي، أنا خائفة».

لو توقفت لثانية واحدة بين الاستيقاظ والجري، لأوقفت نفسها. كانت امرأة في الخمسين من عمرها تركض إلى ذراعي مربيتها العجوز. كان هذا سخيفاً. لكنها لم توقف نفسها.

صاحت هانيكي مذعورة: «ماذا هناك؟».

قالت ألما باللغة الهولندية المألوفة الدافئة: «هذه أنا، ألما».

«يجب أن تساعديني. لقد رأيت أحلاماً سيئة».

نهضت هانيكي، متذمرة ومرتبكة، وفتحت البوابة. ركضت ألما إلى

Twitter: @ketab_n

حضنها بذراعين كبيرين يشبهان شرائح لحم الخنزير المملحة. مندهشة وممتثلة، قادت هانيكي ألما إلى السرير وأجلستها، عانقتها وسمحت لها بالبكاء،

قالت هانيكي: «لا بأس، لا بأس، لن يقتلك».

لكن ألما ظنت أن هذا الحزن العميق سيقتلها. لم تستطع الخروج من قاعه. غاصت فيه لعام ونصف، وخافت من أن تغوص إلى الأبد. بكت على عنق هانيكي، بكت معنوياتها المنهارة. لا بد أنها سكبتْ إبريقاً من الدموع على صدر هانيكي، لكن هانيكي لم تتحرك أو تتحدث، إلا كي تكرر: «توقفي، يكفي يا طفلتي. لن يقتلك هذا».

حين تمالكت ألما نفسها في النهاية نوعاً ما، تناولت هانيكي قطعة قماش نظيفة ومسحت دموعها بسرعة وفعالية كما لو أنها تمسح الطاولات في المطبخ.

قالت لألما، وهي تنظف وجهها: «يجب أن يتحمل المرء ما لا يستطيع النجاة منه. لن تموتي من حزنك، لم يمت أحد منا».

توسلت ألما: «ولكن كيف يتحمل المرء الأمر؟».

قالت هانيكي: «عبر أداء المرء لواجباته بكرامة. لا تخافي من العمل يا طفلة، ففيه ستعثرين على العزاء. إذا كنت تتمتعين بصحة جيدة للبكاء فهذا يعني أنك تتمتعين بصحة كافية للعمل».

قالت ألما: «لكنني أحببته».

تنهدت هانيكي: «إذاً ارتكبت خطأ مكلفاً. أحببت رجلاً اعتقد أن العالم مصنوع من الزبدة. أحببت رجلاً تمنى أن يرى النجوم في ضوء النهار. كان مليئاً بالهراء».

«لم يكن هراء».

Twitter: @ketab_n

«كان هراء»، كررت هانيكي.

قالت ألما: «كان فريداً. لم يرغب بأن يعيش في جسد إنسان فان. كان يرغب بأن يصبح كائناً سماوياً، وتمنى أن أكون أنا هكذا».

«حسناً يا ألما، تجبرينني على القول ثانية إنه هراء. لكنك عاملتيه كما لو أنه زائر من السماء. كلكم فعل هذا».

«هل تعتقدين أنه نذل؟ هل تعتقدين أنه روح شريرة؟».

«كلا. لم يكن زائراً من السماء بل قطعة من الهراء فحسب. لكنه غير مؤذ، لقد وقعت فريسة. حسناً، كلنا نقع فريسة للهراء أحياناً يا طفلتي، ونكون مغفلين بما يكفي كي نحبه».

قالت ألما: «لن يمتلكني رجل أبداً».

ردت هانيكي بحدة: «ربما لا. لكن يجب أن تتحملي الأمر الآن، ولن تكوني الأولى. أغرقْتِ نفسك في مستنقع الحزن لوقت طويل وستشعر أمك بالعار منك. أنت تصبحين ضعيفة وهذا مخز. هل تعتقدين أنك الوحيدة التي تعاني؟ اقرأي كتابك المقدس يا طفلتي، هذا العالم ليس فردوساً بل واد من الدموع. هل تعتقدين أن الله استثناك؟ انظري حولك، ماذا ترين؟ الألم في كل مكان. أينما استدرت ثمة حزن. إذا لم تشاهدي الحزن من النظرة الأولى، انظري بعناية أكبر وسترينه بشكل واضح».

تحدثت هانيكي بصرامة، لكن إيقاع صوتها كان مُطَمْئناً. لم تكن اللغة الهولندية جميلة إيقاعياً كالفرنسية، أو قوية كاليونانية، أو نبيلة كاللاتينية، لكنها كانت مريحة كالثريد لألما. أرادت أن تضع رأسها في حضن هانيكي وتُوبِّخ إلى الأبد.

تابعت هانيكي: «انفضي الغبار عن نفسك! ستسكنني أمك وهي في

Twitter: @ketab_n

قبرها إذا سمحتُ لك بمواصلة ابتسامتك المتكلفة في هذا المكان، تمصين طرف قطعة الحزن، كما كنت تفعلين الآن لشهور. إن عظامك غير محطمة، وهكذا قفي على ساقيك. هل تريدين منا أن نندبك إلى الأبد؟ هل وضع أحد ما عوداً في عينك؟ كلا، لم يفعلوا، وهكذا توقفي عن التحرك دون هدف! توقفي عن النوم ككلب على تلك الأريكة في منزل العربات. اعتني بواجباتك. اعتني بوالدك، ألا ترين أنه مريض وكبير في السن وعلى شفا الموت؟ واتركيني وحدي. أنا كبيرة في السن جداً على هذه الحماقة، وأنت أيضاً، في هذه النقطة من حياتك، بعد كل ما حصّلتيه من تعليم، سيكون من المثير للشفقة أنك لا تستطيعين السيطرة على نفسك. عودي إلى غرفتك يا ألما، إلى غرفتك الملائمة، في هذا المنزل. ستتناولين فطورك في الصباح مع بقيتنا، كما دوماً، وعلاوة على ذلك، أتوقع أن أشاهدك لابسة ثياباً لائقة في اليوم الذين تجلسين فيه لتناول الفطور. ستأكلين كل لقمة منه، وستشكرين الطباخة. أنت من آل ويتاكر يا طفلتي. استعيدي قوتك. هذا يكفي».

* * *

وهكذا فعلت ألما كما طُلب منها. عادت، خائفة ومنهكة، إلى غرفة نومها. عادت إلى طاولة الفطور، إلى مسؤولياتها إزاء والدها، إلى إدارة وايت إيكر. عادت إلى حياتها كما كانت قبل مجيء أمبروس بشكل أفضل قدر الإمكان. لم يكن هناك علاج لثرثرة الخادمات والحدائقيين، لكن، وكما تنبأ هنري، انتقلوا في النهاية إلى فضائح ومسرحيات أخرى، وتوقفوا عن الثرثرة عن مشاكل ألما.

لكنها لم تنس مشاكلها، غير أنها خاطت المزق في نسيج حياتها قدر

Twitter: @ketab_n

استطاعتها، وتابعت. لاحظت للمرة الأولى أن صحة والدها تتدهور بالفعل وبسرعة، كما قالت لها هانيكي دي غروت. ويجب ألا يكون هذا مفاجئاً (كان الرجل في التسعين من عمره!) لكنها نظرت إليه دوماً كعملاق، كإنسان لا يُقهر، بحيث أن هذا الضعف الجديد الذي دبّ فيه أذهلها وأصابها بالذعر. صار هنري يقضي في غرفة النوم فترات أطول، غير مهتم بمسائل العمل المهمة. كان بصره ضعيفاً؛ وتلاشى سمعه تقريباً. كان بحاجة إلى سمّاعة كي يسمع، وصار بحاجة إلى ألما أكثر مما احتاج إليها من قبل: كممرضة أكثر من موظفة. لم يأت على ذكر أمبروس أبداً. لم يذكره أحد. كانت التقارير تأتي من خلال ديك يانسي أن مزرعة الونيل في تاهيتي بدأت تثمر أخيراً. كان هذا أقرب حد وصلت إليه ألما في سماع أنباء زوجها الغائب.

لكن ألما لم تتوقف عن التفكير به. وكان صمت استديو الطباعة في الغرفة التالية لمكتبها في منزل العربات يذكرها بغيابه باستمرار، كذلك الغبار المُهْمل في بيت نباتات السحلبية، وملل طاولة الغداء. كان هناك أحاديث للتبادل مع جورج هوكس، حول النشر القادم لكتاب أمبروس عن نباتات السحلبية الذي كانت ألما تشرف عليه. ذكّرها هذا به أيضاً وعلى نحو مؤلم، لكن لم يكن هناك شيء يُفعل حيال أي من هذا. لا يستطيع المرء أن يمحو كل الأشياء التي تولّد الذكرى، وفي الحقيقة لا يستطيع المرء أن يمحو أيّاً منها. كان حزنها غير قابل للتوقف لكنها أبقته محجوراً عليه في زاوية صغيرة يمكن السيطرة عليها في قلبها، وكان هذا أفضل ما تستطيع فعله.

مرة أخرى، كما فعلت أثناء أوقات الوحدة في حياتها، ركزت على أعمالها من أجل العزاء والإلهاء، عادت إلى عملها حول طحالب أميركا الشمالية، وعادت إلى حقول صخورها وفتشت راياتها وعلاماتها

Twitter: @ketab_n

الصغيرة. لاحظت مرة أخرى التقدم البطيء أو تدهور صنف إزاء آخر. عاد إليها الإلهام الذي أتاها منذ عامين في تلك الأسابيع السعيدة الممتعة قبل زفافها حول نقاط التشابه بين الأشنات والطحالب. لم تستطع استعادة ثقتها الأصلية القوية بالفكرة، لكنها اعتقدت أنه من المحتمل أن نبتة الماء تحولت إلى نبتة اليابسة. كان هناك شيء ما حيال هذا، نوع من التقاطع أو الصلة، لكنها لم تستطع حل اللغز.

أعادت انتباهها إلى المجادلات القائمة حول تحول الأنواع باحثة عن الأجوبة وكي تشغل نفسها فكرياً. قرأت لامارك مرة أخرى، وبعناية. تكهّن لامارك أن التحول البيولوجي حصل بسبب الاستخدام المفرط لجزء معين من الجسم أو سوء استخدامه. زعم أن الزرافات لها أعناق طويلة لأن زرافات معينة، عبر التاريخ، مدت أعناقها عالياً، كي تأكل من قمم الأشجار مما سبب تطويل أعناقها في فترة حياتها. ثم نقلت هذه السمة ـ تطويل العنق ـ إلى صغارها. وامتلكت طيور البطريق أجنحة غير فعالة لأنها توقفت عن استخدامها. ذوت الأجنحة بسبب الإهمال، وهذه السمة ـ عضوان زائدان معطلان وعاجزان عن الطيران ـ نُقلت إلى صغار طيور البطريق، مما شكّل النوع بهذه الطريقة.

كانت نظرية مثيرة، لكنها لم تبد منطقية لألما. وخمّنت أنه بحسب تفكير لامارك يحصل تحول على الأرض أكثر بكثير مما يحدث بالفعل. وبحسب هذا المنطق، تكهنت ألما، أن الشعب اليهودي، بعد قرون من ممارسة الختان، كان يجب أن يبدأ منذ زمن طويل بإنتاج فتيان يولدون دون قلفات. أما الرجال الذين حلقوا ذقونهم طول حياتهم فكان يجب أن ينتجوا أبناء لا تنمو لهم لحى، والنساء اللواتي كن يجعدن شعرهن يومياً كان يجب أن ينجبن بنات بشعر مجعّد. كان من الواضح أن شيئاً من هذا لم يحدث.

Twitter: @ketab_n

لكن الأشياء تغيرت، وكانت ألما متأكدة من هذا. ولم تكن ألما هي الوحيدة التي آمنت بهذا. فقد كان الجميع في العالم العلمي يناقشون احتمال أن الأنواع تتحول من شيء إلى آخر، ليس أمام نظر المرء، وإنما في فترات طويلة من الوقت. وكانت النظريات والمعارك التي بدأت تنشب حول الموضوع فائقة للعادة. وفي وقت متأخر فحسب، نُحتت كلمة عالِم، نحتها وليم ويويل واسع المعرفة. واعترض كثير من المفكرين على هذا المصطلح الجديد البليد، بما أنه بدا شبيهاً على نحو شرير بتلك الكلمة الكريهة: ملحد. لماذا لا يواصلون دعوة أنفسهم فلاسفة طبيعة فحسب؟ أليست هذه التسمية أكثر قداسة ونقاء؟ لكن تم الفصل بين حقل الطبيعة وحقل الفلسفة. فرجال الدين الذين عملوا كعلماء نبات وعلماء جيولوجيا صاروا نادرين بشكل متزايد، بما أنه أثير الكثير من التحديات للحقائق التوراتية من خلال استقصاء العالم الطبيعي. وكانت الفكرة المألوفة هي أن الخالق يتجلى في عجائب الطبيعة؛ غير أنه تم تحدي المسألة الآن بتلك العجائب نفسها. وكان المطلوب من الباحثين أن يختاروا جانباً أو آخر.

وبما أن اليقينيات القديمة بدأت تهتز وتتداعى على أرضية تتآكل بسرعة انغمست ألما ويتاكر ـ لوحدها في وايت إيكر ـ في أفكارها الخطيرة الخاصة. درست توماس مالتوس ونظرياته في النمو السكاني والمرض والجائحة والمجاعة والانقراض. ودرست صور جون وليم دريبر الجديدة المتألقة للقمر. ودرست نظرية لويس أغاسيس بأن العالم شهد مرة عصراً جليدياً. وقامت بنزهة طويلة على الأقدام في أحد الأيام إلى المتحف في شارع سانسوم كي ترى العظام التي أُعيد تركيبها بشكل كامل لمستادون عملاق، مما جعلها تفكر مرة ثانية بقدم الكوكب، وبكل الكواكب. وعاودت تفكيرها بالأشنات والطحالب، وكيف يمكن

أن يتحول أحدها إلى الآخر. وركزت ثانيةً على الديكرانوم متساءلة من جديد كيف يستطيع هذا الصنف الجديد من الطحالب أن يوجد في كثير من الأشكال المتنوعة على نحو دقيق؛ ما الذي صاغه في مئات فوق مئات من الصور الظلية والتشكلات؟

في أواخر ١٨٥٠، نشر جورج هوكس كتاب أمبروس عن نباتات السحلبية، وكان طبعة فاخرة ومرتفعة الثمن دُعيت «نباتات السحلبية في غواتيمالا والمكسيك». وأعلن كل من شاهد الكتاب أن أمبروس بايك أروع فنان في رسم النباتات في هذا العصر. وعبّرت أبرز الحدائق عن رغبتها بتكليف السيد بايك بأن يوثّق مجموعاتها، لكن أمبروس بايك رحل، ضاع في الجانب الآخر من العالم، يزرع الونيل، ولا يمكن الوصول إليه. وشعرت ألما بالخطيئة والعار من الأمر لكنها لم تعرف ماذا تفعل حياله. كانت تمضي الوقت مع الكتاب كل يوم. وسبّب جمال عمل أمبروس الألم لها، لكنها لم تقدر على البقاء بعيدة عنه أيضاً. رتبت لجورج هوكس أن يرسل نسخة من الكتاب إلى أمبروس في تاهيتي، لكنها لم تسمع أبداً إن وصل الكتاب. ورتبت الأمر بحيث تتلقى أم أمبروس ـ السيدة كونستانس بايك الكبيرة في السن ـ الدخل المتولد عن الكتاب كله. وقاد هذا إلى بعض التبادل اللبق للرسائل بين ألما وحماتها. ولسوء الحظ اعتقدت السيدة بايك أن ابنها هرب من هذه الحياة الجديدة كي يلاحق أحلامه الطائشة، ولم تحاول ألما أن تبدد هذا التصور لديها، لسوء الحظ أيضاً.

مرة كل شهر، كانت ألما تذهب لزيارة صديقتها القديمة ريتا في مصح غريفون. لم تعد ريتا تعرف من هي ألما، ولم يبد أن ريتا تعرف نفسها أيضاً.

لم تشاهد ألما شقيقتها برودنس، لكنها كانت تسمع الأنباء بين الفينة

Twitter: @ketab_n

والأخرى: الفقر وإلغاء العبودية، وإلغاء العبودية والفقر، دوماً الحكاية المحبطة نفسها.

فكرت ألما بكل هذه الأمور، لكنها لم تعرف كيف تتصرف حيال أي منها. لماذا صارت حياتهم هكذا، وليس بطريقة أخرى؟ فكرت ثانية بالأنواع الأربعة المميزة والمتزامنة للزمن كما دعتها مرة: الزمن الإلهي، والزمن الجيولوجي، والزمن البشري، وزمن الطحالب. خطر لها أنها أمضت حياتها كلها متمنية لو أنها تستطيع أن تعيش داخل الحقل المجهري البطيء لزمن الطحالب. كانت هذه رغبة غريبة بما يكفي، لكنها ستلتقي حينئذ بأمبروس بايك، الذي كانت توقه أكثر تطرفاً من توقها: أراد أن يعيش في الفراغ الأبدي للزمن الإلهي، أي أراد أن يعيش خارج الزمن. أرادها أن تعيش معه هناك.

كان هناك شيء واحد أكيد وهو أن الزمن البشري هو الأكثر بعثاً للحزن، والأكثر جنوناً وتدميراً من الزمن الذي سبق أن وُجد. بذلت ما في وسعها كي تتجاوزه.

مع ذلك، مرت الأيام.

* * *

في أوائل أيار ١٨٥١، في صباح بارد وممطر، جاءت رسالة إلى وايت إيكر موجهة إلى هنري ويتاكر. لم يكن هناك عنوان للمرسل، لكن حواف الظرف عُلِّمت بالحبر بحدٍّ أسود، يدل على الحداد. كانت ألما تقرأ بريد هنري كله، وهكذا فتحت الظرف أيضاً، كما تفعل عادة مع المراسلات في مكتب والدها:

عزيزي السيد ويتاكر

أكتب اليوم كي أعرّف عن نفسي وأنقل أخباراً مؤسفة. اسمي القس

Twitter: @ketab_n

فرانسيس ويليس، أعمل مبشراً في خليج ماتافاي في تاهيتي منذ سبعة وثلاثين عاماً. في الماضي، قمت بالأعمال أحياناً مع ممثلك الجيد السيد يانسي، الذي يعرف أنني هاو متحمس في حقل علم النبات. جمعت عيّنات للسيد يانسي وأطلعته على مواضع نباتات مهمة، إلخ. وبعته عينات بحرية من المرجان والأصداف، وهذا شيء أهتم به بشكل خاص.

طلب السيد يانسي مؤخراً مساعدتي للعناية بمزرعة الونيل الخاصة بكم، وكانت محاولة تلقت الكثير من المساعدة حين وصل موظف شاب من قبلكم في ١٨٤٩، اسمه أمبروس بايك. من واجبي أن أبلغكم ببالغ الأسى أن السيد بايك توفي بسبب التهاب يمكن أن يقود المصاب بسهولة كبيرة في هذا المناخ الحار إلى موت سريع ومبكر.

يمكنك أن تخبر عائلته أن أمبروس بايك لبى نداء ربه في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر، ١٨٥٠. ويمكنك أن تبلغ أحباءه أيضاً أن السيد بايك تلقى دفناً مسيحياً لائقاً، وقمت بنقش اسمه على حجر صغير لتحديد قبره. حزنتُ كثيراً على رحيله. كان سيداً يتمتع بأرفع الأخلاق ومن أنقى الشخصيات. ولا يُعثر على مثله في هذه الأنحاء. أشك في أنني سألتقي بشخص آخر مثله.

لا أستطيع أن أقدم عزاء، سوى يقين أنه يعيش الآن في مكان أفضل، وأنه لن يعاني أبداً من فقدان الكرامة المرتبط بالشيخوخة.

المخلص، ف. بي. ويليس

ضربت الأنباء ألما بقوة فأس تضرب الغرانيت: رنّتْ في أذنيها، وجعلت عظامها ترتجف، وقدحت شرارات أمام عينيها. أخرجت إسفيناً

منها، إسفين شيء مهم على نحو مريع، وخرج ذلك الإسفين دائراً في الجو، ثم اختفى. لو لم تكن جالسة، لسقطت. وكما حدث، انهارت إلى الأمام على طاولة والدها، ضغطت وجهها على رسالة القس ف.بي. ويليس اللطيفة والمروى فيها، وبكت كي تبدد جميع السحابات في خزائن السماء.

* * *

كيف يمكن أن تحزن على أمبروس أكثر مما حزنت عليه سابقاً؟ لكنها فعلت. ثمة حزن تحت حزن، كما علمت في الحال، كما هناك طبقات تحت طبقات في قاع المحيط، والمزيد من الطبقات التي تحتها إذا واصل المرء الحفر. رحل عنها أمبروس منذ وقت طويل، وكان يجب أن تعرف أنه سيرحل إلى الأبد، لكنها لم تفكر أبداً أنه يمكن أن يموت قبل أن تموت هي. كان السحر البسيط لعلم الحساب يجب أن يمنع هذا: كان أصغر منها بكثير. كيف يمكن أن يموت أولاً؟ كان صورة الشباب. كان سجل البراءة كلها التي سبق أن عرفها الشباب. لكنه مات، وهي حية. لقد أرسلته بعيداً كي يموت.

ثمة مستوى من الحزن عميق بحيث أنه لا يشبه الحزن مطلقاً. يصبح الألم حاداً بحيث أن الجسد يتوقف عن الشعور به. يعالج الحزن نفسه بالكي، يترك ندبة، يمنع المشاعر المتضخمة. إن خدراً كهذا نوع من الرحمة. هذا هو مستوى الحزن الذي وصلت إليه ألما، حالما رفعت وجهها عن طاولة والدها، حالما توقفت عن البكاء.

تحركت إلى الأمام كما لو أن قوة خارجية فظة عديمة الشفقة تتحكم بها. كان الشيء الأول الذي قامت به هي أنها نقلت إلى والدها الأنباء المؤسفة. وجدته يستلقي في السرير، عيناه مغمضتان، وكان شائباً

ومنهكاً، يبدو كقناع الموت على نفسه. كان عليها أن تنقل أنباء وفاة أمبروس على نحو مخز بصوت مرتفع إلى سماعة أذن هنري كي تُفْهمه ما حصل.

«حسنا، حدث هذا!»، قال وأغمض عينيه ثانية.

أخبرت هانيكي دي غروت، التي زمت شفتيها، وضغطت يديها على صدرها، وقالت فقط: «يا إلهي!» ـ كلمة هي نفسها في الهولندية كما في الإنكليزية.

كتبت ألما رسالة إلى جورج هوكس شرحت فيها ما حصل وشكرته على اللطف الذي أبداه لأمبروس، وعلى تشريف ذكرى السيد بايك من خلال كتاب نباتات السحلبية الرائع. رد جورج على الفور برسالة عالية الرقة والأسى.

بعد ذلك بوقت قصير، تلقت ألما رسالة من أختها برودنس، تعبر فيها عن عزائها لفقدان زوجها. لم تعرف من أخبر برودنس. لم تسأل. كتبت رسالة امتنان لبرودنس رداً على ذلك.

كتبت رسالة للقس فرانسيس ويليس، وقعتها باسم والدها، شكرته على إيصال الأنباء المحزنة عن وفاة الموظف الأكثر احتراماً، وسألته إن كان هناك أي شيء يمكن أن يفعله له آل ويتاكر مقابل ذلك.

كتبت رسالة إلى والدة أمبروس، نسخت فيها جميع كلمات الموقر فرانسيس ويليس الواردة في رسالته. كرهت أن ترسلها. عرفت ألما أن أمبروس كان ابن أمه المفضل، رغم ما أشارت إليه السيدة بايك بـ «طرقه التي لا يمكن السيطرة عليها». لماذا لن يكون المفضل لديها؟ كان أمبروس المفضل لدى الجميع. إن هذه الأنباء لن تدمرها. ما هو أسوأ من ذلك، لم تستطع ألما مقاومة الشعور بأنها قتلت الابن المفضل لهذه

Twitter: @ketab_n

المرأة: الأفضل، الجوهرة، ملاك فرامنغهام. بعد أن أرسلت الرسالة المقيتة بالبريد توقعت ألما فحسب أن إيمان السيدة بايك المسيحي سيحميها على الأقل من هذه الضربة.

بالنسبة لألما، لم تملك راحة ذلك النوع من الإيمان. آمنت بالخالق، لكنها لم تلجأ إليه أبداً في لحظات اليأس، ولن تفعل هذا الآن، أيضاً. لم يكن إيمانها من هذا النوع. قبلت ألما الخالق وأُعجبتْ به كمُصمِّم ومحرِّك رئيسي للكون، لكن بالنسبة لذهنها كان شخصية مخيفة وبعيدة وبلا رحمة. إن أي كائن يستطيع أن يخلق عالماً فيه عناء شديد كهذا ليس الكائن الذي يجب الاقتراب منه من أجل العزاء من محن هذا العالم. من أجل عزاء كهذا، يستطيع المرء أن يلجأ إلى أمثال هانيكي دي غروت فحسب.

بعد أن أدت ألما واجباتها المحزنة، وكتبت كل الرسائل عن وفاة أمبروس وأرسلتها، لم يكن هناك شيء تفعله سوى مواصلة ترمّلها وعارها وحزنها. وبسبب العادة أكثر مما هو بسبب الرغبة، عادت إلى دراساتها للطحالب. ولولا تلك المهمة لشعرت بأنها يمكن أن تموت. اشتدّ مرض والدها، وتضخّمتْ مسؤولياتها، وصار العالم أكثر صغراً.

وهذا ما كانت ستبدو عليه بقية حياة ألما لولا وصول ديك يانسي بعد خمسة أشهر، وصعوده درجات وايت إيكر في صباح رائع من صباحات تشرين الأول/ أكتوبر حاملاً الحقيبة الجلدية الصغيرة المهترئة التي كانت مرة لأمبروس بايك طالباً كلمة على انفراد مع ألما ويتاكر.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع عشر

قادت ألما ديك يانسي إلى مكتب والدها وأغلقت الباب خلفهما. لم تكن أبداً وحيدة معه في غرفة من قبل. لكنه كان حاضراً في حياتها منذ ذاكرتها الأقدم، وجعلها دوماً تُصاب بالقشعريرة وعدم الراحة. واجتمع ارتفاعه الشاهق وبشرته البيضاء كالجثة وصلعته المتوهجة ونظرته الجليدية وشكلهُ الذي يشبه البلطة كي يكوّنوا شخصية تشكل تهديداً حقيقياً. ولم تستطع ألما حتى الآن، بعد خمسين سنة من المعرفة تقريباً، أن تحدد كم عمره. كان أبدياً. وهذا أضاف فقط إلى رهبته. خاف العالم كله من ديك يانسي، ولهذا أراده هنري ويتاكر. لم تفهم ألما أبداً ولاء يانسي لهنري، أو كيف نجح هنري في السيطرة عليه، لكنّ هناك شيئاً واضحاً: لن تعمل شركة ويتاكر من دون هذا الرجل المرعب.

قالت ألما وهي تومئ نحو كرسي: «سيد يانسي، اجلس من فضلك».

لم يجلس. وقف في منتصف الغرفة وحمل حقيبة أمبروس بارتخاء في إحدى يديه. حاولت ألما ألا تحدق إليها، الملكية الوحيدة للمرحوم زوجها. لم تجلس أيضاً. وعلى ما يبدو، لا يريدان أن يريحا نفسيهما.

«هل هناك شيء تتمنى أن تتحدث معي عنه يا سيد يانسي؟ أم تفضل

Twitter: @ketab_n

أن تشاهد أبي؟ كان مريضاً مؤخراً، كما أعلم أنك تعرف، لكن هذا اليوم أحد أفضل أيامه ورأسه صاف. يستطيع أن يستقبلك في غرفة نومه إذا كان هذا يناسبك».

بقي ديك يانسي صامتاً. كان هذا تكتيكاً مشهوراً لديه: الصمت كسلاح. حين لا يتحدث ديك يانسي، فإن الذين حوله يملأون الجو بكلماتهم بسبب عصبيتهم. وكان الناس يقولون أكثر مما ينوون قوله. كان ديك يانسي يراقب من خلف تحصينه الصامت فيما تخرج الأسرار، ثم يحضر تلك الأسرار إلى وايت إيكر. كانت هذه وظيفة سلطته.

صممت ألما ألا تقع في مصيدته وتتحدث دون تفكير. هكذا، وقفا صامتين معاً لمدة دقيقتين أخريين. ثم لم تستطع ألما تحمل الأمر. تحدثت ثانية: «أرى أنك تحمل حقيبة زوجي المرحوم. أفترض أنك ذهبت إلى تاهيتي، وأحضرتها من هناك؟ هل عدت كي تعيدها إلي؟».

لم يتحرك أو ينبس ببنت شفة.

واصلت ألما: «إذا كنت تتساءل إن كنت سأستعيد هذه الحقيبة، فإن الجواب هو نعم يا سيد يانسي، أود ذلك كثيراً. كان زوجي المرحوم يملك مقتنيات قليلة جداً، وسيعني لي الكثير الاحتفاظ كذكرى بالشيء الوحيد الذي أعرف أنه كان يقدره بشكل كبير».

بقي صامتاً. هل كان يجعلها تتوسل من أجلها؟ هل ستدفع له؟ هل يريد شيئاً مقابل هذا؟ أم ـ عبرت الفكرة ذهنها في ومضة تائهة غير منطقية ـ هل يتردد لسبب ما؟ هل يشعر بأنه غير متأكد؟ لا يمكن أن يخمن المرء حيال ديك يانسي. لا يمكن أن يُقرأ أبداً. بدأت ألما تشعر بالرعب وفقدان الصبر.

قالت: «يجب أن ألح في الواقع يا سيد يانسي أن تشرح بنفسك».

Twitter: @ketab_n

لم يكن ديك يانسي رجلاً سبق أن قام بالشرح. كانت ألما تعرف هذا كأي شخص حي. ولم يسرف في إنفاق الكلمات على مسائل تافهة كالتفسير. ولم ينفق الكلمات مطلقاً. ومن بداية طفولتها، في الحقيقة، نادراً ما سمعته ألما يتحدث أكثر من ثلاث كلمات وراء بعضها. أما في هذا اليوم، على أي حال، فقد كان ديك يانسي قادراً على إيضاح هذه النقطة في كلمتين فقط لفظهما من زاوية فمه وهو يخطو عابراً ألما نحو الباب، رامياً الحقيبة بين ذراعيها وهو يمر قربها.

قال: «أحرقيها».

* * *

جلست ألما وحيدة مع الحقيبة في مكتب والدها لمدة ساعة، محدقة فيها كما لو أنها تحاول أن تحدد ـ من خلال جلدها الخارجي المهترئ والمبقع بالملح ـ ماذا في الداخل. لماذا قال يانسي شيئاً كهذا؟ لماذا أزعج نفسه وأحضر لها الحقيبة من الجانب الآخر من الكوكب، كي يطلب منها حرقها فحسب؟ لماذا لم يحرقها بنفسه، إذا كانت بحاجة إلى الحرق؟ وهل عنى أنها يجب أن تحرقها بعد فتحها ومراجعة المحتويات، أم قبل؟ لماذا تردد طويلاً قبل أن يسلمها؟

كان طرح أي من هذه الأسئلة عليه غير ممكن بالطبع: كان قد رحل منذ وقت طويل. كان ديك يانسي يتحرك بسرعة غير قابلة للتصور؛ ربما كان في منتصف الطريق إلى الأرجنتين الآن. وحتى لو بقي في وايت إيكر فإنه لن يجيب على أية أسئلة أخرى. كانت تعرف هذا. إن ذلك النوع من المحادثة لن يكون أبداً جزءاً من خدمة ديك يانسي. كان كل ما عرفته هو أن حقيبة أمبروس صارت بين يديها الآن، وهكذا كانت هذه ورطة.

Twitter: @ketab_n

قررت أن تأخذ الحقيبة إلى مكتبها، في منزل العربات كي تتأملها على انفراد. وضعتها على الأريكة في الزاوية، حيث اعتادت ريتا أن تثرثر معها منذ سنوات كثيرة، وحيث اعتاد أمبروس أن يتمدد بارتياح وساقاه الطويلتان متدليتان، وحيث نامت ألما في الأشهر المظلمة بعد أن غادر أمبروس. درستْ الحقيبة. كانت بطول قدمين، وعرض قدم ونصف، وعمق ستة إنشات. كانت مستطيلاً بسيطاً من جلد البقر الرخيص ذي اللون العسلي. كانت بالية وملوثة ومتواضعة. أصلح المقبض بالأسلاك والأربطة الجلدية عدة مرات. كانت المفصلات متآكلة من هواء البحر والعمر. يستطيع المرء أن يقرأ بصعوبة، فوق المقبض، الحرفين الأولين المنقوشين من اسمه (أ.ب). كان حزامان جلديان يغلفان الحقيبة ويغلقانها كمثل أحزمة السرج حول بطن حصان.

لم يكن هناك قفل، وكان هذا يَسِمُ أمبروس بشكل خاص. طبيعته واثقة، أو بالأحرى كانت هكذا. ربما لو كان هناك قفل على الحقيبة، فإنها لن تفتحها. ربما كل ما سيتطلبه الأمر هو إشارة واحدة ضعيفة إلى الخصوصية، وكانت ستتراجع. أو ربما لا. كانت ألما من النوع الذي ولد كي يستقصي الأشياء بغض النظر عن النتائج، حتى لو عنى الأمر تحطيم قفل.

فتحت الحقيبة بصعوبة. كانت بذلة قطنية سميكة بنية مطوية في الداخل، يمكن التعرف عليها بسرعة، مما أشعرها بالحزن. رفعتها وضغطتها على وجهها آملة أن تشم شيئاً من أمبروس في أنسجتها، لكن كل ما استطاعت شمه هو أثر من العفن الفطري. عثرت تحت السترة على رزمة سميكة من الأوراق: اسكتشات ورسوم على ورق عريض مسنن بلون قشر البيضة. كان الرسم العلوي تصويراً لشجرة باندانوس استوائية، يمكن معرفتها فوراً من أوراقها التي كاللولب وجذورها

Twitter: @ketab_n

السميكة. كانت موهبة أمبروس النباتية البارعة تتجلى في العمل، وفي التفاصيل التامة بشكل نموذجي. كان مجرد اسكتش بقلم الرصاص، لكنه رائع. درسته ألما ثم وضعته جانباً. تحت هذه الرسمة هناك أخرى، تفصيل لبرعم الونيل، مرسوم بالحبر وملون برشاقة، بدا تقريباً وكأنه يرفرف على الصفحة.

شعرت ألما بالأمل يتصاعد في داخلها، تحتوي الحقيبة إذاً على انطباعات أمبروس النباتية من جنوب المحيط الهادي. كان هذا مريحاً على عدة صعد. عنى هذا أن أمبروس حصل على العزاء من براعته حين كان في تاهيتي، ولم يذْو في يأس كسول. ثم، بامتلاك هذه الصور، سيكون لدى ألما المزيد من أمبروس الآن، سيكون لديها شيء رائع وملموس تتذكره به. أضف إلى أن هذه اللوحات ستكون نافذة على سنواته الأخيرة: ستتمكن من مشاهدة ما شاهده، كما لو أنها تنظر مباشرة بعينيه.

كانت الرسمة الثالثة لشجرة جوز هند مرسومة ببساطة وسرعة، لكنها غير منتهية. أوقفتها الرابعة فجأة. كانت وجهاً. كانت هذه مفاجأة، لأن أمبروس، بحسب علم ألما، لم يبد أي اهتمام أبداً برسم شكل بشري. لم يكن أمبروس راسم بورتريهات، ولم يزعم أبداً أنه هكذا. لكن ثمة بورتريه هنا، مرسوم بقلم الحبر، بخط أمبروس الدقيق. رأس شاب في مظهر جانبي يميني. تشير ملامحه إلى أسلاف بولينزيين. عظام خدية عريضة، أنف مسطح، شفتان عريضتان. جذاب وقوي. شعره قصير كالأوربيين.

انتقلت ألما إلى الاستكتش التالي: بورتريه أخرى للشاب نفسه، في المظهر اليساري. الصورة التالية ذراع رجل. لم تكن ذراع أمبروس. كان

الكتف أعرض من كتفه والساعدان أقوى. جاء تالياً تفصيل حميم لعين بشرية. لم تكن عين أمبروس (ستتعرف ألما على عين أمبروس في أي مكان). كانت عين شخص آخر، مميزة بأهدابها الريشية.

ثم جاء رسم كامل الطول لشاب، وهو عار من الخلف ويسير مبتعداً عن الفنان. ظهره عريض وعضلي. رُسمت عقد الفقرات بشكل دقيق. أظهرت صورة عارية أخرى الشاب يستند إلى شجرة جوز هند. وجهه مألوف لألما، الجبين الفخور نفسه، الشفتان العريضتان، العينان اللوزيتان. بدا هنا أكثر شباباً مما كان عليه في الرسوم الأخرى، كانت فتى في السابعة أو الثامنة عشرة من عمره.

لم تكن هناك دراسات نباتية أخرى. جميع الرسوم والاسكتشات والألوان المائية المتبقية في الحقيبة كانت للعاري. هناك أكثر من مائة منها، كلها للمحلي الشاب نفسه ذي الشعر الأوربي القصير. بدا في بعض الصور كأنه نائم. وكان في أخرى يركض، أو يحمل رمحاً، أو يرفع حجراً، أو يقذف شبكة صيد، ولا يختلف عن الرياضيين أو أنصاف الآلهة على الخزفيات اليونانية القديمة. لم يكن في أي من الصور يلبس قطعة ثياب واحدة، أو حذاء. وفي معظم الدراسات كان قضيبه مترهلاً ومسترخياً. وفي بعض الأخرى لم يكن هكذا. وفي هذه، كان وجه الشاب مداراً نحو واضع البورتريه بصراحة بسيطة ومسلية.

«يا إلهي»، سمعت ألما نفسها تصيح بصوت مرتفع. ثم أدركت أنها كانت تقول هذا طول الوقت، مع كل صورة جديدة وصادمة.

يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي!

كانت ألما ويتاكر امرأة حسابات سريعة، وبعيدة عن كونها بريئة حسياً. كان الاستنتاج الوحيد الممكن الذي يمكن التوصل إليه بخصوص

Twitter: @ketab_n

محتويات الحقيبة هو هذا: إن أمبروس بايك النموذج المثالي للطهارة وملاك فرامنغهام، كان لوطياً.

طار ذهنها عائداً إلى ليلته الأولى في وايت إيكر. على العشاء، أذهل كلاً من ألما وهنري بأفكاره عن التلقيح اليدوي لنباتات الونيل في تاهيتي. ما الذي قاله؟ سيكون هذا سهلاً، كما وعد، *كل ما تحتاج إليه هو فتيان صغار بأصابع صغيرة وعصي صغيرة*. بدا هذا لعوباً. والآن، لدى الاستعادة، بدا فاحشاً. لكنه أجاب عن الكثير أيضاً. لم يكن أمبروس قادراً علي أن يُتِمَّ زواجهما ليس لأن ألما كبيرة في السن، أو لأنها دميمة، أو لأنه أراد أن يحاكي الملائكة، بل لأنه يريد فتياناً صغاراً بأصابع صغيرة وعصي صغيرة. أو يريد فتياناً كباراً كما تظهر هذه الرسوم.

يا إلهي، ما الذي وضعها فيه! أية أكاذيب تفوّه بها! أية ألاعيب! أي احتقار للذات جعلها تشعر به إزاء رغباتها الطبيعية، الطريقة التي نظر بها إليها من حوض الاستحمام في بعد الظهر ذاك حين وضعت أصابعه في فمها كما لو أنها شيطانة قادمة لالتهام لحمه. تذكرت سطراً من مونتاني، شيئاً ما قرأته منذ سنوات، تذكرته دوماً، وبدا الآن وثيق الصلة بشكل مرعب: «ثمة شيئان لاحظتُ دوماً أنهما منسجمان: الأفكار فوق السماوية والسلوك تحت الأرضي».

خدعها أمبروس وأفكاره فوق السماوية، بأحلامه المهيبة وبراءته المزيفة، بتظاهره بالقداسة وحديثه النبيل عن التوحد مع الإلهي، وانظروا أين انتهى! في فردوس قذر مع غلام!

قالت بصوت مرتفع: «يا ابْن العاهرة المنافق!».

* * *

Twitter: @ketab_n

إن امرأة أخرى يمكن أن تأخذ بنصيحة ديك يانسي وتحرق الحقيبة وكل ما في داخلها. لكن ألما كانت العالِم الذي لا يمكن أن يحرق دليلاً من أي نوع. وضعت الحقيبة تحت الأريكة في مكتبها. لا أحد سيعثر عليها هنا. لم يكن يدخل أحد إلى الغرفة، بأية حال. كارهةً أن يتم إزعاجها في عملها، لم تسمح لأحد غيرها بتنظيف مكتبها. ولم يكترث أحد بما كانت تفعله عانس عجوز كألما داخل غرفتها الممتلئة بالمجاهر السخيفة والكتب المملة وقوارير الطحالب اليابسة. كانت مغفلة، وحياتها ملهاة، ملهاة مريعة ومحزنة.

ذهبت لتناول العشاء ولم تنتبه إلى طعامها.

من كان يعرف أيضاً؟

سمعت الثرثرة الأسوأ عن أمبروس في الأشهر التي تلت زواجهما، أو اعتقدت أنها سمعت، لكنها لا تتذكر أن أحداً ما سبق أن اتهمه بأنه لوطي. هل ضاجع فتيان الاصطبل؟ أو الحدائقيين الصغار؟ هل كان هذا ما يفعله؟ لكن متى كان يفعل ذلك؟ أحد ما يجب أن يقول شيئاً ما. كانا دوماً معاً، ألما وأمبروس، وأسرار داعرة كهذه لا تبقى أسراراً لوقت طويل. إن الشائعات عملة ثمينة تحرق وتفتح ثقوباً في الجيب وهي دوماً تُصرف في النهاية. لكن لم يتفوه أحد بكلمة.

هل كانت هانيكي تعرف؟ تساءلت ألما، ناظرة إلى كبيرة الخدم العجوز. هل كان هذا سبب اعتراضها على أمبروس؟ نحن لا نعرفه، قالت هذا مرات كثيرة...

ماذا عن دانييل توبر في بوسطن، أعز صديق لأمبروس؟ هل كان أكثر من صديق؟ هل كانت البرقية التي أرسلها يوم الزفاف ـ «عمل جيد يا بايك» ـ نوعاً من الشفرة الوقحة؟ لكن دانييل توبر كان رجلاً متزوجاً

Twitter: @ketab_n

بمنزل فيه أطفال، كما تذكرت ألما. أو هكذا قال أمبروس. لم يكن هذا مهماً. يمكن أن يكون الناس أشياء كثيرة، على ما يبدو، وعلى الفور.

ماذا عن أمه؟ هل السيدة كونستانس تعرف؟ هل هذا ما عنته حين كتبت قائلة «ربما سيشفيه زواج محتشم من لعب دور المتشرد الأخلاقي»؟ لماذا لم تقرأ ألما تلك الرسالة بعناية أكبر؟ لماذا لم تتحقق؟

كيف حدث أنها لم تستطع أن تلاحظ هذا؟

بعد العشاء سارت في غرفتها شاعرة بأنها مشطورة ومفككة، وأن الحيرة تتقاذفها، والغضب يطغى عليها. عاجزة عن إيقاف نفسها، سارت عائدة إلى منزل العربات. دخلت إلى استديو الطباعة الذي أعدته بشكل ملائم لأمبروس منذ أكثر من ثلاث سنين وكلفها كثيراً. كانت جميع الآلات ترقد تحت الأغطية الآن، والأثاث أيضاً. عثرت على دفتر أمبروس مرة أخرى في الدِّرج العلوي من طاولته. فتحته على صفحة لا على التعيين وعثرت على عينة مشابهة من الهراء الصوفي:

لا شيء يوجد سوى العقل، وتحركه القوة... كي لا تظلم النهار، كي تلمع في الانتقال... لنتخلص من الظاهر، لنتخلص من الظاهر!

أغلقت الكتاب وأصدرت ضجة وقحة. لم تستطع تحمل كلمة أخرى منه. لماذا لا يستطيع الرجل أن يكون واضحاً أبداً؟

عادت إلى مكتبها وسحبت الحقيبة من تحت الأريكة. نظرت هذه المرة بمنهجية أكبر إلى المحتويات. لم تكن مهمة مريحة، لكنها شعرت أنها يجب أن تقوم بها. تحسست حواف الحقيبة بحثاً عن مخبأ، أو أي شيء فاتها في فحصها السابق. بحثت في جيوب سترة أمبروس التي أبلاها الزمن، لكنها لم تعثر سوى على بقية قلم رصاص.

ثم عادت ثانية إلى الصور، اللوحات الثلاث الممتازة للنباتات،

ودزينة اللوحات الفاحشة للشاب الجميل نفسه. تساءلت إن كان يمكن أثناء تفتيشها الأكثر دقة أن تصل إلى نتيجة بديلة، لكن كلا؛ كانت اللوحات واضحة جداً، وحسية جداً، وحميمية جداً. لم يكن هناك تفسير آخر لهذا. قلبت ألما إحدى لوحات العاري، ورأت شيئاً مكتوباً على ظهرها، بخط أمبروس الجميل والرشيق. كان موضوعاً في زاوية، كتوقيع باهت ومتواضع. كلمتان فحسب، بأحرف صغيرة: تومورو مورننغ (غداً في الصباح).

قلبت ألما لوحة أخرى وشاهدت، في الزاوية اليمينية المنخفضة نفس الكلمتين: تومورو مورننغ. قلبت اللوحات واحدة واحدة، وقالت كل منها الشيء نفسه، في الخط الرشيق المألوف نفسه: تومورو مورننغ، *تومورو مورننغ، تومورو مورننغ*...

ما الذي يعنيه هذا؟ هل كان كل شيء شفرة ثنائية؟

تناولت قطعة ورق وفصّلت أحرف «تومورو مورننغ» وأعادت ترتيبها في كلمات وعبارات أخرى لكن لم يكن لأي منها معنى، ولم تؤد ترجمة الكلمات إلى الفرنسية والهولندية واللاتينية واليونانية أو الألمانية إلى تنوير. ولا قراءتها من النهاية إلى البداية، ولا منحها أرقاماً تتواشج مع مواضعها في الأبجدية. ربما إذاً لم تكن شفرة. ربما كانت تأجيلاً. ربما كان شيء ما يحدث دوماً مع هذا الفتى «*غداً في الصباح*»، أو على الأقل بحسب أمبروس، على أي حال، كان هذا غامضاً ومثيراً للاشمئزاز. ربما كان يقوم فقط بتأجيل اللقاء مع ملهمه المحلي الأنيق: «لن أنام معك الآن، أيها الشاب، لكن هذا سيكون أول شيء أفعله *غداً في الصباح*!» ربما هكذا أبقى نفسه طاهراً، في وجه الإغراء. ربما لم يلمس الفتى أبداً. لكن لماذا رسمه عارياً؟

خطرت فكرة أخرى لألما: هل كانت هذه الرسوم مأجورة؟ هل قام أحد ما، لوطي غني مثلاً، بالدفع لأمبروس كي يرسم هذا الغلام؟ ولكن لماذا سيحتاج أمبروس إلى النقود بما أن ألما اعتنت بالأمر بشكل جيد؟ ولماذا سيقبل عملاً كهذا، بما أنه شخص يتمتع بحساسيات مرهفة كهذه، أو كما ادعى؟ لو كانت أخلاقه مجرد ادعاء، فمن الواضح أنه واصل الأداء حتى بعد أن غادر وايت إيكر؟ لم تكن سمعته في تاهيتي سمعة شخص منحط، وإلا لما أزعج فرانسيس ويليس نفسه ورثى أمبروس بايك «كسيد يتمتع بأخلاق رفيعة وشخصية من أنقى ما يكون».

لماذا،إذاً؟ لماذا هذا الفتى؟ لماذا فتى عار ومثار؟ لماذا رفيق أنيق كهذا بوجه مميز هكذا؟ لماذا يبذل جهداً كهذا لرسم لوحات كثيرة؟ لماذا لم يرسم الأزهار بدلاً من ذلك؟ لقد أحب أمبروس الأزهار، وكانت تاهيتي طافحة بها! من هذا المُلْهِم؟ ولماذا ذهب أمبروس إلى موته مخططاً بشكل متواصل أن يفعل شيئاً ما بهذا الفتى، وأن يفعله إلى الأبد، وبشكل لانهائي، «غداً في الصباح»؟

Twitter: @ketab_n

الفصل العشرون

كان هنري ويتاكر يحتضر. كان في الواحد والتسعين من عمره، وهكذا فإن هذا ينبغي ألا يكون صادماً، لكن هنري كان مصدوماً وغاضباً في آن لأنه وجد نفسه في حالة متدهورة كهذه. لم يستطع المشي لشهور ولا يقدر الآن أن يسحب نَفَساً كاملاً، لكنه لم يستطع أن يصدّق مصيره. كان مأسوراً في تخته، وضعيفاً وباهتاً، فيما عيناه تطوفان الغرفة بشكل وحشي، كما لو أنه ينشد وسيلة للهرب. بدا كأنه يحاول العثور على شخص يرهبه، يرشوه أو يغريه كي يبقيه حياً. لم يصدق أنه لا مهرب من هذا. كان مُرَوَّعاً.

كلما صار هنري مروّعاً أكثر، ازداد استبداده مع ممرضاته المسكينات. أراد أن تُدلك ساقاه باستمرار، وبسبب خوفه من الاختناق من رئتيه الملتهبتين، أمر بأن يميل هيكل سريره نحو الأعلى في زاوية حادة. رفض المخدات خوفاً من أن تغرقه أثناء نومه. وصار أكثر ولعاً بالقتال أثناء النهار حتى وهو يتدهور. «أية فوضى حقيرة صنعتم من هذا السرير!» صاح بفتاة شاحبة وخائفة وهي تجري من الغرفة. وتساءلت ألما كيف يمتلك القوة كي ينبح ككلب مقيد، حتى وهو يتلاشى على الأغطية. كان صعباً، لكن كان هناك شيء مثير للإعجاب في قتاله، وأيضاً شيء ملوكي في رفضه للموت بهدوء.

لم يكن يزن شيئاً. صار جسمه ظرفاً فضفاضاً مليئاً بعظام طويلة حادة

Twitter: @ketab_n

ومغطى في كل مكان بالندوب. لم يستطع تناول أي شيء سوى سائل لحم البقر، وليس الكثير منه. لكن رغم هذا كان صوت هنري هو الجزء الأخير من جسمه الذي خذله. وكان هذا مثيراً للشفقة بطريقة ما. جعل صوت هنري الخادمات والممرضات حوله يعانين، لأنه، وكبحار إنكليزي شجاع يغوص مع سفينته، بدأ يغني أغنيات داعرة، كما لو من أجل المحافظة على شجاعته في وجه القدر. كان الموت يحاول أن يشده إلى الأسفل بيديه، لكنه كان يبعده بالغناء.

«دعها تمر براية حمراء مرفرفة! ضعها في مؤخرة الخادمة!».

«هذا كل شيء يا كيت، شكراً لك»، تقول ألما للمرضة الشابة سيئة الحظ التي صادف أنها كانت تؤدي واجبها، وتواكب الفتاة المسكينة إلى الباب، حتى فيما كان هنري يغني: «العجوز الطيبة كيت في ليفربول! مرة فتحت مدرسة للعاهرات».

لم يكترث هنري كثيراً بالتصرفات اللبقة، أما الآن فإنه لا يكترث بها مثقال ذرة. كان يقول كل ما يريد قوله، وربما، كما خطر لألما، أكثر مما يريد قوله. كان غير محتشم بشكل مذهل. تحدث صائحاً عن النقود، وعن صفقات فشلت. واتهم وفحص، وهاجم وصدّ. وخاض المعارك حتى مع الموتى. وتجادل مع السير جوزف بانكس، محاولاً ثانية إقناعه بزراعة الكينا في الهملايا. ولام بقسوة والد زوجته الميتة الذي توفي منذ زمن طويل: «سأريك يا صاحب وجه الظربان، أيها الكلب، أيها الخنزير الهولندي، أي رجل غني سأصبح». اتهم والده الذي توفي منذ وقت طويل بأنه لاعق بوط متملق. وطلب أن تُستدعى بياتريكس كي تعتني به وأن تحضّر له عصير التفاح. أين كانت زوجته؟ لأي هدف يملك الرجل زوجة، إن لم يكن كي تعتني به على فراش المرض؟

Twitter: @ketab_n

ثم في أحد الأيام نظر إلى ألما مباشرة في عينيها وقال: «وتعتقدين أنني لا أعرف ماذا كان زوجك!».

ترددت ألما لحظة طويلة في إخراج الممرضة من الغرفة. كان عليها أن تفعل ذلك مباشرة لكنها انتظرت بدلاً من ذلك، غير متأكدة ماذا يمكن أن يقول والدها.

«هل تعتقدين أنني لم ألتق برجال كهؤلاء أثناء أسفاري؟ هل تعتقدين أنني لم أكن رجلاً كهذا أنا نفسي؟ هل تعتقدين أنهم أخذوني على متن سفينة *الريزليوشن* بسبب مهارتي في الملاحة؟ لقد كنت فتى صغيراً بلا شعر يا خوخة، غلاماً صغيراً من اليابسة بثقب مؤخرة رائع ونظيف. لا عار في قول هذا!».

ناداها باسم «الخوخة». لم ينادها بهذا الاسم لعقود. لم يعرفها حتى أحياناً أثناء الشهور الماضية. لكن الآن، باستخدامه لاسم الدلع القديم كان من الواضح أنه يعرف بدقة من هي، مما عنى أنه كان يعرف أيضاً ماذا يقول بدقة.

«يمكن أن تغادري الآن يا بيتسي»، أمرت ألما الممرضة، لكن الممرضة لم تبد مستعجلة للمغادرة.

«اسألي نفسك ما الذي فعلوه معي في السفينة، يا خوخة! كنت الغلام الأصغر هناك! يا إلهي، لقد استمتعوا معي!».

«شكراً لك يا بيتسي»، قالت ألما متحركة كي تواكب الممرضة إلى الباب بنفسها. «أغلقي الباب خلفك. شكراً لك. اذهبي».

كان هنري ينشد الآن بيت شعر كريهاً لم تسمعه ألما من قبل أبداً:

ضربوني من الأعلى وضربوني من الأسفل، الزميل اقترب مني، واقترب!

Twitter: @ketab_n

قالت ألما: «أبي، يجب أن تتوقف». اقتربت منه ووضعت يديها على صدره: «يجب أن تتوقف».

توقف عن الغناء ونظر إليها بعينين ناريتين. أمسك رسغيها بيديه النحيلتين.

قال هنري، بصوت واضح وقوي كشاب: «اسألي نفسك لماذا تزوّجك يا خوخة، أراهن أنه ليس من أجل النقود، وليس من أجل ثقب مؤخرتك الصغير والنظيف، بل من أجل شيء آخر. أنت لا تفهمين ذلك، أليس كذلك؟ وأنا أيضاً لا أفهم ذلك».

سحبت ألما ذراعيها من قبضة والدها. فاحت العفونة من نَفَسه. كان معظمه ميتاً من قبل.

«توقّفْ عن كلامك يا أبي، واشرب قليلاً من سائل لحم البقر»، قالت، مميّلة الكوب إلى فمه، ومتجنبة تحديقته. كان لديها إحساس بأن الممرضة تصغي من خلف الباب.

غنى: «آه نحن نركض حول الكيب! البعض من أجل الدَّين والبعض الآخر من أجل الاغتصاب!».

حاولت أن تصب السائل في فمه، كي توقفه عن الغناء، لكنه بصقه وأبعد يدها. تناثر الحساء على الأغطية وسقط الكوب على الأرض. كان ما يزال يمتلك قوة المقاتل القديم. حاول أن يمسك رسغيها ثانية وأمسك واحداً.

قال: «لا تكوني ساذجة يا خوخة. لا تصدقي أي شيء يقوله لك أي عاهر أو وغد في هذا العالم، *اذهبي واعرفي السبب!*».

في الأسبوع التالي، حين شارف هنري على الموت، كان يقول ويغني أشياء كثيرة، معظمها قذرة وبائسة، بحيث أن عبارة منها صدمت

ألما وشعرت بأنها مفحمة ومتعمدة بحيث أنها ستفكر بها دوماً بأنها كلمات والدها الأخيرة: *اذهبي واعرفي السبب!*

* * *

توفي هنري ويتاكر في ١٩ تشرين الأول/ أكتوبر، سنة ١٨٥١. كانت وفاته كعاصفة تهب في البحر. صمد حتى النهاية، قاتل إلى آخر نَفَس. كان الهدوء في نهاية الأمر، حالما رحل رهيباً. لم يستطع أحد أن يصدق أنه عاش أكثر منه. هانيكي، وهي تمسح دمعة إعياء بقدر ما هي دمعة حزن قالت: «آه، أيها الذين يسكنون في السماء، أتمنى لكم حظاً جيداً مما هو قادم!».

ساعدت ألما في غسيل جثة والدها. طلبت أن تكون وحيدة مع جثته. لم ترغب بالصلاة. لم ترغب بالبكاء. هناك شيء تحتاج إلى اكتشافه. رفعت الغطاء عن جثة والدها العارية، استكشفت الجلد حول الحوض، باحثة بأصابعها وعينيها عن شيء ما كالندبة، كالكتلة، عن شيء ما غريب وصغير وخارج مكانه. كانت تبحث عن الزمردة التي أقسم لها هنري، منذ عقود، حين كانت طفلة، أنه خاطها تحت لحمه، ولم تخف من البحث عنها. كانت عالمة طبيعة. إذا كانت هناك، ستعثر عليها.

يجب أن يكون لديك دوماً رشوة أخيرة يا خوخة.

لم تكن هناك.

فوجئت. لقد صدقت دوماً كل ما قاله لها والدها. لكنها اعتقدت حينئذ، أنه ربما قدّم الزمرّدة للموت، حين اقتربت نهايته. فحين لم تعمل الأغاني ولم تعمل الشجاعة وفشل مكره في التفاوض على مخرج

Twitter: @ketab_n

من هذا العقد الأخير المخيف، ربما قال: «خذ زمردتي الأفضل أيضاً!» وربما أخذها الموت، كما ظنت ألما، لكنه أخذ عندئذ هنري أيضاً.

حتى والدها لا يستطيع أن يشتري مخرجاً من هذا العهد.

رحل هنري ويتاكر، وذهبت خدعته الأخيرة معه.

***

ورثت كل شيء. كانت الوصية التي أخرجها محامي هنري بعد يوم واحد من الجنازة أبسط وثيقة يمكن تخيلها، ولا تتجاوز بضعة أسطر. قالت الوصية إن هنري ويتاكر يترك «لابنته المولودة بشكل طبيعي»، ثروته كلها. يترك كل أراضيه وأعماله وثروته وممتلكاته، حصرياً لألما. لا يوجد حصص لأي شخص آخر، وما من ذكر لابنته بالتبني، برودنس ويتاكر ديكسون، ولا لطاقمه المخلص من الموظفين. لم تتلق هانيكي أي شيء، وكذلك ديك يانسي.

أصبحت ألما ويتاكر الآن من أغنى النساء في العالم الجديد. امتلكت أكبر مشروع لاستيراد النباتات في أميركا، وأدارت شؤونه بمفردها في الأعوام الخمسة الأخيرة، وامتلكت نصف شركة الأدوية المزدهرة جاريك وويتاكر. وكانت الساكنة الوحيدة لأحد أفخم المنازل الخاصة في كومنولث بنسلفانيا، وامتلكت حقوق عدة براءات اختراع مربحة، وآلاف الدونمات من الأرض المنتجة. وتحت إدارتها المباشرة هناك العشرات من الخدم والموظفين، فيما عدد لا يحصى من الناس في أنحاء العالم يعملون لها على أساس تعاقدي. وضاهت مشاتلها وبيوتها الزجاجية أي مشاتل أو بيوت زجاجية موجودة في الحدائق النباتية الأوربية الأروع.

لم تشعر بأن هذه بركة.

كانت ألما منهكة وحزينة على وفاة والدها بالطبع لكنها شعرت أيضاً

Twitter: @ketab_n

أنها مثقلة بعبء إرثه الضخم. ما مصلحتها في مشروع استيراد نباتات كبير، أو عملية تصنيع أدوية؟ ما حاجتها لامتلاك نصف دزينة من المطاحن والمناجم في بنسلفانيا؟ ما فائدة منزل من ٣٤ غرفة مليء بالكنوز النادرة وطاقم متحدّ بالنسبة لها؟ كم مشتلاً تحتاج سيدة عالمة نبات كي تدرس الطحالب؟ (الجواب بسيط: لا تحتاج إلى أي مشتل). مع ذلك كانت كل هذه لها.

بعد أن رحل المحامي، ذهبت ألما التي شعرت بالذهول والشفقة على الذات إلى هانيكي دي غروت. تاقت إلى راحة الشخص الأكثر ألفة الذي تُرك لها في العالم. وجدت مدبرة المنزل العجوز تقف منتصبة داخل الفرن البارد الكبير في المطبخ، تمسك بمقبض مكنسة وتدخلها في المدخنة محاولة إزالة عش سنونو وعليها غطاء من السخام والهباب.

قالت ألما بالهولندية، قاصدة التحية: «أكيد أن شخصاً آخر يمكن أن يفعل هذا لك يا هانيكي. دعيني أعثر على فتاة».

تراجعت هانيكي عن الموقد، وهي تنفخ وتعلوها الأوساخ. قالت: «هل تظنين أنني لم أطلب منهم؟ لكن هل تعتقدين أن هناك شخصاً مسيحياً آخر في المنزل سيدخل عنقه في مدخنة موقد غيري أنا؟».

أحضرت ألما لهانيكي خرقة مبللة كي تمسح وجهها، وجلست المرأتان إلى الطاولة.

سألت هانيكي: «هل غادر المحامي؟».

قالت ألما: «رحل منذ خمس دقائق فقط».

«كان هذا سريعاً».

«كان عملاً بسيطاً».

عبست هانيكي: «إذاً ترك كل شيء لك، أليس كذلك؟».

Twitter: @ketab_n

قالت ألما: «بالفعل»،

«لا شيء لبرودنس».

«لا شيء»، قالت ألما ملاحظة أن هانيكي لم تسأل عن مصالحها الخاصة.

«اللعنة عليه إذاً»، قالت هانيكي، بعد لحظة صمت.

جفلت ألما: «كوني لطيفة يا هانيكي، لم يمض يوم على دفن أبي».

كررت مدبرة المنزل: «اللعنة عليه، كمذنب عنيد، لأنه حرم ابنته الأخرى».

«لن تقبل منه أي شيء بأية طريقة يا هانيكي».

«ليس هذا صحيحاً، يا ألما! إنها جزء من هذه الأسرة، أو يجب أن تكون. إن أمك التي تعرضت للوم كثير كانت تريدها جزءاً من هذه العائلة. أتوقع أن تعتني أنت ببرودنس، إذاً؟».

باغت هذا ألما: «بأية طريقة؟ نادراً ما تريد أختي رؤيتي، وتعيد جميع الهدايا. حتى إذا قدمت لها كعكة تزعم أنها أكثر مما تحتاج إليه. لا تتوقعي أن تسمح لي أن أشاركها في ثروة أبي؟».

«إنها فتاة تبعث على الفخر»، قالت هانيكي، بإعجاب أكثر مما هو بقلق.

رغبت ألما بتغيير الموضوع: «كيف ستكون وايت إيكر الآن، يا هانيكي، بدون أبي؟ لا أتطلّع إلى إدارة العزبة بدون حضوره. أشعر كما لو أن قلباً عظيماً حياً قد انتُزع من هذا المنزل».

قالت هانيكي، كما لو أن ألما لم تتحدث مطلقاً: «لن أسمح لك

Twitter: @ketab_n

بإغفال أختك، ما من مشكلة إن كان هنري مذنباً وغبياً وأنانياً في قبره، لكن أن تتصرفي بالطريقة نفسها في الحياة فهذه هي المشكلة».

غضبت ألما: «جئت إليك يا هانيكي اليوم من أجل الدفء والنصيحة، مع ذلك أنت تهينينني». نهضت كما لو أنها ستغادر المطبخ.

«آه، اجلسي يا طفلتي. لم أقصد إهانتك. أردت أن أقول لك فقط إنك مدينة لأختك بدين مهم، ويجب أن تسددي هذا الدين».

«لست مدينة لأختي بأي شيء».

رفعت هانيكي ذراعيها الأسودين من السخام حتى الآن: «ألا ترين أي شيء يا ألما؟».

«إذا كنت تشيرين يا هانيكي إلى غياب الود بين برودنس وبيني، أحثك ألا تلقي اللوم عليّ فقط. إنها مسؤولة عن الخطأ في جميع التفاصيل مثلي. لم نكن مرتاحين أبداً مع بعضنا وقد صدتني طيلة هذه الأعوام».

«أنا لا أتحدث عن الود بين الأختين. لم تكن شقيقاتي يحببن بعضهن بعضاً. أتحدث عن التضحية. أعرف كل ما حصل في هذا المنزل، يا طفلتي. هل تظنين أنك الوحيدة التي أتت إليّ وهي تبكي؟ هل تعتقدين أنك الوحيدة التي تقرع باب هانيكي حين يطغى الأسى؟ أعرف جميع الأسرار».

محتارةً، حاولت ألما أن تتخيل إن حدث وسقطت شقيقتها الباردة برودنس بين ذراعي مدبرة المنزل وهي تبكي. كلا، لا يمكن تصور ذلك. فبرودنس لم تملك أبداً علاقة ألما الحميمية مع هانيكي. لم تعرف برودنس هانيكي منذ الطفولة، ولا تتحدث الهولندية. فكيف يمكن أن تنشأ الحميمية؟

Twitter: @ketab_n

لكن ألما سألتها: «أية أسرار؟».

أجابت هانيكي: «لماذا لا تسألين برودنس بنفسك؟».

والآن بعد أن أصبحت مدبرة المنزل خجولة بشكل متعمد، كما شعرت ألما، لم تستطع التحمل: «لا أستطيع أن آمرك بأن تخبريني أي شيء يا هانيكي»، قالت ألما منتقلة إلى الإنكليزية. كانت مستاءة جداً بحيث لم تستطع التحدث بالهولندية القديمة المألوفة. «إن أسرارك خاصة بك، إذا اخترت عدم البوح بها، لكنني آمرك بالتوقف عن اللعب معي. إذا كان لديك معلومات عن هذه العائلة تعتقدين أنني يجب أن أطلع عليها، فأتمنى أن تكشفي عنها. لكن إذا كانت رياضتك هي فقط الجلوس هنا والسخرية من جهلي - جهلي بما لا أستطيع أن أعرفه - فإنني إذاً نادمة على مجيئي كي أتحدث معك اليوم. أواجه قرارات مهمة عن الجميع في هذا المنزل، وأشعر بحزن عميق على وفاة والدي. أتولى الكثير من المسؤوليات الآن. لا أملك وقتاً أو جَلَداً كي ألعب ألعاب تخمين معك».

نظرت هانيكي إلى ألما بتمعن، وأشاحت بعينيها قليلاً. حين انتهت ألما من الكلام هزت رأسها، كما لو أنها وافقت على نبرة وفحوى كلماتها.

قالت هانيكي: «حسناً جداً إذاً. هل سبق وسألت نفسك لماذا تزوجت برودنس آرثر ديكسون؟».

قالت ألما: «توقفي عن الحديث في الألغاز يا هانيكي. أحذرك، لا أستطيع تحمل هذا اليوم».

«أنا لا أتحدث ألغازاً، يا طفلتي. أحاول أن أقول لك شيئاً، هل سبق أن تساءلت حول هذا الزواج؟».

Twitter: @ketab_n

«بالطبع تساءلت. من سيتزوج آرثر ديكسون؟».

«من بالفعل؟ هل تعتقدين أن برودنس سبق أن أحبت معلمها؟ لقد شاهدت الاثنين معاً لسنوات، حين عاش هنا وكان يدرّس كلاً منكما. هل سبق ورأيت إشارة حب منها له؟».

فكرت ألما واعترفت: «كلا».

«لأنها لم تحبه. أحبت شخصاً آخر ودوماً فعلت هذا يا ألما، لقد أحبت أختك جورج هوكس».

«جورج هوكس؟»، لم تستطع ألما إلا أن تكرر الاسم. رأت الناشر النباتي فجأة في ذهنها، ليس كما بدا اليوم (كرجل منهك في الستين من عمره، بظهر منحن وزوجة مجنونة) لكن كما بدا منذ ثلاثين سنة حين كانت هي نفسها تحبه (بحضور هائل ومريح، بشعر بني وابتسامة لطف خجولة).

«جورج هوكس؟»، سألت ثانية، بشكل مغفل تماماً.

كررت هانيكي: «أحبت شقيقتك برودنس جورج هوكس. وأضيف لك: لقد أحبها جورج هوكس بالمقابل. أراهن على أنه ما يزال يحبها إلى الآن، حتى هذا اليوم».

لم يبد هذا منطقياً لألما. بدا كما لو أنه قيل لها إن والدها وأمها ليسا والديها الحقيقيين، أو إن اسمها ليس ألما ويتاكر، أو إنها لا تعيش في فيلادلفيا، كما لو أن حقيقة عظيمة وبسيطة قد هُزت.

«لماذا ستحب برودنس جورج هوكس؟»، سألت ألما، وقد كانت مرتبكة جداً بحيث لم تطرح سؤالاً أذكى من هذا.

«لأنه كان لطيفاً معها. هل تعتقدين يا ألما أنها موهبة أن تكوني جميلة كأختك؟ هل تتذكرين كيف بدت في السادسة عشرة من عمرها؟

هل تتذكرين كيف كان الرجال يحدقون إليها؟ العجائز والشبان والمتزوجون، كلهم. لم يكن هناك رجل وضع قدمه في هذه الملكية لم ينظر إلى أختك كما لو أنه يتمنى شراءها لليلة تسلية. كان الأمر بالنسبة لها هكذا منذ أن كانت طفلة. حدث الأمر نفسه مع أمها، لكن أمها كانت أضعف، وباعت نفسها. إلا أن برودنس فتاة محتشمة وجيدة. لماذا برأيك لم تتحدث أختك أبداً حول المائدة؟ هل تعتقدين لأنها كانت غبية جداً بحيث لا رأي لها بأي شيء؟ لماذا تعتقدين أنها جعلت وجهها دوماً دون تعابير؟ هل تظنين أن السبب أنها لم تشعر بأي شيء أبداً؟ كل ما تمنته برودنس، يا ألما، هو أن لا تُرى، لا تستطيعين أن تشعري كيف يكون شعور المرء بهذا، أن يحدق بك جميع الرجال طيلة حياتك كما لو أنك تقفين على منصة الدلال في المزاد العلني».

لم تستطع ألما أن تنكر هذا. ولم تعرف بالتأكيد كيف كان الشعور بهذا.

واصلت هانيكي: «كان جورج هوكس الرجل الوحيد الذي سبق أن نظر إلى أختك بلطف، ليس كشيء، لكن كروح. أنت تعرفين السيد هوكس جيداً يا ألما.ألا تستطيعين أن تشاهدي كيف أن رجلاً كهذا يقدر أن يجعل فتاة شابة تشعر بالأمان؟».

استطاعت أن ترى هذا. فقد جعل جورج هوكس ألما نفسها تشعر بالأمان.

«هل سبق وتساءلت لماذا كان السيد هوكس دوماً هنا في وايت إيكر، يا ألما؟ هل تعتقدين أنه كان يأتي إلى هنا في غالب الأحيان كي يرى والدك؟» لم تضف هانيكي بدافع من الرحمة: «هل تعتقدين أنه كان يأتي غالباً كي يزورك؟» لكن السؤال غير المنطوق علق في الهواء.

«أحب أختك، يا ألما. كان يغازلها، بطريقته الصامتة. فضلاً عن ذلك، لقد أحبته».

قاطعتها ألما: «فيما تواصلين القول من الصعب علي سماع ذلك، يا هانيكي. لقد حدث وأحببت جورج هوكس مرة».

قالت هانيكي: «هل تظنين أنني لم أعرف ذلك؟ بالطبع لقد أحببتيه، يا طفلتي، لأنه كان لبقاً معك! كنت بريئة بما يكفي كي تعترفي بحبك لأختك، هل تظنين أن فتاة شابة مبدئية كبرودنس ستتزوج من جورج هوكس لو كانت تعرف أنك تملكين مشاعر نحوه؟ هل تعتقدين أنها كانت ستفعل هذا معك؟».

سألت ألما مشككة: «هل رغبا بالزواج؟».

«رغبا بالزواج بشكل طبيعي! كانا شابين ويحبان بعضهما! لكنها لن تفعل هذا معك، يا ألما. طلب جورج يدها، بعد وقت قصير من وفاة أمك فرفضته. طلبها ثانية فرفضته مرة ثانية. طلب يدها عدة مرات. لم تكشف عن أسباب رفضها له كي تحميك. حين ألح في الطلب، ذهبت ورمت نفسها على آرثر ديكسون لأنه كان الرجل الأقرب والأسهل للزواج. كانت تعرف ديكسون بما يكفي كي تتبين أنه لن يسبب لها أي أذى، في أية حال. لن يضربها أبداً أو يذلها. كانت تحترمه أيضاً. فقد عرّفها على أفكاره حول إلغاء العبودية، حين كان مدرساً لكما، وأثرت تلك الأفكار في ضميرها بشكل كبير، حتى الآن، وهكذا احترمت السيد ديكسون، لكنها لم تحبه، ولا تحبه اليوم. كانت بحاجة فقط إلى الزواج من شخص ما، أي شخص، كي تزيل نفسها من آمال جورج، آملة، كما يجب أن أخبرك، أن يتزوج جورج منك. كانت تعرف أن جورج مولع بك كصديقة وكانت تأمل أنه يمكن أن يتعلم أن يحبك

Twitter: @ketab_n

كزوجة، ويسعدك. هذا ما فعلته لك أختك برودنس، يا طفلتي. وتقفين أمامي زاعمة أنك لست مدينة لها بشيء».

لم تستطع ألما التحدث لوهلة طويلة.

ثم قالت بغباء: «لكن جورج هوكس تزوج من ريتا».

سألت ألما بصوت ثابت: «إذاً لم يعمل الأمر يا ألما، أليس كذلك؟ أتفهمين هذا؟ لقد تخلت أختك عن الرجل الذي أحبته مقابل لا شيء، لم يتزوجك في النهاية. ذهب وفعل الشيء نفسه الذي فعلته برودنس: رمى نفسه على الشخص التالي الذي مر، فقط كي يتزوج من شخص ما».

حتى أنه لم يفكر بي أبداً، قالت ألما لنفسها. وعلى نحو مخز كانت هذه فكرتها الأولى، قبل أن تبدأ بفهم مدى تضحية أختها.

حتى أنه لم يفكر بي أبداً.

لكن جورج هوكس لم ينظر إلى ألما إلا كزميلة في علم النبات وعالمة مجهر صغيرة جيدة. والآن فهمت كل شيء. لماذا كان سيلاحظ ألما؟ لماذا سيتعرف على ألما كامرأة، حين كانت برودنس الرائعة قريبة؟ لم يعرف جورج أبداً للحظة واحدة أن أن ألما تحبه لكن برودنس عرفت. كانت برودنس تعرف هذا دائماً. ولا بد أن برودنس عرفت، كما أدركت ألما في أسى متصاعد، أنه ليس هناك الكثير من الرجال في العالم الذين يمكن أن يكونوا أزواجاً ملائمين لألما، وربما كان جورج الأمل الأفضل. من ناحية أخرى، تستطيع برودنس الحصول على أي شخص، لا بد أنها نظرت إلى الأمر من هذا المنظور.

إذاً تخلت برودنس عن جورج من أجل ألما، أو حاولت ذلك، بأية حال. لكن كل هذا كان مقابل لاشيء. خسرت أختها الحب فقط كي

Twitter: @ketab_n

تذهب وتعيش حياتها في الفقر والتقشف مع باحث شحيح جداً غير قادر على تقديم الدفء أو العاطفة. لقد تخلت عن الحب كي يذهب جورج هوكس الذكي ويعيش حياته مع زوجة جميلة صغيرة مجنونة لم تقرأ أبداً كتاباً والتي وُضعت في مصح عقلي. خسرت ألما الحب كي تذهب وتعيش حياتها في وحدة مطلقة، مما تركها ضعيفة في منتصف العمر كي تُسحر برجل مثل أمبروس بايك الذي اشمأز من رغبتها، والذي كان يتمنى أن يكون ملاكاً فحسب (وتبين الآن أنه كان يرغب بعشق صبيان تاهيتيين عراة). كانت تضحية برودنس في فترة الشباب بادرة لطف فاشلة! أية سلسلة طويلة من الأحزان سببها هذا للجميع. أي خطأ محزن كان هذا؟ وأية سلسلة عميقة من الأخطاء!

وفكرت ألما: المسكينة برودنس، أخيراً، بعد لحظة صمت طويلة، أضافت في ذهنها: المسكين جورج! ثم: المسكينة ريتا! ثم، من أجل تلك المسألة: المسكين آرثر ديكسون!

مساكين كلهم.

قالت ألما: «إذا كان ما تقولينه صحيحاً يا هانيكي فإنك إذاً تروين حكاية محزنة».

«ما أقوله صحيح».

«لماذا لم تخبريني بهذا من قبل».

هزت هانيكي كتفيها: «من أجل أية غاية؟».

سألت ألما: «ولكن لماذا ستفعل برودنس شيئاً كهذا لي؟ فهي لم تكن تحبني أبداً».

«لا يهم كثيراً رأيها بك. إنها امرأة جيدة، وعاشت حياتها وفق مبادئ جيدة».

Twitter: @ketab_n

«هل شعرت بالشفقة عليَّ يا هانيكي؟ أهذا هو الأمر؟».

«كانت معجبة بك. حاولت دوماً أن تحاكيك».

«هذا هراء، لم تفعل هذا أبداً».

«أنت الشخص المليء بالهراء، يا ألما! لقد أُعجبتْ بك دوماً، يا طفلتي. فكري بما يجب أن تكوني قد بدوت لها، حين جاءت إلى هنا لأول مرة! فكري بكل ما كنت تعرفينه، وبمقدراتك. حاولت دوماً أن تحظى بإعجابك. لم تظهريه أبداً. هل حدث ومدحتيها مرة واحدة؟ هل رأيت مرة واحدة كم عملتْ باجتهاد كي تضاهيك في دراساتها؟ هل حدث وأبديت إعجابك بمواهبها، أم قمت بازدرائها بأنها أقل قيمة من مواهبك؟ كيف حدث وبقيت عمياء بشكل عنيد حيال مواصفاتها المثيرة للإعجاب؟».

«لم أفهم أبداً مواصفاتها المثيرة للإعجاب».

«كلا، يا ألما، لم تؤمني بها أبداً. اعترفي بالأمر. تعتقدين أن طيبتها وضيعة. تعتقدين أنها دجالة».

«كان الأمر فقط هي أنها كانت قناعاً...»، تمتمت ألما، مصارعة كي تعثر على أرضية تدافع عن نفسها على أساسها.

«فعلاً، لأنها تفضل ألا تُرى أو تُعرف. لكنني أعرفها، وأقول لك إنه خلف ذلك القناع يوجد المرأة الأفضل والأكثر كرماً والأكثر إثارة للإعجاب. كيف لا ترين هذا؟ ألا ترين كم هي جديرة بالثناء من أجل هذا كل يوم، كم هي مخلصة في أعمالها الجيدة؟ ما الذي تحتاج إلى فعله أكثر من ذلك يا ألما كي تفوز باحترامك؟ لكنك لم تمدحيها أبداً، والآن تنوين أن ترفضي أختك بشكل كامل، دون أثر استياء، بما أنك

Twitter: @ketab_n

ترثين كهفاً خاصاً من الثروات من والدك العجوز الأحمق، الرجل الذي كان أعمى مثلك دوماً حيال معاناة وتضحية الآخرين».

«انتبهي، يا هانيكي»، حذرتها ألما، وهي تحاول أن تصد حزناً يندفع كالمد.

«لقد سببت لي صدمة كبيرة، والآن تهاجمينني، فيما ما أزال في حالة ذهول. لهذا أتوسل إليك يا هانيكي كوني حذرة معي اليوم».

أجابت مدبرة المنزل العجوز، دون أن تلين إنشاً واحداً: «لكن الجميع كانوا حذرين معك سابقاً يا ألما، ربما كانوا حذرين معك لوقت طويل».

* * *

مرتجفة، هربت ألما إلى مكتبها في منزل العربات. جلست على الأريكة الرثة في الزاوية، غير قادرة على تحمل وزنها بعد الآن على قدميها. كان نفسها ضيّقاً وسريعاً. شعرت كأنها غريبة بالنسبة لنفسها. البوصلة في داخلها، تلك التي وجهتها دوماً إلى أبسط حقائق عالمها، دارت بشكل وحشي، بحثاً عن نقطة آمنة كي تستقر عليها، لكنها لم تعثر على أي شيء.

ماتت أمها، مات والدها. زوجها، مهما كان أو لم يكن، مات. دمرت شقيقتها برودنس حياتها من أجل ألما، دون أن يستفيد أحد مطلقاً. جورج هوكس مأساة حقيقية. ريتا سنو كارثة صغيرة مدمرة وممزقة. وبدا الآن كأن هانيكي دي غروت، آخر شخص حي تحبه ألما وتعجب به، لا تملك احتراماً لها من أي نوع. وينبغي ألا تملك.

جالسة في مكتبها، أجبرت ألما نفسها أخيراً على القيام بحساب صادق لحياتها. كانت امرأة في الواحد والخمسين من عمرها، وصحيحة

Twitter: @ketab_n

الذهن والجسد، وقوية كبغل، ومتعلمة كيسوعي، وغنية كأي ند في هذا المجال. لم تكن جميلة، لكنها ما تزال تملك معظم أسنانها ولم تصب بمرض جسدي واحد. ما الذي ستشكو منه؟ لقد غُمرت بالترف منذ ولادتها. كانت دون زوج، هذا صحيح، لكن أيضاً ليس لديها أولاد، أو والدان الآن يتطلبان رعايتها. كانت كفؤاً وذكية ومجتهدة و(اعتقدت دوماً رغم أنها لم تكن متأكدة) شجاعة. اطلعت على الأفكار العلمية والاختراعات الأكثر جرأة التي قدمها القرن، وقابلت في غرفة طعامها الخاصة، بعض أذكى الأذهان في زمنها. وكانت تملك مكتبة ستجعل شخصاً من آل مديتشي يبكي من الطمع، وقد قرأت في هذه المكتبة عدة مرات.

بكل هذا التعلم والامتيازات، ما الذي صنعته ألما من حياتها؟ كانت مؤلفة كتابين غامضين عن علم النباتات اللاوعائية لم يهتم العالم بهما كثيراً، وكانت تعمل الآن على كتاب ثالث. لم تمنح لحظة من نفسها أبداً لتحسين أي شخص آخر، باستثناء والدها الأناني. كانت عذراء وأرملة ويتيمة ووريثة سيد عجوز ومغفل كبير.

اعتقدت أنها تعرف الكثير بيد أنها لم تكن تعرف أي شيء.

لم تكن تعرف أي شيء عن أختها.

لم تكن تعرف أي شيء عن التضحية.

لم تكن تعرف أي شيء عن الرجل الذي تزوجته.

كانت تجهل القوى اللامرئية التي أملت حياتها.

فكرت بنفسها دوماً كامرأة تمتلك كرامة ومعرفة دنيوية، لكنها كانت في الحقيقة أميرة سيئة الطبع ومكتهلة. كانت مكتهلة لا شابة. لم تجازف

Twitter: @ketab_n

بأي شيء له قيمة، ولم تسافر أبداً بعيداً عن فيلادلفيا إلا إلى مستشفى للمجانين في ترينتون، بنيوجيرسي.

كان يجب أن تكون مواجهة هذا الجرد المؤسف غير قابلة للاحتمال، لكن، ولسبب ما، لم تكن. في لحظة حقيقة غريبة، شكّلتْ راحة. تباطَأ نَفَس ألما. أدارت بوصلتها نفسها. جلست هادئة ويداها في حضنها. لم تتحرك. تركت نفسها تتشرب كل هذه الحقائق الجديدة، ولم تجفل من أي منها.

* * *

في صباح اليوم التالي ذهبت ألما لوحدها على ظهر حصانها إلى مكتب محامي والدها، وأمضت هناك الساعات التسع التالية جالسة مع ذلك الرجل إلى طاولته، تعد الأوراق وتنفذ بنوداً وتتخطى اعتراضات. لم يوافق المحامي على أي شيء كانت تفعله. لم تصغ لكلمة واحدة تفوه بها. هز رأسه العجوز الأصفر إلى أن اهتز الجزء السفلي من ذقنه، لكنه لم يثنها على الأقل. فقد كانت القرارات خاصة بها، كما كان الاثنان يعرفان جيداً.

بعد أن أتمت هذا العمل، ركبت حصانها إلى الشارع ٣٩، حيث منزل أختها. كان قد خيم المساء، وكانت عائلة ديكسون تنهي عشاءها.

قالت ألما لبرودنس، التي لم تُظهر أنها تفاجأت من زيارة ألما المفاجئة: «هيا لنقم بنزهة معاً».

سارت المرأتان في شارع تشيسنت، متشابكتي الذراعين بلباقة.

قالت: «كما تعرفين، لقد توفي والدنا».

قالت برودنس: «نعم».

«أشكرك على رسالة التعزية».

Twitter: @ketab_n

«على الرحب والسعة»، قالت برودنس.

لم تحضر برودنس الجنازة. ولم يتوقع أحد حضورها.

تابعت ألما: «أمضيت اليوم مع محامي والدنا. كنا نراجع الوصية. وجدتها مليئة بالمفاجآت».

اعترضت برودنس: «قبل أن تكملي أود أن أخبرك أنني لا أستطيع بضمير مرتاح أن أقبل أية نقود من أبينا المتوفى. كان هناك صدع بيننا ولم أكن قادرة أو راغبة بإصلاحه، ولن يكون عملاً أخلاقياً أن أستفيد من سخائه بعد موته».

«لا داعي للقلق»، قالت ألما، بعد أن توقفت واستدارت كي تنظر إلى أختها بشكل مباشر. «لم يترك لك أي شيء».

لم تصدر برودنس، التي تسيطر على نفسها كما دوماً، أي رد فعل. قالت فقط: «إذاً الأمر بسيط».

قالت ألما وهي تمسك يد أختها: «كلا يا برودنس. هذا ليس بسيطاً. ما فعله والدي كان مفاجئاً في الحقيقة، وأتوسل إليك أن تصغي جيداً. لقد ترك كل وايت إيكر، مع كل ثروته، لجمعية إلغاء العبودية في فيلادلفيا».

لم يصدر عن برودنس رد فعل ولم تستجب.تعجبت ألما من قوتها ورغبت تقريباً بأن تنحني إعجاباً لتحفظ أختها الكبير. ستكون بياتريكس فخورة.

تابعت ألما: «لكن هناك شرطاً إضافياً مكتوباً في الوصية. قال إنه سيترك العزبة لجمعية إلغاء العبودية بشرط واحد وهو أن يصبح المنزل في وايت إيكر مدرسة للأطفال الزنوج وأن تديريها أنت يا برودنس».

حدقت برودنس بألما بشكل ثاقب، كما لو أنها تبحث عن دليل

Twitter: @ketab_n

خداع في وجهها. لم تزعج ألما نفسها في ترتيب ملامحها في تعبير من الحقيقة، لأن هذا كان ما قالته الوثائق، أو على الأقل، كان هذا ما قالته الوثائق الآن.

تابعت ألما: «ترك رسالة شرح طويلة أستطيع تلخيصها لك. قال إنه شعر أنه فعل خيراً قليلاً في حياته، رغم أنه ازدهر كثيراً. شعر أنه لم يقدم للعالم شيئاً له قيمة مقابل ثروته الهائلة. وشعر أنك ستكونين الشخص الأفضل لجعل وايت إيكر تصبح في المستقبل موضعاً للطف البشري».

«هل كتب هذه الكلمات؟»، سألت برودنس، حذرة كما على الدوام. «هذه الكلمات نفسها يا ألما؟ والدنا، هنري ويتاكر، أشار إلى موضع لطف بشري؟».

ألحت ألما: «هذه الكلمات نفسها. إن الأفعال والتوجيهات وُضعت من قبل. إذا لم تقبلي هذه الشروط، إذا لم تنتقلي إلى وايت إيكر مع عائلتك وتشرفي على المدرسة هناك، التي تمناها والدنا، حينها كل النقود والملكية تذهب إلينا كلينا، وسيكون علينا أن نبيعها كلها أو نقسمها بطريقة ما. وكون الحالة هكذا، سيكون من المؤسف عدم احترام رغباته».

فتشت برودنس وجه ألما ثانية وقالت أخيراً: «لا أصدقك».

قالت ألما: «لا تحتاجين إلى تصديقي. لكن هذا هو الأمر. ستبقى هانيكي كي تدير المنزل وتساعدك في إدارة وايت إيكر. ترك والدنا لهانيكي هبة كريمة جداً، لكنني أعرف أنها سترغب بالبقاء ومساعدتك. إنها معجبة بك، وتحب أن تبقى مفيدة. سيبقى الحدائقيون ومنسقو الحدائق لصيانة الملكية. ستبقى المكتبة سليمة من أجل فائدة الطلاب.

سيواصل ديك يانسي إدارة مصالح والدنا وراء البحار، وسيأخذ حصة آل ويتاكر من شركة الأدوية، فيما ستتدفق الأرباح كلها على المدرسة، وتموّل رواتب العمال، وقضايا إلغاء العبودية».

لم تجب برودنس.

واصلت ألما: «لكن هناك شرطاً واحداً فحسب. وضع والدنا جانباً مبلغاً كريماً للدفع لنفقات صديقتنا ريتا في مصح غريفون للأمراض العقلية لبقية حياتها، بحيث لا يعاني جورج هوكس من عبء رعايتها».

بدت برودنس الآن وكأنها تفقد السيطرة على شيء ما في وجهها. تبللت عيناها، كما يدها، المتشابكة بيد ألما.

قالت برودنس: «لا يوجد شيء تستطيعين قوله سيقنعني أن والدنا تمنى أياً من هذه الأمور».

لم تتراجع ألما: «لا تتركي الأمر يفاجئك هكذا. تعرفين أنه كان رجلاً لا يمكن التنبؤ به. وسترين يا برودنس أوراق الملكية وشروط النقل وكلها واضحة وقانونية».

«أعرف جيداً يا ألما أنك تملكين الموهبة لوضع أوراق قانونية واضحة».

«لكنك تعرفينني منذ وقت طويل يا برودنس.هل سبق وفعلتُ شيئاً في الحياة خارج ما سمح لي والدي بفعله، أو وجّهني كي أفعله؟ فكري بالأمر يا برودنس! هل سبق وفكرت؟».

أشاحت برودنس بصرها بعيداً. ثم فقدت السيطرة على وجهها، تشظى تحفظها في النهاية، وأجهشت بالبكاء. ضمت ألما أختها ـ أختها الفائقة للعادة والشجاعة وغير المعروفة كثيراً ـ بين ذراعيها، ووقفت المرأتان لوقت طويل، تتعانقان في صمت، فيما كانت برودنس تبكي.

Twitter: @ketab_n

أخيراً، سحبت برودنس نفسها ومسحت دموعها. «وما الذي تركه لك يا ألما؟»، سألت وصوتها يرتجف .

«ما الذي تركه ذلك الأب الأكثر كرماً لك، في سياق هذا الإحسان غير المتوقع؟».

«لا تزعجي نفسك بهذا الآن، يا برودنس.أملك أكثر مما أحتاج إليه بكثير».

«لكن ما الذي تركه لك بالضبط؟ يجب أن تخبريني؟».

قالت ألما: «بعض المال، ومنزل العربات، وكل مقتنياتي في داخله».

«هل تنوين الحياة إلى الأبد في منزل العربات؟»، سألت برودنس، مرتبكة ومشوشة، ممسكة ثانية بيد ألما.

«كلا يا عزيزتي. لن أعيش في أي مكان قرب وايت إيكر. سيصبح المكان كله تحت رعايتك الآن. لكن كتبي ومقتنياتي ستظل في منزل العربات، بينما سأسافر لفترة. في النهاية سأستقر في مكان ما، ثم سأرسل في طلب كل ما أحتاج إليه».

«لكن إلى أين أنت ذاهبة؟».

لم تستطع ألما مقاومة الضحك. قالت: «آه يا برودنس، لو أخبرتك لظننتِ بأن بي مسّاً من الجنون».

Twitter: @ketab_n

الجزء الرابع

أهمية البعثات

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الواحد والعشرون

أبحرت ألما إلى تاهيتي في اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، ١٨٥١.

كان القصر الكريستالي قد بُني لتوه في لندن من أجل المعرض الكبير. ونُصب بندول فوكو في مرصد باريس. وكان أول رجل أبيض قد أبصر وادي يوسمايت الجليدي. وكان كبل برقيات يُمَدُّ تحت سطح المحيط الأطلسي. وتوفي جون جيمس أودوبون من كبر السن؛ وفاز رتشارد أوين بوسام كوبلي عن عمله في علم المستحاثات؛ وكانت كلية طب الإناث في فيلادلفيا على وشك تخريج صفها الأول من ثماني طبيبات نساء؛ أما ألما ويتاكر، التي كانت في الواحد والخمسين من عمرها، فقد كانت على ظهر سفينة لصيد الحيتان متوجهة إلى البحار الجنوبية.

أبحرت دون خادمة أو صديق أو دليل. بكت هانيكي دي غروت على عنق ألما حين سمعت أنباء رحيلها، لكنها تمالكت نفسها بسرعة واشترت لألما مجموعة من الثياب العملية، وفستانين متواضعين خاصين بالسفر من الكتان والصوف بأزرار مدعمة (لا يختلفان كثيراً عما ترتديه هانيكي دوماً)، تستطيع أن تعتني بهما ألما دون مساعدة. وبعد أن لبست بهذه الطريقة صارت ألما تشبه خادمة، لكنها كانت مرتاحة جداً، واستطاعت التحرك بسهولة. تساءلت لماذا لم تلبس بهذه الطريقة طيلة

Twitter: @ketab_n

حياتها. حالما أُنجز فستانا السفر، طلبت ألما من هانيكي أن تخيط جيوباً سرية في حواشيهما، استخدمتها ألما كي تخفي النقود الذهبية والفضية التي ستحتاجها للدفع من أجل أسفارها. كانت هذه النقود تشكل قسماً كبيراً من ثروة ألما المتبقية في العالم. لم تكن تشكل ثروة بالمعنى الحقيقي للكلمة، لكنها كافية، كما ظنت ألما، كي تعين مسافراً مقتصداً لسنتين أو ثلاث.

«كنت لطيفة معي دوماً»، قالت ألما لهانيكي، حين قدمت لها الفستانين.

أجابت هانيكي: «سأشتاق إليك، وسأبكي ثانية حين ترحلين، لكن لنعترف بالأمر يا طفلتي، كلانا كبير جداً في السن بحيث لن نخاف من تغيرات كبيرة في الحياة».

قدمت برودنس لألما سواراً كتذكار، مضفوراً من خيوط من شعر برودنس (الذي لا يزال شاحباً وجميلاً كالسكّر) مع خيوط من شعر هانيكي (الشائب كالمعدن المصقول). عقدت برودنس بنفسها السوار على رسغ ألما، ووعدت ألما بأن لا تخلعه أبداً.

«لا أستطع تخيل هدية أثمن من هذه»، قالت ألما، وعنت ذلك.

على الفور، بعد اتخاذ قرارها بالسفر إلى تاهيتي، كتبت ألما رسالة إلى المبشر في خليج ماتافاي، القس فرانسيس ويليس، أخبرته فيها بأنها قادمة لفترة غير محددة من الوقت. كانت تعرف أنها يمكن أن تصل إلى بابيتي قبل وصول رسالتها، لكن لم يكن في اليد حيلة. كان يجب أن تبحر قبل بداية الشتاء. ولم ترد أن تنتظر طويلاً بحيث تغير رأيها. كانت تأمل فحسب أنها حين تصل إلى تاهيتي، سيكون لديها مكان تمكث فيه.

Twitter: @ketab_n

استغرق حزم حقائبها ثلاثة أسابيع. كانت تعرف بدقة ما ستأخذه معها، بما أنها وجّهتْ جامعي النباتات لعقود حول موضوع السفر الآمن والمفيد. وهكذا حزمت صابوناً زرنيخياً وشمع إسكافي وقنباً وكافوراً وملقطاً وفليناً وعلباً للحشرات ومكبس نباتات وعدة حقائب مطاطية هندية مضادة للماء ودزينتين من أقلام الرصاص القوية وثلاث زجاجات من الحبر الهندي وصفيحة من الأصباغ المائية وفراشي ودبابيس وشباكاً وعدسات ومعجوناً وسلكاً نحاسياً ومشارط صغيرة وملابس داخلية من الفلانيل وخيوطاً حريرية وطقم مواد طبية، و٢٥ ماعوناً من الورق (نشاف وللكتابة وبني عادي). وفكرت بإحضار مسدس، لكنها لم تكن خبيرة باستخدامه، وقررت أن مشرطاً سينفع من مسافة قريبة.

سمعت صوت أبيها وهي تستعد، متذكرة كل الأوقات التي كان يملي عليها فيها، وسمعته كثيراً يرشد جامعي النبات الشبان. سمعت هنري وهو يقول: *كن متيقظاً ومراقباً، كن متأكداً أنك لست العضو الوحيد في فريقك الذي يستطيع أن يكتب أو يقرأ رسالة. إذا أردتَ العثور على الماء اتبعْ كلباً. إذا كنت جائعاً كُلْ الحشرات قبل أن تفقد طاقتك في الصيد. أي شيء يستطيع أن يأكله طائر، تستطيع أن تأكله. إن أكبر أخطار تواجهك ليست الأفاعي والأسود أو أكلة لحوم البشر؛ إن الأخطار الأكبر هي أقدام متقيحة واللامبالاة والتعب. تأكد من كتابة يومياتك وخرائطك بشكل واضح؛ إذا مت قد يكون لملاحظاتك بعض الفائدة لمستكشف مستقبلي. وفي حالة الطوارئ يمكن أن تكتب دوماً بالدم.*

كانت ألما تعرف أنها يجب أن تلبس ألواناً خفيفة في المناطق المدارية كي تبقى باردة. وتعرف أن سائل الصابون الذي يوضع على النسيج ويجفف في الليل يجعل الملابس صادة للماء بشكل كامل، وأنها

Twitter: @ketab_n

يجب أن تلبس ملابس داخلية قطنية. تعرف أنه سيُقدِّر فعلها لو أخذت هدايا للمبشرين (صحف حديثة وبذور خضار ولحاء كينا وفؤوس يدوية وزجاجات) وللمحليين (قماش قطني وأزرار ومرايا وشرائط). حزمت مجهراً تحبه ـ أخفّ المجاهر لديها ـ رغم أنها خشيت كثيراً من أن تخربه الرحلة. حزمت ميقاتاً جديداً لامعاً وميزان حرارة صغيراً للسفر.

وضعت كل هذه الأشياء في صناديق وعلب خشبية (ووضعت تحتها طحالب جافة) ثم جمعتها في هرم صغير خارج منزل العربات. شعرت ألما بالذعر حين شاهدت الأمور الجوهرية في حياتها مختزلة إلى كومة صغيرة. كيف تستطيع أن تحيا بالقليل هكذا؟ ما الذي ستفعله دون مكتبتها؟ دون مجموعتها النباتية؟ كيف سيكون شعور الانتظار أحياناً ستة أشهر من أجل أنباء الأسرة أو العلم؟ ماذا لو غرقت السفينة، وضاعت هذه الأشياء الضرورية؟ شعرت بتعاطف مفاجئ مع جميع الشبان المقدامين الذين أرسلهم آل ويتاكر في رحلات جمع للنباتات في الماضي، بسبب الخوف واللايقين اللذين لا بد أنهم شعروا بهما، حتى ولو ادعوا أنهم امتلكوا الثقة. لم يُسمع أبداً مرة ثانية من بعض أولئك الشبان.

أثناء تحضيراتها وحزمها حرصت ألما أن تمنح نفسها مظهر عالم نباتات مسافراً، لكن الحقيقة هي أنها ليست ذاهبة إلى تاهيتي كي تبحث عن النباتات. كان دافعها الفعلي شيئاً واحداً مخبأ في قاع أحد الصناديق الأكبر: حقيبة أمبروس الجلدية، المحزومة بأمان، والمليئة بصور الفتى التاهيتي العاري. صممت أن تبحث عن هذا الفتى (الذي صارت تشير إليه في ذهنها بالصبي) وكانت متأكدة من أنها قادرة على العثور عليه. صممت أن تبحث عن الفتى في جزيرة تاهيتي كلها إذا اقتضى الأمر، وتبحث عنه كما تبحث عن النباتات، كما لو أنه عينة نادرة من نباتات

السحلبية. ستتعرف عليه حالما تشاهده، وهي واثقة من ذلك. ستظل تعرف هذا الوجه حتى نهاية أيامها. كان أمبروس فناناً متألقاً، في النهاية، والملامح مرسومة بشكل دقيق. بدا الأمر وكأن أمبروس ترك لها خريطة، وهي الآن تتبعها.

لم تعرف ما الذي ستفعله بالفتى حالما تعثر عليه. لكنها ستعثر عليه.

* * *

استقلّتْ ألما القطار إلى بوسطن، وأمضت ثلاث ليال في فندق ميناء رخيص (تفوح منه رائحة الجن والتبغ وتعرّق الضيوف السابقين) ثم ركبت السفينة من هناك. كان اسم سفينتها إليوت، وهي سفينة لصيد الحيتان يبلغ طولها ١٢٠ قدماً، وعريضة وقوية كفرس مكتهلة، وكانت هذه رحلتها الثانية عشرة إلى جزر الماركيساس منذ أن بُنيت. وافق القبطان، مقابل أجر جيد أن يبحر ٨٥٠ ميلاً خارج مساره كي يوصل ألما إلى تاهيتي.

كان القبطان الذي أمّن لألما مكانها على ظهر السفينة هو السيد تيرينس من نانتيكيت، وكان بحاراً أحبه ديك يانسي كثيراً. كان السيد تيرينس قبطاناً متمرّساً وقوياً كما قال يانسي، ويفرض النظام على رجاله أكثر من معظم القباطنة. وكان تيرينس معروفاً أكثر لكونه جسوراً أكثر من كونه حريصاً (كان مشهوراً في رفع أشرعته في العاصفة، بدلاً من نزعها، آملاً الحصول على السرعة من الرياح العنيفة)، لكنه كان رجلاً متديناً ورصيناً، يسعى إلى سلوك أخلاقي أرفع في البحر. وثق به ديك يانسي وأبحر معه مرات كثيرة. وكان ديك يانسي، المستعجل دوماً، يفضل قباطنة يبحرون بسرعة ودون خوف، وتيرينس من هذا النوع.

لم تركب ألما السفينة من قبل، لكنها صعدت إلى سفن كثيرة، حين

ذهبت مع والدها إلى أحواض مرفأ فيلادلفيا كي يفحصا الحمولة القادمة، لكنها لم تبحر أبداً على ظهر سفينة من قبل. وحين خرجت سفينة إيليوت من مزلقها، كانت تقف على ظهرها وقلبها يقرع كالطبل كما لو أنه سيخرج منفجراً من صدرها. راقبت حين كانت الركائز الأخيرة لحوض السفينة أمامها، ثم صارت فجأة، وبسرعة آسرة، خلفها. ثم انطلقوا عبر مرفأ بوسطن الكبير، وثمة زوارق صيد أصغر تتمايل في أعقابهم. وحين اقترب بعد الظهر، كانت ألما في المحيط المفتوح للمرة الأولى في حياتها.

«سأقدّمُ لك جميع الخدمات التي أقدر عليها كي أجعلك مرتاحة في هذه الرحلة»، أقسم القبطان تيرينس لألما حين صعدت إلى ظهر السفينة. قدرت اهتمامه، لكن تبين لها في الحال أنه لا يوجد الكثير مما هو مريح في الرحلة. ذلك أن مكان مبيتها، الذي يلي القاعة الفاخرة للقبطان، صغير ومظلم، وتفوح منه رائحة الصرف الصحي. وكانت تفوح من ماء الشرب رائحة المستنقع. وكانت السفينة تنقل حمولة من البغال إلى نيو أورليانز، والحيوانات لا تتوقف عن النهيق. وكان الطعام غير مستساغ لكن لا مفر من تناوله (اللفت والبسكويت المالح للفطور؛ لحم البقر المجفف والبصل للعشاء). وكان الطقس، في أفضل حالاته، مسألة غير مؤكدة. وفي الأسابيع الثلاثة الأولى من الرحلة لم تشاهد الشمس مرة واحدة. على الفور، تعرضت سفينة إيليوت للعواصف التي حطمت الآنية الفخارية وأوقعت البحارة بسرعة لافتة. اضطرت أحياناً أن تربط نفسها إلى طاولة القبطان كي تأكل لحمها المجفف وبصلها بأمان. كانت تأكله بشجاعة، ودون شكوى.

لم يكن هناك امرأة أخرى على ظهر السفينة أو رجل متعلم. وكان البحارة يلعبون الورق حتى وقت طويل من الليل، ويضحكون

Twitter: @ketab_n

ويصيحون ويبقونها مستيقظة. وكان الرجال أحياناً يرقصون على ظهر السفينة كأرواح ممسوسة، إلى أن هدد القبطان تيرينس بكسر كماناتهم إذا لم يتوقفوا. كانوا جميعاً من النوع الفظ، على ظهر السفينة إليوت. أمسك أحد البحارة باشقاً على ساحل نورث كارولاينا، قطع جناحيه، وراقبه وهو يقفز عبر ظهر السفينة، من أجل الرياضة. اعتبرت ألما هذا عملاً بربرياً، لكنها لم تقل أي شيء. في اليوم التالي، قام البحارة الضجرون والملتهون بتمثيل زفاف بين بغلين، زينوا الحيوانين بباقات ورقية احتفالية من أجل المناسبة. كان هناك فوضى رائعة من الصياح والصراخ. سمح القبطان بإتمام الزفاف؛ لم ير أي أذى فيه (اعتقدت ألما أن السبب هو لأنه زفاف مسيحي). لم تر ألما أبداً في حياتها من قبل تصرفات كهذه.

لم يكن هناك أحد تتحدث معه ألما عن أمور جدية، وهكذا قررت التوقف عن التحدث عن قضايا جدية. صممت أن تكون مرحة وأن تجري محادثات بسيطة مع الجميع. أقسمت ألا تصنع أعداء. وبما أنهم سيبحرون معاً في الأشهر الخمسة أو السبعة القادمة، فقد بدت هذه استراتيجية معقولة. سمحت لنفسها بأن تضحك من الدعابات طالما أن الرجال لم يكونوا خشنين جداً. ولم تقلق من التعرض للأذى؛ لن يسمح القبطان تيرينس بذلك، ولم يظهر الرجال أي فحش إزاء ألما. (لم يفاجئها هذا. إذا لم يكن الرجال مهتمين بألما في التاسعة عشرة من عمرها، فمن الأكيد أنه لن يلاحظها أحد في الواحد والخمسين.

كان رفيقها الأقرب القرد الصغير الذي يحتفظ به القبطان تيرينس. وكان اسمه «ليتل نيك»، يجلس مع ألما لساعات، يداعبها بلطف، باحثاً دوماً عن أشياء جديدة وغريبة. وكان له ميل أكثر ذكاء وغرابة. سُحرَ القرد بالسوار المنسوج من الشعر الذي ترتديه ألما حول رسغها أكثر من

أي شيء آخر. لم يستطع تجاوز حيرته من أنه ليس هناك سوار مشابه حول رسغها الآخر رغم أنه يفحص كل صباح كي يرى إن نما سوار هناك في الليل. ثم يتنهد ويخص ألما بنظرة مستسلمة، كأنه يقول: «لماذا لا تستطيعين أن تكوني متناسقة مرة واحدة؟». مع مرور الزمن، تعلمت ألما أن تتقاسم سعوطها مع «ليتل نيك». كان يضع قطعة منه في أحد منخريه، يعطس منظّفاً ثم ينام في حضنها. لم تكن تعرف ما الذي ستفعله لولا رفقته.

داروا حول قمة فلوريدا وتوقفوا في نيوأورليانز كي ينزلوا البغال. لم يحزن أحد وهو يرى البغال ترحل. في نيوأورليانز شاهدت ألما الضباب الفائق للعادة فوق بحيرة بونتشارترين. شاهدت حزماً من القطن وبراميل من قصب السكر مكومة على رصيف المرفأ، تنتظر الشحن. شاهدت قوارب بخارية مصطفة في صفوف، بعيدة قدر ما تستطيع العين أن ترى، تنتظر أن تجدف في نهر المسيسيبي. استفادت من فرنسيتها جيداً في نيوأورليانز رغم أن اللكنة كانت مربكة. أعجبتها المنازل الصغيرة بحدائقها من أصداف البحر والشجيرات المقلّمة، وأذهلتها النساء بأزيائهنّ المتقنة. تمنت لو أنها تملك المزيد من الوقت للاستقصاء، لكنها أمرت في الحال بالعودة إلى ظهر السفينة.

أبحروا جنوباً على طول ساحل المكسيك. انتشرت الحمى في السفينة. بالكاد نجا منها أحد. كان هناك طبيب على ظهر السفينة لكنه بلا فائدة، وهكذا وجدت ألما نفسها في الحال توزع العلاجات من مخبأها من المطهرات الثمينة والمقيّئات. لم تفكر بنفسها كممرضة، لكنها صيدلانية متمكنة وقد ربحت بسبب مساعدتها مجموعة صغيرة من المعجبين.

Twitter: @ketab_n

في الحال مرضت ألما، وأُجبرت على البقاء في مضجعها. جعلتها الحمى ترى أحلاماً بعيدة وكوابيس مخيفة. لم تستطع أن تبقي يديها بعيدتين عن عضوها، واستيقظت في نوبات مفاجئة من الألم والمتعة. حلمت بأمبروس باستمرار. بذلت جهداً بطولياً كي لا تفكر به، لكن الحمى أضعفت حصن ذهنها، ودخلت ذكراه إليه بالقوة لكنها كانت مشوهة بشكل رهيب. شاهدته في أحلامها في حوض الاستحمام، كما رأته عارياً في ذلك الأصيل، لكن الآن جميل ومنتعظ، وابتسم لها بشبق فيما كان يلح عليها إلى أن اختنقت لاهثة. وفي أحلام أخرى راقبت أمبروس وهو في الحوض واستيقظت مذعورة شاعرة بأنها متأكدة من أنها قتلته. سمعت صوته في إحدى الليالي وهو يهمس: «وهكذا الآن أنت الطفلة وأنا الأم»، واستيقظت صارخة، وذراعاها يلوحان. لكن لم يكن هناك أحد. كان صوته باللغة الألمانية. لماذا كان بالألمانية؟ ماذا يعني هذا؟ استلقت مستيقظة بقية الليل، تصارع كي تستوعب كلمة أم (Mutter) بالألمانية وهي كلمة تعني أيضاً «المصهر». لم تفهم الحلم، لكنها شعرت به على نحو ثقيل كلعنة.

انتابتها أفكارها الأولى عن الندم على القيام بهذه الرحلة.

في اليوم الذي أعقب عيد الميلاد، توفي أحد البحارة من الحمى. لُفَّ بقماش الشراع، ورُبط بقذيفة مدفع، وأُنزل بهدوء إلى البحر. تعامل الرجال مع موته دون أدنى إشارة واضحة على الحزن، وباعوا مقتنياته فيما بينهم في مزاد علني. في المساء، بدا كما لو أن الرجل لم يوجد أبداً. تخيلت ألما مقتنياتها تُباع في المزاد بين هؤلاء الأشخاص. ما الذي سيفعلونه برسومات أمبروس؟ من يعرف؟ ربما سيكون هذا الكنز من الحسية السدومية قيّماً لبعض هؤلاء الرجال. كان جميع أنماط الرجال يعملون في الملاحة. وكانت ألما تعرف أن هذا صحيح.

Twitter: @ketab_n

شفيت ألما من مرضها. قادتهم ريح مواتية إلى ريو دي جانيرو، حيث شاهدت ألما سفن العبيد البرتغالية متجهة شمالاً نحو كوبا. شاهدت شواطئ جميلة، حيث جازف الصيادون بحياتهم على معديات لم تبد أكثر متانة من سقوف حظائر الدجاج. شاهدت أشجار النخيل الكبيرة التي تبدو كالمراوح، أكبر من أية أشجار في البيوت الزجاجية لوايت إيكر، وتمنت إلى درجة الألم، لو كان بوسعها أن تريها لأمبروس. لم تستطع أن تلغيه من أفكارها. تساءلت إن سبق وشاهد أشجار النخيل هذه، أيضاً، حين مرّ من هنا.

واصلت إشغال ذهنها بنزهات لا تعرف الكلل من الاستكشاف. شاهدت نساء لا يرتدين قلنسوات، ويدخنَّ السيجار وهن يسرْن في الشارع. شاهدت لاجئين وتجاراً وكريوليين قذرين وزنوجاً متملقين وأنصاف متوحشين وأشخاصاً ربعهم أسود. وشاهدت رجالاً يبيعون الببغاوات والسحليات مقابل الطعام. وأكلت ألما البرتقال والليمون. وتناولت ثمار مانغو كثيرة، متقاسمة بعضها مع «ليتل نيك»، فأصيبت بطفح جلدي. وشاهدت سباقات الأحصنة وتسليات الرقص. ومكثت في فندق يديره زوجان من سلالات مختلطة، وكان هذا أول شيء تراه من هذا القبيل. (كانت المرأة زنجية لطيفة وكفؤاً. لم تكن تفعل أي شيء ببطء؛ فيما كان الرجل أبيض وكبير السن، ولم يكن يفعل أي شيء مطلقاً). لم يمر يوم واحد لم تر فيه رجالاً يسوقون العبيد في شوارع ريو عارضين تلك الكائنات المصفدة للبيع. لم تستطع ألما تحمّل المنظر. أمرضها المنظر وأشعرها بالعار من كل تلك الأعوام التي أمضتها دون أن تلاحظ هذا الشيء الذي يولّد الاشمئزاز.

حين عادوا إلى ظهر السفينة، توجهوا إلى كيب هورن. وحين اقتربوا من الكيب، صار الطقس قاسياً على غير المعهود بحيث أن ألما، التي

Twitter: @ketab_n

ترتدي طبقات عدة من الملابس الداخلية والصوفية، أضافت معطفاً رجالياً واستعارت قبعة روسية. وبعد أن لبست هكذا صارت غير قابلة للتمييز عن أي شخص على ظهر السفينة. رأت جبال تييرا ديل فويغو، لكن السفينة لم تتمكن من الرسو، بما أن الطقس كان قاسياً جداً. تبع ذلك خمسة عشر يوماً من العذاب وهم يدورون حول الكيب. أصر القبطان على رفع كل الأشرعة، ولم تستطع ألما تخيل كيف أن الصواري تحملت هذا الجهد. كانت السفينة تتأرجح إلى هذا الجانب ثم إلى ذاك. بدت سفينة إليوت نفسها كأنها تصرخ من الألم ذلك أن البحر كان يضرب ويجلد روحها الخشبية المسكينة.

«إذا كانت هذه إرادة الله، سنتابع»، قال تيرينس رافضاً إنزال الأشرعة محاولاً أن يجتاز عشرين عقدة أخرى قبل أن يخيّم الظلام.

«لكن ماذا لو قُتل أحد ما؟» صاحت ألما عبر الريح.

«يُدفن في البحر»، ردّ عليها القبطان، وتابع.

أعقب هذا ٤٥ يوماً من البرد القارس. اندفعت الأمواج في هجمات متدحرجة لا تنتهي. وكانت العواصف أحياناً سيئة بحيث أن البحارة الأكبر في السن أنشدوا المزامير كي يريحوا أنفسهم. كان آخرون يلعنون ويهددون، وبقي البعض صامتين كما لو أنهم موتى. فكت العواصف أبواب أقفاص الدجاج، وجعلت الدجاج يتطاير فوق ظهر السفينة. في إحدى الليالي، تحطم ذراع التطويل إلى رقائق صغيرة، كمثل مادة إشعال النار. في اليوم التالي حاول البحارة رفع ذراع آخر، لكنهم فشلوا. صدمت موجة أحد البحارة فسقط في العنبر وانكسرت أضلاعه.

كانت ألما تتنقل كل الوقت بين الأمل والخوف، متأكدة من أنها ستموت في أية لحظة، لكنها لم تصرخ مرة واحدة من الفزع، أو ترفع

Twitter: @ketab_n

صوتها من الذعر. في نهاية كل هذا، حين صحا الطقس، قال القبطان تيرينس: «أنت ابنة حقيقية لنبتون، يا آنسة ويتاكر»، وشعرت ألما أنها لم تُمدح أبداً من قبل بهذه القوة.

أخيراً، في منتصف آذار/ مارس، رسوا في فالباريسو، حيث عثر البحارة على منازل وافرة من العاهرات كي يشبعوا رغباتهم، بينما استكشفت ألما هذه المدينة المعقدة والمرحِّبة. كانت المنطقة عند المرفأ قذرة وطينية، لكن المنازل على التلال المنحدرة جميلة. تسلقت التلال لعدة أيام، وشعرت بأن ساقيها تزدادان قوة من جديد. رأت الكثير من الأميركيين في فالباريسو كما في بوسطن، وكلهم في الطريق إلى سان فرانسيسكو من أجل البحث عن الذهب. ملأت بطنها بالإجاص والكرز. شاهدت موكباً دينياً طوله نصف ميل لقديس لم تكن تعرفه، وتبعته طول الطريق إلى كاتدرائية كبيرة. قرأت الصحف وأرسلت الرسائل إلى برودنس وهانيكي. وفي يوم صاح وبارد، تسلقت إلى أعلى نقطة في فالباريسو، ومن هناك ـ في المسافة البعيدة الضبابية ـ استطاعت أن ترى القمم المغمورة بالثلج لجبال الآنديز. شعرت بلوعة فقد كبيرة حيال والدها. قدم لها هذا راحة غريبة: أن تشتاق إلى هنري، وليس إلى أمبروس هذه المرة.

ثم أبحروا ثانية، في المياه العريضة للمحيط الهادي. صارت النهارات أكثر دفئاً وهدأ البحارة. نظفوا ظهر المركب ومسحوا العفن القديم والقيء. كانوا يدندنون وهم يعملون. وفي الصباح، في أوج النشاط، بدت السفينة كقرية صغيرة. صارت ألما معتادة على الرغبة بالانفراد، وصارت مرتاحة من حضور البحارة الآن. كانوا مألوفين لها، وكانت سعيدة بوجودهم. علموها العِقَد وأغاني البحارة وعقمت جراحهم وفقأت دماملهم. وأكلت ألما من لحم طائر قطرس اصطاده

Twitter: @ketab_n

أحد البحارة الشبان بالبندقية. عبروا الهيكل المنتفخ والعائم لحوت، كان دهنه مشفوطاً من قبل بحارة آخرين، لكنهم لم يشاهدوا أية حيتان حية.

كان المحيط الهادي شاسعاً وفارغاً. استطاعت ألما أن تفهم للمرة الأولى لماذا استغرق الأوروبيون وقتاً طويلاً للعثور على تيرا أوستراليس في هذا الاتساع الهائل. افترض المستكشفون الأوائل أنه يجب أن تكون هناك قارة جنوبية كبيرة كأوربا في مكان ما هنا، من أجل جعل الكوكب متوازناً بشكل كامل. لكنهم كانوا مخطئين. لم يكن هنا سوى المياه. وإن كان أي شيء فإن نصف الكرة الجنوبي كان بعكس اتجاه أوربا: كان قارة ضخمة من المحيط، منقطاً ببحيرات صغيرة من اليابسة تفصل بينها مسافات كبيرة.

تبع ذلك أيام متتالية من الفراغ الأزرق. شاهدت ألما في جميع الجوانب سهوباً من الماء، بقدر ما يستطيع ذهنها أن يتخيل. لم يشاهدوا أية حيتان. لم يشاهدوا طيوراً أيضاً، لكنهم استطاعوا أن يشعروا بتغير الطقس على بعد بعد مائة ميل، وكان يبدو غالباً سيئاً. كان الجو بلا صوت إلى أن جاءت العاصفة، وحينئذ صرخت الرياح متوجّعةً.

في أوائل نيسان/ أبريل صادفوا تغيراً للطقس أكثر رعباً، سوّد السماء أمام أعينهم، وقتل النهار في منتصف بعد الظهر. كان الهواء ثقيلاً ومهدداً. أقلق هذا التحول المفاجئ القبطان تيرينس بما يكفي بحيث أنزل الأشرعة كلها وهو يراقب سلاسل البرق تنقض عليها من جميع الجهات. تحولت الأمواج إلى جبال متدحرجة من السواد. لكن حينئذ تلاشت العاصفة بسرعة كما انقضت عليهم، وأضيئت السماوات ثانية. ولكن بدلاً من الراحة صرخ الرجال من الذعر ذلك أنهم شاهدوا فجأة عمود ماء يقترب. أمر القبطان ألما بالنزول إلى الطابق السفلي، لكنها لم

تتحرك؛ فقد كان عمود الماء مشهداً رائعاً. ثم تعالت صرخة أخرى، حين أدرك الرجال أن هناك ثلاثة أعمدة ماء تحيط بالسفينة الآن من مسافات لا تسبب الراحة. شعرت ألما بأنها منومة مغناطيسياً. اقترب أحد الأعمدة بما يكفي بحيث أنها شاهدت خيوطاً طويلة من الماء تصعد نحو الأعلى من المحيط نحو السماء، في عمود كبير مندفع. كان الشيء الأكثر روعة، والأكثر قداسة، والأكثر جمالاً الذي سبق أن شاهدته. كان الضغط في الهواء كثيفاً جداً، بحيث أن طبلتي أذن ألما واجهتا خطر الانفجار، وكان صراعاً سخب النَفَس إلى رئتيها. في الدقائق الخمس التالية، كانت مذهولة بحيث لم تعرف إن كانت حية أم ميتة. لم تعرف ماذا كان هذا العالم. وقد صُعقت ألما من أن وقتها في هذا العالم قد انتهى. والغريب أنها لم تكترث. لم يكن هناك أحد اشتاقت إليه. لم يعبر ذهنها شخص واحد سبق أن عرفته، لا أمبروس ولا أي شخص. لم تشعر بالندم. وقفت في دهشة منتشية، مستعدة لأي شيء يمكن أن يحدث.

بعد أن عبرت أعمدة الماء في النهاية وهدأ البحر مرة أخرى، شعرت ألما أن هذه اللحظة هي الأكثر سعادة في حياتها.

أبحروا.

في الجنوب كانت القارة القطبية الجنوبية جليدية ولا تُطاق. في الشمال، لا شيء على ما يبدو أو هكذا قال البحارة الضجرون. واصلوا الإبحار غرباً. اشتاقت ألما إلى متع المشي ورائحة التراب. ولأنه لا توجد نباتات أخرى للدراسة، طلبت من الرجال أن يسحبوا لها أعشاباً بحرية كي تفحصها. لم تعرف أعشابها البحرية بشكل جيد لكنها تعرف كيف تميز الأشياء، واحداً عن الآخر، وعلمت في الحال أن بعض الأعشاب البحرية لها جذور متكتلة، ولبعضها الآخر جذور مضغوطة

Twitter: @ketab_n

منها ما له نسيج؛ ومنها ما هو ناعم. حاولت أن تحزر كيف تحفظ الأعشاب البحرية للدراسة، دون أن تحولها إلى مادة لزجة أو قشور سوداء من اللاشيء. لم تتقن هذا أبداً، لكنه قدم لها شيئاً تفعله. أسرّها اكتشاف أن البحارة حافظوا على رؤوس حربوناتهم في مخدات من الطحالب المجففة؛ قدم هذا لها شيئاً رائعاً ومألوفاً للفحص هنا.

أُعجبتْ ألما بالبحارة. ولم تستطع تخيل كيف تحملوا فترات طويلة كهذه من الزمن بعيداً عن راحة اليابسة. كيف لم يفقدوا عقولهم؟ لقد أذهلهم المحيط وأزعجهم. لا شيء أكثر من هذا ترك تأثيراً في كينونتها. بدا لها كأنه تقطير المادة نفسه، تحفة الألغاز نفسها. أبحروا في إحدى الليالي عبر حقل ألماس من الماء ذي وميض فوسفوري. رفعتْ السفينة نحو الأعلى جزيئات غريبة من اللون الأخضر والأرجواني وهي تتحرك، إلى أن تبين أن سفينة إليوت تجر حجاباً متوهجاً طويلاً خلفها، عريضاً عرض البحر. كان جميلاً بحيث أن ألما تساءلت كيف لم يرم الرجال أنفسهم في الماء، وقد جذبهم نحو الأسفل إلى موتهم هذا السحر المُسْكر.

في ليال أخرى، حين لم تستطع النوم، سارت على ظهر السفينة بقدميها الحافيتين، محاولة أن تخشن كعبيها من أجل تاهيتي. شاهدت الانعكاس الطويل للنجوم على المياه الهادئة، متوهجاً كالمشاعل. كانت السماء فوقها غير مألوفة كالبحر الذي حولها. رأت مجموعات من النجوم التي ذكرَتها بالوطن: أوريون والثريا، لكن نجمة القطب الشمالي اختفت، والدب الأكبر أيضاً. سببت هذه الكنوز المفقودة من خزانة السماء الشعور بفقدان الاتجاه بشكل يائس. لكن هناك هدايا جديدة للرؤية في السماوات، كتعويض. استطاعت أن ترى قوس الجنوب الآن، والتوأمين، والمجرة الشاسعة المندلقة للدرب اللبنية.

Twitter: @ketab_n

منذهلة من مجموعات النجوم، قالت ألما للقبطان تيرينس في إحدى الليالي:

Nihil astra parere vidi et undas

سألها: «ما الذي يعنيه هذا؟».

قالت: «هذا السطر من أنشودة هوراس وتعني: لا شيء يمكن أن يُرى سوى النجوم والأمواج».

اعتذر: «لا أعرف اللاتينية يا آنسة ويتاكر. لست كاثوليكياً».

قال أحد البحارة الأكبر في السن، والذي عاش في البحار الجنوبية أعواماً كثيرة، لألما إنه حين اختار التاهيتيون نجماً كي يتبعوه من أجل الملاحة، دعوه أفيا aveia: إله التوجيه الخاص بهم. لكن عموماً، كما قال، إن الكلمة التاهيتية الأكثر شيوعاً للنجم هي فيتيا fetia. كان اسم المريخ الكوكب الأحمر fetia aura. واسم نجم الصباح fetia ao: نجم الضوء. كان التاهيتيون بحارة فائقين للعادة، كما قال لها البحار معبراً عن إعجاب حقيقي. كانوا يبحرون في ليلة بلا قمر أو نجوم عارفين طريقهم من تيار المحيط فقط. وكانوا يعرفون ستة عشر نوعاً مختلفاً من الرياح.

قال: «تساءلتُ دوماً إن كان قد سبق وذهبوا لزيارتنا في الشمال، قبل أن نزورهم في الجنوب. أتساءل إن كانوا قد جاؤوا إلى ليفربول أو نانتيكت في قواربهم. ربما فعلوها، ربما أبحروا إلى هناك وراقبونا ونحن نائمون، ثم جدفوا مبتعدين قبل أن نراهم. لن أتفاجأ أبداً إذا عرفت ذلك».

وهكذا صارت ألما تعرف الآن بعض الكلمات التاهيتية. تعرف كلمات نجم وأحمر وضوء. طلبت من البحار أن يعلمها أكثر. قدم لها ما

Twitter: @ketab_n

يقدر عليه، محاولاً أن يكون مساعداً، لكنه كان يعرف مفردات الإبحار فحسب، وأضاف معتذراً، كل الأشياء التي تقولينها لفتاة جميلة.

لم يشاهدوا حيتاناً حتى الآن.

خاب أمل الرجال. كانوا ضجرين وقلقين. لقد اصطيدت الحيتان حتى فرغت البحار منها. خاف القبطان من الإفلاس. بعض البحارة، أولئك الذين صادقتهم ألما، أرادوا أن يظهروا لها مهاراتهم في الصيد.

قالوا: «إنه شيء مثير لا تعرفينه أبداً».

بحثوا كل يوم عن الحيتان. بحثت ألما أيضاً. لكنها لم تر واحداً أبداً. رسوا في تاهيتي في حزيران/ يونيو ١٨٥٢. ذهب البحارة في طريق وألما في طريق آخر، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي سمعت فيها عن سفينة إليوت.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني والعشرون

ما لمحتْهُ ألما من تاهيتي، وهي على متن سفينة إليوت، كان قمم جبال شديدة التحدر ترتفع بحدة في سماوات عميقة الزرقة وصافية. استيقظت لتوها من النوم في هذا الصباح الرائع والرائق، وسارت على ظهر السفينة كي تمسح عالمها. لم تكن تتوقع ما شاهدتْهُ. سحر مشهد تاهيتي ألما: ليس جماله بل غرابته. سمعت طول حياتها قصصاً عن هذه الجزيرة، وشاهدت رسوماً ولوحات أيضاً، لكنها لم تمتلك فكرة بأن هذا المكان سيكون كبيراً هكذا، وفائقاً للعادة. لم تكن هذه الجبال تشبه أبداً الهضاب الملتفة لبنسلفانيا، فقد كانت سفوحها كثيفة الخضرة وبريّة، ومتحدرة على نحو صادم، ومسننة على نحو يثير الذعر، ومرتفعة على نحو مذهل. والواقع أن كل شيء في المكان مكتس بالأخضر بشكل مفرط. ومنحت أشجار جوز الهند الانطباع بأنها تنمو مباشرة من الماء.

أثار هذا أعصابها. فها هي أخيراً في منتصف اللامكان، في منتصف الطريق بين أستراليا والبيرو، ولم تستطع منع نفسها من التساؤل: لماذا توجد هنا جزيرة؟ شعرت بأن تاهيتي تقاطع امتداد سطح المحيط الهادي الشاسع واللانهائي، ككاتدرائية غريبة وعشوائية، تندفع نحو الأعلى من مركز المحيط بلا سبب. توقعت أن تشاهد الجنة، لأن تاهيتي توصف على الدوام بأنها جنة. توقعت أن يبهرها جمالها، وأن تشعر كما لو أنها

Twitter: @ketab_n

نزلت في الجنة. ألم يسمّها بوغينفيل جزيرة سِثْرا الجديدة، على اسم الجزيرة اليونانية التي وُلدتْ فيها أفروديت؟ لكن رد فعل ألما الأول، كي نكون صادقين، كان الخوف. ففي هذا الصباح المتألق، في هذا المناخ المعتدل، وقد واجهها منظر هذه اليوتوبيا المشهورة، لم تكن واعية لأي شيء سوى الإحساس بالتهديد. تساءلت: ما الذي فعله أمبروس حيال هذا؟ لم ترغب بأن تُترك وحيدة هنا.

لكن إلى أي مكان آخر تذهب؟

ذلك أن السفينة القديمة انزلقت بنعومة إلى الميناء في بابيتي، وكانت طيور بحرية من دزينة من الأنواع تدور وتلتف حول الصواري بسرعة بحيث لم تتمكن ألما من إحصائها أو معرفة أنواعها. أُنزلت ألما ومتاعها على الرصيف الهائج والملّون، وذهب القبطان تيرينس، بدافع من لطف شديد، كي يرى إن كان يستطيع أن يستأجر لها عربة تأخذها إلى مستوطنة البعثة التبشيرية في خليج ماتافاي.

كانت ساقاها ترتجفان، بعد شهور من الإبحار، وقد غلبتها عصبيتها. رأت حولها بشراً من جميع الأصناف، شاهدت بحارة وضباطاً في البحرية وتجاراً وشخصاً ما ينتعل قبقاباً، بدا كما لو أنه تاجر هولندي. شاهدت زوجاً من تجار اللآلئ الصينيين، وعلى ظهريهما ضفائر طويلة. شاهدت محليين وأنصاف محليين ولا أحد يعرف ماذا. شاهدتْ رجلاً تاهيتياً ضخم الجثة يرتدي سترةً صوفية قصيرة وثقيلة، حصل عليها كما يبدو من بحار بريطاني، لكنه لا يرتدي بنطلوناً، بل تنورة من الأعشاب فقط، وصدره عار بشكل مزعج تحت السترة. شاهدت نسوةً محليات يلبسْن جميع أنواع الألبسة. بعض النسوة الأكبر في السن يكشفن صدورهن بوقاحة، بينما النسوة الأصغر يلبسن فساتين

Twitter: @ketab_n

طويلة، وشعرهن مرتب في ضفائر محتشمة. كن المعتنقات الجديدات للمسيحية، كما افترضت ألما. شاهدت امرأة تلف حولها غطاء طاولة، وتنتعل حذاء رجالياً أوربياً أكبر من قياس قدميها بعدة نمرات، وتبيع ثماراً غير مألوفة. شاهدت شخصاً يلبس بشكل فنتازي، ورأسه يرفرف في تاج من الأوراق. ظنت أنه يشكل مشهداً فائقاً للعادة، لكن لم يراقبه أي شخص آخر، ولم يلتفت إليه أحد.

كان السكان المحليون هنا أكبر من الأشخاص الذين كانت ألما معتادة عليهم. بعض النسوة ضخمات كألما نفسها، والرجال أكثر ضخامة. وكانت بشرتهم نحاساً مصقولاً. ولبعض الرجال شعر طويل وبدوا مخيفين؛ وكان لآخرين شعر قصير وبدوا متحضرين.

شاهدت ألما دزينة محزنة من العاهرات يندفعن إلى بحارة سفينة إليوت، حالما لمست أقدام الرجال الميناء. كانت النساء ينزلن شعرهن إلى الأسفل حتى يصل إلى خصورهن في أمواج سوداء لامعة. من الخلف، كن متشابهات. من الأمام، يستطيع المرء أن يرى الفرق في العمر والجمال. راقبت ألما المفاوضات وهي تبدأ، تساءلت كم يكلف شيء كهذا. تساءلت ما الذي تقدمه النساء على نحو محدد. تساءلت كم تستغرق هذه الصفقات، وأين تحصل. تساءلت إلى أين يذهب البحارة إذا أرادوا أن يشتروا غلماناً بدلاً من الفتيات. لم تكن هناك علامة على تبادل من هذا النوع على رصيف المرفأ. ربما يحدث هذا في مكان سري.

شاهدت جميع أنواع الرضّع والأطفال بثياب وبدونها، في الماء وخارجه، في طريقها وخارجه. كان الأطفال يتحركون كقطعان من الأسماك، وأسراب من العصافير، وكل قرار يُترجم في تزامن جماعي

Twitter: @ketab_n

فوري: *سنقفز الآن! سنركض الآن! سنتسول الآن! سنسخر الآن!* شاهدت رجلاً عجوزاً برجل متورمة إلى أكبر من حجمها الطبيعي بمرتين. وكانت عيناه بيضاوين من العمى. شاهدت عربات صغيرة، تجرها مُهُرٌ صغيرة أكثر حزناً مما يمكن تصوره. شاهدت مجموعة من الكلاب الصغيرة الرمادية تتصارع مع بعضها بعضاً في الظل. شاهدت ثلاثة بحارة فرنسيين، متشابكي الأذرع، يغنون بشبق، سكارى في هذا الصباح الرائع. شاهدت يافطات صالة بلياردو، وعلى نحو لافت، مطبعة. تأرجحت الأرض الصلبة تحت قدميها. كانت حارة تحت الشمس.

لمحَ ديكٌ أسود أنيق ألما وسار نحوها في تبختر صلف، كما لو أنه مبعوث أُرسلَ كي يرحّب بها. كان وقوراً جداً بحيث أنها لن تُفاجأ لو كان يلبس وشاحاً على صدره. توقف الديك مباشرة أمامها، محترماً ومراقباً. توقعت ألما أن يتحدث أو يطلب رؤية وثائقها. غير عارفة ماذا تفعل، مدت يدها ومسدت الطائر المتودد، كما لو أنه كلب. سمح بهذا على نحو مدهش. مسدته أكثر وأكثر، وقرقر لها معبّراً عن رضاه. في النهاية استقرَّ الديك عند قدميها ونفخ ريشه مسترخياً. أظهر جميع أنواع المشاعر كما لو أن تفاعلهما تم وفق خطة. شعرت ألما بالراحة نوعاً ما من هذا التبادل البسيط. ساعد هدوء الديك وطمأنينته في جعلها مرتاحة.

ثم انتظر الاثنان معاً، الطائر والمرأة، بصمت على رصيف المرفأ، ما سيحدث تالياً.

* * *

كانت المسافة بين بابيتي وخليج ماتافاي سبعة أميال. شعرت ألما بالأسف على المهر الصغير الذي حمل متاعها بحيث أنها نزلت من

Twitter: @ketab_n

العربة وسارت إلى جانبه. كان من المفيد جداً استخدام ساقيها بعد كثير من شهور الكسل في السفينة. كان الطريق جميلاً ومظللاً بأشجار النخيل وأشجار ثمار الخبز. شعرت ألما بأن المشهد الطبيعي مألوف ومذهل بالنسبة لها. كانت تعرف كثيراً من أصناف النخيل من البيوت الزجاجية لوالدها، وشكّلتْ أخرى خليطاً من الأوراق المطوية واللحاء الجلدي الزلق. وبما أن ألما لم تعرف أشجار النخيل إلا في البيوت الزجاجية، فإنها لم تسمع أبداً من قبل أشجار النخيل. كان صوت الريح عبر سعف النخيل كحفيف الحرير. أحياناً، أثناء الهبات الأقوى للريح، تصرّ جذوع أشجار النخيل كالأبواب القديمة. وكانت كلها صاخبة وحية. أما بالنسبة لأشجار الخبز، فهي أكثر هيبة ورشاقة مما تصورت. بدت كأشجار الدردار في الوطن: متوهجة ورحبة الصدر.

ارتبك سائق العربة، وهو عجوز تاهيتي بظهر موشوم على نحو مزعج وصدر مزيت بشكل جيد، من إصرار ألما على السير. بدا كأنه خائف من أن هذا يعني أنها لن تدفع له. وكي تطمئنه حاولت أن تدفع له في منتصف الطريق إلى وجهتهما. سبب هذا مزيداً من الارتباك فحسب. فقد تفاوض معه القبطان تيرينس على الأجر من قبل، لكن هذا الترتيب بدا فارغاً الآن. دفعت ألما نقوداً أميركية، لكن الرجل حاول أن يعيد لها الباقي من حفنة من القروش الأسبانية القذرة والبيزوات البيروفية. لم تستطع ألما أن تحزر كيف يحسب هذا التبادل للعملة، إلى أن أدركت أنه يستبدل قطعه النقدية القديمة والباهتة بقطعها الجديدة اللامعة.

أنزلها في طرف مظلل لغيضة من أشجار الموز في منتصف مستوطنة البعثة التبشيرية في خليج ماتافاي. كوّم سائق العربة متاعها في هرم مرتب؛ وقد بدا هذا المتاع الآن كما بدا منذ سبعة أشهر، خارج منزل العربات في وايت إيكر. بعد أن تُركت لوحدها، تفحصت ألما محيطها.

كان موقفاً ظريفاً بما يكفي هنا، كما ظنت، أكثر ظرافة مما تصورت. كانت كنيسة البعثة التبشيرية بناء صغيراً متواضعاً، مدهوناً بالأبيض ومسقوفاً بالقش، يحيط به عدد من الأكواخ المتشابهة المدهونة بالأبيض والمسقوفة بالقش. لا يمكن أن يعيش هنا أكثر من بضعة عشرات من الأشخاص.

تشكّلت الجماعة على ضفاف نهر صغير يصبُّ في البحر. قسم النهر الشاطئ، الذي كان طويلاً ومنحنياً، ومكوّناً من الرمل البركاني الكثيف والأسود. وبسبب لون الماء، لم يكن الخليج هنا الخليج التركوازي اللامع الذي يُرْبَط عادة بالبحار الجنوبية؛ بل كان خليجاً صغيراً بلون الحبر فخماً وثقيلاً وبطيء الأمواج. شعب مرجانية مساحتها ثلاثمائة ياردة تقريباً أبقت الأمواج هادئة بشكل مقبول. حتى من هذه المسافة، استطاعت ألما أن تسمع الأمواج تتحطم على شعب المرجان البعيدة. تناولت حفنة من الرمل ـ بلون السخام ـ وجعلتها تنسكب من بين أصابعها. شعرت بأنها كالمخمل الدافئ، وانسلت من بين أصابعها وتركتها نظيفة.

قالت بصوت مرتفع: «خليج ماتافاي».

صدقت بصعوبة أنها هنا. فقد جاء إلى هذا المكان جميع المستكشفين الكبار للقرن الأخير. جاء واليس وفانكوفر وبوغنفيل. وأمضى القبطان بلاي ستة أشهر مخيماً على هذا الشاطئ. وكان الأكثر تأثيراً في ذهن ألما من كل شيء هو أن هذا هو الشاطئ نفسه الذي نزل عليه القبطان كوك لأول مرة سنة ١٧٦٩. وعلى يسار ألما، في المسافة القريبة، كان النتوء المرتفع الذي رصد فيه كوك عبور كوكب الزهرة، تلك الحركة الحيوية لقرص كوكبي أسود وصغير عبر وجه الشمس،

والذي سافر عبر العالم كي يشاهده. وحدد النهر الهادئ الصغير الذي يقع إلى يمين ألما مرة الحد الأخير في التاريخ بين التاهيتيين والبريطانيين. وبعد رسوّ كوك مباشرة وقف الشعبان في الجانبين المتقابلين من النهر، ناظرين إلى بعضهم بفضول حذر لعدة ساعات. اعتقد التاهيتيون أن البريطانيين جاؤوا مبحرين من السماء وأن سفنهم الضخمة المثيرة للإعجاب جزر نزلت من النجوم. حاول الإنكليز أن يحددوا إن كان الهنود عدوانيين أو خطيرين. جاءت النساء التاهيتيات إلى حافة النهر ومزحْن مع البحارة الإنكليز في الطرف الآخر برقصات لعوب ومثيرة. قرر القبطان كوك أنه لا يوجد خطر هنا وأطلق رجاله على النساء. تبادل البحارة مسامير حديدية مع النساء من أجل خدمات جنسية. أخذت النساء المسامير وزرعْنها في الأرض آملات نمو المزيد من هذا الحديد الثمين، كما تنمو شجرة من غصن.

لم يذهب والد ألما في تلك الرحلة. جاء هنري ويتاكر إلى تاهيتي بعد ثماني سنوات، في رحلة كوك الثالثة، في آب/ أغسطس، ١٧٧٧. كان الإنكليز والتاهيتيون حينئذ معتادين على بعضهم بعضاً جيداً، ومولعين ببعضهم بعضاً. كان لبعض البحارة البريطانيين زوجات ينتظرن بين النساء وأطفال في الجزيرة أيضاً. دعا التاهيتيون القبطان كوك «توت» لأنهم لم يستطيعوا لفظ اسمه. كانت ألما تعرف كل هذه الأمور من قصص والدها، وهي قصص لم تفكر بها لعقود. تذكّرتْها كلّها الآن. استحمَّ والدها في هذا النهر نفسه في شبابه. منذ ذلك الوقت، بدأ المبشّرون باستخدامه، كما عرفت ألما، من أجل التعميد.

وبعد أن صارت هنا أخيراً، لم تكن ألما متأكدة ما الذي تفعله بالتالي. لم يكن هناك شخص في مدى البصر، عدا طفل يلعب وحيداً في النهر. لا يمكن أن يتجاوز عمره الثلاث سنوات، وكان عارياً تماماً،

Twitter: @ketab_n

وتصرف كأنه رابط الجأش حيال تركه بلا عناية في الماء. لم ترغب بأن تترك متاعها دون حراسة، وهكذا جلست فحسب على الكومة وانتظرت أن يأتي شخص ما. كانت ظامئة جداً، وكانت مثارة جداً في ذلك الصباح بحيث لم تتناول الفطور في السفينة وهكذا كانت جائعة أيضاً.

بعد فترة طويلة خرجت من أحد الأكواخ الأكثر بعداً امرأة تاهيتية ضخمة في فستان طويل محتشم تعتمر قلنسوة بيضاء وتحمل معزقاً. توقفت حين شاهدت ألما. وقفت ألما وعدلت فستانها. صاحت: «بونجور». كانت تاهيتي تنتمي رسمياً إلى فرنسا الآن وتخيلت ألما أن اللغة الفرنسية هي خيارها الأفضل.

ابتسمت المرأة بمودة وصاحت: «نحن نتحدث الإنكليزية هنا».

أرادت ألما الاقتراب، بحيث لا تصيحان لبعضهما بعضاً، لكنها ما تزال تشعر بأنها مقيدة إلى متاعها بشكل سخيف. قالت: «أنا أبحث عن القس فرانسيس ويليس!».

«إنه في الزريبة اليوم!»، ردت المرأة صائحة بابتهاج، سارت على الطريق نحو بابيتي، تاركة ألما مرة أخرى وحيدة مع صناديقها.

الزريبة؟ هل لديه ماشية هنا؟ إذا كان الأمر هكذا لم تستطع ألما أن ترى أو تشم أية علامة تدل عليها. ما الذي يمكن أن تكون المرأة قد عنته؟

في الساعات التالية، تجول بعض التاهيتيين الآخرين عابرين ألما وكومتها من العلب والصناديق. كانوا كلهم لطيفين، لكن لم يبد أن أحداً منهم مفتوناً بحضورها، ولم يتحدث أحد منهم معها طويلاً. وكرر الجميع المعلومات نفسها: أن القس فرانسيس ويليس في الزريبة هذا

Twitter: @ketab_n

اليوم. وفي أي وقت سيعود من الزريبة؟ لا يعرف أحد. وكلهم قالوا إنهم يأملون عودته قبل حلول الظلام.

تجمّع بعض الفتيان الصغار حول ألما ولعبوا لعبة جسورة من قذف الحصى على متاعها، وأحياناً على قدميها، إلى أن طردْتهم امرأة ضخمة أكبر في السن بوجه مشدوه، وركضوا كي يلعبوا في النهر. وفيما كان النهار ينقضي، سار بعض الرجال بقصبات صيد قصيرة عابرين ألما نحو الشاطئ وخوّضوا في مياه البحر. وقفوا مغمورين إلى أعناقهم في الأمواج التي تتدحرج بلطف، رامين صناراتهم من أجل الأسماك. صار عطشها وجوعها ملحّين لكنها لم تتجرأ على الذهاب والتجول وترك متاعها خلفها.

يخيم الليل بسرعة في المناطق المدارية كما كانت ألما تعرف من الأشهر التي قضتها في البحر. صارت الظلال أكثر طولاً. وركض الأطفال خارجين من النهر واندفعوا عائدين إلى أكواخهم. راقبت ألما الشمس وهي تنخفض بسرعة فوق القمم المنحدرة لجزيرة موريا، بعيداً عبر الخليج. وبدأ الذعر يدب فيها. أين ستنام الليلة؟ طار البعوض حول رأسها. إنها غير مرئية الآن بالنسبة للتاهيتيين. واصلوا أعمالهم حولها، كما لو أنها هي ومتاعها ركام من الحجارة موجود على الشاطئ منذ فجر التاريخ. خرجت سنونوات المساء من الأشجار كي تصطاد. توهج الضوء على الماء في انعكاسات خلابة من الشمس الغاربة.

ثم رأت ألما شيئاً ما في الماء، شيئاً ما يتجه نحو الشاطئ، كان زورقاً صغيراً، وسريعاً وضيقاً. ظللت عينيها بيدها ونظرت نصف مغمضة باتجاه ضوء الشمس المنعكس، محاولة أن تميز الأشخاص الذين في الداخل. كلا، كان هناك فقط شخص واحد، وكان ذلك

Twitter: @ketab_n

الشخص الذي شاهدته يجذف بقوة وطاقة. اندفع القارب إلى الشط بقوة لافتة، كسهم صغير مليء بالزخم وقفز منه قزم. أو هكذا كانت فكرة ألما الأولى: هناك قزم! لكن مزيداً من التدقيق كشف أن القزم رجل، رجل أبيض، بإكليل بري من الشعر الثلجي ولحية مرفرفة كي تناسبه. كان صغيراً ومتقوس الساقين ورشيقاً، ورفع الزورق على الشاطئ بقوة مفاجئة في شخص صغير مثله.

«القس ويليس؟»، صاحت آملة، ملوحة بذراعيها في إيماءة تفتقر للكرامة بشكل كبير.

اقترب الرجل. كان من الصعب معرفة ما هو أكثر لفتاً للنظر فيه: قامته الصغيرة أو إطاره النحيل. كان في نصف حجم ألما، له جسم طفل، وهيئة الهيكل العظمي. خداه مجوفان وكتفاه حادان ومدببان تحت القميص. كان بنطلونه ملفوفاً حول خصره المشدود بطول مضاعف من الحبل. لحيته تصل إلى صدره. وينتعل صندلاً غريباً مصنوعاً من حبل أيضاً. لم يكن يعتمر قبعة، ووجهه مسفوع بحدة. لم تكن ثيابه أسمالاً بشكل كامل. بدا كمثل مظلة مكسورة، كمثل شخص رُمي من سفينة، كبير في السن وصغير الحجم.

«القس ويليس؟»، سألت ثانية، مترددة وهو يقترب أكثر.

نظر إليها، نحو الأعلى، كثيراً نحو الأعلى، بعينين صريحتين وزرقاوين. قال: «أنا القس ويليس. على الأقل أعتقد أنني ما أزال هو».

تحدث بلكنة بريطانية خفيفة، مشذبة، وغير محددة.

«أيها القس ويليس، اسمي ألما ويتاكر.آمل أنك تلقيت رسالتي؟».

ميّل رأسه كالطائر، مهتماً: «رسالتك؟».

كان هذا ما خافت منه. لم يكن يتوقع وصولها أحد. سحبتْ نَفَساً

Twitter: @ketab_n

عميقاً وفكرت كيف تشرح نفسها على نحو أفضل. «لقد أتيت في زيارة يا سيد ويليس، وربما قد أبقى لفترة، كما ترى». قامت بإيماءة اعتذار إلى هرمها من المتاع. «أمتلك اهتماماً بعلم النبات الطبيعي وأود أن أدرس نباتاتكم المحلية. أعرف أنك عالم طبيعة. جئت من فيلادلفيا، في الولايات المتحدة الأميركية. جئت كي أفحص مزرعة الونيل التي تملكها عائلتي. إن أبي هو هنري ويتاكر».

رفع حاجبيه الأبيضين الناعمين. سألها: «هل قلت إن والدك هو هنري ويتاكر؟ هل توفي هذا الرجل الجيد؟».

«توفي العام الماضي».

«يؤسفني سماع هذا. ليرحمه الله. عملتُ لوالدك مع مرور الأعوام، كما ترين، بطريقتي الصغيرة. بعته الكثير من العيّنات، وكان لطيفاً بحيث دفع لي بشكل عادل مقابلها. لم أقابل والدك أبداً، لكنني عملت من خلال مبعوثه السيد يانسي. كان دوماً رجلاً كريماً ومستقيماً جداً، والدك الجيد. في كثير من الأوقات مع مرور الأعوام ساعدتني الأموال التي قبضتها من السيد ويتاكر في إنقاذ هذه المستوطنة الصغيرة. لا نستطيع الاعتماد دوماً على جمعية المبشرين في لندن كي تأتي إلينا، لكننا كنا دوماً قادرين على الاعتماد على السيد يانسي والسيد ويتاكر. أخبريني، هل تعرفين السيد يانسي؟».

«أعرفه جيداً، أيها القس ويليس، عرفته طيلة حياتي. رتب سفري إلى هنا».

«بالتأكيد، بالتأكيد تعرفينه. إذاً تعرفين أنه رجل جيد».

لم تستطع ألما القول إنها ستتهم السيد يانسي بكونه «رجلاً جيداً»، لكنها هزت رأسها مع ذلك. بشكل مشابه، لم تسمغ أبداً من قبل والدها

Twitter: @ketab_n

يصفه بأنه كريم ومستقيم أو لطيف. إن هذه الكلمات تجعل البعض معتادين عليها. تذكرت رجلاً في فيلادلفيا أشار إلى والدها مرة بأنه «طائر جارح يسير على قدمين». فكّروا كم سيكون ذلك الرجل مندهشاً الآن، حين يرى كم كان الطائر الجارح محترماً هنا، في منتصف البحار الجنوبية! إن التفكير بالمسألة جعل ألما تبتسم.

واصل القس ويليس كلامه: «سأكون أكثر سعادة كي أريك مزرعة الونيل. إن رجلاً محلياً من بعثتنا التبشيرية يديرها، منذ أن فقدنا السيد بايك. هل كنت تعرفين أمبروس بايك؟».

خفق قلب ألما داخل صدرها، لكنها أبقت وجهها حيادياً. «نعم، أعرفه قليلاً. كنت أعمل بشكل وثيق مع والدي، يا سيد ويليس، ونحن من قرر إرسال السيد بايك إلى تاهيتي».

قررت ألما منذ شهور، حتى قبل أن تغادر فيلادلفيا، أنها لن تخبر أحداً في تاهيتي عن علاقتها بأمبروس. وطيلة رحلتها كلها سافرت باسم «الآنسة ويتاكر»، وسمحت للعالم أن ينظر إليها كعانس. وكانت في الحقيقة عانساً. ولن يعدَّ أيُّ شخص عاقل زواجها من أمبروس زواجاً. فضلاً عن ذلك، بدت كعانس، وشعرت بأنها عانس. وإذا ما تحدثنا بعامة، لم تكن تحب الكذب، لكنها أتت إلى هنا كي تجمع معاً خيوط قصة أمبروس بايك، واعتقدت أنه لن يكون أحد صريحاً معها لو عرفوا أن أمبروس كان زوجها. مفترضةً أن أمبروس لبّى طلبها ولم يُخبر أحداً أنهما كانا متزوجين، لم تتخيل أن أحداً ما سيشك بوجود صلة بينهما، بصرف النظر عن حقيقة أن السيد بايك كان موظفاً لدى والدها. بالنسبة لألما، كانت مجرد عالمة طبيعة مسافرة، وابنة مستورد نباتات مشهور جداً وقُطب لصناعة الأدوية؛ وسيصدق أي شخص أنها تزور تاهيتي من

Twitter: @ketab_n

أجل أهدافها الخاصة، كي تدرس الطحالب، وتعتني بمزرعة الونيل التي تملكها الأسرة.

قال القس ويليس، بابتسامة عذبة: «نفتقد السيد بايك بألم يا آنسة. ربما أنا أفتقده أكثر من الجميع. موته خسارة لمستوطنتنا الصغيرة. نتمنى لو أن جميع الغرباء الذين جاؤوا إلى هنا قدموا مثالاً جيداً للمحليين كما فعل السيد بايك الذي كان صديقاً لليتامى والفقراء، وعدواً للحقد والخبث، وكل أنواع هذه الأمور. كان رجلاً لطيفاً، أثار إعجابي. فضلاً عن ذلك، كان يمتلك موهبة في بناء علاقات صداقة مع المحليين بطريقة نادراً ما رأيتها في الآخرين. كان يتحدث مع الجميع بصدق وكرم. وكما تعلمين، لا يتم الأمر دوماً هكذا من قبل الرجال الذين يجيئون إلى الجزيرة من أمكنة بعيدة. قد تكون تاهيتي جزيرة خطيرة. بالنسبة لأولئك المعتادين على أخلاق المجتمع الأوربي الأكثر صرامة فإن هذه الأرض وسكانها يمكن أن يمثلوا إغراءات من الصعب مقاومتها. يستفيد الزوار من هذا. ويؤسفني القول إنه حتى بعض المبشرين يستغلون أحياناً هؤلاء القوم الذين هم كالأطفال وأبرياء، رغم أننا نحاول بمساعدة الرب أن نعلمهم حماية أنفسهم. ولم يكن السيد بايك من هذا النوع الذي يستغل الوضع».

ذُهلتْ ألما. شعرت بأن هذا هو الكلام الأكثر أهمية الذي سبق أن سمعته (باستثناء المرة الأولى التي التقت فيها بريتا سنو كما افترضت). لم يشغل القس ويليس ذهنه بأية طريقة لماذا جاءت ألما مجتازة هذه المسافة كلها من فيلادلفيا كي تجلس على كومة من العلب والصناديق في منتصف بعثته التبشيرية، ومع ذلك ها هو هنا، يتحدث عن السيد بايك! لم تتوقع هذا. ولم تتوقع أن زوجها، بحقيبته المليئة برسوم شبقة وسرية، سيُمْدح بهذه القوة كمثال أخلاقي.

Twitter: @ketab_n

قالت فقط: «نعم يا سيد ويليس».

وعلى نحو مفاجئ، واصل القس ويليس الحديث أكثر عن الموضوع: «فضلاً عن ذلك، أحببت السيد بايك كأفضل صديق لي، ليس بوسعك تخيل الراحة المتولدة عن رفيق ذكي في مكان منعزل كهذا. والحقيقة أنني كنت أسير أميالاً كثيرة كي أرى وجهه ثانية أو أصافحه مرة أخرى تعبيراً عن الصداقة. لو كان هذا ممكناً فحسب، لكن معجزة كهذه لن تحدث أبداً طالما أنا أتنفس، لأن السيد بايك استُدعي إلى الجنة، وتُركنا هنا وحيدين».

«نعم أيها القس ويليس»، قالت ألما ثانية. ماذا تستطيع قول غير هذا؟

قال: «بوسعك أن تناديني الأخ ويليس، هل يمكن أن أناديك الأخت ويتاكر؟».

«أكيد أيها الأخ ويليس»، قالت.

«يمكن أن تنضمي إلينا من أجل صلاة المساء أيتها الأخت ويتاكر. نحن في عجلة من أمرنا. سنبدأ بخلاف المعتاد في هذا المساء، لأنني أمضيت اليوم في الحيد المرجاني، وفقدت مسار الوقت».

وفكرت ألمت: آه، في الحيد المرجاني؟، نعم بالطبع! كان في البحر طول اليوم في الحيد المرجاني ولم يكن يعتني بالقطيع.

«شكراً لك»، قالت ألما. نظرت إلى متاعها، وترددت. «أتساءل أين يمكن أن أضع مقتنياتي في غضون ذلك، كي تبقى آمنة؟ طلبتُ منك في رسالتي أيها الأخ ويليس إن كان بوسعي البقاء في المستوطنة لبعض الوقت، وأن أستكشف الجزيرة...». توقفت فجأة، وقد أثارت أعصابها العينان الزرقاوان الصريحتان للرجل وهما مثبتتان عليها.

«بالتأكيد»، قال. انتظرتْ أن يقول المزيد، لكنه لم يقل. كان من النوع الذي يقبل دون جدل. ولن يكون متضايقاً من حضورها لو أنها خططت للبقاء عشر سنوات.

قالت ألما دون ارتياح: «أملك كمية جيدة من النقود، أستطيع أن أقدمها للبعثة مقابل السكن..».

قال ثانية: «بالتأكيد...».

«لم أقرر بعد كيف يمكن أن أسكن... سأبذل ما بوسعي كي لا أزعج أحداً... لا أتوقع وسائل راحة...»، توقفت فجأة. كانت تجيب عن أسئلة لم يطرحها. مع مرور الوقت، عرفت ألما أن القس ويليس لا يطرح أسئلة من أي نوع أبداً، لكنها الآن وجدت الأمر فائقاً للعادة.

قال للمرة الثالثة: «بالتأكيد. والآن انضمي إلينا من أجل صلاة المساء يا أخت ويتاكر».

قادها بعيداً عن متاعها، بعيداً عن كل ما تملكه وكل ما هو ثمين بالنسبة إليها، وسارا نحو الكنيسة. كان كلُّ ما بوسعها فعله هو أن تتبعه.

* * *

لا يتجاوز طول الكنيسة عشرين قدماً. مقاعدها بسيطة، وجدرانها مدهونة باللون الأبيض ونظيفة. تضيء المكان على نحو باهت أربعة قناديل زيت حوت. أحصت ألما ثمانية عشر متعبّداً، وكلهم تاهيتيون محليون. أحد عشر رجلاً وسبع نساء. ودون أن يراها أحد (لم تكن تريد أن تكون وقحة)، فحصت ألما وجوه جميع الرجال. لا أحد منهم كان الفتى المُصَوَّر في رسوم أمبروس. كان الرجال يرتدون بنطلونات وقمصاناً أوربية بسيطة، والنساء يلبسن الفساتين الطويلة الفضفاضة التي شاهدتها في جميع الأمكنة منذ وصولها. كانت معظم النسوة يعتمرن

Twitter: @ketab_n

قلنسوات لكن واحدة، تعرفت عليها ألما، السيدة ذات الوجه القاسي التي طردت الأطفال، كانت تعتمر قبعة قشية عريضة الحواف، مزينة بالأزهار الطرية بشكل متقن.

تبع ذلك الطقس الديني الأكثر غرابة الذي سبق أن شاهدته ألما، والأقصر حتى الآن. أولاً، أدّوا ترنيمة باللغة التاهيتية، رغم أنه لا أحد يحمل كتاب تراتيل. كانت الموسيقا غريبة على أذني ألما، ومتنافرة النغمات وحادة، بأصوات متراكبة فوق أصوات في نماذج لم تستطع متابعتها، لا يرافقها شيء سوى طبل بسيط يقرعه فتى عمره أربعة عشر عاماً. لم يكن إيقاع الطبل مناسباً للأغنية، ليس بطريقة تستطيع ألما تحديدها. ارتفعت أصوات النساء في صرخات حادة فوق تراتيل الرجال. لم تستطع العثور على أي نغم مخبأ داخل هذه الموسيقا الغريبة. واصلت الاستماع إلى كلمة مألوفة (يسوع، المسيح، الله، الرب، يهوه) لكن لا شيء كان قابلاً للتعرف. انتبهت إلى نفسها وهي جالسة في صمت فيما النساء حولها ينشدن بصوت مرتفع، لم تستطع أن تضيف أي شيء إلى هذا الحدث.

بعد أن انتهى الغناء، توقعت ألما أن يلقي الموقر ويليس موعظة، لكنه بقي واقفاً ورأسه منحن في صلاة. ولم ينظر حتى إلى الأعلى حين نهضت المرأة التاهيتية الضخمة التي تزين قبعتها الأزهار واقتربت من المنبر البسيط. قرأت المرأة بإيجاز، بالإنكليزية، من سفر متى. تعجبت ألما من أن هذه المرأة تعرف القراءة، وبالإنكليزية، أيضاً. ورغم أن ألما لم تكن من النوع الذي يصلي، كانت هناك راحة في الكلمات المألوفة. ليُبارَكْ الفقراء والودعاء والرحماء وأنقياء القلوب والمهانون والمضطهدون. ليُباركوا، ليُباركوا، ليباركوا. وهكذا كان هناك الكثير من البركات التي عُبّر عنها بسخاء.

Twitter: @ketab_n

ثم أغلقت المرأة الكتاب المقدس، وهي ما تزال تتحدث بالإنكليزية، ألقت موعظة سريعة وصاخبة وغريبة.

صاحت: «*لقد ولدنا، نحن نزحف، نحن نسير، نحن نسبح، نحن نعمل، ننجب أطفالاً، نشيخ، نسير متكئين على العكاز. لكن لا يوجد طمأنينة إلا في الله!*»

صاح الحشد: «*طمأنينة!*»

«*إذا طرنا إلى السماء، الرب هناك. إذا أبحرنا في البحر، الرب هناك. إذا سرنا على اليابسة، الرب هناك*».

«هناك!»، قال الحشد.

مدت المرأة ذراعيها وفتحت وضمت يديها في تعاقب سريع، مرات كثيرة متلاحقة. ثم فتحت وأغلقت فمها بسرعة. قامت بحركات غريبة كدمى معلقة بخيط. ابتسم بعض أعضاء الحشد. لم يبد أن الضحك يهم المرأة. ثم توقفت عن الحركة وصاحت: «انظر إلينا! لقد صُنعنا بذكاء! نحن مليئون بالمفصلات!».

«مفصلات!»، ردد الحشد.

«لكن المفصلات ستصدأ! سنموت! ولا يبقى سوى الرب!».

«يبقى!»، قال الحشد.

«إن ملك الأجسام لا جسم له! لكنه يحضر لنا الطمأنينة!».

«الطمأنينة!» قال الحشد.

«آمين!»، قالت المرأة التي تعتمر قبعة مزينة بالأزهار، وعادت إلى مقعدها.

ثم توجه القس ويليس إلى المذبح وقدم العشاء الرباني. وقفت ألما

Twitter: @ketab_n

في الصف مع بقيتهم. كان القس صغيراً جداً بحيث أنها اضطرت للانحناء إلى مستوى الخصر كي تتلقى تقدمته. لم يكن هناك نبيذ، فقدم عصير جوز الهند كبديل لدم يسوع. أما جسد يسوع، فقد كان كرة صغيرة دائرية من شيء دبق وحلو لم تستطع ألما تحديده. رحبت به؛ كانت تتضور جوعاً.

أدى الموقر ويليس صلاة قصيرة على نحو مؤثر: «امنحنا الإرادة يا يسوع لنتحمل كل ما يحل بنا والذي هو نصيبنا. آمين».

«آمين»، قال الحشد.

بهذا خُتمت الصلاة. لم تستمر ١٥ دقيقة. لكنه كان وقتاً كافياً بحيث أن ألما حين سارت إلى الخارج اكتشفت أن الجو مظلم، وأن متاعها كله اختفى.

* * *

سألت ألما: «من أخذها وإلى أين؟».

«إحم»، قال الموقر ويليس، وهو يحك رأسه وينظر إلى البقعة حيث كانت أغراض ألما تتوضع. «لا يمكن الإجابة على هذا بسهولة الآن. ربما سرق الفتيان الأغراض كلها. إن الفتيان يفعلون أموراً من هذا القبيل عادة. ولكن من الأكيد أنها سُرقتْ».

لم يكن هذا التأكيد مساعداً.

قالت مذعورة: «أيها الأخ ويليس سألتك إن كان يجب أن نحرس الأغراض! أنا بحاجة ماسة إليها. كان بوسعنا أن نضعها كلها في منزل في مكان ما ونقفل الباب. لماذا لم تقترح هذا؟».

هز رأسه في موافقة جدية، لكن دون أثر من الانزعاج: «نعم كان

Twitter: @ketab_n

بوسعنا أن نضع أغراضك في منزل ولكن، كما ترين، كان كل شيء سيُسرق بصرف النظر عن ذلك. سيسرقونه الآن، أو فيما بعد».

فكرت ألما بمجهرها ومواعين ورقها وحبرها وأقلام رصاصها ومجموعة قواريرها. ماذا عن ثيابها؟ يا إلهي، ماذا عن حقيبة أمبروس، المليئة بكل تلك الرسوم الخطيرة التي لا يمكن التحدث عنها؟ فكرت بأنها يجب أن تبكي.

«لكنني أحضرت هدايا للسكان المحليين يا أخ ويليس. يجب ألا يسرقوني. أحضرت لهم مقصات وشرائط!».

ابتسم ابتسامة متألقة: «حسناً، يبدو أنهم تلقوا هداياك!».

«لكن هناك أشياء يجب أن يعيدوها إلي، لها قيمة لا يُعبّر عنها».

لم يكن غير متعاطف بشكل كامل. كان عليها أن تسلّم له بهذا. هز رأسه بلطف، ولاحظ استياءها نوعاً ما: «هذا مزعج يا أخت ويتاكر. لكن تأكدي أنه لم يُسرق أي شيء من هذه الأشياء بشكل أبدي. لقد أُخذتْ الأغراض فحسب، ربما مؤقتاً، يمكن أن يعاد بعضها، إذا كنت صبورة. إذا كان هناك شيء له قيمة خاصة بالنسبة لك، يمكن أن أسأل عنه بشكل محدد. أحياناً إذا سألت بطريقة ملائمة تعاود الأشياء الظهور».

فكرت بكل ما حزمته. ما الذي تحتاج إليه أكثر؟ لم تستطع أن تسأل عن الحقيبة المليئة برسوم أمبروس الحسية، رغم أن فقدانها معذّب، وكانت ملكها الأكثر أهمية.

قالت بصوت خافت: «مجهري».

هز رأسه ثانية: «قد يكون هذا صعباً. إن المجهر شيء له جدة معتبرة هنا. لم ير أحد واحداً. ولا أعتقد أنني شاهدت واحداً أنا نفسي! لكنني سأسأل على الفور. نستطيع أن نأمل فحسب. بالنسبة لليلة، يجب أن

Twitter: @ketab_n

نعثر لك على مسكن. على بعد ربع ميل من الشاطئ هناك الكوخ الذي تعاونا في بنائه من أجل السيد بايك، حين جاء للمكوث هنا. وقد تُرك كما هو بعد وفاته، ليرحمه الله. اعتقدت أن أحد المحليين يمكن أن يدعي أن الكوخ له، لكن يبدو أن لا أحد سيدخله. إنه ملطخ بالموت، بالنسبة لأذهانهم، فهم قوم يؤمنون بالخرافات. لكنه كوخ ظريف بأثاث مريح، وإذا كنت غير مؤمنة بالخرافات، سترتاحين فيه. أنت لا تؤمنين بالخرافات يا أخت ويتاكر، أليس كذلك؟ لا أظنك هكذا. هل نذهب ونلقي نظرة عليه؟».

شعرت ألما كأنها تتفتت على الأرض. قالت، وهي تصارع كي تحمي صوتها من التلاشي: «يا أخ ويليس. اعذرني من فضلك، لقد اجتزت طريقاً طويلاً. أنا بعيدة عن كل ما هو مألوف بالنسبة لي. لقد صدمني كثيراً فقدان مقتنياتي، والتي نجحتُ في حراستها ١٥ ألف ميل من السفر، فقط كي تتلاشى منذ لحظة! لم أتناول لقمة طعام واحدة باستثناء عشائك الرباني اللطيف، منذ عشائي على ظهر سفينة صيد الحيتان بعد ظهر أمس. كل شيء جديد وغريب، وأنا متعبة كثيراً ودائخة. أطلب منك أن تغفر لي...» توقفت ألما عن الحديث. فقدت مسار هدف الكلام. لم تعرف ما الذي تطلب الغفران من أجله.

صفق بيديه: «كي تأكلي! أكيد يجب أن تأكلي! أعتذر يا أخت ويتاكر! فأنا نفسي لا أتناول الطعام، أو نادراً ما أفعل. نسيت أن الآخرين يجب أن يأكلوا! إن زوجتي ستنتقدني وتعنّفني بقوة إذا عرفت عن سلوكي السيء».

دون أن يتفوه بكلمة أخرى، وبدون شرح تكميلي حول موضوع زوجته، ركض القس ويليس وقرع باب الكوخ الأقرب إلى الكنيسة.

Twitter: @ketab_n

فتحت الباب المرأة التاهيتية الضخمة، التي ألقت الموعظة في ذلك المساء، . تبادلا بعض الكلمات. حدقت المرأة بألما، وهزت رأسها. اندفع القس ويليس إلى ألما بخطوته المرنة وساقيه المقوستين.

تساءلت ألما إن كانت هذه زوجة القس.

قال: «تم الأمر. ستقدم لك الأخت مانو الطعام. طعامنا هنا بسيط، لكنه كاف. ستحضر شيئاً ما إلى كوخك. طلبتُ منها أن تحضر لك أيضاً شالاً للنوم، الذي هو كل ما نستخدمه هنا في الليل. سأحضر لك مصباحاً أيضاً. والآن لننطلق في طريقنا. لا أستطيع التفكير بشيء آخر. لا أستطيع التفكير بشيء آخر يمكن أن تحتاجي إليه».

كان بوسع ألما التفكير بأشياء كثيرة تحتاج إليها، لكن وعد النوم والطعام كان كافياً لدعمها في ذلك الوقت. سارت خلف القس ويليس على رمال الشاطئ السوداء. سار بسرعة لافتة بالنسبة لشخص بساقين قصيرتين مقوستين. رغم خطواتها الواسعة، كان على ألما أن تستعجل كي تواكبه. كان يؤرجح مصباحاً إلى جانبه، لكنه لم يشعله، لأن القمر ارتفع وكان يتوهج في السماء. أجفلت ألما من أشكال كبيرة سوداء تسرع عبر الرمال في طريقهما. ظنت أنها جرذان، لكنها لدى النظرة المتمعنة اكتشفت أنها سرطانات. أقلقتها. كانت كبيرة الحجم، وكل منها له مخلب كالكماشة وكانت تزحف وتعدو قربهما، متكتكة بشكل كريه. اقتربت جداً من قدميها. ربما كانت تفضل الجرذان كما ظنت. كانت ممتنة أنها تنتعل حذاء. بدا كأن القس ويليس قد فقد صندله بين صلاة الخدمة والآن، لكنه لم يكن مهتماً بالسرطانات.

قال: «أنا متلهف إلى معرفة كيف ستجدين تاهيتي يا أخت ويتاكر من وجهة نظر نباتية. خاب أمل كثيرين من ذلك. إنه مناخ ثمل، لكننا

Twitter: @ketab_n

جزيرة صغيرة، ولهذا سترين أنه يوجد وفرة أكثر مما يوجد تنوع. وجد السير جوزف بانكس تاهيتي فقيرة نباتياً. وشعر أن الناس أكثر إثارة من النباتات. ربما كان مصيباً. لدينا صنفان من نباتات السحلبية فقط، وقد كان السيد بايك متأسفاً لسماعه هذا رغم أنه بحث بلهفة عن المزيد منها، وحالما تعرفين عن أشجار النخيل، الأمر الذي ستفعلينه بسهولة شديدة، لن تجدي الكثير كي تكتشفيه. ثمة شجرة تُدعى «أبيج» ستذكّرك بشجرة صمغ، ويبلغ طولها أربعين قدماً، لكنها ليست رائعة جداً بالنسبة لامرأة ترعرعت في غابات بنسلفانيا العميقة».

لم تكن ألما تملك طاقة على إخبار القس ويليس أنها لم تترعرع في غابة عميقة.

واصل كلامه: «ثمة نوع جميل من أشجار الغار يُدعى تامانو وهو مفيد وجيد. إن أثاثك مصنوع منه وهو منفّر للحشرات. وهناك نوع من المغنوليا يدعى هوتو، أرسلته إلى والدك الطيب في ١٨٣٨. توجد الخبازى والميموزا في كل مكان على الشاطئ. ستحبين شجرة كستناء الميب، ربما رأيتيها عند النهر؟ أعدّها أجمل شجرة في الجزيرة. تصنع النساء ثيابهن من لحاء نوع من شجر التوت الورقي يدعونه التابا لكن كثيراً منهن يفضلن الآن الألبسة القطنية التي يحضرها البحارة».

تمتمت ألما بحزن: «لقد أحضرت قماشاً قطنياً للنساء».

«آه، سيقدرن ذلك!» قال القس ويليس بانتعاش، كما لو أنه نسي أن مقتنيات ألما قد سُرقت.

«هل أحضرت ورقاً؟ كتباً؟».

«نعم»، قالت ألما، شاعرة بحزن أكبر في هذه اللحظة.

«إن الجو غير مناسب للورق هنا. الريح والرمال والملح والمطر

والحشرات، لم يكن هناك أبداً طقس أقل مساعدة للكتب! لقد راقبت جميع أوراقي تتلاشى أمام عيني!».

كما فعلتُ أنا، لتوي، كانت ألما على وشك القول. لم تعتقد أنها شعرت بجوع أو تعب كهذا من قبل في حياتها.

تابع القس ويليس: «أتمنى لو كنت أملك ذاكرة تاهيتية، حينها لن يحتاج المرء إلى أوراق! ما نحفظه في المكتبات يحفظونه في أذهانهم. أشعر بأنني نصف ذكي بالمقارنة. إن أصغر صياد سمك هنا يعرف أسماء مائتي نجم! ما يعرفه العجائز هنا لا تستطيعين تخيله. اعتدت الحفاظ على وثائق، لكن كان من المحبط جداً مراقبتها وهي تتآكل، حتى أثناء تدويني للكلمات. إن الطقس المُنْضج هنا ينتج الفاكهة والأزهار بوفرة، لكنه ينتج أيضاً العفن الفطري والتعفن. إنها ليست أرضاً للباحثين! لكن ما التاريخ بالنسبة لنا؟ إن بقاءنا في العالم وجيز! فلماذا يضايق المرء نفسه بتسجيل حيواتنا التي كالومضة؟ إذا أزعجك البعوض كثيراً في المساء يمكنك أن تطلبي من الأخت مانو أن تعلمك كيف تشعلين روث خنازير مجففاً عند بابك، فهذا يطرده قليلاً. ستجدين الأخت مانو أكثر فائدة. كنت ألقي المواعظ هنا، لكنها تستمتع بذلك أكثر مني، ويفضل السكان الأصليون مواعظها على مواعظي، وهكذا فهي الواعظ الآن. لا أسرة لديها، وهكذا تعتني بالخنازير. تطعمها بيديها كي تشجعها على البقاء قرب المستوطنة. إنها ثرية، بطريقتها الخاصة. تستطيع أن تقايض خنزيراً صغيراً بشهر من الأسماك والكنوز الأخرى. إن التاهيتيين يقدرون الخنازير المشوية. يعتقدون أن رائحة اللحوم المشوية تجذب الأرواح والآلهة. وبعضهم ما يزال يؤمن بهذا بالطبع، رغم كونهم مسيحيين، ها! ها! ها! على أي حال، من الجيد معرفة الأخت مانو. لديها صوت

Twitter: @ketab_n

جميل في الغناء. بالنسبة للأذن الأوربية، إن الموسيقا التاهيتية تحتاج إلى ما يجعلها ممتعة، لكنك ستتقبلينها مع مرور الوقت».

وهكذا لم تكن الأخت مانو زوجة القس ويليس، كما فكرت ألما. من زوجته إذاً؟ وأين هي؟

واصل السير بلا تعب: «إذا شاهدت أضواء فلا تخافي. سيكون هذا الضوء صادراً عن الرجال وهم ذاهبون إلى صيد الأسماك حاملين قناديلهم. هذا رائع. إن الأسماك الطائرة تنجذب إلى الضوء، وتسقط في القوارب. بعض الفتيان قادرون على اصطيادها بالأيدي. أقول لك إن أي نوع طبيعي مفقود في تاهيتي على اليابسة عُوض عنه في وفرة عجائب البحر! إذا كنت تحبين سأريك الحدائق المرجانية غداً. سترين هناك إبداع الخالق متجلياً بشكل أكثر وضوحاً. ها قد وصلنا إلى منزل السيد بايك! أو هل يجب أن أقول منزلك! في تاهيتي نسمي المنزل «فير». ستبدأين في الحال في تعلم كلمات جديدة».

كررت ألما الكلمة في ذهنها، «فير»، ووضعتها في الذاكرة. كانت منهكة، لكن حتى هكذا، حتى لو كانت ألما ويتاكر أكثر إنهاكاً، فإنها أذنيها ستنتصبان للإصغاء إلى لغة جديدة وغير مألوفة. وفي الوهج الباهت لضوء القمر، على منحدر خفيف من الشاطئ، استطاعت أن ترى المنزل الصغير مخبأ تحت ظلة من أشجار النخيل. كان أكبر من كوخ الحديقة الأصغر في وايت إيكر وجميل المنظر. وكان يشبه كوخاً إنكليزياً على شاطئ البحر، لكنه أصغر. وثمة ممر غريب متعرج من الأصداف البحرية المحطمة يقود من الشاطئ إلى الباب.

قال القس ويليس ضاحكاً: «أعرف أنه ممر غريب، لكن التاهيتيين شقوه. لا يرون فائدة في صناعة الممرات المستقيمة، حتى للمسافات

Twitter: @ketab_n

الأقصر! ستتعودين على هذه الأعاجيب! لكن من الجيد أن تكوني بعيدة قليلاً عن الشاطئ. أنت على ارتفاع أربع ياردات من أعلى مد».

أربع ياردات. لم يبد هذا كثيراً.

اقتربت ألما والقس ويليس من الكوخ على الممر المتعرج. استطاعت أن تشاهد الباب المصنوع من سعف النخيل المضفّر والذي فتحه بسهولة. كان من الواضح أنه ما من قفل فيه، ولم يكن هناك واحد من قبل. حالما صارا في الداخل أشعل المصباح. وقفا معاً في الغرفة الصغيرة المفتوحة، تحت سقف بسيط مغطى بالقش. بالكاد تستطيع ألما الوقوف دون أن يضرب رأسها بالرافدة الأكثر انخفاضاً. زحفت سحلية على الحائط. الأرضية مفروشة بالأعشاب المجففة التي خشخشت تحت قدمي ألما. وهناك مقعد خشبي صغير وخشن دون مخدات، لكن على الأقل له مسند للظهر وذراعان. وثمة طاولة بثلاثة كراس، أحدها مكسور ومقلوب. بدت كطاولة طفل، في مشفى فقير. تنفتح النوافذ التي بلا زجاج على جميع الجهات. كانت آخر قطعة أثاث سريراً صغيراً لا يتجاوز حجمه المقعد، وثمة فراش رقيق من القش فوقه. بدا كأن الفراش مصنوع من قماش شراع قديم، محشو بشيء أو آخر. كانت الغرفة مناسبة أكثر لشخص بحجم القس ويليس وليس بحجمها.

قال: «كان السيد بايك يعيش كالسكان المحليين، أي في غرفة واحدة، لكن إذا كنت تريدين قواطع نستطيع أن نصنعها لك».

لم تستطع ألما تخيل أن يمكن أن يضع المرء قاطعاً في هذا المكان الصغير. كيف تقسم اللاشيء إلى أجزاء؟

«يمكن أن ترغبي بالانتقال يوماً ما إلى بابيتي، يا أخت ويتاكر. معظم الناس يفعلون هذا. هناك المزيد من انحضارة في العاصمة، والمزيد من

Twitter: @ketab_n

الرذيلة، أيضاً، والمزيد من الشر. لكن يمكن أن تعثري على صيني يغسل لك ثيابك هناك، وأشياء من هذا القبيل. هناك كل أنواع البرتغاليين والروس، وكل أنواع الذين ينزلون من سفن صيد الحيتان ولا يغادرون أبداً. لا يعني هذا أن البرتغاليين والروس يشكلون حضارة، لكن ثمة تنوع بشري أكبر مما ستجدينه في مستوطنتنا الصغيرة».

هزت ألما رأسها، لكنها كانت تعرف أنها لن تغادر خليج ماتافاي. كان هذا منفى أمبروس؛ والآن هو منفاها.

تابع القس ويليس: «ستعثرين على بقعة للطبخ في الخلف، قرب الحديقة. لا تتوقعي الكثير من حديقتك، رغم أن السيد بايك حاول أن يحرثها بنبالة. الجميع يحاولون، لكن حالما تنهي الخنازير والماعز غزواتها، لا يُترك لنا الكثير من القرع! نستطيع أن نحصل لك على عنزة إذا كنت تريدين حليباً طازجاً. يمكن أن تطلبي من الأخت مانو».

كما لو أنها استُدعيت، ظهرت الأخت مانو على الباب. لا بد أنها كانت تسير خلفهما، ولم يكن هناك مجال لها كي تدخل مع ألما والقس ويليس إلى داخل الكوخ. ولم تكن ألما متأكدة من أن الأخت مانو قادرة على الدخول من الباب، والقبعة العريضة المزينة بالأزهار على رأسها. لكن رغم ذلك ضُغط الثلاثة في الداخل. فتحت الأخت مانو صرة من القماش وبدأت تضع الطعام على المائدة الصغيرة، مستخدمة أوراق الموز كصحون. سيطرت ألما على نفسها كي تمتنع عن الهجوم على الوجبة فوراً. وناولت الأخت مانو ألما أنبوباً من الخيزران مغلقاً بسدادة.

قالت الأخت مانو: «ماء كي تشربي».

قالت ألما: «شكراً لك على لطفك».

Twitter: @ketab_n

حدق الجميع ببعضهم لوهلة بعد ذلك: ألما بإعياء، الأخت مانو بحذر، والقس ويليس بابتهاج.

أخيراً، أحنى القس ويليس رأسه وقال: «نشكرك يا يسوع ويا ربنا على الوصول الآمن لخادمتك الأخت ويتاكر. ونطلب منك أن تنعم عليها بأفضالك، آمين».

ثم غادر هو والأخت مانو أخيراً، وبدأت ألما تأكل بكلتا يديها، بالعة الطعام في لقمات سريعة بحيث لم تتوقف للحظة واحدة كي تحدد ما الذي كانه بالضبط.

* * *

استيقظت في منتصف الليل من طعم حديد دافئ في فمها. شمت الدم والفراء. كان في غرفتها حيوان ثديي. اكتشفت هذه الحقيقة حتى قبل أن تذكر أين هي. خفق قلبها بسرعة وهي تسعى وراء المزيد من المعلومات. لم تكن على ظهر السفينة. كانت في تاهيتي! كانت في تاهيتي في الكوخ حيث سكن أمبروس وحيث مات. ما اسم الكوخ بالتاهيتية؟ «فير»، كانت في الكوخ الخاص بها، وكان فيه حيوان معها.

سمعت صوت أنين مرتفعاً وغريباً. جلست في السرير الصغير غير المريح ونظرت حولها. دخل ما يكفي من ضوء القمر عبر النافذة فاستطاعت رؤيته الآن: الكلب الذي يقف في وسط غرفتها. كان كلباً صغيراً، ربما يزن عشرين رطلاً. كانت أذناه راجعتين إلى الخلف ومكشراً عن أسنانه. حدّقا ببعضهما بعضاً. تحول أنين الكلب إلى هرير. لم ترد ألما أن تقاتل كلباً. خطرت لها هذه الفكرة ببساطة، وبهدوء. إلى جانب السرير هناك أنبوب الخيزران الذي أعطته لها الأخت مانو، وكان مليئاً بالمياه العذبة. كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن تصل إليه والذي

Twitter: @ketab_n

يمكن أن يخدم كسلاح. حاولت أن تخمن إن كانت تستطيع مد يدها إلى الإناء دون أن تثير ذعر الكلب أكثر. كلا، لم ترد بكل تأكيد أن تقاتل كلباً لكن إذا كان يجب أن تقاتل، أرادت أن تكون هذه مباراة متكافئة. مدت يدها ببطء إلى الأرض، دون أن تزحزح عينيها عن الكلب. نبح الكلب واقترب. سحبت ذراعها. حاولت ثانية. نبح الكلب ثانية، هذه المرة بغضب متزايد. لن تسنح لها الفرصة للعثور على سلاح.

ليكن الأمر. كانت متعبة جداً بحيث لا يمكن أن تخاف.

«ما مشكلتك معي؟» سألت الكلب، بنبرة منهكة.

وبعد سماع صوتها أطلق الكلب تياراً كبيراً من الشكاوى، نابحاً بقوة بحيث أن جسمه بدا كأنه يرتفع كلّه عن الأرض مع كل مقطع. حدقت إليه دون تعاطف. كان الوقت منتصف الليل وما من قفل على بابها. ليست لديها مخدة لرأسها، وفقدت مقتنياتها كلها وتنام في فستان السفر القذر، بأطرافه المليئة بالقطع النقدية المخبأة، كل ما تبقى لها من النقود بعد أن سُرقت مقتنياتها. لم يكن لديها إلا إناء الخيزران القصير كي تدافع عن نفسها، ولم يكن بوسعها الوصول إليه. كان كوخها محاطاً بالسرطانات ومليئاً بالسحليات. والآن هذا: كلب تاهيتي غاضب في غرفتها. كانت متعبة جداً، وشعرت تقريباً بالضجر.

قالت له: «هيا من هنا!».

نبح الكلب بصوت أعلى. استسلمت. أدارت ظهرها له، تقلبت وحاولت مرة أخرى العثور على وضعية مريحة على الفراش الرقيق. نبح وواصل النباح. لم يكن لاستيائه حدود. وقالت بينها وبين نفسها: هاجمْني إذاً. نامت على صوت غضبه.

بعد بضع ساعات استيقظت ألما. كان الضوء قد تغيّر، والوقت

Twitter: @ketab_n

يقارب الفجر. وكان هناك الآن فتى يجلس القرفصاء في وسط كوخها، ويحدق بها. طرفت عيناها واشتبهت بالسحر: أي ساحر أتى وحول كلباً صغيراً إلى صبي صغير؟ كان للفتى شعر طويل ووجه وقور. بدا تقريباً كأنه في الثامنة من عمره. لم يكن يرتدي قميصاً لكن ألما ارتاحت حين رأت أنه يلبس بنطلوناً رغم أن إحدى ساقيه ممزقة قليلاً، كما لو أنه نزع نفسه من مصيدة وترك ما تبقى من بنطلونه هناك.

قفز الفتى على قدميه، كما لو أنه كان ينتظر استيقاظها. اقترب من السرير. تراجعت إلى الخلف مذعورة لكنها شاهدت عندئذ أنه يحمل شيئاً، ويقدمه لها. توهج الشيء في ضوء الصباح الباهت، متوازناً في راحة كفه. كان شيئاً نحيلاً ونحاسياً. وضعه على حافة فراشها. كان عدسة مجهرها.

«آه!»، قالت. وحين سمع الفتى صوتها ركض خارجاً. الشيء المهلهل الذي دعا نفسه باباً انفتح خلفه دون صوت.

لم تستطع ألما أن تنام مرة ثانية، لكنها لم تنهض على الفور أيضاً. كانت منهكة جداً الآن كما كانت أمس. من سيأتي إلى غرفتها أيضاً؟ أي نوع من المكان كان هذا؟ يجب أن تعثر على وسيلة لإقفال الباب نوعاً ما، لكن بماذا؟ كان بوسعها أن تحرك الطاولة الصغيرة وتدعم بها الباب ليلاً، لكنها يمكن أن تُدفع جانباً بسهولة. وبنوافذ لم تكن أي شيء سوى فجوات حُفرت في الجدران، أي نفع سيجديه دعم الباب؟ مسدت بإصبعها عدسة المجهر بتشوش وتوق، أين بقية المجهر الذي تحبه؟ من كان الفتى؟ كان يجب أن تطارده، كي تعرف أين يخفي كل ما تملكه.

أغمضت عينيها وأصغت للأصوات غير المألوفة التي حولها. شعرت

تقريباً كما لو أن بوسعها أن تسمع الفجر وهو يطلع. واستطاعت سماع الأمواج تماماً وهي تنحطم خارج كوخها. بدا كأن الأمواج قريبة على نحو مقلق. تفضل أن تكون أبعد قليلاً عن البحر. شعرت بأن كل شيء قريب جداً، وخطير جداً. حطَّ طائر على السقف مباشرة فوق رأسها، وأطلق صرخة غريبة. بدت كمثل: «فكّري! فكّري! فكّري!».

كما لو أنها لم تقم بأي شيء آخر أبداً.

نهضت ألما أخيراً، مستسلمةً لليقظة. تساءلت أين تعثر على مرحاض أو بقعة تخدم كمرحاض. في الليلة الماضية قرفصت خلف الكوخ، لكنها كانت تأمل ترتيباً أفضل في الجوار. خرجت من الباب الأمامي واصطدمت قدمها بشيء ما. نظرت إلى الأسفل وشاهدت تماماً على عتبة بابها حقيبة أمبروس، تنتظرها باحترام وغير مفتوحة ومحكمة الإغلاق كما كانت. ركعت، فتحت المشابك وفتشت بسرعة المحتويات: كانت الصور كلها هناك.

في أعلى وأسفل الشاطئ، بقدر ما تستطيع أن ترى في ضوء الصباح الباهت لم تكن هناك علامة على وجود أي شخص، لا نساء ولا رجال، لا فتى ولا كلب.

وصرخ الطائر فوق رأسها: «فكّري! فكّري!».

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث والعشرون

لا يتوقف الزمن عن المرور، حتى في المواقف الأكثر غرابة وبعداً عن المألوف، فقد مرَّ الزمن بالنسبة لألما في خليج ماتافاي. وبدأت، ببطء وعلى نحو متعثر، تفهم العالم الجديد.

وكما كانت تفعل أثناء طفولتها، في بداية تفتّح وعيها، بدأت ألما بدراسة كوخها. لم يستغرق هذا طويلاً، ذلك أن كوخها التاهيتي الصغير لم يكن وايت إيكر. ولم يكن هناك أي شيء سوى الغرفة الوحيدة، والباب الضعيف، والنوافذ الثلاث المفتوحة، والأثاث البسيط، والسقف المسقوف بالقش والمليء بالعظاءات. في ذلك الصباح نفسه، فتشت ألما الكوخ بشكل شامل من أجل أثر عن أمبروس، لكنها لم تعثر على أي شيء. بحثت عن آثار لأمبروس حتى قبل أن تبدأ بالبحث عن متاعها المسروق، لكن دون نتيجة. ما الذي كانت تأمل العثور عليه؟ رسالة إليها، مكتوبة على الحائط؟ مجموعة رسوم؟ ربما رزمة رسائل، أو دفتر يوميات يكشف شيئاً ما غير الشوق الروحاني غير القابل للتفسير؟ لكن لم يكن هناك أثر منه.

مستسلمةً، استعارت مكنسة من الأخت مانو وأزالت أعشاش العناكب عن الجدران. استبدلت الأعشاب القديمة اليابسة للأرضية بأعشاب جافة جديدة. نفضت فرشتها وقبلت الكوخ الصغير كمسكن لها. وقبلت كذلك، كما طلب منها القس ويليس، الحقيقة المحبطة بأن

مقتنياتها إما ستظهر في النهاية وإما لن تظهر، ولا يوجد شيء يمكن فعله أبداً حيال هذا الأمر. ورغم أن هذه الأنباء منغّصة، فإن شيئاً فيها منح شعوراً بأنها ملائمة على نحو غريب وعادلة. أن تُجرد من كل ما هو ثمين قدم نوعاً من التوبة الفورية. ولّد لديها شعوراً بأنها أقرب نوعاً ما إلى أمبروس؛ فتاهيتي هي المكان الذي جاءا إليه كي يفقدا كل شيء.

مرتدية فستانها الوحيد المتبقي واصلت استكشاف البيئة المحيطة بها.

كان خلف الكوخ شيء ما يدعى الهِما himaa، وهو موقد حيث صارت تغلي الماء وتطبخ أنواعاً محدودة من الطعام. وعلمتها الأخت مانو كيف تتعامل مع الفاكهة والخضار المحلية. لم تعتقد ألما أن المنتج النهائي لطبخها سيكون مذاقه مثل السخام أو الرمل، لكنها ثابرت وشعرت بالفخر من أنها تستطيع أن تغذي نفسها، الأمر الذي لم تفعله من قبل طيلة حياتها. (فكرت وهي تبتسم ابتسامة محزنة أنها ذاتية التغذية؛ كم ستكون ريتا سنو فخورة بها الآن). كان هناك بقعة حديقة تدعو للأسى، لكن لا يوجد الكثير الذي يمكن فعله إزاءها؛ فقد بنى أمبروس بيته على الرمال المشتعلة، وهكذا كان من العبث حتى القيام بمحاولة. لم يكن هناك ما يمكن فعله حيال السحليات أيضاً، والتي تزحف على الدعامات والروافد طول الليل. لكنها تساعد في التخفيف من البعوض، وهكذا لم تكترث ألما بها. تعرف أنها لن تؤذيها رغم أنها لم ترغب بأن تزحف عليها وهي نائمة. كانت سعيدة أنه لا يوجد أفاع. ولحسن الحظ، ليست تاهيتي بلد أفاع.

لكنها بلد سرطانات بحرية، وعلّمت ألما نفسا ألا تتضايق من السرطانات من كل الأحجام التي تزحف حول قدميها على الشاطئ. فهي لم تكن تنوي إيذاءها أيضاً. حالما تلمحها بأعينها المتموجة المطاردة

Twitter: @ketab_n

تنطلق في الاتجاه الآخر في ذعر سريع متكتك. اعتادت السير حافية القدمين حالما بدأت تعرف كم الأمر آمن. تاهيتي شديدة الحرارة وشديدة الرطوبة، وكثيرة الرمال، وتجعل الأحذية تنزلق. ولحسن الحظ، ترحب البيئة بالأقدام الحافية؛ ذلك أنه لا يوجد في الجزيرة نبتة شوكية واحدة، ومعظم الممرات صخر ناعم أو رمل.

عرفت ألما شكل وشخصية الشاطئ، وعادات المد. لم تكن سبّاحة، لكنها شجعت نفسها على التخويض في المياه البطيئة المظلمة لخليج ماتافاي إلى أعمق قليلاً كل أسبوع. كانت ممتنة للحيد المرجاني، الذي جعل الخليج هادئاً.

تعلمت السباحة في النهر في الصباحات مع نساء أخريات من المستوطنة، وكلهن بدينات وقويات كألما. كانت التاهيتيات بارعات في التنظيف الشخصي، يغسلن شعرهن وأجسامهن بنسغ يرغي من نباتات الزنجبيل على الضفاف. إن ألما، التي لم تكن معتادة على الاستحمام يومياً، تساءلت في الحال لماذا لم تكن تفعل هذا طيلة حياتها. تعلمت أن تتجاهل مجموعات الصبية الصغار الذين يقفون حول النهر، ويضحكون على النساء بسبب عريهن. لم تكن هناك فائدة من محاولة الاختباء منهم؛ ولم تكن هناك ساعة في النهار أو الليل لن يعثر عليك فيها الأولاد.

لم تعترض النساء التاهيتيات على ضحك الأطفال. كنّ أكثر قلقاً على شعر ألما السلكي والخشن والمتلاشي، وشكين منه بحزن. كان لجميعهن شعر جميل يتموج بلونه الأسود على ظهورهنّ، وشعرْن بالحزن على ألما لأنها لا تملك هذه السمة الجميلة. شعرت بالرعب من نفسها. كان أول شيء تعلمته ألما للتعبير بالتاهيتية هو الاعتذار عن

Twitter: @ketab_n

شعرها. تساءلت إن كان هناك مكان في العالم تستطيع الذهاب إليه لا يُعَدّ فيه شعرها مأساة. شكت أنه لا يوجد.

تعلمت ألما من اللغة التاهيتية قدر استطاعتها، من أي شخص تحدث معها. اكتشفت أن الناس محبون ومساعدون، ويشجعون جهودها كنوع من اللعب. بدأت بالكلمات من أجل الأشياء الأكثر شيوعاً في خليج ماتافاي: الأشجار والعظاءات والأسماك والسماء والحمامات الصغيرة والجميلة التي تُدعى يويرو uuairo (وهي كلمة إيقاعها كصوت هديلها الناعم والمحتدم تماماً). انتقلت إلى النحو بالسرعة الممكنة. كان سكان مستوطنة البعثة التبشيرية يتحدثون الإنكليزية بمستويات مختلفة من الكفاءة. وكان البعض فصيحاً، والبعض الآخر مبدعاً، لكن ألما، اللغوية دوماً، صممت على إبقاء تفاعلاتها باللغة التاهيتية كلما كان هذا ممكناً.

اكتشفت أن التاهيتية ليست لغة بسيطة. بدا إيقاعها لأذنيها كتغريد الطيور أكثر مما هو كلام، ولم تكن موسيقية بما يكفي كي تتقنها. قررت ألما أن التاهيتية ليست لغة موثوقة. ولم تكن تملك أفعال الأمر القوية للاتينية واليونانية. وكان الناس في خليج ماتافاي يلعبون بالكلمات، ويغيرونها كل يوم. ويخلطونها أحياناً مع بعض الإنكليزية أو الفرنسية، مبتكرين كلمات جديدة خيالية. وكان التاهيتيون يحبون التوريات الغامضة العميقة التي لا يمكن أن تفهمها ألما أبداً إلا إذا كان أجداد أجدادها مولودين هنا. فضلاً عن ذلك، كان الناس في خليج ماتافاي يتحدثون بشكل مختلف عن الناس في بابيتي، والتي لا تبعد إلا سبعة أميال، وكان الناس هنا يتحدثون بشكل مختلف عن الناس في تارافاو أو تيهوبو. لا تمكن الثقة بأن تعني جملة الشيء نفسه في جانب من الجزيرة

Twitter: @ketab_n

كما تعني في الجانب الآخر، أو أن تعني الشيء نفسه اليوم كما كانت تعني أمس.

درست ألما الناس الذين حولها بدقة، محاولة أن تتعلم عادات هذا المكان الغريب. كانت الأخت مانو هي الأكثر أهمية، فهي لم تكن تهتم بالخنازير فقط، بل تدير المستوطنة كلها. كانت سيدة تتقيد بقواعد صارمة، ومتنبهة بشكل دقيق إلى السلوك والزلات. وبينما أحب كل من في المستوطنة القس ويليس، ألا أنهم كانوا يخشون الأخت مانو. وكانت الأخت مانو، والتي اسمها يعني «الطائر»، بطول ألما، وتملك عضلات قوية كرجل. كان بوسعها أن تحمل ألما على ظهرها، ولم يكن هناك الكثير من النساء اللواتي يستطيع المرء أن يقول عنهن هذا.

كانت الأخت مانو ترتدي دوماً قبعة قشية عريضة، تزينها بأزهار طازجة مختلفة كل يوم، لكن ألما شاهدت أثناء وقت الاستحمام في النهر أن جبهة مانو مغطاة بخليط من الندوب البيضاء. اثنتان أو ثلاث من النساء الأكبر في السن كان عليهنّ علامات غامضة مشابهة على جباههن، لكن مانو كان فيها ندوب أخرى مختلفة. كانت تفتقر إلى السلامية الأخيرة لكل من خنصريها الصغيرين. بدا هذا لألما كأذى غريب، أنيق ومتناسق. لم يكن بوسعها تخيل ما الذي فعله المرء بحيث فقد سلاميتي خنصريه بشكل متناسق كهذا. لم تتجاسر على السؤال.

كانت الأخت مانو هي التي تقرع الجرس من أجل الصلاة كل صباح وكل مساء، والأشخاص، الثمانية عشر من بالغي المستوطنة، يأتون مطيعين. حتى ألما حاولت ألا تفوّت أبداً الصلوات في خليج ماتافاي، لأن هذا كان سيهين الأخت مانو، ولم يكن بوسع ألما أن تبقى حية حتى الآن لولاها. على أي حال، اكتشفت ألما أن الصلوات لم تكن

Twitter: @ketab_n

صعبة الحضور، فنادراً ما تستمر أكثر من ربع ساعة، وكانت مواعظ الأخت مانو في إنكليزيتها الجامحة مسلية على الدوام. (لو كانت الاجتماعات اللوثرية في فيلادلفيا مبسطة ومسلية هكذا، كما فكرت ألما، لأصبحت لوثرية). ركزت ألما انتباهها وفي الوقت المناسب فهمت الكلمات والعبارات في الأناشيد الكثيفة باللغة التاهيتية.

تي ريما أتوا: يد الله.

تي ماو بيور أتوا: شعب الله.

بالنسبة للفتى الذي أحضر عدسة المجهر في الليلة الأولى، عرفت أنه كان واحداً من مجموعة من خمسة أولاد يطوفون في مستوطنة البعثة التبشيرية دون مهنة ملحوظة سوى اللعب دون توقف إلى أن ينهاروا من الإعياء على الرمال، وينامون حيث يسقطون كالكلاب. استغرق الأمر مع ألما أسابيع كي تميز بين الأولاد. كان الذي دخل إلى كوخها وأعطاها عدسة المجهر يُدعى هيرو، كما عرفت. وكان شعره هو الأطول، وبدا كأن له المرتبة الأعلى في العصابة. (علمت فيما بعد أن هيرو في الميثولوجيا التاهيتية هو ملك اللصوص. سرّها أن لقاءها الأول مع الملك الصغير للصوص في خليج ماتافاي حدث حين أعاد شيئاً ما سُرق منها). كان هيرو شقيق الفتى الذي يدعى ماكيا، رغم أنهما ربما لم يكونا شقيقين فعليين. زعما أيضاً أنهما شقيقان لبابيها وتينومانا وآخر يدعى ماكيا، لكن ألما اعتقدت أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، لأن جميع الأطفال الخمسة بدوا كأنهم في السن نفسها. وكانت عاجزة عن تحديد أولاد من هم. ليس هناك أدنى إشارة بأن أحداً ما يعتني بأولئك الأولاد سوى أنفسهم..

كان هناك أطفال آخرون في أنحاء خليج ماتافاي، لكنهم كانوا

Twitter: @ketab_n

يعيشون حياتهم بجدية أكبر بكثير من الأولاد الخمسة الذين بدأت ألما تفكر بهم كـ «فرقة هيرو». كان الأطفال الآخرون يأتون إلى مدرسة البعثة التبشيرية من أجل دروس في اللغة الإنكليزية والقراءة كل بعد ظهر، حتى لو لم يكن آباؤهم من سكان مستوطنة القس ويليس. كانوا فتياناً صغاراً بشعر أنيق وقصير، وفتيات صغيرات بضفائر جميلة، وفساتين طويلة وابتسامات متألقة. وكانوا يتلقون دروسهم في الكنيسة حيث تعلمهم المرأة ذات الوجه المتألق، والتي قالت لألما في يومها الأول: «نحن نتحدث الإنكليزية هنا!» اسم تلك المرأة إيتيني، ويعني «الأزهار البيضاء المتناثرة على الطريق»، وتتحدث الإنكليزية بشكل تام بلكنة بريطانية جافة. وقيل إنها تعلمت اللغة وهي طفلة على يد زوجة القس ويليس، وتُعد إيتيني الآن أفضل مدرّسة لغة إنكليزية في البلاد كلها.

أُعجبت ألما بأطفال المدرسة الأنيقين والمنظمين، لكنها كانت مفتونة أكثر بالفتيان الخمسة البريين وغير المتعلمين الذي يشكلون فرقة هيرو. لم تر أبداً من قبل أطفالاً أحراراً مثل هيرو وماكيا وبابيها وتينومانا وماكيا. كانوا لوردات أحراراً وصغاراً ومرحين. وكمثل مزيج أسطوري من الأسماك والطيور والقردة بدوا كأنهم في موطنهم في الماء والأشجار وعلى الأرض. وكانوا يتدلون من العرائش ويقذفون بأنفسهم في النهر بصيحات فرح دون خوف. ويخوضون في الحيد المرجاني على ألواح خشبية صغيرة ثم، وعلى نحو لا يُصدق، يقفون على هذه الألواح، ويبحرون عبر الزبد، ويقتحمون الأمواج. يسمون هذا النشاط «فاهيي» faheei، ولم تستطع ألما أن تتخيل الرشاقة والثقة التي لا بد أنهم شعروا بها وهم يركبون بسهولة فوق الأمواج المتدحرجة. وعلى الشاطئ، يتلاكمون ويتصارعون بلا توقف. وثمة لعبة أخرى مفضلة لديهم هي بناء ركائز لأنفسهم، يغطون أجسادهم بنوع ما من البودرة البيضاء، ويفتحون

Twitter: @ketab_n

أجفانهم بعيدان، ويطاردون بعضهم عبر الرمال كمثل وحوش طويلة وغريبة. كانوا أيضاً يطيّرون «اليو»، وهي طائرة ورقية مصنوعة من سعف النخيل المجفف. وفي لحظات أهدأ يلعبون لعبة تشبه لعبة «الجاكس». كانوا يأتون بمجموعة من القطط والكلاب والببغاوات وحتى الأنقليس. كانت أسماك الأنقليس توضع في أقفاص مائية في النهر؛ وحين تسمع صوت صفير الأطفال ترفع رأسه بغرابة فوق سطح الماء كي يتم إطعامها قطع فاكهة باليد. كانت فرقة هيرو تأكل أحياناً حيواناتها الأليفة، بعد أن تسلخ جلدها وتشويها في ما يشبه السيخ. كان تناول لحم الكلاب ممارسة شائعة هنا. وأخبر القس ويليس ألما أن الكلب التاهيتي طيب المذاق كلحم الخروف الإنكليزي، لكن الرجل لم يتذوق لحم الخروف الإنكليزي لعقود، وهكذا لم تكن متأكدة من أنه يمكن الثقة بكلامه. كانت تأمل ألا يأكل أحد روجر.

عرفت ألما أن روجر هو اسم الكلب الذي زارها في تلك الليلة الأولى في الكوخ. لم يبد أن روجر ملك لأي شخص، لكنه كان مولعاً نوعاً ما بأمبروس، الذي وهبه اسمه المحترم. قالت الأخت إيتيني كل هذا لألما، مع هذه النصيحة المقلقة: «لن يعضك روجر يا أخت ويتاكر إلا إذا حاولت أن تطعميه بيدك».

في الأسابيع الأولى من سكن ألما، كان روجر يأتي إلى غرفتها الصغيرة ليلة بعد أخرى، كي ينبح عليها من كل قلبه. لوقت طويل، لم تره أبداً أثناء النهار. بالتدريج، وبتردد واضح، تلاشى استياؤه، وصارت نوبات غضبه مختصرة أكثر. في صباح أحد الأيام استيقظت ألما كي تجد روجر نائماً على الأرض قرب فراشها، مما يعني أنه دخل منزلها الليلة الماضية دون أن ينبح. بدا هذا رائعاً. وحين سمع صوت حركة ألما، نبح روجر وركض، لكنه عاد في الليلة التالية، وصار صامتاً مذاك

Twitter: @ketab_n

فصاعداً. حاولت أن تطعمه وحاول بالفعل أن يعضها. بصرف النظر عن هذا، مكثا بشكل جيد معاً. لا يعني هذا أن روجر صار ودوداً لكنه لم يعد يبدو راغباً بانتزاع حنجرتها من جسمها، وكان هذا تحسناً.

كان روجر كلباً مقيت الشكل. كان برتقالي اللون ومرقشاً، بفك مكوّن بطريقة شاذة ويعرج بشكل سيء، وبدا كأن شيئاً ما قد عمل بقوة كي يمضغ قسماً كبيراً من ذيله. كان محدباً أيضاً، لكن ألما رغم ذلك قدرت حضور الكلب. لا بد أن أمبروس أحبه لسبب ما، كما ظنت، وقد فتنها هذا. كانت تحدق في الكلب لساعات وتتساءل ما الذي يعرفه عن زوجها، وما الذي شاهده. شكلت رفقته راحة. وبينما لم تستطع الزعم بأن روجر كان حامياً أو مخلصاً لها، بدأت تشعر كأنه نوع من الصلة مع المنزل. إن معرفتها بأنه سيأتي إلى الكوخ، جعلتْها تشعر نوعاً ما بأنها أقل خوفاً إذا نامت وحيدة في الليل.

كان هذا جيداً، ذلك أن ألما تخلت عن الأمل باتخاذ أي إجراء آخر للأمان أو الخصوصية. لم يكن هناك مكسب يمكن الحصول عليه من محاولة رسم الحدود حول منزلها أو مقتنياتها القليلة المتبقية. كان البالغون والأطفال والحيوانات والطقس، وكل شيء في خليج ماتافاي، يشعرون بالحرية، في أية ساعة من النهار أو الليل، ولأي سبب كان، في دخول منزل ألما. ولم يأتوا دوماً فارغي الأيدي، كي نكون منصفين. فقد عاودت مقتنياتها الظهور مع مرور الوقت، في قطع وشظايا. لم تعرف أبداً من أعاد هذه الأشياء إليها. ولم تر هذا يحدث أبداً. بدا الأمر وكأن الجزيرة تسعل مخرجة ببطء أجزاء من أغراضها المُبْتلعة.

في الأسبوع الأول استعادت بعض الأوراق وثوباً نسائياً وقارورة دواء وقطعة قماش وكرة خيوط قنب وفرشاة شعر. وفكرت أنها لو انتظرت

طويلاً بما يكفي ستعود أغراضها كلها. لكن هذا لم يكن صحيحاً، ذلك أن الأشياء من المحتمل أن تختفي كما تظهر. استعادت فستان سفرها الآخر، وكانت أطرافه التي خبئت فيها النقود سليمة على نحو مذهل، وكانت هذه بركة حقيقية، رغم أنها لم تستعد أياً من قلنسواتها الاحتياطية. عثرت بعض أوراقها الخاصة بالكتابة على طريق عودتها إليها، لكن ليس الكثير منها. لم تر حقيبتها الطبية ثانية، لكن عدة زجاجات خاصة بجمع النباتات وُضعت على عتبة بابها في صف أنيق. واكتشفت في صباح أحد الأيام أن فردة حذاء اختفت، فردة حذاء واحدة فقط! لم تستطع تخيل ماذا يمكن أن يفعل المرء بفردة حذاء واحدة، بينما في الوقت نفسه، مجموعة مفيدة من الألوان المائية قد أعيدت. في يوم آخر، استعادت قاعدة مجهرها الثمين، لكنها اكتشفت أن أحداً ما أخذ العدسة. بدا وكأن هناك مداً يعلو إلى داخل الكوخ وينحسر خارجاً منه، يودع ويسحب بعيداً حطام حياتها القديمة. ولم يكن لديها خيار سوى قبوله، وأن تتعجب، يوماً بعد آخر، مما عثرت عليه وفقدته، ثم وجدته وفقدته مرة أخرى.

لم تُؤخذ حقيبة أمبروس منها مرة ثانية أبداً. ففي ذلك الصباح نفسه الذي أعيدت فيه إلى عتبة بابها، وضعتها على الطاولة الصغيرة في الكوخ، وبقيت هناك، دون أن تُلمس أبداً، كما لو أن مينوتوراً بولينزياً غير مرئي يحرسها. علاوة على ذلك، لم تختف رسمة واحدة من الرسومات الخاصة بالفتى. لم تعرف لماذا عوملت هذه الحقيبة ومحتوياتها باحترام كهذا، حين لم يكن أي شيء آخر آمناً في خليج ماتافاي. لن تجرؤ على سؤال أحد: *لماذا لم تلمس هذا الشيء، أو تسرق هذه الرسومات*؟ لكن كيف يمكن أن تشرح الرسومات، أو ما

Twitter: @ketab_n

تعنيه الحقيبة لها؟ كان كل ما بوسعها فعله هو البقاء صامتة، وألا تفهم أي شيء.

* * *

ركزت ألما تفكيرها على أمبروس طيلة الوقت. لم يترك أي أثر في تاهيتي، سوى ولع الجميع المتبقي به، لكنها بحثت عن إشارات تدل عليه بلا توقف. كل ما فعلته، وكل ما لمسته، جعلها تتساءل: هل فعل هو هذا أيضاً؟ كيف أمضى وقته هنا؟ ما رأيه بمنزله الصغير، والطعام الغريب، واللغة الصعبة، والبحر اللانهائي، وفرقة هيرو؟ هل أحب تاهيتي؟ أم هل وجدها، مثل ألما، غريبة جداً ومختلفة بحيث لم يستطع أن يحبها؟ هل احترق تحت الشمس، كما تحترق ألما الآن على رمال هذا الشاطئ الأسود؟ هل اشتاق إلى الأزهار البنفسجية الجميلة وطيور السمن الهادئة في الوطن، كما تشتاق ألما إليها، رغم أنها أحبت الخبازى الخضراء والببغاوات الخضراء الصاخبة هنا؟ هل كان كئيباً وحزيناً، أم كان يفيض بالفرح لأنه اكتشف الفردوس؟ هل حدث وفكر بألما حين كان هنا؟ أم نسيها بسرعة، وقد أراحه التحرر من رغباتها المحبطة؟ هل نسيها لأنه وقع في غرام الفتى؟ وبالنسبة للفتى، أين هو الآن؟ لم يكن في الحقيقة فتى، كان على ألما أن تعترف بهذا لنفسها، وخاصة حين درست الرسومات ثانية. إن الشكل الذي فيها هو لفتى على حافة الرجولة. في مثل هذا الوقت، بعد سنتين أو ثلاث يجب أن يكون رجلاً كامل النمو. في ذهن ألما، كان ما يزال الفتى، ولم تتوقف أبداً عن البحث عنه.

لكن ألما لم تستطع العثور على أثر أو ذكر للفتى في خليج ماتافي. بحثت عنه في وجوه جميع الرجال الذين مروا في المستوطنة، وفي

Twitter: @ketab_n

وجوه جميع الصيادين على الشاطئ. وحين أخبر القس ويليس ألما أن أمبروس علّم تاهيتياً من السكان الأصليين سر الرعاية بنبات الونيل (أطفال صغار، أصابع صغيرة، عصي صغيرة)، اعتقدت ألما، أن هذا يجب أن يكون هو. لكنها حين ذهبت إلى المزرعة كي تتحقق، لم يكن هو، بل كان شخصاً أضخم وأكبر في السن، بضماد على إحدى عينيه. ذهبت ألما عدة مرات إلى مزرعة الونيل متظاهرة بالاهتمام بمجريات العمل هناك، لكنها لم تشاهد أحداً يشبه الفتى ولو من بعيد. كانت تعلن كل بضعة أيام تقريباً أنها ذاهبة لجمع النباتات، لكنها تذهب إلى العاصمة بابيتي، مستعيرة مهراً من المزرعة من أجل الرحلة الطويلة. حالما تصل إلى هناك تسير في الشوارع طول النهار حتى المساء، مفتشةً كل الوجوه العابرة. كان المهر الذي يتبعها نسخة هيكل عظمي استوائي عن سواميس، صديق طفولتها. بحثت عن الفتى على رصيف المرفأ، خارج المواخير، في الفنادق المليئة بمستعمرين فرنسيين رائعين، في الكاتدرائية الكاثوليكية الجديدة، وفي السوق. كانت تشاهد أحياناً رجلاً محلياً طويلاً وقوي البنية بشعر قصير يسير أمامها فتركض إليه وتربت على كتفه، مستعدة أن تسأله سؤالاً، لكنها تجعله يستدير. ولدى كل لقاء كانت متأكدة: سيكون هذا هو.

لم يكن هو أبداً.

عرفت أنها ستحتاج في الحال إلى توسيع نطاق بحثها، وأن تذهب للبحث عنه خلف ضواحي بابيتي وخليج ماتافاي لكنها لم تعرف كيف تبدأ. كانت طول جزيرة تاهيتي ٣٥ ميلاً وعرضها ١٢ميلاً، على شكل رقم ثمانية (٨) غير متناسب الفلقتين. كانت مساحات كبيرة منها من المستحيل اجتيازها. فحالما يغادر المرء الطريق الرملي المظلل الذي يلتف جزئياً حول خط الساحل، تصبح الأرض متحدية بشكل مخيف.

Twitter: @ketab_n

كانت مزارع البطاطا ذات المصاطب تزحف متسلقة التلال، مع غيضات جوز الهند، وأمواج من الأعشاب المنخفضة، لكن حينئذ، وفجأة، تتكشف جروف طويلة وأدغال مستحيلة العبور. كان بعض الأشخاص فقط يعيشون في الأراضي المرتفعة. وقد راقب التاهيتيون الذين يعيشون في الجروف والتاهيتيون الذين يعيشون على الساحل بعضهم بعضاً بحذر، وكان هناك حدود لم يحاول أي طرف عبورها. ربما كان الفتى من القبائل التي تعيش في الجروف، لكن لوحات أمبروس رسمته على الشاطئ، يحمل شباك صياد. لم تستطع ألما حل اللغز.

كان من المحتمل أيضاً أن الفتى بحار، عامل على متن سفينة حيتان زائرة. إذا كانت هذه هي الحالة، لن تعثر عليه أبداً. قد يكون ميتاً. لكن غياب البرهان لم يكن برهاناً على الغياب كما كانت ألما تعرف جيداً.

يجب عليها أن تواصل البحث.

لم تتوصل إلى أية معلومات داخل مستوطنة البعثة التبشيرية. لم يكن هناك أبداً أية ثرثرة شريرة حول أمبروس، حتى في النهر أثناء الاستحمام، حيث جميع النساء يثرثرن بحرية. لم يقم أحد بأي تعليق منحرف حول السيد بايك، الذي يشتاقون إليه ويمتدحونه كثيراً. حتى أن ألما ذهبت بعيداً بحيث أنها سألت القس ويليس: «هل كان للسيد بايك أي صديق خاص حين كان هنا؟ أحد ما حرص عليه أكثر من الآخرين؟».

حدق بها فقط بنظرته الصريحة وقال: «كان الجميع يحبون السيد بايك».

كان هذا في اليوم الذي ذهبوا فيه لزيارة قبر أمبروس. طلبت منه ألما أن يأخذها إلى هناك، كي تقدم العزاء لموظف والدها الميت. وفي بعد

Twitter: @ketab_n

ظهر بارد ومدلهم، تسلقا معاً الطريق كله إلى هضبة تاهارا، حيث تم بناء مقبرة بريطانية صغيرة قرب قمة الهضبة. كان القس ويليس رفيق المشي الأكثر إمتاعاً، كما اكتشفت ألما، فقد كان يسير بسرعة وتمكّن على الأرض، ويقدم معلومات ممتعة جداً وهما يسيران معاً.

قال في ذلك اليوم، وهما يتسلقان الهضبة المتحدرة: «حين وصلت إلى هنا لأول مرة حاولت أن أحدد أياً من النباتات والخضار أصلية في تاهيتي، وأي نباتات أحضرها المستوطنون والمستكشفون الأقدم إلى هنا، لكن من الصعب جداً تحديد أشياء كهذه، ذلك أن التاهيتيين أنفسهم لا يقدمون مساعدة جيدة في هذا المجال، يقولون إن جميع النباتات، حتى الزراعية بينها، زرعتْها الآلهة هنا».

قالت ألما، لاهثة: «قال اليونانيون الكلام نفسه. قالوا إن عرائش الكرمة وأشجار الزيتون زرعتها الآلهة».

قال القس ويليس: «نعم، يبدو كأن الناس قد نسوا ما أبدعوه بأنفسهم، أليس كذلك؟ نعرف الآن أن شعب بولينزيا كله يحمل جذور التار ونخيل جوز الهند وأشجار ثمار الخبز معه حين ينطلق كي يستقر في جزيرة جديدة، لكنهم يقولون لك إن الآلهة هي التي زرعت هذه الأشياء هنا. إن بعض هذه القصص خرافية تماماً. يقولون إن شجرة الخبز صنعتها الآلهة كي تشبه جسداً بشرياً، كمفتاح للبشر، كي تخبرنا أن الشجرة مفيدة. يقولون لهذا تشبه أوراق شجرة الخبز الأيدي، كي تظهر للبشر أنهم يجب أن يمدوا أيديهم إلى هذه الشجرة ويعثروا فيها على الغذاء. وفي الحقيقة يقول التاهيتيون إن جميع النباتات المفيدة على هذه الجزيرة تشبه أجزاء من الجسم البشري، كرسالة من الآلهة. لهذا زيت جوز الهند، المفيد للصداع، يأتي من جوزة الهند التي تبدو

كرأس. ويُقال إن كستناء الميب جيد لأمراض الكلية لأنه يشبه الكلية، أو هكذا قيل لي. إن النسغ الأحمر المتألق لنبتة الفاي مفيد لأمراض الدم».

تمتمت ألما: «توقيعه على الأشياء كلها».

«نعم، نعم»، قال القس ويليس. لم تكن ألما متأكدة إن كان قد سمعها. «إن أغصان لسان الحمل، كمثل تلك التي هنا، يا أخت ويتاكر، يُقال أيضاً إنها ترمز إلى الجسد البشري. وبسبب ذلك الشكل، يُستخدم نبات لسان الحمل كرمز للسلام وللإنسانية. ارمي واحدة على الأرض عند قدم عدوك، كي تظهري استسلامك أو رغبتك بالتفكير بتسوية. كان اكتشاف هذه الحقيقة مفيداً جداً لي حين وصلت في البداية إلى تاهيتي. كنت أرمي أغصان لسان الحمل في جميع الجهات آملاً بأن لا أُقتل أو يتم أكلي».

سألته ألما: «هل كنت ستُقتل وتؤكل حقاً؟».

«من المرجح أكثر كلا، رغم أن المبشرين دوماً يخافون من أمور كهذه. فهناك مثال رائع وذكي وهو نكتة حول المبشر، تقول: إذا التهم آكل لحوم بشر مبشّراً وهضمه، ثم مات آكل لحوم البشر، هل سيُبعث جسم المبشّر الميت المهضوم يوم القيامة؟ إذا كان لا، كيف سيعرف القديس بطرس أية قطع يرسل إلى الفردوس وأية قطع إلى الجحيم؟ ها! ها! ها!».

سألته ألما، نصف مصغية فحسب إلى دعابة القس: «هل حدث وتحدث السيد بايك معك عن الفكرة التي ذكرتَها منذ لحظة؟ عن الآلهة التي تخلق النباتات في أشكال خاصة مختلفة، كي تبين فوائدها من أجل مساعدة الإنسان؟».

«تحدثْتُ أنا والسيد بايك عن أشياء كثيرة يا أخت ويتاكر».

Twitter: @ketab_n

لم تعرف ألما كيف تسأل عن تفاصيل محددة دون أن تكشف الكثير عن نفسها. لماذا تهتم كثيراً بموظّف والدها؟ لم ترد أن تثير شبهات. لكنه كان رجلاً مركّباً بطريقة غريبة. اكتشفت أنه صريح وغامض، في الوقت نفسه. كلما نوقش أمبروس، تفحص ألما بشكل مثابر وجه القس ويليس من أجل مفاتيح، لكن من المستحيل قراءة الرجل. ينظر دوماً إلى العالم بالملامح الجسورة نفسها. لا تتغير روحه في كل موقف. كان ثابتاً كمنارة، وكان إخلاصه كاملاً وتاماً، كان قناعاً تقريباً.

وصلا إلى المقبرة أخيراً، بشواهد قبورها البيضاء، والتي نُحتَ بعضها في شكل صلبان. أخذ القس ويليس ألما مباشرة إلى قبر أمبروس، الأنيق والمعلّم بحجر صغير. كانت بقعة جميلة تطل على خليج ماتافاي، وعلى البحر المتألق. خشيت ألما، حين شاهدت القبر الحقيقي، ألا تتمكن من التحكم بعواطفها، لكنها شعرت بدلاً من ذلك بالهدوء، وبأنها بعيدة. لم تستطع أن تشعر بأي شيء يتعلق بأمبروس هنا. لم تستطع تخيله مدفوناً تحت هذا الحجر. تذكرت الطريقة التي اعتاد أن يزحف بها بين الأعشاب بساقيه الطويلتين والرائعتين، يتحدث معها عن الأعاجيب والألغاز فيما تدرس الطحالب. شعرت أنه كان موجوداً في فيلادلفيا وفي ذاكرتها أكثر مما هو عليه هنا. لم تستطع تصور عظامه بالية تحت قدميها. لم يكن أمبروس ينتمي إلى التراب؛ بل إلى الهواء، لم يكن من هذه الأرض حين كان حياً، كما اعتقدت. كيف يمكن أن يكون داخل التراب الآن؟

قال القس ويليس: «لم يكن لدينا أخشاب كي نصنع تابوتاً وهكذا لففنا السيد بايك بثياب محلية ودفناه في عارضة زورق قديم، كما يُفعل أحياناً هنا. إن صناعة الألواح الخشبية صعبة جداً هنا دون الأدوات الملائمة، وحين يحصل السكان المحليون على الخشب الملائم

Twitter: @ketab_n

يفضلون ألا يضيّعوه على قبر، وهكذا نستخدم الزوارق القديمة. لكن المحليين أبدوا بعض الاهتمام بمعتقدات السيد بايك المسيحية. وجّهوا قبره من الشرق إلى الغرب، كما ترين كي يواجه الشمس المشرقة، كما تفعل جميع الكنائس المسيحية. كانوا يحبونه، كما قلت لك. أعتقد أنه مات سعيداً. كان أفضل الرجال».

«هل بدا سعيداً حين كان هنا يا أخ ويليس؟».

«عثر على الكثير مما يسرّه في أنحاء الجزيرة، كما نعرف جميعنا. أنا متأكد من أنه كان يتمنى وجود المزيد من نباتات السحلبية. ربما تاهيتي مخيبة في هذا الصدد، كما قلت، بالنسبة لأولئك الذين يأتون لدراسة التاريخ الطبيعي».

تجرأت ألما على الضغط أكثر: «هل بدا السيد بايك متضايقاً؟».

«يأتي الناس إلى الجزيرة لأسباب كثيرة يا أخت ويتاكر. كانت زوجتي تقول إن الماء يقذف إلى شواطئنا أولئك الغرباء المتدافعين، والذين لا يعرفون معظم الوقت أين نزلوا! يبدو بعضهم كمثل سادة مكتملين، لكننا نكتشف فيما بعد أنهم محكومون في بلدانهم. من ناحية أخرى، كان بعضهم سادة حقيقيين في حيواتهم الأوربية، لكنهم يأتون إلى هنا كي يتصرفوا كمدانين! لا يمكن أن يعرف المرء أبداً حالة قلب إنسان آخر».

لم يجب على سؤالها.

ماذا عن أمبروس؟ أرادت أن تسأله. كيف كانت حالة قلبه؟

حبستْ لسانها.

ثم قال القس ويليس بصوته المتألق المعتاد: «سترين قبور بناتي هنا، في الجانب الآخر من الحائط المنخفض».

Twitter: @ketab_n

دفعت الجملة ألما إلى الصمت. لم تكن تعرف أن القس ويليس كان لديه بنات، أو أنهن قد متن هنا.

قال: «إنها قبور صغيرة فحسب، ذلك أن الفتيات لم يعشن طويلاً. لم تمض أيٌّ منهن عامها الأول. هيلين وإلينور ولورا في الجهة اليسرى، وبينيلوب وثيودوسيا، في اليمنى».

كانت الشواهد الخمس صغيرة، أصغر من الآجر. لم تستطع ألما أن تعثر على أية كلمات كي تعزيه. وكان هذا هو الشيء الأكثر بعثاً للحزن الذي سبق أن شاهدته.

قال القس ويليس ناظراً إلى وجهها المذعور ومبتسماً بلطف: «لكن هناك عزاء. عاشت شقيقتهن الصغرى كريستينا. فقد منحنا الله ابنة واحدة عاشت، وما تزال تعيش. تسكن في كورنوال، حيث هي الآن أم لثلاثة أبناء صغار. تسكن معها السيدة ويليس. إن زوجتي تسكن مع ابنتنا الحية، بينما أسكن هنا، كي أبقى مصاحباً للميتات».

نظر من فوق كتف ألما وقال: «انظري! إن شجرة الفرانجباني مزهرة! يجب أن نقطف بعض الأزهار ونأخذها إلى الأخت مانو، كي تزين قبعتها من جديد من أجل صلاة المساء. سيفرحها ذلك».

* * *

حيّر القس ويليس ألما دوماً. لم يسبق لها أن قابلت رجلاً مبتهجاً مثله، لا يشكو، فَقَدَ الكثير، وعاش على القليل. ومع مرور الوقت، اكتشفت أنه لم يكن يملك منزلاً. فما من كوخ له، وكان ينام في كنيسة البعثة التبشيرية، على أحد المقاعد الخشبية الطويلة. وغالباً لم يكن لديه سقف كي ينام تحته. وكان قادراً على أن يغفو في أي مكان كالقطة. لم تكن لديه مقتنيات سوى الكتاب المقدس، وحتى هذا كان يختفي أحياناً

Twitter: @ketab_n

لأسابيع قبل أن يعيده أحد ما. لم يربّ ماشية، ولم يعتن بحديقة. أما الزورق الصغير الذي يحب أن يبحر به إلى الحيد المرجاني فهو ملك للفتى الذي في الرابعة عشرة من عمره، الذي كان كريماً بما يكفي كي يعيره له. لم يكن هناك سجين أو راهب أو شحاذ في العالم، كما اعتقدت ألما، لديه أقل من هذا الرجل.

لم يكن الأمر هكذا على الدوام، كما عرفت ألما. فقد نشأ فرانسيس ويليس في كورنوال، في فالماوث، على البحر مباشرة، في أسرة ضخمة من صيادي الأسماك الميسورين. ورغم أنه لم يطلع ألما على تفاصيل شبابه الدقيقة («لا أريدك أن تغيّري رأيك بي، لو عرفت الأفعال التي اقترفتُها»)، أشار إلى أنه كان شاباً فظاً. أرشدتهُ ضربة على الرأس إلى الله، أو على الأقل هكذا روى القس ويليس تجربة تحوله الديني: حانة، شجار، «ضربة بالزجاجة على رأسي»، ثم... الوحي!

من هناك، عاد إلى التعلم وحياة التقوى. تزوج في الحال فتاة اسمها إديث، الابنة المتعلمة والفاضلة لكاهن بروتستانتي محلي. ومن خلال إديث تعلم أن يتحدث ويفكر ويتصرف بطريقة مطيعة ومشرفة أكثر. وصار مولعاً بالكتب وكان لديه «جميع أنواع الأفكار الرفيعة»، كما عبر عن الأمر. وتولى رسامة الكاهن. وذهب هذا القس الشاب الجديد المتأثر بأفكار خيالية فرانسيس ويليس هو زوجته إديث إلى الجمعية التبشيرية في لندن، متوسلين أن يتم إرسالهما إلى الأراضي الوثنية الأكثر بعداً، كي يكرزا بكلمة المخلّص في الخارج. رحبت جمعية لندن التبشيرية بفرانسيس، ذلك أنه كان من غير العادي العثور على رجل مؤمن هو في الوقت نفسه بحار متمكن وقوي. فمن أجل هذا الخط من العمل لا يحتاج المرء إلى سيد ناعم اليدين من كبمردج.

وصل القس فرانسيس والسيدة ويليس إلى تاهيتي في ١٧٩٧، على

Twitter: @ketab_n

متن أول سفينة تابعة لبعثة تبشيرية وصلت إلى الجزيرة، مع خمسة عشر إنجيلياً بريطانياً آخرين. في ذلك الوقت كان إله التاهيتيين مجسداً في قطعة خشب طولها ستة أقدام، وملفوفة بقطعة قماش ومزينة بريشات حمراء.

روى لألما: «حين نزلنا في البداية أبدى المحليون استغرابهم الشديد من ثيابنا. نزع أحدهم حذائي، وحين شاهد جواربي قفز إلى الخلف خوفاً. اعتقد أنني لا أملك أصابع قدمين. وفي الحال صرت حافياً، فقد أخذ حذائي!».

أحب فرانسيس ويليس التاهيتيين على الفور. أحب ذكاءهم، كما قال. كانوا محاكين موهوبين. ويحبون المزاح. وذكّره هذا بالدعابة واللعب على رصيف مرفأ فالماوث. أحب كيف أنه كلما اعتمر قبعة قشية تبعه الأطفال وهم يصيحون: «رأسك مسقوف بالقش! رأسك مسقوف بالقش!».

نعم، أحبَّ التاهيتيين، لكنه لم يمتلك الحظ في تحويلهم عن دينهم.

وكما أخبر ألما: إن الكتاب المقدس يوجهنا بأنه حالما يسمعونني سيطيعونني: الغرباء سيسلمون أنفسهم لي. حسناً يا أخت ويتاكر، ربما منذ ألفي عام كان الأمر صحيحاً! لكن لم يكن الأمر هكذا حين نزلنا لأول مرة في تاهيتي! ورغم لطف هؤلاء الناس فقد رفضوا جميع محاولاتنا لتحويلهم عن دينهم، وبكل صدق! لم نستطع حتى أن نؤثر بالأطفال! افتتحت السيدة ويليس مدرسة للصغار، لكن آباءهم شكوا: «لماذا تحجزون أبناءنا؟ ما الثروات التي سيحصلون عليها من خلال ربكم؟ إن الشيء الجميل حيال طلابنا التاهيتيين هي أنهم كانوا جيدين

Twitter: @ketab_n

ولطيفين ولبقين. والشيء المزعج هو أنهم لم يكونوا مهتمين بربنا. كانوا يضحكون على السيدة ويليس المسكينة حين تحاول تعليمهم مبادئ الدين المسيحي».

كانت الحياة صعبة بالنسبة للمبشرين الرواد. فقد صدَّ طموحاتهم البؤس والحيرة. قوبل إنجيلهم بلامبالاة أو سخرية. ومات اثنان منهم في العام الأول. وكان المبشرون يُلامون على كل مصيبة تقع في تاهيتي، ولم يكن يُثنى عليهم حين يمنح الله شيئاً. إما اهترأت مقتنياتهم أو التهمتها الجرذان، أو نُهبت تحت أبصارهم. لم تحضر السيدة ويليس إلا كنزاً عائلياً وحيداً من إنكلترة: وهي ساعة «وقواق» جميلة ترن كل ساعة. في المرة الأولى التي سمع فيها التاهيتيون الساعة ترن هربوا مذعورين. في المرة الثانية أحضروا ثماراً إلى الساعة وانحنوا أمامها في تضرع ورهبة. في المرة الثالثة سرقوها.

قال: «من الصعب تحويل أي شخص عن دينه يكون معجباً بمقصك أكثر مما هو معجب بإلهك. ها!ها! ها! لكن كيف يمكن أن تعدي الشخص مذنباً لأنه يريد مقصاً، حين لم يره أبداً من قبل؟ ألن يبدو المقص معجزة بالمقارنة مع شفرة مصنوعة من سن سمكة قرش؟».

لم يتمكن ويليس أو أي شخص آخر على الجزيرة من أن يقنع تاهيتياً واحداً بأن يعتنق المسيحية لمدة عشرين سنة تقريباً، كما عرفت ألما. وبينما اعتنقت جزر بولينزية أخرى كثيرة ديانة الله الحقيقي طوعاً، فإن تاهيتي بقيت عنيدة. وديّة، لكن عنيدة. وآمنت جزر ساندويتش ونافيكيتورز والغامبيير وهاواي وحتى جزر ماركويسواس المخيفة بالمسيح لكن تاهيتي لم تفعل ذلك. كان التاهيتيون جميلين ومرحين، لكنهم عنيدون. يبتسمون ويضحكون ويرقصون ولا يتخلون أبداً عن

Twitter: @ketab_n

إيمانهم بمبدأ اللذة. «إن أرواحهم مصبوبة من النحاس والحديد»، كما كان يقول الإنكليز معبرين عن استيائهم.

منهكين ومحبطين، عاد بعض أفراد المجموعة الأصلية من المبشرين إلى موطنهم لندن، حيث وجدوا أنفسهم على الفور قادرين على تحصيل رزق جيد من خلال قص مغامراتهم في البحار الجنوبية في خطب وكتب. طُرد أحد المبشرين من تاهيتي برأس الرمح لأنه حاول أن يهدم أحد معابد الجزيرة الأكثر قداسة كي يبني كنيسة من أحجارها. أما بالنسبة لرجال الله أولئك الذين بقوا في تاهيتي، فقد انتقل البعض إلى مهن أخرى أبسط. صار أحدهم تاجر بنادق وبارود. وفتح آخر فندقاً في بابيتي، وتزوج ليس من واحدة بل من اثنتين محليتين كي تدفئا فراشه. وفقد آخر، وهم ابن عم إديث ويليس، الرقيق والشاب، إيمانه، وشعر باليأس، وانطلق إلى البحر كبحار عادي، ولم يُسمع عنه بعد ذلك أبداً.

ماتوا ونُفوا واختفوا أو أُصيبوا بالإعياء، هكذا استُؤصلَ جميع المبشرين الأصليين باستثناء فرانسيس وإديث ويليس، اللذين بقيا في خليج ماتافاي. تعلّما اللغة التاهيتية وعاشا دون وسائل راحة. وفي أعوامهما الأولى حملت إديث بأول بناتهما: إلينور وهيلين ولورا اللواتي متن واحدة بعد أخرى، وهن رضّع. ورغم ذلك لم يلن ويليس وامرأته. بنيا كنيستهما الصغيرة لوحدهما. وقد عرف القس ويليس كيف يُصْنع الدهان الأبيض من المرجان بعد حرقه في فرن بدائي إلى أن يصبح مسحوق بودرة. جعل هذا الكنيسة تبدو مغرية أكثر. صنع منفاخاً للنار من جلود الماعز والخيزران، وحاول أن يزرع بذوراً إنكليزية سيئة ورطبة في حديقة. (قال لألما: «بعد ثلاث سنوات من الجهود، نجحنا أخيراً في إنتاج شتلة فراولة واحدة. وقسمنا الثمار بيننا، أنا والسيدة ويليس. كان طعمها كافياً لجعل زوجتي الطيبة تبكي. لم أنجح في زراعة واحدة

ثانية أبداً، ولو أنني كنت محظوظاً أحياناً بزراعة الملفوف!») كان يملك أربع بقرات سُرقت منه فيما بعد. حاول أن يزرع البن والتبغ لكنه فشل. حاول أيضاً أن يزرع البطاطا والقمح والعنب. كانت خنازير البعثة التبشيرية جيدة، لكن لم تتأقلم ماشية أخرى مع الطقس.

علّمت السيدة ويليس سكان خليج ماتافاي الأصليين اللغة الإنكليزية، وقد اكتشفت أنهم أذكياء وسريعون في تعلم اللغة. علّمت دزينة من الأطفال المحليين القراءة والكتابة. وعاش بعض الأطفال مع ويليس وزوجته. كان هناك فتى صغير أمّي استطاع أن يقرأ، في غضون ثمانية عشر شهراً العهد الجديد دون أن يخطئ في كلمة واحدة، لكن الفتى لم يصبح مسيحياً، لم يصبح أحد منهم.

أخبر القس ويليس ألما: «غالباً ما كانوا يسألونني، أعني التاهيتيين، ما هو البرهان على وجود ربكم؟ أرادوني أن أتحدث عن المعجزات، يا أخت ويتاكر. أرادوا الدليل على النعم لمستحقينها، أو عقوبات مخصصة للمذنبين. جاءني رجل بساق مقطوعة طلب مني أن أطلب من إلهي أن يطلع له ساقاً جديدة. قلت له: أين يمكن أن أعثر لك على ساق جديدة في هذه البلاد أو أية بلاد أخرى؟ ها! ها! ها! لم يكن بوسعي اجتراح المعجزات وهكذا لم يرق لهم الأمر كثيراً. راقبتُ فتى تاهيتياً صغيراً يقف على قبر أخته الرضيعة ويسأل: لماذا زرع الإله يسوع أختي في الأرض؟ أرادني أن أطلب من يسوع أن يبعث الفتاة من الموت، لكنني لم أستطع حتى أن أبعث أولادي أنفسهم من الموت فكيف أنفذ أعجوبة كهذه؟ لم أستطع أن أقدم أي دليل على مخلّصي يا أخت ويتاكر سوى ما كانت تدعوه زوجتي الطيبة السيدة ويليس «دليلي الباطني». عرفت آنذاك وأعرف الآن فقط ما يشعر قلبي أنه حقيقي، أنه بدون حب إلهنا أنا بائس. هذه هي المعجزة الوحيدة التي أستطيع أن

Twitter: @ketab_n

أبينها، وهي معجزة كافية بالنسبة لي. بالنسبة للآخرين، ربما ليست كافية. ولا أستطيع أن أتهمهم بالخطيئة، لأنهم لا يستطيعون رؤية ما في داخل قلبي. ولا يستطيعون أن يشاهدوا الظلمة التي كانت مرة فيه، ولا يقدرون على رؤية ما حلّ مكانها. لكن حتى هذا اليوم، إنها المعجزة الوحيدة التي يجب عليَّ أن أقدمها وهي معجزة متواضعة».

علمت ألما أيضاً أنه حدث الكثير من التشوش بين المحليين حيال أي نوع من الآلهة هو إله الرجل الإنكليزي، وأين يعيش هذا الإله؟ واعتقد السكان الأصليون في خليج ماتافاي لفترة أن الكتاب المقدس الذي يحمله القس ويليس هو إلهه. «وجدوا من المزعج جداً أنني أحمل إلهي تحت ذراعي كيفما اتفق، أو أنني أضع إلهي على الطاولة دون رعاية، أو أنني أحياناً أعير إلهي لآخرين! حاولت أن أشرح لهم أن إلهي هو في جميع الأمكنة. أرادوا أن يعرفوا، وسألوا: لماذا لا نستطيع مشاهدته؟ قلت: لأن إلهي غير مرئي، فقالوا: كيف إذاً تتأكد من أنك لا تدوس على إلهك؟ وقلت: في الحقيقة يا أصدقائي يحدث هذا لي أحياناً».

لم ترسل جمعية البعثات التبشيرية اللندنية أي شيء للمساعدة، ولمدة عشر سنوات تقريباً لم يسمع القس ويليس من لندن مطلقاً، لا توجيهات ولا مساعدات ولا تشجيعات. أشرف على دينه بطريقته الخاصة. وبدأ بتعميد أي شخص يريد التعمد. وكان هذا يناقض كثيراً توجيهات الجمعية التبشيرية اللندنية، التي أصرت أن لا أحد يجب أن يتلقى العمادة إلى أن يتم التأكد من أنه تخلى عن أوثانه القديمة وآمن بالمخلّص الحقيقي. لكن التاهيتيين أرادوا أن يتعمدوا لأن هذا كان مسلياً جداً، فيما حافظوا في الوقت نفسه على معتقداتهم القديمة. لانَ القس ويليس. وعمّد مئات الأشخاص غير المؤمنين، وأنصاف المؤمنين أيضاً.

Twitter: @ketab_n

سألَ ألما المرتبكة: «من أنا كي أمنع رجلاً من تلقي العمادة. لم توافق السيدة ويليس، كما ينبغي القول. اعتقدتْ أن المسيحيين المحتملين يجب أن يجرى لهم الاختبار الأكثر صرامة في الإخلاص قبل العمادة. لكنني شعرت بأن هذا كمحاكم التفتيش! وغالباً ما ذكرتنّي بأن زملاءنا في لندن يريدون منا أن نفرض نسقاً أحادياً من الإيمان. لكن لا يوجد حتى اتساق في الإيمان بيني وبين السيدة ويليس! وكما قلت غالباً لزوجتي الجيدة: عزيزتي إديث هل اجتزنا كل هذه المسافة الهائلة كي نصبح أسباناً فحسب؟ إذا كان هناك شخص يريد أن يُغمس في النهر سأجعله ينغمس في النهر! إذا حدث وجاء رجل إلى الرب فإن هذا سيكون من خلال إرادة الرب وليس من خلال شيء أفعله أو لا أفعله. وهكذا ما الأذى الذي يسببه التعميد؟ يخرج الشخص من النهر أكثر نظافة مما كان عليه قبل دخوله، وربما أكثر قرباً من السماء، أيضاً».

واعترف القس ويليس أنه عمّد في بعض الحالات أشخاصاً عدة مرات في العام، أو دزينات من المرات المتلاحقة. ولم ير أي ضير في ذلك.

في السنوات القليلة التالية، أنجبت زوجة ويليس ابنتين أخريين هما بينيلوب وثيودوسيا. توفيتا أيضاً في سن الرضاعة، ودُفنتا في مقبرة الهضبة، إلى جانب شقيقاتهن.

وصل مبشرون جدد إلى تاهيتي. واختاروا البقاء بعيداً عن خليج ماتافاي، وعن أفكار القس ويليس الليبرالية على نحو خطير. وكان أولئك المبشرون أكثر صرامة مع السكان الأصليين. سنّوا قوانين ضد الزنا وتعدد الزوجات، وضد التعدي، وقطع الصلوات، والسرقة، ووأد الأطفال والكثلكة. وفي غضون ذلك، ابتعد فرانسيس ويليس أكثر عن الممارسات التبشيرية الأرثوذكسية. ففي ١٨١٠ ترجم الكتاب المقدس

Twitter: @ketab_n

إلى اللغة التاهيتية دون أن يحصل على موافقة أولاً من لندن: «لم أترجم الكتاب المقدس كله، بل فقط المقاطع التي يمكن أن يستمتع بها التاهيتيون. إن نسختي أقصر بقصير من الكتاب المقدس الذي تعرفينه يا أخت ويتاكر. أغفلت ذكر الشيطان، مثلاً. صرت أشعر أنه من الأفضل عدم مناقشة الشيطان بشكل مفرط، لأنه كلما سمع التاهيتيون أكثر عن أمير الظلام، شعروا باحترام وحب أكبر له. شاهدت امرأة شابة متزوجة تركع في كنيستي وتصلي للشيطان كي يرسل لها أول وليد ذكراً. وحين حاولت أن أصحح لها الأمور وأبعدها عن هذا الطريق الخاطئ قالت: لكنني أتمنى أن أحظى بفضل الإله الوحيد الذي يخشاه كل المسيحيين! وهكذا امتنعتُ عن مناقشة الشيطان بعد ذلك. يجب أن يكون المرء متكيفاً يا آنسة ويتاكر!».

سمعتْ جمعية المبشرين في لندن بهذه التعديلات فاستاءت كثيراً وأرسلت كلمة بأن على ويليس وزوجته أن يتوقفا عن التبشير ويعودا إلى بريطانيا على الفور. لكن جمعية المبشرين في لندن كانت في الجانب الآخر من العالم، ولا تستطيع أن تفرض أي شيء. في غضون ذلك توقف القس ويليس عن الوعظ وسمح للمرأة التي تُدعى الأخت مانو بأن تلقي المواعظ، رغم حقيقة أنها لم تتخل تماماً عن كل آلهتها الأخرى. لكنها أحبت يسوع المسيح، وتكلمت عنه بفصاحة أكبر. وقد أججت هذه الأنباء غضب لندن.

قال لألما تقريباً معتذراً: «لكنني لا أستطيع الامتثال لجمعية المبشرين في لندن. إن قانونها تُرك في الخلف في إنكلترة. لا يمتلكون أية فكرة كيف هي الأمور. هنا، أستطيع أن أمتثل فقط لمؤلف جميع رحماتنا، وقد آمنت دوماً أن مؤلف جميع رحماتنا مولع بالأخت مانو».

لم يعتنق تاهيتيٌ واحد المسيحية بشكل كامل حتى عام ١٨١٥ حين

Twitter: @ketab_n

أرسل ملك تاهيتي بوماري جميع أوثانه المقدسة إلى بعثة تبشيرية بريطانية في بابيتي مع رسالة بالإنكليزية تقول إنه يتمنى أن تُحرق آلهته كلها. أراد أن يصبح مسيحياً أخيراً. كان بوماري يأمل أن ينقذ قرارهُ شعبه، بما أن تاهيتي كانت تعاني من الكثير من الآلام. فمع كل سفينة جديدة كانت تأتي أوبئة جديدة. وكانت عائلات بأكملها تموت من الحصبة والجدري وأمراض العهر الجنسي المقيتة. وقدر القبطان كوك عدد سكان تاهيتي بمائتي ألف نسمة في ١٧٧٢ لكن العدد انحدر إلى ثمانية آلاف في ١٨١٥. لم ينج أحد من المرض، لا كبار الكهنة ولا مالكو الأرض ولا الذين من منبت متدن. ومات ابن الملك من السل.

نتيجة لهذا بدأ التاهيتيون يشكّون بآلهتهم. فحين يزور الموت الكثير من المنازل يُشكِّكُ بكل اليقينيات. ومع انتشار الأمراض انتشرت شائعات بأن إله الإنكليز يعاقب التاهيتيين لأنهم رفضوا ابنه يسوع المسيح. جهّز هذا الخوف التاهيتيين للرب، وكان الملك بوماري أول من اعتنق الديانة المسيحية. وكان فعله الأول كمسيحي هو أن يجهز وليمة ويأكل الطعام أمام الجميع دون أن يقدم أولاً تقدمة إلى الآلهة القديمة. واجتمعت الحشود حول ملكها مذعورة متأكدة من أن الآلهة الغاضبة ستصعقه وتقتله أمام أعينهم. لكنه لم يُصْعق ويُقْتل.

بعد ذلك، تحولوا جميعاً. وهكذا صارت تاهيتي أخيراً، وبعد أن أُضعفت وأُذلت وهلك القسم الأعظم من سكانها، مسيحية.

قال القس ويليس لألما: «ألم نكن محظوظين؟ ألم نكن في الحقيقة محظوظين؟».

قال هذا بالنبرة المرحة نفسها التي تحدث بها. كان هذا هو الشيء المحير حيال القس ويليس. اكتشفت ألما أنه من المستحيل فهم ما يكمن

وراء ذلك الابتهاج الأبدي الجيد. هل كان متشككاً؟ هل كان هرطوقاً؟ هل كان مغفّلاً؟ هل كانت براءته ممارسة أو طبيعية؟ لا يستطيع المرء أن يحذر أبداً من وجهه المغسول على نحو أبدي بالضوء الواضح للبراءة. كان يمتلك وجهاً واضحاً يُشعر المشتبهين والجشعين والقساة بالخجل. كان وجهاً يجعل الكاذب يشعر بالعار. كان وجهاً أشعر ألما أحياناً بالخجل، لأنها لم تكن أبداً صريحة معه حول تاريخها الخاص ودوافعها. أرادت أحياناً أن تمد يدها وتمسك يده الصغيرة بيدها العملاقة، و- بصرف النظر عن لقبهما، الأخ ويليس والأخت ويتاكر. أن تقول له ببساطة: «لم أكن صريحة معك، يا فرانسيس. دعني أخبرك قصتي كلها. دعني أخبرك عن زوجي وزواجنا غير الطبيعي. من فضلك ساعدني كي أفهم من كان أمبروس. من فضلك أخبرني ما تعرفه عنه، ومن فضلك أخبرني ما تعرفه عن الفتى».

لكنها لم تفعل. كان قسيساً للرب ومسيحياً صادقاً ومتزوجاً. كيف تستطيع التحدث معه عن أمور كهذه؟

روى القس ويليس لألما قصته كلها ولم يحتفظ إلا بالقليل. قال لها إنه بعد بضع سنوات فقط من تحول الملك بوماري أنجب هو والسيدة ويليس، وعلى نحو غير متوقع، طفلة أخرى. هذه المرة عاشت الرضيعة. ورأت السيدة ويليس هذا علامة على موافقة الرب، أن ويليس وزوجته ساعدا في تحول تاهيتي إلى المسيحية. ولهذا أطلقا على الفتاة اسم كريستينا. أثناء هذا الوقت، كانت الأسرة تعيش في أظرف كوخ في المستوطنة، إلى جانب الكنيسة، في الكوخ نفسه الذي تعيش فيه الأخت مانو الآن، وكانت سعيدة بالفعل. زرعت السيدة ويليس وابنتها نبات أنف العجل والعايق، وحوّلا المكان إلى حديقة إنكليزية صغيرة. تعلمت الفتاة السباحة قبل المشي، كمثل أي ابن جزيرة.

Twitter: @ketab_n

قال القس ويليس: «كانت كريستينا متعتي ومكافأتي. لكن تاهيتي ليست مكاناً تُربَّى فيه فتاة إنكليزية. ثمة الكثير من التأثيرات المفسدة، كما ترين. لا أوافق على هذا، لكن هذا ما اعتقدته السيدة ويليس. وحين صارت كريستينا فتاة شابة، أخذتها السيدة ويليس إلى بريطانيا. لم أرهما مذاك. ولن أراهما ثانية».

لم يبد هذا المصير لألما مصير عزلة فحسب، بل بدا لها غير عادل بشكل مريع أيضاً. واعتقدت أنه يجب ألا يُترك هنا أي رجل إنكليزي جيد وحده وسط البحار الجنوبية كي يواجه شيخوخته في عزلة. فكرت بوالدها في سنواته الأخيرة: ما الذي كان سيفعله دون ألما؟

كما لو أنه يقرأ وجهها، قال ويليس: «أشتاق إلى زوجتي الجيدة وإلى كريستينا، لكنني لم أكن بشكل كامل دون رفقة عائلة. أعتبر الأخت مانو والأخت إيتيني كأختين في ما هو أكثر من الاسم. وكنا في مدرسة بعثتنا التبشيرية محظوظين أيضاً مع مرور الأعوام لأننا درّسنا عدداً من الطلاب الأذكياء وطيبي القلب، الذين أعدهم كأولادي، وقد صار بعضهم مبشرين الآن. يبشرّون الآن في جزر أخرى، طلابنا الذين من السكان الأصليين. فهناك تاماتوا مير الذي يكرز بتعاليم الإنجيل في الجزيرة الكبيرة راياتي. وهناك باتي، الذي يوسّع مملكة المخلّص إلى جزيرة هوانهاين. وهناك باوموانا، الذي لا يكلّ باسم الرب في بورا - بورا. كلهم أبنائي، وكلهم يثيرون إعجاباً كبيراً. هناك شيء ما في هايتي يُدعى تايو taio، وهو نوع من التبني، وسيلة لجعل الغرباء أقرباء لك. وحين تدخلين في التايو مع أحد السكان الأصليين، تتبادلان النَّسب، وتصبحان جزءاً من نَسَب بعضكما بعضاً. إن النَّسَب أكثر أهمية هنا. فهناك تاهيتيّون يستطيعون أن يسردوا نسبهم ثلاثين جيلاً إلى الوراء، مثل أنساب الكتاب المقدس. إن الدخول في ذلك النسب شرف نبيل. وهكذا

Twitter: @ketab_n

لدي أبنائي التاهيتيون معي الذين يعيشون وسط هذه الجزر، وهم يريحون هذا العجوز».

«لكنهم ليسوا معك»، لم تستطع ألما مقاومة قول هذا. كانت تعرف كم تبعد بورا ـ بورا. «ليسوا هنا كي يساعدوك، أو يعتنوا بك في حال احتجت إليهم».

«أنت تنطقين بالحقيقة، لكن من المريح معرفة أنهم يوجدون. أخشى أنك تظنين أن حياتي محزنة. لا تخطئي. أعيش حيث أردت أن أعيش. لا أستطيع أن أغادر بعثتي أبداً. إن عملي هنا ليس مأمورية، يا أخت ويتاكر. إن عملي هنا ليس وظيفة يمكن أن يتقاعد منها الشخص إلى شيخوخة مريحة. إن عملي إبقاء هذه الكنيسة الصغيرة حية طيلة عمري، كمعديّة ضد رياح وأحزان العالم. وكل من يرغب بالركوب على معديتي يستطيع أن يفعل ذلك. فأنا لا أجبر أحداً على الركوب، لكن كيف يمكن أن أتخلى عن المعدية؟ إن زوجتي الطيبة تتهمني بأنني مسيحي بشكل أفضل من كوني مبشراً. ربما هي محقة! لستُ متأكداً من أنني حوّلتُ أي شخص إلى المسيحية. مع ذلك إن هذه الكنيسة هي مهمتي يا أخت ويتاكر، وهكذا يجب أن أبقى».

علمت ألما أنه كان في السابعة والسبعين من عمره.

أمضى في خليج ماتافاي فترة أطول من سنين حياتها.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع والعشرون

وصل تشرين الأول/ أكتوبر.

دخلت الجزيرة الفصل الذي يسميه التاهيتيون «هياإيا» Hia'ia، فصل الجوع، حيث من الصعب العثور على فاكهة أشجار الخبز ويجوع الناس أحياناً. ولحسن الحظ لم يكن هناك جوع في خليج ماتافاي. أكيد أنه لم تكن هناك وفرة لكن لم يتضور أحد من الجوع. فقد اعتنت الأسماك وجذر التارو بذلك.

آه جذر التارو المضجر والذي بلا طعم! يؤكل مسحوقاً ومهروساً ومغلياً وزلقاً ويُخبز على الفحم ويُلَفّ في كرات صغيرة رطبة تُدعى بوا، ويُستخدم في كلّ شيء من الفطور إلى العشاء الرباني إلى طعام الخنازير. وكان روتين جذر التارو يُقاطع أحياناً بإضافة الموز الصغير إلى قائمة الطعام، وهو موز حلو وطيب يمكن أن يُبتلع كله تقريباً، لكن حتى هذا كان من الصعب الحصول عليها الآن. ونظرت ألما إلى الخنازير باشتهاء لكن بدا كأن الأخت مانو تدّخرها ليوم آخر، يكون فيه الجوع أكثر شدّة. وهكذا لا يوجد لحم خنزير للاستمتاع به، فقط جذر التارو في كل وجبة، وأحياناً، إذا كان المرء محظوظاً، سمكة كبيرة. كانت ألما ستُقدم أي شيء كي تمضي يوماً بدون جذر التارو لكن يوماً من دون جذر التارو يعني يوماً دون طعام. بدأت تفهم لماذا تخلى القس ويليس عن تناول الطعام.

كانت النهارات هادئة وحارة وساكنة. وصار الجميع هامدين وكسالى. وحفر الكلب روجر وكراً في حديقة ألما نام فيه طيلة النهار تقريباً ولسانه متدل. وكانت صيصان صلعاء تنقر بحثاً عن الطعام، لكنها تيأس وتلوذ بالظل. حتى أعضاء فرقة هيرو، الفتيان الصغار الأكثر نشاطاً، كانوا ينامون طيلة بعد الظهر في الظل ككلاب مكتهلة. وكانوا يوقظون أنفسهم أحياناً من أجل بعض الأعمال بلا نفس. وكان هيرو يمسك برأس بلطة، يعلقها من حبل ويخبط عليها بحجر كجرس. ويقرع أحد الأولاد على طوق برميل قديم بحجر. كان هذا نوعاً من الموسيقا التي يصنعونها، كما افترضت ألما، لكنها بدت لها غير ملهمة ومضجرة. كانت تاهيتي كلها مضجرة ومتعبة.

كان هذا المكان مضاء بمشاعل الحرب والشبق حين جاء والدها مرة. فقد رقص الشبان والشابات التاهيتيون الجميلون بفحش شديد وبشكل وحشي حول النيران على هذا الشاطئ نفسه الذي احتاج إليه هنري ويتاكر الشاب، الذي لم يكن قد كوّن نفسه بعد، كي يتحرر من خوفه، لكن البلادة تهيمن على الشاطئ الآن. فقد طردت سفن صيد الحيتان والبعثات التبشيرية والفرنسيون بمواعظهم وبيروقراطيتهم وأمراضهم الشيطان من تاهيتي. ومات المحاربون الجبابرة كلهم. ولا يوجد الآن سوى الأطفال الكسالى ينامون في الظل ويقرعون على رؤوس الفؤوس وأطواق البراميل كوسيلة غير كافية للتسلية. ما الذي سيفعله الأطفال بطاقتهم الآن؟

واصلت ألما البحث عن الفتى، وقامت بنزهات أطول فأطول، وحيدة مع الكلب روجر، أو مع المهر النحيل الذي لا اسم له. فتشت القرى الصغيرة والمستوطنات التي حول شاطئ الجزيرة في كلا الاتجاهين من خليج ماتافاي. شاهدت جميع أنواع الرجال والفتيان.و

Twitter: @ketab_n

شاهدت بعض الشبان الأنيقين، نعم، بأشكال نبيلة أُعجب بها الزوار الأوربيون الأوائل، لكنها رأت أيضاً شباناً مصابين بتضخم الساقين وفتياناً بانتفاخات وحبوب في أعينهم من الأمراض الجنسية لأمهاتهم. شاهدت أطفالاً محنيين ومقوّسين من سل العمود الفقري. وشاهدت شباناً كان من المفترض أن يكونوا وسيمين لكن علامات الحصبة والجدري بادية عليهم. واكتشفت قرى مهجورة تقريباً أفرغها المرض والموت مع مرور الأعوام. وشاهدت مستوطنات بعثات تبشيرية أكثر صرامة من خليج ماتافاي. وحضرت أحياناً صلوات كنيسة في هذه البعثات، حيث لم يغن أحد باللغة التاهيتية؛ بدلاً من ذلك كان الناس ينشدون ترانيم مشيخية مسكّنة بلكنات ثقيلة. لم تشاهد الفتى في أي من هذه التجمعات. عبرت عمالاً متعبين ومتجولين وضائعين وصيادي سمك هادئين. وشاهدت عجوزاً هادئاً يجلس في ضوء الشمس المحرق يعزف على ناي تاهيتي بالطريقة التقليدية، نافخاً فيها بمنخر واحد، وكان الصوت كئيباً وجعل رئتي ألما تتألمان من الحنين إلى وطنها. لكنها لم تشاهد الفتى أبداً.

كان بحثها غير مثمر، وكان إحصاؤها فارغاً كل يوم، لكنها كانت سعيدة دوماً كي تعود إلى خليج ماتافاي والأعمال الروتينية للبعثة التبشيرية. كانت ممتنة دوماً حين كان يدعوها القس ويليس كي تنضم إليه في الحدائق المرجانية. وأدركت ألما أن حدائقه المرجانية شيء قريب من أحواضها الطحلبية في وايت إيكر، شيء ما غني وبطيء النمو يمكن أن يُدرس لسنوات في النهاية، كوسيلة لقضاء العقود دون الوقوع في الوحدة. كانت تستمتع كثيراً بالمحادثة في نزهات كهذه إلى الحيد المرجاني. طلب من الأخت مانو أن تنسج لألما خفاً خاصاً بالحيد المرجاني كخفه من سعف نخل البندانوس السميك بحيث تستطيع السير

Twitter: @ketab_n

على المرجان الحاد دون أن تجرح قدميها. جعل ألما تشاهد عرض السيرك الخاص بالإسفنجات وشقائق البحر والشّعب المرجانية، كل الجمال الفاتن للمياه المدارية قليلة العمق والصافية. علّمها أسماء الأسماك الملونة، وروى لها قصصاً عن تاهيتي. لم يسألها مرة واحدة أبداً أسئلة عن حياتها الخاصة. سبب لها هذا الراحة؛ لم تضطر إلى الكذب عليه.

صارت ألما مولعة أيضاً بالكنيسة الصغيرة في خليج ماتافاي. فالبناء يخلو من الثروات أو المجد (شاهدت ألما كنائس أروع بكثير في أمكنة أخرى من الجزيرة)، لكنها تستمتع دوماً بمواعظ الأخت مانو القصيرة، الرائعة والمبتكرة. علمت من القس ويليس أن الذهن التاهيتي يرى أن هناك عناصر مألوفة في قصة يسوع وساعدت هذه الخيوط المألوفة المبشرين الأوائل في تعريف السكان الأصليين على المسيح. فقد اعتقد الناس في تاهيتي أن العالم يُقْسم إلى بو po وأو ao، الظلام والضوء. وُلدَ ربهم العظيم تارو، الخالق، في البو، ليلاً، في الظلام. وحالما عرفت البعثات التبشيرية هذه الميثولوجيا شرحت للتاهيتيين أن يسوع المسيح وُلد أيضاً في البو، في الليل، وخرج من الظلمة والعناء. لفت هذا انتباه التاهيتيين. فقد كانت الولادة في الليل مصيراً خطيراً وقوياً. وكان البو عالم الموتى، وما لا يُفهم، والمخيف. وكان البو نتناً ومتآكلاً ومريعاً. وعلّم الإنكليز أن ربنا جاء كي يقود البشرية من البو إلى الضوء.

بدا هذا عقلانياً للتاهيتيين إلى حد ما. فعلى الأقل جعلهم يُعْجبون بيسوع، بما أن الحد بين البو والأو كان خطيراً ولا يستطيع إلا الشخص الشجاع أن يعبر من غالم إلى الآخر. كان البو والأو قريبين إلى الفردوس والجحيم، كما شرح القس ويليس لألما، لكن كان هناك المزيد من

Twitter: @ketab_n

التداخل بينهما، وفي الأمكنة التي يختلطان فيها تختلّ الأشياء. لم يتوقف التاهيتيون أبداً عن الخوف من البو.

قال: «حين يعتقدون أنني لا أنظر يواصلون تقديم تقدمات للآلهة التي تعيش في البو. وهم يقومون بهذه التقدمات ليس لأنهم يشرّفون أو يحبون آلهة الظلام، بل كي يرشوها لتبقى في عالم الأشباح، بعيداً عن عالم الضوء. إن البو مفهوم معقد جداً لا يمكن تفنيده. ولا يتوقف البو عن الوجود في ذهن التاهيتي، فقط لأن ضوء النهار قد جاء».

سألت ألما: «هل تؤمن الأخت مانو بالبو؟».

قال القس ويليس هادئاً كالعادة: «كلا، إطلاقاً. إنها مسيحية تامة كما تعرفين لكنها تحترم البو».

واصلت ألما: «هل تؤمن بالأشباح إذاً؟».

قال القس ويليس بهدوء: «أكيد كلا. سيكون هذا غير مسيحي بالنسبة لها. لكنها لا تحب الأشباح أيضاً ولا تريدها أن تأتي إلى المستوطنة، وهكذا ليس لديها خيار أحياناً سوى أن تقدم لها الأعطيات من أجل إبعادها».

قالت ألما: «إذاً تؤمن بالأشباح».

صحّح لها القس ويليس: «بالطبع لا تؤمن. فقط تتعامل معها. ستجدين أن هناك أجزاء معينة من هذه الجزيرة أيضاً لا توافق الأخت مانو على أن يزورها أحد من مستوطنتنا. ففي الأمكنة الأعلى والتي لا يمكن الوصول إليها في تاهيتي يقال إن شخصاً يمكن أن يسير في ضفة يغلفها الضباب ويذوب إلى الأبد، مباشرة في البو».

سألت ألما: «لكن هل تؤمن الأخت مانو أن هذا يمكن أن يحدث فعلاً؟ أن الشخص يمكن أن يذوب؟».

قال القس ويليس بابتهاج: «كلا. لكنها تستهجن ذلك بكل صدق».

تساءلت ألما: هل تلاشى الفتى ببساطة في البو؟

هل تلاشى أمبروس؟

* * *

لم تسمع ألما شيئاً من العالم الخارجي. لم تصل إليها رسائل في تاهيتي رغم أنها كتبت بشكل متواصل إلى برودنس وهانيكي، وأحياناً إلى جورج هوكس. كانت ترسل رسائلها على متن سفن صيد الحيتان عارفة أن احتمال وصولها إلى فيلادلفيا ضعيف. عرفت أن القس ويليس لا يسمع من زوجته وابنته في كورنوال لمدة عامين أحياناً. وحين تصل الرسائل أحياناً تكون مبللة بالماء ومن المتعذر قراءتها بعد الرحلة الطويلة في البحر. ولّد هذا شعوراً مأساوياً لدى ألما أكثر من عدم سماع المرء من أسرته أبداً، لكن صديقها قَبِلَ ذلك كما قبلَ جميع الإزعاجات بسكينة.

كانت ألما وحيدة، والحرارة لا تُطاق، ولم تكن في الليل أكثر برودة من النهار. صار منزلها الصغير فرناً بلا هواء. واستيقظت في إحدى الليالي وثمة رجل يهمس في أذنها مباشرة: «اسمعي!» لكن حين نهضت لم يكن أحد في الغرفة، لا أحد من فرقة هيرو، ولا روجر الكلب، أيضاً. لم يكن هناك حتى أثر للريح. خطت إلى الخارج وقلبها يخفق بشدة. رأت أن خليج ماتافاي أصبح في الليل الساكن والمعتدل صقيلاً كمرآة. كانت النجوم كلها منعكسة بشكل كامل في المياه كما لو أن سمائين الآن هناك: واحدة في الأعلى وأخرى في الأسفل. كان الصمت والنقاء فيهما هائلين. شعرت أن الشاطئ مُثقَلٌ بالحضورات.

هل سبق وشاهد أمبروس شيئاً كهذا حين كان هنا؟ هل شاهد

Twitter: @ketab_n

سماءين في ليلة واحدة؟ هل سبق وشعر بهذه الرهبة والتعجب، بهذا الإحساس بالوحدة والحضور في آن؟ هل كان هو الذي أوقظها لتوه، بذلك الصوت في أذنها؟ حاولتْ أن تتذكر إن بدا كصوت أمبروس، لكنها لم تستطع التأكد، هل ستتعرف على صوت أمبروس إذا سمعتْهُ؟

إن إيقاظها وتشجيعها على الإصغاء عمل سيقوم به أمبروس. أكيد، نعم. إذا حدث وحاول ميت التحدث مع حي سيكون هذا أمبروس بايك، بكل أخيلته الرفيعة عما هو ميتافيزيقي وإعجازي. وقد نجح في إقناع ألما إلى منتصف الطريق بالمعجزات ولم تكن ميالة إلى معتقدات كهذه. ألم يبدوا كساحرين في تلك الليلة في حجرة التجليد يتحدثان مع بعضهما دون كلمات، عبر كعبي أحذيتهما وراحتي كفيهما؟ لقد رغب بأن ينام إلى جانبها، كما قال، كي يستطيع الإصغاء إلى أفكارها. أرادت أن تنام إلى جانبه كي يمارسا الجنس في النهاية، وأن يمارساه بحميمية، لكنه أراد أن يصغي إلى أفكارها فقط. لماذا لم تسمح له بأن يصغي فحسب؟ لماذا لم يستطع أن يسمح لها بأن تصل إليه؟

هل فكر بها، حتى مرة واحدة، في تاهيتي؟

ربما كان يحاول إرسال رسائل إليها الآن، لكن الفاصل كان عريضاً جداً. ربما صارت الكلمات ناعمة وغير قابلة للتفسير عبر الخليج الكبير بين الموت والتراب كمثل تلك الأحرف الحزينة المحطمة التي تلقاها القس ويليس أحياناً من زوجته في إنكلترا.

«من أنت؟»، سألت ألما أمبروس في الليل الثقيل، ناظرة عبر الخليج الصامت والعاكس. كان صوتها على الشاطئ الفارغ صاخباً بحيث أجفلها. أصغت من أجل جواب إلى أن آلمتها أذناها، لكنها لم

Twitter: @ketab_n

تسمع أي شيء. لم يكن هناك حتى موجة صغيرة تضرب الشاطئ. كانت المياه هادئة كسطح إناء مصهور، والجو أيضاً.

سألت، بهدوء أكثر هذه المرة: «أين أنت الآن يا أمبروس؟».

لم يصدر صوت.

طلبت، بهمس منخفض: «دِلّني على الفتى».

لم يجب أمبروس.

لم يجب خليج ماتافاي.

لم تجب السماء.

كانت تنفخ في جمار باردة؛ لا شيء هناك.

جلست ألما وانتظرت. فكرت بالقصة التي رواها لها القس ويليس عن تاروا، الإله الأصلي للتاهيتيين. تاروا الخالق، تاروا الذي ولد في صدفة. استلقى تاروا لعصور لا تُحصى وكان الشيء الوحيد الحي في الكون. وكان العالم فارغاً بحيث أنه حين نادى عبر الظلمة، لم يكن هناك حتى صدى. كان على شفا الموت من الوحدة. من خارج الظلمة والفراغ اللذين لا يسبران، خلق تاروا عالمنا.

استلقت ألما على ظهرها على الرمال وأغمضت عينيها. المكان هنا مريح أكثر من الفراش في الكوخ الخانق. لم تأبه بالسرطانات التي تتمايل وتتحرك بخفة وانشغال حولها. كانت داخل أصدافها الشيء الوحيد الحي في الكون. انتظرت على قطعة الأرض الصغيرة بين السمائين إلى أن أشرقت الشمس واختفت النجوم من السماء ومن البحر، لكن لم يخبرها أحد أي شيء.

* * *

Twitter: @ketab_n

ثم جاء عيد الميلاد، ومعه الفصل الممطر. منح المطر راحةً من الحرارة الجحيمية، لكنه أحضر أيضاً حلازين بأحجام مذهلة، وبقعاً رطبة من العفن الذي نما في طيات تنورة ألما التي صارت رثة بازدياد. وصار الشاطئ الرملي الأسود لخليج ماتافاي كثيفاً ومشبعاً كالفطائر. حجزت العواصف المطرية القوية ألما في منزلها طول النهار، حيث بالكاد استطاعت سماع أفكارها الخاصة بسبب صوت المياه الراعد على سقفها. واحتلت الطبيعة بالتدريج المكان الصغير الذي تعيش فيه. كان عدد العظاءات في سقف كوخ ألما قد ازداد ثلاثة أضعاف بين عشية وضحاها، كمثل طاعون توراتي، وتركت قطرات سميكة من الروث والحشرات نصف المهضومة في أنحاء الكوخ. أما فردة الحذاء الوحيدة التي تُركت لألما في العالم فقد نما الفطر فيها. علّقت عناقيد موزها على الروافد لمنع الجرذان المبللة والملحّة من الهجوم عليها.

ظهر الكلب روجر في إحدى الليالي، كما لدى كل دورية ليلية له، ثم بقي لعدة أيام؛ فهو لم يكن يمتلك الشجاعة لمواجهة المطر. تمنت ألما أن يهجم على الجرذان، لكنه لم يكن يمتلك الجرأة أيضاً على القيام بهذا. لن يسمح روجر لألما أن تطعمه بيدها دون أن يحاول عضها، لكنه سيأكل الآن طعامها إذا وضعته له على الأرض وأدارت ظهرها. وسمح لها أحياناً أن تمسّد له رأسه وهو نائم.

كانت العواصف تأتي في هجمات شاذة التوقيت. وكان بوسع المرء أن يسمع العواصف وهي تحشد قوتها بعيداً عبر البحر في هبات رياح ثابتة تصدر زئيراً من الجنوب الغربي تزداد صخباً كقطار قادم. إذا وعدت العاصفة بأن تكون حادة بشكل غير معتاد، فإن قنافذ البحر تزحف من الخليج نحو أرض أكثر ارتفاعاً. كانت تنشد المأوى أحياناً في كوخ ألما. وكان هذا سبباً آخر لجعلها تنتبه أين تخطو. كان المطر يأتي كزخة من

السهام. وصار النهر في الطرف الآخر من الشاطئ موحلاً وسطح الخليج يرغي ويزبد. وحين اشتدت العاصفة، راقبت ألما عالمها ينغلق عليها. اقترب الضباب والظلام من البحر. أولاً اختفى الأفق، ثم جزيرة موريا في المسافة، ثم الحيد المرجاني، ثم الشاطئ، ثم هي وروجر، وقد بقيا وحدهما في الضباب. كان العالم صغيراً الآن ككوخ ألما الذي ليس محصناً من الماء، وهبت الريح جانبياً وزأر الرعد بشكل مخيف، وهاجم المطر بقوة كاملة.

ثم توقف المطر لوهلة وعادت الشمس الملتهبة، مفاجئة ومتألقة ومذهلة رغم أنه ليس بما يكفي كي تستطيع ألما أن تجفف فراشها القشي. وتصاعد البخار من الرمال في أمواج أصدرتْ زئيراً. وانحدرت تيارات الريح الرطبة من سفح الجبل. فرقع الهواء عبر الشاطئ كغطاء سرير نُفض، كأن الشاطئ نفسه صد العنف الذي استهدفه. ثم ساد هدوء رطب، لبضع ساعات أو بضعة أيام، إلى أن انقضّتْ عاصفة أخرى.

كانت هذه أيام يشتاق فيها المرء إلى مكتبة ومنزل كبير جاف ودافئ. وكان يمكن أن تشعر ألما بيأس رهيب أثناء الفصل الممطر في تاهيتي، لكن حدث اكتشاف ممتع: كان أطفال ماتافاي يحبون المطر. وقد أحبته فرقة هيرو أكثر من الجميع، ولماذا لا؟ لأن هذا فصل الانهيارات الطينية والتخبط في الوحل والركوب الخطير عبر التيارات المتدفقة الوحشية للنهر الفائض. تحول الأولاد الخمسة الصغار إلى خمسة ثعالب صغيرة، غير غير خائفة من البلل، بل مستمتعة به. وانتهى الآن كل الخمول الذي أظهروه أثناء الفصل الحار والجاف للجوع، وحلت مكانه حياة جديدة حيوية. وكانت فتيان فرقة هيرو كالطحالب، كما أدركت ألما؛ يمكن أن يجفوا كالطحالب وينعطلوا لكن يمكن أن ينبعثوا على الفور إذا تبللوا جيداً. كان أولئك الأطفال الفائقون للعادة آلات انبعاث. وكان لديهم

الهدف والقوة والحماسة بحيث قفزوا عائدين إلى العمل في هذا العالم المبلل من جديد مما جعل ألما تفكر بطفولتها. لم يوقفها المطر والطين عن الاستكشاف أبداً، أيضاً. أثار هذا التذكر سؤالاً مفاجئاً وحاداً: لماذا تلوذ خائفة بكوخها الآن؟ لم تتجنب أبداً الطقس العاصف حين كانت طفلة فلماذا تتجنبه وهي بالغة الآن؟ إذا لم يكن على هذا الجزيرة مكان يستطيع المرء أن يأوي إليه وأن يبقى جافاً، فلماذا لا يتبلل إذاً؟ أثار هذا السؤال لدى ألما سؤالاً آخر مفاجئاً: لماذا لم تطلب مساعدة فرقة هيرو في البحث عن الفتى؟ من هو الأفضل في العثور على فتى تاهيتي ضائع من فتيان تاهيتيين آخرين؟

حين أدركت هذه الأمور ركضت ألما خارج المنزل ونادت الفتيان البريين الخمسة الذين كانوا في تلك اللحظة يقذفون بعضهم بعضاً بالطين بإحساس كبير بالهدف. جاؤوا راكضين إلى ألما ككتلة واحدة زلقة وطينية وضاحكة. استمتعوا برؤية السيدة البيضاء تقف على شاطئهم وسط عاصفة بثوبها المبلل، وتتبلل أمام أعينهم. كانت تسلية جيدة ولم تكلفهم أي شيء.

طلبت ألما من الفتيان الاقتراب منها وتحدثت معهم بمزيج من التاهيتية والإنكليزية والإيماءات المتقدة لليدين. فيما بعد، لم تتذكر كيف نجحت في عرض الفكرة، لكن فكرتها الرئيسية كانت هذه: إنه موسم المغامرة يا فتيان! سألتهم إن كانوا يعرفون الأمكنة في مركز الجزيرة حيث لا تحب الأخت مانو أن يذهب سكان المستوطنة. هل يعرفون جميع الأمكنة الممنوعة؟ أين يعيش سكان الجروف؟ وأين يمكن العثور على قرى الوثنيين الأبعد؟ هل يحبون أن يأخذوا الأخت ويتاكر إلى هناك، في بعض المغامرات الكبيرة؟

هل سيفعلون؟ لماذا، بالطبع، سيفعلون! فقد كانت فكرة مسلية

Twitter: @ketab_n

بحيث بدأوا في ذلك اليوم نفسه. وفي الحقيقة، بدأوا على الفور، وتبعتهم ألما دون تردد. دون أحذية أو خرائط، ودون طعام ودون ـ لتحمهم السماء ـ مظلات، قاد الفتيان ألما مباشرة إلى التلال وراء مستوطنة البعثة التبشيرية، بعيداً عن القرى الساحلية الصغيرة الآمنة التي استكشفتها سابقاً لوحدها. انطلقوا مباشرة نحو الأعلى، في الضباب وتحت المطر، إلى قمم الدغل التي رأتْها ألما لأول مرة من على متن سفينة إليوت، والتي بدت مخيفة وغريبة بالنسبة لها في ذلك الوقت. صعدوا إلى الأعلى، وليس فقط في هذا اليوم، بل في كل يوم في الشهر التالي أيضاً. وفي كل يوم كانوا يستكشفون المزيد من الممرات البعيدة وأماكن أكثر برية، غالباً تحت المطر المنسكب، ودائماً ألما ويتاكر في أعقابهم.

قلقت ألما في البداية من أنها لن تتمكن من مواكبتهم، لكنها أدركت في الحال أمرين: أن السنوات التي أمضتْها في جمع النباتات جعلتها ملائمة بشكل استثنائي، وأن الأطفال كانوا منتبهين لحدود ضيفتهم. أبطأوا من أجل ألما في بقع خطيرة على نحو خاص، ولم يطلبوا منها القفز عبر الصدوع الخطيرة كما فعلوا، أو أن تتسلق الجروف المبللة باستخدام يديها كما استطاعوا بسهولة. أحياناً تقف فرقة هيرو خلفها إذا كان الجرف شديد الانحدار ويدفعونها نحو الأعلى بوضاعة، بأيديهم على مؤخرتها العريضة لكن ألما لم تكترث: كانوا فقط يحاولون المساعدة. كانوا كريمين معها. كانوا يبتهجون حين تقوم بالصعود، وإذا خيم الليل وهم ما يزالون عميقاً في الغابة، يمسكون يديها وهم يقودونها نحو أمان البعثة التبشيرية. في هذه النزهات في الظلام، علموها أنشودة المحارب باللغة التاهيتية، والأغاني التي يغنيها الرجال، كي يستدعوا الشجاعة في وجه الخطر.

Twitter: @ketab_n

كان التاهيتيون معروفين عبر البحار الجنوبية كمتسلقين ماهرين ومتجولين لا يخافون. وسمعت ألما عن سكان جزر يستطيعون السير ثلاثين ميلاً في اليوم عبر هذه الأرض غير السالكة دون تعب. لكن ألما لم تكن من النوع الذي يتعب أيضاً، ليس حين تكون في حالة صيد، ويكون هذا صيد حياتها. وكانت هذه فرصتها الأفضل للعثور على الفتى. إذا كان ما يزال في أي مكان على هذه الجزيرة فإن الفتيان سيعثرون عليه.

إن غياب ألما المتزايد من البعثة لم يمرّ دون انتباه.

حين سألت الأخت العذبة إيتيني ألما أخيراً، بوجه قلق، أين تمضي نهاراتها، قالت ألما: «أنا أبحث عن الطحالب، بمساعدة علماء الطبيعة الفتيان الخمسة الأكثر قوة جسدياً، والذين ينتمون إليك».

لم يشكَّ أحد بها، لأن هذا كان الفصل التام للطحالب. وقد حددت ألما بالفعل كل أنواع الطحلبيات الفاتنة على الأحجار والأشجار التي عبروها، لكنها لم تتوقف كي تنظر عن كثب. ستظل الطحالب دوماً هناك؛ كانت تبحث عن شيء ما أسرع زوالاً، وأكثر إلحاحاً: عن فتى، فتى يعرف أسراراً، وكي تعثر عليه يجب أن تتحرك في الزمن البشري.

أحب الفتيان بدورهم هذه اللعبة غير المتوقعة في قيادة السيدة العجوز المميزة في كل أنحاء تاهيتي، كي تشاهد كل ما هو ممنوع وكي تلتقي بالناس الأكثر بعداً. أخذوا ألما إلى هياكل مهجورة وكهوف توحي بالشر، حيث العظام البشرية ما تزال تُلمح في الزوايا. كان هناك أحياناً تاهيتيون أحياء يسكنون هذه الأمكنة الكئيبة لكن الفتى لم يكن بينهم. أخذوها إلى مستوطنة صغيرة على ضفاف بحيرة مايفا، حيث ما تزال النساء يلبسن تنورات من الأعشاب ويغطي الرجال وجوههم بوشوم

Twitter: @ketab_n

مخيفة، لكن الفتى لم يكن هناك أيضاً. لم يكن الفتى في رفقة الصيادين الذين عبروهم على هذه الممرات الزلقة أيضاً، أو في سفوح جبل أوروهينا، أو جبل آوري، ولا في الأنفاق البركانية الطويلة. أخذتها فرقة هيرو إلى قمة زمردية في قمة العالم، عالية جداً بحيث بدت كأنها تقسم السماء، إذ كان المطر يتساقط في جانب من القمة، تكون الشمس مشرقة في الجانب الآخر. وقفت ألما على هذه القمة غير الثابتة والظلمة على يسارها والضوء على يمينها، لكن حتى هنا، في أعلى موقع مراقبة يمكن تخيله، عند اصطدام الطقس نفسه، في تقاطع البو والأو، لم يُر الفتى في أي مكان.

ولأن الأطفال كانوا أذكياء استنتجوا في النهاية أن ألما تبحث عن شيء ما، لكن هيرو، الأذكى دائماً، هو الذي أدرك أنها تبحث عن أحد ما.

«ليس هنا؟»، كان هيرو يسأل ألما باهتمام، في نهاية كل نهار. صار هيرو يتحدث الإنكليزية، وتخيل نفسه متفوقاً تماماً بها. لم تؤكد ألما أبداً أنها كانت تبحث عن شخص، لكنها لم تنكر ذلك أبداً.

(«سنجد هُوَ غداً»)، كان هيرو يقسم كل يوم، لكن كانون الثاني/ يناير مرّ ومر شباط/ فبراير ولم تعثر ألما على الفتى. كان نيسان/ أبريل قد جاء الآن. بدأ هيرو يصبح قلقاً ونكد المزاج. لم يعد يستطيع التفكير بأي مكان جديد كي يأخذ ألما إليه في نزهاتهم البرية. لم يعد هذا إلهاء مسلياً؛ صار هذا حملة جدية، وعرف هيرو أنه فشل فيها. وبعد أن أحس أعضاء الفرقة الآخرين بمعنويات هيرو الهابطة، فقدوا متعتهم أيضاً. حدث هذا حين قررت ألما أن تعفي فتيانها الخمسة من مسؤولياتهم. فقد كانوا صغاراً جداً على حمل عبئها؛ لن تراهم مثقلين بالقلق والمسؤولية، وأن يطاردوا شبحاً من أجلها.

Twitter: @ketab_n

سرّحتْ ألما فرقة هيرو من اللعبة ولم تذهب أبداً إلى التجول معهم ثانية. وتعبيراً عن شكرها منحت كل واحد من الفتيان الخمسة قطعة من مجهرها الثمين، القطع التي أعادوها هم أنفسهم إليها سليمة تقريباً في الأشهر الخمسة الأخيرة، وصافحتهم. متحدثة بالتاهيتية أخبرتهم أنهم أعظم محاربين سبق أن وجدوا. شكرتهم من أجل رحلتهم الشجاعة في العالم المعروف. قالت لهم إنها عثرت على كل ما تريده. ثم تركتهم كي يواصلوا لعبهم المتواصل الذي بلا هدف.

* * *

انتهى الفصل الماطر. ومرّ عام كامل على وجود ألما في تاهيتي. نظفت أرضية كوخها من الأعشاب المهترئة، وأحضرت عشباً جديداً مرة أخرى. أعادت حشو فراشها المتعفن بأعشاب جافة. راقبت العظاءات وهي تقل فيما النهار يزداد تألقاً ونضارة. صنعت مكنسة جديدة ونظفت الجدران من بيوت العناكب. وفي صباح أحد الأيام، مغمورة بحاجة لتجديد إحساسها بالمهمة، فتحت حقيبة أمبروس كي تنظر ثانية إلى رسوم الفتى، فاكتشفت أن العفن استهلكها بشكل كامل مع مرور الفصل الممطر. حاولت أن تفصل الصفحات واحدة عن الأخرى، لكنها انحلت في يديها إلى كسر خضراء عجينية. كانت عثة من نوع ما على الرسوم أيضاً، وصنعت وليمة من الفتات. لم تستطع أن تنقذ أياً منها. لم تستطع أن ترى أثراً لوجه الفتى بعد الآن ولا الخطوط الجميلة التي صنعتها يد أمبروس. لقد التهمت الجزيرة الدليل المتبقي عن زوجها الغامض وربّ إلهامه المجهول والوهمي.

شعرت ألما بأنَّ تحلّلَ الرسوم موت آخر: الآن، حتى الشبح تلاشى. جعلها هذا ترغب بالبكاء، وجعلها بشكل أكثر قوة تبدأ الشكوك

Twitter: @ketab_n

بحكمها. رأت الكثير من الوجوه في تاهيتي في الأشهر العشرة الماضية، لكنها تساءلت الآن إن كانت تستطيع حقاً أن تتعرف على الفتى، حتى لو كان واقفاً أمامها. ربّما شاهدته في النهاية؟ أليس من الممكن أنه أحد أولئك الشبان الذين رأتهم على رصيف المرفأ في بابيتي، في اليوم الأول لوصولها؟ أليس من الممكن أنها عبرتْه عدداً من المرات؟ أليس من الممكن أنه يعيش هنا في المستوطنة، ونسيتْ وجهه فحسب؟ لم تعد تملك أي شيء تفحص ذاكرتها إزاءه بعد الآن. بالكاد وُجد الفتى، والآن لم يوجد مطلقاً. أغلقت الحقيبة كما لو أنها تغلق غطاء تابوت.

لا تستطع ألما البقاء في تاهيتي. صارت تعرف هذا الآن دون شك. كان ينبغي ألا تأتي أبداً. أي كمية كبيرة من الطاقة والتصميم والتكلفة تطلّبها مجيئها إلى جزيرة الألغاز، وقد تقطّعت بها السّبل الآن، دون سبب جيد. والأسوأ من ذلك أنها صارت عبئاً على هذه المستوطنة الصغيرة من الأشخاص الشرفاء، الذين أكلت طعامهم واستنزفت مواردهم، واستخدمت أبناءهم من أجل أهدافها غير المسؤولة. أية حالة رائعة من الشؤون كانت هذه. شعرت ألما بأنها فقدت بشكل كامل خيط هدف حياتها، مهما كان هذه الخيط رقيقاً. قاطعت دراستها البليدة ولكن المشرفة للطحالب كي تقوم بهذا البحث الضعيف عن شبح، أو بالأحرى عن شبحين: عن أمبروس وعن الفتى. ومن أجل ماذا؟ لم تعد تعرف عن أمبروس الآن أكثر مما كانت تعرفه حين وصلت إلى هنا. أعلنت جميع التقارير في تاهيتي أن زوجها هو الرجل الذي بدا عليه دوماً، الشخص اللطيف الفاضل غير القادر على ارتكاب المخالفات، الجيد أكثر من اللزوم بالنسبة لهذا العالم.

وبدأ يخطر في بالها أن الفتى يمكن أنه لم يوجد أبداً وإلا لعثرت ألما عليه الآن، أو لتحدث أحد ما عنه، ولو بطريقة أكثر مداورة. لا بد

Twitter: @ketab_n

أن أمبروس اخترعه. كانت الفكرة محزنة أكثر من أي شيء آخر استطاعت ألما تصوره. كان الفتى شظية رجل وحيد بعقل غير سليم. لقد تاق أمبروس لرفيق، فرسم لنفسه واحداً. وعبر هذا الاستحضار لصديق - عاشق شبحي جميل - عثر على الزواج الروحي الذي كان يتوق إليه دوماً. كان هذا معقولاً إلى حد ما. فذهن أمبروس لم يكن متوازناً أبداً، حتى في أفضل الظروف. كان هذا رجلاً وضعه أعز صديق لديه في مستشفى للمجانين، وآمن أنه يستطيع أن يرى بصمات الخالق مخبأة داخل النباتات. كان أمبروس رجلاً شاهد الملائكة في نباتات السحلبية، واعتقد مرة أنه هو نفسه ملاك، إذا فكّرنا بالأمر. اجتازت نصف العالم باحثةً عن شبح اخترعه خيال رجل وحيد هشّ ومرضي.

كانت قصة بسيطة، لكنها عقّدتْها باستقصاءاتها العبثية. ربما رغبت بأن تكون الحكاية شريرة أكثر، تجعل قصتها مأساوية أكثر. ربما تمنت أن يكون أمبروس مذنباً بأشياء كريهة، بالشذوذ الجنسي والفسوق، بحيث تستطيع أن تحتقره بدلاً من أن تشتاق إليه. ربما تمنت أن تعثر على دليل ليس على فتى واحد هنا في تاهيتي، لكن على كثير من الفتيان، على حشد من الغلمان، انتهكهم أمبروس وحطمهم، واحداً بعد الآخر. لكن لم يكن هناك دليل على أي شيء كهذا. كانت الحقيقة هي هذه فحسب: كانت ألما حمقاء وشبقة بما يكفي كي تتزوج مجنوناً. وحين خيّب ذلك الشاب أملها صارت قاسية وغاضبة بما يكفي كي تنفيه إلى هنا، إلى البحار الجنوبية، حيث مات وحيداً ومختلاً عقلياً، يشطح في أخيلته، وضائعاً في مستوطنة صغيرة يائسة يديرها - إذا كان بوسع المرء أن يسمي هذا إدارة - مبشّر عجوز ساذج ودون فعالية.

أما لماذا بقيت حقيبة أمبروس ورسوماته دون أن تُمسّ، إلا من قبل الطبيعة، في كوخ ألما غير المحروس في تاهيتي لمدة عام تقريباً، حين

Twitter: @ketab_n

جميع مقتنياتها الأخرى قد استعيرت، وسُرقت وفُككت ونُهبت... حسناً، لم تكن تملك ببساطة الإرادة المتبقية كي تصارع سؤالاً آخر مستحيلاً.

لا شيء آخر يمكن تعلمه هنا.

لم تستطع العثور على إغراء للبقاء. ستحتاج إلى وضع خطة للأعوام المتبقية من حياتها. كانت مندفعة ومُضلّلة، لكنها ستغادر على متن سفينة صيد الحيتان التالية المتجهة شمالاً، وتعثر على مكان ما تعيش فيه. كانت تعرف أنها يجب ألا تعود إلى فيلادلفيا. فقد تخلت عن وايت إيكر ولا تستطيع العودة أبداً إليها؛ سيكون هذا غير عادل لبرودنس، التي لها الحق بامتلاك العزبة دون أن تحوم ألما هناك كإزعاج. على أي حال، ستكون العودة إلى الوطن مذلّة. ستحتاج إلى البدء من جديد. ستحتاج أيضاً إلى العثور على طريقة لدعم نفسها. سترسل كلمة غداً إلى بابيتي بأنها تبحث عن موضع على سفينة جيدة قبطانها محترم يعرف ديك يانسي.

لم تكن مرتاحة لكنها مصممة على الأقل.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس والعشرون

بعد أربعة أيام استيقظت ألما فجراً على صياح مرح من فرقة هيرو. خطت خارج الكوخ كي تكتشف مصدر الأصوات. كان فتيانها الخمسة البريّون يركضون جيئة وذهاباً على الشاطئ، ويدورون بحركات حادة ويتشقلبون في ضوء الصباح الباكر ويتصايحون بلغة تاهيتية حماسية. حين شاهدها هيرو، ركض في الممر المتعرج إلى بابها بسرعة وحشية.

صاح: «تومورو مورننغ هنا». كانت عيناه تتوهجان من الإثارة، كما لم تشاهد من قبل، حتى في هذا الفتى القابل للإثارة دوماً.

مرتبكة، أمسكت ألما ذراعه، محاولة أن تبطئه وتفهم ما يقوله.

سألته: «ما الذي تقوله يا هيرو؟».

«تومورو مورننغ هنا!»، صاح ثانية، قافزاً نحو الأعلى وهو يتحدث، غير قادر على التحكم بنفسه.

أمرته باللغة التاهيتية: «قل لي باللغة التاهيتية».

صاح، وكان هذا نفس الكلام غير المفهوم كما في الإنكليزية: «تومورو مورننغ هنا».

نظرت ألما نحو الأعلى فرأت حشداً متجمعاً على الشاطئ، كان الجميع من البعثة التبشيرية، بالإضافة إلى أشخاص من قرى مجاورة. وكان الجميع مهتاجين كالفتيان الصغار. شاهدت القس ويليس يسرع

Twitter: @ketab_n

نحو الشاطئ بمشيته المتقوسة المضحكة. رأت الأخت مانو تركض، والأخت إيتيني، والصيادين المحليين أيضاً.

قال هيرو، موجهاً عيني ألما إلى البحر: «انظري!، تومورو مورننغ يصل!».

نظرت ألما نحو الخليج وشاهدت ـ كيف لم تلاحظ هذا على الفور؟ ـ أسطولاً من القوارب الطويلة تبحر عبر الماء نحو الشاطئ بسرعة لا تُصدّق، تدفعها دزينات من المجدفين السود. في كل الوقت الذي أمضته في تاهيتي، لم تُخْف أبداً تعجبها من قوة ورشاقة قوارب كهذه. حين كانت أساطير صغيرة كهذه تأتي مندفعة عبر الخليج، شعرت على الدوام كما لو أنها تراقب وصول جاسون والمغامرين الأرغونيين، أو أسطول الأوديسة. وأحبت أكثر من أي شيء آخر اللحظة التي يقترب فيها المجدفون من الشاطئ، وينفخون عضلاتهم ويقومون بالدفع لمرة واحدة أخيرة وتطير الزوارق خارجة من البحر كما لو أنه قذفتْها أقواس جبارة لامرئية، وترسو على الشاطئ في وصول درامي ضخم.

كان لدى ألما أسئلة لكن هيرو اندفع راكضاً كي يحيي الزوارق، كما فعل بقية الحشد. لم تر ألما أبداً من قبل هذا العدد الكبير من الناس على الشاطئ. مثارةً، ركضت هي أيضاً نحو الزوارق. كانت زوارق رائعة وفخمة على نحو استثنائي. لا بد أن الأكبر يبلغ ستين قدماً، ويقف في مقدمته رجل بطول وبنية مؤثرين، ومن الواضح أنه قائد الحملة. كان تاهيتياً، لكنه حين اقترب أكثر استطاعت أن ترى أنه يلبس بذلة أوربية. تجمّع القرويون حوله منشدين أناشيد الترحيب وحملوه من القارب كملك.

حمل الناس الغريب إلى القس ويليس. اندفعت ألما عبر الحشد،

Twitter: @ketab_n

مقتربة قدر الإمكان. انحنى الرجل فوق القس ويليس، وضغط الاثنان أنفيهما معاً في التحية المعتادة المعبرة عن العاطفة الأعمق. سمعت القس ويليس يقول بصوت مبلل بالدموع: «أهلاً بك في وطنك يا ابن الله المبارك!».

توقف الغريب عن العناق. التفت كي يبتسم للحشد، ورأت ألما وجهه لأول مرة بشكل مباشر. لو لم يكن يدعمها كثير من الناس المحتشدين الضاغطين، لسقطت من قوة المعرفة.

إن كلمتي «غداً صباحاً (تومورو مورننغ)» اللتين كتبهما أمبروس على ظهور رسومات الفتى لم تكن شفرة. لم يكن «تومورو مورننغ» نوعاً ما من الرغبة الحلمية بمستقبل طوباوي، أو جناساً، أو أي نوع من السحر الغامض. لمرة واحدة في حياته، كان أمبروس بايك مباشراً بشكل تام: كان «غداً صباحاً» (تومورو مورننغ) اسم شخص فحسب

لقد وصل «تومورو مورننغ» بالفعل الآن.

* * *

أغضبها هذا.

كان هذا رد فعلها الأولي. شعرت ـ ربما بشكل غير عقلاني ـ بأنها خُدعتْ. لماذا لم تسمع، طيلة أشهر بحثها وحرمانها، ذكراً له: شكله الملكي، هذا الزائر المعبود، هذا الرجل الذي جعل كل شمال تاهيتي تركض وتصيح متبهجة على الشاطئ كي تلقي عليه التحية؟ كيف لم يُلمَّح أبداً إلى اسمه ووجوده، ولو على نحو ضئيل؟ لم يستخدم أحد مرة كلمتي «تومورو مورننغ» مع ألما، إلا في إشارة حرفية إلى شيء خُطط له في صباح اليوم التالي، وأكيد أنه لم يذكر أحد أبداً افتتان

Twitter: @ketab_n

الجزيرة الكوني بساكن محلي مخادع وأنيق يمكن أن يصل يوماً ما من اللامكان ويُعبد. كيف يمكن لشخص بهذه الأهمية أن يظهر فحسب؟

وبينما تحركت بقية الحشد نحو كنيسة البعثة التبشيرية في قداس مبتهج ومنشد، وقفت ألما بهدوء على الشاطئ مصارعة كي تفهم كل هذا. حلّتْ أسئلة جديدة مكان معتقدات قديمة. وانهارت اليقينيات التي شعرت بها الأسبوع الماضي كسدّ من الثلوج في بداية الربيع. فالشبح الذي جاءت كي تبحث عنه هنا يوجد بالفعل، لكنه لم يكن فتى؛ بل بدا بالأحرى كأنه ملك من نوع ما. ما العمل الذي جمع أمبروس مع ملك جزيرة؟ كيف التقيا؟ لماذا صوّر أمبروس «تومورو مورننغ» كصياد أسماك، بينما هو رجل يتمتع بسلطة معتبرة؟

إن آلة التأمل الباطنية التي لا تلين والعنيدة لدى ألما بدأت تدور مرة أخرى. أغضبها هذا الإحساس أكثر فحسب. كانت منهكة جداً من التأمل. ولم تعد تستطيع تحمل ابتكار نظريات جديدة. شعرت أنها عاشت طول حياتها في حالة من التأمل. كل ما كانت تريده هو أن تعرف الأشياء، وما تزال الآن، حتى بعد كل تلك الأعوام من التساؤل الذي لا يكل، تفكر وتتساءل وتخمّن.

كفى تأملاً. لتتوقف عن ذلك. تحتاج الآن إلى أن تعرف كل شيء، ستصرّ على المعرفة.

* * *

استطاعت ألما سماع الكنيسة قبل أن تصل إليها. وكان الغناء المتصاعد من داخل ذلك البناء المتواضع يختلف عن كل ما سبق أن سمعته. كان زئيرَ ابتهاج. لم يكن هناك مجال داخل الكنيسة لها؛ فوقفت في الخارج مع الحشد القافز والمنشد، وأصغت. كانت الترانيم التي

Twitter: @ketab_n

سبق أن سمعتها ألما في هذه الكنيسة في الماضي ـ أصوات الأشخاص الثمانية عشر المحتشدين لبعثة القس ويليس التبشيرية ـ ألحاناً رقيقة وقصبية بالمقارنة مع ما تسمعه الآن. فلأول مرة استطاعت أن تفهم ماذا كانت بالفعل الموسيقا التاهيتية، ولماذا تحتاج إلى مئات الأصوات التي تزأر وتصرخ سوية من أجل أن تؤدي وظيفتها: أن تغمر صوت المحيط. هذا ما كان يفعله أولئك الأشخاص الآن، في تعبير صاخب من التبجيل، جميل وخطير في آن.

هدأ الصوت أخيراً، واستطاعت ألما سماع رجل يتحدث، بوضوح وقوة للحشد. تحدث باللغة التاهيتية، في خطبة كانت كالأنشودة أحياناً. اندفعت مقتربة من الباب وحدقت إلى الداخل. كان تومورو مورننغ طويلاً ورائعاً، يقف على المنبر، رافعاً ذراعيه، منادياً الحشد. كان إتقان ألما للغة التاهيتية ما يزال أولياً بحيث لم تتمكن من فهم الخطبة كلها، لكنها استطاعت أن تفهم أن هذا الرجل يقدم شهادة محمومة عن المسيح الحي. لكن لم يكن هذا كل ما يفعله؛ كان أيضاً يثب مع حشده من الناس، بالطريقة نفسها التي راقبت فيها ألما مرات كثيرة فتيان فرقة هيرو يثبون مع الأمواج. كان نشيطاً وأعصابه قوية. سحب الضحك والدموع من الحشد، وكذلك الوقار والمتعة المشاغبة. استطاعت أن تشعر بأن عواطفها جاشت من جرس وكثافة صوته، رغم أن كلماته غير قابلة للفهم.

تواصل أداء تومورو مورننغ لأكثر من ساعة. جعلهم يغنون؛ وجعلهم يصلّون. وبدا أنه جعلهم مستعدين للهجوم فجراً. فكرت ألما، كانت أمي ستزدري ذلك. لم تستسلم بياتريكس ويتاكر لعواطف إنجيلية أبداً؛ فقد اعتقدت أن الأشخاص المسعورين معرضون لخطر نسيان سلوكهم وعقلهم، حينئذ أين سنكون كحضارة؟ على أي حال، إن

Twitter: @ketab_n

مناجاة تومورو مورننغ الصاخبة لم تكن تشبه أي شيء سمعت به ألما من قبل في كنيسة القس ويليس، أو في أي مكان آخر. لم يكن هذا قساً من فيلادلفيا، ينشر مطيعاً تعاليم لوثرية، أو الأخت مانو ومواعظها البسيطة أحادية المقطع؛ كانت هذه خطبة رسمية. كانت هذه طبول الحرب، كان هذا ديموستينس يدافع عن ستيسيفون. كان هذا بركليس يمجّد موتى أثينا، كان هذا شيشرون يوبّخ كاتيلين.

ما لم يعكسه خطاب تومورو مورننغ بشكل أكثر تأكيداً، كما اعتقدت ألما، كان التواضع واللطف اللذين ربطتهما بهذه البعثة التبشيرية المتواضعة قرب البحر. لم يكن هناك شيء متواضع أو لطيف في تومورو مورننغ. بالفعل، لم تر من قبل أبداً شخصية جريئة ورابطة الجأش كهذه. تذكرت قولاً مأثوراً لشيشرون بلغته الأصلية، اللاتينية الجبارة (اللغة الوحيدة التي شعرت بأنها تجاري الفيض الراعد لفصاحة السكان الأصليين الذي تشهده الآن):

لم يوجد أبداً شاعر أو خطيب اعتقد أن هناك شاعراً أو خطيباً أفضل منه.

* * *

صار النهار أكثر حماساً.

فعبّر التلغراف المحلي الفعال بشكل كبير في تاهيتي (الفتيان السريعون في الجري والذين لهم أصوات مرتفعة)، انتشرت الكلمة بسرعة بأن تومورو مورننغ قد وصل، وصار شاطئ خليج ماتافاي أكثر اكتظاظاً ونشاطاً في كل ساعة. أرادت ألما العثور على القس ويليس كي تسأله أسئلة كثيرة، لكن جرمه الصغير واصل اختفاءه في الحشد، ولم تستطع أن تلمح سوى لمحات عابرة له وشعره الأبيض يطير في النسيم،

Twitter: @ketab_n

متوهجاً من السعادة. لم تستطع الاقتراب من الأخت مانو أيضاً التي كانت مكهربة بحيث فقدت قبعتها المزهرة العملاقة، وتبكي كفتاة مدرسة في حشد من النسوة الثرثارات والمبتهجات. ولم تر أيضاً فرقة هيرو في أي مكان، أو بالأحرى استطاعت رؤيتهم في جميع الأمكنة، لكنهم يتحركون بسرعة كبيرة بحيث لا تستطع ألما أن تلحق بهم وتسألهم.

تحول الحشد على الشاطئ، كما لو بقرار بالإجماع، إلى حفل. أفسحوا مكاناً لمباريات المصارعة والملاكمة. خلع شبان قمصانهم، ودهنوا أنفسهم بزيت جوز الهند وبدأوا المصارعة. ركض الأطفال على الشاطئ في سباقات جري عفوية، وظهرت حلقة في الرمال، وحالاً بدأ صراع ديكة. وفيما كان النهار يمر، وصل الموسيقيون، حاملين كل شيء من طبول محلية ونايات إلى أبواق وكمنجات أوربية. وعلى جزء آخر من الشاطئ كان الرجال يحفرون مكاناً لموقد ويبنونه بالأحجار. كانوا يخططون لشواء كبير. ثم شاهدت ألما الأخت مانو، خارجة من اللامكان، تحمل خنزيراً، ثبتته وذبحته، وكان الخنزير في غاية الذعر. لم تستطع ألما مقاومة الشعور بالاستياء من منظر كهذا. (انتظرت كثيراً مذاق لحم الخنزير، كل ما احتاجه على ما يبدو هو وصول تومورو مورننغ، والقيام بالفعل). بسكين طويلة ويد واثقة قطعت مانو الخنزير بابتهاج. نزعت أحشاءه، كما تتناول امرأة قطعة حلوى. حملت هي وبضع نساء قويات الخنزير فوق ألسنة لهب الموقد كي يحرقن الشعر. ثم لففنه في أوراق وخفضنه إلى الأحجار الحارة. وتبعت دجاجات يائسة الخنزير إلى موتها في هذا الاندفاع المدّي للاحتفال.

شاهدت ألما الأخت الجميلة إيتيني تندفع قربها، وذراعاها مليئتان

Twitter: @ketab_n

بفاكهة الخبز. اندفعت ألما إلى الأمام، لمست إيتيني على كتفها، وقالت: «أخت إيتيني، أخبريني من فضلك من هو تومورو مورننغ؟».

استدارت إيتيني بابتسامة عريضة وقالت: «إنه ابن القس ويليس».

«ابن القس ويليس؟»، كررت ألما. للقس ويليس بنات، وابنة واحدة حية فقط. لو لم تكن إنكليزية الأخت إيتيني قوية لافترضت ألما أن المرأة لم تنطق صواباً.

شرحت إيتيني: «ابنه من خلال التايو. إن تومورو مورننغ هو ابنه بالتبني. إنه ابني أيضاً، وابن الأخت مانو. إنه ابن الجميع في هذه البعثة! نحن كلنا عائلة من خلال التايو».

سألت ألما: «ولكن من أين هو؟».

قالت إيتيني، ولم تستطع أن تخفي فخرها الكبير بتلك الحقيقة: «إنه من هنا، تومورو مورننغ هو لنا».

«لكن من أين وصل اليوم؟».

«جاء من راياتي، حيث يعيش الآن. لديه بعثة تبشيرية خاصة به هناك. لقد حقق نجاحاً كبيراً في جزيرة كانت مرة الأكثر عداء للرب الحقيقي. إن الناس الذين أحضرهم معه اليوم، هم الذين حوّلهم، بعض الذين حوّلهم. لديه الكثير جداً».

كان لدى ألما الكثير من الأسئلة، لكن الأخت إيتيني كانت متلهفة كي تشارك في الوليمة، وهكذا شكرتها ألما وجعلتها تذهب. ذهبت إلى دغل جوافة قرب النهر وجلست في الظل، كي تفكر. كان هناك الكثير جداً كي تفكر به وتفهمه. يائسة كي تفهم كل هذه المعلومات الجديدة، تذكرت محادثة أجرتها مع القس ويليس منذ شهور. تذكرت على نحو باهت أن القس ويليس أخبرها عن أبنائه الثلاثة الذين تبناهم ـ المنتجات

الثلاثة النموذجية لمدرسة البعثة التبشيرية في خليج ماتافاي ـ الذين يقودون الآن بعثات تبشيرية محترمة في جزر خارجية مختلفة. ضغطت على نفسها كي تتذكر تفاصيل تلك المحادثة الوحيدة التي جرتْ منذ وقت طويل، لكن تذكرها كان غير واضح على نحو محبط. ربما كانت راياتي إحدى الجزر التي ذكرها، كما شعرت ألما، لكنها متأكدة من أنه لم يذكر اسم تومورو مورننغ أبداً. كانت ألما ستنتبه إلى هذا الاسم، لو حدث وسمعت به. كانت هذه الكلمات ستثير انتباهها فوراً، بما أنها تطفح بالتداعيات الشخصية. كلا، لم تسمع أبداً بهذا الاسم يُنطق أمامها من قبل. لقد أطلق عليه القس ويليس اسماً آخر.

اندفعت الأخت إيتيني قربها ثانية، وذراعاها فارغان هذه المرة، ومرة أخرى اندفعت ألما وحجزتها. كانت تعرف أنها تضايقها، لكنها لم تستطع أن توقف نفسها.

سألت: «ما اسم تومورو مورننغ يا أخت إيتيني؟».

بدت الأخت إيتيني مرتبكة، وقالت ببساطة: «اسمه تومورو مورننغ».

«لكن ما الاسم الذي يناديه به القس ويليس؟».

توهجت عينا الأخت إيتيني: «آه، إن القس ويليس يناديه باسمه التاهيتي، الذي هو تاماتوا مير. لكن تومورو مورننغ اسم اخترعه لنفسه، حين كان فتى صغيراً. ويفضل أن يُنادى بهذا الاسم. كان دوماً واثقاً من نفسه في اللغة، يا أخت ويتاكر. كان أفضل تلميذ مرّ علينا أنا والقس ويليس، وستجدين أنه يتحدث الإنكليزية بشكل أفضل مني، واكتشف من بداية طفولته أن إيقاع اسمه التاهيتي مثل إيقاع تلك الكلمات

الإنكليزية. كان دوماً ذكياً. الآن الاسم يلائمه، نحن نتفق جميعاً، ذلك أنه يولّد أملاً كهذا لدى كل من يقابله. كمثل يوم جديد».

كررت ألما: «كمثل يوم جديد».

«بالضبط، نعم».

قالت ألما: «أنا آسفة يا أخت إيتيني لدي سؤال أخير. متى كان تاماتوا مير هنا آخر مرة في خليج ماتافاي؟».

أجابت الأخت إيتيني دون تردد: «تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٥٠».

اندفعت الأخت إيتيني بسرعة. جلستْ ألما في الظل ثانية وراقبت الفوضى المرحة وهي تتكشف. راقبتْها دون متعة. شعرت بصدع عميق في قلبها، كما لو أن أحداً ما كان يضغط بصمة إبهام في صدرها، عميقاً وبشدة.

توفي أمبروس بايك في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٥٠.

* * *

استغرقت ألما بعض الوقت كي تقترب من تومورو مورننغ. شهدت تلك الليلة احتفالاً كبيراً، وليمة جديرة بملك، وأكيد أن الرجل نُظر إليه هكذا. احتشد مئات التاهيتيين على الشاطئ، أكلوا لحم الخنزير المشوي والأسماك وخبز الفاكهة واستمتعوا بفطائر نبات الآروروت والبطاطا وأعداد لا تُحصى من جوز الهند. أُشعلت النيران ورقص الناس، ليس الرقصات الأكثر فحشاً، التي كانت تاهيتي مشهورة بها، بل الرقصة التقليدية الأقل انتهاكاً، التي يدعونها الهورا. حتى هذه لم يُسمح بها في أية مستوطنة تبشيرية أخرى على الجزيرة، لكن ألما عرفت أن القس ويليس سمح بها أحياناً. («لا أرى أي ضرر فيها»، قال مرة لألما التي بدأت تفكر بهذه العبارة التي يرددها القس ويليس دوماً كشعار).

Twitter: @ketab_n

لم تر ألما أبداً الرقصة من قبل، وكانت مسحورة مثل الجميع. كانت الراقصات الإناث الشابات يزينَّ شعرهنَّ بضفائر ثلاثية من الياسمين وأزهار الغاردينيا، وبأزهار ملفوفة حول أعناقهن، والموسيقا بطيئة وهادئة. على وجوه بعض الفتيات آثار الجدري، لكنهن جميلات بشكل متساو في ضوء النار. يستطيع المرء أن يكوّن إحساساً عن أعضاء النساء وأردافهن أثناء الحركة، حتى تحت فستاتينهن الموصوفة من قبل البعثة التبشيرية، ذات الأكمام الطويلة والتي لا شكل لها. كانت الرقصة الأكثر إثارة التي سبق أن شاهدتها ألما (كانت أيديهن لوحدها مثيرة، كما اعتقدت)، ولم تبدأ بتخيل كيف بدت هذه الرقصة لوالدها في ١٧٧٧، حين كانت النسوة اللواتي يؤدينها يرتدين التنانير العشبية ولا شيء آخر. لا بد أنه كان عرضاً باهراً، بالنسبة لفتى صغير من ريتشموند يحاول الحفاظ على فضيلته.

بين فترة وأخرى كان شبان أقوياء يقفزون إلى حلقة الرقص كي يؤدوا فواصل بهلوانية وكوميدية، وظنت ألما أن الهدف من هذا في البداية هو كسر المزاج الحسي بالمرح، لكنهم هم أيضاً بدأوا في الحال يختبرون حدود الشبق في حركاتهم. كان هناك محاولة مرحة متكررة يحاول الرجال فيها الميل للإمساك بالنساء لكنهن يهربن برشاقة وسرعة دون تعثر. حتى الأطفال الأصغر بدوا وكأنهم يفهمون الإيحاء الضمني للرغبة والصد الذي يتجلى في الأداء، وكانوا يصرخون بدرجة من الضحك جعلتهم يبدون أكبر من أعمارهم. حتى الأخت مانو، ذلك النموذج المتألق للفضيلة المسيحية، قفزت في الحلقة في نقطة ما وانضمت إلى راقصي الهورا، مؤرجحة جسمها برشاقة مفاجئة. حين جاء إليها أحد الراقصين الشبان الذكور، سمحت له بأن يمسك بها، مما سبب زئير متعة لدى الحشد. ثم ضغط الراقص نفسه على ردفها، في

Twitter: @ketab_n

سلسلة من الحركات التي لا يمكن أن تخفى شبقيتها الواضحة على أحد؛ حدجته الأخت مانو فقط بنظرة غزلية متكلفة على نحو كوميدي، وواصلت الرقص.

راقبت ألما القس ويليس، الذي بدا مسحوراً بكل ما شاهده. كان تومورو مورننغ يجلس إلى جانبه، متخذاً وضعية تامة، يلبس كسيد من لندن. أثناء المساء كان الناس يأتون للجلوس إلى جانبه، كي يضغطوا أنوفهم على أنفه، وكي يلقوا عليه التحية. كان يستقبل الجميع بروح من الرقة والسخاء. وفي الحقيقة، كما كان على ألما أن تعترف، لم تر أبداً كائناً بشرياً أكثر جمالاً منه في حياتها. وبالطبع، إن الجمال في الشكل الجسدي يُرى في كل مكان في تاهيتي، ويصبح المرء معتاداً عليه بعد فترة. كان الرجال جميلين هناك، وكانت النساء والأطفال أكثر جمالاً أيضاً. وكان معظم الأوروبيين يبدون شاحبين ونحيلي الأذرع ومحدبين بالمقارنة مع التاهيتيين الفائقين للعادة! قيل هذا ألف مرة، من قبل ألف أوربي مصاب بالذهول. وهكذا، نعم، لم يكن الجمال غير متوفر هنا، ورأت ألما الكثير منه، لكن تومورو مورننغ كان أكثر جمالاً من الكل.

كانت بشرته سوداء ولامعة، ابتسامته كطلوع بطيء للقمر. وحين يحدق بأي شخص، يكون هذا فعل كرم وتلألؤ. وكان من المستحيل عدم النظر إليه. فرغم ملامحه الأنيقة، كان حجمه يلفت الانتباه. وفي الحقيقة قامته مدهشة، وكان أخيلاً حقيقياً. وأكيد أن المرء سيتبع رجلاً كهذا إلى المعركة. أخبر القس ويليس ألما مرة أنه في الزمن القديم في البحار الجنوبية، حين كان سكان الجزر يحاربون بعضهم بعضاً، كان المنتصرون يفحصون جثث خصومهم ويبحثون عن الأجساد الأكثر طولاً وسواداً بين الموتى. حالما يعثرون على أولئك الأشخاص الضخام المذبوحين يشقون جثثهم وينتزعون عظامهم ويصنعون منها الأشصاص

Twitter: @ketab_n

والأزاميل والأسلحة. واعتُقد أن عظام الرجال الأضخم مشحونة بقوة هائلة وهكذا فإن الأدوات والأسلحة المصنوعة منها تمنح حاملها قوة لا تُقهر. وتخيّلت ألما على نحو شنيع أن عظام تومورو مورننغ يمكن أن تصنع ترسانة أسلحة لو أنهم نجحوا في قتله.

سارت ألما بعيداً عن مركز ضوء النار، كي تبقى نوعاً ما غير مرئية فيما تدرس الموقف. لم يلاحظ وجودها أحد، بما أنهم كانوا مشغولين بمتعتهم. استمر مرحهم الصاخب حتى وقت متأخر من الليل. واشتدت النيران وارتفعت وازدادت تألقاً ملقية ظلالاً سوداء ملتفّة بحيث أن المحتفلين خافوا من السير فوقها كي لا تمسكهم وتسحبهم إلى البو. ازدادت وحشية الرقص وتصرف الأطفال كأرواح ممسوسة. كان يمكن أن تفترض ألما أن زيارة من مبشّر مسيحي بارز لن تنتج عربدة وإسرافاً، لكنها ما تزال جديدة على تاهيتي. لم يزعج شيء مما حدث القس ويليس، الذي لم بدا أكثر سعادة وحماساً.

بعد منتصف الليل بوقت طويل انتبه القس ويليس إلى ألما أخيراً.

ناداها: «أخت ويتاكر! أين سلوكي الحسن؟ يجب أن تقابلي ابني».

اقتربت ألما من الرجلين اللذين كانا يجلسان قرب النار بحيث بديا متوهجين. كان لقاء محرجاً، ذلك أن ألما كانت واقفة والرجلان ـ بحسب العادة المحلية ـ بقيا جالسين. لن تجلس. لن تضغط أنفها على أنف أي شخص آخر. لكن تومورو مورننغ مد ذراعه الطويل وصافحها بلباقة.

قال القس ويليس: «يا أخت ويتاكر، هذا هو ابني، الذي حدّثتُك عنه. ويا ابني العزيز هذه هي الأخت ويتاكر، جاءت لزيارتنا من الولايات المتحدة الأميركية. إنها عالمة طبيعة معروفة».

Twitter: @ketab_n

قال تومورو مورننغ بلكنة بريطانية رائعة، هازاً رأسه بانتباه: «عالمة طبيعة! حين كنت طفلاً كنت مولعاً بالتاريخ الطبيعي. ظنّ أصدقائي أنني مجنون، لأنني أقدّر قيمة ما لا يمنحه أحد قيمة: الأوراق والحشرات والمرجان وما شابه ذلك. لكن هذا شكل متعة وثقافة لي. أية حياة رائعة للقيام بدراسة عميقة كهذه للعالم. كم أنت محظوظة في مهنتك!».

حدقت ألما إليه نحو الأسفل كي ترى وجهه عن قرب أخيراً، هذا الوجه الذي من المتعذر نسيانه، هذا الوجه الذي أزعجها وسحرها لوقت طويل، هذا الوجه الذي أحضرها إلى هنا من الجانب الآخر من الكوكب، هذا الوجه الذي جاس بعناد خيالها، هذا الوجه الذي حاصرها إلى درجة الهوس، كان مذهلاً. كان لوجهه تأثير قوي عليها بحيث أدهشها بأنه من غير القابل للتصديق أنه هو، بدوره، لم يكن مذهولاً بشكل مساو من رؤيتها: كيف يمكن أن تعرفه بشكل حميمي، وهو لا يعرفها مطلقاً؟

ولكن لماذا سيفعل؟

بهدوء، عاود النظر إليها، كانت رموشه طويلة ومضحكة. لم تبد مفرطة فحسب، بل تقريباً متحدية: بدت رموشه كحاشية مترفة لا حاجة إليها. شعرت بالاستياء يتصاعد في داخلها، لا أحد يحتاج إلى رموش كهذه.

قالت: «سعيدة باللقاء معك».

وبلباقة رجل دولة قال تومورو مورننغ إنه هو السعيد جداً. ثم أفلت يدها، اعتذرت ألما، وعاود تومورو مورننغ الانتباه إلى القس ويليس، إلى والده السعيد، الصغير والأبيض.

* * *

Twitter: @ketab_n

مكث في خليج ماتافاي خمسة عشر يوماً.

نادراً ما أزاحت عينيها عنه، مصممة على أن تعرف عبر الرصد والقرب ما تقدر عليه. ما عرفته بسرعة هو أن تومورو مورننغ كان محبوباً. شعرت بالاستياء من كم كان محبوباً. تساءلت إن كان هذا مزعجاً له. لم يُمنح أبداً لحظة لنفسه، رغم أن ألما واصلت المراقبة من أجل لحظة كي تتحدث معه على انفراد. بدا كأنه لن تسنح فرصة لذلك أبداً؛ كان هناك وجبات ولقاءات وتجمعات وطقوس في كل مكان حوله، وفي جميع الساعات. نام في منزل الأخت مانو، الذي اكتظ بزوار متواصلين. دعت الملكة أيماتا بوماري الرابعة، فاهين التاهيتية، تومورو مورننغ لتناول الشاي في قصرها في بابيتي. كان الجميع يريدون أن يسمعوا بالإنكليزية أو التاهيتية أو بكلتيهما قصة نجاح تومورو مورننغ الفائق للعادة كمبشِّر في راياتي.

لم يرغب أحد أن يسمع عن ذلك أكثر من ألما، وأثناء فترة إقامة تومورو مورننغ المؤقتة، نجحت في جمع خيوط القصة الكاملة من عدة متفرجين ومعجبين بالرجل العظيم. علمت أن راياتي، كانت مهد الميثولوجيا البولينزية، وبالتالي كانت مكاناً غير محبذ لاعتناق المسيحية. كانت جزيرة ضخمة وعرة المسالك ومكان ولادة ومسكن أورو، الذي كانت تُشرَّف هياكله بأضحيات بشرية وتُنقَّط بالجماجم. كانت راياتي مكاناً جدياً (استخدمت الأخت مانو كلمة ثقيل). واعتُبر جبل تيميهاني، الذي يقع في مركز الجزيرة، مقراً أبدياً لجميع موتى بولينزيا. يتوضع غطاء دائم من الضباب على أعلى قمة في الجبل، كما قيل، لأن الموتى لا يحبون ضوء الشمس. لم يكن سكان راياتي مرحين؛ كانوا قوماً أشداء يحبون سفك دماء والعظمة. لم يكونوا تاهيتيين، قاوموا الإنكليز. وقاوموا الفرنسيين. لكنهم لم يقاوموا تومورو مورننغ، الذي وصل إلى

Twitter: @ketab_n

هناك في البداية قبل ست سنوات بطريقة أكثر مشهدية: جاء لوحده في زورق، نزل منه حين اقترب من الجزيرة. تعرى وسبح إلى الشاطئ، مخوضاً بسهولة في الأمواج الراعدة، حاملاً كتابه المقدس فوق رأسه ويغني: «أنشد كلمة الله، الإله الوحيد الحقيقي! أنشد كلمة الله، الإله الوحيد الحقيقي!».

لم ينتبه إليه سكان راياتي.

بنى تومورو مورننغ إمبراطورية تبشيرية. بنى كنيسة قرب هيكل الأم الوثنية في راياتي، يمكن أن تُظنّ قصراً بسهولة، لو لم تكن منزلاً للتعبد. إنها الآن أكبر بناء في بولينزيا، يدعمه ٤٦ عموداً، صُنعوا من جذوع أشجار فاكهة الخبز، وبُردوا كي يُنعَّموا بجلد سمك القرش.

أحصى تومورو مورننغ عدد الذين حوّلهم إلى المسيحية بثلاثة آلاف وخمسمائة شخص. راقب الناس وهم يحرقون أوثانهم. راقب الهياكل القديمة وهي تخضع لتحول سريع، من معابد تضحية عنيفة إلى أكوام لا تؤذي من الأحجار التي تنمو عليها الطحالب. جعل سكان راياتي يرتدون ملابس أوربية متواضعة، البنطلونات للرجال والفساتين الطويلة والقلنسوات للنساء. كان الفتيان الصغار يقفون في صفوف كي يحلقوا شعرهم ويحظوا باحترامه. أشرف على تأسيس جماعة تعيش في أكواخ أنيقة بيضاء. علّم التهجية والقراءة للناس، الذين قبل مجيئه، لم يروا الأبجدية أبداً. كان يأتي إلى المدرسة أربعمائة طفل يومياً ويتلقون التعليم الشفهي. وانتبه تومورو مورننغ إلى أن الناس يجب ألا يُحاكوا فقط كلمات الإنجيل بل أن يفهموا معانيها. ولهذا درب سبعة مبشرين خاصين به، أرسلهم مؤخراً إلى جزر أكثر بعداً، وسبحوا أيضاً إلى الشاطئ رافعين الكتاب المقدس فوق رؤوسهم، منشدين باسم الله. انتهت أيام

Twitter: @ketab_n

الإزعاج والأخطاء والخرافة. انتهى وأد الأطفال. انتهى تعدد الزوجات. سمّى البعض تومورو مورننغ نبياً؛ قيل إنه يفضل كلمة خادم.

علمت ألما أن تومورو مورننغ تزوج امرأة في راياتي تدعى تيمانافا ويعني اسمها «المرحِّبة». كان لديه ابنتان صغيرتان سُمِّيتا فرانسيس وإديث على اسم القس والسيدة ويليس. كان الرجل الأكثر احتراماً في مجتمع الجزر، كما علمت ألما. سمعت هذا مرات كثيرة، وملّت من سماعه.

قالت الأخت إيتيني: «إنه لفخر لنا أنه تخرّج من مدرستنا الصغيرة في خليج ماتافاي!».

لم تعثر ألما على لحظة كي تتحدث مع تومورو مورننغ حتى وقت متأخر من إحدى الليالي، بعد عشرة أيام من وصوله، حين شاهدته يجتاز وحيداً المسافة القصيرة بين منزل الأخت إيتيني، حيث استمتع بالعشاء لتوه، ومنزل الأخت مانو، حيث ينام.

قالت: «هل يمكن أن أتحدث معك؟».

«أكيد يا أخت ويتاكر»، قال متذكراً اسمها بسهولة. بدا غير متفاجئ بشكل كامل من رؤيتها تخرج من الظلال إليه.

سألته: «هل هناك مكان أكثر هدوءاً نستطيع التحدث فيه. ما أريد أن أناقشه معك موضوع خاص».

ضحك بارتياح: «إذا حدث وجربت شيئاً كالخصوصية في خليج ماتافاي يا أخت ويتاكر أحييك، أي شيء ترغبين بقوله لي يمكنك قوله هنا».

«حسناً إذاً»، قالت رغم أنها لم تستطع مقاومة النظر حولها خشية أن يسمعهما أحد. بدأت: «يا تومورو مورننغ، أنا وأنت أكثر ارتباطاً بمصير

Twitter: @ketab_n

بعضنا بعضاً مما تظن. لقد قدموني لك باسم الأخت ويتاكر لكنني أريدك أن تعرف أنني لفترة قصيرة في حياتي كنت أعرف باسم السيدة بايك».

قال بلطف رافعاً يداً: «لن أدعك تتابعي. أعرف من أنت يا ألما».

نظرا إلى بعضهما في صمت لوقت شعرا أنه طويل.

قالت أخيراً: «وهكذا».

أجاب: «تماماً».

ثانية، صمت طويل.

قالت أخيراً: «أعرف من أنت، أيضاً».

لم يبد مذعوراً أبداً: «هل تعرفين؟ من أنا إذاً؟».

اكتشفت أنها لا تستطيع أن تجيب بسهولة على السؤال. ولأنها بحاجة إلى قول شيء ما، قالت: «كنت تعرف زوجي جيداً».

«بالفعل، وأنا مشتاق إليه».

صدم هذا الرد ألما، لكنها فضلت الصدمة الناجمة عن اعترافه على جدل أو إنكار. متوقعة هذه المحادثة في الأيام السابقة، اعتقدت أنها يمكن أن تفقد عقلها لو أن تومورو مورننغ اتهمها بالتفوه بأكاذيب شائنة، أو تظاهر بأنه لم يسمع بأمبروس أبداً.لكنه لم يبد ميالاً إلى أن يقاوم أو يرفض. نظرت إليه بتمعن، ساعية وراء شيء في وجهه بالإضافة إلى الثقة المسترخية، لكنها لم تجد أي خلل.

كررت: «أنت مشتاق إليه».

«وسأشتاق دوماً، لأن أمبروس بايك كان من أفضل الرجال».

«هكذا يقول الجميع»، قالت ألما، شاعرة بالغيظ وأنه تم التفوق عليها.

Twitter: @ketab_n

«لأن هذا صحيح».

«هل كنت تحبه يا تاماتوا مير؟»، سألت، باحثة ثانية في وجهه عن انكسار في توازنه. أرادت أن تباغته، كما باغتها. لكن وجهه لم يُبْد ذرة انزعاج. لم ترف عينه حتى من استخدام اسمه بالولادة.

أجاب: «كل من قابله أحبّهُ».

«لكن هل أحببته على نحو خاص؟».

وضع تومورو مورننغ يديه في جيبيه ونظر إلى القمر. لم يكن مستعجلاً كي يجاوب. نظر إلى العالم كله كرجل ينتظر القطار على مهل. بعد وهلة، حدق من جديد في وجه ألما. لم يكونا بعيدين عن الارتفاع نفسه، كما لاحظت. لم يكن كتفاها أضيق بكثير من كتفيه.

«أفترض أنك تتساءلين عن الأمور»، قال محاولاً الجواب.

شعرت هنا كأن الأرض تميد تحتها. تحتاج إلى أن تكون مباشرة أكثر.

قالت: «هل يمكن أن أتحدث معك بصراحة يا تومورو مورننغ؟».

شجعها: «افعلي من فضلك».

«اسمحي لي أن أخبرك شيئاً ما عن نفسي، قد يساعدك هذا في التحدث بحرية أكبر. ثمة ميلٌ مزروع فيَّ ـ رغم أنني لا أعده دوماً فضيلة أو بركة ـ رغبة لفهم طبيعة الأشياء، ولهذا أريد أن أفهم من كان زوجي. اجتزتُ كلَّ هذه المسافة كي أفهمه بشكل أفضل، لكن هذا لم يثمر حتى الآن. إن القليل الذي قُدم لي كي أفهمه عن أمبروس لم يسبّب لي سوى المزيد من التشوش. فزواجنا لم يكن زواجاً عادياً ولم يستمرَّ طويلاً، لكن هذا لا ينفي الحب والاهتمام اللذين شعرت بهما نحو زوجي. أنا لست بريئة يا تومورو مورننغ. لا أحتاج إلى حماية من الحقيقة. من

Twitter: @ketab_n

فضلك افهم أن هدفي هو ألا أهاجمه ولا أن أجعلك عدواً لي. ولن تتعرض أسرارك لأي خطر، إذا بُحت بها لي. لدي سبب، على أي حال، للاشتباه بأنك تملك أسراراً عن زوجي الميت. رأيت الرسوم التي وضعها لك. إن تلك الرسوم، كما أنا واثقة من أنك يمكن أن تفهم، تجبرني على السؤال عن حقيقة ارتباطك بأمبروس. هل يمكن أن تلبي طلب أرملة، أخبرني ما تعرفه؟ إن مشاعري لا تتطلب التجنب».

هز تومورو مورننغ رأسه وسألها: «هل لديك وقت فراغ غداً، كي تمضي النهار معي؟ ربما حتى المساء».

هزت رأسها.

سألها: «ما مدى قدرة جسدك؟».

أثار السؤال وبعده عن الموضوع أعصابها، ولاحظ عدم ارتياحها فوضّح: «أقصد هل أنت قادرة على السير مسافة طويلة؟ أفترض أنك كعالمة طبيعة قادرة وصحتك جيدة، لكن يجب أن أسألك. أريد أن أريك شيئاً، لكنني لا أرغب بأن أرهقك كثيراً. هل يمكن أن تتسلقي المرتفعات في مناطق شديدة التحدّر وما شابه ذلك؟».

«أظن هذا»، أجابت ألما، مستاءة مرة أخرى. «اجتزتُ هذه الجزيرة كلها في العام الماضي. رأيت كل ما يمكن أن يُرى في تاهيتي».

«ليس كل شيء يا ألما»، صحّح لها تومورو مورننغ، بابتسامة سمحة. «ليس كل شيء».

* * *

غادرا في اليوم التالي بعد طلوع الفجر مباشرة. أمّن تومورو مورننغ قارباً من أجل رحلتهما. لم يكن قارباً صغيراً يمكن أن يعرّضهما

Twitter: @ketab_n

للخطر، كالذي يستخدمه القس ويليس حين يزور حدائقه المرجانية، بل كان أجمل وأقوى وجيد الصناعة.

قال: «سنذهب إلى تاهيتي ـ إيتي. سيستغرق الأمر معنا أياماً للوصول إلى هناك عبر البر، لكن يمكننا الوصول في غضون خمس أو ست ساعات إذا أبحرنا على خط الساحل.هل يريحك السفر في الماء؟».

هزت رأسها. وجدت أنه من الصعب أن تعرف إن كان مراعياً لمشاعرها أم متعجرفاً. حزمت أنبوباً خيزرانياً من الماء العذب لنفسها وبعض البوا للغذاء، غلفته في مربع من الموصلين وربطته على بطنها. كانت ترتدي فستانها الأكثر اهتراء، الذي تحمّل أسوأ انتهاكات الجزيرة. نظر تومورو مورننغ إلى قدميها الحافيين، اللذين صارا بعد عام في هاييتي خشنين ومتصلبين كأقدام عمال المزارع. لم يذكر الأمر، لكنها رأته ينتبه إلى ذلك. كانت قدماه حافيتين أيضاً. لكنه كان من الكاحلين إلى الأعلى السيد الأوربي التام. يرتدي بذلته النظيفة المعتادة وقميصاً أبيض، لكنه نزع سترته، وطواها بأناقة، واستخدمها كمقعد للجلوس في الزورق.

لم يكن هناك معنى للمحادثة أثناء الرحلة إلى تاهيتي ـ إيتي، شبه الجزيرة الصغيرة المستديرة والوعرة والبعيدة في الجانب الآخر من الجزيرة. كان على تومورو مورننغ أن يركز، ولم ترغب ألما بأن تستدير في كل مرة تحتاج فيها إلى الكلام. وهكذا تابعا في صمت.

كان السفر حول خط الساحل صعباً في مناطق معينة، وتمنت ألما لو أن تومورو مورننغ أحضر لها مجذافاً كي تشعر بأنها تساعده في تقدمهما، رغم أنه في الحقيقة لم يكن بحاجة إليها. كان يشق المياه بقوة ونشاط، سالكاً عبر المرجان والقنوات دون تردد، كما لو أنه قام بهذه

Twitter: @ketab_n

الرحلة مئات المرات، كما ظنت أنه فعل. كانت ممتنة لقبعتها ذات الحواف العريضة حين ازدادت حرارة الشمس، وجعل الوهج المرتد من المياه البقع تتراقص في عينيها.

بعد خمس ساعات، تبدّت جروف تاهيتي - إيتي على يمينهما. وعلى نحو مثير للذعر بدا كأن تومورو مورننغ يتجه مباشرة نحوها. هل سيصدمان الصخور؟ هل هذا هو الهدف الرهيب للرحلة؟ لكن ألما شاهدت حينئذ فتحة مقوسة ومظلمة في واجهة الجرف، كانت مدخلاً إلى كهف على مستوى البحر. زامن تومورو مورننغ دخول القارب مع تدحرج موجة قوية ثم، على نحو مثير، ودون خوف، انطلقا عبر الفتحة. اعتقدت ألما أن المياه المتراجعة ستسحبهما إلى ضوء النهار، لكنه جذف بوحشية، وهو واقف تقريباً في الزورق، وهكذا رُفعا إلى الحصى المبللة لشاطئ صخري، عميقاً داخل الكهف. كان عملاً قريباً من السحر. واعتقدت أن فرقة هيرو نفسها لن تجازف بمناورة كهذه.

«اقفزي من فضلك»، أمرها، ورغم أنه لم يكن قد صاح بها تماماً، ظنت ألما أن عليها أن تتحرك بسرعة، قبل أن تأتي الموجة التالية. قفزت وأسرعت إلى المستوى الأعلى، والذي لم تشعر بأنه مرتفع بما يكفي. واعتقدت أنه إذا جاءت موجة كبيرة واحدة سيتلاشيان إلى الأبد. لم يبد تومورو مورننغ مهتماً. رفع القارب خلفه عالياً على الشاطئ.

«هل يمكن أن تساعديني؟»، قال بلباقة. أشار إلى موضع مرتفع فوق رأسيهما، وفهمت أنهما يجب أن يضعا القارب هناك، من أجل الأمان. ساعدته في رفع القارب، ودفعاه معاً إلى الموضع المرتفع، بعيداً عن الأمواج المتكسرة.

جلست، وجلس إلى جانبها، متنفّساً بثقل من الإجهاد.

سألها أخيراً: «هل أنت مرتاحة؟».

قالت: «نعم».

«يجب أن ننتظر الآن. حين ينحسر المد نهائياً، سترين ممراً ضيقاً نستطيع أن نسلكه على طول الجرف، ثم نتسلق نحو الأعلى، إلى الهضبة. من هناك، أستطيع أن آخذك إلى المكان الذي أرغب بأن أريه لك. إذا شعرت أنك تستطيعين القيام بذلك، هذا هو الأمر؟».

قالت: «أستطيع».

«جيد. الآن سنستريح قليلاً». استند على سترته، ومدد ساقيه، واسترخى. حين تدحرجت الأمواج، وصلت إلى قدميه تقريباً. لا بد أنه يعرف تماماً كيف يعمل المد في هذا الكهف، كما اكتشفت. كان هذا فائقاً للعادة. وهي تنظر إلى تومورو مورننغ متمدداً إلى جانبها، جاءتها ذكرى مفاجئة مؤلمة عن الطريقة التي كان أمبروس يزحف بها على أي سطح: على الأعشاب، على الفرشة، وعلى أرض غرفة الاستقبال في وايت إيكر.

منحت تومورو مورننغ عشر دقائق كي يرتاح، لكنها لم تستطع بعد ذلك السيطرة على نفسها.

سألته: «كيف التقيت به؟».

لم يكن الكهف أهدأ مكان للحديث، فقد كانت المياه تتراجع إلى الخلف وتندفع إلى الأمام فوق الأحجار، فيما تُسمع كل تنوعات الأصداء الرطبة. وكان هناك اندفاع صوت متواصل أيضاً جعل هذا المكان يبدو كأنه أأمَن بقعة على الأرض لألما كي تسأل عن الأمور، وكي تجعل الأسرار تنكشف. من يستطيع سماعهما؟ من يستطيع

Twitter: @ketab_n

رؤيتهما؟ لا أحد سوى الأرواح. سيسحب المدُّ كلماتهما من هذا الكهف إلى البحر، وتحطمها الأمواج المندفعة، وتأكلها الأسماك.

أجاب تومورو مورننغ دون أن يجلس: «عدتُ إلى تاهيتي كي أزور القس ويليس في آب/أغسطس ١٨٥٠، وكان أمبروس هناك، كما أنا الآن هنا».

«ماذا كان رأيك به؟».

قال دون تردد، حتى بدون أن يفتح عينيه: «اعتقدتُ أنه ملاك».

كان يجيب على أسئلتها بسرعة كبيرة تقريباً، كما اعتقدت. لم ترد أجوبة عفوية؛ أرادت القصة كاملة. لم ترد النتائج فقط؛ أرادت التفاصيل المتضمنة فيها. أرادت أن ترى تومورو مورننغ وأمبروس حين التقيا. أرادت أن تعرف ما جرى بينهما. أرادت أن تعرف بماذا كانا يفكران، وبماذا كانا يشعران. وأرادت أن تعرف ما الذي فعلاه. انتظرت، لكنه لم يكن صريحاً أكثر. بعد صمت استمر طويلاً، لمست ألما ذراع تومورو مورننغ. فتح عينيه.

قالت: «من فضلك تابع».

جلس، واستدار كي يواجهها. سألها: «هل سبق وأخبرك القس ويليس كيف جئت إلى البعثة التبشيرية؟».

قالت: «كلا».

قال: «كنت في السابعة من عمري تقريباً. ربما في الثامنة. توفي والدي أولاً، ثم أمي، ثم مات أخوتي. إحدى زوجات أبي تولت مسؤوليتي، لكنها توفيت أيضاً. كان هناك أم أخرى أيضاً، واحدة من زوجات أبي لكنها ماتت أيضاً، توفي جميع أطفال أبي من زوجاته الأخريات، في وقت قصير. كان هناك جدات لكنهن توفين أيضاً».

Twitter: @ketab_n

توقف، مفكراً بشيء ما ثم تابع، مصححاً نفسه: «كلا، لقد أخطأت في ترتيب الموت، يا ألما، اعذريني من فضلك. كانت الجدات هنَّ من توفين أولاً، ثم أبي، وهكذا دواليك، كما قلت. أنا أيضاً مرضت لفترة، لكنني لم أمت، كما يمكن أن تشاهدي. هذه قصص شائعة في تاهيتي. أكيد أنك سمعت عنها من قبل؟».

لم تعرف ألما ماذا تقول، ولهذا لم تقل أي شيء. وبينما سمعت عن رقم الوفيات المدمر في بولينزيا في الخمسين سنة الماضية، لم يخبرها أحد أية قصص عن خسائره الشخصية.

سألها: «هل شاهدت الندوب على جبين الأخت مانو؟ هل شرح لك أحد سببها؟».

هزت رأسها. لم تعرف ما علاقة أي من هذا بأمبروس.

قالت: «هذه ندوب حداد. حين تندب النساء هنا في تاهيتي، يجرحن رؤوسهن بأنياب أسماك القرش. أعرف أن هذا رهيب بالنسبة لذهن أوربي، لكنه وسيلة لامرأة كي توصل وتحرر أحزانها. ثمة ندوب أكثر في الأخت مانو لأنها فقدت أسرتها كلها، بما فيه عدة أطفال. ربما لهذا كنت أنا وهي مولعين ببعضنا دوماً».

صعقت ألما من استخدامه لكلمة مولع كوسيلة للتعبير عن التحالف بين المرأة التي فقدت كل أطفالها وفتى فقد كل أمهاته. لم تبد كلمة قوية بما يكفي.

ثم فكرت ألما بالشذوذ الجسدي الآخر للأخت مانو: «ماذا عن أصابعها؟» سألت رافعة يديها: «البرجمان المفقودان؟».

«ذلك إرث آخر للخسارة. أحياناً يقطع الناس هنا رؤوس أصابعهم كتعبير عن الحزن. صار من الأسهل فعل ذلك حين أحضر الأوروبيون

Twitter: @ketab_n

الحديد والفولاذ». ابتسم بحزن. لم تردّ له ألما الابتسامة؛ كان هذا مريعاً جداً. واصل: «الآن، بالنسبة لجدي، الذي لم أذكره بعد، كان منشداً. هل سمعتِ بالمنشدين؟ حاول القس ويليس مع مرور الأعوام الحصول على مساعدتي لترجمة هذه الكلمة، لكن كان هذا صعباً. استخدم والدي الطيب كلمة خطيب لكنها لا تعبّر عن كرامة المنصب. إن كلمة «مؤرخ»، قريبة، لكنها ليست دقيقة. إن مهمة المنشد هي الجري مع الرجال وهم يهجمون في المعركة، ويجعلهم يحافظون على شجاعتهم عبر تذكيرهم بمن هم. ينشد ذاكراً أسلاف ونسب كل رجل، يذكّر المحاربين بعظمة تاريخ عائلاتهم، كي لا ينسوا بطولة أسلافهم. يعرف المنشد نسب جميع الرجال على هذه الجزيرة، رجوعاً نحو الآلهة، وينشد لهم عن شجاعتهم. قد يعد المرء هذا نوعاً من الخطبة، لكنها عنيفة».

«ماذا كانت الأشعار؟» سألت ألما، مصالحة نفسها مع القصة الطويلة غير الملائمة. لقد أحضرها إلى هنا من أجل سبب، كما افترضت، ولا بد أنه يخبرها هذا من أجل سبب.

أدار تومورو مورننغ وجهه نحو مدخل الكهف، وفكر للحظة. «بالإنكليزية؟ لا تملك القوة نفسها، لكنها كالتالي: *احشد يقظتك كلها إلى أن تنهي إرادتهم! انقضّ عليهم كالبرق! أنت آرافا، ابن هوني، حفيد باروتو، الذي ولد من باريتي، والذي قفز من تابونوي، الذي قطع رأس أنابا الجبار، والد أسماك الحنكليس، أنت الرجل، فِضْ عليهم كالبحر!*».

رعد تومورو مورننغ بهذه الكلمات، وتردد صداها عبر الأحجار، مغرقة الأمواج. استدار إلى ألما التي سرت قشعريرة في ذراعيها الآن.

Twitter: @ketab_n

ومن لا يستطيع تخيل التأثير الذي يمكن أن يحدثه هذا في التاهيتية، إذا أثارها بهذا الشكل الكبير بالإنكليزية: «النساء كنّ يحارين أيضاً أحياناً».

سألته دون أن تعرف لماذا: «ما الذي حدث لجدك؟».

«توفي مع بقيتهم. بعد أن توفيت عائلتي، صرتُ طفلاً وحيداً. في تاهيتي ليس هذا مصيراً خطيراً لطفل كما يمكن أن يحدث في لندن أو فيلادلفيا. فالأطفال يُمنحون الاستقلالية هنا منذ سن مبكرة، وأي شخص يستطيع أن يتسلق شجرة أو يرمي خيطاً يستطيع أن يطعم نفسه. لا أحد هنا يتجمد إلى الموت في الليل. كنت مثل الأطفال الصغار الذين تشاهدينهم على شاطئ خليج ماتافاي، الذين لا عائلة لهم أيضاً، رغم أنني لم أكن سعيداً كما بدوا، إذ لم يكن لدي عصبة من الزملاء. ولم تكن مشكلتي هي الجوع الجسدي بل الجوع الروحي. أتفهمينني؟».

قالت ألما: «نعم».

«وهكذا عثرتُ على طريقي إلى خليج ماتافاي، حيث هناك مستوطنة. راقبت المستوطنة لعدة أسابيع. ولاحظت أن الناس يملكون أشياء أفضل من أي مكان في الجزيرة رغم حياتهم المتواضعة. كانت لديهم سكاكين حادة بما يكفي كي تقتل خنزيراً بضربة واحدة، وفؤوس يمكن أن تقطع شجرة بسهولة. بدت أكواخهم مترفة في نظري. شاهدت القس ويليس الذي كان شائب الشعر ونظر إلي كأنه شبح، رغم أنه ليس شبحاً خبيثاً. كان يتحدث لغة الأشباح، نعم، لكنه يتحدث لغتي قليلاً أيضاً. راقبت التعميد الذي يقوم به، والذي كان مسلياً للجميع. كانت الأخت إتيني تدير المدرسة مع السيدة ويليس، ورأيت الأطفال يدخلون ويخرجون. استلقيت قرب النوافذ وأصغيت إلى الدروس. لم أكن غير متعلم. كان بوسعي أن أسمي ١٥٠ نوعاً من الأسماك، وأن أرسم

Twitter: @ketab_n

خريطة للنجوم على الرمال، لكنني لم أكن متعلماً على الطريقة الأوربية. كان لدى بعض أولئك الطلاب ألواح لدروسهم. حاولت أن أصنع لنفسي لوحاً من رقائق الأحجار البركانية السوداء التي نَعَّمْتُها بالرمل. وصبغت لوحي بلون أكثر سواداً، مستخدماً نسغ لسان الحمل الجبلي، ثم خططت عليه سطوراً بالمرجان. كان اختراعاً ناجحاً تقريباً، لكن لسوء الحظ لم يكن الكلام الذي يُكتب عليه قابلاً للمحو!» ابتسم من الذكرى. «كانت لديك مكتبة مهمة حين كنت طفلة كما فهمت؟ قال لي أمبروس إنك كنت تتحدثين عدة لغات منذ سن مبكرة؟».

هزت ألما رأسها. إذاً تحدث أمبروس عنها. شعرت بمتعة حين سمعت هذا (لم ينسها!) لكن كان هذا مزعجاً أيضاً: ما الأمور الأخرى التي يعرفها تومورو مورننغ عنها؟ كان من الواضح أنه يعرف عنها أكثر بكثير مما تعرف عنه.

قال: «كان حلمي أن أشاهد يوماً ما مكتبة ونوافذ زجاجية ملوّنة. على أي حال راقبني القس ويليس في أحد الأيام واقترب مني. كان لطيفاً. أنا متأكد من أنك لست بحاجة إلى توسيع خيالك كي تفهمي كم هو لطيف، يا ألما، فأنت التقيت بالرجل. أوكل إلي مهمة. كان بحاجة إلى نقل رسالة كما قال إلى مبشّر في بابيتي. طلب مني أن آخذ الرسالة إلى صديقه. وافقت بشكل طبيعي. سألته: ما هي الرسالة؟ فسلّمني لوحاً عليه خطوط مكتوبة عليه وقال بالتاهيتية: هذه هي الرسالة. كنت مرتاباً، لكنني انطلقت راكضاً. بعد عدة ساعات عثرت على المبشر الآخر في كنيسته عند رصيف المرفأ. لم يكن ذلك الشخص يتحدث التاهيتية أبداً. لم أفهم كيف سأتمكن من نقل الرسالة إليه بما أنني لا أعرف ما هي الرسالة ولا نستطيع التواصل. لكنني سلّمته اللوح. نظر إليه، ودخل إلى كنيسته. وحين خرج سلمني رزمة من أوراق الكتابة. وكانت هذه هي

Twitter: @ketab_n

المرة الأولى التي شاهدت فيها الأوراق يا ألما وظننت أنها من أروع أنواع قماش التابا وأكثرها بياضاً رغم أنني لم أفهم أي نوع من اللباس يمكن أن يُصنع من هذه القطع الصغيرة. افترضت أنها يمكن أن تُخاط معاً كي تصنع ثوباً ما».

«أسرعت عائداً إلى خليج ماتافاي، مجتازاً الأميال السبعة كلها ركضاً، وسلمت الأوراق للقس ويليس، الذي سرّه الأمر، ذلك أنه أخبرني، أن هذه كانت رسالته: يتمنى أن يستعير بعض الأوراق للكتابة. كنت طفلاً تاهيتياً يا ألما مما عنى أنني كنت أعرف عن السحر والمعجزات لكنني لم أفهم سحر هذه الخدعة! وبدا لي نوعاً ما أن القس ويليس أقنع اللوح بأن يقول شيئاً لصالحه، وهكذا تحققت أمنيته. آه، أردت أن أعرف هذا السحر! همستُ بأمر إلى اللوح السيء الذي حاكيته وخططت بعض السطور عليه بالمرجان. كان أمري: أعد لي أخوتي من الموت! أستغرب الآن لماذا لم أسأل عن أمي، لكن لا بد أنني افتقدت أخي في ذلك الوقت. ربما لأنه كان حامياً. لقد أُعجبت دوماً بأخي، الذي كان أكثر شجاعة مني. لن يفاجئك يا ألما أن تعرفي أن محاولتي في السحر لم تنجح. على أي حال حين شاهد القس ويليس ما كنت أفعله جلس كي يتحدث معي وكانت هذه بداية تعليمي الجديد».

سألت ألما: «ماذا علّمك؟».

«أولاً، رحمة المسيح. ثانياً، اللغة الإنكليزية، وأخيراً القراءة»، بعد وقفة طويلة تحدث ثانية: «كنت تلميذاً جيداً. أفهم أنك كنت أيضاً تلميذة جيدة؟».

قالت ألما: «نعم، دائماً».

«كانت طرق الذهن سهلة بالنسبة لي، كما أعتقد أنها سهلة بالنسبة لك؟».

«نعم»، قالت ألما. ما الذي قاله له أمبروس أيضاً.

«صار القس ويليس أباً لي، ومذاك صرت المفضل لدى أبي. أحبني أكثر مما أحب ابنته وزوجته. وأكيد أنه أحبني أكثر مما أحب أولاده الآخرين المتبنين. فهمتُ مما قاله لي أمبروس أنك كنت المفضلة لدى والدك أيضاً، أن هنري أحبك أكثر مما أحب زوجته؟».

جفلت ألما. كانت مقولة صادمة. شعرت بأنها غير قادرة بشكل كامل على الجواب. أي ولاء شعرت به نحو والدتها ونحو برودنس عبر السنوات والأميال ـ وحتى عبر فجوة الموت ـ بحيث أنها لم تستطيع الإجابة على هذا السؤال بصدق؟

سألها تومورو مورننغ، ناظراً بلطف أكبر: «لكن المرء يعرف حين يكون المفضل لدى والده، أليس كذلك يا ألما؟ ينقل هذا إلينا قوة فريدة، أليس كذلك؟ إذا اختار الشخص الأعظم شأناً في العالم أن يفضلنا على الآخرين نصبح معتادين على امتلاك ما نتمناه، ألم تكن الحالة معك هكذا؟ كيف لا يمكن أن نشعر بأننا أقوياء، أشخاص مثلك ومثلي؟».

فتشت ألما نفسها كي تحدد إن كان هذا صحيحاً.

لكنه كان صحيحاً بالطبع.

ترك لها والدها كل شيء، ترك ثروته كلها، اختارها من بين الجميع في العالم. لم يسمح لها أبداً بمغادرة وايت إيكر، ليس فقط لأنه كان يحتاج إليها، كما أدركت فجأة، لكن أيضاً لأنه كان يحبها. تذكرت ألما كيف كان يضعها في حضنه وهي صغيرة، ويروي لها قصصاً خيالية.

Twitter: @ketab_n

تذكرت والدها يقول: «أعتقد أن المنزليّ يعادل عشراً من الجميلات»، تذكرت ليلة حفلة الرقص في وايت إيكر، في ١٨٠٨، حين رتب عالم الفلك الإيطالي الضيوف في لوحة ساكنة للسماوات، وقادهم في رقص رائع. نادى والدها ـ الشمس، مركز الجميع ـ عبر الكون: «امنحْ الفتاة مكاناً!» وشجّع ألما على الجري. للمرة الأولى في حياتها، خطر لها أن هنري هو الذي رمى المشعل في يديها في تلك الليلة، وإئتمنها على النار، وأطلقها كشهاب برومثيوسي عبر المرج، وعبر العالم المفتوح الواسع. لا أحد آخر سيمتلك السلطة كي يأتمن طفلاً على النار. لا أحد آخر سيهب ألما الحق بالحصول على مكان.

واصل تومورو مورننغ: «لقد نظر إليَّ أبي دوماً كأنني نبي».

سألته: «هل تنظر إلى نفسك هكذا؟».

قال: «كلا. أعرف نفسي. لكنني منشد، خطيب، كما كان جدي قبلي. أذهب إلى الناس وأنشد كي أشجعهم. لقد عانى قومي كثيراً، أدفعهم كي يصبحوا أقوياء ثانية، لكن باسم الله، لأن الإله الجديد أكثر قوة من آلهتنا القديمة. لو لم يكن هذا صحيحاً يا ألما لبقي قومي كلهم على قيد الحياة. هكذا أبشّر باسم هذه القوة. يجب تُنشر تعاليم الخالق ويسوع المسيح على هذه الجزر عبر اللطف والإقناع، وليس عبر القوة. لهذا حققتُ النجاح حيث فشل الآخرون».

كان هذا عفوياً تماماً، وكاشفاً لألما. عبّر عنه تقريباً كشيء سهل.

قال: «لكن هناك المزيد. ففي طرق التفكير القديمة هناك كائنات وسيطة، رسل بين الآلهة والرجال».

سألت ألما: «كالكهنة؟».

«هل تعنين كمثل القس ويليس؟» ابتسم تومورو مورننغ، ناظراً ثانية

Twitter: @ketab_n

إلى مدخل الكهف. «كلا. والدي رجل طيب، لكنه ليس النوع الذي أشير إليه. ليس رسولاً إلهياً. أنا أفكر بشيء آخر غير الكاهن. بوسعك القول... ما هي الكلمة؟ مبعوث. في طرق التفكير القديمة، اعتقدنا أن كل إله له رسول. ففي حالات الطوارئ، كان الشعب التاهيتي يصلي للرسل من أجل الخلاص. كان يصلي قائلاً: تعالوا إلى العالم، اخرجوا إلى الضوء وساعدونا، ثمة حرب وجوع وخوف، ونحن نعاني. ولم يكن الرسل من هذا العالم أو من التالي، لكنهم كانوا يتنقلون بينهما».

سألت ألما ثانية: «أهكذا تنظر إلى نفسك؟».

قال: «كلا. هكذا أنظر إلى أمبروس بايك».

التفت إليها على الفور بعد أن قال هذا، وصُعق وجهه من الألم للحظة. انكمش قلبها، وكان عليها أن تحافظ على تماسكها.

«هل نظرتِ إليه بالطريقة نفسها، أيضاً؟» سألها، باحثاً في وجهها عن جواب.

«نعم»، قالت، أخيراً وصلا إلى الأمر، وصلا إلى أمبروس.

هز تومورو مورننغ رأسه وبدا مرتاحاً، وقال: «كان بوسعه سماع أفكاري».

قالت ألما: «نعم. كان هذا شيئاً يستطيع فعله».

قال تومورو مورننغ: «أرادني أن أصغي إلى أفكاره لكنني لم أمتلك القدرة».

قالت ألما: «نعم أفهم، ولا أنا».

«كان بوسعه أن يرى الشر، الطريقة التي يتجمّع فيها في عناقيد، هكذا شرح الشر لي، كتَعَنْقد للون الشر. كان بوسعه أن يتنبأ بالمصير،

Twitter: @ketab_n

وأن يرى الخير، أيضاً. كان قادراً على رؤية هالات خير تحيط ببعض الأشخاص».

قالت ألما: «أعرف».

«سمع أصوات الموتى. سمع أخي يا ألما».

«نعم».

«أخبرني في إحدى الليالي أنه يستطيع أن يسمع ضوء النجوم لكن فقط في تلك الليلة. أحزنني أنه لم يستطع أن يسمعه ثانية، اعتقدَ أنه إذا حاولتُ أنا وهو سماعه، إذا وحدّنا ذهنينا معاً نستطيع تلقي الرسالة».

«نعم».

«كان وحيداً على الأرض، يا ألما، لا أحد كان يشبهه. لم يستطع أن يعثر على وطن».

شعرت ألما ثانية بانقباض في قلبها، انقباض عار وخطيئة وندم. ضغطت يديها في قبضتين وضغطتهما على عينيها. صمّمت ألا تبكي. حين أنزلت قبضتيها وفتحت عينيها، كان تومورو مورننغ يراقبها كما لو أنه ينتظر إشارة، كما لو أنه ينتظر أن يرى إن كان يجب أن تتوقف عن التحدث. لكن كل ما أرادته هو أن يواصل التحدث.

سألته ألما: «ما الذي تمناه معك؟».

قال تومورو مورننغ: «أراد الرفقة.أراد توأماً. أراد أن نكون الشيء نفسه. كان مخطئاً حيالي. اعتقد أنني أفضل مما أنا».

قالت ألما: «كان مخطئاً حيالي أيضاً».

«إذاً ترين كيف هو الأمر».

«ما الذي رغبتَ به معه؟».

قال تومورو مورننغ بجدية: «رغبتُ أن أقترن به يا ألما».

قالت: «كما رغبتُ أنا».

«نحن الشيء نفسه، إذاً»، قال تومورو مورننغ، رغم أن الفكرة لم تبد أنها أراحته. ولم ترحها أيضاً.

سألت: «هل اقترنتَ به؟».

تنهد تومورو مورننغ: «سمحتُ له أن يعتقد بأنني بريء أيضاً. أعتقد أنه اعتبرني الإنسان الأول، آدماً من نوع جديد، وسمحتُ له بأن يصدّق هذا عني. سمحتُ له بأن يرسم لي تلك اللوحات، كلا، شجّعْتُه كي يرسمها لأنني مغرور. طلبتُ منه أن يرسمني كما يرسم نبتة سحلبية، في عري لا يُلام. إذ ما الفرق في نظر الخلق بين رجل عار وزهرة؟ هذا ما قلتهُ له. هكذا جعلته يقترب».

«لكن هل اقترنت به؟» كررت، مصممة على الحصول على جواب مباشر أكثر.

قال: «ألما، لقد جعلتني أفهم نوع الشخص الذي أنت. شرحت أن رغبة بالفهم تجبرك. الآن دعيني أُفهمكِ أي نوع من الأشخاص أنا: أنا فاتح. لا أتباهى بقول ذلك. إنها طبيعتي فحسب. ربما لم تلتق أبداً من قبل بفاتح، وهكذا من الصعب عليك أن تفهمي».

قالت: «كان أبي فاتحاً. أفهم أكثر مما يمكن أن تتخيل».

هز تومورو مورننغ رأسه موافقاً على الفكرة: «هنري ويتاكر، بحسب كل الروايات نعم. يمكن أن تكوني محقة. ربما تستطيعين أن تفهميني إذاً. إن من طبيعة الفاتح، كما تعرفين، هي أن يمتلك كل ما يرغب بامتلاكه».

لوهلة طويلة بعد ذلك لم يتحدثا. كان لدى ألما سؤال آخر، لكنها

لم تستطع طرحه. لكن إذا لم تطرحه الآن، فإنها لن تعرف أبداً، وعندئذ سيحفر السؤال ثقوباً فيها لبقية حياتها. جمعت شجاعتها ثانية وسألت: «كيف مات أمبروس يا تومورو مورننغ؟» حين لم يجب فوراً أضافت: «أبلغني القس ويليس أنه مات من العدوى».

«أفترض أنه مات من العدوى، في نهايتها. هذا ما سيقوله لك طبيب».

«لكن كيف مات فعلاً؟».

قال تومورو مورننغ: «ليس ظريفاً الحديث عن ذلك. لقد مات من الحزن».

ضغطت ألما: «ماذا تعني من الحزن؟ كيف؟ يجب أن تخبرني. لم آت إلى هنا من أجل محادثة مسلية، وأؤكد لك بأنني قادرة على تحمل كل ما أسمعه. قل لي ماذا كانت الآلية؟».

تنهد تومورو مورننغ: «جرح أمبروس نفسه بحدة قبل أيام من موته. أخبرتك كيف أن النساء هنا حين يفقدن حبيباً يجرحن رؤوسهن بناب سمكة قرش، لكنهن تاهيتيات يا ألما، وهذه عادة تاهيتية. النساء هنا يعرفن كيف يفعلن هذا الشيء المقيت بشكل آمن. يعرفن بدقة كيف يجرحن أنفسهن بعمق، كي ينزفن أحزانهن لكن دون أن يلحقن أذى خطيراً بأنفسهنّ. فيما بعد، يعتنين بالجرح على الفور. لكن أمبروس للأسف لم يكن خبيراً في فن العناية بالجرح. كان مكتئباً جداً. لقد خيّب العالم أمله. وقد خيبتُ أنا أمله. والأسوأ من ذلك، على ما أعتقد، خاب أمله بنفسه. لم يواصل عمله. حين عثرنا عليه في كوخه لم يكن هناك مجال لإنقاذه».

أغمضتْ ألما عينيها وشاهدتْ حبها، أمبروس ـ رأسه الجميل ـ

Twitter: @ketab_n

غارقاً بدم انتحاره. خيبتْ أمل أمبروس أيضاً. كان كل ما يريده هو النقاء، وكل ما رغبتْ به هو المتعة. نفته إلى هذا المكان المهجور، ومات هنا بشكل مريع.

شعرت بتومورو مورننغ يلمس ذراعها، وفتحت عينيها.

قال بهدوء: «لا تتألمي. لم يكن بوسعك منع حصول هذا. لم تقوديه إلى الموت. إذا كان هناك أحد قاده إلى الموت فهو أنا».

لم تكن قادرة على الكلام. لكن أثير سؤال آخر كريه لم يكن أمامها من خيار سوى طرحه: «هل قطع براجمه أيضاً؟ على طريقة الأخت مانو».

«ليس كلها»، قال تومورو مورننغ، برقة جديرة بالثناء.

أغمضت ألما عينيها ثانية. يدا الفنان هاتان! تذكرت ـ رغم أنها لم ترغب بالتذكر ـ في الليلة التي وضعت فيها أصابعه في فمها، محاولة أن تأخذه إليها. جفل أمبروس من الخوف، وتكور. كان هشاً جداً. كيف نجح في ارتكاب هذا العنف الكريه ضد نفسه؟ اعتقدت أنها ستمرض.

قال تومورو مورننغ: «هذا عبئي الذي يجب أن أحمله يا ألما. أمتلك ما يكفي من القوة لهذا العبء. اسمحي لي بحمله».

حين عثرت على صوتها ثانية قالت: «لقد انتحر أمبروس. ورغم ذلك واراه القس ويليس الثرى بطريقة مسيحية لائقة».

لم يكن هذا سؤالاً. كان كلاماً للتعبير عن الدهشة.

قال تومورو مورننغ: «كان أمبروس مسيحياً نموذجياً. بالنسبة لأبي، ليحفظه الله، إنه رجل يمتلك رحمة وكرماً غير عاديين».

Twitter: @ketab_n

ألما، ناسجة ببطء خيوط القصة أكثر، سألت: «هل يعرف والدك من أنا؟».

قال تومورو مورننغ: «يجب أن نفترض أنه يعرف. يعرف أبي كل ما يجري على هذه الجزيرة».

«مع ذلك كان لطيفاً معي. لم يتطفل أو يتحقق أبداً..».

«يجب ألا يفاجئك هذا يا ألما، إن أبي هو اللطف مُجسّداً».

وقفة طويلة أخرى. ثم: «هل هذا يعني أنه يعرف عنك يا تومورو مورننغ؟ هل يعرف ما حصل بينك وبين زوجي؟».

«ثانية، يمكن أن نفترض هذا على نحو معقول».

«ومع ذلك بقي معجباً...».

لم تستطع ألما أن تنهي فكرتها ولم يزعج تومورو مورننغ نفسه بالرد. جلست ألما في صمت وذهول لوهلة طويلة بعد ذلك. وعلى ما يبدو، إن قدرة القس ويليس الهائلة على العطف والغفران لم تكن أمراً يستطيع المرء أن يطبّق عليه المنطق، أو أن يصفه بالكلمات.

في النهاية، تولّد سؤال مريع آخر في ذهنها. جعلها هذا السؤال تشعر بالغثيان والجنون لكنها كانت بحاجة إلى أن تعرف.

سألت: «هل فرضت نفسك على أمبروس؟ هل ألحقت به الأذى؟».

لم يشعر تومورو مورننغ بالإهانة من هذه التهمة الضمنية، لكنه بدا فجأة أكبر سناً. قال بحزن: «آه يا ألما، يبدو أنك لا تفهمين ما هو الفاتح. ليس من الضروري بالنسبة لي أن أفرض الأشياء، حالما أكون مصمماً لا يكون لدى الآخرين خيار. ألا تستطيعين رؤية ذلك؟ هل أجبرت القس ويليس على أن يتبناني كابن له، وأن يحبني أكثر مما

Twitter: @ketab_n

يحب أسرته التي من لحمه ودمه؟ هل أجبرت جزيرة راياتي على أن تؤمن بالله؟ أنت امرأة ذكية، يا ألما. حاولي أن تفهمي هذا».

ضغطت ألما قبضتيها على عينيها مرة ثانية. لن تسمح لنفسها بالبكاء، لكنها تعرف حقيقة مقيتة الآن: لقد سمح أمبروس لتومورو مورننغ أن يلمسه، فيما انسحب من عناقها بمقت. ربما جعلتْها هذه المعلومات تشعر بالسوء أكثر من أي شيء آخر عرفته اليوم. شعرت بالعار من أنها اهتمت بمسألة تافهة وأنانية بعد سماع أهوال كهذه، لكنها لم تستطع أن تقاوم.

«ما الأمر؟» سألها تومورو مورننغ، مشاهداً وجهها المتألم.

اعترفت أخيراً: «تقت إلى الاقتران به أيضاً لكنه رفضني».

نظر إليها تومورو مورننغ برقة لانهائية وقال: «إذاً هنا نختلف أنا وأنت. ذلك أنك استسلمت».

* * *

انخفض المد أخيراً، وقال تومورو مورننغ: «لنذهب بسرعة، فيما الفرصة سانحة. إذا كنا سنفعل هذا يجب أن نتحرك الآن».

تركا القارب خلفهما على المرتفع الذي لا تصل إليه الأمواج، وغادرا الكهف. كان هناك كما قال تومورو مورننغ طريق ضيق على طول قاع الجرف يستطيعان السير عليه بأمان. سارا بضع مئات من الأقدام ثم بدآ الصعود. كان الجرف قد بدا من الزورق شديد التحدر وعمودياً ولا يمكن تسلقه، لكن الآن، وهي تتبع تومورو مورننغ، واضعة قدميها ويديها حيث يضع يديه وقدميه، استطاعت أن تشاهد ممراً نحو الأعلى. بدا تقريباً كما لو أن سلالم قد نُحتت بمواطئ أقدام ومقابض للأيدي وُضعت تماماً حيث ثمة حاجة إليها. لم تنظر إلى

الأمواج في الأسفل لكنها وثقت ـ كما تعلمت الثقة بفرقة هيرو ـ بكفاءة دليلها وبثبات قدميها.

على ارتفاع خمسين قدماً وصلا إلى قمة جبل. من هناك دخلا حزاماً كثيفاً من الأدغال، وتسلقا منحدراً شديد التحدر من الجذور المبللة والعرائش. بعد الأسابيع التي أمضتها مع فرقة هيرو، صارت ألما جيدة في التسلق بقلب مهر من الأراضي المرتفعة، لكن هذا كان في الحقيقة تسلقاً خطيراً. ذلك أن الأوراق المبللة تحت قدميها سببت انزلاقات خطيرة، حتى وهي حافية القدمين كان من الصعب العثور على موقع صلب. شعرت بالتعب. لم تستطع رؤية علامة على ممر. لم تعرف كيف من الممكن أن يخبرها تومورو مورننغ إلى أين هو ذاهب.

قال من فوق كتفيه: «انتبهي».

لا بد أنه منهك، أيضاً، كما أدركت، إذ لم يدرك أنه تحدث معها بالفرنسية. لم تكن تعرف أنه يتحدث الفرنسية. ماذا يوجد أيضاً في ذهنه؟ تعجبتْ من الأمر. لقد قام بعمل جيد بالنسبة لولد يتيم.

خفَّ التحدّر قليلاً، وسارا الآن بمحاذاة جدول. في الحال استطاعت سماع هدير خفيف في المسافة. ولوهلة كانت الضجة مجرد إشاعة، لكنهما عندما سلكا منعطفاً شاهدت شلالاً بارتفاع سبعين قدماً، وشاحاً من الزبد الأبيض يصب بصخب في بركة متموجة. ولّدتْ قوة المياه المتساقطة هبات ريح، ومنحَ الضباب شكلاً لهذه الريح، كأشباح جُعلت مرئية. أرادت ألما التوقف هنا، لكن الشلال لم يكن وجهة تومورو مورننغ. مال إليها كي يجعلها تسمعه، أشار نحو السماء وصاح: «والآن نصعد ثانية».

يداً فوق يد، تسلقا إلى جانب الشلال. تبلل فستان ألما كله في

الحال. أمسكت بكتل من نباتات لسان الحمل الجبلية القوية وسيقان الخيزران كي توازن نفسها، وصلَّتْ ألا تُقتلع. قرب قمة الشلال ربوة مريحة من الأحجار الناعمة والأعشاب الطويلة، وكتلة من الصخور. قررت ألما أن هذه هي الهضبة التي تحدث عنها، وِجْهَتهما، رغم أنها لم تستطع أن تحدد في البداية ما الشيء المميّز في المكان. عندئذ خطا تومورو مورننغ خلف الصخرة الأكبر، وتبعته. هناك، فجأة، تبدى مدخل إلى كهف صغير مفتوح بأناقة في الجرف كغرفة في منزل، بجدران يبلغ ارتفاعها ثمانية أقدام في كل جانب. كان الكهف بارداً وهادئاً وتفوح منه رائحة المعادن والتربة. وكان مغطى بشكل كامل بالرداء الأكثر ترفاً من الطحالب التي سبق أن شاهدتها ألما.

كان الكهف مليئاً بالطحالب، ينبض بالطحالب. لم يكن أخضر فحسب، بل أخضر بشكل جنوني. كان متألقاً في خضرته بحيث أن اللون نطق تقريباً، كما لو أنه، مندفعاً عبر عالم البصر، أراد أن يهاجر إلى عالم الصوت. كانت الطحالب كثيفة، كجلد حي يحول جميع سطوح الصخور إلى وحش أسطوري نائم. وكانت زوايا الكهف الأعمق تلمع بألق متزايد بشكل لا يُصدق؛ كانت مزيّنة، كما أدركت ألما بشهقة، بأشكال كالجواهر من طحالب تشيستوتيغا بنّاتا.

ذَهَب الجن، ذَهَب التنين، ذَهَب العفاريت، كانت طحالب تشيستوتيغا بنّاتا الأندر بين طحالب الكهوف، كانت جوهرة مزيفة تلمع كعين قطة من داخل الغسق الدائم للظل الجيولوجي، نبتة مضيئة لاأرضية لا تحتاج إلا إلى شظية الضوء الأصغر كل يوم كي تتلألأ كالعظمة إلى الأبد، تلك المخادعة المتألقة التي خدعت أطرافها المتوهجة الكثير من المسافرين عبر القرون ودفعتهم إلى الظن بأنهم عثروا على كنوز مدفونة. لكنها بالنسبة لألما، كانت كنزاً، أكثر إذهالاً

Twitter: @ketab_n

من الثروات الحقيقية، ذلك أن الطحالب زينت الكهف كله بالضوء الزمردي الخارق للمألوف والمتوهج الذي لم تره من قبل إلا في شكل مصغّر، في لمحات للطحالب شُوهدت بالمجهر... وهاهي تقف الآن بشكل كامل وسطه.

كان ردّ فعلها الأول لدى دخول هذا المكان الإعجازي هو أنها أغمضت عينيها أمام الجمال. كان غير قابل للاحتمال. شعرت كما لو أنه من غير المسموح لها أن ترى هذا الشيء دون إذن، دون نوع ما من الحكم الديني. شعرت أنها لا تستحقه. بعينين مغمضتين، استرخت وسمحت لنفسها بأن تحلم بهذه الرؤية. حين تجرأت على فتحهما ثانية، كان ما يزال هناك. كان الكوخ جميلاً بحيث أنه جعل عظامها تتألم من التوق. لم تشته أبداً من قبل أي شيء بقدر ما اشتهت هذا المشهد المتوهج للطحالب. أرادت أن يبتلعها. وبدأت، رغم أنها تقف فيه، بالاشتياق للمكان. كانت تعرف أنها ستشتاق إليه في بقية حياتها.

قال تومورو مورننغ: «اعتقد أمبروس دوماً أنك ستحبين هذا المكان».

حينئذ فحسب بدأت بالبكاء. بكت بقوة بحيث لم تصدر صوتاً، لم يكن بوسعها إصدار صوت، والتوى وجهها في قناع من المأساة. انفجر شيء ما في مركز قلبها محولاً قلبها ورئتيها إلى أشلاء وشظايا. سقطت إلى الأمام على تومورو مورننغ، كما يرتمي جندي مصاب بين ذراعي رفيقه. رفعها إلى الأعلى. ارتجفت كهيل عظمي مخشخش. لم ينحسر بكاؤها. تمسكت به بقوة ستحطم أضلاع رجل أصغر. أرادت أن تدخل فيه وتخرج من الجانب الآخر، أو أن يبتلعها ويمتصها في أحشائه، وأن تُمحى وتُنفى.

في تشنج حزنها، لم تشعر بالبداية بالأمر، لكنها بعد وهلة أدركت

Twitter: @ketab_n

أنه هو يبكي أيضاً، ليس في شهقات كبيرة من الإجهاش بل بدموع بطيئة. كانت تمسكه بقدر ما كان يمسكها. وهكذا وقفا معاً في خيمة الطحالب ونطقا اسمه وهما يبكيان.

أمبروس، اشتكيا. أمبروس.

لم يعد أبداً.

في النهاية سقطا على الأرض، كشجرتين مقطوعتين. كانت ملابسهما مبللة وأسنانهما تصطك من البرد والتعب. دون نقاش أو راحة، تعريا من ثيابهما المبللة. يجب أن يفعلا هذا أو سيموتان من البرد. والآن لم يكونا مصابين بالإعياء ومبللين فحسب، بل كانا عاريين. استلقيا على الطحالب ونظرا إلى بعضهما. لم يكن هذا تقييماً. لم يكن إغواء. كان شكل تومورو مورننغ جميلاً، لكن هذا كان واضحاً، وغير مفاجئ، وخارج الموضوع، وغير مهم. ولم يكن شكل ألما ويتاكر جميلاً، لكن هذا كان أيضاً واضحاً وغير مفاجئ، وخارج الموضوع وغير مهم.

أمسكت يده. وضعت أصابعه في فمها كطفلة. سمح بذلك. لم يتراجع. ثم مدت يدها إلى ما كان مختوناً في الصغر بناب سمكة قرش كعضو أي فتى تاهيتي. أرادت أن تلمسه بحميمية أكبر، كان الشخص الوحيد المقرب من أمبروس. لم تطلب إذناً من تومورو مورننغ من أجل هذه اللمسة، صدر الإذن من الرجل من دون نطق. فهم كل شيء. تحركت إلى أسفل جسمه الضخم الدافئ.

كان هذا الفعل هو الشيء الوحيد الذي أرادت فعلاً أن تقوم به في حياتها. لقد تخلت عن الكثير، ولم تشك أبداً، لكن ألا تستطيع أن تحصل على هذا مرة واحدة على الأقل؟ لم تكن بحاجة إلى الزواج. لم

Twitter: @ketab_n

تكن بحاجة إلى أن تكون جميلة، أو أن يرغب بها الرجال. لم ترد أن تُحاط بالأصدقاء واللهو. لم ترد عزبة أو مكتبة أو ثروة. كان هناك الكثير الذي لم تكن بحاجة إليه. لم تحتج حتى إلى الحصول على المنطقة غير المستكشفة لعذريتها القديمة مُنَقَّباً عنها في سن الثالثة والخمسين، رغم أنها كانت تعرف أن تومورو مورننغ سيضطرّها لو رغبت.

لكنها كانت بحاجة إلى هذا، ولو لمرة واحدة في حياتها.

لم يتردد تومورو مورننغ، ولم يندفع إلى الأمام. سمح لها باستقصائه، وأن تفعل ما تريده. سمح لها كما لو أنها تستمدُّ النَّفَسَ منه، كما لو أنها تحت الماء وهو صلتها الوحيدة بالهواء. ركبتاها في الطحالب، وجهها في عشه السري، شعرت به يزداد ثقلاً، ويصبح أكثر دفئاً وسماحاً.

كان كما تخيلت كيف سيكون دوماً. كلا، كان أكثر مما سبق أن تخيلت بكثير. ثم حدث الأمر، وتلقته كتقدمة تكريسية، كمثل هبة مقدسة.

كانت ممتنة.

بعد ذلك، لم يبكيا.

* * *

أمضيا الليلة معاً في كهف الطحالب المرتفع. كانت العودة إلى خليج ماتافاي في الظلام أكثر خطراً بكثير الآن. وفيما لم يعترض تومورو مورننغ على التجديف في الليل، وقال إنه يفضل ذلك بما أن الهواء أبرد، لم يعتقد أنه من الآمن لهما نزول الشلال والجرف دون ضوء. وبما أنه يعرف الجزيرة، لا بد أنه كان مدركاً طول الوقت أن عليهما قضاء الليلة في الكهف. لم تكترث بهذه الفرضية.

Twitter: @ketab_n

إن النوم في الخارج لم يعد بنوم مريح، لكنهما استغلا الموقف على أفضل نحو ممكن. بنيا موقداً صغيراً للنار من أحجار بحجم كرة البلياردو. جمعا الخبّازى اليابسة، التي تمكن تومورو مورننغ من إشعالها في دقائق. جمعت ألما فاكهة الخبز، ولفّتها في أوراق الموز وخبزتها إلى أن تفتّحت. صنعا فرشة من نباتات لسان الحمل، والتي ضرباها بالأحجار حتى صارت ناعمة كالثياب. ناما معاً تحت هذا الفراش من لسان الحمل، وضغطا على بعضهما التماساً للدفء. كان مبللاً لكنه لم يكن غير قابل للاحتمال. ناما في الوكر كثعلبين شقيقين. في الصباح، استيقظت ألما كي تكتشف أن نسغ لسان الحمل ترك بقعاً زرقاء داكنة على جلدها، لكنه لم يظهر على بشرة تومورو مورننغ كما لاحظت. امتص جلده الصبغة، بينما بشرتها الأكثر شحوباً عَرضتْها بوضوح.

بدا من الحكمة عدم التحدث عن أحداث ليلة أمس. بقيا صامتين حيال الموضوع ليس بسبب العار، لكن بسبب شيء ما يشبه الاحترام أكثر. كانا أيضاً مصابين بالإعياء. ارتديا ثيابهما، أكلا ما تبقى من فاكهة الخبز، نزلا من فوق الشلال، شقا طريقهما عبر الجروف ودخلا الكهف من جديد، عثرا على القارب المرتفع والجاف، وانطلقا في رحلة العودة إلى خليج ماتافاي.

بعد ست ساعات، حين ظهر الشاطئ الأسود المألوف للمستوطنة، التفتت ألما كي تواجه تومورو مورننغ، ووضعت يدها على ركبته. توقف عن التجديف.

قالت: «سامحني. هل يمكن أن أزعجك بسؤال أخير؟».

كان هناك شيء أخير تريد أن تعرفه وبما أنها لم تكن متأكدة من

Twitter: @ketab_n

أنهما سيلتقيان ثانية، كان عليها أن تسأل الآن. هز رأسه باحترام طالباً منها أن تواصل.

«إن حقيبة أمبروس المليئة بالرسوم الخاصة بك ظلت في كوخي على الشاطئ لمدة عام تقريباً، كان يمكن أن يأخذها أي شخص وأن يوزع صورك في الجزيرة. لكن لم يلمس أحد في هذه الجزيرة شيئاً منها. لماذا؟».

قال تومورو مورننغ: «آه، الجواب بسيط، هذا لأنهم كلهم يخافون مني».

ثم تناول تومورو مورننغ المجذاف ثانية، وانطلق نحو الشاطئ. كان الوقت قد حان تقريباً من أجل صلوات المساء. استُقبلا بمودة ومتعة. وألقى خطبة جميلة.

لم يتجاسر أحد أن يسأل أين كانا.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس والعشرون

غادر تومورو مورننغ تاهيتي بعد ثلاثة أيام وعاد إلى بعثته في راياتي، وإلى زوجته وأولاده. وفي مجرى تلك الأيام بقيت ألما لوحدها معظم الوقت. أمضت مدة طويلة من الوقت في كوخها، وحيدة مع الكلب روجر، وهي تفكر بكل ما عرفته. شعرت بالراحة وبالعبء في آن: الراحة من جميع أسئلتها القديمة، وبعبء الأجوبة.

لم تذهب إلى الاستحمام الصباحي في النهر مع الأخت مانو والنساء الأخريات، لأنها لم ترد أن يشاهدوا الصبغة الزرقاء التي ما تزال معلّمة على جسمها. ذهبت إلى صلوات الكنيسة، لكنها ظلت في مؤخرة الحشد، وجعلت نفسها غير بارزة. لم تحظ هي وتومورو مورننغ بلحظة لوحدهما ثانية. وفي الحقيقة، مما استطاعت مشاهدته، لم يمتلك لحظة لنفسه، أيضاً. كانت معجزة أنها تمكنت من الانفراد به.

في اليوم الذي سبق رحيل تومورو مورننغ حدث احتفال آخر على شرفه، نسخة عن الاحتفالات الكبيرة التي جرت قبل أسبوعين. كان هناك رقص ووليمة وموسيقيون ومباريات مصارعة وصراع ديكة ومواقد وخنازير مشوية. واستطاعت ألما أن ترى بوضوح أكبر الآن كم كان تومورو مورننغ مبجلاً، حتى أكثر مما كان محبوباً. استطاعت أن ترى أيضاً منصب المسؤولية الذي يشغله، وكيف تصرف بتمكن في ذلك المنصب. وضع الناس عدداً لا يحصى من عقود الأزهار حول عنقه؛

Twitter: @ketab_n

تعلقت عليه الأزهار ثقيلة كالسلاسل. قدموا له الهدايا المؤلفة من حمامتين في قفص وبعض الخنازير الصغيرة المحتجة وبندقية هولندية مزخرفة من القرن الثامن عشر لم تعد تطلق النار وكتاب مقدس مجلد بجلد الماعز ومجوهرات لزوجته وثياب قطنية وأكياس من السكر والشاي وجرس حديدي جميل للكنيسة. وضع الناس الهدايا عند قدميه وتلقاها بلباقة.

في المساء جاءت مجموعة من النساء حاملات المكانس إلى الشاطئ وبدأن بتنظيفه من أجل لعبة الهارو را بو haru raa puu. لم تر ألما أبداً من قبل لعبة الهارو را بو، لكنها تعرف ما هي، ذلك أن القس ويليس أخبرها. إن اللعبة التي يُترجم اسمها إلى شيء ما مثل «الإمساك بالكرة»، كان يلعبها تقليدياً فريقان من النساء، يتباريان في فسحة من الشاطئ طولها مائة قدم تقريباً. على كل طرف من هذا الملعب المخصص رسموا خطاً في الرمال، للإشارة إلى مرمى. ولعبت دور الكرة صرّةٌ سميكةٌ من أوراق لسان الحمل الملفوفة بإحكام، بحجم ثمرة قرع متوسطة الحجم، لكنها ليست ثقيلة مثلها. وكان الهدف من اللعبة، كما علمت ألما، هو الإمساك بالكرة من الفريق الخصم والاندفاع إلى الطرف المقابل من الملعب دون أن يوقفك الخصم. إذا حدث وسقطت الكرة في البحر ستتواصل اللعبة بين الأمواج. ويُسمح للاعبة أن تفعل أي شيء كي تمنع خصمها من تحقيق الأهداف.

عدّ المبشرون لعبة الهارو را بو غير لائقة بالسيدات ومثيرة، وبالتالي مُنعت في جميع المستوطنات الأخرى. وكي نكون عادلين مع المبشرين كانت اللعبة أكثر من كونها غير ملائمة للسيدات. فقد كانت النساء يُصَبْن أثناء المباريات وتنكسر أعضاؤهن وتنشق جماجمهن ويُسْفَك دمهن. كانت، كما قال القس ويليس على نحو مثير للإعجاب، «عرضاً مذهلاً

Twitter: @ketab_n

للوحشية». لكن العنف كان الهدف من اللعبة. ففي الأزمنة القديمة، وفيما كان الرجال يتدربون من أجل الحرب، كانت النساء يمارسن لعبة الهارو را بو. وهكذا ستكون السيدات مستعدات أيضاً حين يحين وقت القتال. لماذا سمح القس ويليس بمواصلة الهارو را بو، إذاً، فيما منعتها جميع البعثات التبشيرية الأخرى كتعبير غير مسيحي عن الوحشية؟ للسبب نفسه كما دوماً: لم ير أي ضرر فيها.

حالما بدأت اللعبة لم تستطع ألما مقاومة الظن بأن القس ويليس أخطأ بشكل خطير في هذه النقطة: كان هناك احتمال لأذى خطير في مباراة الهارو را بو. ففي اللحظة التي تُلعب فيها الكرة، تتحول النساء إلى كائنات جبارة ومخيفة. هؤلاء النسوة التاهيتيات اللطيفات والكريمات اللواتي رأت ألما أجسادهن في الحمامات الصباحية، وشاركتهن طعامهن، وحملت أطفالهن على ركبتها، وسمعت أصواتهن ترتفع في صلاة جدية، عاودن ترتيب أنفسهن على الفور في كتائب متقاتلة من النساء العنيفات والشيطانيات. لم تستطع ألما أن تحدد إن كان الهدف من اللعبة هو فعلاً الإمساك بالكرة أو تمزيق أعضاء الخصم، أو ربما كان مزيجاً من الأمرين. شاهدت الأخت إيتيني العذبة تمسك شعر امرأة أخرى وترميها على الأرض، ولم تكن منافستها قرب الكرة.

أحب الحشد الذي على الشاطئ المشهد وبدأ بالصياح. صاح القس ويليس، أيضاً، وشاهدت ألما للمرة الأولى ابن كورنوال المتوحش الذي كانه مرة على رصيف المرفأ، قبل أن ينقذه المسيح والسيدة ويليس من طرقه العنيفة. مراقباً النساء وهن يهاجمن الكرة وبعضهن بعضاً، لم يبد القس ويليس كقزم صغير لا يؤذي، بل ككلب صغير لصيد الفئران لا يخاف.

ثم فجأة، من لامكان، دهس حصانٌ ألما.

Twitter: @ketab_n

أو هذا ما شعرتْ بأنه حدث. لكنّ ما رماها على الأرض لم يكن حصاناً، بل الأخت مانو، التي جاءت راكضة خارجة من الملعب كي تهاجم ألما بكل ما أوتيت من قوة. أمسكت الأخت مانو ألما من ذراعها وجرتها إلى ميدان اللعب. أحب الحشد هذا. ازداد الصخب. لمحت ألما وجه القس ويليس الذي كان متألقاً من الإثارة حيال هذا التحول المفاجئ في الأحداث، ويصيح من المتعة. نظرت إلى تومورو مورننغ، الذي بدا لبقاً ومتحفظاً. كان الشخص المهيب الذي لا يضحكه عرض كهذا، لكنه لم يكن غير موافق.

لم ترد ألما أن تلعب الهارو را بو لكن لم يستشرها أحد في هذه النقطة. دخلت اللعبة قبل أن تعرف هذا. شعرت كما لو أنها هوجمت من جميع الاتجاهات، لكن كان هذا ما حدث لأنها فعلاً هوجمت. رمى أحدهم الكرة بين يديها ودفعها. كانت الأخت إيتيني.

صاحت: «اركضي!».

ركضت ألما ثم سقطت على الأرض ثانية. ضربتها إحداهن بذراعها على عنقها فسقطت على ظهرها. عضت لسانها أثناء السقوط، وتذوقت الدم. فكرت أن تبقى على الرمال كي تتجنب المزيد من الأذى، لكنها خافت أن يدوسها القطيع الذي لا يرحم. نهضت على قدميها. صفق الحشد ثانية. لم تمتلك الوقت كي تفكر. سُحبت إلى مشاجرة نسائية ولم تملك خياراً سوى أن تذهب حيث هن ذاهبات. لم تكن تعرف أين الكرة. لم تستطع تخيل كيف يمكن أن يعرف أي شخص أين الكرة. كان الشيء التالي الذي عرفته هو أنها في الماء. رُميت ثانية. خرجت وهي تشهق، الماء المالح في عينيها وفي حنجرتها. دفعتها إحداهن إلى أعمق.

بدأت الآن تشعر بالذعر الحقيقي. إن النساء، مثل كل التاهيتيين،

تعلمن السباحة قبل المشي، لكن ألما لا تملك لا الثقة ولا الفعالية في الماء. كانت ثيابها مبللة وثقيلة، مما أخافها أكثر. لم تكن الأمواج مرتفعة، لكنها أمواج بأية حال، تتدحرج منتفخةً فوقها. ضربتها الكرة على أذنها؛ لم تر من رماها. دعتها إحداهن «محارة»، لكن الكلمة كانت تعني بالمحكية «عورة». ما الذي فعلته ألما كي تستحقَّ هذه الإهانة؟

ثم دخلت تحت الماء ثانية، وقد دفعتها ثلاث نساء حاولن الارتماء فوقها. نجحن، ارتمين عليها. دفعت إحداهن صدر ألما بقدمها مستندة إلى جسم ألما كي ترتفع، كما يقف شخص على صخرة في بركة، رفستها امرأة أخرى على وجهها، وكانت متأكدة الآن من أن أنفها قد انكسر. صارعت ألما ثانية للصعود إلى السطح، مقاتلة من أجل النَّفَس وباصقةً الدم. سمعت إحداهن تناديها خنزيرة. دُفعت إلى الأسفل ثانية. تأكدت هذه المرة أن الأمر مقصود، فقد ضُرب رأسها من الخلف بيدين قويتين. خرجت إلى السطح مرة ثانية، وشاهدت الكرة تطير عابرة لها. سمعت بشكل باهت صياح الحشد. ديس عليها ثانية. غاصت ثانية. حين حاولت أن تخرج إلى السطح هذه المرة لم تستطع: كان أحد ما يجلس عليها.

ما حدث تالياً كان مستحيلاً: توقُّفٌ تامٌّ للزمن. العينان مفتوحتان، الفم مفتوح، الأنف يسيل منه الدم في خليج ماتافاي، وهي ثابتة ويائسة تحت الماء، أدركت ألما أنها على شفا الموت. وعلى نحو صادم، استرخت. لم يكن هذا سيئاً كما اعتقدت. سيكون هذا سهلاً في الحقيقة، الموت ـ الذي يُخشى منه ويتم تفاديه ـ يكون، حالما تواجهه أبسط شيء يحدث. ومن أجل أن يموت المرء، عليه فقط أن يتوقف عن الحياة، على المرء أن يوافق على التلاشي. لو بقيت ألما هادئة فقط، مثبتة تحت جسم ذلك الخصم المجهول، لماتت دون جهد، ومع

Twitter: @ketab_n

الموت ستنتهي المعاناة كلها، وسينتهي الشك، وستنتهي الخطيئة. ستنتهي كل أسئلتها، وذاكرتها أيضاً. تستطيع أن تريح نفسها من الحياة تماماً. فقد أراح أمبروس نفسه في النهاية. تأسفت على انتحار أمبروس، لكنه شعر بالخلاص. ينبغي أن تحسده. تستطيع أن تتبعه مباشرة هنا نحو الموت. أي سبب تمتلكه للتمسك بالهواء؟ ما الهدف من القتال؟

استرخت أكثر.

شاهدت ضوءاً شاحباً.

شعرت بأنها مدعوة نحو شيء جميل. شعرت بأنها تُسْتدعى. تذكرت كلمات أمها الميتة: «هذا ظريف».

هذا ظريف.

ثم في الثواني التي تبقت قبل أن يكون من المتأخر جداً عكس المجرى عرفت ألما فجأة شيئاً ما. عرفته بكل جزء من وجودها، ولم تكن هذه المعلومة قابلة للتفاوض: عرفت أنها هي، ابنة هنري وبياتريكس ويتاكر، لم تُخلق على هذه الأرض كي تغرق في خمسة أقدام من الماء. عرفت أيضاً هذا: إذا كان عليها أن تقتل أحداً ما كي تنقذ حياتها فإنها ستفعل هذا دون أي تردد. أخيراً، عرفت شيئاً آخر، وكان هذا هو الإدراك الأهم من غيره: عرفت أن العالم مقسم بوضوح إلى أولئك الذين يخوضون معركة لا تلين كي يعيشوا، وأولئك الذين يستسلمون ويموتون. كانت هذه حقيقة بسيطة. ولم تكن هذه الحقيقة صحيحة فحسب حيال حيوات الكائنات البشرية؛ بل كانت تنطبق أيضاً على كل كيان حي على هذا الكوكب، من أعظم مخلوق إلى أكثر المخلوقات تواضعاً. كان هذا أيضاً صحيحاً حيال الطحالب. كانت هذه الحقيقة آلية الطبيعة نفسها، القوة الدافعة وراء كل وجود، خلف كل

تحول، خلف كل تنوع، وتفسّر العالم كله. كانت التفسير الذي تنشده ألما دوماً. خرجت من الماء. قذفت بعيداً الجسد الذي كان فوقها كما لو أنه لا يشكل شيئاً. خرجت إلى السطح كي تتنفس وأنفها يتدفق منه الدم، وعيناها تخزانها، ورسغها ملتو، وصدرها فيه كدمة. نظرت إلى المرأة التي كانت تحبسها تحت الماء. كانت صديقتها العزيزة، تلك العملاقة التي لا تهاب، الأخت مانو، والتي كان رأسها محطماً إلى قطع من كل المعارك الكريهة المختلفة في حياتها. ضحكت مانو من التعبير الذي على وجه ألما. كان الضحك عاطفياً، وربما يعبر عن الروح الرفاقية، لكنه كان ضحكاً. أمسكت ألما مانو من عنقها. أمسكت صديقتها كما لو من أجل سحق حنجرتها، وبأعلى صوتها رعدت ألما كما علمتها فرقة هيرو:

هذه أنا!

كان والدي محارباً أعظم من والدك

لا تستطيعين حتى أن ترفعي رمحي.

ثم تركتها ألما، مرخية قبضتها عن عنق الأخت مانو. دون لحظة تردد، زأرت مانو في وجه ألما زئيراً رائعاً من الموافقة.

سارت ألما نحو الشاطئ.

نسيت كل شيء، نسيت الجميع. لم تنتبه إن كان الصياح على الشاطئ من أجلها أم ضدها.

خرجت وهي تخطو من البحر كما لو أنها ولدت فيه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الخامس

القيّمة على الطحالب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع والعشرون

وصلت ألما ويتاكر إلى هولندا في منتصف تموز/ يوليو ١٨٥٤.

أبحرت لأكثر من سنة. كانت رحلة عبثية، أو كانت بالأحرى سلسلة من الرحلات العبثية. غادرت تاهيتي في منتصف نيسان/ أبريل العام الماضي، مبحرة على متن سفينة شحن فرنسية متجهة إلى نيوزلندة. اضطرت للانتظار في أوكلاند لمدة شهرين قبل أن تعثر على سفينة تجارية هولندية قبلت أن تقلّها كمسافرة إلى مدغشقر، حيث سافرت من هناك برفقة حمولة كبيرة من الخراف والماشية. ومن مدغشقر أبحرت إلى كيب تاون على متن سفينة هولندية قديمة لا تُطاق، وهي سفينة جسدت أروع تكنولوجيا بحرية في القرن السابع عشر. (كان هذا هو الجزء الوحيد في الرحلة الذي خافت فيه من احتمال الموت). وتابعت السفينة طريقها ببطء من كيب تاون على الساحل الغربي للقارة الأفريقية، ورست كي تفرغ وتحمّل في مينائي أكرا وداكار. في داكار عثرت على سفينة تجارية هولندية أخرى متجهة إلى ماديرا ثم إلى لشبونة، عبر خليج بيسكي، وعبر القناة الإنكليزية، وطول الطريق إلى روتردام. في روتردام اشترت بطاقة واستقلت سفينة بخارية للركاب (أول سفينة بخارية تسافر على متنها)، التي انطلقت إلى أعلى وحول الساحل الهولندي، وأخيراً عبرت خليج زويدرزي إلى أمستردام. هناك، في الثامن عشر من تموز/ يوليو، نزلت أخيراً.

Twitter: @ketab_n

كان يمكن أن تكون رحلتها أسرع وأسهل لو لم يكن الكلب روجر معها. لكنها أحضرته معها، فحين حان وقت مغادرة تاهيتي اكتشفت أنها غير قادرة أخلاقياً على تركه هناك. من الذي سيعتني بروجر في غيابها؟ من سيجازف ويتلقى عضاته، من أجل أن يطعمه؟ لم تستطع أن تتأكد بشكل كامل من أن عصبة هيرو لن تأكل روجر حالما تغادر. (لن يشكل روجر وجبة جيدة؛ مع ذلك لم تستطع تحمّل تخيله يدور في سفّود). والأهم من هذا كله، كان الكلب صلة ألما الأخيرة الملموسة بزوجها. ربما كان روجر في الكوخ حين مات أمبروس. وتخيلت ألما الكلب الصغير المواظب يقف حارساً في وسط الغرفة أثناء ساعات أمبروس الأخيرة، ينبح طالباً الحماية من الأشباح والعفاريت وكل الأهوال المرافقة ليأس فائق للعادة. لهذا السبب وحده كانت ملزمة أخلاقيا بالمحافظة عليه.

ولسوء الحظ، لا ترحب إلا قلة من قباطنة البحر برفقة كلاب الجزيرة البائسة والحدباء وغير الودية على متن سفنهم. رفض معظمهم روجر، وهكذا أبحروا بدون ألما، مؤخرين رحلتها لوقت طويل. أما الذين لم يرفضوا فقد طلبوا من ألما أحياناً أن تدفع ضعف الأجر من أجل ميزة رفقة روجر فدفعت. فتحت المزيد من الجيوب الخفية في أطراف فساتين سفرها، وأخرجت المزيد من القطع الذهبية، قطعة واحدة كل مرة. يجب أن يمتلك المرء رشوة على الدوام.

لم تكترث ألما بالطول المرهق لرحلتها. كانت بحاجة إلى كل ساعة منها، ورحبت بأشهر العزلة تلك على ظهر سفن غريبة في مرافئ أجنبية. فمنذ مشارفتها على الغرق في خليج ماتافاي أثناء لعبة الهارو را بو الصاخبة تلك، كانت ألما تفكر بأعلى طاقة لديها، ولم ترد أن يعكر صفو تفكيرها أحد. إن الفكرة التي باغتتها بتلك القوة فيما كانت تحت

الماء سكنتها الآن، ولن تتزحزح. ولم تستطع أن تحدد دوماً إن كانت الفكرة تطاردها، أو إن كانت هي تطاردها. بدت الفكرة أحياناً ككائن في زاوية حلم، يقترب ثم يتلاشى، ثم يعاود الظهور. طاردتْ الفكرة طول النهار، في صفحة بعد صفحة من الكتابة والملاحظات القوية. حتى في الليل، رصد ذهنها وقع أقدام تلك الفكرة بشكل لا يلين بحيث أنها كانت تستيقظ كل بضع ساعات وتجلس وتكتب في السرير.

لم تكن ألما تملك موهبة قوية ككاتبة، كما ينبغي القول، رغم أنها ألفت ثلاثة كتب. لم تدّع أبداً امتلاك موهبة أدبية. ولم يكن كتاباها عن الطحالب شيئاً سيقرأه أي شخص من أجل المتعة، ولم يكونا بالضبط قابلين للقراءة إلا لكادر صغير من علماء النباتات اللاوعائية. كانت تملك موهبة قوية كمصنّفة بذاكرة قوية وقدرة كبيرة على متابعة التفاصيل التافهة وتحديد الفروق. لم تكن راوية قصص، لكن منذ أن صارعت شاقة طريقها في بعد الظهر ذاك في خليج ماتافاي، اعتقدت ألما أن لديها قصة كي ترويها، قصة غير عادية. لم تكن قصة مسليّة، لكنها تفسر بشكل جيد العالم الطبيعي. وفي الحقيقة اعتقدت أنها تفسّر كل شيء.

هذه هي القصة التي أرادت ألما أن ترويها: كان العالم الطبيعي مكاناً لوحشية متعاقبة، حيث تتنافس الأنواع الكبيرة والصغيرة على البقاء. وفي هذا الصراع من أجل البقاء، يبقى القوي ويُقضى على الضعيف.

لم تكن هذه فكرة جديدة. فقد كان العلماء يستخدمون عبارة «الصراع من أجل البقاء» لعدة عقود. واستخدمها توماس مالتوس كي يصف القوى المسؤولة عن الانفجارات السكانية والانهيارات عبر التاريخ. واستخدمها أوين ولايل أيضاً في كتاباتهما عن الانقراض والجيولوجيا. كان الصراع من أجل البقاء فكرة واضحة. لكن قصة ألما

Twitter: @ketab_n

شكلت انعطافة. افترضت ألما واعتقدت أن الصراع من أجل الوجود ـ حين يتم على مدى فترات زمنية طويلة ـ لا يعرّف الحياة على الأرض فحسب بل خلق الحياة على الأرض أيضاً. لقد خلقَ الصراع التنوع المذهل للحياة على الأرض. إن الصراع هو الآلية التي تفسّر الألغاز البيولوجية الأكثر إزعاجاً: الفرق بين الأنواع، وانقراض الأنواع، وتحول الأنواع. يفسّر الصراع كل شيء.

إن الكوكب مصدر لموارد محدودة. وكان التنافس من أجل هذه الموارد شديداً ومتواصلاً. إن الأفراد الذين نجحوا في تحمل تجارب الحياة فعلوا هذا عموماً بسبب سمة معينة أو تحول جعلهم أكثر جرأة وأكثر ذكاء وأكثر ابتكاراً، أو أكثر مرونة من الآخرين. حالما تحقق هذا الفرق الامتيازي تمكن الأفراد المتبقون على قيد الحياة من نقل سماتهم المفيدة للسلالة، التي صارت قادرة بالتالي على الاستمتاع بوسائل الراحة والهيمنة، إلى أن جاء منافس آخر متفوق، أو تلاشى مورد ضروري. وأثناء مجرى هذه المعركة التي لا تنتهي أبداً من أجل البقاء، تغير تصميم النوع نفسه.

كانت ألما تفكر نوعاً ما على خطوط ما دعاه عالم الفلك وليم هيرشيل «الخلق المتواصل»، مفهوم شيء ما أبدي ومتكشف في آن. اعتقد هيرشيل أن الخلق يمكن أن يكون مستمراً على مستوى الكون فحسب، بينما رأت ألما أن الخلق متواصل في كل مكان، وعلى جميع مستويات الحياة، وحتى على المستوى المجهري، وعلى المستوى البشري. إن التحديات كلية الحضور، وفي كل لحظة تتغير أوضاع العالم الطبيعي. تحققت مكاسب، وخُسرت مكاسب. ومرت فترات وفرة، أعقبها فترات هيايإيا (جوع). وفي ظل الظروف غير الملائمة يمكن أن ينقرض أي شيء، ولكن في الظروف الملائمة يمكن أن يتحول أي

Twitter: @ketab_n

شيء. وكان الانقراض والتحول يحصلان منذ فجر الحياة، وما يزالان يحصلان الآن، وسيستمران في الحدوث حتى نهاية الزمن، وإذا لم يشكل هذا «خلقاً متواصلاً»، فإن ألما لا تعرف ماذا يفعل.

كانت متأكدة من أن الصراع من أجل البقاء يشكل أيضاً البيولوجيا والمصير البشريين. ولم يكن هناك مثال أفضل، كما اعتقدت ألما، من تومورو مورننغ، الذي قضت على أسرته كلها أمراض مألوفة نقلها الأوربيون بعد وصولهم إلى تاهيتي. انقرضت سلالته تقريباً، لكن تومورو مورننغ لم يمت لسبب ما. ساعده شيء ما في تكوينه على البقاء، حتى حين جاء الموت كي يحصد بيديه كلتيهما آخذاً كل من حوله. صمد تومورو مورننغ وعاش كي ينتج ورثة، ربما ورثوا قواه ومقاومته الفائقة للعادة للمرض. هذا نوع الحدث الذي يشكّل نوعاً.

فضلاً عن ذلك، اعتقدت ألما أن الصراع من أجل البقاء يعرّف الحياة الداخلية للكائن البشري. فقد كان تومورو مورننغ وثنياً تحول إلى مسيحي ورع، وكان ذكياً ومحافظاً على الذات، ورأى الاتجاه الذي يسلكه العالم. واختار المستقبل بدلاً من الماضي. ونتيجة لذكائه واستبصاره سيزدهر أطفاله في عالم جديد، حيث والدهم محترم وقوي. (أو على الأقل سيزدهر أولاده إلى أن تصل موجة تحدٍّ جديدة كي تواجههم. ثم سيضطرون إلى شق طريقهم. ستكون هذه معركتهم، ولا أحد يستطيع أن يستثنيهم منها).

من ناحية أخرى، هناك أمبروس بايك، الرجل الذي باركه الله بأربعة أضعاف من العبقرية والأصالة والجمال والنعمة، لكنه افتقر إلى موهبة التحمل. أخطأ أمبروس في قراءة العالم. تمنى أن يكون العالم فردوساً، بينما هو في الحقيقة ساحة معركة. أمضى حياته تائقاً للأبدي

والمتواصل والنقي. تاق إلى ميثاق وهمي مع الملائكة، لكنه كان مقيداً ـ كالجميع وككل شيء ـ بالقواعد القاسية للطبيعة. فضلاً عن ذلك، وكما كانت ألما تعرف جيداً، لم يكن ينجو في الصراع من أجل البقاء دوماً من هم أكثر جمالاً وتألقاً وأصالة أو رشاقة؛ بل من هم أكثر وحشية، أو أوفر حظاً، أو ربما أكثر عناداً.

كانت الخدعة في كل دورة هي تحمّل اختبار الحياة طويلاً قدر الإمكان. وكانت احتمالات البقاء محدودة، فالعالم ليس إلا مسرحاً للكارثة وموقداً مشتعلاً بشكل لانهائي من المصائب. لكن الذين بقوا في العالم صاغوه، كما صاغهم العالم بشكل متزامن أيضاً.

دعت ألما فكرتها «نظرية التغيّر التنافسي» واعتقدت أنها تستطيع البرهنة عليها. وعلى نحو طبيعي، لم تستطع البرهنة عليها مستخدمة أمثلة تومورو مورننغ وأمبروس بايك، رغم أنهما سيعيشان في خيالها إلى الأبد كشخصيتين عظيمتين رومانسيتين وتوضيحيتين. إن ذكرهما سيكون مجافياً للعلم.

على أي حال، تستطيع البرهنة على نظريتها من خلال الطحالب.

* * *

كتبت ألما بسرعة وغزارة. لم تتباطأ كي تراجع، لكنها كانت تمزق النسخ القديمة وتبدأ ثانية بالكتابة، كل يوم تقريباً. لم تستطع أن تتمهل في الكتابة ولم تكن ترغب بذلك. وكمثل سكّير مسلوب العقل، قادر على الجري دون أن يسقط، لكنه لا يستطيع السير دون أن يسقط، تمكنت ألما من مواصلة العمل على فكرتها بسرعة كبيرة. كانت خائفة من أن تبطئ، ومن أن تتعثر، وتنهار أعصابها، أو من أن تفقد فكرتها، وكان هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث.

Twitter: @ketab_n

كي تروي قصتها ـ قصة تحول الأنواع، كما هي مفسَّرة من خلال النمو الثانوي للطحالب ـ لم تكن ألما بحاجة إلى ملاحظات، أو إلى مكتبة وايت إيكر القديمة، أو إلى مجموعاتها النباتية. ذلك أن فهماً عميقاً لعلم تصنيف الطحالب كان موجوداً في ذهنها ويملأ جميع زوايا جمجمتها بحقائق وتفاصيل تتذكرها جيداً. كان في متناولها أيضاً (أو بالأحرى في متناول ذهنها) جميع الأفكار التي سبق أن كُتبت في القرن الأخير حول موضوع تحول النوع والنشوء الجيولوجي. كان ذهنها كمستودع كبير من الرفوف اللانهائية، التي تعلوها آلاف الكتب والصناديق غير المفتوحة، والتفاصيل اللانهائية المرتبة أبجدياً.

لم تكن تحتاج إلى مكتبة. كانت هي المكتبة.

في الأشهر الأولى القليلة من رحلتها كتبت وأعادت كتابة الفرضيات الأساسية الموجِّهة لنظريتها، إلى أن شعرت أخيراً أنها قطّرتْها بشكل صحيح غير قابل للاختزال إلى هذه الفرضيات العشر:

إن توزّع الأرض والمياه على وجه
الأرض لم يكن دوماً حيث هو الآن.

استناداً إلى سجل الأحافير، يبدو كأن الطحالب
استمرت في جميع الحقب الجيولوجية منذ فجر الحياة.

يبدو كأن الطحالب تحملت الحقب الجيولوجية
المتنوعة عبر سيرورة تغيّر تكيّفي.

Twitter: @ketab_n

تستطيع الطحالب أن تغير مصيرها إما عبر تبديل موضعها
(الانتقال إلى مناخ أفضل)، أو بتبديل
بنيتها الداخلية (أي التحول).

إن تحوّل الطحالب عبّر عن نفسه
مع مرور الزمن في استيلاء لانهائي تقريباً
على سمات والتخلص من سمات أخرى
مما قاد إلى تكيفات كهذه: زاد من مقاومتها للجفاف،
وقلل اعتمادها على ضوء الشمس المباشر، وزاد من قدرتها
على الانبعاث بعد أعوام من الجفاف.

إن نسبة التغير داخل مستعمرات الطحالب، ومدى
ذلك التغير، دراميان جداً بحيث يوحيان بتغير أبدي.

كانت الطحالب كياناً مختلفاً (من المحتمل جداً أشنات)،
قبل أن تصبح ما هي عليه.

إن الطحالب ـ فيما يواصل العالم تغيره ـ يمكن
أن تصبح في النهاية كياناً مختلفاً.

إن كل ما هو صحيح بالنسبة للطحالب يجب أن يكون صحيحاً
بالنسبة لجميع الأشياء الحية.

Twitter: @ketab_n

شعرت ألما أن نظريتها جريئة وجسورة. كانت تعرف أنها في أرض غادرة، ليس من منظور ديني فحسب (فهذا لم يهمها كثيراً) بل أيضاً من منظور علمي. وفيما كانت تسير نحو استنتاجاتها كمتسلق جبل، كانت ألما تعرف أنها معرضة لخطر السقوط في المصيدة التي استهلكت كثيراً من المفكرين الفرنسيين الكبار مع مرور القرون، أي مصيدة «نظام العقل»، فحين يحلم المرء بتفسير كوني شامل، يحاول أن يجبر الأفكار كلها والعقل على الانحناء لهذا التفسير، بصرف النظر عن إن كان صحيحاً. لكن ألما متأكدة من أن نظريتها صحيحة. إن الخدعة هي البرهنة عليها كتابةً.

كانت السفينة مكاناً جيداً كأي مكان للكتابة، أما عدة سفن، واحدة بعد الأخرى، تتحرك ببطء عبر البحار الفارغة، فقد كانت أفضل. لم يزعج أحد ألما. استلقى الكلب روجر في كبينها وراقب عملها، وهو يلهث ويحك نفسه، وغالباً ما بدا خائب الأمل في الحياة على نحو رهيب، لكنه سيفعل هذا أينما كان في العالم. يقفز أحياناً في الليل إلى سريرها الضيق ويلتف عند انحناء ساقيها، وأحياناً يوقظ ألما بأنينه الخفيف.

كانت ألما تطلق أحياناً أنيناً خفيفاً في الليل. وتماماً كما حصل أثناء رحلتها البحرية الأولى، اكتشفت أن أحلامها حيوية وقوية، وأن أمبروس بايك يظهر بشكل بارز فيها. لكن تومورو مورننغ يظهر الآن على نحو متكرر في أحلامها، أيضاً، وأحياناً يختلط مع أمبروس في أشكال غريبة وحسية ووهمية: رأس أمبروس على جسم تومورو مورننغ؛ صوت تومورو مورننغ يخرج من حنجرة أمبروس؛ أحدهما أثناء الجماع مع ألما يتحول فجأة إلى الآخر. لكن لم يكن أمبروس وتومورو مورننغ يختلطان فقط في هذه الأحلام الغريبة: بدا كأن كل شيء يختلط. ففي

Twitter: @ketab_n

أحلام ألما الليلية الأكثر إغراء تتحول حجرة التجليد القديمة في وايت إيكر إلى كهف طحالب؛ ويصبح منزل عرباتها غرفة صغيرة ظريفة في مشفى جريفون للأمراض العقلية؛ أما المروج ذات الرائحة العذبة في فيلادلفيا فتتحول إلى حقول من الرمال السوداء الدافئة؛ فجأة ترتدي برودنس ثياب هانيكي؛ وتعتني الأخت مانو بأشجار البقس في حديقة بياتريكس ويتاكر الإقليدية؛ ويجدف هنري ويتاكر في نهر سكيولكل في قارب بولينزي صغير للسباق.

ورغم أن هذه الصور قد تكون آسرة، فإن الأحلام نوعاً ما لم تزعج ألما. بدلاً من ذلك ملأتها بالإحساس الأكثر إدهاشاً بالتناغم، كما لو أن العناصر الأكثر تنافراً في سيرتها الذاتية كانت تنتسج معاً أخيراً. كانت جميع الأشياء التي سبق أن عرفتها أو أحبتها في العالم تخيط نفسها وتصبح شيئاً واحداً. جعلها إدراك هذا تشعر بأنها متحررة من الأعباء ومنتصرة في آن. عاد إليها ذلك الشعور ثانية، الشعور الذي جربته مرة واحدة من قبل، في الأسابيع التي سبقت زفافها من أمبروس، بكونها حية بشكل أكثر قوة. ليس حية فقط، بل مزودة بذهن يعمل في الحدود القصوى لقدراته، ذهن يرى كل شيء، ويفهم كل شيء، كما لو أنه يراقب كل شيء من أعلى نتوء يمكن تخيله.

تستيقظ، تلتقط أنفاسها، وتبدأ على الفور بالكتابة ثانية.

بعد أن أسست المبادئ العشرة المرشدة لنظريتها الجريئة، سخّرت ألما طاقاتها الأكثر قوة، وألفت «تاريخ حروب الطحالب في وايت إيكر». ألفت قصة الست وعشرين سنة التي أمضتها وهي ترصد تقدم وتراجع مستعمرات الطحالب المتنافسة عبر الصخور عند حافة الغابات. ركزت انتباهها بشكل محدد على صنف الديكرانوم، لأنه بيّن السلسلة الأكثر إحكاماً من التنوع داخل عائلة الطحالب. كانت ألما تعرف عن

Twitter: @ketab_n

أنواع الديكرانوم القصيرة والعادية، وتلك التي لها شراريب غرائبية. وكان هناك أنواع أوراقها مستقيمة، وأخرى ملتوية، وأخرى لا تعيش إلا على ألواح خشبية متعفنة إلى جانب الأحجار، وأخرى على القشور الأكثر عرضة للشمس من الصخور الطويلة، وثمة أنواع تتكاثر في مياه مستنقعية، وأخرى تنمو بغزارة قرب روث أيّل له ذيل أبيض.

لاحظت ألما، عبر عقود الدراسة، أن أنواع الديكرانوم الأكثر تشابهاً هي التي تنمو إلى جانب بعضها بعضاً. قالت إن هذا لم يكن تصادفياً، فقد أجبرت قيود التنافس الصارمة من أجل ضوء الشمس والتربة والماء النباتات، عبر الألفيات، على تطوير عمليات تكيّف صغيرة تفيدها أكثر من جيرانها على نحو ضئيل. لهذا يمكن أن توجد ثلاثة أو أربعة أنواع من الديكرانوم على صخرة واحدة بنحو متزامن: عثر كل منها على موضعه المناسب في هذه البيئة المحتواة والمضغوطة، وهي تدافع الآن عن أرضها الفردية بتكيفات ضئيلة. ليس ضرورياً أن تكون هذه التكيفات فائقة للعادة (لا تحتاج الطحالب إلى أن يكون لها أزهار أو ثمار أو أجنحة)؛ تحتاج إلى أن تكون مختلفة بما يكفي كي تتغلب على الخصوم في التنافس، ولم يكن هناك خصم في العالم أكثر تهديداً من الخصم الذي يندفع كي يزيلك. إن الحرب الأكثر إلحاحاً هي الحرب التي يخوضها المرء دوماً في موطنه.

تحدثت ألما بتفاصيل شاملة عن معارك تُقاس الانتصارات والهزائم فيها بالإنشات، وعلى مدى عقود. روت كيف منحت تبدلات الطقس على مدى تلك العقود فوائد لصنف على حساب الآخر، وكيف حوّلت الطيور مصير الطحالب، وكيف ـ حين سقطت شجرة البلوط القديمة قرب السياج وتبدل نموذج الظل بين ليلة وضحاها ـ تغير عالم ميدان الصخور كله معه.

كتبت: «يبدو أنه كلما كانت الأزمة أكبر، كان النشوء أسرع».

Twitter: @ketab_n

كتبت: «يبدو أن ما يحفّز التحول كله هو اليأس والضرورة الملحة».

كتبت: «إن جمال وتنوع العالم الطبيعي هما مجرد نتيجتين مرئيتين لحروب لانهائية».

كتبت: «سيفوز المنتصر لكن حتى يتوقف عن الفوز».

كتبت: «إن هذه الحياة تجربة مؤقته وصعبة. قد يتحقق أحياناً انتصار بعد المعاناة لكن ما من وعد بأي شيء. إن الفرد الأفضل أو الأجمل قد لا يكون الأكثر مرونة. إن معركة الطبيعة لا تتسم بالشر، بل بهذا القانون الطبيعي الجبار واللامبالي: هناك الكثير من أشكال الحياة، ولكن لا يوجد ما يكفي من الموارد لها كي تعيش كلها».

كتبت: «إن المعركة المتواصلة بين الأنواع لا يمكن تجنبها، وهي خسارة، وهي تعديل بيولوجي. فالنشوء رياضيات وحشية، وطريق الزمن الطويل منقط بالبقايا الأحفورية لتجارب فاشلة لا يمكن حسابها».

كتبت: «إن الذين هم غير مهيأين جيداً لتحمل معركة البقاء ربما يجب ألا يكونوا قد حاولوا أبداً العيش في المقام الأول. فالجريمة الوحيدة التي لا تُغتفر هي تقصير تجربة حياة المرء قبل نهايتها الطبيعية. إن فعلاً كهذا ينم عن ضعف ويثير الشفقة، ذلك أن تجربة الحياة ستوقف نفسها بسرعة كافية، في جميع حالاتنا، ويمكن أن يمتلك المرء أيضاً الشجاعة والفضول كي يبقى في المعركة حتى موته المحتم. إن أي شيء أقل من معركة للبقاء ينم عن جبن. إن أي شيء أقل من من معركة من أجل الاستمرار هو رفض لميثاق الحياة العظيم».

كان عليها أحياناً أن تحذف صفحات عمل كاملة، حين ترفع عينيها عن كتابتها وتدرك أن الساعات مرت وأنها لم تتوقف عن الكتابة للحظة، لكنها لم تكن تناقش موضوع الطحالب بالضبط.

Twitter: @ketab_n

حينئذ تخرج وتطوف بنشاط على ظهر السفينة ـ أية سفينة كانت ـ والكلب روجر يتبعها. ترتجف يداها ويجيش قلبها بالعواطف. تصفّي رأسها ورئتيها، وتفكّر بموقفها. بعد ذلك، تعود إلى كبينها، وتجلس وتضع أمامها ورقة جديدة، وتبدأ بالكتابة من جديد.

كررت هذا التمرين مئات المرات، في ما يقارب أربعة عشر شهراً.

***

في الوقت الذي وصلت فيه ألما إلى روتردام، كانت أطروحتها مكتملة تقريباً. لكنها لم تعدها مكتملة تماماً، لأنه ما يزال فيها شيء مفقود. كان الكائن الذي في زاوية حلمها ما يزال يحدق بها، غير راض وغير مستقر. عذبها هذا الإحساس بعدم الاكتمال، وقررت أن تواصل العمل على الفكرة إلى أن تنهيها. بعد أن قيل هذا، شعرت أن معظم نظريتها صحيح بشكل لا يمكن تفنيده. وإذا كان رأيها صحيحاً، فإنها تحمل في يدها إذاً وثيقة علمية ثورية مؤلفة من أربعين صفحة. لكن ماذا إذا لم تكن أفكارها صحيحة؟ حسناً، عندئذ تكون على الأقل قد ألفت الوصف الأكثر تفصيلاً للحياة والموت في مستوطنة طحالب في فيلادلفيا لم يسبق أن اطلع عليه عالم العلم.

استراحت في روتردام لعدة أيام في الفندق الوحيد الذي قبل دخول روجر. تنزهت هي وروجر في المدينة معظم بعد الظهر، في بحث بلا طائل عن مسكن. كانت طول الطريق مستاءة على نحو متزايد من النظرات المزعجة التي خصهم بها موظفو الفنادق. لم تستطع مقاومة التفكير لو أن روجر كان كلباً أكثر أناقة، أو أكثر جمالاً، لما واجهت الكثير من المشكلات في العثور على غرفة. صعق ألما هذا الظلم، لأنها صارت تعد هذا الكلب الصغير المهجن ذا اللون البرتقالي نبيلاً بطريقته

Twitter: @ketab_n

الخاصة. ألم يعبر العالم لتوه؟ كم من موظفي الفنادق المتغطرسين يستطيعون التباهي بهذا؟ لكنها افترضت أن هذه هي طريقة الحياة: المسبّقات والذل وما شابه ذلك على نحو مؤسف.

كان الفندق الذي قبلهما مكاناً قذراً تديره عجوز دامعة العينين حدقت بروجر من فوق مكتبها وقالت: «كان لدي قطة تشبهه».

يا إلهي! فكرت ألما برعب لدى التفكير بوحش حزين كهذا.

«أنت لست عاهرة، أليس كذلك؟»، سألتها المرأة كي تتأكد فحسب.

هذه المرة قالت ألما: «يا إلهي!»، بصوت مرتفع. لم تستطع المقاومة. بدا كأن جوابها أرضى المالكة.

كشفت المرآة المتّسخة في غرفة الفندق لألما بأنها لم تكن تبدو أكثر تحضراً من روجر. لا تستطيع الذهاب إلى أمستردام وهي تبدو هكذا. ثيابها مهترئة، وشعرها الذي ازداد شيبه، كان خرباً أيضاً. لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً حيال شعرها، ولكن في الأيام القليلة التالية طلبت تفصيل عدة فساتين بسرعة. لم يكن هناك شيء رائع (فصّلتها على نمط فساتين هانيكي الأصلية، النموذج العملي) لكنها كانت جديدة على الأقل ونظيفة وسليمة. اشترت حذاء جديداً. جلست في حديقة وكتبت رسائل طويلة إلى برودنس وهانيكي كي تخبرهما أنها وصلت إلى هولندا، وأنها تنوي البقاء فيها بشكل غير محدد.

كانت مفلسة تقريباً. ما تزال تملك بعض القطع الذهبية في حواشي ثوبها الممزقة، لكنها ليست كثيرة. احتفظت بالقليل والثمين من ميراث والدها كي تبدأ به، والآن، على مدى سنوات السفر الأخيرة أنفقت الجزء الأكبر من إرثها المتواضع، قطعة نقدية واحدة في كل مرة. تُرك

Twitter: @ketab_n

لها مبلغ ليس كافياً لتلبية أبسط متطلبات الحياة. كانت تعرف بالطبع أنها تستطيع أن تحصل دائماً على المزيد من النقود، في حال الضرورة الملحة. افترضت أنها تستطيع الدخول إلى أي مصرف في ميناء روتردام ـ وتستخدم اسم ديك يانسي وإرث والدها ـ بسهولة وتسحب ديناً على ثروة ويتاكر. لكنها لم ترغب بفعل ذلك. لم تشعر أن الثروة لها. ولهذا قررت، انطلاقاً من نتيجة شخصية، أنها بدءاً من هذه النقطة فصاعداً، ستشق طريقها بنفسها في العالم.

بعد أن أرسلت الرسائل وجُددت الثياب غادرت ألما وروجر روتردام على متن سفينة بخارية ـ وكان هذا الجزء الأسهل من رحلتهما حتى الآن ـ واتجها إلى ميناء أمستردام. لدى وصولها تركت ألما متاعها في فندق متواضع قرب المرفأ واستأجرت حوذياً (الذي مقابل أجر إضافي من عشرين إستايفر، أُقنع أخيراً بقبول روجر كراكب). أخذتهم العربة إلى حارة بلانتاج الهادئة، ومباشرة إلى أبواب حديقة الهورتس النباتية.

نزلت ألما تحت شمس الغروب المنحرفة خارج جدران الحديقة النباتية الآجرية المرتفعة. كان روجر إلى جانبها؛ وتحت ذراعها رزمة ملفوفة بورق بني عادي. كان حارس شاب ببذلة أنيقة يقف على البوابة، اقتربت ألما وسألته بهولنديتها السهلة إن كان المدير في المبنى اليوم. أكد الحارس أن المدير هو في المبنى، لأنه يأتي إلى العمل كل يوم من أيام العام.

ابتسمت ألما. إنه يفعل هذا بشكل طبيعي، كما اعتقدت.

سألت: «هل يمكن أن أتحدث معه قليلاً؟».

«هل يمكن أن أسأل من أنت، وما عملك؟» سألها الشاب، موجهاً

Twitter: @ketab_n

نظرات شاجبة إليها وإلى روجر. لم تعترض على أسئلته، لكنها اعترضت على نبرته.

قالت: «اسمي ألما ويتاكر، وعملي هو دراسة الطحالب وتحول الأنواع».

سألها الحارس: «ولماذا يجب أن يشاهدك المدير؟».

انتصبت في طولها الكامل المهيب وكمنشدٍ اندفعت إلى إنشاد قوي لخط نسبها: «أبي هو هنري ويتاكر، الذي دعاه بعض الناس في بلادك مرة أمير البيرو. جدي من ناحية أبي كان ساحر التفاح لدى صاحب الجلالة، جورج الثالث ملك بريطانيا. أما جدي من ناحية أمي فهو جاكوب فان ديفندر، معلّم نبات الزينة الألوه، ومدير هذه الحدائق لثلاثين سنة، وهذا منصب ورثه من والده، الذي بدوره، ورثه من أبيه وهلمَّ جرًّا، طول الطريق نحو الخلف حتى التأسيس الأصلي لهذه المؤسسة في ١٦٣٨. إن مديرك الحالي كما أظن يدعى الدكتور ديز فان ديفندر، وهو خالي. كانت أخته الأكبر هي بياتريكس فان ديفندر، وهي أمي، وهي باحثة مبدعة في علم النبات الإقليدي. ولدت أمي، إن لم أكن مخطئة، في منزل خاص خارج أسوار الهورتس، حيث ولد جميع آل ديفندر منذ منتصف القرن السابع عشر».

فغر الحارس فمه مذهولاً.

اختتمت: «إذا كانت هذه معلومات كثيرة بالنسبة لك كي تحفظها، أيها الشاب، يمكنك فقط أن تخبر عمي ديز أن ابنة اخته من أميركا ترغب بمقابلته».

الفصل الثامن والعشرون

نظر ديز فان ديفندر إلى ألما من وراء طاولة غير مرتبة في مكتبه.

سمحت له ألما بالتحديق. لم يتحدث خالها معها بعد أن دخلت إلى مكتبه منذ بضع دقائق، ولم يوجّه إليها دعوة للجلوس على الكرسي. لم يكن غير لبق؛ بل كان هولندياً، وبالتالي حذراً. كان يدرسها. جلس روجر إلى جانب ألما، وقد بدا كضبع صغير محدودب. درس الخال ديز الكلب أيضاً. عموماً، لم يكن روجر يحب أن يُنظَر إليه. فحين يحدق الغرباء فيه يدير ظهره لهم، وينكس رأسه ويتنهد بائساً. لكن روجر قام فجأة بفعل غير متوقع. غادر من جانب ألما، وسار تحت الطاولة واستلقى واضعاً ذقنه على قدم الدكتور فان ديفندر. لم تر ألما أبداً عملاً كهذا من قبل. كانت على وشك التعليق على ذلك، لكن خالها غير المهتم بشكل كامل بالكلب الذي على قدمه، تحدث أولاً.

قال: «لا تبدين كأمك».

أجابت ألما بالهولندية: «أعرف».

تابع: «تبدين تماماً مثل أبيك».

هزت ألما رأسها. حزرت من نبرته أن هذه لم تكن نقطة لصالحها، أي شَبَهُها مع هنري ويتاكر. ولو أنها لم تكن تشبهه.

حدق أكثر. حدقت به. جذبها وجهه كما جذبه وجهها. إذا لم تبد

Twitter: @ketab_n

ألما مثل بياتريكس ويتاكر، فإن هذا الرجل كان يبدو مثلها. كان تشابهاً أكثر تحديداً: وجه أمها ثانية، لكنه أكبر وذكري وملتح، وفي هذه اللحظة مشتبه. (حسناً، كي نكون صادقين إن هذه الشبهة زادت من شبهه لبياتريكس).

سأل: «ماذا حصل لأختي؟ سمعنا عن صعود والدك، الجميع في عالم النبات الأوربي سمعوا لكننا لم نسمع أبداً من بياتريكس ثانية».

و«لم تسمع هي منكم»، فكرت ألما، لكنها لم تقل هذا. فهي لم توجّه اللوم إلى أحد في أمستردام لأنهم لم يحاولوا التواصل مع بياتريكس منذ ـ متى كان هذا؟ ـ ١٧٩٢. كانت تعرف طبيعة آل ديفندر: كانوا عنيدين، ولن تُحل المشكلة أبداً، وأمها لن تستسلم.

أجابت ألما: «عاشت أمي حياة مزدهرة. وكانت راضية. صنعت حديقة كلاسيكية مميزة جداً، أثارت إعجاباً كبيراً في كل أنحاء فيلادلفيا. عملت مع والدي في تجارة النباتات، حتى موتها».

«الذي حدث متى؟»، سأل، بنبرة تناسب ضابط شرطة.

أجابت: «في آب/ أغسطس ١٨٢٠».

حين سمع خالها التاريخ عبرت تكشيرة وجهه. قال: «منذ وقت طويل. كانت صغيرة جداً».

كذبت ألما: «تعرضت لموت مفاجئ. لم تعان».

نظر إليها لفترة أطول، ثم تناول رشفة قهوة وأكل قطعة من التوست من صحن صغير أمامه. كان من الواضح أنها قاطعت وجبته المسائية. كانت ستمنح أي شيء مقابل لقمة من ذلك التوست. بدا رائعاً وتفوح منه رائحة طيبة. متى كانت آخر مرة تناولت فيها التوست بالقرفة؟ ربما حين أعدته لها هانيكي آخر مرة. جعلتها الرائحة ضعيفة من الحنين. لكن

Twitter: @ketab_n

الخال ديز لم يقدم لها القهوة، أو حصة من توسته الذهبي الشهي المدهون بالزبدة.

سألت ألما أخيراً: «هل تريدني أن أخبرك أي شيء عن أختك؟ أعتقد أن ذكرياتك عنها هي ذكريات طفل. أستطيع أن أروي لك القصص إن أحببت».

لم يجب. حاولت أن تتخيله كما صورته هانيكي دوماً، كفتى في العاشرة من عمره بطبيعة عذبة، يبكي بسبب هرب أخته إلى أميركا. روث هانيكي لألما مرات كثيرة كيف تعلق ديز بتنورة بياتريكس، إلى أن اضطروا إلى نزع قبضته. وصفت أيضاً كيف وبخت بياتريكس أخاها الصغير طالبة منه ألا يجعل العالم يرى دموعه مرة ثانية أبداً. وجدت ألما أنه من الصعب تصور ذلك الآن لأنه بدا عجوزاً وجدياً على نحو مقيت.

قالت: «لقد كبرتُ وحولي الزنابق الهولندية المنحدرة من البصلات التي أخذتها أمي معها إلى فيلادلفيا من هنا، من الهورتس».

بقي صامتاً. تنهد روجر، انتقل، وتكور أكثر على ساقي ديز.

بعد وهلة، غيرت ألما الموضوع: «يجب أن أعلمك أن هانيكي دي غروت ما تزال حية. أعتقد أنك كنت تعرفها منذ وقت طويل».

عبر تعبيرٌ جديد وجه العجوز: التساؤل.

تساءل: «هانيكي دي غروت. لم أفكر بها منذ سنوات. هانيكي دي غروت؟ أتخيلها...».

قالت ألما: «هانيكي قوية وبصحة جيدة، سيسعدك سماع ذلك». كان هناك نوع من التفكير المتمني في هذه الجملة، بما أن ألما لم تر هانيكي منذ ثلاث سنوات. «ما تزال كبيرة الخدم في عزبة المرحوم والدي».

Twitter: @ketab_n

قال ديز: «هانيكي هي شقيقة مربيتي. كانت صغيرة جداً حين جاءت إلينا. كانت مربية لي لفترة».

قالت ألما: «نعم، كانت مربية لي أيضاً».

قال: «إذاً نحن محظوظان».

«أوافق. أعتبر أن أروع بركة في حياتي هي أنني أمضيت شبابي تحت رعاية هانيكي. لقد شكلتني تقريباً كما شكلني والداي».

عاود التحديق. سمحت ألما أن يسود الصمت هذه المرة. راقبت خالها يتناول ملء الشوكة من التوست ويغمسه في قهوته. استمتع بلقمته دون استعجال، دون أن يسقط الكثير من السائل أو الفتات. أرادت أن تعرف من أين تستطيع أن تشتري توستاً طيباً كهذا.

أخيراً مسح ديز فمه بمنديل عادي وقال: «ليست هولنديتك سيئة».

قالت: «شكراً لك. تحدثت بها كثيراً حين كنت طفلة».

«كيف هي أسنانك؟».

«جيدة، شكراً لك»، قالت ألما. ليس لديها شيء تخفيه عن هذا الرجل.

هز رأسه: «لآل فان ديفندر أسنان جيدة».

«إنهم محظوظون وراثياً».

«هل لأختي أطفال آخرون غيرك؟».

«كان لديها ابنة أخرى، متبناة. أختي برودنس، التي تدير الآن مدرسة داخل عزبة أبي».

قال بحيادية: «متبناة».

قالت ألما: «لم تكن أمي مباركة بالخصب».

سأل: «ماذا عنك؟ هل لديك أطفال؟».

قالت ألما: «أنا مثل أمي، لا أنجب». صور هذا الكلام الموقف بشكل سيء، لكنه أجاب عن السؤال على الأقل.

سأل: «هل يوجد زوج؟».

«توفي».

هز الخال ديز رأسه، لكنه لم يقدم العزاء، سلى هذا ألما؛ كانت أمها سترد بالطريقة نفسها. فالحقائق هي الحقائق، والموت هو الموت.

غامرت: «وأنت يا سيدي، هل هناك السيدة فان ديفندر؟».

«توفيت».

هزت رأسها تماماً كما فعل. كان هذا سيئاً قليلاً لكنها استمتعت بهذه المحادثة الصريحة والفظة والمفككة. ودون إحساس بمتى أو أين يمكن أن ينتهي هذا كله، أو إن كان قدرها يهدف إلى التشابك مع مصير هذا الرجل العجوز أم لم لا، شعرت بأنها على أرض مألوفة هنا، الأرض الهولندية، أرض فان ديفندر. لم تشعر بأنها في المنزل هكذا لقرون.

سأل ديز: «كم تنوين البقاء في أمستردام؟».

قالت ألما: «بشكل غير محدد».

باغته هذا. قال: «إذا أتيت ناشدة الإحسان ليس لدينا ما نقدمه».

قالت: «لست بحاجة إلي إحسان. فقد ترك لي والدي ما يعتني بي جيداً».

سأل بحذر غير مموه: «إذاً ما هي نواياك من وراء البقاء في أمستردام؟».

«أود أن أعمل هنا في حدائق هورتس النباتية».

Twitter: @ketab_n

بدا الآن مذعوراً بشكل حقيقي. قال: «يا إلهي! ووفقاً لأية مقدرات؟».

«كعالمة نبات وبشكل محدد كعالمة نباتات لاوعائية».

«عالمة نباتات لاوعائية؟ لكن ما الذي تعرفينه عن الطحالب؟».

هنا لم تستطع ألما مقاومة الضحك. كان شيئاً مدهشاً الضحك. لم تستطع تذكر آخر مرة ضحكت فيها. ضحكت بقوة، وكان عليها أن تضع وجهها بين يديها كي تخبئ مرحها الصاخب. بدا الموقف وكأنه فقط يثير أعصاب خالها العجوز المسكين. لم تكن تساعد قضيتها الخاصة.

لماذا اعتقدت أن سمعتها المتواضعة يمكن أن تسبقها؟ آه من الكبرياء الحمقاء!

حالما سيطرت ألما على نفسها، مسحت عينيها وابتسمت له، وقالت وهي تعود بشكل طبيعي إلى نبرة أكثر وداً وألفة: «أعرف أنني فاجأتك أيها الخال ديز. سامحني من فضلك. أتمنى أن تفهم أنني امرأة مستقلة، لم تأت إلى هنا كي تقاطع حياتك بأية طريقة. على أي حال، أمتلك أيضاً مقدرات معينة، كباحثة وكعالمة تصنيف، يمكن أن تكون مفيدة في مؤسسة كمؤسستك. أستطيع القول دون تحفظ إنني سأشعر بالمتعة والرضا الأكبر في أن أمضي بقية حياتي العملية هنا مانحة وقتي ومقدراتي لمؤسسة برزت بقوة في تاريخ علم النبات، وفي تاريخ عائلتي».

أخرجت الحزمة الملفوفة بورق بني من تحت ذراعها ووضعتها على حافة طاولته.

قالت: «لن أطلب منك أن تصدق كلماتي عن مقدراتي يا خالي. تحتوي هذه الرزمة على نظرية طرحتها مؤخراً، قائمة على بحث قمتُ

Twitter: @ketab_n

به في السنوات الثلاثين الماضية من حياتي. يمكن أن تفاجئك بعض الأفكار بأنها جريئة، لكنني أطلب منك فقط أن تقرأها بذهن منفتح، ولا حاجة كي أطلب منك أن تحافظ على سرية مكتشفاتها لنفسك. حتى إذا لم تتفق مع استنتاجاتي، أعتقد أنك ستكوّن فكرة عن جدارتي العلمية. أطلب منك أن تعامل هذه الوثيقة باحترام، لأنها كل ما أملك وكل ما هو أنا».

لم يعلق.

سألته: «أفترض أنك تقرأ الإنكليزية؟».

رفع حاجبه الأبيض، كما لو أنه يريد القول: أظهري بعض الاحترام يا امرأة.

قبل أن تناول ألما خالها الرزمة الصغيرة، تناولت قلم رصاص عن طاولته وسألت: «هل يمكنني؟».

هز رأسه، وكتبت شيئاً على الرزمة.

«هذا اسم وعنوان الفندق الذي أمكث فيه حالياً، قرب المرفأ. خذ وقتك في قراءة هذا البحث، وأعْلمني إن كنت تريد أن تتحدث معي ثانية. إذا لم أسمع منك خلال أسبوع، سأعود إلى هنا، آخذ أطروحتي، أودعك وأذهب في طريقي. بعد ذلك، أعدك بأنني لن أزعجك أنت أو أي أحد آخر في الأسرة ثانية».

حين كانت ألما تقول هذا، راقبت خالها وهو يغرز شوكته في قطعة أخرى صغيرة من التوست، وبدلاً من أن يحمل القطعة إلى فمه مال جانبياً على كرسيه، وأنزل أحد كتفيه من أجل أن يقدم الطعام للكلب روجر، فيما أبقى عينه على ألما متظاهراً بالإصغاء إليها بانتباه كامل.

«آه، انتبه...» انحنت ألما فوق الطاولة بقلق. كانت على وشك أن

Twitter: @ketab_n

تحذر خالها من أن هذا الكلب لديه عادة رهيبة وهي عض أي شخص يحاول إطعامه، لكنها قبل أن تستطيع التحدث كان روجر قد رفع رأسه الصغير المشوه كسيّدة حسنة السلوك وأخذ توست القرفة من أسنان الشوكة.

«حسناً، سأكون...»، تعجبت ألما، وتراجعت.

لم يقم خالها حتى الآن بذكر علني للكلب ولهذا لم تقل ألما أي شيء عن المسألة.

مسدت تنورتها وتمالكت نفسها وقالت: «أمتعني اللقاء معك صدقاً. عنت هذه المقابلة الكثير لي يا سيدي، أكثر مما يمكن أن تتصور. لم أشعر من قبل بمتعة معرفة خال. آمل أن تستمتع ببحثي، ولن يصدمك. طاب يومك».

لم يجب بما هو أكثر من هزة رأس.

ذهبت ألما إلى الباب. «تعال يا روجر»، قالت، دون أن تنظر خلفها.

انتظرت، فاتحة الباب، لكن الكلب لم يتزحزح.

«روجر»، صاحت مستديرة كي تنظر إليه. «هيا».

لكن الكلب لم يتحرك من عند قدمي الخال ديز.

«اذهب أيها الكلب»، قال ديز، ليس بشكل مقنع جداً، ودون أن يتحرك إنشاً واحداً.

«روجر!»، نادته ألما، منحنية كي تراه بشكل أوضح تحت الطاولة. «هيا الآن، لا تكن سخيفاً».

لم تحتج أبداً من قبل إلى أن تناديه، فقد كان يتبعها دوماً. لكن روجر أغلق أذنيه وتمسك بمكانه. لن يغادر.

Twitter: @ketab_n

اعتذرت: «لم يتصرف هكذا أبداً. سأحمله».

لكن خالها رفع يده: «ربما يستطيع هذا المخلوق الصغير أن يبقى هنا ليلة أو اثنتين»، اقترح على نحو عرضي، كما لو أن هذا لم يعن له أي شيء من أي نوع، بطريقة أو أخرى. لم ينظر إلى عين ألما حتى حين قال هذا. بدا للحظة واحدة فحسب كفتى صغير يحاول إقناع أمه السماح له بأن يظل ضالاً.

آه أيها الخال ديز، الآن أستطيع فهمك.

قالت ألما: «بالطبع، إذا كنت متأكداً من أنه لا يزعجك».

هز ديز كتفيه، لامبالياً قدر الإمكان، وطعن قطعة أخرى من التوست.

«سنتدبر أمرنا»، قال، وأطعم الكلب ثانية، مباشرة من شوكته.

* * *

سارت ألما مبتعدة بخفة عن حديقة الهورتس النباتية، في الاتجاه العام للمرفأ. لم ترغب بالذهاب في عربة، شعرت بأنها محفزة جداً بحيث لا تستطيع الجلوس فيها، شعرت بأنها فاشلة ومبتهجة ومرتجفة نوعاً ما وحية جداً وجائعة. واصلت الالتفات والنظر إلى روجر، بسبب قوة العادة، لكنه لم يكن خلفها. يا إلهي! لقد تركت كلبها وعمل حياتها في مكتب الرجل، بعد مقابلة مدتها ١٥ دقيقة فقط.

يا لها مقابلة! يا لها من مجازفة!

لكنها مجازفة كان يجب أن تقوم بها، ذلك أن هذا هو المكان الذي أرادت ألما أن تعيش فيه، إذا لم يكن في حدائق الهورتس ففي أمستردام أو على الأقل في أوزبا. اشتاقت كثيراً إلى العالم الشمالي أثناء الوقت الذي أمضته في البحار الجنوبية. اشتاقت إلى تبدل الفصول، وضوء

Twitter: @ketab_n

الشمس الباهر والمتألق والمنعش في الشتاء، اشتاقت إلى قيود المناخ البارد، وقيود الذهن أيضاً. لم تكن مصنوعة للمناطق المدارية، لا في البشرة ولا في الميل. كان هناك أولئك الذين أحبوا تاهيتي لأنهم شعروا بأنها كالفردوس، كبداية التاريخ، لكن ألما لم ترغب بالعيش في بداية التاريخ؛ أرادت أن تعيش داخل اللحظة الأحدث للبشرية، في خضم الاختراع والتقدم. لم ترد أن تسكن أرض أرواح وأشباح؛ بل رغبت بعالم من البرقيات والقطارات والتحسينات والنظريات والعلم، حيث تتغير الأمور كل يوم. تاقت إلى العمل ثانية في بيئة جدية منتجة محاطة بأشخاص منتجين وجديين. رغبت بوسائل راحة الرفوف المكتظة، وآنية الجمع، والأوراق التي لا تأكلها العفونة، والمجاهر التي لا تُسرق في الليل. تاقت إلى مدخل إلى المجلات العلمية الأخيرة. تاقت إلى الأنداد.

تاقت أكثر من أي شيء آخر إلى العائلة، ونوع العائلة التي تربت معها: الدقيقة والباحثة والمتحدية والذكية. أرادت أن تشعر بأنها ويتاكر ثانية، محاطة بآل ويتاكر. لكن بما أنه لم يتبق المزيد من آل ويتاكر في العالم (عدا برودنس ويتاكر ديكسون المشغولة في مدرستها؛ وباستثناء أفراد من عائلة والدها المخيفين والمجهولين، الذين لم يموتوا بعد في السجون الإنكليزية) أرادت أن تكون قرب آل فان ديفندر.

إذا قبلوها.

لكن ماذا إذا لم يقبلوها؟ كانت هذه هي المقامرة. إن آل فان ديفندر - أي من بقي منهم - يمكن ألا يتوقوا إلى رفقتها كما تتوق إلى رفقتهم. قد لا يرحبون بإسهاماتها المقدمة لحديقة هورتس. ويمكن أن ينظروا إليها كمتطفلة وهاوية. كانت لعبة غير آمنة أن تترك ألما أطروحتها مع الخال ديز. قد يكون رد فعله على عملها أي شيء: من الضجر

(طحالب فيلادلفيا؟)، إلى الاستياء الديني (الخلق المستمر؟)، إلى الذعر العلمي (نظرية للعالم الطبيعي كله؟). كانت ألما تعرف أن بحثها يجازف في جعلها تبدو طائشة ومغرورة وساذجة وفوضوية ومنحطة، وحتى فرنسية قليلاً. لكن بحثها كان أيضاً ـ أكثر من أي شيء آخر ـ صورة لمقدراتها، وتمنت أن تعرف عائلتها مقدراتها، إذا كانوا يريدون معرفتها.

صممت ألما على أن ترفع كتفيها وتتابع إذا رفضها آل ديفندر وحديقة هورتس النباتية، ربما ستقيم في أمستردام أو تعود إلى روتردام، أو تنتقل إلى ليدن وتعيش هناك قرب الجامعة. إذا لم يكن هولندا، هناك فرنسا، وهناك ألمانيا. تستطيع العثور على منصب في مكان آخر، ربما في حديقة نباتية أخرى. كان هذا صعباً على امرأة، لكنه ليس مستحيلاً، خاصة أن اسم والدها ونفوذ ديك يانسي سيمنحانها المصداقية. كانت تعرف عن جميع أساتذة علم النباتات اللاوعائية في أوربا؛ وتراسلت مع كثير منهم مع مرور الأعوام. تستطيع أن تسعى وراءهم، وتطلب أن تكون مساعدة لأحدهم. وبدلاً من ذلك، تستطيع أن تدرّس، ليس على مستوى الجامعة، لكن يمكن أن تعثر دوماً على وظيفة كمربية لدى عائلة ثرية في مكان ما. وإذا لم يكن علم النبات، تستطيع تدريس اللغات. وكانت تملك ما يكفي منها في رأسها.

سارت في المدينة لمدة ساعات. لم تكن ترغب بالعودة إلى الفندق. لم تستطع تخيل النوم. اشتاقت إلى روجر وشعرت بالتحرر بدونه وهو يتعقبها. لم تفهم بعد جغرافية أمستردام، وهكذا تجولت وضاعت وعثرت على نفسها في المدينة المثيرة للفضول التي تلتف متعرجة كمثل قوس كبير نصف مشذود بقنواتها الخمس الملتفة والعملاقة. عبرت فوق الممرات المائية مرة بعد أخرى، على دزينات من الجسور التي لم

Twitter: @ketab_n

تعرف أسماءها. سارت بمحاذاة قناة هينغراخت، وأعجبتها المنازل الأنيقة بمداخنها المتشعبة وجملوناتها البارزة. عبرت القصر. عثرت على مكتب البريد المركزي، وعلى مقهى طلبت فيه صحناً من التوست بالقرفة استمتعت بأكله أكثر من أية وجبة استطاعت تذكرها، وقرأت نسخة قديمة من صحيفة «لويد» الأسبوعية، التي ربما نسيها سائح بريطاني لطيف.

خيم الليل، وواصلت السير. عبرت كنائس قديمة ومسارح جديدة. شاهدت الحانات والأروقة وما هو أسوأ. شاهد بيوريتانيين كباراً في السن يرتدون عباءات قصيرة وأطواقاً حول العنق، بدوا وكأنهم خرجوا لتوهم من زمن تشارلز الأول. شاهدت نساء شابات بأذرع عارية، يستدرجن الرجال إلى أزقة مظلمة. شاهدت وشمّت أعمال تعليب السمك المملح. شاهدت المراكب المسكونة بمحاذاة القناة بحدائقها المقتصدة بالآنية وقططها التي تجوس. سارت في الحي اليهودي وشاهدت مشاغل قاطعي الألماس. شاهدت مستشفيات اللقطاء والمياتم؛ شاهدت مطابع ومصارف ومكاتب قروض؛ شاهدت سوق الأزهار المركزي الضخم، المغلق في الليل. وشعرت في كل مكان حولها، حتى في هذه الساعة المتأخرة، بطنين التجارة.

إن أمستردام، المبنية على الطين والركائز المتينة، والمحمية والمصانة بالمضخات والقنوات وآلات الجرف والسدود، لم تُدهش ألما كثيراً كمدينة، بل كمحرّك، كانتصار للاجتهاد البشري. كانت المكان الأكثر إبداعاً الذي يمكن أن يتخيله المرء، كانت ملخّص الذكاء البشري، كانت تامة، ولم ترد أبداً أن تغادرها.

بعد منتصف الليل بوقت طويل عادت أخيراً إلى فندقها. كان قدماها

Twitter: @ketab_n

متقرحتين في حذائها الجديد. لم تستجب المالكة بلطف لقرعها المتأخر في الليل على الباب.

سألت المرأة: «أين كلبك؟».

«تركته لدى صديق».

«هم»، قالت المرأة. لن تبدو أكثر استياء لو أن ألما قالت: «بعته لغجري».

سلمت ألما مفتاحاً وقالت: «لا رجال في غرفتك الليلة، تذكري».

لا الليلة، ولا في أية ليلة أخرى، يا عزيزتي، فكرت ألما. لكن شكراً لك لتخيلك لهذا.

* * *

في صباح اليوم التالي أيقظ قرعٌ على الباب ألما. كانت العجوز مالكة الفندق ذات الطبع الحاد.

صاحت المرأة بصوت نقي كنجم: «ثمة عربة بانتظارك يا سيدة!».

سارت ألما متعثرة إلى الباب وقالت: «أنا لا أتوقع عربة».

صاحت المرأة: «حسناً، إنها تتوقعك. البسي، يقول الرجل إنه لن يغادر من دونك. ويطلب منك أن تأخذي حقائبك فقد دفع أجر غرفتك. لا أعرف من أين يأتي أولئك الأشخاص بفكرة أنني أعمل كرسولة».

مشوشة الذهن لبست ألما ثيابها وحزمت حقيبتيها الصغيرتين. استغرقت المزيد من الوقت كي ترتب سريرها، ربما بدافع من الضمير أو لأنها كانت تماطل: أية عربة؟ هل تم اعتقالها؟ هل ستُنفى؟ هل هذا نوع من الهراء، خدعة تستهدف السياح؟ لكنها لم تكن سائحة.

نزلت إلى الأسفل وشاهدت حوذياً يرتدي بزة، ينتظرها قرب عربة خاصة أنيقة.

«صباح الخير يا آنسة ويتاكر»، قال، ممسكاً طرف قبعته. رمى حقيبتيها على مقعده في المقدمة. كان لديها إحساس سيء بأنها ستوضع على متن قطار.

قالت: «أنا آسفة، لا أعتقد أنني طلبت عربة».

قال فاتحاً باب العربة: «لقد أرسلني السيد فان ديفندر. اصعدي، إنه ينتظرك، ومتلهف لرؤيتك».

استغرق الأمر تقريباً ساعة للالتفاف في المدينة للعودة إلى الحدائق النباتية. اعتقدت ألما أن المشي أسرع، وأكثر هدوءاً أيضاً. ستكون أقل اهتياجاً، لو استطاعت المشي. أوصلها السائق أخيراً، إلى جانب منزل آجري جميل خلف الهورتس، في بلانتاج باركلان.

قال من فوق كتفيه وهو يمسك بحقيبتيها: «هيا. ادخلي، فالباب مفتوح. إنه ينتظرك».

كان من غير المريح لألما أن تدخل إلى بيت خاص دون أن يُعلن عن وجودها، لكنها فعلت كما قيل لها. ثم إن هذا المنزل لم يكن أجنبياً بشكل كامل، أيضاً. إذا لم تكن مخطئة، فقد ولدت أمها هنا.

شاهدت باباً مفتوحاً مقابل صالة الاستقبال، وحدقت في الداخل. كان بهواً. رأت خالها يجلس على صوفا، منتظراً لها.

كان أول شيء لاحظته هو الكلب روجر يتكور بشكل لا يصدق في حضنه.

كان الشيء الثاني الذي شاهدته هو أن الخال ديز يحمل أطروحتها

Twitter: @ketab_n

في يده اليمنى، ويسندها بخفة على ظهر روجر، كما لو أن الكلب طاولة كتابة نقالة.

كان الشيء الثالث الذي لاحظته هو أن وجه خالها مبلل بالدموع. كانت ياقة قميصه مبللة. وبدا كأن لحيته مبللة، أيضاً. ذقنه يرتجف، وعيناه حمراوان بشكل مخيف. بدا وكأنه كان يبكي منذ ساعات.

اندفعت إلى الداخل: «ما المسألة يا خالي ديز؟».

بلع العجوز ريقه وأمسك بيدها. كانت يده حارة ورطبة. لم يستطع التحدث لبعض الوقت. أمسك أصابعها بإحكام. لم يفلتها.

قال، دون أن يزعج نفسه بمسح دموعه: «آه يا ألما، ليباركك الله يا طفلتي. تملكين ذهناً كذهن أمك».

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع والعشرون

مرت أربعة أعوام.

كانت أعواماً سعيدة بالنسبة لألما ويتاكر، ولماذا لن تكون؟ امتلكت منزلاً (نقلها خالها مباشرة إلى منزل فان ديفندر)؛ وصارت لها عائلة (أبناء خالها الأربعة، زوجاتهم الجميلات، ونسلهم من الأطفال الذين يكبرون)؛ وتمكنت من الاتصال بشكل منتظم عبر البريد مع برودنس وهانيكي في فيلادلفيا؛ وتولت وظيفة مهمة في حديقة هورتس النباتية. كان لقبها الرسمي هو القيّمة على الطحالب. خُصص لها مكتب، في الطابق الثاني من المبنى الجميل على بعد بابين من منزل فان ديفندر.

طلبت جميع كتبها القديمة وملاحظاتها من منزل العربات في وايت إيكر، ومجموعتها النباتية، أيضاً. كان الأسبوع الذي وصلت فيه الشحنة بمثابة عطلة بالنسبة لها، وأمضت أياماً في انشغال حنيني، فاتحة الصناديق كلها. كانت مشتاقة إلى جميع الكتب. وقد احمرت من المتعة حين اكتشفت مادة قراءتها الشهوانية مدفونة في قاع الصناديق. قررت الحفاظ عليها رغم أنها تأكدت من إبقائها مخفية. ذلك أنها لم تعرف كيف تتخلص من نصوص فضائحية كهذه بشكل محترم. وهناك أمر آخر وهو أن هذه الكتب ما تزال تملك القدرة على إثارتها. حتى في عمرها المتقدم تريث عرق قوي من الرغبة الوقحة في جسمها، وكان ما يزال يتطلب انتباهها في ليال معينة، حين، تحت الغطاء، كانت تعاود زيارة

Twitter: @ketab_n

جسدها المكتهل، متذكرة مرة أخرى طعم تومورو مورننغ، ورائحة أمبروس، وإلحاحية دوافع الحياة الأكثر عناداً والتي لا تلين. لم تحاول حتى أن تقاتل هذه الدوافع بعد الآن؛ فقد كان واضحاً أنها صارت جزءاً منها.

حصلت ألما على راتب محترم، أول راتب لها، في هورتس، وتقاسمت مساعداً وموظفاً مع مدير قسم علم الفطريات والمشرف على السرخس، واللذين أصبحا صديقين عزيزين، أول صديقين علميين لها. وفي الوقت المناسب كونت سمعة لنفسها كعالمة تصنيف متألقة وكذلك كابنة أخت جيدة. وقد سرّ ألما وأدهشها كثيراً أنها تكيفت بشكل مريح مع صخب وشغب الحياة العائلية، مفترضين أنها عاشت دوماً حياة منعزلة. شعرت بالسرور من ذكاء أولاد ديز وأحفاده وسرعة بديهتهم على مائدة العشاء، وشعرت بالفخر من إنجازاتهم ومواهبهم المتعددة. وشعرت بالفخر حين كانت الفتيات يأتين إليها طلباً للنصيحة أو العزاء حول مشاكلهن الرومانسية المثيرة أو المريعة. شاهدت بعضاً من ريتا في لحظات إثارتهن؛ وبعضاً من برودنس في لحظات تحفظهن؛ وبعضاً من نفسها في لحظات شكهن.

مع مرور الوقت، صار جميع آل فان ديفندر يعدون ألما رصيداً ثميناً لكل من حديقة هورتس وللعائلة، وكان الكيانان غير قابلين للتمييز، بأية حال. خصص خال ألما لها زاوية صغيرة مظللة من منزل النخيل وطلب منها أن تقيم معرضاً دائماً يدعى كهف الطحالب، وكانت هذه وظيفة مخادعة ومُرْضية. ذلك أن الطحالب لا تحب أن تنمو في الأمكنة التي لا تولد فيها، وواجهت ألما صعوبة في تهيئة الأوضاع الضرورية والدقيقة (الرطوبة الصحيحة؛ والمزيج الملائم من الضوء والظل، والأحجار الملائمة، والحصى وجذوع الأشجار كركائز) لتشجيع مستعمرات

Twitter: @ketab_n

الطحالب كي تزدهر في هذه البيئة الاصطناعية. نفذت هذا العمل بنجاح وفي الحال ازدهر الكهف بعينات الطحالب من كل أنحاء العالم. سيكون مشروع حياة الحفاظ على المعرض، الذي تطلب جواً ضبابياً متواصلاً (أنجز بمساعدة محركات بخارية)، واحتاج إلى التبريد بجدران معزولة، ولا يمكن تعريضه أبداً لضوء الشمس المباشر. ويجب أن تُفحص الطحالب العدوانية سريعة النمو باستمرار، بحيث يمكن أن تنمو الأنواع الأكثر ندرة والصغيرة. وقرأت ألما عن رهبان يابانيين حافظوا على حدائق طحالبهم عبر التعشيب بملاقط صغيرة، وحاكت هذه الممارسة، أيضاً. كانت تُرى كل صباح في كهف الطحالب، تزيل عرقاً صغيراً غازياً كل مرة، في ضوء مصباح مُعَدَّن، مستخدمة رؤوس ملقطها الفولاذي الرائع، أرادت أن يلمع الكهف كنار زمردية مثل كهف الطحالب الفائق للعادة الذي توهّج أمامها وأمام تومورو مورننغ منذ سنوات في تاهيتي.

صار كهف الطحالب معرضاً شعبياً في الهورتس، ولكن لنمط معين من الأشخاص: النوع الذي يتوق للظلمة الباردة، وللصمت، وللاستغراق في التفكير الحالم. (بتعبير آخر، نمط الأشخاص الذين يمتلكون اهتماماً قليلاً بالأزهار المبهرجة، ومنصات الزنابق الكبيرة، أو حشود العائلات الصاخبة). واستمتعت ألما بالجلوس في زاوية الكهف ومراقبة هذه الأنواع من البشر يدخلون العالم الذي صنعته. شاهدتهم يداعبون جلد الطحالب، وراقبت وجوههم وهي تسترخي، وأجسادهم وهي ترتاح. شعرت بقرابة مع الهادئين.

أثناء تلك الأعوام، أمضت ألما أيضاً مدة طويلة من الوقت تعمل على نظريتها في التغير التنافسي. فقد كان الخال ديز يحثها على نشر بحثها منذ أن قرأه لدى وصولها في ١٨٥٤، لكن ألما قاومت آنذاك، ثم واصلت المقاومة. لم يسبب رفضها إلا الإحباط لخالها الطيب، الذي

Twitter: @ketab_n

اعتقد أن نظرية ألما مهمة ومن المرجح جداً أنها صحيحة. اتهمها بأنها جبانة ومستسلمة وخائفة من الشجب الديني في حال أعلنت عن أفكارها حول الخلق المتواصل وتحول الأنواع.

قال لها هذا البروتستانتي الهولندي الجيد، الذي يذهب إلى الكنيسة بورع شديد كل يوم أحد: «لا تملكين الشجاعة على أن تكوني هادمة للفكرة الدينية عن الخلق. هيا الآن يا ألما، مم أنت خائفة؟ أظهري بعض جرأة والدك، يا طفلتي! انطلقي كي تثيري رعباً في العالم! أيقظي بيوت الجدل النابحة كلها، إذا اضطررت. ستحميك الهورتس! نستطيع نشر البحث! نستطيع نشره حتى باسمي، إذا كنت تخافين من الشجب».

لكن ألما لم تكن مترددة بسبب الخوف من الكنيسة، بل من إيمان عميق بأن نظريتها غير مكتملة علمياً. ثمة ثغرة صغيرة في منطقها، كما شعرت، ولم تعرف كيف تعالجها. كانت ألما من النوع الذي يحب الكمال، والتدقيق المفرط، وأكيد أنها لن تنشر نظرية بثغرة فيها، حتى ولو كانت صغيرة. لم تكن خائفة من الإساءة للدين، كما قالت لخالها بشكل متكرر، بل خائفة من الإساءة لشيء أكثر قداسة بالنسبة لها وهو العقل.

هذه هي الثغرة في نظرية ألما: لم تستطع، طيلة حياتها أن تفهم الفوائد النشوئية للإيثار والتضحية بالنفس. إذا كان العالم الطبيعي هو فعلاً مجال صراع مستمر غير أخلاقي من أجل البقاء كما تبين، وإذا كان التغلب على الخصم هو المدخل إلى الهيمنة والتكيف والاستمرارية، إذاً كيف من المفترض أن يفهم المرء شخصاً ما مثل أختها برودنس مثلاً؟

كلما ذكرت ألما اسم أختها، فيما يتعلق بنظريتها في التغير

Twitter: @ketab_n

التنافسي، كان خالها يصيح: «ليس ثانية!» وكان يقول وهو يشد لحيته: «لم يسمع أحد ببرودنس يا ألما! لا أحد يكترث!».

لكن ألما تكترث، وصارت «مشكلة برودنس» كما سمّتْها، تزعج ذهنها، ذلك أنها هددت بتفكيك نظريتها كلها، وقد أزعجتها بخاصة لأنها شخصية. كانت ألما هي المستفيدة من فعل كرم عظيم وتضحية بالنفس قامت به برودنس منذ أربعين سنة تقريباً، ولم تنس هذا أبداً. تخلت برودنس بصمت عن حبيبها الحقيقي آملة أن يتزوج جورج هوكس ألما بدلاً منها، وأن تستفيد ألما من ذلك الزواج. إن حقيقة أن فعل التضحية لدى برودنس كان بلا طائل لا يلغي صدقه بأية طريقة.

لماذا يفعل شخص شيئاً كهذا؟

تستطيع ألما أن تجيب على هذا السؤال من منظور أخلاقي، (لأن برودنس لطيفة وغير أنانية)، لكنها لم تستطع الإجابة عليه من منظور بيولوجي (لماذا يوجد اللطف واللاأنانية؟). فهمت ألما بشكل كامل لماذا كان خالها ينتف لحيته كلما ذكرت اسم برودنس. عرفت أنه، في هذا المدى الواسع من التاريخ الطبيعي والبشري، كان هذا المثلث المأساوي بين برودنس وجورج وهي نفسها صغيراً وغير مهم بحيث أنه كان تقريباً من الهزل إثارة الموضوع (وفي نقاش علمي). لكن، لن يتلاشى السؤال.

لماذا يفعل شخص شيئاً كهذا؟

في كل مرة فكرت فيها ألما ببرودنس اضطرت إلى أن تسأل نفسها هذا السؤال ثانية، ثم تراقب بيأس نظريّتها في التغير التنافسي تتهاوى أمام عينيها. ذلك أن برودنس ويتاكر ديكسون، في النهاية، لم تكن مثالاً فريداً. لماذا يتصرف أي شخص خارج نطاق قاعدة المصلحة الذاتية؟ استطاعت ألما أن تطرح حجة مقنعة بشكل جيد حول لماذا الأمهات،

Twitter: @ketab_n

مثلاً، يقمن بتضحيات لصالح أولادهن (لأن هذا كان مفيداً لمواصلة خط الأسرة)، لكنها لم تستطع أن تشرح لماذا يجري جندي إلى خط الحراب مباشرة كي يحمي رفيقاً مصاباً. كيف يدعم ذلك الفعل أو يفيد الجندي الشجاع أو عائلته؟ إنه لا ينفعه: فعبر التضحية بالنفس، نفى الجندي الميت لا مستقبله فحسب، بل استمرارية نسبه أيضاً.

لم تستطع ألما أن تشرح لماذا يمنح سجين متضور من الجوع الطعام إلى زميله في الزنزانة.

لم تستطع أن تشرح لماذا تقفز سيدة في قناة كي تنقذ طفل امرأة أخرى، وتغرق أثناء العملية، وهذا الحدث المأساوي حصل منذ مدة قصيرة قرب الهورتس.

لم تعرف ألما إذا واجهها أمر كهذا إن كانت ستتصرف بطريقة نبيلة كهذه، لكن آخرين فعلوا هذا بشكل لا يقبل الجدل، وقد فُكِّر بكل الأمور بشكل روتيني. ولم تملك ألما شكاً في ذهنها بأن أختها والقس ويليس (كمثال آخر على فعل الخير الفائق للعادة) سيمتنعان دون تردد عن الطعام كي يعيش شخص آخر، وسيجازفان دون تردد بالتعرض للأذى أو الموت كي ينقذا طفل شخص غريب، أو قطة شخص غريب.

فضلاً عن ذلك، لم يكن هناك شيء متماثل مع أمثلة متطرفة كهذه من التضحية الإنسانية بالنفس في بقية العالم الطبيعي، بقدر ما كانت تعرف. نعم، داخل خلايا النحل، أو قطيع من الذئاب، أو سرب من الطيور، أو حتى مستعمرة من الطحالب، كان الأفراد يموتون أحياناً من أجل الخير الأكبر للجماعة. لكن المرء لم يشاهد أبداً ذئباً ينقذ حياة نحلة. ولم ير المرء أبداً عرقاً من الطحالب يختار الموت مانحاً زاده من الماء الثمين لنملة، انطلاقاً من فعل إحسان بسيط!

كانت هذه هي أنواع الحجة التي أغضبت خالها حين كانت ألما وديز يجلسان معاً حتى وقت متأخر من الليل، سنة بعد أخرى، يتجادلان حول المسألة. كان الآن أوائل ربيع ١٨٥٨، وكانا ما يزالان يناقشان المسألة.

قال ديز: «لا تكوني سوفسطائية متعبة! انشري البحث كما هو».

أجابت ألما وهي تبتسم: «لا أستطيع سوى أن أكون يا خالي. تَذكّرْ: أملك ذهن أمي».

قال: «إنك تفقدينني صبري يا ابنة أختي. انشري دراستك، دعي العالم يناقش الموضوع، وأريحينا من هذا البحث المتطفل المرهق عن الأخطاء».

لكنه لم يثنها عن رأيها: «إذا استطعتُ أن أرى هذه الثغرة في حجتي يا خالي، فإن الآخرين سيشاهدونها بالتأكيد، ولن يُنظر إلى بحثي بجدية. إذا كانت نظرية التغير التنافسي صحيحة فإنها يجب أن تصح على العالم الطبيعي كله، بما فيه البشر».

اقترح عمها بهزة كتف: «استثني البشر. لقد فعل أرسطو هذا».

«أنا لا أتحدث عن سلسلة الوجود الكبرى، يا خالي. أنا لست مهتمة بنظرية بيولوجية كونية. إن قوانين الطبيعة لا تستطيع الإقرار باستثناءات، أو لا تستطيع الوقوف كقوانين. إن برودنس غير مستثناة من الجاذبية؛ بالتالي، لا يمكن أن تُعفى من التغير التنافسي، إذا كانت تلك النظرية صحيحة. إذا كانت مستثناة منها، من ناحية أخرى، فإن النظرية لا يمكن أن تكون صحيحة إذاً».

دوّر عينيه: «الجاذبية؟ يا إلهي، يا طفلتي، استمعي إلى نفسك. ترغبين بأن تصبحي نيوتن الآن!».

Twitter: @ketab_n

صححت ألما: «أتمنى أن يكون ما أقوله صحيحاً».

في لحظات استرخائها، وجدت ألما مشكلة برودنس كوميدية تقريباً. فأثناء فترة شبابهما كلها كانت برودنس مشكلة بالنسبة لألما، والآن، بعد أن تعلمت ألما أن تحب وتقدر وتحترم أختها بشكل كبير، ما تزال برودنس مشكلة.

قال الخال ديز: «أشعر أحياناً بأنني لا أرغب أبداً بسماع اسم برودنس يُذكر في هذا المنزل ثانية، لقد مللت من ذكرها».

ألحت ألما: «إذاً اشرحها لي. لماذا تتبنى يتامى العبيد الزنوج؟ لماذا تمنح كل نقودها للفقراء؟ كيف يفيدها هذا؟ كيف يفيد سلالتها؟ اشرح هذا لي!».

«هذا يفيدها يا ألما لأنها شهيدة مسيحية، وتستمتع بالقليل من الصلب بين وقت وآخر. أعرف هذا النمط، يا عزيزتي. هناك أشخاص يستمتعون بالمساعدة والتضحية بالنفس كما يستمتع آخرون بالنهب والقتل. إن أمثلة متعبة كهذه نادرة، لكنها موجودة قطعاً».

ردت ألما بحسم: «لكن هنا نلمس قلب مشكلتنا ثانية! إذا كانت نظريتي صحيحة، يجب ألا يوجد أشخاص كهؤلاء مطلقاً. تذكّر يا خالي، إن نظريتي لا تُدعى نظرية متعة التضحية بالنفس».

قال بضجر: «انشري البحث يا ألما. إنه قطعة فكرية رائعة. انشريه كما هو واتركي العالم يناقش هذه النقطة».

أصرت: «لا أستطيع نشره إلى أن تصبح النقطة غير قابلة للجدل».

هكذا كانت المحادثة تبدأ وتدور وتنتهي دوماً، عالقة في الزاوية المحبطة نفسها. نظر الخال ديز إلى الكلب روجر الملتف في حضنه، وقال: «ستنقذني إذا كنت أغرق في قناة، أليس كذلك يا صديقي؟».

Twitter: @ketab_n

خبط روجر ذيله المثير للانتباه كجواب.

كان على ألما أن تقر أن روجر من المحتمل أن ينقذ الخال ديز إذا كان يغرق في قناة، أو عالقاً في النار، أو يتضور جوعاً في السجن، أو عالقاً تحت بناء منهار، وأكيد أن ديز سيفعل الشيء نفسه له. كان الحب بين الخال ديز وروجر متواصلاً في كل جزء منه كما كان فورياً. لم يُشاهد الرجل والكلب منفصلين أبداً منذ لحظة تعارفهما. أفهم روجر ألما بسرعة كبيرة بعد وصولهما إلى أمستردام منذ أربع سنوات أنه لم يعد كلبها، ولم يكن أبداً كلب أمبروس، ولكنه كلب ديز طول الوقت، بقوة المصير الصرف الواضح. وبدا كأن روجر اعتقد أن ولادته في تاهيتي البعيدة، وسكن فان ديفندر في هولندا، كانا نتيجة خطأ كهنوتي سيء الحظ، تم تصحيحه الآن.

أما بالنسبة لدور ألما في حياة روجر فإنها كانت مجرد رسول، مسؤولة عن نقل الكائن البرتقالي الصغير القلق نصف الطريق حول العالم، كي توحد رجلاً وكلباً في الحب الأبدي المخلص الذي كان نصيبهما العادل.

الحب الأبدي والمخلص.

لماذا؟

كان روجر كائناً آخر لم تستطع ألما فهمه.

روجر وبرودنس، كلاهما.

* * *

وصل صيف ١٨٥٨، مترافقاً مع فصل موت مفاجئ. بدأت الأحزان في اليوم الأخير من حزيران/ يونيو، حين تلقت ألما رسالة من أختها، ذكرت فيها مجموعة من الأنباء الكريهة المحزنة.

Twitter: @ketab_n

حذرت برودنس في السطر الأول: «ثمة ثلاثة حوادث وفاة يجب أن أخبرك عنها، ومن الأفضل يا أختي أن تجلسي قبل أن تقرأي هذا».

لم تجلس ألما. وقفت في مدخل مسكن فان ديفندر في بلانتاج باركلان، وقرأت الرسالة المحزنة من فيلادلفيا البعيدة، وكانت يداها ترتجفان من الألم.

أولاً أخبرتها برودنس أن هانيكي دي غروت تُوفيت في سن السابعة والثمانين. ماتت المربية القديمة في غرفتها في قبو وايت إيكر، آمنة خلف قضبان غرفتها الخاصة. وافتْها المنيّة وهي نائمة، فلم تعان.

كتبت برودنس: «لا نستطيع تصور كيف سنواصل الحياة من دونها. لا حاجة كي أذكّرك بطيبتها وقيمتها. كانت أماً لي، كما كانت أماً لك».

بعد أن اكتُشفت جثة هانيكي ـ كما كتبت برودنس ـ وصل فتى إلى وايت إيكر حاملاً رسالة من جورج هوكس بأن ريتا «التي غيّرتْها كلُّ سنين الجنون بحيث لم تعد تُعرف»، توفيت في غرفتها في مصح غريفون للمجانين.

كتبت بردونس: «يجب علينا أن نأسف ونحزن أكثر على موت ريتا، أو بسبب الظروف المحزنة لحياتها. أحاول أن أتذكر ريتا الزمن القديم، المرحة والمنطلقة. نادراً ما أستطيع رؤيتها في خيالي كما كانت قبل أن يصبح عقلها غائماً هكذا بشكل مخيف... ذلك أن هذا حدث منذ زمن طويل، كما قلت، حين كنا كلنا صغاراً».

ثم جاءت الأنباء الأكثر صدماً. قالت برودنس إنه لم يمرّ يومان على وفاة ريتا حتى توفي جورج هوكس. كان قد جاء لتوه من غريفون، مباشرة بعد أن قام بترتيبات جنازة زوجته، وانهار في الشارع أمام مطبعته. كان في السابعة والستين من عمره.

Twitter: @ketab_n

اختتمت برودنس: «أعتذر أن الأمر استغرق معي أكثر من عام كي أكتب لك هذه الرسالة المحزنة، لكن ذهني كان منشغلاً بكثير من الأفكار والمصائب بحيث كان من الصعب عليّ المتابعة. إن هذا يصيب ذهن المرء بالذهول، كلنا مصدومون هنا على نحو محزن. ربما تأخّرتُ طويلاً في كتابة هذه الرسالة لأنني لم أستطع مقاومة التفكير كل يوم بألا أخبر أختي المسكينة بهذه الأنباء، فهي ليست مضطرة لتحملها. أفتش في قلبي عن مقدار حبة فلفل من الراحة كي أقدمه لك، لكنني أجد صعوبة في العثور على ذلك. نادراً ما أستطيع العثور على الراحة لنفسي. ليرحمهم الرب وليباركهم جميعاً. لا أعرف ماذا أقول أيضاً، سامحيني من فضلك. إن العمل في المدرسة متواصل بشكل جيد، والأطفال يزدهرون، ويعبّر لك السيد ديكسون والأولاد عن المودة الدائمة، المخلصة، برودنس».

جلست ألما، ووضعت الرسالة إلى جانبها.

هانيكي، ريتا، وجورج، رحلوا جميعاً، بخبطة يد واحدة.

«المسكينة برودنس»، تمتمت ألما بصوت مرتفع.

المسكينة برودنس! فقدت جورج هوكس إلى الأبد. فقدت برودنس جورج هوكس منذ زمن طويل، لكنها فقدته الآن، وهذه المرة إلى الأبد. لم تتوقف برودنس أبداً عن حب جورج، وهو لم يتوقف عن حبها، أو هكذا قالت هانيكي لألما. لكن جورج لحق بالمسكينة ريتا إلى قبرها، وارتبط إلى الأبد بمصير الزوجة الصغيرة المأساوية التي لم يحبها أبداً. صارت كل إمكانيات شبابهما، كما اعتقدت ألما، خراباً. فكّرت للمرة الأولى كم تكشّف مصيرها ومصير أختها على نحو مشابه، فقد قُدِّر على كلتيهما أن تحبا رجالاً لم تستطيعا امتلاكهم، وقررت كلّ منهما أن تتابع بشجاعة رغم ذلك. فعلت الواحدة ما في وسعها، بالطبع، وكانت هناك كرامة في الزهد والتحمل، لكن مرّت أوقات كان

Twitter: @ketab_n

من الصعب فيها تحمل حزن هذا العالم، واعتقدت ألما أن عنف الحب أقسى أشكال العنف أحياناً.

خطر لها أولاً أن تعود إلى الوطن بسرعة لكن وايت إيكر لم تعد منزلها، وجعلها تخيل السير في المنزل القديم دون رؤية وجه هانيكي دي غروت تشعر بالمرض والضياع. بدلاً من ذلك، ذهبت إلى مكتبها وكتبت رسالة رد، باحثة في قلبها عن مقدار حبات فلفل من الراحة، واكتشفتْ أنها نادرة. وعلى غير العادة، رجعت إلى الكتاب المقدس، إلى المزامير. كتبت إلى أختها: «إن الله يقف مع المحطمة قلوبهم!» أمضت اليوم كله خلف باب مغلق، منحنية من الحزن، لكنها لم تخبر خالها عن أي من هذه الأنباء المحزنة كي لا تثقل عليه. كان قد شعر بالسرور من معرفة أن مربيته المحبوبة هانيكي دي غروت ما تزال حية؛ لم تستطع تحمل إخباره عن هذا الموت، أو عن الآخرين. لم ترغب بأن تزعج روحه الطيبة المرحة.

* * *

شعرتْ بعد خمسة عشر يوماً بالسرور من هذا القرار، فقد أصيب خالها ديز بالحمى، ولاذ إلى فراشه، ومات في غضون يوم واحد. كانت تلك إحدى أنواع الحمى الدورية التي اجتاحت أمستردام في الصيف، حين صارت القنوات متعفنة وكريهة الرائحة. وفي صباح أحد الأيام، تناول ديز وألما وروجر الفطور معاً، ومع حلول الفطور التالي كان ديز قد تُوفي. كان في السادسة والسبعين من عمره. حطمت ألما هذه الخسارة ـ في أعقاب الأخريات ـ فلم تستطع السيطرة على نفسها إلا بمشقة. وجدت نفسها تسير في غرفتها في الليل، ضاغطة إحدى يديها على صدرها، خشية أن تنشق أضلاعها وتنفتح ويسقط قلبها على الأرض. شعرت ألما أنها عرفتْ خالها لوقت قصير، لم يكن كافياً. لماذا

Twitter: @ketab_n

لم يكن هناك وقت طويل أبداً؟ كان هنا في أحد الأيام، ثم في التالي استُدعي بعيداً. كلهم ذهبوا بعيداً.

اجتمعت نصف أمستردام في جنازة الدكتور ديز فان ديفندر. وحمل أولاده الأربعة وحفيداه الكبيران التابوت من المنزل في بلانتاج باركلان إلى الكنيسة التي تقع على الزاوية. وكان عدد من زوجات الأبناء والأحفاد يمسكون ببعضهم ويبكون؛ شدوا ألما إلى وسطهم، واستمدت الراحة من ضغطهم الأسروي. كان ديز محبوباً جداً. وكان الجميع حزانى. فضلاً عن ذلك، كشف قس الأسرة أن الدكتور فان ديفندر كان نموذجاً مثالياً للأعمال الخيرية طول حياته؛ وهناك الكثيرون في هذا الحشد من النادبين ساعدهم في حياتهم أو أنقذها على مدى الأعوام.

إن المفارقة التي ينم عنها هذا الكشف، وفي ضوء مجادلات ألما وديز التي لم تتوقف في منتصف الليل، جعلت ألما ترغب بالبكاء والضحك في الوقت نفسه. فقد وضعته حياته الكاملة من الشهامة غير المعلنة عالياً على سلّم موسى بن ميمون، كما ظنت، لكن ربما ذكر لها ذلك في نقطة ما! كيف كان بوسعه أن يجلس هناك، عاماً بعد آخر، رافضاً الصلة العلمية للإيثار، بينما في الوقت نفسه كرس نفسه له سرياً دون كلل؟ جعل هذا ألما تتعجب منه. جعلها تشتاق إليه، لكنه رحل.

بعد الجنازة، جاء ابن ديز الأكبر إلبرت، الذي سيتولى الآن إدارة الهورتس، إلى ألما وقال لها إن مكانها في الأسرة وفي الهورتس محفوظ.

قال: «يجب ألا تقلقي أبداً من المستقبل. نتمنى أن تبقي معنا».

«شكراً لك يا إلبرت»، قالت، ثم تعانق ابن الخال وابنة العمة.

Twitter: @ketab_n

قال إلبرت: «تريحني معرفة أنك أحببتيه، كما فعلنا جميعاً».

لكن لا أحد أحب ديز أكثر من الكلب روجر. فمنذ اليوم الأول لمرضه، رفض الكلب البرتقالي الصغير التحرك من سرير سيده؛ ولم يتحرك بعد أن نُقلت الجثة، أيضاً. زرع نفسه في الأغطية الباردة ولم يتزحزح. رفض تناول الطعام، حتى التوست بالقرفة الذي حضّرتهُ له ألما بنفسها، والتي حاولت أن تجعله يأكلها بيدها وهي تبكي. أدار رأسه إلى الحائط وأغمض عينيه. لمست رأسه، تحدثت معه باللغة التاهيتية، وذكرته بنسبه النبيل، لكنه لم يستجب. في غضون أيام، نفق روجر أيضاً.

* * *

لولا سحابة الموت السوداء التي عبرت المشهد الطبيعي لألما في صيف ١٨٥٨، لسمعت بالتأكيد عن محاضر جمعية ليناوس في لندن في ١ تموز/يوليو من ذلك العام. كانت تقرأ محاضر جميع الاجتماعات العلمية الأكثر أهمية في أوربا وأميركا. لكن ذهنها كان مشغولاً جداً في ذلك الصيف. وتجمعت المجلات على طاولتها دون قراءة، أثناء فترة حزنها. كما استنفدت العناية بكهف الطحالب كل ما تبقى لديها من طاقة. هناك أشياء كثيرة لم تعتن بها.

وهكذا فاتها الاطلاع على المحاضر.

في الحقيقة، لم تسمع أي شيء عنها حتى أواخر كانون الأول/ديسمبر من العام التالي، حين فتحت نسختها من التايمز وقرأت مراجعة لكتاب جديد من تأليف تشارلز داروين بعنوان «حول أصل الأنواع والانتخاب الطبيعي، أو بقاء الأجناس المميزة في الصراع على الحياة».

Twitter: @ketab_n

الفصل الثلاثون

سمعت ألما بالطبع عن تشارلز داروين كما سمع الجميع. ففي ١٨٣٩ نشر داروين كتاب أسفار مشهوراً عن رحلته إلى جزر الغلاباغوس. وجعله هذا الكتاب، والذي هو قصة رائعة، مشهوراً في ذلك الوقت. كان أسلوب داروين سلساً، ونجح في توصيل استمتاعه بالعالم الطبيعي بنبرة مريحة وودية رحّب بها قرّاء من مختلف الخلفيات. تذكّرت ألما إعجابها بموهبة داروين، لأنها هي نفسها لم تتمكن أبداً من كتابة نثر مسل وديمقراطي كهذا.

وهي تفكر به، ما تذكرته ألما بشكل أكثر وضوحاً من كتاب رحلة سفينة البيغل هو وصف بطريق يسبح في الليل في المياه الفوسفورية، ترك خلفه، كما كتب داروين، «أثراً نارياً». أحبت ألما ذلك الوصف، وبقي معها في العشرين عاماً الأخيرة. حتى أنها تذكرت العبارة أثناء رحلتها إلى تاهيتي، في تلك الليلة العجيبة على سفينة إليوت، حين شاهدت فوسفوراً كهذا بنفسها. لكنها لم تتذكر أشياء أخرى من الكتاب، ولم يؤلف داروين عملاً مميزاً بعد ذلك. توقف عن السفر وتفرغ للأبحاث، ولدراسة رائعة ودقيقة للبرنقيل، إذا كانت ألما تتذكر بشكل صحيح. ولم تنظر إليه بأنه العالم الطبيعي الرئيسي في جيله.

لكن الآن، بعد قراءة مقالة حول هذا الكتاب الجديد المدهش، اكتشفت ألما أن تشارلز داروين، هاوي البرنقيل ومؤلف النثر الفني

Twitter: @ketab_n

الجميل، ومحب البطريق اللطيف، كان يخبئ أوراقه. وكما تبين، كان لديه شيء ضخم جداً يقدمه للعالم.

وضعت ألما الصحيفة وأراحت رأسها بين يديها.

أثر ناري، بالفعل.

* * *

استغرق الأمر أسبوعاً كي تحصل على نسخة من الكتاب من بريطانيا، وأمضتْ ألما تلك الأيام كما لو أنها مذهولة. شعرتْ بأنها لن تتمكن من إنتاج رد فعل ملائم على دورة الأحداث هذه إلى أن تقرأ ما قاله داروين كلمة بعد أخرى، بدلاً من قراءة ما قيل عنه.

في ٥ كانون الثاني/ يناير ـ في عيد ميلادها الستين ـ وصل الكتاب. لاذت ألما بمكتبها مع ما يكفي من الطعام والشراب كي تغذي نفسها عند الضرورة، وحبست نفسها في الداخل. ثم فتحت كتاب «أصل الأنواع» على الصفحة الأولى وبدأت بقراءة نثر داروين الممتع، ومن هناك دخلت في كهف عميق يصدح من كل جانب بأفكارها الخاصة.

لم يسرق نظريتها، لا حاجة لقول هذا. ولم تعبر هذه الفكرة السخيفة ذهنها للحظة، ذلك أن تشارلز داروين لم يسمع أبداً بألما ويتاكر، ولا يجب أن يسمع. لكن كمُستَكشفيْن يسعيان وراء الكنز الدفين نفسه من اتجاهين مختلفين، عثرت هي وداروين على صندوق الثروات نفسه. ما استنتجته من الطحالب، استنتجه من العصافير. ما لاحظتْه في حقل الصخور في وايت إيكر، رآه مكرراً في أرخبيل الغلاباغوس. ولم يكن حقلها الصخري سوى أرخبيل مصغّر ومنمنم. إن الجزيرة جزيرة في النهاية سواء كان عرضها ثلاثة أقدام أو ثلاثة أميال

وجميع الأحداث الأكثر درامية في العالم الطبيعي تحصل في ساحات معارك الجزر البرية التنافسية والصغيرة.

كان كتاباً جميلاً. ارتعشت وهي تقرأه، بين تحطم القلب والدفاع، بين الندم والإعجاب.

كتب داروين: «يولد أفراد أكثر من العدد الذي يستطيع البقاء على قيد الحياة. إن حبة واحدة في التوازن ستحدد أي فرد يعيش وأي فرد يموت».

كتب: «باختصار، نرى تكيفات جميلة في كل مكان، في جميع أجزاء العالم العضوي».

شعرت بجيشان عاطفي غامر ومعقد وكثيف بحيث اعتقدت أنه سيُغشى عليها. صدمها هذا كانفجار موقد. كانت مصيبة.

كانت مصيبة!

اجتاحت أفكار الخال ديز ذهنها، حتى وهي تواصل القراءة. كانت أفكارها عنه مستمرة ومتناقضة: لو عاش كي يرى هذا فقط! شكراً لله أنه لم يعش كي يرى هذا! كم سيكون فخوراً وغاضباً في الوقت نفسه! لن تسمع أبداً نهاية ذلك: «أترين، لقد طلبتُ منكِ أن تنشري البحث!» كان سيحتفي بهذا التأكيد العظيم المؤيد لعمل ابنة أخته، أيضاً. لم تعرف كيف تهضم هذا الظرف من دونه. اشتاقت إليه على نحو مريع. كانت ستعاني بكل سرور من توبيخه من أجل بعض راحته. وتمنت أيضاً لو أن والدها عاش كي يرى هذا. وأمبروس أيضاً. تمنت لو أنها نشرت بحثها. لم تعرف بماذا تفكر.

لماذا لم تنشر؟

لسعها السؤال، لكنها قرأت كتاب داروين العظيم، وكان عظيماً

Twitter: @ketab_n

بشكل واضح، وعرفت أن هذه النظرية تنتمي إليه، وأنها يجب أن تنتمي إليه. حتى إذا قالتها هي أولاً، فإنها لن تستطيع قولها بشكل أفضل. كان من المحتمل ألا يصغي إليها أحد لو أنها نشرت نظريتها، ليس لأنها امرأة، أو لأنها غير معروفة (رغم أن هذه العوامل لن تساعد)، لكن فقط لأنها لن تعرف كيف تقنع العالم بأسلوب جميل كأسلوب داروين. كان علمها تاماً، لكن كتابتها لم تكن تامة. كانت أطروحة ألما مؤلفة من ٤٠ صفحة، وكان كتاب «أصل الأنواع» يتجاوز الخمسمائة، لكنها كانت تعرف دون شك أن كتاب داروين هو الأكثر قراءة. وكان فنياً وحميمياً ولعوباً، ويُقرأ كرواية.

دعا نظريته «الانتخاب الطبيعي». وكان هذا مصطلحاً دقيقاً على نحو متألق، أبسط وأقوى من مصطلح ألما «نظرية التغير التنافسي». بنى داروين حجته حول الانتخاب الطبيعي بصبر، ولم يكن حاداً أو دفاعياً. قدم الانطباع بأنه جار القارئ اللطيف. كتب عن العالم الأسود والعنيف نفسه الذي فهمته ألما، عالم قتل وموت لا ينتهيان، لكن لغته لم تحتو على أثر عنف. لن تتجاسر ألما أبداً على التأليف بطريقة لطيفة كهذه؛ لن تعرف كيف. كان نثرها مطرقة أما نثر داروين فقد كان مزموراً. لم يجئ حاملاً سيفاً بل شمعة. فضلاً عن ذلك، أوحى في كل مكان من صفحاته بروح إله، دون أن يستحضر الخالق. استدعى شعوراً بالمعجزة من خلال تعابير شعرية حول قوة الزمن نفسه. كتب: «أي عدد لا يُحصى من الأجيال، لا يستطيع العقل أن يعرفه، لا بد أنه خلف بعضه في التدحرج الطويل للأعوام!» تعجب من كل «التشعبات الجميلة» للتغير. قدم الملاحظة الجميلة بأن أعاجيب التكيف جعلت جميع الكائنات على الكوكب ـ حتى الخنفساء الأكثر تواضعاً ـ تبدو ثمينة ومدهشة و«سامية».

سأل: «أية حدود يمكن أن توضع على هذه القوة؟».

Twitter: @ketab_n

كتب: «نرى وجه الطبيعة، متألقاً بالحبور..».

اختتم: «ثمة عظمة في وجهة النظر هذه في الحياة».

أنهت الكتاب وسمحت لنفسها بالبكاء.

لم يكن هناك شيء آخر تستطيع فعله أمام إنجاز رائع ومدمر كهذا سوى أن تبكي.

* * *

قرأ الجميع «أصل الأنواع» في ١٨٦٠، وتجادل الجميع حوله، لكن لم يقرأه أحد بدقة كما قرأته ألما ويتاكر. أبقت فمها مغلقاً أثناء كل مجادلات غرفة الاستقبال حول الانتخاب الطبيعي، حتى حين ناقشت أسرتها الهولندية الموضوع، لكنها أصغت لجميع الكلمات وحضرت جميع المحاضرات حول الموضوع وقرأت جميع المراجعات، وكل الهجمات والانتقادات. فضلاً عن ذلك، عادت إلى الكتاب على نحو متكرر، في روح سابرة ومعجبة. كانت عالمة، وأرادت أن تضع نظرية داروين تحت المجهر. أرادت أن تختبر نظريتها إزاءها.

وكان سؤالها الأساسي هو: كيف استطاع داروين أن يحل مشكلة برودنس؟

بزغ الجواب بسرعة: لم يحلّها.

لم يحلّها داروين لأنه تجنب، بتعقل تام، موضوع البشر في كتابه. كان كتاب «أصل الأنواع» عن الطبيعة، لكنه لم يكن عن الإنسان. كشف داروين نواياه في هذا الصدد. كتب عن نشوء العصافير والحمام وكلاب الصيد السلوقية الإيطالية وأحصنة السباق والبرنقيل، لكنه لم يذكر البشر أبداً. كتب: «إن الأقوياء والأصحاء والسعداء يعيشون ويتكاثرون»، لكنه لم يضف أبداً: «نحن أيضاً جزء من هذا النظام». سيستنتج القراء ذوو

Twitter: @ketab_n

الأذهان العلمية بأنفسهم، وكان داروين يعرف هذا جيداً. وسيصل القراء ذوو الأذهان الدينية إلى ذلك الاستنتاج، أيضاً، ويجدونه تدنيساً مزعجاً للمقدسات، لكن داروين لم يقل هذا في الواقع، هكذا، حمى نفسه. كان بوسعه الجلوس في منزله الريفي الهادئ في كينت آمناً من الغضب العام. أي أذى يمكن أن يوجد في نقاش بسيط للعصافير والبرنقيل؟

وبقدر ما كانت الأمر يهم ألما، شكلت هذه الاستراتيجية ضربة التألق الفريدة لدى داروين: لم يعالج المسألة كلها. ربما سيعالجها فيما بعد، لكنه لم يفعل هذا الآن، وليس هنا في خطابه الأولي الحريص عن النشوء. أذهل هذا الإدراك ألما، وصفعت تقريباً جبينها في تعجب واندهال؛ لم يخطر لها أبداً أن عالماً جيداً يحتاج إلى معالجة المسألة كلها فوراً، حول أي موضوع من أي نوع! من حيث الجوهر، فعل داروين ما حاول الخال ديز لأعوام إقناع ألما كي تفعله: نشر نظرية جميلة عن النشوء، لكن داخل حَقْلَيْ علم النبات وعلم الحيوان فقط، بالتالي ترك البشر كي يتجادلوا حول أصولهم.

تاقت إلى التحدث مع داروين. تمنت لو أنها تستطيع الاندفاع عبر القناة إلى إنكلترة، وتستقل قطاراً إلى كينت، وتقرع باب داروين، وتسأله: «كيف تفسّر أختي برودنس، وفكرة التضحية بالنفس، في سياق الأدلة المذهلة من أجل الصراع البيولوجي المتواصل؟» لكن الجميع أرادوا التحدث مع داروين في تلك الأيام، ولم تكن ألما تملك النفوذ الملائم كي ترتب لقاء مع عالم العصر الأكثر طلباً.

مع مرور الوقت، توصلت إلى فهم أوضح لتشارلز داروين، وصار جلياً أن السيد لم يكن مجادلاً. ربما لن يرحب بفرصة الجدل مع عالمة النباتات اللاوعائية الأميركية غير المعروفة، بأية حال. ربما كان سيبتسم لها بلطف ويقول: «لكن ما رأيك يا مدام؟» قبل أن يغلق الباب.

Twitter: @ketab_n

وبينما سعى العالم المتعلم كله كي يتخذ قراره حول داروين، بقي الرجل هادئاً على نحو مذهل. حين اتهم تشارلز هودج، في كلية اللاهوت في برنستون، تشارلز داروين بالإلحاد، لم يدافع داروين عن نفسه. وحين رفض اللورد كيلفن اعتناق النظرية (الأمر الذي ظنته ألما مؤسفاً، بما أن كيلفن سيكون نصيراً ذا مصداقية) امتنع داروين عن الاحتجاج. ولم يخرط أيضاً داعميه في ذلك. وحين قال عالم الفلك الكاثوليكي البارز جورج سيرل إن نظرية الانتخاب الطبيعي بدت له منطقية، ولا تهدد الكنيسة الكاثوليكية، لم يستجب داروين. وحين أعلن الكاهن والروائي الأنجليكاني تشارلز كنغسلي أنه هو أيضاً شعر بالراحة مع إله «خلق أشكالاً أولية قادرة على التطور الذاتي»، لم ينطق داروين بكلمة واحدة تتفق مع ذلك. وحين حاول عالم اللاهوت هنري درموند الدفاع عن النشوء بالاستناد إلى الكتاب المقدس، تجنب داروين النقاش بشكل كامل.

راقبت ألما فيما كان الكهنة الليبراليون يلوذون بالاستعارة (مدعين أن أيام الخلق السبعة، كما ذكرها الكتاب المقدس، كانت في الحقيقة سبعة دهور جيولوجية)، بينما احمرت أعين علماء الأحافير، مثل لويس أغاسيس، من الغضب، واتهموا داروين وداعميه بالردة الحقيرة. وخاض آخرون معارك داروين من أجله: توماس هكسلي الجبار في إنكلترة، والفصيح أسا غري في أميركا. لكن داروين حافظ على مسافة سيد إنكليزية من الجدل كله.

من ناحية أخرى، تعاملت ألما مع جميع الهجمات على الانتخاب الطبيعي بشكل شخصي، كما شعرت بالدعم من كل مناصرة له، إذ لم تكن فقط فكرة داروين هي التي تُفحص؛ بل كانت فكرتها أيضاً. وشعرت أحياناً أن الجدل يؤلمها ويثيرها أكثر من داروين نفسه. وكان

هذا ربما سبباً آخر جعله سفيراً أفضل للنظرية منها. لكنها شعرت أيضاً بالخيبة من تحفظ داروين. كانت تريد أحياناً أن تهزّه وتجعله يقاتل. لو كانت في موقعه لخرجت متمايلة مثل هنري ويتاكر. سينزف أنفها أثناء العملية لكنها ستجعل أنوفاً أخرى تنزف أيضاً. ستقاتل إلى النهاية كي تهزم نظرياتهم (لم تستطع التوقف عن التفكير بها إلا كنظرية «خاصة بهم»)... تمنت لو أنها نشرت النظرية، هذا هو الأمر. الأمر الذي لم تفعله بالطبع. لم تكن تملك الحق في القتال. بالتالي لم تقل أي شيء.

كان هذا أكثر إزعاجاً، وأكثر استحواذاً على الانتباه، وأكثر تشويشاً.

فضلاً عن ذلك، لم تستطع ألما إلا أن تلاحظ أنه لم يحلّ أحد بعد مشكلة برودنس بشكل مرض.

بقدر ما استطاعت أن ترى، كان ما يزال هناك ثغرة في النظرية.

كانت ما تزال ناقصة.

* * *

انشغلت ألما على نحو مفاجئ بشيء آخر فتنها بشكل متزايد. على نحو غامض وتدريجي، وفيما كان الجدل حول داروين محتدماً، اطلعت على أعمال شخص آخر في هوامشها الظلية. وكما كانت ألما تلمح، حين كانت صغيرة، شيئاً يتحرك على أطراف سلايد مجهرها وتصارع كي تركز عليه (مشتبهة، قبل أن تعرف ما هو، أنه يمكن أن يكون مهماً)، استطاعت الآن أن ترى شيئاً غريباً وربما مهماً يلوح في الزاوية. شيء ما خارج مكانه. شيء ما وُجد في قصة تشارلز داروين والانتخابَ الطبيعي ما كان يجب أن يوجد. عبثت بالمقابض ورفعت العتلات وركزت انتباهها الكامل على اللغز: هكذا عرفت عن رجل يدعى ألفرد رسل والاس.

Twitter: @ketab_n

شاهدت ألما أولاً اسم والاس، حين بدافع من الفضول، عادت إلى استقصاء الذِّكر الرسمي الأول للانتخاب الطبيعي، والذي كان في ١ تموز/يوليو، ١٨٥٨، في اجتماع لجمعية ليناوس في لندن. لم تطلع ألما على محاضر ذلك الاجتماع حين نُشرت بسبب فترة حدادها لكنها عادت الآن ودرست السجل بدقة. ولاحظت على الفور شيئاً خاصاً: قُدمت مقالة في ذلك اليوم، تماماً بعد التعريف بفرضية داروين. كان عنوان المقالة الأخرى «في ميل الأنواع إلى مغادرة النوع الرئيسي بشكل لانهائي»، وقد ألفها أ. ر. والاس.

بحثت ألما عن المقالة وقرأتها. قالت تماماً ما قاله داروين. وفي الحقيقة، قالت الشيء نفسه الذي قالتْه ألما في نظريتها عن التغير التنافسي. قال السيد والاس إن الحياة صراع متواصل من أجل البقاء، لا يوجد موارد كافية، أما السكان فيتحكم بهم المعتدون والمرض وندرة الطعام، والأضعف يموتون أولاً على الدوام. أضافت مقالة والاس أن أي تنوع في الأنواع سيتكاثر، بينما سينقرض الأقل نجاحاً. هكذا نشأت الأنواع وتحولت وازدهرت وتلاشت.

كانت المقالة قصيرة وبسيطة ومألوفة جداً بالنسبة لذهن ألما.

من هو هذا الشخص؟

لم تسمع به ألما أبداً من قبل. ولم يكن هذا مرجحاً، ذلك أنها بذلت جهوداً كي تعرف الجميع في عالم العلم. كتبت الرسائل إلى بعض الزملاء في بريطانيا سائلة: «من هو ألفرد رسل والاس؟ ماذا يقول الناس عنه؟ ماذا حدث في لندن في تموز/يوليو ١٨٥٨؟».

سحرتْها القصص التي سمعتْها أكثر. اكتشفتْ أن والاس وُلِدَ في مونماوث شير قرب ويلز لوالدين من الطبقة الوسطى مرّا فيما بعد في

Twitter: @ketab_n

أوقات عصيبة. وكشاب مغامر سافر إلى غابات مختلفة مع مرور الأعوام، وصار جامعاً لا يكل للحشرات والطيور والعينات. في ١٨٥٣ نشر والاس كتاباً بعنوان «أشجار نخيل الأمازون وفوائدها»، لم تقرأه ألما، وكانت تسافر بين هولندا وتاهيتي في ذلك الوقت. ومنذ ١٨٥٤ كان في أرخبيل المالاي، يدرس ضفادع الأشجار وما شابه ذلك.

هناك، في الغابات البعيدة لسيليبيس، أصيب والاس بالملاريا وكان على شفا الموت. في أوج حماه، وعلى شفا الموت، جاءته ومضة إلهام: نظرية في النشوء مستندة إلى الصراع من أجل البقاء. كتب نظريته في غضون بضع ساعات. ثم أرسل بالبريد نظريته التي كتبها بسرعة من سيليبيس إلى إنكلترة، إلى سيد يُدعى تشارلز داروين، التقى به في مناسبة ما، وأُعجب به كثيراً. وباحترام تام سأل والاس السيد داروين إن كانت نظرية النشوء تملك قيمة. كان سؤالاً بريئاً: لم يمتلك والاس طريقة كي يعرف أن داروين كان يشتغل على هذه الفكرة نفسها منذ ١٨٤٠ تقريباً. وفي الحقيقة كان داروين قد ألف ألفي صفحة مما سيصبح كتاب «أصل الأنواع»، لكنه لم يُطْلع على عمله أحداً سوى صديقه جوزف هوكر، من الحدائق الملكية النباتية في كيو. وكان هوكر يشجع داروين لسنوات كي ينشر لكن داروين، وفي قرارٍ فهمته ألما جيداً، تراجع بسبب فقدان الثقة أو اليقين.

الآن، وفي إحدى التزامنات العجيبة في تاريخ العلم، بدا كأن فكرة داروين الجميلة والأصيلة، التي كان يصقلها سراً لعقدين تقريباً، عبّر عنها، كلمة كلمة تقريباً، عالم طبيعي ذاتي التعليم، يعاني من الملاريا، عمره ٣٥ سنة، وغير معروف تقريباً، في الجانب الآخر من الكوكب.

أفادت مصادر ألما في لندن أن داروين شعر بالاضطرار، نتيجة

Twitter: @ketab_n

رسالة والاس، إلى إعلان نظريته في الانتخاب الطبيعي، خائفاً من أن يفقد ملكية الفكرة كلها لو نشر والاس قبله.

واعتقدت ألما، على نحو لا يخلو من مفارقة، أن داروين خاف من أن يتم التفوق عليه في فكرة التنافس. وقرر داروين، انطلاقاً من لباقته كسيد أن تُقدم رسالة والاس في جمعية ليناوس في ١ تموز، ١٨٥٨، إلى جانب بحثه حول الانتخاب الطبيعي، بينما في الوقت نفسه قدم الأدلة أن الفرضية تنتمي إليه أولاً. أعقب ذلك بسرعة نشر «أصل الأنواع»، في أقل من عام ونصف. وأوحى ذلك الاستعجال في النشر لألما أن داروين خاف، كما يجب أن يفعل. كان والاس يقترب. وكما يفعل الكثير من الحيوانات والنباتات المهددة بالدمار، أُجبر تشارلز داروين على التحرك، وعلى القيام بالفعل، وعلى التكيف. تذكرت ألما أنها هي كتبت في نسختها من النظرية: «كلما كانت الأزمة أكبر، كان النشوء أسرع على ما يبدو».

بعد أن راجعت هذه القصة الفائقة للعادة، لم يكن هناك شك في ذهن ألما: كان الانتخاب الطبيعي هو فكرة داروين أولاً. لكنها لم تكن خاصة به. كان هناك ألما، نعم، لكن كان هناك شخص آخر أيضاً. وكانت ألما أكثر من مندهشة حين عرفت هذا. بدا هذا مستحيلاً على المستوى الفكري. لكنه سبب لها أيضاً راحة غريبة، أن تعرف أن رسل والاس ما يزال موجوداً. استمدت الدفء من معرفة أنها لم تكن وحيدة في هذا. كان لديها زميل. كانت ويتاكر ووالاس الرفيقين المجهولين، رغم أن والاس بالطبع لم يكن يمتلك فكرة أنهما رفيقان مجهولان، لأنها كانت مجهولة أكثر منه. لكن ألما عرفت ذلك. شعرت به هناك، شقيقها في العقل، الغريب والإعجازي والأصغر. لو كانت أكثر تديناً، لشكرت الله على ألفرد والاس، لأن ذلك الإحساس الخفيف بالقرابة

Twitter: @ketab_n

هو الذي ساعدها على الحركة برشاقة وأمان، دون استياء ويأس أو عار منهكين، عبر كل هذا الاضطراب الصاخب الذي يحيط بتشارلز داروين ونظريته العملاقة المتجددة والمغيّرة للعالم.

سينتمي داروين إلى التاريخ، نعم، لكن ألما كانت تملك والاس.

وقدم لها هذا راحة كافية الآن.

* * *

مرت ستينيات القرن التاسع عشر. كانت هولندا هادئة، بينما كانت حرب جنونية تمزق الولايات المتحدة. لم تحدث أشياء مهمة في الخطاب العلمي بالنسبة لألما في تلك الأعوام الرهيبة، في ظل الأنباء القادمة من الوطن عن قتل مروّع لا يتوقف. فقدت برودنس ابنها الأكبر، وكان ضابطاً، في أنتييتام. ومات اثنان من أحفادها الشبان من أمراض المعسكر حتى قبل أن يشاهدا ساحة الوغى. حاربت برودنس طيلة حياتها لإلغاء العبودية، وقد أُلغيتْ الآن، لكن ثلاثة من أفراد عائلتها قُتلوا في المعركة. كتبت لألما: «أغتبط ثم أحزن. بعد ذلك أحزن أكثر». تساءلتْ ألما ثانية إن كان يجب أن تعود إلى الوطن، وعرضت ذلك، لكن أختها شجعتها على البقاء في هولندا. كتبت برودنس: «إن أمتنا مأساوية الآن جداً بالنسبة للزوار. ابْقي حيث العالم أكثر هدوءاً وباركي ذلك الهدوء».

ظلت مدرسة برودنس مفتوحة نوعاً ما أثناء الحرب، واستقبلت المزيد من الأطفال أثناء الصراع. انتهت الحرب. اغتيل الرئيس. وتماسكَ الاتحاد. وأُكملتْ سكة الحديد الفولاذية الجبارة العابرة للقارة التي اعتقدت ألما أنها ستوحد الولايات المتحدة بشكل ما الآن. بدت الولايات المتحدة في تلك الأيام، من مسافة ألما الآمنة، مكانَ نموٍّ

Twitter: @ketab_n

وحشيٍّ لا يمكن التحكم به. كانت سعيدة أنها ليست هناك. كانت أميركا فترةَ حياةٍ في الماضي؛ ولم تعتقد أنها ستعرف المكان بعد الآن، ولن يعرفها. أحبت حياتها كامرأة هولندية وكباحثة وكشخص من عائلة فان ديفندر. قرأت جميع المجلات العلمية، ونشرت في الكثير منها. وأجرت محادثات حيوية مع زملائها، أثناء احتساء القهوة وتناول الفطائر. وكانت الهورتس تمنحها كل عام إجازة شهر تقضيها في جمع الطحالب من أنحاء القارة. صارت تعرف جبال الألب جيداً، وأحبتها، وهي تسير عبر جمالها بعصاها وعلب جمعها. صارت تعرف غابات السرخس الرطبة لألمانيا، أيضاً.

صارت امرأة عجوزاً راضية جداً.

وصلت إلى سبعينيات القرن التاسع عشر. في أمستردام المسالمة دخلت ألما في العقد الثامن من عمرها، لكنها بقيت ملتزمة بعملها. واجهت صعوبة في التجول، لكنها اعتنت بكهف طحالبها، وألقت محاضرات بين فينة وأخرى في الهورتس حول علم النباتات اللاوعائية. بدأ بصرها يضعف، وتضايقت من أنها لن تعود قادرة على تحديد الطحالب بعد الآن. تحسّباً لهذه المسألة المحتمة المحزنة، تمرنت على العمل مع طحالبها في الظلام، كي تتعلم تحديدها باللمس. صارت خبيرة بالمسألة. لم تكن بحاجة إلى مشاهدة الطحالب إلى الأبد، لكنها تريد أن تعرفها دوماً. ولحسن الحظ، كانت تتلقى مساعدة ممتازة في عملها الآن من ابنة خالها المفضلة مارغريت، التي دعتها بمحبة ميمي، والتي عبّرت عن ولع فطري بالطحالب، وصارت في الحال طالبتها. فبعد أن أنهت الفتاة دراساتها جاءت كي تعمل مع ألما في الهورتس؛ وبمساعدة ميمي تمكنت ألما من إكمال كتابها الشامل المؤلف من مجلدين «طحالب شمال أوربا»، الذي تم تلقيه جيداً. كان المجلدان

Twitter: @ketab_n

يحتويان على رسوم توضيحية جميلة، لكن الفنان لم يكن أمبروس بايك.

لا أحد كان أمبروس بايك. ولا أحد سيكون.

راقبت ألما فيما كان تشارلز داروين يصبح على نحو متزايد الرجل العظيم للعلم. لم تحسده على نجاحه؛ فقد استحق المديح، واستحق لقبه بجدارة. واصل عمله على النشوء، الذي سرها رؤيته، بمزجه المعتاد بين التفوق والتعقل. وفي ١٨٧١، نشر الكتاب الشامل «نشأة الإنسان»، الذي طبق فيه أخيراً مبادئه في الانتخاب الطبيعي على البشر. كان حكيماً لأنه انتظر طيلة هذا الوقت، كما اعتقدت ألما. عند هذه النقطة، كان قرار الكتاب الأخير (نعم، نحن قردة) استنتاجاً من الماضي. ففي الاثني عشر عاماً التي أعقبت نشر «أصل الأنواع»، كان العلم يجادل ويتوقع «مسألة القرد». وحدثت الاصطفافات وكُتبت الأبحاث، وقُدمت ردود مفنِّدة وحجج لانهائية. بدا تقريباً كما لو أن داروين انتظر العالم كي يتكيف مع الفكرة المقلقة بأن الله خلق البشرية من التراب، قبل أن يعلن حكمه الهادئ والمنهجي والمناقَش جيداً حول هذه المسألة. قرأت ألما مرة أخرى الكتاب بتمعن كمثل أي شخص، وأعجبت به كثيراً.

لكنها لم تر حلاً لمشكلة برودنس.

لم تخبر أحداً عن نظريتها في النشوء، وعن صلتها الخفيفة والضعيفة بداروين. كانت ما تزال أكثر اهتماماً بشقيقها الظلي، ألفرد رسل والاس. راقبت مهنته بدقة عبر الأعوام أيضاً، شاعرة بالفخر من نجاحاته، وشاعرة بالألم من إخفاقاته كما لو أنها هو. أولاً، بدا وكأن والاس سيكون إلى الأبد حاشية داروين، أو خادمه، حتى أنه أمضى جزءاً من ستينيات القرن التاسع عشر وهو يؤلف الأبحاث التي تدافع عن

Twitter: @ketab_n

الانتخاب الطبيعي، وبالتوسع، عن داروين. لكن والاس قام بانعطافة مفاجأة آنذاك. ففي منتصف ذلك العقد اكتشف الروحانية والتنويم المغناطيسي، وبدأ باستكشاف ما دعاه الأشخاص الأكثر احتراماً «الفائق للطبيعة». استطاعت ألما تقريباً سماع تشارلز داروين يئن من هذا التطور عبر القناة، لأن اسمي الرجلين سيقترنان إلى الأبد، وانطلق والاس في تحليق خيالي سيء السمعة وغير علمي. ربما كانت حقيقة أن والاس حضر جلسات استحضار الأرواح وقراءة الكف، وأقسم أنه تحدث مع الموتى، قابلة للصفح، لكن حقيقة أنه نشر بحثاً بعنوان مثل «المظهر العلمي للفائق للطبيعة» لم تكن قابلة للصفح.

أحبت ألما والاس أكثر من أجل أفكاره غير الأرثوذكسية، وحججه الهيامية الجريئة. صارت حياتها أكثر هدوءاً ومحدودية، لكنها استقت متعة من مراقبة والاس، المفكر البري غير المُسْرَج، وهو يسبب فوضى أكاديمية مدمرة في اتجاهات كثيرة في الوقت نفسه. لم يكن يمتلك وقار داروين الأرستقراطي، وكان يطفح بالإلهامات والإلهاءات والأفكار نصف الناضجة. ولم يتمسك بفكرة واحدة لفترة طويلة، منتقلاً بدلاً من ذلك من نزوة إلى أخرى.

في أكثر أعماله الفاتنة تجاوزاً للحدود، ذكّر والاس ألما بأمبروس، مما جعلها أكثر ولعاً به. كان والاس حالماً مثل أمبروس. وقف بقوة إلى جانب المعجزات. قال إنه لا شيء أكثر أهمية من استقصاء ما بدا أنه يتحدى قوانين الطبيعة. كان كل شيء معجزة إلى أن حللناه. كتب والاس أن الرجل الأول الذي شاهد سمكة طائرة ربما اعتقد أنه كان يشاهد معجزة، وأول رجل حدث ووصف سمكة طائرة دُعي دون شك كاذباً. أحبته ألما من أجل حجج لعوب وعنيدة كهذه. كان سينجح حول طاولة العشاء في وايت إيكر، كما فكرت دوماً.

لم يهمل والاس بشكل كامل استكشافاته العلمية الأكثر شرعية. ففي

Twitter: @ketab_n

١٨٧٦ نشر كتابه العظيم الخاص «التوزع الجغرافي للحيوانات»، الذي احتفي به على الفور بأنه أدق كتاب عن الجغرافيا الحيوانية تم تأليفه حتى الآن. كان كتاباً مذهلاً. قرأت ابنة خال ألما الشابة ميمي معظمه لها، ذلك أن بصر ألما ضعف الآن، واستمتعت ألما بأفكار والاس كثيراً بحيث أنه أثناء مقاطع معينة في الكتاب، كانت تصيح مبتهجة بصوت مرتفع أحياناً.

تتوقف ميمي عن القراءة وتقول: «إن ألفرد راسل والاس يمتعك كثيراً، أليس كذلك، يا عمتي؟».

ابتسمت ألما: «إنه أمير العلم».

دمّر والاس على الفور سمعته المُنقذة بانخراط متزايد في السياسة الراديكالية، مقاتلاً بصخب من أجل الإصلاح الزراعي وحق النساء في الاقتراع وحقوق الفقراء والمعدمين. ولم يستطع الامتناع عن الانخراط في الجدل. حاول الأصدقاء والمعجبون في المناصب العليا أن يؤمنوا له وظائف مستقرة في مؤسسات جيدة، لكن والاس صار معروفاً كمتطرف بحيث أن قلة ستجازف بتوظيفه. قلقت ألما على وضعه المالي. أحست أنه غير حكيم في التعامل مع نقوده. وبكل الطرق، رفض والاس أن يلعب دور السيد الإنكليزي الجيد، ربما لأنه لم يكن في الحقيقة سيداً إنكليزياً جيداً، بل بالأحرى مناضلاً من الطبقة العاملة لن يفكر أبداً قبل أن يتحدث، ولا يتوقف أبداً قبل أن ينشر. سببت أهواؤه كمية معينة من الفوضى، والتصق به الجدل كغلاف ثمرة لكن ألما لم ترده أن يتراجع. أحبت أن تشاهده يثير العالم.

«أخبرهم يا ولدي»، كانت ألما تتمتم، كلما سمعت بفضيحته الأخيرة. «أخبرهم!».

Twitter: @ketab_n

لم ينطق داروين بكلمة واحدة سيئة علناً عن والاس، ولا والاس عن داروين، لكن ألما تساءلت دوماً ماذا كان الرجلان، المتآلفان والمختلفان في الميول والأسلوب، يفكران فعلاً ببعضهما بعضاً. تمت الإجابة على سؤالها في نيسان/ أبريل ١٨٨٢، حين توفي تشارلز داروين وخدم ألفرد رسل والاس، وفقاً لإرشادات داروين المكتوبة، كحامل نعش في جنازة الرجل العظيم.

أدركت أنهما أحبا بعضهما بعضاً، لأنهما عرفا بعضهما بعضاً.

بتلك الفكرة، شعرت ألما بأنها وحيدة على نحو عميق، للمرة الأولى طيلة أعوام كثيرة.

* * *

أخافتْ وفاة داروين ألما، التي كانت في الثانية والثمانين من عمرها، ويدب فيها الضعف بنحو متزايد. كان في الثالثة والسبعين فحسب! لم تتوقع أبداً أن تعمّر أكثر منه. استمر إحساسها بالذعر عدة شهور بعد وفاة داروين. بدا وكأن قطعة من تاريخها الخاص ماتت معه، ولا أحد سيعرف هذا. لم يعرف أحد هذا من قبل، بالطبع، لكن صلة فُقدت دون شك، صلة عنت الكثير جداً لها. في الحال ستموت ألما، وحينها ستبقى هناك فقط صلة واحدة: الشاب والاس، الذي كان يقترب آنذاك من الستين، وربما لم يعد شاباً. لو تستمر الأشياء كما هي دوماً! ستموت دون أن تعرف والاس أبداً، كما لم تعرف داروين أبداً. أشعرها هذا بحزن لا يُحتمل، إن هذا يمكن أن يحدث على نحو مفاجئ. لا تستطيع أن تجعله يحدث.

فكرت ألما بهذا. فكرت به لعدة شهور. أخيراً، نفذت الفعل. طلبت من ميمي أن تكتب رسالة ظريفة على ورقة رسمية وتطلب من ألفرد

Twitter: @ketab_n

رسل والاس أن يقبل دعوة للتحدث عن موضوع الانتخاب الطبيعي في حديقة هورتس النباتية في أمستردام في ربيع ١٨٨٣. وعدت بدفع مبلغ ٩٠٠ جنيه استرليني كمنحة فخرية مقابل وقت السيد وتعبه، وكل نفقات سفره، التي ستغطيها الهورتس بشكل طبيعي. اعترضت ميمي على الأجر، فقد كان أجر عدة سنوات بالنسبة لبعض الأشخاص، لكن ألما أجابت بهدوء: «سأدفع كل شيء من جيبي، وفضلاً عن ذلك يحتاج السيد والاس إلى النقود».

أعلمت الرسالة أيضاً السيد والاس أنه أكثر من مرحب به كي يمكث في منزل عائلة فان ديفندر المريح، الذي يقع خارج الحدائق، في أجمل حي في أمستردام. سيكون هناك الكثير من علماء النبات الشبان في المكان وسيسعدهم أن يطلعوا عالم البيولوجيا الشهير على كل متع الهورتس، والمدينة. سيكون شرفاً للحدائق أن تستقبل ضيفاً مميزاً كهذا. وقّعت ألما الرسالة، «المخلصة، الآنسة ألما ويتاكر - القيّمة على الطحالب».

وصل جواب سريع من زوجة والاس، آني (كان والدها هو العظيم ويليم ميتين، عالم كيمياء الأدوية وعالم نباتات لاوعائية من المرتبة الأولى وقد أثيرت ألما حين عرفت ذلك). كتبت السيدة والاس أن زوجها يسرّه المجيء إلى أمستردام. وسيصل في ١٩ آذار/ مارس، ١٨٨٣، ويبقى أسبوعين. وأضافت أنهم ممتنون لهذه الدعوة، ومدحوا المنحة الفخرية بأنها كريمة جداً، بالفعل. ولمّحت الرسالة إلى أن العرض وصل في الوقت المناسب، وكذلك النقود.

Twitter: @ketab_n

الفصل الواحد والثلاثون

كان طويلاً جداً!

لم تتوقع ألما هذا. كان ألفرد رسل والاس طويلاً وضامراً كأمبروس. ولم يكن بعيداً عن السن الذي سيكون فيه أمبروس أيضاً، لو أن أمبروس بقي على قيد الحياة، في الستين من عمره، وفي صحة جيدة، ولو كان محنياً قليلاً. كان هذا رجلاً من الواضح أنه أنفق سنوات كثيرة منحنياً فوق المجاهر، يحدق في العيّنات. وكان شائب الشعر، بلحية كثيفة، وكان على ألما أن تقاوم الدافع كي تمد يدها وتلمس وجهه برؤوس أصابعها. لم يعد بوسعها أن تبصر جيداً، وكانت تريد أن تعرف ملامحه على نحو أفضل. لكن هذا سيكون وقحاً وصادماً، وهكذا كبحتْ نفسها. وحالما التقت به شعرت بأنها ترحب بأقدم صديق لها في العالم.

في بداية زيارته كان هناك حركة ونشاط بحيث أن ألما ضاعت قليلاً في الحشد. صحيح أنها امرأة ضخمة، لكنها عجوز، والنساء العجائز يُدفعْن جانباً في التجمعات الكبيرة، حتى لو كن هن من يسدّد فاتورة الجلسة. كان هناك كثيرون رغبوا باللقاء مع عالم البيولوجيا النشوئية العظيم، وأبناء خال ألما، الذين كانوا كلهم طلاب علم شباناً ومتحمسين، شغلوا الكثير من انتباهه، محتشدين حوله كرجال حول نساء جميلات. كان والاس لبقاً جداً وودياً، خاصة مع الأصغر سناً.

Twitter: @ketab_n

وسمح لهم بالتباهي بمشاريعهم الخاصة، وأن ينشدوا نصيحته. ورغبوا بشكل طبيعي بأن يرافقوه في أمستردام وهكذا كانت عدة أيام مشغولة بالسياحة السخيفة والكبرياء الأهلي.

ثم ألقى كلمته في منزل النخيل، وجاءت الأسئلة السابرة بعدها من الباحثين والصحفيين والشخصيات المحترمة، وتبع ذلك العشاء الضروري الطويل والممل باللباس الرسمي. وتحدث والاس جيداً، في كل من المحاضرة والعشاء. وحاول تجنب الجدل، مجيباً على كل الأسئلة المملة وغير العميقة عن الانتخاب الطبيعي بصبر شامل. لا بد أن زوجته دربته على أن يكون في أفضل سلوك لديه، كما اعتقدت ألما. يا لك من فتاة جيدة يا آني!

انتظرت ألما. لم تكن شخصاً يخاف الانتظار.

مع مرور الوقت، تلاشت الجدّة التي أحاطت بزيارة والاس، وقلّ الحشد الصاخب. وانتقل الشبان إلى إثاراتهم، وتمكنت ألما من الجلوس إلى جانب ضيفها في عدة وجبات فطور متتالية. كانت تعرفه بشكل أفضل من أي شخص آخر، وكانت تعرف أنه لا يرغب بالحديث عن الانتخاب الطبيعي إلى الأبد. خرطته بدلاً من ذلك في موضوعات تعرف أنها عزيزة على قلبه: محاكاة الفراشة، أصناف الخنافس، قراءة الذهن، النزعة النباتية، شرور الثروة الموروثة، خططه لإلغاء سوق الأوراق المالية، خطته لإنهاء الحروب كلها، دفاعه عن الحكم الذاتي الهندي والأيرلندي، اقتراحه بأن تلتمس السلطات البريطانية الصفح من العالم على جرائم إمبراطوريتهم الوحشية، رغبته ببناء نموذج مصغر للأرض قطره أربعمائة قدم يستطيع الناس أن يدوروا حوله في منطاد عملاق لأهداف تعليمية... هذه الأنواع من الأشياء.

Twitter: @ketab_n

بتعبير آخر، شعر بالاسترخاء مع ألما، وهي شعرت بذلك معه. حين يكون حراً بشكل كامل يصبح محدّثاً ممتعاً، كما تخيلت دوماً: يرغب بالتحدث عن أي نوع من الموضوعات والأهواء واسعة النطاق. لم تمتع نفسها بهذا القدر لسنوات. ولأنه كان لطيفاً وجذاباً، سألها عن حياتها أيضاً ولم يتحدث فقط عن نفسه. وهكذا وجدت ألما نفسها تروي لوالاس عن طفولتها في وايت إيكر، عن جمع عينات من النباتات حين كانت في الخامسة من عمرها على ظهر مهر مكسو بالحرير، وعن والديها الغرائبيين ومحادثات طاولة عشائهما المتحدية، وعن قصص والدها عن الحوريات والقبطان كوك، وعن المكتبة الفائقة للعادة في العزبة، وعن تعليمها الكلاسيكي، وعن سنوات دراستها لأحواض الطحالب في فيلادلفيا، وعن أختها الجريئة في دعوتها لإلغاء العبودية، وعن مغامراتها في تاهيتي. وعلى نحو لا يصدق ـ ورغم أنها لم تتحدث مع أي شخص عن أمبروس لعقود ـ أخبرته عن زوجها المميز، الذي رسم نباتات السحلبية بشكل أجمل مما فعله أي شخص آخر سبق أن عاش، والذي توفي في البحار الجنوبية.

قال والاس: «أية حياة قد عشت!».

كان على ألما أن تنظر بعيداً حين قال هذا. كان أول شخص قال هكذا. شعرت بالخجل يغمرها، وأيضاً بالإلحاح مرة أخرى كي تضع يديها على وجهه وتتحسس ملامحه، كما كانت تتحسس الطحالب في تلك الأيام، حافظة عن ظهر قلب بأصابعها ما لم تعد تستطيع أن تفتتن به بعينيها.

* * *

لم تخطط متى تخبره، أو ماذا تخبره. ولم تخطط حتى كي تخبره.

Twitter: @ketab_n

وفي الأيام الأخيرة من زيارته، صارت تفكر أنها على الأرجح لن تخبره. وبصدق، كان يكفي فقط اللقاء مع هذا الرجل، وردم الفجوة التي فصلت بينهما كل تلك الأعوام.

لكن في بعد ظهره الأخير في أمستردام، طلب والاس إن كانت ألما تود بأن تريه شخصياً كهف الطحالب وهكذا أخذته إلى هناك. كان صبوراً في سيره عبر الحدائق متماشياً مع خطوها البطيء المؤلم.

قالت ألما: «أعتذر أنني بطيئة هكذا، كان أبي يسميني الجمل العربي، لكن في هذه الأيام أشعر بالإنهاك بعد عشر خطوات».

قال: «إذاً يجب أن نستريح بعد كل عشر خطوات». وأمسكها من ذراعها كي يساعدها على السير.

كان بعد ظهر يوم ثلاثاء، تساقط مطر خفيف، وهكذا فقد كانت حدائق الهورتس مهجورة تقريباً. امتلكت ألما ووالاس كهف الطحالب لهما وحدهما. أخذته من صخرة إلى أخرى، وأرته طحالب القارات كلها وشرحت كيف نسجتْها مع بعضها بعضاً في هذا المكان. تعجب من الأمر، كما سيفعل أي شخص يحب الدنيا.

قال: «إن والد زوجتي سيشعر بمتعة عظيمة إذا شاهد هذا».

قالت ألما: «أعرف. لقد رغبت دوماً أن أدعو السيد ميتين إلى هنا. ربما سيزورنا في أحد الأيام».

قال وهو يجلس على المقعد في منتصف المعرض: «بالنسبة لي، أعتقد أنني سأجيء إلى هنا كل يوم، لو كان بوسعي».

قالت ألما، وهي تجلس قربه على المقعد: «أنا أجيء إلى هنا كل يوم، على ركبتي وملقط في يدي».

قال: «أي إرث قد أبدعت!».

Twitter: @ketab_n

«هذا مديح لطيف منك يا سيد والاس، من شخص أبدع ميراثاً حقيقياً».

«آه»، قال رافضاً الإطراء.

جلسا في صمت ممتع لوهلة. فكرت ألما بالمرة الأولى التي كانت فيها وحيدة مع تومورو مورننغ في تاهيتي. فكرت كيف قالت له: «أنت وأنا، كما أعتقد، مرتبطان على نحو وثيق بمصير بعضنا بعضاً أكثر مما تظن». رغبت بأن تقول الشيء نفسه الآن لألفرد رسل والاس، لكنها لم تكن متأكدة إن كان صواباً فعل هذا. لا تريده أن يفكر بأنها تتباهى بنظريتها عن النشوء، أو ـ في الأسوأ ـ أنها تكذب. أو، الأسوأ من هذا كله، أنها تتحدى إرثه، أو إرث داروين. ربما من الأفضل عدم قول أي شيء.

لكنه تحدث عندئذ. قال: «آنسة ويتاكر، يجب أن أقول لك إنني استمتعت بشكل كامل بهذه الأيام القليلة الأخيرة معك».

قالت: «شكراً لك. استمتعتُ أنا بحضورك أكثر مما يمكن أن تتصور».

قال: «عبّرت عن كرمك الشديد بإصغائك لأفكاري عن أي شيء وكل شيء. لا يوجد كثير من أمثالك. اكتشفتُ في الحياة أنني حين أتحدث عن البيولوجيا يقارنونني بنيوتن. لكن حين أتحدث عن عالم الروح يدعونني معتوهاً وصبيانياً وضعيف الذهن».

قالت ألما وربتت على يده بحماية: «لا تصغ إليهم. لم أحب أبداً إهانتهم لك».

صمت لوهلة ثم قال: «هل يمكن أن أسألك شيئاً يا آنسة ويتاكر؟».

هزت رأسها.

Twitter: @ketab_n

«هل يمكن أن أسألك كيف تعرفين الكثير عني؟ لا أشعر بالإساءة، على العكس، أشعر بالإطراء، لكنني لا أفهم هذا. إن ميدانك هو النباتات اللاوعائية، وهذا ليس حقلي. ولستِ روحانية أو مهتمة بالتنويم المغناطيسي. لكنك تعرفين كل مؤلفاتي في جميع الميادين، وتعرفين نقادي أيضاً. تعرفين حتى من هو والد زوجتي. لماذا هذا؟ لا أفهم..».

توقف فجأة، خائفاً، كما بدا، من أنه كان مفتقداً للباقة. لم ترده أن يعتقد أنه كان وقحاً مع امرأة عجوز. لم ترده أن يفكر أيضاً أنها عجوز معتوهة طائشة باهتمام غير لائق. وإذا كانت هذه هي الحالة، ماذا بوسعها أن تفعل؟

أخبرتْهُ كلَّ شيء.

* * *

حين انتهتْ من الكلام أخيراً، صمت طويلاً، ثم سأل: «هل ما يزال البحث لديك؟».

قالت: «نعم».

سأل: «هل يمكن أن أقرأه؟».

ببطء، وبدون مزيد من التحدث، سارا عبر البوابة الخلفية للهورتس، إلى مكتب ألما. فتحت الباب، متنفسة بصعوبة على الدرج، ودعت السيد والاس إلى الجلوس خلف طاولتها. من تحت الصوفا في الزاوية، استعادت حقيبة جلدية صغيرة يعلوها الغبار، مهترأة كما لو أنها جابت العالم عدة مرات، وبالفعل فعلت هذا، وفتحتها. في داخلها كان الشيء الوحيد: وثيقة من أربعين صفحة، مكتوبة باليد، وملفوفة برفق بقماش من الفانيلا، كرضيع.

حملته ألما إلى والاس، ثم جلست بارتياح على الديوان فيما كان

Twitter: @ketab_n

يقرأه. استغرق الأمر وقتاً طويلاً. لا بد أنها أغفت، كما تفعل هذا غالباً في هذه الأيام، وفي اللحظات الأكثر غرابة، لأنها أجفلت مستيقظة من صوته فيما بعد.

سألها: «متى قلت إنك ألّفت هذا يا آنسة ويتاكر؟».

حكت عينيها وقالت: «التاريخ في الخلف. أضفتُ إليه أشياء فيما بعد، أفكاراً، وتلك الإضافات مصنفة في هذا المكتب في مكان ما. لكن ما تمسك به بين يديك هو الأصل الذي كتبته في ١٨٥٤».

فكر بهذا.

قال أخيراً: «وهكذا داروين ما يزال الأول».

قالت ألما: «بالطبع. كان داروين الأول حتى الآن، والأكثر عمقاً. لم يكن هناك أي شك بهذا. من فضلك افهمني يا سيد والاس فأنا لا أدعي الزعم..».

قال والاس: «لكنك توصّلتِ إلى هذه الفكرة قبلي. هَزَمَنا داروين كلينا لكنك توصلت إلى الفكرة قبلي بأربع سنوات».

ترددت ألما: «حسناً... هذا ما لا أتمنى قوله».

قال، وصار صوته متألقاً من الإثارة والفهم: «لكن يا آنسة ويتاكر هذا يعني أنه كان هناك ثلاثة منا!».

للحظة، لم تستطع ألما التنفس.

انتقلت في لحظة إلى وايت إيكر، إلى يوم خريفي رائع في ١٨١٩، اليوم الذي التقت فيه هي وبرودنس لأول مرة بريتا سنو. كُنَّ صغاراً، والسماء زرقاء، ولم يكن الحب قد جرح أيّاً منهنَّ بشكل محزن. قالت

Twitter: @ketab_n

ريتا ناظرة إلى ألما بعينيها المتوهجتين والحيتين: «وهكذا الآن ثمة ثلاثة منا! يا له من حظ!».

ماذا كانت الأغنية التي اخترعتها ريتا لهما؟

نحن كمان، شوكة، وملعقة،

نرقص مع القمر،

إذا أردتم أن تسرقوا منا قبلة،

من الأفضل أن تسرقوا واحدة في الحال!

حين لم تستجب ألما حالاً، جاء والاس وجلس قربها.

قال بصوت أكثر هدوءاً: «آنسة ويتاكر، هل تفهمين؟ كان هناك ثلاثتنا».

«نعم يا سيد والاس، يبدو كأنه كان».

«هذا تزامن فائق للعادة».

قالت: «ظننتُ هذا دوماً».

حدق بالجدار لوهلة، وصمت لفترة طويلة أخرى.

سأل أخيراً: «من يعرف أيضاً عن هذا؟ من يستطيع أن يشهد معك؟».

«فقط خالي ديز».

«وأين خالك ديز؟».

«توفي»، قالت ألما، ولم تستطع مقاومة الضحك. هكذا كان ديز يريدها أن تقولها. آه كم هي مشتاقة لذلك العجوز الهولندي البدين. آه كما كان سيحب هذه اللحظة.

سألها والاس: «لكن لماذا لم تنشري أبداً».

Twitter: @ketab_n

«لأن البحث لم يكن جيداً بما يكفي».

«هذا هراء! كل شيء فيه. النظرية كلها فيه. إن بحثك أكثر تطوراً من الرسالة السخيفة المحمومة التي كتبتها لداروين في ١٨٥٨. يجب أن ننشره الآن».

قالت ألما: «كلا، لا حاجة للنشر. في الواقع لا أحتاج إلى هذا. يكفيني ما قلته لتوك، أنه كان هناك ثلاثتنا. هذا كاف لي. لقد جعلتَ امرأة متقدمة في السن سعيدة».

تابع: «لكننا نستطيع النشر. أستطيع أن أقدمها لك..».

وضعت يدها على يده وقالت بقوة: «كلا. أطلب منك أن تثق بي. ليس هذا ضرورياً».

جلسا صامتين لوهلة.

«هل يمكن أن أسألك على الأقل لماذا شعرتِ بأن البحث لا يستحق النشر في ١٨٥٤؟» قال والاس محطِّماً الصمت.

«لم أنشره لأنني اعتقدتُ أن هناك شيئاً مفقوداً في النظرية، وسأخبرك يا سيد والاس، ما أزال أعتقد أن هناك شيئاً مفقوداً في النظرية».

«ما هو بالضبط؟».

قالت: «شرحٌ نشوئيّ مقنع للإيثار البشري والتضحية بالنفس».

تساءلت إن كان يجب عليها أن توضح. لم تعرف إن كانت تملك الطاقة كي تغوص بشكل كامل في المسألة العملاقة ثانية، وأن تخبره كل شيء عن برودنس والأيتام والمرأة التي أنقذت الأطفال من القناة والرجل الذي اندفع إلى النيران كي ينقذ الغرباء والسجناء المتضورين من

Twitter: @ketab_n

الجوع الذين تقاسموا آخر لقمات طعامهم مع سجناء آخرين جائعين والمبشرين الذين سامحوا الزناة والممرضات اللواتي اعتنين بالمجانين والأشخاص الذين أحبوا الكلاب التي لا يستطيع أن يحبها أحد آخر، وهلمَّ جرًّا.

لكن لم تكن هناك حاجة للدخول في التفاصيل. فهمَ على الفور.

قال: «شغلتني هذه الأسئلة نفسها».

قالت: «أعرف أنك فكرت بها. لكنني تساءلتُ دوماً إن خطرت أسئلة كهذه لداروين؟».

«نعم»، قال السيد والاس. ثم توقف وفكّر. «لكنني لم أعرف أبداً ما استنتجه داروين حول هذه المسألة، كي أكون صادقاً. كان حريصاً جداً بألا يطلق إعلانات أبداً عن أي شيء حتى يكون متأكداً بشكل كامل، على النقيض مني».

وافقت ألما: «على النقيض منك، لكن ليس مني».

«كلا، ليس على النقيض منك».

سألته ألما: «هل كنت تحب السيد داروين. تساءلتُ دوماً عن هذا».

قال والاس بارتياح: «آه، نعم، تماماً. كان من أفضل الرجال. أعتقد أنه أعظم رجل في زمننا، أو معظم الأزمنة. مع من نستطيع مقارنته؟ كان هناك أرسطو. كان هناك كوبرنيكوس. كان هناك غاليلة. كان هناك نيوتن، ثم كان هناك داروين».

سألت ألما: «إذاً لم تستأ منه أبداً».

«بحق السماء كلا، يا آنسة ويتاكر. في العلم يجب أن يُمنح الثناء كله للمكتشف الأول، وهكذا فإن نظرية الانتخاب الطبيعي كانت دوماً له.

فضلاً عن ذلك، كان وحده يستحق العظمة من أجلها. أعتقد أنه كان فيرجيل جيلنا، أخذنا في رحلة عبر الفردوس والجحيم والمطهر. كان دليلنا الإلهي».

«ظننتُ هذا دوماً أيضاً».

«أقول لك يا آنسة ويتاكر إنه لا تؤلمني معرفة أنك تغلبت عليَّ في نظرية الانتخاب الطبيعي، لكنني سأكون مستاء جداً لو أنني عرفتُ أنكِ هزمت داروين. أنا معجب به كثيراً، وأود أن أراه يحتفظ بعرشه».

قالت ألما بهدوء: «إن عرشه غير معرض للخطر مني أيها الشاب. لا حاجة للذعر».

ضحك والاس: «استمتعتُ كثيراً يا آنسة ويتاكر بمناداتك لي بالشاب. لشخص في العقد السابع من عمره، هذا إطراء تام».

«من سيدة في العقد التاسع من عمرها. هذه هي الحقيقة فحسب».

بدا بالفعل شاباً بالنسبة لها. كان هذا مثيراً. شعرت أنها أمضت الأجزاء الأفضل من حياتها في رفقة العجائز. كان هناك كل تلك الوجبات المثيرة أثناء طفولتها، جالسة إلى الطاولة مع العرض الذي لا ينتهي من العقول المتألقة المعمرة. كان هناك الأعوام في وايت إيكر مع والدها، يناقشان علم النبات والتجارة في وقت متأخر من الليل. كان هناك وقتها في تاهيتي مع القس فرانسيس ويليس الجيد والظريف. وكانت هناك السنوات الأربع السعيدة في أمستردام مع الخال ديز قبل موته. لكنها الآن كهلة، ولم يعد هناك المزيد من العجائز. تجلس هنا الآن مع صاحب لحية شائبة منحن في الستين من عمره وكانت هي السلحفاة الكهلة في الغرفة.

«هل تعرفين ما أفكر به يا آنسة ويتاكر؟ بخصوص سؤالك عن أصول

Twitter: @ketab_n

الإيثار والتضحية بالنفس لدى بني البشر؟ أعتقد أن النشوء يشرح تقريباً كل شيء عنا، وأعتقد أنه يشرح بشكل تام كل شيء عن بقية العالم الطبيعي. لكنني لا أعتقد أن النشوء وحده يستطيع أن يفسر وعينا البشري الفريد. ليست هناك حاجة نشوئية لنا كي نملك ذكاء فكرياً وعاطفياً. ما من حاجة عملية للأذهان التي نملكها. لا نحتاج إلى ذهن يستطيع لعب الشطرنج يا آنسة ويتاكر. ولا نحتاج إلى ذهن يستطيع أن يبتكر الأديان أو يتجادل حول أصولنا. ولا نحتاج إلى ذهن يجعلنا نبكي في الأوبرا، من أجل تلك المسألة، ولا إلى العلم أو الفن. ولا نحتاج إلى الأخلاق والفضيلة والكرامة أو التضحية. ولا نحتاج إلى العاطفة أو الحب، ليس إلى الدرجة التي نشعر بهما فيها. إن حساسياتنا يمكن أن تكون عائقاً، إذ يمكن أن تجعلنا نعاني من الألم. وهكذا لا أعتقد أن سيرورة الانتخاب الطبيعي أعطتنا هذه الأذهان، ولكنني أؤمن بأنها منحتنا هذه الأجساد، ومعظم مقدراتنا. هل تعرفين لماذا أعتقد أننا نملك هذه الأذهان الفائقة للعادة؟».

قالت ألما بهدوء: «أعرف يا سيد والاس. تذكّر أنني قرأت كمية كبيرة من مؤلفاتك».

«سأخبرك لماذا نملك هذه الأذهان والأرواح الفائقة للعادة، يا آنسة ويتاكر»، تابع كلامه، كأنه لم يسمعها. «نملكها لأن هناك ذكاء أعلى في الكون، يتمنى الاتحاد معنا. إن الذكاء الأعلى يتوق إلى أن يُعرف. ينادينا. يقربنا من لغزه، ويمنحنا هذه الأذهان المتميزة، من أجل أن نحاول الوصول إليه. يريدنا أن نعثر عليه. يريد الاتحاد معنا، أكثر من أي شيء آخر».

قالت ألما وهي تربت على يده ثانية: «أعرف أن هذا ما تفكر به، وأعتقد أنها فكرة مبتكرة، يا سيد والاس».

Twitter: @ketab_n

«هل تعتقدين أنني على صواب؟».

قالت ألما: «لا أستطيع القول، لكنها نظرية جميلة. تقترب من الجواب على سؤالي كأي شيء سبق واقترب. لكنك ما تزال تجيب عن لغز، ولا أستطيع القول إن كنت سأدعو هذا علماً، رغم أنني يمكن أن أدعوه شعراً. لسوء الحظ، مثل صديقك داروين، ما زلت أسعى وراء الأجوبة الأكثر قوة للعلم التجريبي. إنها طبيعتي، كما أخشى. لكن السيد لايل سيوافق معك. قال إنه لا شيء سوى إله يمكن أن يخلق ذهناً بشرياً. كان زوجي سيحب فكرتك. آمن أمبروس بأمور كهذه. تاق إلى الاتحاد الذي ذكرته، مع الذكاء الأعلى. مات وهو يبحث عن ذلك الاتحاد».

صمتا ثانية.

بعد وهلة، ابتسمت ألما: «تساءلت على الدوام ما رأي داروين بفكرتك، عن كون أذهاننا مستثناة من قوانين النشوء، وعن الذكاء الأعلى الذي يقود الكون».

ابتسم والاس أيضاً: «لم يوافق».

«يجب أن أفكر أنه لم يفعل».

«آه، لم يحبّ هذا مطلقاً يا آنسة ويتاكر. كان يشعر بالرعب كلما طرحتُ الموضوع. لم يستطع التصديق - بعد كل معاركنا معاً - أنني أعاود إدخال الله في المحادثة».

«وماذا قلت؟».

«حاولتُ أن أشرح له أنني لم أذكر كلمة الله أبداً. كان هو من استخدم الكلمة. كان الشيء الوحيد الذي قلته إن ذكاء أعلى يوجد في الكون، وإنه يتوق إلى التوحد معنا. أنا أؤمن بعالم الأرواح، يا آنسة

Twitter: @ketab_n

ويتاكر، لكنني لن أدخل كلمة الله أبداً في نقاش علمي. في النهاية، أنا ملحد صارم».

«بالطبع أنت هكذا يا عزيزي»، قالت، رابتة على يده ثانية. كانت تستمتع كثيراً بالربت على يده. كانت تستمتع بكل لحظة من هذا.

قال والاس: «هل تظنين أنني ساذج؟».

صححت ألما: «أعتقد أنك مدهش. أعتقد أنك الشخص الأكثر إدهاشاً الذي سبق أن التقيتُ به، والذي ما يزال حياً. تجعلني أشعر بأنني سعيدة من أنني ما أزال هنا، كي ألتقي بشخص مثلك».

«حسناً، أنت لست وحيدة في العالم يا آنسة ويتاكر، حتى ولو عشت أكثر من الكل. أعتقد أننا محاطون بحشد من الأصدقاء غير المرئيين والمحبوبين، الذين رحلوا الآن، والذين يمارسون تأثيراً في حياتنا، والذين لا يتخلون عنا أبداً».

«هذه فكرة جميلة»، قالت ألما، وربتت على يده مرة أخرى.

«هل سبق وحضرت جلسة استحضار للأرواح، يا آنسة ويتاكر؟ أستطيع أن آخذك إلى واحدة. يمكن أن تتحدثي مع زوجك عبر الفجوة».

فكرت ألما بالعرض. تذكرت الليلة في حجرة التجليد مع أمبروس، حين تحدثا مع بعضهما عبر راحتي كفيهما: تجربتها الوحيدة مع ما هو صوفي وما يفوق الوصف. ما تزال تجهل ماذا كان ذلك، في الحقيقة. ما تزال غير متأكدة بشكل كامل أنها تخيلته كله، في نوبة من الحب والرغبة. بدلاً من ذلك، تساءلت أحياناً إن كان أمبروس فعلاً كائناً سحرياً، ربما كان تحولاً نشوئياً ما، ولد في الظروف الخطأ، أو في

Twitter: @ketab_n

اللحظة الخطأ من التاريخ. ربما لن يكون هناك أبداً شخص آخر مثله. ربما كان تجربة فاشلة.

مهما كان، فإن هذا لم ينته جيداً.

أجابت: «يجب أن أقول يا سيد والاس إنك في غاية اللطف لدعوتي إلى جلسة استحضار الأرواح، لكنني أعتقد أنني يجب ألا أفعل هذا. لقد قمتُ بتجربة صغيرة في التواصل الصامت، وأعرف أنه إذا كان الناس يستطيعون سماع بعضهم عبر الفجوة فحسب فإن هذا لا يعني أنهم يستطيعون أن يفهموا بعضهم بعضاً بالضرورة».

ضحك: «حسناً، إذا حدث وغيّرت ذهنك، أرسلي لي كلمة من فضلك».

«تأكد من أنني سأفعل. لكن من المرجح أكثر يا سيد والاس أنك سترسل إلي كلمة بعد أن أموت أثناء إحدى جلساتك الروحية! ولن يكون عليك الانتظار طويلاً من أجل تلك الفرصة، لأنني سأرحل حالاً».

«لن ترحلي أبداً. فالروح تعيش داخل الجسم يا آنسة ويتاكر. الموت يفصل بين الاثنين فحسب».

«شكراً لك يا سيد والاس. إنك تتفوه بألطف الكلمات، لكنك لا تحتاج إلى أن تريحني. أنا كبيرة جداً في السن بحيث لن أخاف من التغيرات الكبيرة في الحياة».

«هل تعلمين يا آنسة ويتاكر، ها أنذا أشرح كل نظرياتي، لكنني لم أتوقف كي أسألك، أنت الحكيمة، ماذا تعتقدين».

«ما أؤمن به ربما ليس مثيراً كما تؤمن به».

«مع ذلك أحب سماعه».

Twitter: @ketab_n

تنهدت ألما. كان هذا سؤالاً مهماً. بماذا كانت تؤمن؟

بدأت: «أؤمن أننا جميعاً عابرون». فكرت للحظة ثم تابعت: «أعتقد أننا نصف عميان ومليئون بالأخطاء. أعتقد أننا لا نفهم إلا القليل جداً، وما نفهمه معظمه خطأ. أعتقد أن الحياة لا يمكن البقاء فيها، هذا واضح، لكن إذا كان المرء محظوظاً يمكن أن تستمر الحياة لفترة طويلة. وإذا كان المرء محظوظاً وعنيداً يمكن أحياناً أن يستمتع بالحياة».

سألها والاس: «هل تؤمنين بالآخرة؟».

ربتت على يده مرة أخرى. «آه يا سيد والاس، أحاول ألا أقول أشياء تضايق الناس».

ضحك ثانية: «لستُ حساساً كما تظنين، يا آنسة ويتاكر. يمكنك أن تخبريني عما تؤمنين به».

«حسناً، إذا كان يجب أن تعرف، أعتقد أن معظم البشر هشون تماماً. أعتقد أنها كانت ضربة مقيتة لرأي الإنسان بنفسه حين أعلن غاليلة أننا لا نسكن في مركز الكون، كما كانت ضربة للعالم حين أعلن داروين أننا لم نُخلق في لحظة إعجازية واحدة. أعتقد أن هذه أشياء من الصعب على معظم الناس سماعها. أعتقد أنها تجعل الناس يشعرون بأنهم غير مهمين. بعد قولي لهذا، أتساءل، يا سيد والاس، إن كان توقك لعالم الروح أو الآخرة هو فقط إشارة إلى بحث إنساني مستمر للشعور... بالأهمية؟ سامحني، لا أقصد إهانتك. إن الرجل الذي أحببته كثيراً كانت لديه هذه الحاجة مثلك، هذا البحث نفسه، للتوحد مع قدرة غامضة ما، لتجاوز جسده وهذا العالم، وللبقاء مهماً في مملكة أفضل. اكتشفت أنه شخص وحيد يا سيد والاس. جميل، لكنه وحيد. لا أعرف إن كنت وحيداً، لكن هذا يجعلني أتساءل».

Twitter: @ketab_n

لم يجب على هذا.

بعد لحظة، سأل فحسب: «ألا تمتلكين هذه الحاجة، يا آنسة ويتاكر؟ أن تشعري بالأهمية؟».

«سأخبرك شيئاً يا سيد والاس. أعتقد أنني كنت المرأة الأكثر حظاً التي سبق أن عاشت. تحطم قلبي، بالتأكيد، ولم تتحقق معظم أمنياتي. خاب أملي بسلوكي، وخيب أملي آخرون. عشت تقريباً أكثر من كل من أحببتهم. لم يبق لي في هذه الحياة سوى شقيقة واحدة، لم أرها منذ ثلاثين سنة، ولم أكن على علاقة حميمة معها معظم حياتي. لم تكن لدي وظيفة مهمة. كانت لدي فكرة أصيلة واحدة في حياتي، وصادف أنها فكرة مهمة، يمكن أن تمنحني الفرصة كي أصبح معروفة، لكنني ترددت في تقديمها، وهكذا خسرت فرصتي. ليس لدي زوج ولا ورثة. كانت لدي ثروة لكنني منحْتُها. بصري يهجرني، ورئتاي وساقاي تسبب لي متاعب كثيرة. لا أعتقد أنني سأعيش كي أشاهد ربيعاً آخر. سأموت في الجهة المقابلة من المحيط للجهة التي ولدتُ فيها، وسأدفن هنا، بعيداً عن والدي وعن أختي. أكيد أنك تسأل نفسك الآن لماذا هذه المرأة غير المحظوظة على نحو بائس تدعو نفسها محظوظة؟».

لم يقل أي شيء. كان لطيفاً جداً بحيث لم يجب على سؤال كهذا.

«لا تقلق يا سيد والاس. أنا لا أمزح معك. أعتقد حقاً أنني محظوظة. أنا محظوظة لأنني تمكنت من أن أمضي حياتي في دراسة العالم. هكذا، لم أشعر أبداً بأنني غير مهمة. نعم، هذه الحياة لغز، وهي غالباً امتحان، لكن إذا استطاع المرء أن يعثر على بعض الحقائق داخلها، يجب أن يفعل هذا دوماً ذلك أن المعرفة هي أثمن السلع».

وحين لم يجب واصلت ألما.

Twitter: @ketab_n

«لم أشعر أبداً بالحاجة لابتكار عالم وراء هذا العالم، ذلك أن هذا العالم بدا على الدوام ضخماً وجميلاً وكافياً. وتساءلتُ لماذا ليس ضخماً وجميلاً وكافياً للآخرين، لماذا يجب أن يحلموا بمجالات جديد ومدهشة، أو يتوقوا كي يعيشوا في مكان آخر، خارج هذه الأرض... لكن لا دخل لي بهذا. كلنا مختلفون، كما أفترض. كل ما أردته هو أن أعرف هذا العالم. أستطيع القول الآن فيما أصل إلى نهاية حياتي إنني أعرف عن هذا العالم أكثر بقليل مما كنت أعرفه حين وصلت. فضلاً عن ذلك، إن قطعتي القليلة من المعرفة أضيفت إلى المعرفة المتراكمة للتاريخ، أضيفت إلى المكتبة الكبيرة. وهذا ليس عملاً قليلاً، يا سيد. إن أي شخص يستطيع أن يقول شيئاً كهذا عاش حياة محظوظة».

ربت هو على يدها الآن.

قال: «لقد عبّرْتِ بشكل جيد جداً يا آنسة ويتاكر».

قالت: «بالفعل يا سيد والاس».

* * *

انتهت محادثتهما. كان كلٌّ منهما مستغرقاً في أفكاره ومتعباً. أعادت ألما مخطوطها إلى حقيبة أمبروس، أغلقت الصندوق تحت الأريكة وأغلقت باب مكتبها. لن تري المخطوط مرة ثانية أبداً لأي شخص آخر. ساعدها والاس في نزول الدرج. في الخارج كان الجو مظلماً وضبابياً. سارا عائدين معاً إلى مسكن فان ديفندر، على بعد بابين في الأسفل. جعلته يدخل، ووقفا في البهو وودّعا بعضهما. سيغادر والاس في صباح اليوم التالي، ولن يشاهدا بعضهما بعد ذلك.

قالت له: «أنا سعيدة جداً لمجيئك».

قال: «أنا سعيد جداً أنك وجهت لي الدعوة».

Twitter: @ketab_n

مدت يدها ولمست وجهه. سمح لها. استقصتْ ملامحه الدافئة. كان له وجه لطيف، استطاعت أن تشعر به.

بعد ذلك، صعد إلى الأعلى، إلى غرفته، لكن ألما انتظرت في البهو. لم ترغب بالذهاب إلى النوم. حين سمعت بابه يغلق، تناولت عصاها وشالها وعادت إلى الخارج. كان الجو مظلماً، لكن هذا لم يعد يهمها؛ فبالكاد تستطيع أن ترى حتى في النهار، وكانت تعرف محيطها أيضاً عن طريق اللمس. عثرت على الباب الخلفي إلى الهورتس، البوابة الخاصة التي كان يستخدمها آل ديفندر لثلاثة قرون الآن، ودخلت إلى الحدائق.

كانت تنوي العودة إلى كهف الطحالب وتتأمل المسائل لوهلة، لكن نَفَسَها ضاق فجأة فاستراحت قليلاً، متكئة على أقرب كرسي. يا إلهي، كانت عجوزاً! كيف حدث هذا بسرعة! كانت ممتنة للشجرة التي إلى جانبها. كانت ممتنة للحدائق في جمالها المظلم. كانت ممتنة لبقعة هادئة تستطيع أن تستريح فيها. تذكرت ما اعتادت أن تقوله المسكينة الصغيرة ريتا سنو: «شكراً للسماء أنه لدينا أرض، وإلا أين سنجلس؟» شعرت ألما بالدوار قليلاً. أية ليلة كانت هذه.

قال: كان هناك ثلاثتنا.

بالفعل كان هناك ثلاثتهم، والآن يوجد اثنان فقط. وفي الحال سيكون هناك واحد فحسب. ثم سيرحل والاس أيضاً. لكن الآن على الأقل كان واعياً لها. كانت معروفة. ضغطت ألما وجهها على الشجرة، وتعجبت من كل شيء، من سرعة الأشياء، والتقاطعات المدهشة.

ليس بوسع المرء أن يتعجب في ذهول ودهشة إلى الأبد، ووجدت ألما نفسها بعد وهلة تتساءل أية شجرة كانت هذه، بالضبط. كانت تعرف

Twitter: @ketab_n

جميع الأشجار في الهورتس، لكنها لم تعرف أين كانت تقف، وهكذا لم تتذكر. كانت رائحتها مألوفة. مسدت لحاءها، ثم عرفت، بالطبع، أنها شجرة الجوز ذات اللحاء الذي كالأصداف، الوحيدة من نوعها في أمستردام. الجوزيات. عائلة الجوز. جاءت هذه العيّنة الخاصة من أميركا قبل أكثر من مائة سنة، ربما من غرب بنسلفانيا. من الصعب ازدراعها، بسبب جذرها الرئيسي الطويل. لا بد أنها جاءت كشتلة صغيرة. كانت تنمو في الأراضي المنخفضة. إنها مولعة بالطين والغرين، وصديقة لطيور السمّن والثعالب، ومقاومة للجليد، وعرضة للتعفن. كان الجو بارداً. كانت عجوزاً.

كانت خيوط الأدلة تتقاطع لدى ألما، خيوط من جميع الجهات، تدفعها نحو خاتمتها النهائية الضخمة: حالاً، حالاً وبسرعة شديدة، سيحين وقتها. كانت تعرف أن هذا صحيح. ربما ليس الليلة، لكن في وقت ما في الحال. لم تكن خائفة من الموت، نظرياً. لم تكن تملك سوى الاحترام والتقدير لعبقرية الموت التي صاغت هذا العالم أكثر من أية قوة أخرى. بعد أن قالت هذا، لم تكن ترغب أن تموت في هذه اللحظة. كانت تتوق إلى رؤية ما سيحدث تالياً، كما دوماً. كان الأمر هو مقاومة الغوص طويلاً قدر الإمكان.

أمسكت بالشجرة الكبيرة كما لو أنها حصان. ضغطت خدها على جذعها الصامت الحي.

قالت: «أنا وأنت غريبتان ونائيتان، أليس كذلك؟».

في الحدائق المظلمة، وسط ليل المدينة الهادئ، لم تجب الشجرة.

لكنها سَنَدَتْها لمدة أطول بقليل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفهرس

الجزء الأول: شجرة علاج الحمى ١١

الفصل الأول ١٣

الفصل الثاني ٢٦

الفصل الثالث ٤٣

الفصل الرابع ٥٥

الجزء الثاني: خوخة وايت إيكر ٦٧

الفصل الخامس ٦٩

الفصل السادس ٩٥

الفصل السابع ١١٨

الفصل الثامن ١٤٥

الفصل التاسع ١٥٧

الفصل العاشر ١٧٦

الفصل الحادي عشر ١٩٢

الجزء الثالث: الرسائل المزعجة ٢٢٧

الفصل الثاني عشر ٢٢٩

الفصل الثالث عشر ٢٥٢

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر ٢٦٦
الفصل الخامس عشر ٣٠٥
الفصل السادس عشر ٣٤٢
الفصل السابع عشر ٣٦٣
الفصل الثامن عشر ٣٩٢
الفصل التاسع عشر ٤٠٩
الفصل العشرون ٤٢٠
الجزء الرابع: أهمية البعثات ٤٤٣
الفصل الواحد والعشرون ٤٤٥
الفصل الثاني والعشرون ٤٦٢
الفصل الثالث والعشرون ٤٩٢
الفصل الرابع والعشرون ٥٢٢
الفصل الخامس والعشرون ٥٤٠
الفصل السادس والعشرون ٥٨٥
الجزء الخامس: القيّمة على الطحالب ٥٩٣
الفصل السابع والعشرون ٥٩٥
الفصل الثامن والعشرون ٦١١
الفصل التاسع والعشرون ٦٢٦
الفصل الثلاثون ٦٤٠
الفصل الواحد والثلاثون ٦٥٨

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كانت خيوط الأدلة تتقاطع لدى ألما، خيوط من جميع الجهات، تدفعها نحو خاتمتها النهائية الضخمة: حالاً، حالاً وبسرعة شديدة، سيحين وقتها. كانت تعرف أن هذا صحيح. ربما ليس الليلة، لكن في وقت ما في الحال. لم تكن خائفة من الموت، نظرياً. لم تكن تملك سوى الاحترام والتقدير لعبقرية الموت التي صاغت هذا العالم أكثر من أية قوة أخرى. بعد أن قالت هذا، لم تكن ترغب أن تموت في هذه اللحظة. كانت تتوق إلى رؤية ما سيحدث تالياً، كما دوماً. كان الأمر هو مقاومة الغوص طويلاً قدر الإمكان.

أمسكت بالشجرة الكبيرة كما لو أنها حصان. ضغطت خدها على جذعها الصامت الحي.

قالت: «أنا وأنت غريبتان ونائيتان، أليس كذلك؟».

في الحدائق المظلمة، وسط ليل المدينة الهادئ، لم تجب الشجرة.

لكنها سَنَدَتْها لمدة أطول بقليل.

طوى
للثقافة والنشر والإعلام